

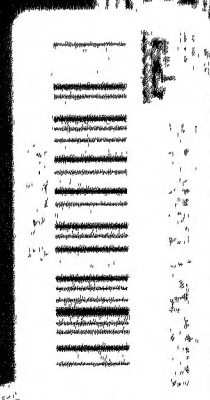
# شرح البلغة



ابن أبي أحمد

المجلد التاسع

كتاب الجيوش











# شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء السابع عشر

دار الحديث

بيروت

حقوق الطبع محفوظة للناس

طبعة ثانية

١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(٤٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ مِمَّنْ أَسْتَظْهِرُ بِهِ عَلَى إِقَامَةِ الدِّينِ ، وَأَقْمَعُ بِهِ نَخْوَةَ الْأَثِمِ ،  
وَأَسُدُّ بِهِ لَهَاةَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ .

فَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَهَمَّكَ ، وَاخْلُطِ الشَّدَّةَ بِضَغْثٍ مِنَ اللَّيْنِ ؛ وَارْفُقْ مَا كَانَ  
الرَّفْقُ أَرْفَقَ ، وَاعْتَرِمْ بِالشَّدَّةِ حِينَ لَا تُغْنِي عَنْكَ إِلَّا الشَّدَّةُ .

\*\*\*

وَاخْفِضْ لِلرَّعِيَّةِ جَنَاحَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ؛  
وَأَسِرْ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ ، وَالْإِشَارَةِ وَالتَّحِيَّةِ ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْمُظْلَمُ  
فِي حَيْفِكَ ، وَلَا يَتَيْسَ الضُّعْفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ . والسلام .

\*\*\*

الشُّرْحُ :

قد أخذ الشاعر معنى قوله : « وَأَسِرْ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظَرَةِ » ، فقال :

(١) : « وبه نستعين » ، د : « وبه نثقى » .

اقسم اللحظَ بيننا إنَّ في اللّحظِ لَعَنوانُ ما تُجَنُّ الصدورُ  
إِنَّمَا الْبِرُّ رَوْضَةٌ فَإِذَا مَا كَانَ بَشَرُهُ فَرَوْضَةٌ وَغَدِيرُهُ  
قوله : « وآس بينهم في اللحظة » ، أى اجعلهم أسوة ، وروى : « وساو بينهم في  
اللحظة » ؛ والمعنى واحد .

واستظهر به : اجعله كالظهر .  
والنخوة : الكبرياء : والأثيم : المخطئ المذنب .  
وقوله : « وأسدّ به كُهاة الثغر » استعارة جسنة .  
والضغث في الأصل : قبضة حشيش مختلط بأبسها بشيء من الرطب ، ومنه « أضغاث  
الأحلام » للرؤيا المختلطة التي لا يصح تأويلها ، فاستعار اللفظة ها هنا ؛ والمراد : امزج<sup>(١)</sup>  
الشدة بشيء من اللين<sup>(٢)</sup> فاجعلهما كالضغث ، وقال تعالى : ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا<sup>(٣)</sup> ۝ ٢٠ ۝ ٢١ ۝ ٢٢ ۝ ٢٣ ۝ ٢٤ ۝ ٢٥ ۝ ٢٦ ۝ ٢٧ ۝ ٢٨ ۝ ٢٩ ۝ ٣٠ ۝ ٣١ ۝ ٣٢ ۝ ٣٣ ۝ ٣٤ ۝ ٣٥ ۝ ٣٦ ۝ ٣٧ ۝ ٣٨ ۝ ٣٩ ۝ ٤٠ ۝ ٤١ ۝ ٤٢ ۝ ٤٣ ۝ ٤٤ ۝ ٤٥ ۝ ٤٦ ۝ ٤٧ ۝ ٤٨ ۝ ٤٩ ۝ ٥٠ ۝ ٥١ ۝ ٥٢ ۝ ٥٣ ۝ ٥٤ ۝ ٥٥ ۝ ٥٦ ۝ ٥٧ ۝ ٥٨ ۝ ٥٩ ۝ ٦٠ ۝ ٦١ ۝ ٦٢ ۝ ٦٣ ۝ ٦٤ ۝ ٦٥ ۝ ٦٦ ۝ ٦٧ ۝ ٦٨ ۝ ٦٩ ۝ ٧٠ ۝ ٧١ ۝ ٧٢ ۝ ٧٣ ۝ ٧٤ ۝ ٧٥ ۝ ٧٦ ۝ ٧٧ ۝ ٧٨ ۝ ٧٩ ۝ ٨٠ ۝ ٨١ ۝ ٨٢ ۝ ٨٣ ۝ ٨٤ ۝ ٨٥ ۝ ٨٦ ۝ ٨٧ ۝ ٨٨ ۝ ٨٩ ۝ ٩٠ ۝ ٩١ ۝ ٩٢ ۝ ٩٣ ۝ ٩٤ ۝ ٩٥ ۝ ٩٦ ۝ ٩٧ ۝ ٩٨ ۝ ٩٩ ۝ ١٠٠ ۝ ﴾ .  
قوله : « فاعزم بالشدة » أى إذا جدّ بك الحدّ فدع اللين ، فإنّ في حال الشدة  
لا تُفنى إلا الشدة ، قال الفند الزمانيّ :

فلما صرّح الشرُّ فأمسى وهو عُريان<sup>(٣)</sup>  
ولم يبقَ سوى العدوا نَدَانَهُمْ كَمَا دَانُوا  
قوله : « حتى لا يطمع العطاء في حيفك » ، أى حتّى لا يطمع العطاء في أن تمالئهم على  
حيف الضمفاء ، وقد تقدّم مثل هذا فيما سبق .

(١) د : « مزج » . ( ٢ - ٢ ) ساقط من د .

(٣) ديوان الحماسة ١ : ٢٣ - بشرح التبريزي ، من شعره في حرب البسوس .

(٤٧)

الأصل :

ومن وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه  
ابن ملجم لعنه الله :

أوصيكم بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بفتكم ، ولا تأسفا على شيء منها  
زوى عنكم ، وقولا بالحق ، وأعمالا للأجر ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم عوناً .  
أوصيكم بجميع ولدي وأهلي ومن بلمه كتابي بتقوى الله ونظم أمركم ،  
وصلاح ذات بينكم ، فإنني سمعت جدكم كما صلى الله عليه وآله يقول : صلاح  
ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام .

الله الله في الأيتام ، فلا تبعوا أفواههم ، ولا يضيعوا بحضرتكم .  
والله الله في جيرانكم ، فإنهم وصية نبيكم ، ما زال يوصي بهم حتى ظننا  
أنه سيورثهم .

والله الله في القرآن ، لا يسميكم بالمعمل به غيركم .  
والله الله في الصلاة ، فإنها عمود دينكم .  
والله الله في بيت ربكم ، لا تخلوه ما بقيتم ، فإنه إن ترك لم تنظروا .  
والله الله في الجهاد بأموالكم وأنفسكم والسيئاتكم<sup>(١)</sup> في سبيل الله .  
وعليكم بالتواصل والتبادل ؛ وإياكم والتدابير والتقاطع ، لا تتزكوا

(١) ساقط من ب .

— ٦ —

الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ فَيُؤَلِّى عَلَيْكُمْ أَشْرَارُكُمْ ، ثُمَّ تَدْعُونَ  
فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ .

\*\*\*

ثم قال :

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، لَا الْفَيْسَ لَكُمْ تَخْوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضًا ، تَقُولُونَ :  
قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ! أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بَنِي إِلَّا قَاتِلِي ، انْظُرُوا  
إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَةٍ ، وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ ؛ فَإِنَّ  
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : إِيَّاكُمْ وَالْمِثْلَةَ وَلَوْ بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ .

\*\*\*

### الْبَيْتُ :

روى : « واعملوا للآخرة » ، وروى : « فلا تغيروا أفواهكم » ؛ يقول : لا تطلب الدنيا  
وإن طلبتكم ؛ فإذا كان مَنْ تطلبه الدنيا منهياً عن طلبها فن لا تطلبه يكون منهياً عن  
طلبها بالطريق الأولى .

ثم قال : « ولا تأسها على شيء منها زوى عنكم » ، أى قبض ؛ قال رسول الله  
صلى الله عليه وآله : « زُوِيَ لِي الدُّنْيَا فَأَرَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا ، وَسَيِلْغُ مُلْكُ أُمَّتِي  
مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا » .

وروى : « ولا تأسها » ؛ وكلاهما بمعنى واحد ، أى لا تحزنا ، وهذا من قوله تعالى :  
﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ﴾<sup>(١)</sup> .

(١) سورة الحديد ٢٣ .

قوله : «صلاح ذات البين» أخذه هذه اللفظة عبد الملك بن مروان فقال لبنيه وقد جمعوا عنده يوم موته :

انفوا الضغائن بينكم وعليكم  
بصلاح ذات البين طول حياتكم  
إن القِداح إذا اجتمعن فرامها  
عزت فلم تكسر ، وإن هي بددت  
عند الغيب وفي حضور الشهيد  
إن مدّ في عمرى وإن لم يمدد  
بالكسر ذو بطش شديد أيد  
فالهن والتكسير للعتبد  
وذات هاهنا زئدة مقحمة .

قوله : « فلا تُنبّوا أفواههم » ، أى لا تجيعوهم بأن تطعموهم غيباً ، ومن روى : « فلا تغيروا أفواههم » فذاك لأن الجائع يتغير فمه ، قال عليه السلام : « تحلّفوا فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك » .

قال : « ولا يضيعوا محضرتكم » أى لا تضيعوهم ، فالنهي في الظاهر للأيتام وفي المعنى للأوصياء والأولياء ، والظاهر أنه لا يعنى الأيتام الذين لهم مال تحت أيدى أوصيائهم ؛ لأن أولئك الأوصياء محرّم عليهم أن يضيعوا من أموال اليتامى إلا القدر النزر جداً عند الضرورة ثم يقضونه مع التمكن ، ومن هذه حاله لا يحسن أن يقال له : لا تغيروا أفواه أيتامكم ، وإنما الأظهر أنه يعنى الذين مات آباؤهم وهم فقراء يتعيّن مواساتهم ويقبح القعود عنهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ <sup>(١)</sup> ، واليتيم في الناس من قبل الأب ، وفي البهائم من قبل الأم ؛ لأن الآباء من البهائم لا عناية لهم بالأولاد ، بل العناية للأم لأنها المرضعة المشفقة ؛ وأمّا الناس فإن الأب هو الكافل القيم بنفقة الولد ؛ فإذا مات وصل الضرر إليه لفقد كافله والأم بمزل عن ذلك . وجمع يتيم على أيتام ، كما قالوا : شريف وأشراف . وحكى أبو عليّ في التكملة : « كىء وأكء » ، ولا يسمى الصبيّ يتيماً إلا إذا

كان دون البلوغ وإذا بلغ زال اسمُ اليتيم<sup>(١)</sup> عنه . واليتامى أحد الأصناف الذين عَيَّنوا في الخمس بنص الكتاب العزيز .

\*\*\*

### [ فصل في الآثار الواردة في حقوق الجار ]

ثم أوصى بالجيران ، واللفظ الذي ذكره عليه السلام قد ورد مرهفوا في رواية عبد الله ابن عمر لما ذبح شاة ، فقال : أهديتم لجارنا اليهودي ؟ فأني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » ، وفي الحديث أنه صلى الله عليه وآله قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ جَارَهُ » ، وعنه عليه السلام : « جارُ السوءِ في دارِ المقامةِ قاصمةُ الظهر » ، وعنه عليه السلام : « مِنْ جَهْدِ الْبَلَاءِ جَارُ سُوءٍ مَعَكَ فِي دَارِ مُقَامَةٍ إِنْ رَأَى حَسَنَةً دَفَنَهَا ، وَإِنْ رَأَى سَيِّئَةً أَذَاعَهَا وَأَنْشَاهَا .  
وَمَنْ أَدْعَيْتَهُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ مَالٍ يَكُونُ عَلَيَّ فِتْنَةً ، وَمِنْ وَلَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ كَلًّا ، وَمِنْ حَلِيلَةٍ تَقْرُبُ الشَّيْبَ ، وَمَنْ جَارُ تَرَانِي عَيْنَاهُ وَتَرَعَانِي أُذُنَاهُ ، إِنْ رَأَى خَيْرًا دَفَنَهُ ، وَإِنْ سَمِعَ شَرًّا طَارَ بِهِ .

ابن مسعود يرفعه : « والذي نفسى بيده لا يُسَلِّمُ العبدُ حتى يُسَلِّمَ قلبه ولسانه ، ويأمن جاره بوائقه » ، قالوا : ما بوائقه ؟ قال : غشمه وظلمه .

لُقْمَانُ : يَا بَنِيَّ ، سَمِلْتُ الْحَجَارَةَ وَالْحَدِيدَ فَلَمْ أَرْ شَيْئًا أَثْقَلَ مِنْ جَارِ السَّوِّ .  
وَأَنْشَدُوا :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي دَارًا بِرُخْصٍ كَرَاهَةً بَعْضِ جِيرَتِهَا تَبَاعُ  
وَقَالَ الْأَصْمَعِيُّ : جاور أهل الشام الروم فأخذوا عنهم خصلتين : اللؤم وقلة الغيرة ،

(١) ١ : « اليتيم » .



وجاور أهل البصرة ألخزَر، فأخذوا عنهم خصلتين : الزنا وقلة الوفاء ، وجاور أهل الكوفة السواد ، فأخذوا عنهم خصلتين : السخاء والغيرة .  
وكان يقال : مَنْ تناول على جاريه ، حُرِمَ بركة داره .  
وكان يقال : مَنْ آذى جاره ورثه الله داره .

باع أبو الجهم العدويّ داره ، وكان في جوار سعيد بن العاص بمائة ألف درهم ، فلما أحضرها المشتري قال له : هذا ثمن الدار ، فأعطني ثمن الجوار ، قال : أيّ جوار ؟ قال : جوار سعيد بن العاص ، قال : وهل أشتري أحدًا جوارًا فطّ ! فقال : رُدّ عليّ داري ، وخذ مالك ، لا أدع جوار رجل ؛ إن قعدتُ سأل عنيّ ، وإن رآني رحّب بي ، وإن غيبت عنه حفظني ، وإن شهدت عنده قرّبتني ، وإن سألته قضى حاجتي ، وإن لم أسأله بدأني ، وإن نابتنني نائبة فرّج عني . فبلغ ذلك سعيدا فبعث إليه مائة ألف درهم ، وقال : هذا ثمن دارك ، ودارك لك .

الحسن : ليس حسنُ الجوار كفُّ الأذى ، ولكنَّ حسنَ الجوار الصبرُ على الأذى .

جاءت امرأة إلى الحسن فشكت إليه الخلة<sup>(١)</sup> ، وقالت : أنا جارتك ، قال : كم بيني وبينك ؟ قالت : سبع أدويّر ، فنظر الحسن فإذا تحت فراشه سبعة دراهم ، فأعطها إياها ، وقال : كدنا نَهْلِكَ .

وكان كعب بن مامة إذا جاوره رجل قام له بما يُصلحه ، وحماه ممّن يقصده ، وإن هلك له شيء أخلفه عليه ، وإن مات وداه لأهله ، فجاوره أبو دُوَاد الإياديّ ؛ فزاره على العادة ، فبالغ في إكرامه . وكانت العرب إذا حمدت جارا قالت : جار كجار أبي دُوَاد ، قال قيس بن زهير :

---

(١) الخلة : الحاجة .

أطوف ما أطوف ثم آوى إلى جاري كجاري أبي دؤاد<sup>(١)</sup>  
ثم تعلم منه أبو دؤاد، وكان يفعل لجاره فعل كعب به .

وقال مسكين الدارمي :

ما ضرَّ جاراً لي أجورُهُ      ألا يكونَ ليابه سِتْرُ<sup>(٢)</sup>  
أعنى إذا ما إذا جارتى خرجتُ      حتى يوارى جارتى الخدرُ  
نارى ونارُ الجار واحدةٌ      وإليه قبلى مُنزل القدر<sup>(٣)</sup>

استعرض أبو مسلم صاحب الدولة فرسا يحضيرا<sup>(٤)</sup> ، فقال لأصحابه : لماذا يصلح هذا ؟  
فذكروا سباق الخيل ، وصيّد الحمر والنعام ، واتباع الفارّ من الحرب ، فقال : لم تصنعوا  
شيئاً يصلح للفرار من الجار السوء .

سئل سليمان على بن خالد بن صفوان عن ابنه : محمد وسليمان - وكانا جاريه - فقال :  
كيف إحمادك جوارها ؟ فتمثل بقول يزيد بن مفرغ الحميري :

سقى الله داراً لي وأرضا تركتها      إلى جنب دارى معقل بن يسار  
أبو مالك جار لها وابن كمرئيد      فيالك جارى ذلقه وصغار !

وفي الحديث الرفوع أيضاً من رواية جابر : الجيران ثلاثة : فجار له حق ، وجار  
له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق ؛ فصاحب الحق الواحد جارٌ مشترك لا رحيم له ، فحقه

(١) المضاف والنسب ١ : ١٠٠ .

(٢) الأولان في أمالي المرتضى ١٣١ ، ٤٤ .

(٣) موضعه في أمالي المرتضى :

وَيَصْمُ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا      سمى وما بي غيره وقر

(٤) فرس محضير ، أى شديد الحضر ؛ وهو العدو .

حقّ الجوار ، وصاحب الحَقَيْن جَارٌ مُسْلِمٌ لَا رَحِمَ لَهُ ، وصاحب الثلاثة جَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ ،  
وَأَدْنَى حَقِّ الْجَوَارِ أَلَّا تُؤْذِيَ جَارَكَ بِقُتَارِ قِدْرِكَ ، إِلَّا أَنْ تَقْتَدِحَ لَهُ مِنْهَا » .  
قلت : تقتدح : تغتفر ، والمقدحة المغرفة .

وكان يقال : الجيران خمسة : الجار الضارّ السيّء الجوار ، والجار الدّمس الحسن  
الجوار ، والجار اليربوعيّ المنافق ، والجار البراقشيّ المتلونّ في أفعاله ، والجار الحسدليّ<sup>(١)</sup>  
الذي عينه تراك وقلبه يركاك .

وروى أبو هريرة ، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « اللهم إني أعوذ بك  
من جار السوء في دار المقامة ، فإنّ دار البادية تتحوّل » .

\*\*\*

قوله عليه السلام : « الله الله في القرآن » أمرها بالمسارعة إلى العمل به ، ونهاها  
أن يسبقهما غيرهما إلى ذلك ، ثم أمرها بالصلاة والحجّ .  
وشدّد الوصاة في الحجّ ، فقال : « فإنه إن تُرك لم تناظروا » أي يتمجّل الانتقام  
منكم .

فأما المثلة فنهي عنها ، أمر رسول الله صلى الله عليه وآله أن يمثّل بهتار بن الأسود  
لأنه روّع زينب حتّى أجهضت ، ثم نهى عن ذلك ، وقال : لا مثلة ، المثلة حرام .

---

(١) الحسدلي : منسوب إلى الحسدل ؛ وهو القراد .

(٤٨)

الأنسل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

فَإِنَّ الْبَغْيَ وَالزُّورَ يُوتَغَانِ الْمَرْءَ فِي دِينِهِ وَدُنْيَاهُ ، وَيُبْدِيَانِ حَلَلَهُ عِنْدَ مَنْ يَعِيبُهُ ،  
وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ غَيْرُ مُدْرِكٍ مَا قُضِيَ فَوَاتُهُ ، وَقَدْ رَامَ أَقْوَامٌ أَمْرًا بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فَتَأَلَّوْا  
عَلَى اللَّهِ فَأَكْذَبَهُمْ ، فَاحْذَرْ يَوْمًا يُغْتَبِطُ فِيهِ مَنْ أَحْمَدَ عَاقِبَةَ عَمَلِهِ ، وَيَنْدُمُ مَنْ  
أَمْسَكَ الشَّيْطَانَ مِنْ قِيَادِهِ فَلَمْ يُجَازِبْهُ ، وَقَدْ دَعَوْتَنَا إِلَى حُكْمِ الْقُرْآنِ وَلَسْتَ  
مِنْ أَهْلِهِ ، وَلَسْنَا بِإِيَّاكَ أَجِبْنَا ، وَلَكِنَّا أَجِبْنَا الْقُرْآنَ فِي حُكْمِهِ ، وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

البنخ :

يُوتَغَانِ : يَهْلِكُكَ ؛ والوتغ بالتحريك : الهلاك ؛ وقد وتغ يوتغ وتغا ، أى أُرثم  
وهلك ، وأوتغه الله : أهلكه الله ، وأوتغ فلان دينه بالإثم .

قوله : « فتألوا على الله » ، أى حلفوا ، من الألية وهى اليمين ، وفى الحديث : « من تألى  
على الله أ كذبه الله » ، ومعناه : مَنْ أَقْسَمَ تَجَبُّراً وَاقْتِدَاراً : لِأَفْعَلَنَّ كَذَا ، أ كذبه الله  
ولم يبلغ أمله .

وقد روى : « تأولوا على الله » أى حَرَفُوا الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَتَعَلَّقُوا بِشِبْهِةٍ  
فِي تَأْوِيلِ الْقُرْآنِ انْتِصَاراً لِمَذَاهِبِهِمْ وَأَرَائِهِمْ ، فَأَكْذَبَهُمُ اللَّهُ بِأَنَّهُمْ أَظْهَرُوا لِلْعُقُلَاءِ فَسَادَ تَأْوِيلَاتِهِمْ .  
والأول أصح .

ويغتنب فيه : يفرح ويسرّ ، والغلبة : السرور ، روى « يغبط فيه » أى يتمنى مثلُ حاله هذه .

قوله : « ويندم من أمكن الشيطان من قياده فلم يجاذبه » الياء التى هى حرف المضارعة عائدة على المكلف الذى أمكن الشيطان من قياده . يقول : إذا لم يجاذب الشيطان من قياده فإنه يندم ؛ فأما مَنْ جاذبه قياده فقد قام بما عليه .

ومثله قوله : « ولسنا إياك أجبننا » قوله : « والله ما حكمت مخلوقا وإنما حكمت القرآن » ومعنى « مخلوقاً » : بشراً لا محدثاً .

(٤٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ الدُّنْيَا مَشْغَلَةٌ عَنْ غَيْرِهَا ، وَلَمْ يُصِبْ صَاحِبُهَا مِنْهَا شَيْئًا إِلَّا فَتَحَتْ لَهُ حِرْصًا عَلَيْهَا ، وَلَهَجًا بِهَا ، وَلَنْ يَسْتَفْنِيَ صَاحِبُهَا بِمَا نَالَ فِيهَا عَمَّا لَمْ يَبْلُغْهُ مِنْهَا ، وَمِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ فِرَاقُ مَا جَمَعَ ، وَنَقْضُ مَا أُبْرِمَ ، وَلَوْ اعْتَبَرْتَ بِمَا مَضَى ، حَفِظْتَ مَا بَقِيَ ؛ وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

الشرح :

هذا كما قيل في المثل : صاحب الدنيا كشارب ماء البحر ؛ كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً ، والأصل في هذا قول الله تعالى : « لو كان لابن آدم واديان من ذهب لا ابغى لهما ثالثاً ، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب » ، وهذا من القرآن الذي رُفِعَ ونسخت تلاوته .

وقد ذكر نصر بن مزاحم هذا الكتاب وقال :

إن أمير المؤمنين عليه السلام كتبه إلى عمرو بن العاص ، وزاد فيه زيادة لم يذكرها الرضى : أما بعد ؛ فإن الدنيا مشغلة عن الآخرة ، وصاحبها منهوم<sup>(١)</sup> عليها ، لم يصب شيئاً منها قط إلا فتحت عليه حرصاً ، وأدخلت عليه مؤنة<sup>(٢)</sup> تزيد رغبة فيها ؛

(١) صفين : « مقهور فيها » . (٢) صفين : « مؤنة » .

ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يدرك ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ؛ والسعيد من وعظ بغيره ، فلا تحيط أجرك أبا عبد الله <sup>(١)</sup> ولا تشرك معاوية في باطله <sup>(٢)</sup> ؛ فإن معاوية غمض الناس ، وسفه الحق <sup>(٣)</sup> . والسلام <sup>(٤)</sup> .

قال نصر : وهذا أول كتاب كتبه علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص ، فكتب إليه عمرو جوابه :

أما بعد ، فإن الذي فيه صلاحنا ، وألفة ذات بيننا ، أن تُنِيب إلى الحق <sup>(٥)</sup> ، وأن تجيب إلى <sup>(٦)</sup> ما ندعوك إليه من الشورى <sup>(٧)</sup> ؛ فصبر الرجل منا نفسه على الحق ، وعذره الناس بالمحاجة ، والسلام <sup>(٨)</sup> .

قال نصر : فكتب علي عليه السلام إلى عمرو بن العاص بعد ذلك كتاباً غليظاً . وهو الذي ضرب مثله فيه بالكاتب يتبع الرجل ، وهو مذكور في ” نهج البلاغة “ ، واللهج : الحرص .

ومعنى قوله عليه السلام : « لو اعتبرت بما مضى حفظت ما بقي » ، أى لو اعتبرت بما مضى من عمرك لحفظت باقيه أن تنفقه في الضلال وطلب الدنيا وتضييعه .

\*\*\*

(١-١) صفين : « ولا تجارين معاوية في باطله » .

(٢) غمض الناس : احتقرهم ؛ وسفه الحق ، أى جهله .

(٣) صفين ١٢٤ . (٤) تنيب إلى الحق : ترجع .

(٥ - ٥) صفين : « أن يجيب إلى ما تدعون إليه من شورى » .

(٦) صفين ١٢٣ .

(٥٠)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمرائه على الجيوش :

من عبد الله على بن أبي طالب أمير المؤمنين رغبة إلى أصحاب السالط :  
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ حَقًّا عَلَى الْوَالِي أَلَّا يُعَيِّرَهُ عَلَى رِعِيَّتِهِ فَضْلٌ نَالَهُ ، وَلَا طَوْلٌ  
خُصَّ بِهِ ، وَأَنْ يَزِيدَهُ مَا قَسَمَ اللَّهُ لَهُ مِنْ نِعَمِهِ دُنُوًّا مِنْ عِبَادِهِ ، وَعَطْفًا  
عَلَى إِخْوَانِهِ .

أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عِنْدِي أَلَّا أُحْتَجَزَ دُونَكُمْ سِرًّا إِلَّا فِي حَرْبٍ ، وَلَا أُطَوَّى  
دُونَكُمْ أَمْرًا إِلَّا فِي حُكْمٍ ، وَلَا أُؤَخَّرَ لَكُمْ حَقًّا عَنْ مَحَلِّهِ ، وَلَا أُفْتَبَ بِهِ دُونَ  
مَقْطَعِهِ ، وَأَنْ تَكُونُوا عِنْدِي فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِذَا فَعَلْتُ ذَلِكَ وَجَبَتْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ  
النِّمَّةُ وَلِيَ عَلَيْكُمْ الطَّاعَةُ ، وَأَلَّا تَنْكِصُوا عَنْ دَفْعِهِ ، وَلَا تُفَرِّطُوا فِي صَلَاحِهِ ،  
وَأَنْ تَخَوْضُوا الْغَمَرَاتِ إِلَى الْحَقِّ ، فَإِنْ أَنْتُمْ لَمْ تَسْتَقِيمُوا إِلَى ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ  
أَحَدٌ أَهْوَنَ عَلَى رِجْمَانِ غَوَجٍ مِنْكُمْ ، ثُمَّ أُعْظِمُ لَهُ الْعُقُوبَةَ ، وَلَا يَجِدُ عِنْدِي  
فِيهَا رُخْصَةً .

فَخُذُوا هَذَا مِنْ أَمْرَائِكُمْ ، وَأَعْطُوهُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ مَا يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ أَمْرَكُمْ ،  
وَالسَّلَامُ .

\*\*\*



### البشر :

أصحابُ المسالِح : جماعات تكون بالثغر يحمون البيضة ، والمسلحة هي الثغر ، كالمُرغبة ، وفي الحديث : « كان أدنى مسالِح فارس إلى العرب المُذَيَّب »<sup>(١)</sup> ؛ قال : يجب على الوالى ألا يتناول على الرعية بولايته ، وما خُصَّ به عليهم من الطَّول وهو الفضل ؛ وأن تكون تلك الزيادة التي أعطيها سبباً لزيادة دنوّه من الرعية وحنوّه عليهم .

ثم قال : « لكم عندي ألاّ أحتجز دونكم بسرّ » ، أى لا أستر . قال : « إلّا فى حرب » ، وذلك لأن الحرب يحمّد فيها طيّ الأسرار ، والحرب خُدعة .

ثم قال : « ولا أطوى دونكم أمراً إلّا فى حُكم » ، أى أظهركم على كلّ ما نفسى مما يحسن أن أظهركم عليه ؛ فأما أحكام الشريعة والقضاء على أحد الخصمين فإنّ لا أعلمكم به قبل وقوعه ؛ كيلا تفسد القضية بأن يحتمل ذلك الشخص لصرف الحكم عنه

ثم ذكر أنّه لا يؤخّر لهم حقاً عن محلّه - يعنى العطاء - وأنّه لا يقف دون مقطعه ، والحق ها هنا غير العطاء ، بل الحكم ، قال زهير :

فإنّ الحقّ مقطعه ثلاثٌ يمينٌ أو نِفَارٌ أو جِلاءٌ<sup>(٢)</sup>

أى متى تعيّن الحكم حكمتُ به وقطعت ولا أقف ، ولا أتجسّس .

ولمّا استوفى ما شرط لهم قال : فإذا أنا وقّيت بما شرطت على نفسى وجبتُ لله عليكم الذّمة ولى عليكم<sup>(٣)</sup> الطاعة .

ثم أخذ فى الاشتراط عليهم كما شرط لهم ، فقال : ولى عليكم ألاّ تنكصوا عن

---

(١) المذيب ؛ بالتصغير : يطلق على مواضع ؛ منها ماء بين القادسية والنجيلة ؛ بينه وبين القادسية أربعة أميال . (٢) ديوانه ٧٥ . النفار : المنافرة إلى الحاكم ؛ أو رجل يحكم بينهم . الجلاء : أن ينكشف الأمر وينجلي . (٣) ١ : « نحوكم » .

دعوة ، أى لا تتقاعسوا عن الجهاد إذا دعوتكم إليه ، ولا تفرّطوا فى صلاح ؛ أى إذا أمكنتكم فرصة ، أو رأيتم مصلحة فى حرب العدو أو حماية الثغر ، فلا تفرّطوا فيها فتنفوت . وأن تخوضوا الغمرات إلى الحق ؛ أى تكابدوا المشاق العظيمة ؛ ولا يهولنكم خوضها إلى الحق .

ثم توعدهم إن لم يفعلوا ذلك ، ثم قال : نخذوا هذا من أمرائكم ؛ ليس معنى به أن على هؤلاء أصحاب المسالح أمراء من قبله عليه السلام كالواسطة بينهم وبينه ، بل من أمرائكم ؛ يعنى منى وممن يقوم فى الخلافة مقامى بمدى ، لأنه لو كان الفرض هو الأول لما كان محلهم عنده أن يقول : « ألا احتجز دونكم بسرّ ولا أطوى دونكم أمرا » . لأن محلّ من كان بتلك الصفة دون هذا .

(٥١)

الأفضل :

ومن كتب له عليه السلام إلى عماله على الخراج :

من عبد الله على أمير المؤمنين إلى أصحاب الخراج :

أَمَّا بَعْدُ ! فَإِنَّ مَنْ لَمْ يَحْذَرْ مَا هُوَ سَائِرٌ إِلَيْهِ ، لَمْ يُقَدِّمْ لِنَفْسِهِ مَا يُخْرِزُهَا .  
وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا كَلَّفْتُمْ يَسِيرٌ ، وَأَنَّ ثَوَابَهُ كَثِيرٌ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيمَا نَهَى اللَّهُ  
عَنْهُ مِنَ الْبَغْيِ وَالْمُدَّوَانِ عِقَابٌ يُخَافُ ، لَكَانَ فِي ثَوَابِ اجْتِنَابِهِ مَا لَا عُذْرَ فِي تَرْكِ  
طَلَبِهِ ، فَأَنْصِفُوا النَّاسَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، وَاصْبِرُوا لِحَوَائِجِهِمْ ، فَإِنَّكُمْ خُزَّانُ الرَّعِيَّةِ ،  
وَوُكَلَاءُ الْأُمَّةِ ، وَسَفَرَاهِ الْأُمَّةِ ، وَلَا تُحْشِمُوا أَحَدًا عَنْ حَاجَتِهِ ، وَلَا تَحْبِسُوهُ  
عَنْ طَلَبَتِهِ ، وَلَا تَبْغِمْ النَّاسَ فِي الْخَرَاجِ كُسُوءَ شِتَاءٍ وَلَا صَيْفٍ ، وَلَا دَابَّةً يَتَمَلُّونَ  
عَلَيْهَا ، وَلَا عَبْدًا ، وَلَا تَضْرِبَنَّ أَحَدًا سَوْطًا لِكَانِ دِرْهِمٍ ، وَلَا تَمْسَسَنَّ مَالَ أَحَدٍ  
مِنَ النَّاسِ مُصَلٍّ وَلَا مُعَاهِدٍ ، إِلَّا أَنْ تَجِدُوا فَرَسًا أَوْ سِلَاحًا يُمْدَى بِهِ عَلَى أَهْلِ  
الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْمُسْلِمِ أَنْ يَدْعَ ذَلِكَ فِي أَيْدِي أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَيَكُونَ  
شَوْكَةً عَلَيْهِ .

وَلَا تَدْخِرُوا أَنْفُسَكُمْ نَصِيحَةً ، وَلَا انْجُنِدَ حُسْنَ سِيرَةٍ ، وَلَا الرَّعِيَّةَ مَعُونَةً ،  
وَلَا دِينَ اللَّهِ قُوَّةً .

وَأَبْلَوْهُ فِي سَبِيلِ مَا اسْتَوْجَبَ عَلَيْكُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ اصْطَلَعَ عِنْدَنَا

وَعِنْدَكُمْ أَنْ تَشْكُرَهُ بِجُهِدِنَا ، وَأَنْ تَنْصُرَهُ بِمَا بَلَّغْتَ قُوَّتَنَا ، وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ  
الْعَلِيِّ الْأَعْظِيمِ .

\*\*\*

### الْبُخْرُ :

يقول : لو قَدَّرْنَا أَنَّ الْقَبَائِحَ الْعَقَلِيَّةَ كَالظُّلْمِ وَالْبَغْيِ لَاعْقَابَ عَلَى فِعْلِهَا بَلْ فِي تَرْكِهَا ثَوَابٌ  
فَقَطْ ؛ لَمْ يَكُنِ الْإِنْسَانُ مَعْذُورًا إِذَا فَرَّطَ فِي ذَلِكَ التَّرْكِ ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ حَرَّمَ نَفْسَهُ نَفْعًا هُوَ  
قَادِرٌ عَلَى إِصَالِهِ إِلَيْهَا .

قوله : « وَلَا تُحْشَمُوا أَحَدًا » ؛ أَيْ لَا تَغْضَبُوا طَالِبَ حَاجَةٍ فَتَقْطَعُوهُ عَنْ طَلِبِهَا ،  
أَحْشَمْتُ زَيْدًا ، وَجَاءَ « حَشَمْتُهُ » ، وَهُوَ أَنْ يَجْلِسَ إِلَيْكَ فَتَغْضَبَهُ وَتُؤْذِيَهُ . وَقَالَ  
ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : حَشَمْتُهُ : أَخْجَلْتُهُ ، وَأَحْشَمْتُهُ : أَغْضَبْتُهُ ، وَالاسْمُ الْحِشْمَةُ ، وَهِيَ  
الاسْتَحْيَاءُ وَالنَّغْصُ .

ثمَّ نَهَاهُمْ أَنْ يَبْعُوا لِأَرْبَابِ الْخَرَجِ مَا هُوَ مِنْ ضَرُورِيَّاتِهِمْ كَثِيَابِ أَيْدَانِهِمْ وَكَدَائِبِ  
يَعْتَمِلُونَ عَلَيْهَا ، نَحْوَ بَقَرِ الْفَلَاخَةِ ، وَكَعْبِدٍ لَا يَدُّ لِلْإِنْسَانِ مِنْهُ يَخْدُمُهُ ، وَيَسْعَى  
بَيْنَ يَدَيْهِ .

ثمَّ نَهَاهُمْ عَنْ ضَرْبِ الْأَبْشَارِ لِاسْتِيفَاءِ الْخَرَجِ

وَكُتِبَ عَدِيَّ بْنُ أَرْطَاةَ إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَسْتَأْذِنُهُ فِي عَذَابِ الْعَمَّالِ ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ :  
كَأَنَّ لَكَ جُنَّةً مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَكَأَنَّ رِضَايَ يَنْجِيكَ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ ! مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ بَيِّنَةٌ ،  
أَوْ أَقْرَبَ بِهَا لَمْ يَكُنْ مُضْطَهِّدًا مُضْطَرًّا إِلَّا الْإِقْرَارُ بِهِ ، فَخُذْهُ بِأَدَائِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَيْهِ فَاسْتَأْذِنْ ،  
وَإِنْ أَبَى فَاحْبِسْهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْدِرْ نَحْلُ سَبِيلَهُ ؛ بَعْدَ أَنْ تُحْلِفَهُ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ، فَلَا تُنْزِلْ  
يَلْقُوا اللَّهَ بِجُنَايَاتِهِمْ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَلْقَاهُ بِدِمَائِهِمْ .

ثمّ نهاهم أن يمرضوا لمال أحدٍ من المسلمين أو من المعاهدِين ؛ المعاهد هاهنا : هو الذمّيّ  
أو مَنْ يدخل دار الإسلام من بلاد الشرك على عهد ، إما لأداء رسالة ، أو لتجارة : ونحو  
ذلك ، ثم يعود إلى بلاده .

ثمّ نهاهم عن الظلم وأخذ أموال الناس على طريق المصادرة والتأويل الباطل ؛ قال :  
إلّا أن تخافوا غائلة المعاهدِين ، بأن تجدوا عندهم خيولاً أو سلاحاً ، وتظنّوا منهم وثبة على بلد  
من بلاد المسلمين ، فإنه لا يجوز الإغضاء عن ذلك حينئذ .

قوله : « وأُبلوا في سبيل الله » ، أى اصطنعوا من المعروف في سبيل الله ما استوجب  
عليكم ، يقال : هو يبلوه معروفًا ، أى يصنعه إليه ، قال زهير :

جَزَى اللهُ بِالْإِحْسَانِ مَا فَمَلَّ بِكُمْ وَأَبْلَاهَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو<sup>(١)</sup>

قوله عليه السلام : « قد اصطنعنا عندنا وعندكم أن نشكره » ، أى لأنّ نشكره ، بلام  
التعليل وحذفها ، أى أحسن إلينا لنشكره ، وحذفها أكثر نحو قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ مَا  
قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِمْ ﴾<sup>(٢)</sup> .

(٥٢)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة :

أَمَّا بَعْدُ فَصَلُّوا بِالنَّاسِ الظُّهْرَ حَتَّى تَفِئَ الشَّمْسُ مِثْلَ مَرِيضٍ الْعَنَزِ ، وَصَلُّوا بِهِمْ  
الْعَصْرَ وَالشَّمْسُ بَيضاء حَيَّةً فِي غُصُونِ مِنَ النَّهَارِ حِينَ يُسَارُ فِيهَا فَرَسَخَانِ ، وَصَلُّوا  
بِهِمُ الْمَغْرِبَ حِينَ يُفِطِرُ الصَّائِمُ ، وَيَدْفَعُ الْحَاجُّ إِلَى مَنَى ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْمِشَاءَ حِينَ  
يَتَوَارَى الشَّفَقُ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ ، وَصَلُّوا بِهِمُ الْغَدَاةَ وَالرَّجُلُ يَمْرُفُ وَجَهَ صَاحِبِهِ ،  
وَصَلُّوا بِهِمُ صَلَاةَ أَصْغَفِهِمْ ، وَلَا تَكُونُوا فِتْنَانِ .

\*\*\*

الْمُنْرَجُ

[ بيان اختلاف الفقهاء في أوقات الصلاة ]

قد اختلف الفقهاء في أوقات الصلاة ، فقال أبو حنيفة : أوّل وقت الفجر إذا طلع الفجر  
الثاني ؛ وهو المعترض في الأفق ، وآخر وقتها ما لم تطلع الشمس . وأوّل وقت الظهر إذا  
زالت الشمس ، وآخر وقتها إذا صار ظلّ كلّ شيء مثليه سوى الزوال . وقال أبو يوسف  
ومحمد : آخر وقتها إذا صار الظلّ مثله .

قال أبو حنيفة : وأوّل وقت العصر إذا خرج وقت الظهر ؛ وهذا على القولين ،  
وآخر وقتها ما لم تغرب الشمس ، وأوّل وقت المغرب إذا غربت الشمس ، وآخر وقتها

ما لم ينب الشفق ؛ وهو البياض الذي في الأفق بعد الحمرة . وقال أبو يوسف ومحمد : هو الحمرة .

قال أبو حنيفة : وأول وقت العشاء إذا غاب الشفق ، وهذا<sup>(١)</sup> على القولين ، وآخر وقتها ما لم يطلع الفجر .

وقال الشافعي : أول وقت الفجر إذا طلع الفجر الثاني ، ولا يزال وقتها المختار باقياً إلى أن يسفر ، ثم يبقى وقت الجواز إلى طلوع الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخري من الشافعية : لا يبقى وقت الجواز ، بل يخرج وقتها بعد الإسفار ويصلى قضاء ؛ ولم يتابعه على هذا القول أحد . قال الشافعي : وأول وقت الظهر إذا زالت الشمس . وحكى أبو الطيب الطبري من الشافعية أن من الناس من قال : لا تجوز الصلاة حتى يصير النى بعد الزوال مثل الشراك .

وقال مالك : أحب أن يؤخر الظهر بعد الزوال بقدر ما يصير الظل ذراعاً ؛ وهذا مطابق لما قال أمير المؤمنين عليه السلام حين تفي الشمس كربض العنز ، أى كموضع تربض العنز ، وذلك نحو ذراع أو أكثر بزيادة يسيرة .

قال الشافعي : وآخر وقت الظهر إذا صار ظل كل شيء مثله ، ويعتبر المثل من حد الزيادة على الظل الذي كان عند الزوال ، وبهذا القول قال أبو يوسف ومحمد ؛ وقد حكيناه من قبل ، وبه أيضاً قال الثوري وأحمد ، وهو رواية الحسن بن زياد اللؤلؤي عن أبي حنيفة ، فأما الرواية المشهورة عنه - وهى التى رواها أبو يوسف - فهو أن آخر وقت الظهر صيرورة الظل مثليه ، وقد حكيناه عنه فيما تقدم .

وقال ابن المنذر : تفرّد أبو حنيفة بهذا القول ؛ وعن أبي حنيفة رواية ثالثة أنه إذا صار ظل كل شيء مثله خرج وقت الظهر ؛ ولم يدخل وقت العصر إلى أن يصير ظل كل شيء مثليه .

---

(١) : ١ « وهو » .

وقال أبو ثور ومحمد بن جرير الطبري : قدر أربع ركعات بين المثل والمثلين ، يكون مشتركا بين الظهر والعصر .

وحكى عن مالك أنه قال : إذا صار ظل كل شيء مثله ، فهو آخر وقت الظهر وأول وقت العصر ، فإذا زاد على المثل زيادة بيّنة خرج وقت الظهر واختصّ الوقت بالعصر .

وحكى ابن الصّبّاغ من الشافعية ، عن مالك ، أن وقت الظهر إلى أن يصير ظل كل شيء مثله وقتا مختارا ، فأما وقت الجواز والأداء فأخّره إلى أن يبقى إلى غروب الشمس قدر أربع ركعات ؛ وهذا القول مطابق لمذهب الإمامية .

وقال ابن جريج وعطاء : لا يكون مفراّطاً بتأخيرها حتى تكون في الشمس صُفرة . وعن طاوس : لا يفوت حتى الليل .

فأما العصر : فإن الشافعي يقول : إذا زاد على المثل أدنى زيادة ، فقد دخل وقت العصر ؛ والخلاف في ذلك بينه وبين أبي حنيفة ؛ لأنّه يقول : أول وقت العصر إذا صار ظل كل شيء مثليه ، وزاد عليه أدنى زيادة . وقد حكيناه عنه فيما تقدّم .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في العصر مطابق لمذهب أبي حنيفة ، لأنّ بعد صيرورة الظل مثليه ، هو الوقت الذي تكون فيه الشمس حيّة بيضاء في عضو من النهار ، حين يُسار فيه فرسخان ، وأما قبل ذلك فإنّه فوق ذلك يُسار من الفراسخ أكثر من ذلك ، ولا يزال وقت الاختيار عند الشافعي للعصر باقياً حتى يصير ظل كل شيء مثليه ؛ ثم يبقى وقت الجواز إلى غروب الشمس .

وقال أبو سعيد الإصطخريّ من أصحابه : يصير قضاء بمجاورة المثلين ؛ فأما وقت المغرب فإذا غربت الشمس وغروها سقط القرص .

وقال أبو الحسن عليّ بن حبيب الماورديّ من الشافعية : لا بدّ أن يسقط القرص ويغيب



حاجب الشمس ، وهو الضياء المستعل على كالمّصل بها ، ولم يذكر ذلك من الشافعية أحد غيره .

وذكر الشاشي في كتاب "حلية العلماء" ، أن الشيعة قالت : أول وقت المغرب إذا اشتبكت النجوم . قال قد حكى هذا عنهم . ولا يساوى الحكاية ، ولم تذهب الشيعة إلى هذا ، وسند ذكر قولهم فيما بعد .

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام في المغرب لا ينصّ على وقت معين لأنّه عرف ذلك بكونه وقت الإفطار ، ووقت ما يدفع الحاج ، وكلا الأمرين يحتاج إلى تعريف كما يحتاج وقت الصلاة ، اللهم إلا أن يكون قد عرف أمراء البلاد الذين يصلّون بالناس من قبل هذا الكتاب متى هذا الوقت الذي يُنظر فيه الصائم ، ثم يدفع فيه الحاج بعينه ، ثم يحيلهم في هذا الكتاب على ذلك التعريف المخصوص .

قال الشافعي : وللمغرب وقت واحد ، وهو قول مالك .

وحكى أبو ثور عن الشافعي أن لها وقتين ، وآخر وقتها إذا غاب الشفق . وليس بمشهور عنه ، والمشهور القول الأول ، وقد ذكرنا قول أبي حنيفة فيما تقدّم ، وهو امتداد وقتها إلى أن يغيب الشفق ، وبه قال أحمد وداود .

واختلف أصحاب الشافعي في مقدار الوقت الواحد ، فمنهم من قال : هو مقدّر بقدر الطهارة وستر العورة والأذان والإقامة وفعل ثلاث ركعات ، ومنهم من قدّره بغير ذلك . وقال أبو إسحاق الشيرازي منهم : التضييق إنّما هو في الشروع ، فأما الاستدامة فتجوز إلى مغيب الشفق .

فأما وقت العشاء ، فقال الشافعي : هو أن يغيب الشفق وهو الحجرة ، وهو قول مالك وأحمد وداود وأبي يوسف ومحمد ، وقد حكينا مذهب أبي حنيفة فيما تقدّم ، وهو أن يغيب الشفق الذي هو البياض ، وبه قال زُفر والمزني .

قال الشافعيّ : وآخر وقتها المختار إلى نصف الليل ، هذا هو قوله القديم ، وهو مذهب أبي حنيفة ، وقال في الجديد : إلى ثلث الليل . ويجب أن يحمل قولُ أمير المؤمنين عليه السلام في العشاء أنّها إلى ثلث الليل على وقت الاختيار ، ليكون مطابقاً لهذا القول ، وبه قال مالك ، وإحدى الروايتين عن أحمد . ثم يذهب وقت الاختيار ؛ ويبقى وقتُ الجواز إلى طلوع الفجر الثاني .

وقال أبو سعيد الإصطخريّ : لا يبقى وقت الجواز بعد نصف الليل ، بل يصير قضاء .

\*\*\*

فقد ذكرنا مذهبي أبي حنيفة والشافعيّ في الأوقات ، وهما الإمانان المعتبران في الفقه ، ودخل في ضمن حكاية مذهب الشافعي ما يقوله مالك وأحمد وغيرهما من الفقهاء .

فأما مذهب الإماميّة من الشيعة ، فنحن نذكره نقلاً عن كتاب أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان رحمه الله المعروف بالمقيّد "بالرسالة المقتّمة" ، قال : وقتُ الظهر من بعد زوال الشمس إلى أن يرجع النّورُ سُبْعَى الشخص ، وعلامة الزوال رجوعُ النّورِ بعد انتهائه إلى النّقصان ، وطريق معرفة ذلك بالإصطلاب أو ميزان الشمس ، وهو معروف عند كثير من الناس ، أو بالعمود المنصوب في الدائرة الهندية أيضاً ، فمن لم يعرف حقيقة العمل بذلك ، أو لم يجد آلهة فليُنصب عموداً من خشب أو غيره في أرض مستوية السطح ، ويكون أصلُ العمود غليظاً ورأسه دقيقاً شبه المذرى الذى يلسج به التّسك أو المسلة التى تُخاط بها الأحمال ، فإن ظلّ هذا العمود يكون بلا شكّ في أول النهار أطول من العمود ، وكلّما ارتفعت الشمس نقص من طوله حتى يقف القرص في وسط السماء ، فيقف النّورُ حينئذٍ ، فإذا زال القرص عن الوسط إلى جهة المغرب رجّع النّورُ إلى الزيادة . فليعتبر مَنْ أراد الوقوف على وقت الزوال ذلك بخطوط وعلامات يجعلها على رأس ظلّ العمود عند وضعه

في صدر النهار ، وكلّما نقص في الظلّ شيء علم عليه ، فإذا رجع إلى الزيادة على موضع العلامة عرف حينئذ برجوعه أن الشمس قد زالت .

وبذلك تُعرف أيضا القبلة ، فإن قرُص الشمس يقف فيها وسط النهار ، ويصير عن يسارها ويمين المتوجّه إليها بعد وقوفها وزوالها عن القطب ، فإذا صارت مما يلي حاجبه الأيمن من بين عينيه علم أنها قد زالت ، وعرف أن القبلة تلقاء وجهه ؛ ومن سبقت معرفته بجهة القبلة فهو يعرف زوال الشمس إذا توجّه إليها ، فرأى عين الشمس مما يلي حاجبه الأيمن ؛ إلا أن ذلك لا يبين إلا بعد زوالها بزمان ، ويبيّن الزوال من أوّل وقته بما ذكرناه من الإصطلاب وميزان الشمس والدائرة الهندية والعمود الذي وصفناه ، ومن لم يحصل له معرفة ذلك ، أو فقد الآلة توجّه إلى القبلة فاعتبر صيرورة الشمس على طرف حاجبه الأيمن وقت العصر من بعد الفراغ من الظهر ، إذا صليت الظهر في أوّل أوقاتها - أعنى بعد زال الشمس بلا فصل - ويمتدّ إلى أن يتغيّر لون الشمس باصفرارها للغروب ، ولمضطرب والناسي إلى مغيبها بسقوط القرص عما تبلغه أبصارنا من السماء ، وأوّل وقت المغرب من غيب الشمس ، وعلامة مغيبها عدم الحجرة في المشرق المقابل للمغرب في السماء ؛ وذلك أن المشرق في السماء مُطلّ على المغرب ، فما دامت الشمس ظاهرة فوق أرضنا فهي تلقى ضوءها على المشرق في السماء ، فيرى مُحَرَّتْها فيه ، فإذا ذهبَت الحجرة منه علم أن القرص قد سقط وغاب. وآخره أوّل وقت العشاء الآخرة ، وأوّل وقتها من غيب الشمس وهو الحجرة في المغرب ، وآخره مضى الثلث الأول من الليل ، وأوّل وقت الغداة اعتراض الفجر ، وهو البياض في المشرق يعقبه الحجرة في مكانه ؛ ويكون مقدمة لطولوع الشمس على الأرض من السماء ؛ وذلك أن الفجر الأول ، وهو البياض الظاهر في المشرق يطلع طولاً ثم ينعكس بعد مدّة عرضاً ثم يحمر الأفق بعده للشمس .

ولا ينبغي للإنسان أن يصليّ فريضة الغداة حتى يمترض البياض ، وينتشر صُعداً في السماء كما ذكرنا ، وآخر وقت الغداة طلوع الشمس .  
هذا ما تقوله الفقهاء في مواقيت الصلاة .

\*\*\*

فأما قوله عليه السلام : « والرجل يعرف وجه صاحبه » ؛ فمعناه الإسفار ، وقد ذكرناه .

وقوله عليه السلام : « وصلُّوا بهم صلاة أضعفهم » ؛ أى لا تطيلوا بالقراءة الكثيرة والدَّعوات الطويلة .

ثم قال : « ولا تكونوا فتنين » ، أى لا تفتنوا الناس بإتباعهم وإدخال المشقة عليهم بإطالة الصلاة وإفساد صلاة المأمومين بما يفعلونه من أفعال مخصوصة ، نحو أن يُحدِّث الإمام فيستخلف فيصليّ الناس خلف خليفته ، فإن ذلك لا يجوز على أحد قولي الشافعيّ ؛ ونحو أن يُطيل الإمام الركوع والسجود ، فيظنّ المأمومون أنّه قد رفع فيرفعون أو يسبقونه بأركان كثيرة ؛ ونحو ذلك من مسائل يذكرها الفقهاء في كتبهم .

\*\*\*

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام إنما بدأ بصلاة الظهر ، لأنها أوّل فريضة افترضت على المكلفين من الصلاة على ما كان يذهب إليه عليه السلام ؛ وإلى ذلك تذهب الإماميّة ، وينصر قولهم تسميتها بالأولى ؛ ولهذا بدأ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان بذكرها قبل غيرها ؛ فأما مَنْ عدا هؤلاء فأول الصلاة المفروضة عندهم الصبح ؛ وهي أول النهار .

\*\*\*

وأيضاً يتفرع على هذا البحث القول في الصلاة الوسطى ، ما هي ؟ فذهب جمهور

النَّاسَ إلى أنها العصر ، لأنها بين صلاتيّ نهار وصلاتيّ ليل ؛ وقد رووا أيضا في ذلك روايات بعضها في الصباح ، وقياس مذهب الإمامية أنها المغرب ؛ لأنّ الظهر إذا كانت الأولى كانت المغرب الوسطى ؛ إلا أنهم يروون عن أئمتهم عليهم السلام أنها الظهر ، ويفسرون الوسطى بمعنى الفضلى ؛ لأنّ الوَسْطَ في اللغة هو خيار كل شيء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ جَمَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾<sup>(١)</sup> ، وقد ذهب إلى أنها المغرب قوم من الفقهاء أيضا . وقال كثير من الناس : إنها الصبح ، لأنها أيضا بين صلاتيّ ليل وصلاتيّ نهار ، ورووا أيضا فيها روايات وهو مذهب الشافعيّ ، ومن الناس من قال : إنها الظهر كقول الإمامية ولم يسمع عن أحد معتبرا أنها العشاء إلا قولاً شاذّاً ذكره بعضهم . وقال : لأنها بين صلاتين لا تُقَصَّرَان .

---

(١) سورة البقرة ١٤٣ .

(٥٣)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي رحمه الله لما ولاه على مصر  
وأعمالها حين اضطرب أمر أميرها محمد بن أبي بكر وهو أطول عهد كتبه  
وأجمعه للمحاسن :

بسم الله الرحمن الرحيم

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَالِكِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَشْترِ  
فِي عَهْدِهِ إِلَيْهِ حِينَ وَلَّاهُ مِصْرَ جَبَايَةَ خَرَايجَهَا ، وَجِهَادَ عَدُوِّهَا ، وَاسْتِصْلَاحَ أَهْلِهَا ،  
وَعِمَارَةَ بِلَادِهَا .

أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَاتِّبَاعِ مَا أَمَرَ بِهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ فَوَائِضِهِ  
وَسُنَنِهِ الَّتِي لَا يُسْعَدُ أَحَدٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِهَا ، وَلَا يَشْقَى إِلَّا مَعَ جُحُودِهَا وَإِضَاعَتِهَا ،  
وَأَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِيَدِهِ وَقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ ؛ فَإِنَّهُ جَلَّ اسْمُهُ قَدْ تَكَفَّلَ بِنَصْرِ  
مَنْ نَصَرَهُ ، وَإِعْزَازِ مَنْ أَعَزَّهُ .

وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْسِرَ مَنْ نَفْسِهِ عِنْدَ الشَّهَوَاتِ ، وَيَنْزِعَهَا عِنْدَ الْجَمَحَاتِ ، فَإِنَّ  
الْفَتْسَ أَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ، إِلَّا مَا رَحِمَ اللَّهُ .

ثُمَّ أَعْلَمَ بِأَنَّ مَالِكُ ، أَنَّى قَدْ وَجَّهْتُكَ إِلَى بِلَادٍ قَدْ جَرَتْ عَلَيْهَا دُولٌ قَبْلَكَ مِنْ عَدْلٍ  
وَجَوْرِ ، وَأَنَّ النَّاسَ يَنْظُرُونَ مِنْ أُمُورِكَ فِي مِثْلِ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنْ أُمُورٍ

الْوَلَاةِ قَبْلَكَ ، وَيَقُولُونَ فِيكَ مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيهِمْ ، وَإِنَّمَا يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحِينَ بِمَا يُجْرِي اللَّهُ لَهُمْ عَلَى أَلْسُنِ عِبَادِهِ . فَلْيَكُنْ أَحَبَّ الذَّخَائِرِ إِلَيْكَ ذَخِيرَةُ الْعَمَلِ الصَّالِحِ . فَأَمْلِكْ هَوَاكَ ، وَشُحَّ بِنَفْسِكَ عَمَّا لَا يَحِلُّ لَكَ ، فَإِنَّ الشُّحَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْصَافُ مِنْهَا فِيمَا أُحِبَّتْ أَوْ كَرِهَتْ .

\*\*\*

### الْبَزْخُ :

نصرة الله باليد : الجهاد بالسيف ، وبالقلب الاعتقاد للحق ، وباللسان قول الحق والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد تكفل الله بنصرة من نصره ، لأنه تعالى قال : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۖ ﴾ (١) .

والجَمَحَاتُ : منازعة النفس إلى شهواتها ومآربها ، ونزعها بكفها .

ثم قال له : قد كنت تسمع أخبار الولاية ، وتعيب قومًا وتمدح قومًا ، وسيقول الناس في إمارتك الآن نحو ما كنت تقول في الأمراء ؛ فاحذر أن تعاب وتذم كما كنت تعيب وتذم من يستحق الذم .

ثم قال : إنما يستدل على الصالحين بما يكثر سماعه من السنة الناس بمدحهم والثناء عليهم ؛ وكذلك يستدل على الفاسقين بمثل ذلك .

وكان يقال : السنة الرعية أقلام الحق سبحانه إلى الملوك .

ثم أمره أن يشح بنفسه ، وفسر له الشح ما هو ؟ فقال : أن تلتصف منها فيما أُحِبَّتْ

وكرهت ، أى لا تمكنها من الاسترسال فى الشهوات ، وكن أميراً عليها ، ومسيطرًا وقامماً لها من التهور والانهماك .

فإن قلت : هذا معنى قوله : « فيما أحببت » ، فما معنى قوله : « وكرهت » ؟  
قلت : لأنها تسكره الصلاة والصوم وغيرها من العبادات الشرعية ومن الواجبات العقلية ، وكلما يجب أن يكون الإنسان مهيمناً عليها فى طرف الفعل يجب أن يكون مهيمناً عليها فى طرف الترك .

\*\*\*

### الأصل :

وَأَشْعِرْ قَلْبَكَ الرَّحْمَةَ لِلرَّعِيَّةِ ، وَالْمَحَبَّةَ لَهُمْ ، وَاللُّطْفَ بِهِمْ ؛ وَلَا تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبْماً ضَارِياً تَفْتَنُهُمْ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخُ لَكَ فِي الدِّينِ ؛ وَإِمَّا نَظِيرُكَ لَكَ فِي الْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ، وَتَمْرِضُ لَهُمُ الْمَلَلُ ، وَيُوْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمَدِ وَالْخَطَا ، فَأَعْطِهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ ، مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ وَتَرْضَى أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ ، فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ ، وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَّاكَ ، وَقَدِ اسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَابْتَلَاكَ بِهِمْ .

وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَى لَكَ يَنْقَمَتِهِ ، وَلَا غِنَى بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ .

وَلَا تَنْدَمْ عَلَى عَفْوِهِ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِمُقُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَى بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَنَدُوحَةً .

وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي مُؤَمَّرٌ أَمْرُ فَاطَاعُ ، فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَنْهَكَةٌ لِلدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ .



وَإِذَا أَخَذْتَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أَبْهَةً أَوْ خَيْلَةً ، فَانْظُرْ إِلَى عِظَمِ  
مُلْكِ اللَّهِ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَى مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ  
يُطَامِنُ إِلَيْكَ مِنْ طِمَاحِكَ ، وَيَكْفُ عَنْكَ مِنْ غَرَبِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ  
عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .

إِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالتَّشَبُّهَ بِهِ فِي جَبَرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ  
جَبَّارٍ ، وَيُيَسِّرُ كُلَّ مُخْتَالٍ !

\*\*\*

### الشَّيْخُ :

أشعر قلبك الرحمة ، أى اجعلها كالشُّمار له ، وهو الثوب الملاصق للجسد ؛ قال :  
لأنَّ الرعيَّة ؛ إمَّا أخوك في الدِّين ، أو إنسان مثلك تقتضى رقةً الجسدية وطبع البشرية  
الرحمة له .

قوله : « ويؤتى على أيديهم » ، مثل قولك : « ويؤخذ على أيديهم » ؛ أى  
يهذبون ويشققون ، يقال : خذ على يد هذا السفية ، وقد حَجَرَ الحاكم على فلان ،  
وأخذ على يده .

ثم قال : فنسببتهم إليك كنسبتك إلى الله تعالى ، وكما تحب أن يصفح الله عنك  
ينبغي أن تصفح أنت عنهم .

قوله : « لا تنصبن نفسك لحرب الله » ؛ أى لا تبارزه بالمعاصي . فإنه لا يدى لك  
بنقمته ؛ اللام مُقحمة ، والمراد الإضافة ، ونحوه قولهم : لا أبالك .

قوله : « ولا تقولن إني مُؤمَّر » ؛ أى لا تقل : إني أمير ووالٍ آمرُ بالشيء فأطاع .

والإدغال : الإفساد ، ومنهكة الدين : ضعف وسقم .

ثم أمره عند حدوث الأبهة والعظمة عنده لأجل الرئاسة والإمرة أن يذكر عظمة الله تعالى وقدرته على إعدامه وإيجاده ، وإماتته وإحيائه ؛ فإنّ تذكّر ذلك يطامن من غلوائه ، أي يفيض من تعظمه وتكبره ، ويطأطأ منه .

والغريب : حدّ السيف ، ويستعار للسطوة والسرعة في البطش والفتك .

قوله : « ويُفَى » ؛ أي يرجع إليك بما بعد عنك من عقلك ، وحرّف المضارعة مضموم لأنّه من « أفاء » .

ومساماة الله تعالى : مباراته في السموّ وهو العلوّ .

\*\*\*

## الأصل :

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ ، وَمَنْ لَكَ هَوًى فِيهِ مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّكَ إِلَّا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصَمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ أَدْحَضَ حُجَّتَهُ ، وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّى يَنْزِعَ أَوْ يَتُوبَ .

وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَى إِلَى تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِفَامَةٍ عَلَى ظُلْمٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ دَعْوَةَ الْمُضْطَّهِدِينَ ، وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ .

وَلَيْسَكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعَمُّهَا فِي الْمَدْلِ ، وَأَجْمَعُهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ، فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُجْحِفُ رِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنْ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ .

وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الرَّعِيَّةِ أَثْقَلَ عَلَى الْوَالِي مَثْوَنَةً فِي الرَّخَاءِ ، وَأَقْلَرَّ مَعُونَةً لَهُ فِي  
الْبَلَاءِ ، وَأَكْرَهَ لِلْإِنْصَافِ ، وَأَسْأَلَ بِالْإِلْحَافِ ، وَأَقْلَرَّ شُكْرًا عِنْدَ الْإِعْطَاءِ ، وَأَبْطَأَ  
عُدْرًا عِنْدَ الْمَنعِ ، وَأَضْعَفَ صَبْرًا عِنْدَ مُلِمَاتِ الدَّهْرِ ، مِنْ أَهْلِ الْخَاصَّةِ ؛ وَإِنَّمَا عُمُودُ  
الدِّينِ ، وَجَمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُدَّةُ لِلْأَعْدَاءِ . الْعَامَّةُ مِنَ الْأُمَّةِ ، فَلَيْكُنْ صِفُوكَ  
لَهُمْ ، وَمَتَيْكَ مَعَهُمْ .

\*\*\*

## البُيُوتُ

قال له : أَنْصِفِ اللَّهَ ، أَيْ قُمْ لَهُ بِمَا فَرَضَ عَلَيْكَ مِنَ الْعِبَادَةِ وَالْوَاجِبَاتِ  
الْعَقْلِيَّةِ وَالسَّمْعِيَّةِ .

ثمَّ قال : وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ وَلَدِكَ وَخَاصَّةً أَهْلِكَ وَمِنْ تَحِبِّهِ وَتَمِيلَ إِلَيْهِ  
مِنْ رَعِيَّتِكَ ، فَتَى لَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ كُنْتَ ظَالِمًا .

ثمَّ نَهَاهُ عَنِ الظُّلْمِ ، وَأَكَّدَ الْوَصَايَةَ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ .

ثمَّ عَرَّفَهُ أَنَّ قَانُونَ الْإِمَارَةِ الْاجْتِهَادُ فِي رِضَا الْعَامَّةِ ، فَإِنَّهُ لَا مَبَالَاةَ بِسُخْطِ خَاصَّةِ  
الْأَمِيرِ مَعَ رِضَا الْعَامَّةِ ، فَأَمَّا إِذَا سَخِطَتِ الْعَامَّةُ لَمْ يَنْفَعَهُ رِضَا الْخَاصَّةِ ، وَذَلِكَ مِثْلُ أَنْ يَكُونَ  
فِي الْبَلَدِ عَشْرَةُ أَوْ عِشْرُونَ مِنْ أَغْنِيَاءِهِ ، وَذَوِي الثَّرْوَةِ مِنْ أَهْلِهِ ، يَلْزَمُونَ الْوَالِيَّ وَيَخْدُمُونَهُ  
وَيَسَامِرُونَهُ ، وَقَدْ صَارَ كَالصَّدِيقِ لَهُمْ ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ وَمَنْ ضَارَعَتهُمْ مِنْ حَوَاشِي الْوَالِيَّ وَأَرْبَابِ  
الشَّفَاعَاتِ وَالْقُرُبَاتِ عِنْدَهُ لَا يُغْنُونُ عَنْهُ شَيْئًا عِنْدَ تَنَكُّرِ الْعَامَّةِ لَهُ ، وَكَذَاكَ لَا يَضُرُّ سُخْطُ  
هَؤُلَاءِ إِذَا رَضِيَ الْعَامَّةُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ عَنْهُمْ غَنَى ، وَلَهُمْ بَدَلٌ ، وَالْعَامَّةُ لَا غَنَى عَنْهُمْ  
وَلَا بَدَلَ مِنْهُمْ ، وَلَئِنْهُمْ إِذَا شَغَبُوا عَلَيْهِ كَانُوا كَالْبَحْرِ إِذَا هَاجَ وَاضْطَرَبَ ، فَلَا يَقَاوِمُهُ أَحَدٌ ،  
وَلَيْسَ الْخَاصَّةُ كَذَلِكَ .

ثم قال عليه السلام - ونعم ما قال : ليس شيء أقل نفعا ، ولا أكثر ضررا على الوالى من خواصه أيام الولاية ، لأنهم يثقلون عليه بالحاجات ، والمسائل والشفاعات ، فإذا عزل هجره ورفضوه حتى لو لقوه فى الطريق لم يسلموا عليه .  
والصمو<sup>(١)</sup> بالكسر والفتح والصنا مقصور : الميل .

\*\*\*

### الأفضل :

وَلَيْسَ كُنْ أَمَدَ رَعِيَّتِكَ مِنْكَ ، وَأَسْتَأْهُمْ عِنْدَكَ ، أَطْلَبُهُمْ لِمَعَايِبِ النَّاسِ ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ عُيُوبًا الْوَالِي أَحَقُّ مَنْ سَتَرَهَا ، فَلَا تَكْشِفَنَّ سَمَّا غَابَ عَنْكَ مِنْهَا ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ تَطْهِيرُ مَا ظَهَرَ لَكَ ، وَاللَّهُ يَحْكُمُ عَلَى مَا غَابَ عَنْكَ ، فَاسْتُرِ الْعَوْرَةَ مَا اسْتَطَعْتَ ؛ يَسْتُرِ اللَّهُ مِنْكَ مَا تُحِبُّ سِتْرَهُ مِنْ<sup>(٢)</sup> رَعِيَّتِكَ .

أُطْلِقْ عَنِ النَّاسِ عُقْدَةَ كُلِّ حَقْدٍ ، وَاقْطَعْ عَنْكَ سَبَبَ كُلِّ وَتْرٍ ، وَتَمَاقَبْ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَضِيعُ لَكَ ، وَلَا تَعْجَلَنَّ إِلَى تَصْصِيقِ سَاعِرٍ ، فَإِنَّ السَّاعِيَ غَاشٍ وَإِنْ تَشَبَّهَ بِالنَّاصِحِينَ .

وَلَا تُدْخِلَنَّ فِي مَشُورَتِكَ بَخِيلًا يَعْدِلُ بِكَ عَنِ الْفَضْلِ ، وَيَمِدُّكَ الْفَقْرَ ، وَلَا جَبَانًا يُضْمَعُكَ عَنِ الْأُمُورِ ، وَلَا حَرِيصًا يُزَيِّنُ لَكَ الشَّرَّ بِالْجَوْرِ ، فَإِنَّ الْبُخْلَ وَالْجُبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَائِزُ شَتَّى يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ .

\*\*\*

(١) ب : « الصفو » ، تحريف . (٢) فى د : « عن » .

## الْبُخ :

أَشْنَأُهم عندك ، أَبْغَضَهم إليك :  
وَتَغَابَ : تَغَابَلَ ، يقال : تَغَابَى فلانٌ عن كذا .  
وَيَضِجُ : يَظْهَرُ ، والماضى وَضَجَ .

\*\*\*

## [ فصل فى النهى عن ذكر عيوب الناس وما ورد فى ذلك من الآثار ]

عاب رجلٌ رجلاً عند بعض الأشراف فقال له : لقد أَسْتَدَلَّتْ على كثرة عيوبك بما  
تُكْثِرُ فيه من عُيوب الناس ، لأنَّ طالبَ العُيوب إنما يطلبها بقدر ما فيه منها .

وقال الشاعر :

وأجراً من رأيتَ بظهِرِ غيبٍ      على عيبِ الرجال أولُو العُيوبِ  
وقال آخر :

يا مَنْ يَعِيبُ وعَيْبُهُ مُتَشَعِّبٌ      كَمْ فيكَ من عيبٍ وأنتَ تَعِيبُ !  
وفى الخبر المرفوع : « دَعُوا الناسَ بِغَفَلَتِهِمْ يَعِيشُ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ » .

وقال الوليد بن عتبة بن أبى سُفْيَانَ : كنتُ أسِيرُ أبى ورجلٌ معنا يَقَعُ فى رجلٍ ، فَأَلْتَفْتُ  
أبى إِلَى فَيْسَالٍ : يا بُنَى ؛ نَزَّهَ سَمْعَكَ عن أَسْمَاعِ الخُنا كما تُنَزِّهُ لسانَكَ عن الكلامِ به ، فإنَّ  
المستمعَ شريكَ القائلِ ، إِنَّمَا نَظَرَ إِلَى أَخْبَثَ ما فى وعائِهِ فَأَفْرَغَهُ فى وعائِكَ ، ولو رَدَّتْ كَلِمَةُ  
جاهلٍ فى فيه لَسَمَدَ رَأْدُها كما شَقَّ قَائِلُها .

وقال ابن عباس ، الْحَدَّثَ حَدَّثَانِ : حَدَّثَ مِنْ فَيْكَ ، وَحَدَّثَ  
مِنْ فَرَجِكَ .

وعاب رجلٌ رجلاً عند قُتَيْبَةَ بنِ مسلمٍ ؛ فقال له قُتَيْبَةُ : أَمْسِكْ وَيْحَكَ ! فقد تَلَمَّظْتَ بِمُضْغَةٍ طالما لَفِظَهَا الكرام .

ومرَّ رجلٌ بِجَارَيْنِ له ومعه رِيَّةٌ ، فقال أحدهما لصاحبه : أفهمتَ ما معه من الرِّيَّةِ ؟ قال : وما معه ؟ قال : كذا ، قال : عبدى حرٌّ لوجه الله شكراً له تعالى إذ لم يعرفنى من الشرِّ ما عرفتك .

وقال الفُضَيْلُ بنُ عِيَّاضٍ : إِنَّ الفاحشةَ لَتَنَشِيعُ في كثيرٍ من المسلمين حتَّى إذا صارت إلى الصالحين كانوا لها خُزَّاناً .

وقيل لبزُرْجَمِهرٍ : هل من أحدٍ لا عيبَ فيه ؟ فقال : الذى لا عيبَ فيه لا يموت . وقال الشاعر :

ولستُ بذى تَيْرَبٍ في الرِّجَا	لِ مَنَّاخٍ خَيْرٍ وَسَبَّابِهَا <sup>(١)</sup>
ولا مَنْ إذا كان في جانبٍ	أَضَاعَ العَشِيرَةَ وَأَغْتَابِهَا
ولكن أطاوعُ ساداتِها	ولا اتَّعَمَّ القَابِهَا

وقال آخر :

لا تَلْتَمِسْ من مساوِي الناسِ ما سَتَرُوا	فيكشفُ الله سِتْرًا من مَسَاوِيكََا
وأذكرُ محاسنَ ما فيهم إذا ذُكِرُوا	ولا تَعِبْ أحداً منهم بما فيكََا

وقال آخر :

ابداً بنفسك فأنتَها عن عَيْبِها	فإذا انتهتْ عنه ، فأنتَ حَكِيمٌ <sup>(٢)</sup>
فمنَّاكَ تُعْذِرُ إنْ وَعَظْتَ وَيَقْتَدَى	بالقول منك ، ويُقَبِّلُ التَّعْلِيمُ

\*\*\*

(١) التيرب : الشر وحمل العداوة .

(٢) لأبي الأسود الدؤلى ؛ خزائن الأدب ٣ : ٦١٧ ؛ والرواية هناك : « عن غيها » .

فأما قوله عليه السلام : « أطلق عن الناس عقدة كلِّ حقد » ، فقد استوفى هذا المعنى زياداً في خطبته البتراء فقال : وقد كانت بيني وبين أقوام إحن<sup>(١)</sup> ، وقد جعلت ذلك دبر أذن وتحت قدمي ، فمن كان منكم محسناً فليزدد إحساناً ، ومن كان منكم مسيئاً فليزغ عن إساءته ، إني لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلال<sup>(٢)</sup> من بُغضٍ لم أكشف عنه قناعاً ، ولم أهتِك له سِتراً ، حتى يبدى لي صفحته ، فإذا فعل لم أباظره ، ألا فليشمل كلِّ امرئ منكم على ما في صدره ، ولا يكوننَّ لسانه شفرةً تجري على ودِّجه .

\*\*\*

### [ فصل في النهي عن سماع السعاية وما ورد في ذلك من الآثار ]

فأما قوله عليه السلام : « ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساعٍ » ، فقد ورد في هذا المعنى كلامٌ حسنٌ ، قال ذو الرِّاستين : قبول السَّعاية شرٌّ من السَّعاية لأنَّ السَّعاية دلالة ، والقبول إجازة ، وليس منْ دلَّ على شيء كمن قبله وأجازه ، فامقت الساعي على سعايته ، فإنه لو كان صادقاً كان ثيباً ؛ إذ هتكت العورة ، وأضاع الحرمة .  
وعاتب مصعبُ بنُ الزبير الأحنفَ على أمرٍ بلغه عنه فأنكره ، فقال مُصعب : أخبرني به الثقة ، قال : كلاً أيها الأمير ، إن الثقة لا يبلغ .  
وكان يقال : لو لم يكن من عيب الساعي إلا أنه أصدق ما يكون أضر ما يكون على الناس ، لكان كافياً .

كانت الأكاسرة لا تأذن لأحد أن يطبخ السَّكَبَاج<sup>(٣)</sup> ، وكان ذلك مما يختص به الملك ، فرفع ساع إلى أنوشروان : إن فلانا دعانا ونحن جماعة إلى طعام له وفيه

(١) الإحن : جمع إحنة ، وهي العداوة . (٢) السلال والسل بمعنى .

(٣) السكَبَاج : مرق يعمل من اللحم والخل ؛ معرب .

سِكْبَاج ، فَوَقَّعَ أَنْوَشِرَوَانُ عَلَى رَقْعَتِهِ : قَدْ حَمَدْنَا نَصِيحَتَكَ ، وَذَمَّمْنَا صَدِيقَكَ عَلَى سُوءِ اخْتِيَارِهِ لِلْإِخْوَانِ .

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ وَهُوَ خَلِيفَةُ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلَى دِمَشْقَ ، فَقَالَ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ عِنْدِي نَصِيحَةً ، قَالَ : اذْكُرْهَا ، قَالَ : جِئْتُكَ رَجْعًا مِنْ بَمَثَ سَرًّا ، فَقَالَ : أَمَّا أَنْتَ فَقَدْ أَخْبَرْتَنَا أَنَّكَ جَارٌ سَوَاءٌ ، فَإِنْ شِئْتَ أَرْسَلْنَا مَعَكَ ، فَإِنْ كُنْتَ كَاذِبًا عَاقِبْنَاكَ ، وَإِنْ كُنْتَ صَادِقًا مَقْتَنَّاكَ ، وَإِنْ تَرَكْتَنَا تَرَكْنَاكَ ، قَالَ : بَلْ أَتَرَكْتُكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ . قَالَ : فَانصَرِفْ .

وَمِثْلُ هَذَا يُحْكِي عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ أَنَّ إِنْسَانًا سَأَلَهُ الْخُلُوءَ ، فَقَالَ لَجُلَسَائِهِ : إِذَا شِئْتُمْ فَانصَرِفُوا ، فَلَمَّا تَهَيَّأَ الرَّجُلُ لِلْكَلَامِ قَالَ لَهُ : اسْمَعْ مَا أَقُولُ ، إِيَّاكَ أَنْ تَمْدَحَنِي فَأَنَا أَعْرِفُ بِنَفْسِي مِنْكَ ، أَوْ تَكْذِبَنِي فَإِنَّهُ لَا رَأْيَ لِمُكْذِبٍ ، أَوْ تَسْمَى بِأَحَدٍ إِلَى فَائِزٍ . لَا أَحِبُّ السَّمَايَةَ ، قَالَ : أَفَيَاذُنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْانْصِرَافِ ! قَالَ : إِذَا شِئْتَ . وَقَالَ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

لَعَمْرُكَ مَا سَبَّ الْأَمِيرَ عَدُوُّهُ      وَلَكِنَّمَا سَبَّ الْأَمِيرَ الْمُبَلِّغُ  
وقال آخر :

حُرِمْتُ مُنَائِي مِنْكَ إِنْ كَانَ ذَا الَّذِي (١)      أَتَاكَ بِهِ الْوَأَشُونَ عَنِّي كَمَا قَالُوا  
وَلَكِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْكَ شَرِيعَةً      إِلَى تَوَاصَوْا بِالنِّيمَةِ وَاحْتَالُوا (٢)  
فَقَدْ صِرْتَ أَذُنًا لِلْوُشَاةِ سَمِيعَةً      يَنَالُونَ مِنْ عِرْضِي وَلَوْ شِئْتَ مَا نَالُوا  
وقال عبد الملك بن صالح الجعفر بن يحيى وقد خرج يودِّعُه لَمَّا شَخَّصَ إِلَى خُرَاسَانَ :  
أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، أَحِبَّ أَنْ تَكُونَ لِي كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

(١) فِي « د » لَمْ يَكُنِ الَّذِي ، وَهُوَ مُسْتَقِيمُ الْوِزْنِ وَالْمَعْنَى أَيْضًا .

(٢) الشَّرِيعَةُ : مُورِدُ الشَّارِبَةِ .



فكوني على الواشين لَدَاءَ شَعْبَةٍ      كما أنا للواشي أَلُدُّ شَعُوبُ<sup>(١)</sup>  
قال : بل أكون كما قال القائل :

وإذا الواشي وَشَى يوماً بها      نفع الواشي بما جاء يضرُّ  
وقال العباس بن الأحنف :

ما حَطَّك الواشوان من رُتْبَةٍ      عندي ولا ضَرَّكَ مُغْتَابُ  
كأنهم أُنْتَوُوا ولم يعلموا      عليك عندي بالذي عابوا

\*\*\*

قوله عليه السلام : « ولا تُدْخِلن في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ، ويعدك الفقر » ، مأخوذٌ من قول الله تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا ۗ ﴾<sup>(٢)</sup> ؛ قال المفسرون : الفَحْشَاءُ ها هنا البُخْلُ ؛ ومعنى « يعدكم الفقر » ، يُحِيلُ إليكم أنكم إن سمحتم بأموالكم افتقرتم فيخوفنكم فتخافون فتبخلون .  
قوله عليه السلام : « فَإِنَّ الْبَخْلَ وَالْجَبْنَ وَالْحِرْصَ غَرَارُ شَيْءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ » ، كلامٌ شريف عالٍ على كلام الحكماء ، يقول : إن بينها قدراً مشتركاً وإن كانت غرارٌ وطبائعٌ مختلفة ، وذلك القدر المشترك هو سوء الظنِّ بالله ، لأنَّ الجبان يقول في نفسه : إن أقدمتُ قَتَلْتُ ، والبخيل يقول : إن سمحتُ وأنفقتُ افتقرتُ ، والحريص يقول : إن لم أجددَّ وأجهد وأدأب فاتني ما أروم ؛ وكلُّ هذه الأمور ترجع إلى سوء الظنِّ بالله ، ولو أحسن الظنَّ الإنسان بالله وكان يقينه صادقا لعلم أنَّ الأجل مقدرٌ ، وأنَّ الرزق مقدرٌ ، وأنَّ الغنى والفقر مقدران ، وأنه لا يكون من ذلك إلَّا ما قضَى الله تعالى كونه .

\*\*\*

(١) اللداء : الشديدة الخصومة . (٢) سورة البقرة ٢٦٨

### الأصل :

شَرُّ وَزَرَائِكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ لِلْأَشْرَارِ وَزِيرًا ، وَمَنْ شَرَكَهُمْ فِي الْآثَامِ ،  
فَلَا يَكُونُونَ لَكَ بِطَانَةً ، فَإِنَّهُمْ أَعْوَانُ الْأَثَمَةِ ، وَإِخْوَانُ الظَّلَمَةِ ؛ وَأَنْتَ وَاجِدٌ  
مِنْهُمْ خَيْرَ الْخَلْفِ يَمُنُّ لَهُ مِثْلُ آرَائِهِمْ وَنَفَادِهِمْ ، وَلَيْسَ عَلَيْهِ مِثْلُ أَصَارِهِمْ  
وَأَوْزَارِهِمْ وَأَثَامِهِمْ ، يَمُنُّ لَمْ يُعَاوِزْ ظَالِمًا عَلَى ظُلْمِهِ وَلَا آثِمًا عَلَى إِثْمِهِ ؛ أُولَئِكَ  
أَخَفُ عَلَيْكَ مَوْنَةً ، وَأَحْسَنُ لَكَ مَعُونَةً ، وَأَحْنَى عَلَيْكَ عَطْفًا ، وَأَقْلُّ لِنَعِيرِكَ إِفْلًا .  
فَاتَّخِذْ أُولَئِكَ خَاصَّةً لِيَخْلَوَانِكَ وَخَفَلَاتِكَ ، ثُمَّ لِيَكُنْ آثَرُهُمْ عِنْدَكَ أَقْوَلَهُمْ  
بِرُّ الْحَقِّ لَكَ ، وَأَقْلَسَهُمْ مُسَاعَدَةً فِيمَا يَكُونُ مِنْكَ مِمَّا كَرِهَ اللَّهُ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَاقِمْ  
ذَلِكَ مِنْ هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ .

\*\*\*

### الشرح :

نهى عليه السلام ألا يتخذ بطانة قد كانوا من قبلُ بطانة للظلمة ، وذلك لأن الظلم  
وتحسينه قد صار ملكة ثابتة في أنفسهم ، فبعيد أن يمكنهم الخلو منها إذ قد صارت  
كالخلق الفريزي اللازم لتكرارها وصيرورتها عادةً ، فقد جاءت النصوص في الكتاب  
والسنة بتحريم معاونة الظلمة ومساعدتهم ، وتحريم الاستعانة بهم ، فإن من استعان بهم  
كان معيّنًا لهم ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُظْلِمِينَ عَصُدًا ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقال : ﴿ لَا تَجِدُ  
قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
وجاء في الخبر المرفوع : « يُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ : أَيْنَ مِنْ بَرَى <sup>(٣)</sup> لهم - أى الظالمين - قَلَمًا » .

(١) سورة الكهف ٥١ . (٢) سورة المجادلة ٢٢ .

(٣) ب : « يرى » ، تحريف ، صوابه في ١ ، د .

أُتِيَ الوليد بن عبد الملك برجل من الخوارج ، فقال له : ما تقول في الحجاج ؟ قال : وما عَسَيْتَ أَنْ أَقُولَ فِيهِ ! هَلْ هُوَ إِلَّا خَطِيئَةٌ مِنْ خَطَايَاكَ ، وَشَرَّ مَنْ نَارِكَ ؟ فَلَمَكَ اللَّهُ وَلَعَنَ الْحَجَّاجَ مَعَكَ ! وَأَقْبَلَ يَشْتُمُهُمَا ، فَالْتَفَتَ الْوَلِيدُ إِلَى عَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ فَقَالَ : مَا تَقُولُ فِي هَذَا ؟ قَالَ : مَا أَقُولُ فِيهِ ! هَذَا رَجُلٌ يَشْتُمُكُمْ ، فَإِنَّمَا أَنْ تَشْتُمُوهُ كَمَا شَتَمَكُمْ ، وَإِنَّمَا أَنْ تَعْمُوا عَنْهُ . فَغَضِبَ الْوَلِيدُ وَقَالَ لِعَمْرِ : مَا أَظْنُكَ إِلَّا خَارِجِيًّا ! فَقَالَ عَمْرٌ : وَمَا أَظْنُكَ إِلَّا مَجْنُونًا ؛ وَقَامَ نَفْرَجَ مَغْضَبًا ، وَلَحَقَهُ خَالِدُ بْنُ الرَّيَّانِ صَاحِبُ شُرْطَةِ الْوَلِيدِ ، فَقَالَ لَهُ مَا دَعَاكَ إِلَى مَا كَلَّمْتَ بِهِ أُمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! لَقَدْ ضَرَبْتَ بِيَدِي إِلَى قَائِمٍ سَيَقُفُ أَنْتَظِرُ مَتَى يَأْمُرُنِي بِضَرْبِ عُنُقِكَ ؛ قَالَ : أَوْ كُنْتَ فَاعْلَا لَوْ أَمَرْتُكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . فَلَمَّا اسْتُخْلِفَ عَمْرٌ جَاءَ خَالِدُ بْنُ الرَّيَّانِ فَوَقَفَ عَلَى رَأْسِهِ مُتَقَلِّدًا سِيْهَهُ ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَالَ : يَا خَالِدُ ، ضَعْ سَيْفَكَ فَإِنَّكَ مَطْمِئِنَّا فِي كُلِّ أَمْرٍ نَأْمُرُكَ بِهِ — وَكَانَ بَيْنَ يَدَيْهِ كَاتِبٌ لِلْوَلِيدِ ، فَقَالَ لَهُ : ضَعْ أَنْتَ قَلَمَكَ ، فَإِنَّكَ كُنْتَ تَضُرُّ بِهِ وَتَنْفَعُ ، اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ وَضَعْتُهُمَا فَلَا تَرْفَعُهُمَا ، قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا زَالَا وَضِيْعَيْنِ مَهِينَيْنِ حَتَّى مَاتَا .

وروى الغزالي في كتاب " إحياء علوم الدين " ، قال لما خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين إليه : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعوا الله لك ويرحمك ، فقد أصبحت شيخا كبيرا ، وقد أثقلتك نعم الله عليك بما فهمك من كتابه ، وعلمك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء ، فإنه تعالى قال : ﴿ لَتَبَيِّنَنَّاهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ <sup>(١)</sup> . واعلم أن أيسر ما ارتكبت ، وأخف ما احتملت ، أنك آتست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل النقي بدنوئك إلى من لم يؤدِّ حقًا ، ولم يترك باطلا حين أدناك ، اتخذوك أبا بكر قطبا تدور

عليه رَحًا ظلمهم ، وَجَسْرًا يعبرون عليه إلى بِلَآئِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ ، وَسُلْمًا يَصْعَدُونَ فِيهِ إِلَى ضَلَالَتِهِمْ ، يُدْخِلُونَ بِكَ الشَّكَّ عَلَى الْعُلَمَاءِ ، وَيَقْتَادُونَ بِكَ قُلُوبَ الْجُهَلَاءِ ، فَمَا أَيْسَرُ مَا تَمَرُّوا لَكَ فِي جَنْبٍ مَا خَرَّبُوا عَلَيْكَ ، وَمَا أَكْثَرَ مَا أَخَذُوا مِنْكَ فِي جَنْبٍ مَا أَفْسَدُوا مِنْ حَالِكَ وَدِينِكَ ! وَمَا يُوْثِقُكَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِمْ ﴿خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (١) يَا أَبَا بَكْرَ ، إِنَّكَ تُعَامِلُ مَنْ لَا يَجْهَلُ ، وَيَحْفَظُ عَلَيْكَ مَنْ لَا يَنْفُلُ ، فِدَاؤِ دِينِكَ فَقَدْ دَخَلَهُ سَقَمٌ ، وَهَيْبٌ زَادَكَ فَقَدْ حَضَرَ سَقَرٌ بِمِيدٍ ؟ ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (٢) ، والسلام .

\*\*\*

### الأفضلُ

وَالصَّقَ بِأَهْلِ النُّورِ وَالصَّدِّقِ ثُمَّ رَضُّهُمْ عَلَى أَلَا يُطْرُقُ وَلَا يُبْجَحُّوكَ بِبَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلْهُ ، فَإِنْ كَثُرَ الْإِطْرَاءُ تُحَدِّثُ الرَّهْوَ ، وَتُدْنِي مِنَ الْعِزَّةِ .  
وَلَا يَكُونَنَّ الْمُحْسِنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ سَوَاءٍ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ تَزْهِيدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ فِي الْإِحْسَانِ ، وَتَدْرِيبًا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ عَلَى الْإِسَاءَةِ ، وَالزِّمَ كُلًّا مِنْهُمْ مَا أُلْزِمَ نَفْسُهُ .

\*\*\*

## الشَّيْخُ :

قوله : « والصَّقُّ بأهل الورع » ، كلمةٌ فصِيحةٌ ، يقول : اجعلهم خاصَّتَكَ وخلصاءَكَ .

قال : أَمَّ رُضْمَهُمْ عَلَى الْإِلَّا يُطْرُوكَ ، أَى عَوْدِهِمْ إِلَّا يمدحوك فى وجهك . ولا يمجَّحوك بباطل : لا يمجعلوك ممن يمجَّح أى يفخر بباطل لم يفعله كما يُمجَّح أصحابُ الأمراء الأمراء بأن يقولوا لهم : ما رأينا أعدل منكم ولا أسمع ، ولا سمى هذا الثغر أمير أشدَّ بأساً منكم ! ونحو ذلك ، وقد جاء فى الخبر : « اخشوا فى وجوه المداحين التراب » .

وقال عبد الملك لمن قام يساره : ما تريد ! أتريد أن تمدحنى وتصفىنى ، أنا أعلم بنفسى منك .

وقام خالد بن عبد الله القسرى إلى عمر بن عبد العزيز يوم بيمته فقال : يا أمير المؤمنين ، مَنْ كانت الخلافة زائنته فقد زينها ، وَمَنْ كانت شرفته فقد شرقتها ، فإنك لكما قال القائل :

وَإِذَا الدُّرُّ زَانَ حُسْنَ وَجْهِهِ كَانَ لِلدَّرِّ حُسْنُ وَجْهِهِ زَيْنًا

فقال عمر بن عبد العزيز : لقد أُعطى صاحبكم هذا مقولاً ، وحُرِّمَ معقولاً . وأمره أن يجلس .

ولما عقَدَ معاوية البَيْعَةَ لابنه يزيد قام النَّاسُ يخطبون ، فقال معاوية لعمر بن سعيد الأشدق : قم فأخطب يا أبا أمية ، فقام فقال : أمّا بعد ، فإنَّ يزيدَ ابنَ أمير المؤمنين أُمْلُ تَأْمُلُونَهُ ، وَأَجَلٌ تَأْمُنُونَهُ ، إِنْ أَفْتَقَرْتُمْ إِلَى جَلِيلِهِ وَسَمِعْتُمْ ، وَإِنْ احْتَجَّجْتُمْ إِلَى رَأْيِهِ أُرْسَدْتُمْ ، وَإِنْ اجْتَدَيْتُمْ ذَاتَ يَدِهِ أَغْنَاكُمْ وَشَمِّلَكُمْ ؛ جَذَعٌ قَارِحٌ ؛ سُورِقٌ فَسَبَقَ ، وَمُوجِدٌ فَمَجَّدَ ،

وَقُورِعَ فَتَرَعٌ ، وَهُوَ خَلْفَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَا خَلْفَ مِنْهُ . فَقَالَ مَعَايَةَ : أَوْسَعْتَ يَا أَبَا أُمَيَّةَ فَاجْلِسْ ، فَإِنَّمَا أُرَدْنَا بَعْضَ هَذَا .

وَأَثْنَى رَجُلٌ عَلَى عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي وَجْهِهِ ثَنَاءً أَوْسَعَ فِيهِ . وَكَانَ عِنْدَهُ مَتْنُهَا . فَقَالَ لَهُ : أَنَا دُونَ مَا تَقُولُ ، وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ .

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِمُتَيْبَةَ بِنْتِ أَبِي سُفْيَانَ وَقَدْ أَثْنَى عَلَيْهِ فَأَكْثَرَ : رَوَيْدًا فَقَدْ أُمِيتَتْ يَا أَبَا الْوَلِيدِ - يَعْنِي بِالْفَتْ ، يُقَالُ أُمِيتَ حَافِرُ الْبَيْتِ ، إِذَا أُسْتَقْصِيَ حَفَرُهَا .

فَأَمَّا قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « وَلَا يَكُونَنَّ الْحَسَنُ وَالْمُسَىءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةِ سَوَاءٍ » ، فَقَدْ أَخَذَهُ الصَّبَابِيُّ فَقَالَ : « وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِلْحَسَنِ مَا يَرْفَعُهُ ، وَالْمُسَىءُ مَا يَضَعُهُ ، زَهَدَ الْحَسَنُ فِي الْإِحْسَانِ ، وَاسْتَمَرَّ الْمُسَىءُ عَلَى الظُّلْمَانِ » ، وَقَالَ أَبُو الطَّيِّبِ :

شَرُّ الْبِلَادِ بِلَادُ لَا صَدِيقَ بِهَا      وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصْمُ<sup>(١)</sup>  
وَشَرُّ مَا قَبِضْتُهُ رَاحَتِي قَنْصُهُ      شُبُهُ الْبِرِّ سِوَاهُ فِيهِ وَالرَّحْمُ  
وَكَانَ يُقَالُ : قَضَاءُ حَقِّ الْحَسَنِ أَدَبٌ لِلْمُسَىءِ ، وَعَقُوبَةُ الْمُسَىءِ جَزَاءُ لِلْحَسَنِ .

\*\*\*

### الأضل :

وَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بِأَدْمَى إِلَيَّ حُسْنِ ظَنِّ وَالٍ بِرَعِيَّتِهِ مِنْ إِخْسَانِهِ إِلَيْهِمْ ، وَتَخْفِيفِهِ الْمَثُونَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِكْرَاهِهِ إِيَّاهُمْ عَلَى مَا لَيْسَ لَهُ قِبَلُهُمْ . فَلْيَكُنْ مِنْكَ فِي ذَلِكَ أَمْرٌ يَجْتَمِعُ لَكَ بِهِ إِحْسَانُ الظَّنِّ بِرَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ حُسْنَ الظَّنِّ يَقْطَعُ عَنْكَ نَصَبًا طَوِيلًا ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ حَسُنَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ حَسُنَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ ، وَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ سَاءَ ظَنُّكَ بِهِ لَمَنْ سَاءَ بِلَاؤُكَ عِنْدَهُ .

وَلَا تَنْقُضْ سُنَّةَ صَالِحَةٍ عَمِلَ بِهَا صُدُورُ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، وَأَجْتَمَعَتْ بِهَا الْأُلُفَّةُ ،  
وَصَلَحَتْ عَلَيْهَا الرَّعِيَّةُ .

وَلَا تُحْدِثَنَّ سُنَّةً تَضُرُّ بِشَيْءٍ مِنْ مَاضِيِ تِلْكَ السَّنَنِ ، فَيَكُونُ الْأَجْرُ لِمَنْ سَنَهَا ،  
وَالْوِزْرُ عَلَيْكَ بِمَا نَقَضْتَ مِنْهَا .

وَأَكْثِرِ مُدَارَسَةَ الْعُلَمَاءِ ، وَمُنَاقَشَةَ الْحُكَمَاءِ ، فِي تَثْبِيثِ مَا صَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ  
بِلَادِكَ ؛ وَإِقَامَةِ مَا اسْتَقَامَ بِهِ النَّاسُ قَبْلَكَ .

\*\*\*

### الْبُخ :

خلاصة صدر هذا الفصل ، أن مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ حَسُنَ ظَنُّهُ فَيْكَ ، وَمَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ  
أَسْتَوْحَشَ مِنْكَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّكَ إِذَا أَحْسَنْتَ إِلَى إِنْسَانٍ وَتَكَرَّرَ مِنْكَ ذَلِكَ الْإِحْسَانُ تَبَعَ  
ذَلِكَ أَعْتِقَادُكَ أَنَّهُ قَدْ أَحْبَبَكَ ، ثُمَّ يَتَّبِعُ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادَ أَمْرًا آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّكَ تَحِبُّهُ ؛ لِأَنَّ  
الْإِنْسَانَ يَجْهَلُ عَلَى أَنْ يَحِبَّ مَنْ يَحِبُّهُ ، وَإِذَا أَحْبَبْتَهُ سَكَتَ إِلَيْهِ وَحَسُنَ ظَنُّكَ فِيهِ ،  
وَبِالْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ إِذَا أَسَاءْتَ إِلَى زَيْدٍ ، لِأَنَّكَ إِذَا أَسَاءْتَ إِلَيْهِ وَتَكَرَّرَتِ الْإِسَاءَةُ تَبَعَ  
ذَلِكَ أَعْتِقَادُكَ أَنَّهُ قَدْ أَبْغَضَكَ ، ثُمَّ يَتَّبِعُ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادَ أَمْرًا آخَرَ ، وَهُوَ أَنْ تُبْغِضَهُ أَنْتَ ،  
وَإِذَا أَبْغَضْتَهُ انْقَبَضَتْ مِنْهُ وَأَسْتَوْحَشْتَ ، وَسَاءَ ظَنُّكَ بِهِ .

قال المنصور للرَّبِيعِ : سَلِّني لِنَفْسِكَ ؛ قال . يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مَلَأَتْ يَدِي قَلَمٍ يَبْقَى  
دَمْدَمِي مَوْضِعُ الْمَسْأَلَةِ ؛ قال : فَسَلِّني لَوَلَدِكَ ، قال : أَسْأَلُكَ أَنْ تَحِبَّهُ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ :  
يَارَبِيعُ ، إِنَّ الْحَبَّ لَا يُسْأَلُ ، وَإِنَّمَا هُوَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ الْأَسْبَابُ ، قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّمَا  
أَسْأَلُكَ أَنْ تَزِيدَ مِنْ إِحْسَانِكَ ، فَإِذَا تَكَرَّرَ أَحْبَبَكَ ، وَإِذَا أَحْبَبَكَ أَحْبَبْتَهُ . فَاسْتَحْسَنَ .

المنصورُ ذلك ، ثمّ نهاه عن نقض السنن الصالحة التي قد عمل بها من قبله من صالحى الأمة ، فيكون الوزر عليه بما نقض ، والأجر لأولئك بما أسسوا ، ثم أمره بمطارحة العلماء والحكماء فى مصالح عمله ، فإنّ المشورة بركة ، ومن استشار فقد أضاف عقلاً إلى عقله .  
ومما جاء فى معنى الأول :

قال رجلٌ لإياس بن معاوية : من أحبّ الناس إليك ؟ قال : الذين يُعطونى ، قال : ثمّ من ؟ قال : الذين أُعطيتهم .

وقال رجلٌ لهشام بن عبد الملك : إنّ الله جعل العطاء محبة ، والمنع مبغضة ، فأعنى على حبك ، ولا تمنى فى بُغضك .

\*\*\*

### الأصل :

وَاعْلَمَ أَنَّ الرَّعِيَّةَ طَبَقَاتٌ ، لَا يَصْلُحُ بَعْضُهَا إِلَّا بِبَعْضٍ ، وَلَا غِنَى يَبْعَثُهَا عَنْ بَعْضٍ ، فَمِنْهَا جُنُودُ اللَّهِ ، وَمِنْهَا كُتَّابُ الْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ ، وَمِنْهَا قُضَاةُ الْعَدْلِ ، وَمِنْهَا عُمَالُ الْإِنصَافِ وَالرَّفْقِ ، وَمِنْهَا أَهْلُ الْجِزْيَةِ وَالْخَرَاجِ مِنْ أَهْلِ الدِّمَّةِ وَمُسْلِمَةِ النَّاسِ ، وَمِنْهَا التَّجَّارُ وَأَهْلُ الصَّنَاعَاتِ ، وَمِنْهَا الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ ذَوَى الْحَاجَاتِ وَالْمَسْكِنَةِ ، وَكُلٌّ قَدْ سَمَّى اللَّهُ لَهُ سَهْمَهُ ، وَوَضَعَ عَلَى حَدِّهِ وَفَرِيضَتِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ سُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَهْدًا مِنْهُ عِنْدَنَا مَحْفُوظًا .

فَالْجُنُودُ بِإِذْنِ اللَّهِ حُصُونُ الرَّعِيَّةِ ، وَزَيْنُ الْوَلَاةِ ، وَعِزُّ الدِّينِ ، وَسُبُلُ الْأَمْنِ ؛ وَلَيْسَ يَقُومُ الرَّعِيَّةُ إِلَّا بِهِمْ ، ثُمَّ لَا قَوَامَ لِلْجُنُودِ إِلَّا بِمَا يُخْرِجُ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْخَرَاجِ الَّذِى يَقْوُونَ بِهِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِمْ ، وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ فِيمَا يُصْلِحُهُمْ ، وَيَكُونُ مِنْ وَرَاءِ حَاجَتِهِمْ ، ثُمَّ لَا قَوَامَ لِهَذَيْنِ الصَّنِفَيْنِ إِلَّا بِالصَّنْفِ الثَّالِثِ مِنَ الْقُضَاةِ وَالْعُمَالِ



وَالْكِتَابِ ، لِمَا يُحْكِمُونَ مِنَ الْمَعَادِ ، وَيَجْمَعُونَ مِنَ الْمَنَافِعِ ، وَيُؤْتَمِنُونَ عَلَيْهِ  
مِنْ خَوَاصِّ الْأُمُورِ وَعَوَامِّهَا ؛ وَلَا قَوَامَ لَهُمْ جَمِيعًا إِلَّا بِالتَّجَارِ وَذَوَى الصَّنَاعَاتِ ،  
فِيمَا يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ مِنْ مَرَافِقِهِمْ ، وَيُقِيمُونَهُ مِنْ أَسْوَاقِهِمْ ، وَيَكْمُؤُهُمْ مِنْ  
التَّرَفِّقِ بِأَيْدِيهِمْ ، مِمَّا لَا يَبْلُغُهُ رِفْقُ غَيْرِهِمْ .

ثُمَّ الطَّبَقَةُ السُّفْلَى مِنْ أَهْلِ الْحَاجَةِ وَالْمَسْكِنَةِ ، الَّذِينَ يَحِقُّ رِفْدُهُمْ وَمَعُونَتُهُمْ .  
وَفِي اللَّهِ لِكُلِّ سَعَةٍ ، وَلِكُلِّ عَلَى الْوَالِي حَقٌّ بِقَدْرِ مَا يُصْلِحُهُ .  
وَلَيْسَ يَخْرُجُ الْوَالِي مِنْ حَقِيقَةِ مَا أَلْزَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ ذَلِكَ ، إِلَّا بِالِاهْتِمَامِ  
وَالِاسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ ؛ وَتَوَطُّبِنِ نَفْسِهِ عَلَى لُزُومِ الْحَقِّ وَالصَّبْرِ عَلَيْهِ فِيمَا خَفَّ عَلَيْهِ  
أَوْ ثَقُلَ .

\*\*\*

### الْمَنْحَرُ :

قالت الحكماء : الإنسان مَدَنِيٌّ بالطَّبْعِ ؛ ومعناه أنه خُلِقَ خِلْقَةً لَا بَدَأَ مِنْهَا مَنْ أَنْ  
يَكُونَ مَنْضَمًّا إِلَى أَشْخَاصٍ مِنْ بَنِي جَنْسِهِ ، وَمَتَمِّدًا فِي مَكَانٍ بَعِينَةٍ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالْمَتَمِّدِّ  
سَاكِنَ الْمَدِينَةِ ذَاتِ السُّورِ وَالسُّوقِ ، بَلْ لَا بَدَأَ أَنْ يَقِيمَ فِي مَوْضِعٍ مَا مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْبَشَرِ ؛  
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ مُضْطَرٌّ إِلَى مَا يَأْكُلُهُ وَيَشْرَبُهُ لِيَقِيمَ صَوْرَتَهُ ، وَمُضْطَرٌّ إِلَى مَا يَلْبَسُهُ ،  
لِيُدْفِعَ عَنْهُ أَذَى الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ، وَإِلَى مَسْكَنٍ يَسْكُنُهُ لِيَرُدَّ عَنْهُ عَادِيَّةٌ غَيْرُهُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ ،  
وَلِيَكُونَ مَنَزِلًا لَهُ لِيَتِمَكَّنَ مِنَ التَّصَرُّفِ وَالْحَرَكَةِ عَلَيْهِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِنْسَانَ وَحْدَهُ  
لَا يَسْتَقِلُّ بِالْأُمُورِ الَّتِي عَدَدْنَاهَا ، بَلْ لَا بَدَأَ مِنْ جَمَاعَةٍ يَحْرُثُ بَعْضُهُمْ لغيرِهِ الْحَرْثَ ، وَذَلِكَ  
لِغَيْرِ يَحْوُلُكَ لِلْحَرَاثِ الثَّوْبِ ، وَذَلِكَ الْخَائِكَ يَبْنِي لَهُ غَيْرُهُ الْمَسْكَنَ ، وَذَلِكَ الْبَنَاءُ يَحْمِلُ لَهُ

غيره<sup>(١)</sup> الماء ، وذلك السقاء يكفيه غيره أمرٌ تحصيل الآلة التي يطحن بها الحب ويمجن بها الدقيق ، ويخبز بها العجين ، وذلك المحصل لهذه الأشياء يكفيه غيره الاهتمام بتحصيل الزوجة التي تدعو إليها داعية الشبق ، فيحصل مساعدة بعض الناس لبعض ، لولا ذلك لما قامت الدنيا ، فلهذا معنى قوله عليه السلام : « إنهم طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غناء ببعضها عن بعض » .

ثم فصلهم وقسمهم فقال : منهم الجند ،<sup>(٢)</sup> ومنهم الكتّاب ، ومنهم القضاة ، ومنهم العمال<sup>(٣)</sup> ، ومنهم أرباب الجزية من أهل الذمة ، ومنهم أرباب الخراج من المسلمين ، ومنهم التجار ، ومنهم أرباب الصناعات . ومنهم ذوو الحاجات والسكنة ، وهم أدون الطبقات .

ثم ذكر أعمال هذه الطبقات فقال : الجند للحماية ، والخراج يُصرف إلى الجند والقضاة والعمال والكتّاب لما يحكونه من المعاهد ، ويجمعونه من النافع ، ولا بدّ لهؤلاء جميعاً من التجار لأجل البيع والشراء الذي لا غناء عنه ، ولا بدّ لكلٍّ من أرباب الصناعات كالحداد والتجار والبناء وأمثالهم . ثم تلى هؤلاء الطبقة السفلى ، وهم أهل الفقر والحاجة الذين تجب معونتهم والإحسان إليهم .

وإنما قسمهم في هذا الفصل هذا التقسيم تمهيداً لما يذكره فيما بعد ، فإنه قد شرع بعد هذا الفصل ، فذكر طبقة طبقة وصنفاً صنفاً ، وأوصاه في كلّ طبقة وفي كلّ صنف منهم بما يليق بحاله ، وكأنه<sup>(٣)</sup> مهّد هذا التمهيد ، كالفرست لما يأتي بعده من التفصيل .

\*\*\*

(١) ب : « غير تحريف » . (٢-٢) ساقط من ب ، وأنبهته من ا د .

(٣) ا : « لكانه » .

## الأضل :

قَوْلٍ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَّسُولِهِ وَلَا يَمُوكَ ، وَأَطَهَرَهُمْ جَبِينًا ، وَأَفْصَلَهُمْ حِلْمًا ، يَمْنَنُ يُبْطِئُ عَنِ الْمَغْصَبِ ؛ وَيَسْتَرْجِعُ إِلَى الْعُذْرِ ، وَيَرَأْفُ بِالضَّعْفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى الْأَقْوِيَاءِ ؛ وَيَمْنَنُ لَا يُثِيرُهُ الْمُنْفُ ، وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ .

ثُمَّ انْصَنَ بِذَوِي الْمَرْوَاتِ وَالْأَحْسَابِ ؛ وَأَهْلَ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ ، وَالسَّوَابِقِ الْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلَ النَّجْدَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَالسَّخَاءِ وَالسَّمَاحَةِ ؛ فَأَتَاهُمْ جَمَاعٌ مِنَ الْكَرَمِ ، وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ .

ثُمَّ تَفَقَّدَ مِنْ أُمُورِهِمْ مَا يَتَفَقَّدُ الْوَالِدَانِ مِنْ وَلَدِيهِمَا ؛ وَلَا يَتَفَاقَمَنَّ فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ لَا قُوَّةَ لَهُمْ بِهِ . وَلَا تُحَقِّرَنَّ لُطْفًا تَعَاهَدْتَهُمْ بِهِ وَإِنْ قَلَّ ؛ فَإِنَّهُ دَاعِيَةٌ لَهُمْ إِلَى بَدْلِ الذَّصِيحَةِ لَكَ ، وَحُسْنِ الظَّنِّ بِكَ .

وَلَا تَدْعُ تَفَقَّدَ لَطِيفِ أُمُورِهِمْ اتِّكَالًا عَلَى جَسِيمِهَا ؛ فَإِنَّ لِلْيَسِيرِ مِنْ لُطْفِكَ مَوْضِعًا يَنْتَفِعُونَ بِهِ ؛ وَلِلْجَسِيمِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَفْنُونَ عَنْهُ ؛ وَلَيْكُنْ آثَرُ رُءُوسِ جُنْدِكَ عِنْدَكَ مِنْ وَاسَاهُمْ فِي مَعُونَتِهِ ، وَأَفْضَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ جِدَّتِهِ ، بِمَا يَسْمَعُهُمْ وَيَسْعُ مَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ خُلُوفِ أَهْلِيهِمْ ، حَتَّى يَكُونَ هَمُّهُمْ هَمًّا وَاحِدًا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ، فَإِنَّ عَطْفَكَ عَلَيْهِمْ يَمْطِفُ قُلُوبَهُمْ عَلَيْكَ . وَلَا تَصِحْ نَصِيحَتُهُمْ إِلَّا بِحِيطَتِهِمْ<sup>(١)</sup> عَلَى وُلَاةِ أُمُورِهِمْ ، وَقِلَّةِ اسْتِنْقَالِ دُورِهِمْ ، وَتَرْكِ اسْتِبْطَاءِ انْقِطَاعِ مُدَّتِهِمْ .

فَانْسَحْ فِي أَمَارِهِمْ ، وَوَاصِلٍ مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ ، وَتَعْدِيدِ مَا أَبْلَى ذُووُ الْبَلَاءِ

(١) مخطوطة النهج : « بحيطتهم » بالياء المشددة المكسورة .

مِنْهُمْ ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الذِّكْرِ لِحُسْنِ فَعَالِهِمْ تَهْزُ الشَّجَاعَ ، وَتُحَرِّضُ النَّاسَ كُلَّ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .  
ثُمَّ اعْرِفْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا أَبْلَى ، وَلَا تَضْمَنْ بَلَاءَ امْرِئٍ إِلَى غَيْرِهِ ،  
وَلَا تُقْصِرَنَّ بِهِ دُونَ غَايَةِ بَلَائِهِ .

وَلَا يَدْعُوَنَّكَ شَرَفُ امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُعْظِمَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ صَغِيرًا ، وَلَا ضَعْفُ  
امْرِئٍ إِلَى أَنْ تُسْتَصْفِرَ مِنْ بَلَائِهِ مَا كَانَ عَظِيمًا ، وَارْذُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مَا يُضِلُّكَ  
مِنَ الْخُطُوبِ ، وَيَشْتَبِهُ عَلَيْكَ مِنَ الْأُمُورِ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِقَوْمٍ أَحَبَّ  
إِرْشَادَهُمْ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ  
فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ (١) ، فَارْذُ إِلَى اللَّهِ الْآخِذُ بِمُحْكَمِ  
كِتَابِهِ ، وَارْذُ إِلَى الرَّسُولِ الْآخِذُ بِسُنَّتِهِ الْجَامِعَةِ غَيْرِ الْمُهَرِّقَةِ .

\*\*\*

### الْبَيْزُج :

هذا الفصل مختصٌّ بالوصاية فيما يتعلق بأمراء الجيش ، أمره أن يولي أمر الجيش  
من جنوده مَنْ كَانَ أَنْصَحَهُمْ لِلَّهِ فِي ظَنِّهِ ، وَأَطْعَمَهُمْ جَيْبًا ، أَيْ عَفِيفًا أَمِينًا ؛ وَيُكْنَى  
عَنِ الْعِفَّةِ وَالْأَمَانَةِ بِطَهَارَةِ الْجَيْبِ ، لِأَنَّ الَّذِي يَسْرِقُ يَجْعَلُ الْمَسْرُوقَ فِي جَيْبِهِ .  
فَإِنْ قُلْتَ : وَأَيُّ تَعَلُّقٍ لِهَذَا بِوُلاَةِ الْجَيْشِ ؟ إِنَّمَا يَلْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْوَصِيَّةُ  
فِي وُلاَةِ الْخِرَاجِ !

قلت : لا بدَّ منها في أمراء الجيش لأجل الغنائم .

ثُمَّ وَصَفَ ذَلِكَ الْأَمِيرَ فَقَالَ : « مِمَّنْ يَظْطَرُّ عَنِ الْغَضَبِ ، وَيَسْتَرْجِعُ إِلَى الْعُذْرِ » ، أَيْ يَقْبَلُ

أَذْنَى عَذْر ، وَيَسْتَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَيَسْكُنُ عِنْدَهُ . وَيَرْؤُفُ<sup>(١)</sup> عَلَى الضَّعْفَاءِ ، يَرْفُقُ بِهِمْ وَيَرْحُمُهُمْ ، وَالرَّأْفَةُ : الرَّحْمَةُ . وَيَتَّبِعُوا عَنْ الْأَقْوِيَاءِ : يَتَجَافَى عَنْهُمْ وَيُبْعِدُ ، أَيْ لَا يُعْكَنُّهُمْ مِنْ الظُّلْمِ وَالتَّعَدَّى عَلَى الضَّعْفَاءِ . وَلَا يَشِيرُهُ الْعُنْفُ : لَا يَهَيِّجُ غَضَبَهُ عُنْفٌ وَقَسْوَةٌ . وَلَا يَقْعُدُ بِهِ الضَّعْفُ ، أَيْ لَيْسَ عَاجِزًا .

ثُمَّ أَمْرُهُ أَنْ يَلْصُقَ بِذَوِي الْأَحْسَابِ وَأَهْلِ الْبُيُوتَاتِ ، أَيْ يَكْرِمُهُمْ وَيَجْعَلُ مَعُولَهُ فِي ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَتَعَدَّى أَمْرًا إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَكَانَ يُقَالُ : عَلَيْكُمْ بِذَوِي الْأَحْسَابِ ؛ فَإِنْ هُمْ لَمْ يَتَكَرَّمُوا اسْتَحْيَوْا<sup>(٢)</sup> .

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَهُمْ أَهْلَ الشُّجَاعَةِ وَالسَّخَاءِ ، ثُمَّ قَالَ : « إِنَّهَا جَمَاعٌ مِنَ الْكِرَمِ ، وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ ؛ مِنْ هَاهُنَا زَائِدَةٌ ؛ وَإِنْ كَانَتْ فِي الْإِيحَابِ عَلَى مَذْهَبِ أَبِي الْحَسَنِ الْأَخْفَشِ ، أَيْ جَمَاعِ الْكِرَمِ ، أَيْ يَجْمَعُهُ كَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « الْخَمْرُ جَمَاعُ الْإِثْمِ » . وَالْعُرْفُ : الْمَعْرُوفُ .

وكَذَلِكَ « مَنْ » فِي قَوْلِهِ : « وَشُعْبٌ مِنَ الْعُرْفِ » أَيْ وَشُعْبُ الْعُرْفِ ، أَيْ هِيَ أَقْسَامُهُ وَأَجْزَاؤُهُ ، وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ « مَنْ » عَلَى حَقِيقَتِهَا لِلتَّيْعِيضِ ، أَيْ هَذِهِ الْخِلَالُ جَمْلَةٌ مِنَ الْكِرَمِ وَأَقْسَامِ الْمَعْرُوفِ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ غَيْرَهَا أَيْضًا مِنَ الْكِرَمِ وَالْمَعْرُوفِ ، وَنَحْوِ الْعَدْلِ وَالْعِفَّةِ .

قَوْلُهُ : « ثُمَّ تَفَقَّدَ مِنْ أُمُورِهِمُ » الضَّمِيرُ هَاهُنَا يَرْجِعُ إِلَى الْأَجْنَادِ لَا إِلَى الْأُمَرَاءِ لِمَا سَنُذَكِّرُهُ ؛ مِمَّا يَدُلُّ الْكَلَامُ عَلَيْهِ .

فَإِنْ قُلْتَ : إِنَّهُ لَمْ يَجِزْ لِلْأَجْنَادِ ذِكْرُهُ فِيمَا سَبَقَ ؛ وَإِنَّمَا الْمَذْكُورُ الْأُمَرَاءُ ! قُلْتَ : كَلَّا بَلْ سَبَقَ ذِكْرُ الْأَجْنَادِ ، وَهُوَ قَوْلُهُ : « الضَّعْفَاءُ وَالْأَقْوِيَاءُ » .

(١) د : « يرأف » ، تحريف . .

(٢) د : « استحبوا » ، ب : « استحبوا » ، وأثبت ما في أ .

وأمره عليه السلام أن يتفقد من أمور الجيش ما يتفقد الوالدان من حال الولد : وأمره ألا يعظم عنده ما يقويهم به وإن عظم ، وألا يستحقّر شيئاً تعهدهم به وإن قلّ ، وألا يمنعه تفقدُ جسيم أمورهم عن تفقد صغيرها . وأمره أن يكون أثر رءوس جنوده عنده وأحظاهم عنده وأقربهم إليه منّ وإساهم في معونته ؛ هذا هو الضمير الدالّ على أن الضمير المذكور أولاً للجند لا لأمراء الجند ؛ لولا ذلك لما انتظم الكلام .

قوله : « من خلّوف أهليهم » ، أى ممن يخلفونه من أولادهم وأهليهم . ثم قال : لا يصحّ نصيحة الجند لك إلا بحيطتهم على ولايتهم ؛ أى بتعطّئهم عليهم وتحنّئهم ، وهى الحيلة على وزن الشّيمة ، مصدر حاطه يحوطه حوطاً وحياطاً ، وحيلة ، أى كلاء ورطاه ، وأكثر الناس يروونها « إلا بحيطتهم » بتشديد الياء وكسرهما ، والصحيح ما ذكرناه .

قوله : « وقلة استئفال دؤلهم » ؛ أى لا تصحّ نصيحة الجند لك إلا إذا أحبوا أمراءهم ثم لم يستئفلوا دؤلهم ؛ ولم يتمنّوا زوالها . ثم أمره أن يذكر في المجالس والمحافل بلاء ذوى البلاء منهم ؛ فإنّ ذلك مما يرهّف عزم الشّجاع ويحرك الجبان .

قوله : « ولا تضمّنّ بلاء امرئ إلى غيره » ، أى اذكر كلّ من أبلى منهم مفرداً غير مضموم ذكرُ بلائه إلى غيره ، كي لا يكون مغموراً في جنب ذكر غيره .

ثم قال له : لا تعظم بلاء ذوى الشرف لأجل شرفهم ، ولا تحقر بلاء ذوى الضمّة لضمة أنسابهم ، بل اذكر الأمور على حقائقها .

ثم أمره أن يردّ إلى الله ورسوله ما يضلعه من الخطوب ؛ أى ما يثوده ويُميله

لثقله ، وهذه الرواية أصحّ من رواية من رواها بالظّاء ؛ وإن كان لتلك وجه .

\* \* \*

### [ رسالة الإسكندر إلى أرسطو وردّ أرسطو عليه ]

وينبغي أن نذكر في هذا الموضع رسالة أرسطو إلى الإسكندر في معنى المحافظة على أهل البيوتات وذوى الأحساب ، وأن يخصّهم بالرياسة والإمرة ؛ ولا يعدل عنهم إلى العامة والسفلة ، فإن في ذلك تشييداً لكلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ووصيته .  
لما ملك الإسكندر إيران شهر - وهو العراق مملكة الأكاسرة - وقتل دارا بن دارا كتب إلى أرسطو وهو ببلاد اليونان :

عليك أيّها الحكيم منّا السلام ، أما بعد فإن الأفلاك الدائرة ، والعلل السماوية ؛ وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبح الناس لنا بها دائبين ، فإننا جدّ واجدين لسّ الاضطراب إلى حكمتك ، غير جاحدين لفضلك والإقرار بمنزلتك ، والاستئانة<sup>(١)</sup> إلى مشورتك والاعتداء برأيك ؛ والاعتماد لأمرك ونهيك ، لِمَا بلوّنّا من جدّا ذلك علينا ، وذقنا من جنّا منفعته ، حتى صار ذلك بنجوعه فينا وترسّخه في أذهاننا وعقولنا كالغذاء لنا ، فما ننفك نعوّل عليه ، ونستمدّ منه استمداد الجدّاء من البحور ، وتمويل الفروع على الأصول ، وقوّة الأشكال بالأشكال . وقد كان مما سيق إلينا من النصر والفلج ، وأتيح لنا من الظّفَر ، وبلغنا في المدوّ من النّكاية والبطش ما يعجز القول عن وصفه ، ويقصّر شكر المنعم عن موقع الإنعام به ، وكان من ذلك أنّا جاوزنا أرض سورّية والجزيرة إلى بابل وأرض فارس ، فلما حملنا بمقوّة<sup>(٢)</sup> أهلها وساحة بلادهم ، لم يكن إلّا ريثما تلقّنا نمرّ منهم برأس ملكهم هديّة إلينا ، وطلباً للحظوة عندنا ، فأمرنا بصلب من

(١) كذا في ١ ، واستئمان إلى الأمر : سكن إليه ؛ وفي ب : « الاستئانة » .

(٢) المقوّة : ماحول الدار .

جاء به وشهرته لسوء بلائه ، وقلة ارعوائه ووفائه ؛ ثم أمرنا بجمع مَنْ كان هناك من أولاد ملوكهم وأحرارهم وذوى الشرف منهم ؛ فرأينا رجالاً<sup>(١)</sup> عظيمةً أجسامهم وأحلامهم ، حاضرةً ألبابهم وأذهانهم ، رائعةً مناظرهم ومناطقهم ، دليلاً على أن ما يظهر من روائهم ومنطقهم أن وراءه من قوة أيديهم ، وشدة نجاتهم وبأسهم ما لم يكن ليكون لنا سبيل إلى غلبتهم وإعطائهم بأيديهم ، لولا أن القضاء أدالنا منهم ، وأظهرنا بهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نرَ بميدا من الرأى فى أمرهم أن نستأصل شأفتهم ، ونبحث أصلهم ، ونلحقهم بمن مضى من أسلافهم ، لتسكن القلوب بذلك الأمن إلى جرائهم وبوائقهم ؛ فرأينا ألا نجعل بإسعافٍ بادية الرأى فى قتلهم دون الاستظهار عليهم بمشورتك فيهم . فرفع إلينا رأيك فيما استشرناك فيه بمد صحتك عندك ، وتقليبك إياه بجلى نظرك ، وسلام أهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب إليه أرسطو :

ملك الملوك ، وعظيم العظماء ، الإسكندر المؤيد بالنصر على الأعداء ، المهدي له الظفر بالملك ، من أصغر عبده وأقل خواله ؛ أرسطو طاليس البخوع بالسجود والتذلل فى السلام ، والإذعان فى الطاعة :

أما بعد ، فإنه لا قوة بالمنطق وإن احتشد الناطق فيه ، واجتهد فى تثقيف معانيه ، وتأليف حروفه ومبانيه على الإحاطة بأقل ماتناله القدرة من بسطة علو الملك وسمو ارتفاعه عن كل قول ، وإبرازه على كل وصف ، واغترافه بكل إطناب . وقد كان تقرر عندي من مقدمات إعلام فضل الملك فى صهلة سبقه ، وبروز شأوه ، ويمن نقيته ، مذ أدت إلى حاسة بصري صورة شخصه ، واضطرب فى حسن سمعى صوت لفظه ، ووقع وهمى

---

(١) ب : « رجالة » .



على تعقيب نجاح رأيه ، أيام كنت أؤدى إليه من تكلف تعليمي إياه ما أصبحت قاضيا على نفسى بالحاجة إلى تعلّمه منه . ومهما يَكُنْ مَنى إليه فى ذلك ، فإنما هو عقل مردود إلى عقله ، مستنبطة أو اليه وتواليه من علمه وحكمته . وقد جلا إلى كتاب الملك ومخاطبته إياى ومسألته لى عما لا يتخالجنى الشكّ فى لقاح ذلك وإنتاجه من عنده ، فعنه صَدَرَ وعليه وَرَدَ ؛ وأنا فيما أشير به على الملك - وإن اجتمعت فيه واحتشدت له ، وتجاوزت حدّ الوسع والطاقة مَنى فى استنظافه واستقصائه - كالعدم مع الوجود ، بل كما لا يتجزأ فى جنب معظم الأشياء ، ولكّنى غير ممتنع من إجابة الملك إلى ما سأل ، مع علمى ويقينى بعظيم غناه عنى ، وشدة فاقى إليه ، وأنا رادُّ إلى الملك ما اكتسبته منه ، ومشير عليه بما أخذته ، منه فقائل له :

إن لكل تربة لا محالة قسماً من المضائل ، وإن لفارس قسمها من النجدة والقوة ، وإنك إن تقتل أشرافهم تُخلفُ الوضعاء على أسقابهم ، وتورث سفلتهم على منازل عليّتهم ، وتغلب أدنياءهم على مراتب ذوى أخطارهم ؛ ولم يبتل الملوك قطّ ببلاء هو أعظم عليهم وأشدّ توهيناً لسلطانهم من غلبة السفلة ، وذلّ الوجوه ، فاحذر الحذر كله أن تمكّن تلك الطبقة من الغلبة والحركة ، فإنه إن نجم منهم بعد اليوم على جندك وأهل بلادك ناجمٌ دهمهم منه ما لا روية فيه ، ولا بقية معه ؛ فانصرف عن هذا الرأى إلى غيره ، واعمد إلى مَنْ قبلك من أولئك العطاء والأحرار ، فوزّع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كلّ مَنْ وليته منهم ناحيته ، واعقد التاج على رأسه وإن صغر ملكه ، فإن المتسمى بالملك لازم لاسمه ، والمعقود التاج على رأسه لا يخضع لغيره ، فليس ينشب<sup>(١)</sup> ذلك أن يوقع كلّ ملك منهم بينه وبين صاحبه تدابراً وتقاطماً وتغالباً على الملك ، وتاخراً بالمال والجند ؛ حتى ينسوا بذلك أضغانهم عليك وأوتارهم فيك ، ويعود حربهم لك حرباً

---

(١) : « يلبث » .

بينهم ، وحقنهم سليك حنقاً منهم على أنفسهم ، ثم لا يزدادون في ذلك بصيرة إلا أحدثوا لك بها استقامة ؛ إن دنوت منهم دانوا لك ، وإن تأيت عنهم تمرزوا بك ، حتى يثب من ملك منهم على جاره باسمك ، ويستره به بجندك ، وفي ذلك شاغل لهم عنك ، وأمان لإحداهم بعدك ، وإن كان لا أمان للدهر ، ولا ثقة بالأيام .

قد أدت إلى الملك ما رأيته لي حظاً ، وعلى حقاً ، من إجابتي إياه إلى ما سألتني عنه ، ومحضته النصيحة فيه ، والملك أعلى ديناً ، وأنفذ رويةً ، وأفضل رأياً ، وأبعد همّة فيما استعان بي عليه ؛ وكفى بتبيينه والمشورة عليه فيه . لا زال الملك متمرفاً من عوائد الذم وعواقب الصنع ، وتوطيد الملك ، وتنفيس الأجل ، ودرك الأمل ، ما تأتى فيه قدرته على غاية قصوى ما تناله قدرة البشر !

والسلام الذى لا انقضاء له ، ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .  
قالوا : فعمل الملك برأيه . واستخلف على إيران شهر أبناء الملوك والعطاء من أهل فارس ، فهم ملوك الطوائف الذين بقوا بعده ؛ والمملكة موزعة بينهم إلى أن جاء أزدشير ابن بابك فانتزع الملك منهم .

\*\*\*

### الأصل :

ثُمَّ اخْتَرْتُ لِحُكْمِ بَيْنِ النَّاسِ أَفْضَلَ رَعِيَّتِكَ فِي نَفْسِكَ ، مِمَّنْ لَا تَضِيقُ بِهِ الْأُمُورُ ، وَلَا تَمَحْكُهُ الْخُصُومُ ، وَلَا يَمَادَى فِي الرِّائَةِ ، وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْغَيِّ إِلَى الْحَقِّ إِذَا عَرَفَهُ ، وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ عَلَى طَمَعٍ ، وَلَا يَكْتَفِي بِأَذَى فَهْمٍ دُونَ أَقْصَاءِ . وَأَوْفَقَهُمْ فِي الشُّبُهَاتِ ، وَأَخَذَهُمْ بِالْحُجَجِ ، وَأَقْلَبَهُمْ تَبَرُّماً بِمُجَامَعَةِ الْخَصْمِ ، وَأَصْبَرَهُمْ

عَلَى تَكْشِفِ الْأُمُورِ ، وَأَصْرَمَهُمْ عِنْدَ اتِّصَاحِ الْحُكْمِ ، مِمَّنْ لَا يَزِدُّهُ إِطْرَا ، وَلَا يَسْتَمِيلُهُ إِغْرَا ، وَأَوَّلِيكَ قَلِيلٌ .

ثُمَّ أَكْثَرَ تَعَاهَدَ قَضَائِهِ ، وَأَفْسَحَ لَهُ فِي الْبَذْلِ مَا يُزِيحُ عِلَّتَهُ ، وَتَقِلُّ مَمَّهُ حَاجَتُهُ إِلَى النَّاسِ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْمَنْزِلَةِ لَدَيْكَ مَا لَا يَطْمَعُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنْ خَاصَّتِكَ ، لِيَأْمَنَ بِذَلِكَ اغْتِيَالَ الرَّجَالِ لَهُ عِنْدَكَ . فَانْظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا بَلِيغًا ، فَإِنَّ هَذَا الدِّينَ قَدْ كَانَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الْأَشْرَارِ ، يُعْمَلُ فِيهِ بِالْهَوَى ، وَتُطْلَبُ بِهِ الدُّنْيَا .

\*\*\*

### الشَّيْخُ :

تَمَحَّكهُ الْخُصُومُ : تَجْعَلُهُ مَاحِكًا ، أَيْ لُجُوجًا ، مَحَكُ الرَّجُلِ ، أَيْ لُجٍّ ، وَمَاحِكُ زَيْدٍ عَمْرًا ؛ أَيْ لَاجَهُ .

قوله : « وَلَا يَتِمَادَى فِي الرَّثَّةِ » ، أَيْ إِنْ زَلَّ رَجَعَ وَأُنَابَ ، وَالرَّجِيعُ إِلَى الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّمَادَى فِي الْبَاطِلِ .

قوله : « وَلَا يَحْصَرُ مِنَ الْفَيْءِ » هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ بِمَعْنَاهُ ، وَالْفَيْءُ : الرَّجُوعُ ، إِلَّا أَنْ هَا هُنَا زِيَادَةٌ ، وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَحْصَرُ ، أَيْ لَا يَمْلَأُ فِي الْمُنَاطِقِ ، لِأَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ إِذَا زَلَّ حَصِرَ عَنْ أَنْ يَرْجِعَ وَأَصَابَهُ كَالْفَهَاهَةِ وَالْمَعْنَى خَجَلًا .

قوله : « وَلَا تُشْرِفُ نَفْسُهُ » ، أَيْ لَا تَشْفُقُ . وَالْإِشْرَافُ : الْإِشْفَاقُ وَالْخُوفُ ، وَأُنْشَدَ اللَّيْثُ :

وَمِنْ مُضَرِّ الْحِرَاءِ إِسْرَافُ أَنْفُسِهِ عَلَيْنَا وَحَيَاهَا عَلَيْنَا تَمَضَّرَا

وقال عروة بن أذينة :

لقد عَلِمْتُ وما الإِشرافُ من خُلُقٍ أنّ الذى هو رزقٌ سوفَ يَأْتِينِي<sup>(١)</sup>.

والمعنى : ولا تشفق نفسك ، وتخاف من فوت المنافع والمرافق .

ثم قال : « ولا يكتفى بأدنى فهم » ، أى لا يكون قائماً بما يخطر له بآدى الرأى من أمر الخصوم ، بل يستقصى ويبحث أشدّ البحث .

قوله : « وأقلهم تبرُّماً بمراجعة الخصم » ، أى تضيُّراً ، وهذه الخصلة من محاسن ما شرطه عليه السلام ، فإنّ اللق والضرر والتبرُّم قبيح ، وأقبح ما يكون من القاضى .

قوله : « وأصرمهم » ، أى أقطمهم وأمضاهم . وازدهاهم كذا ، أى استخفّه . والإطراء : المدح . والإغراء : التحريض .

ثم أمره أن يتطلّع على أحكامه وأقضيته ، وأن يفرض له عطاء واسماً يعلّأ عينه ، ويتمكّف به عن المرافق والرّشوات ، وأن يكون قريب المكان منه ، كثير الاختصاص به لينعّ قربه من سماعة الرجال به وتقبيحهم ذكره عنده .

ثم قال : « إنّ هذا الدّين قد كان أسيراً » ، هذه إشارة إلى قضاة عثمان وحكامه ، وأنّهم لم يكونوا يقضون بالحقّ عنده ، بل بالهوى لطلب الدنيا .

وأما أصحابنا فيقولون : رحم الله عثمان ! فإنه كان ضعيفاً ، واستولى عليه أهله ، قطعوا الأمور دونّه ، فإثمهم عليهم وعثمان برىء منهم .

\*\*\*

## [ فصل في القضاة وما يلزمهم وذ كر بعض نوادرهم ]

قد جاء في الحديث المرفوع : « لا يقضى القاضى وهو غضبان » . وجاء في الحديث المرفوع أيضا : « من ابتلي بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم في الحظه وإشارته وبحلسه ومقعدته » .

دخل ابن شهاب على الوليد - أو سليمان - فقال له : يا بن شهاب ، ما حديث يرويه أهل الشام ؟ قال : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : إنهم يروون أن الله تعالى إذا استرعى عبداً رعية كتب له الحسنات ، ولم يكتب عليه السيئات ، فقال : كذبوا يا أمير المؤمنين ، أيما أقرب إلى الله ؛ نبي أم خليفة ؟ قال : بل نبي ؛ قال : فإنه تعالى يقول لنبيه داود : ﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) . فقال سليمان : إن الناس ليغرؤننا عن ديننا .

وقال بكر بن عبد الله العدوي لابن أرمطة - وأراد أن يستقصيه : والله ما أحسن القضاء ، فإن كنت صادقاً لم يحل لك أن تستقصي من لا يحسن ، وإن كنت كاذباً فقد فسقت ، والله لا يحل أن تستقصي الفاسق .

وقال الزهري : ثلاث إذا كن في القاضى فليس بقاضٍ ، أن يكره اللائمة ، ويجب الحمدة ، ويخاف العزل .

وقال محارب بن زياد للأعمش : وليت القضاء فبكي أهلى ، فلما عزلت بكى أهلى ، فما أدرى رم ذلك ؟ قال : لأنك وليت القضاء وأنت تكرهه وتجزع منه ،

فبكى أهلك لجزعك ، وعزلت عنه فكرهت العزل وجزعت فبكى أهلك لجزعك . قال : صدقت .

أتى ابنُ شُبرمة يقوم يشهدون على قراح<sup>(١)</sup> نخل ، فشهدوا - وكانوا عدولا - فامتحنهم فقال : كم فى القراح<sup>(١)</sup> من نخلة ؟ قالوا : لا نعلم ، فردَّ شهادتهم ، فقال له أحدهم : أنت أيها القاضي تقضى فى هذا المسجد منذ ثلاثين سنة ، فأعلمنا كم فيه من أسطوانة ؟ فسكت وأجازهم .

خرج شريك وهو على قضاء الكوفة يتلقى الخيزران ، وقد أقبلت تريد الحج ، وقد كان استقضى وهو كاره ، فأتى شاهی<sup>(٢)</sup> ، فأقام بها ثلاثا ، فلم تواف ، فخفَّ زاده وما كان معه ، فجعل يبلىه بالماء ويأكله بالملح ، فقال العلاء بن المنهال الغنوى :

فإن كان الذى قد قلتَ حقاً      بأن قد أكرهوك على القضاء<sup>(٣)</sup>  
فإنك مؤمِعا فى كلِّ يومٍ      تلقى من يَحجُّ من النساء  
مُقيما فى قُرى شاهى ثلاثا      بلا زادٍ سوى كِسْرٍ وماء !

وتقدّمتْ كَلثَم بنت سريع مولى عمرو بن حريث - وكانت جميلة - وأخوها الوليد ابن سريع إلى عبد الملك بن عُمر ؛ وهو قاضٍ بالكوفة ، فقضى لها على أخيها ، فقال هُذَيْل الأشجعى :

أتاه وليدٌ بالشهودِ يسوقهم      على ما ادّعى من صامتِ المالِ والنحو  
وجاءت إليه كَلثَمٌ وكلامُها      شفاءً من الداءِ المخايرِ والنحو  
فأدلى وليدٌ عند ذاك بحقه      وكان وليدٌ ذا مراءٍ وذاجدل  
فدلت القبطى حتى قضى لها      بغير قضاء الله فى مُحكم الطولِ

(١) القراح هنا : البستان ، وانظر ياقوت ( قرح ) . (٢) شاهی : موضع قرب القادسية .

(٣) الخبر والأبيات فى معجم البلدان ٥ : ٢٢٤ .

فلو كان مَنْ في القصر يَعْلَمُ علمه      لما أَسْتَعْمَلَ الْقِبْطِيُّ فِينَا عَلَى عَمَلٍ  
له حين يَقْضِي لِلنِّسَاءِ تَخَاوُصُ      وكان وما فيه التَّخَاوُصُ وَالْحَوْلُ  
إذا ذاتُ دَلٍّ كَلَمَتْهُ لِحَاجَةٍ      فهمَ بَأَن يَقْضِي تَسْخِغَ أَوْ سَعَلَ  
وَبَرَقَ عَيْنِيهِ وَلَاكَ لِسَانُهُ      يرى كُلَّ شَيْءٍ مَا خَلَا وَصَلِيهَا جَلَلُ

وكان عبدُ الملك بن عمير يقول: لعن الله الأشجعيّ ، والله لربما جاء نتي السّعة والنّحنة وأنا في المتوضأ فأردّها لما شاع من شعره.

كتب عمر بن الخطاب إلى معاوية : أما بعد ، فقد كتبتُ إليك في القضاء بكتاب لم آلك ونفسي فيه خيراً ؛ الزّم خمسَ خصالٍ يَسْلِمُ لك دينُك ، وتأخذُ بأفضلِ حظّك : إذا تقدّم إليك الخصمان فمليك بالبيّنة العادلة أو اليمين القاطعة ، وأدّن الضّعيف حتّى يشتدّ قلبه وينبسط لسانه ، ونعمّد الغريب فإنّك إن لم تتعهده تركَ حقّه ورجع إلى أهله ؛ وإتّما ضيّعَ حقّه من لم يُرفقْ به ، وآس بين الخصوم في لحظك ولَفْظك ، وعليك بالصّلاح بين الناس ما لم يَسْتَبِن لك فصل القضاء .

وكتب عمر إلى شريح : لا تسارِر ولا تُضارِر ، ولا تَسِيع ولا تَبْتَسِع في مجلس القضاء ، ولا تَقْضِ وَأَنْتَ غَضْبَانُ ، ولا شديدُ الجوع ، ولا مشغولُ القلب .

شهد رجل عند سوّار القاضي ، فقال : ما صناعتُك ؟ فقال : مؤدّب ؛ قال : أنا لا أجزِز شهادتك ؛ قال : ولم ؟ قال : لأنّك تأخذ على تعليم القرآن أجراً ، قال : وأنت أيضاً تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً ، قال : إنهم أكرهوني ؛ قال : نعم أكرهوك على القضاء ، فهل أكرهوك على أخذ الأجر ! قال : هلمّ شهادتك .

ودخل أبو دلامة ليشهد عند أبي ليلى ، فقال حين جلس بين يديه :

إذا الناسُ غَطَوْنِي تَغَطَّيْتُ عَنْهُمْ      وإنْ بَحَثُوا عَنِّي ففِيهِمْ مَبَاحِثُ<sup>(١)</sup>

(١) الأغاني ١٠ : ٢٣٤ ، وفيه « إن الناس » .

فقال لها إياس : أى رجلِك أطول ؟ فقالت : هذه ، فقال : أتذكرين ليلة ولدتك أمك ؟ قالت : نعم ، فقال إياس : ردّ ردّ !

وجاء فى الخبر المرفوع من رواية عبد الله بن عمر : « لا قدّست أمةٌ لا يُقضَى فيها بالحقّ » ؛ ومن الحديث المرفوع من رواية أبى هريرة : « ليس أحدٌ يحكم بين الناس إلّا جىء به يوم القيامة مغلولاً يده إلى عنقه ، فكّه المدل ، وأسلمه الجور . »

وأستمدى رجلٌ على بن أبى طالب عليه السلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه وعلى جالس ، فالتفت عمرُ إليه ، فقال : قم يا أبا الحسن فاجلس مع خصمك ، فقام فجلس معه وتناظرا ؛ ثم أنصرف الرجل ورجع على عليه السلام إلى محله ، فنبّين عمر التغيّر فى وجهه ، فقال : يا أبا الحسن ، مالى أراك متغيّراً ! أكرهت ما كان ؟ قال : نعم ، قال : وماذا ؟ قال : كنتى بحضرة خصمى ، هلاقت : قم يا على فاجلس مع خصمك ! فاعتنق عمرُ عليّاً ، وجعل يقبل وجهه ، وقال بأبى أنتم ! بكم هدانا الله ، وبكم أخرجنا من الظلمة إلى النور .

أبان بن عبد الحميد اللاحق فى سوار بن عبد الله القاضى :

لا تقدح الظنّة فى حكمه شيمته عدلٌ وإنصافٌ  
يمضى إذا لم تلقه شبهة وفى اعتراض الشك وقافٌ

كان ببغداد رجلٌ يُذكر بالصلاح والزهد يقال له رؤيم ، فولّى القضاء ، فقال الجنيّد : من أراد أن يستودع سرّه من لا يفشيهِ فعليه رؤيم ، فإنه كتم حبّ الدنيا أربعين سنة إلى أن قدر عليها .

الأشهب الكوفى :

يا أهل بغداد قد قامت قيامتكم مذ صار قاضيتكم نوح بن درّاج  
لو كان حيّاً له الحجاج ما سلّم صحبته يده من وسم حجاج



وإن حَفَرُوا بَرَى حَفَرْتُ بِثَارِهِمْ لِيَعْلَمَ مَا تُخْفِيهِ تِلْكَ النَّبَاطُ  
فَقَالَ : بَلْ نَعْطِيكَ يَا أَبَا دُلَامَةَ وَلَا نَبْجُثُكَ ؛ وَصَرَافَهُ رَاضِيًا ، وَأَعْطَى الشَّهْرُودَ عَلَيْهِ مِنْ  
عِنْدِهِ قِيَمَةً ذَلِكَ الشَّيْءِ .

كَانَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِيبِ الْمَدَوَائِيَّ حَاكِمَ الْعَرَبِ وَقَاضِيَهَا ، فَنَزَلَ بِهِ قَوْمٌ يَسِيفَتُونَهُ فِي الْخَنْثَى  
وَمِيرَانِهِ ؛ فَلَمْ يَدِرْ مَا يَقْضِي فِيهِ ، وَكَانَ لَهُ جَارِيَةٌ اسْمُهَا خُصَيْلَةُ ، رَبَّمَا لَامَهَا فِي الْإِبْطَاءِ عَنْ  
الرَّغْمِ وَفِي الشَّيْءِ يَجِدُهُ عَلَيْهَا ، فَقَالَ لَهَا : يَا خُصَيْلَةُ ، لَقَدْ أَسْرَعَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ فِي غَنَمِي ،  
وَأَطْلَاوَا الْمَكْتُ ؛ قَالَتْ : وَمَا يَكْبُرُ عَلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ ؟ أَتَبْعُهُ مَبَالَهَ وَخَلَائِكُ ذَمٍّ ، فَقَالَ لَهَا :  
« مَسَى <sup>(١)</sup> خُصَيْلُ بَعْدَهَا أَوْ رُوحِي » .

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ لِقَوْمٍ يَتَنَازَعُونَ : هَلْ لَكُمْ فِي الْحَقِّ أَوْ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْحَقِّ ؟ قِيلَ :  
وَمَا الَّذِي هُوَ خَيْرٌ مِنَ الْحَقِّ ؟ قَالَ : التَّحَاطُّ وَالْهَضْمُ ؛ فَإِنَّ أَخْذَ الْحَقِّ كُلَّهُ مَرٌّ .  
وَعَزَلَ عَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ بَعْضَ قُضَاتِهِ ، فَقَالَ : لَمْ عَزَلْتَنِي ؟ فَقَالَ : بَلْفَنِي أَنْ كَلَامَكَ  
أَكْثَرُ مِنْ كَلَامِ الْخُصَمِيِّينَ إِذَا تَحَاكَمَا إِلَيْكَ .

وَدَخَلَ إِبَاسُ بْنُ مَعَاوِيَةَ الشَّامَ وَهُوَ غَلَامٌ ، فَقَدَّمَ خَصْمًا إِلَى بَابِ الْقَاضِي فِي أَيَّامِ عَبْدِ الْمَلِكِ ،  
فَقَالَ الْقَاضِي : أَمَا تَسْتَحْيِي الْخُصَمَ وَأَنْتَ غَلَامٌ شَيْخًا كَبِيرًا ؟ فَقَالَ : الْحَقُّ أَكْبَرُ مِنْهُ ،  
فَقَالَ : اسْكُتْ وَيَحْكَمْ ! قَالَ : فَمَنْ يَنْطِقُ بِحَقِّي إِذَا قَالَ : مَا أَطْلَنْتُكَ تَقُولُ الْيَوْمَ حَقًّا حَتَّى  
تَقُومَ ؛ فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَقَامَ الْقَاضِي وَدَخَلَ عَلَى عَبْدِ الْمَلِكِ وَأَخْبَرَهُ ، فَقَالَ : اقْضِ  
حَاجَتَهُ وَأَخْرِجْهُ مِنَ الشَّامِ كَيْ لَا يُفْسِدَ عَلَيْنَا النَّاسَ .

وَأَخْتَصَمَ أَعْرَابِيٌّ وَخَضَرِيٌّ إِلَى قَاضٍ ، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ : أَتَيْتُ الْقَاضِيَّ ، إِنَّهُ وَإِنْ هَمَّجَ <sup>(٢)</sup>  
إِلَى الْبَاطِلِ ، فَإِنَّهُ عَنِ الْحَقِّ لَمَطُوفٌ .

وَرَدَّ رَجُلٌ جَارِيَةً عَلَى رَجُلٍ اشْتَرَاهَا مِنْهُ بِالْحُمُقِ ، فَتَرَفَعَا إِلَى إِبَاسِ بْنِ مَعَاوِيَةَ ،

(١) فِي مَجْمَعِ الْأَمْثَالِ ٢: ٢٩٥ « مَسَى سَخِيلٌ بَعْدَهَا أَوْ صَبَحَى » . (٢) هَمَّجَ : أَسْرَعَ .

وكان الحجاج يسم أيدي النبط بالمشرط والنيل .  
لما وقعت فتنة ابن الزبير اعتزل شريح القضاء وقال : لا أقضي في الفتنة ؛ فبقى  
لا يقضي تسع سنين ، ثم عاد إلى القضاء وقد كبرت سنه ، فاعترضه رجل وقد أنصرف من  
مجلس القضاء ، فقال له : أما حان لك أن تخاف الله ! كبرت سنك ، وفسد ذهرك ،  
وصارت الأمور تجوز عليك ، فقال : والله لا يقولها بعدك لي أحد . فلزم بيته  
حتى مات .

قيل لأبي قلابة وقد هرب من القضاء : لو أجبت ؟ قال : أخاف الهلاك ، قيل :  
لو أجهدت لم يكن عليك بأس ؟ قال : ويحكم ! إذا وقع السابح في البحر كم عسى  
أن يسبح !

دعا رجل لسلیمان الشاذكوني ، فقال : أرايك الله يا أبا أيوب على قضاء إصبهان !  
قال : ويحك ! إن كان ولا بد فعلى خراجها ، فإن أخذ أموال الأغنياء أسهل من أخذ  
أموال الأيتام .

ارتفعت جميلة بنت عيسى بن جراد - وكانت جميلة كاسمها - مع خصم لها إلى الشعبي -  
وهو قاضي عبد الملك - فقضى لها ، فقال هذيل الأشجعي :

فَتَنَ الشَّعْبِيَّ لَمَّا	رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا
فَتَنَتْهُ بَنَاتُهَا	هَا وَقَوَّسِي حَاجِبَيْهَا
وَمَشَتْ مَشْيًا رَوِيدًا	ثُمَّ هَزَّتْ مِنْكِبَيْهَا
فَقَضَى جَوْرًا عَلَى الْخَطِّ	بِمِمْ وَلَمْ يَقْضَ عَلَيْهَا

فقبض الشعبي عليه وضربه ثلاثين سوطا .

قال ابن أبي ليلى : ثم أنصرف الشعبي يوما من مجلس القضاء وقد شاعت الأبيات .

وَتَنَاشِدُهَا النَّاسُ ، وَنَحْنُ مَعَهُ ، فَرَرْنَا بِخَادِمٍ تَغْسِلُ الثِّيَابَ ، وَتَقُولُ :

\* فُتِنَ الشَّعْبُ لَمَّا \*

وَلَا تَحْفَظُ تَتَمَّةَ الْبَيْتِ ، فَوَقَفَ عَلَيْهَا وَلَقَّنَهَا ، وَقَالَ :

\* رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا \*

ثُمَّ ضَحِكَ وَقَالَ : أَبْعَدَهُ اللَّهُ ! وَاللَّهِ مَا قَضَيْنَا <sup>(١)</sup> لَهَا إِلَّا بِالْحَقِّ .

جَاءَتْ أَمْرَأَةٌ إِلَى قَاضٍ فَقَالَتْ : مَاتَ بَعْلِي وَتَرَكَ أَبُوَيْنِ وَأَبْنًا وَبَنَى عَمَّ ، فَقَالَ الْقَاضِي :  
لَأَبُوَيْهِ الشُّكْلُ ، وَلَأَبْنُهُ الْيَتِيمُ ، وَلَكِ اللَّائِمَةُ ، وَلِبْنَى عَمَّةُ الدَّلَّةِ ، وَأَحْمِلِي الْمَالَ إِلَيْنَا إِلَى أَنْ  
تَرْفِيعَ الْخُصُومِ !

لَقِيَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ شَرِيكَاً بَعْدَ مَا اسْتَقْضَى ، فَقَالَ لَهُ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، بَعْدَ الْإِسْلَامِ وَالْفِقْهِ  
وَالصَّلَاحِ تَلَبَّى الْقَضَاءُ ! قَالَ : يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ، فَهَلْ لِلنَّاسِ بَدٌّ مِنْ قَاضٍ ! قَالَ : وَلَا بَدٌّ يَا أَبَا  
عَبْدِ اللَّهِ لِلنَّاسِ مِنْ شُرَاطِي .

وَكَانَ الْحَسَنُ بْنُ صَالِحٍ بْنُ حَيٍّ يَقُولُ لَمَّا وَلَّى شَرِيكَ الْقَضَاءِ : أَيَّ شَيْخٍ أَفْسَدُوا !  
قَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا أَبَا ذَرٍّ ، اعْقِلْ <sup>(٢)</sup>  
مَا أَقُولُ لَكَ ؛ جَعَلَ يَرُدُّهَا عَلَى سِتَّةِ أَيَّامٍ ، ثُمَّ قَالَ لِي فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ : أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي  
سَرِيرَتِكَ وَعَلَانِيَتِكَ ، وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ ، وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا شَيْئًا وَلَوْ سَقَطَ سَوْطُكَ ،  
وَلَا تَتَقَلَّدَنَّ أَمَانَةً ، وَلَا تَلِينَ وَلَايَةَ ، وَلَا تَكْفُلَنَّ يَتِيمًا ، وَلَا تَقْضِينَ بَيْنَ اثْنَيْنِ .

أَرَادَ عُمَانُ بْنُ عَفَّانَ أَنْ يَسْتَقْضِيَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ، فَقَالَ لَهُ : أَلَسْتَ قَدْ سَمِعْتَ النَّبِيَّ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « مَنْ اسْتَمَازَ بِاللَّهِ فَقَدْ عَازَ بِعَمَّازٍ ! » ، قَالَ : بَلَى ، قَالَ : فَإِنِّي أَعُوذُ  
بِاللَّهِ مِنْكَ أَنْ تَسْتَقْضِيَنِي .

(١) ا ، د : « قضيت » ، وأثبت ما في د . (٢) في د : « ائمل » .

وقد ذكر الفقهاء في آداب القاضي<sup>(١)</sup> أموراً، قالوا: لا يجوز أن يقبل هدية في أيام القضاء إلا ممن كانت له عادة يهدى إليه قبل أيام القضاء ، ولا يجوز قبولها في أيام القضاء ممن له حكومة وخصومة ، وإن كان ممن له عادة قديمة ، وكذلك إن كانت الهدية أنفَسَ وأرفعَ مما كانت قبل أيام القضاء لا يجوز قبولها . ويجوز أن يحضر القاضي الولائم ، ولا يحضر عند قوم دون قوم ؛ لأنَّ التخصيصَ يشعر بالتميل ، ويجوز أن يعودَ المريضُ ، ويشهدَ الجنائزَ ، ويأتيَ مقدمَ الغائب . ويكره له مباشرة البيع والشراء . ولا يجوز أن يقضى وهو غَضبان ولا جائع ولا عطشان ، ولا في حال الحزن الشديد ، ولا الفرح الشديد ، ولا يقضى والنَّعاس يَنْلبه ، والمَرَضُ يُقْلِقُه ، ولا وهو يدافع الأخبثين ، ولا في حرٍّ مُزْعِجٍ ، ولا في بردٍ مُزْعِجٍ . وينبى أن يجلس للحكم في موضع بارز يصل إليه كلُّ أحد ، ولا يحتجب إلا لعذر . ويُستحبُّ أن يكون مجلسه فسيحاً لا يتأذى بذلك هو أيضاً . ويكره الجلوس في المساجد للقضاء ، فإن احتاج إلى وكلاء جاز أن يتخذهم ويوصيهم بالرفق بالخصوم . ويستحبُّ أن يكون له حبس ، وأن يتخذ كاتباً إن احتاج إليه ؛ ومن شرط كاتبه أن يكون عارفاً بما يَكْتُبُ به عن القضاء .

وأختلف في جواز كونه ذميًّا ؛ والأظهر أنه لا يجوز . ولا يجوز أن يكون كاتبه فاسقاً ، ولا يجوز أن يكون الشهودُ عنده قوماً معيّنين ، بل الشهادة عامة فيمن أَسْتَكْمَلَ شروطها .

\*\*\*

### الأفضل :

ثُمَّ انْظُرْ فِي أُمُورِ عَمَّا لَكَ ، فَاسْتَعْمِلْهُمْ اخْتِيَارًا ، وَلَا تَوَلَّهِمْ مُحَابَاةً وَأَثَرَةً ، فَإِنَّهُمَا جَمَاعٌ مِنْ شُعْبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ . وَتَوَخَّ مِنْهُمْ أَهْلَ التَّجَرُّبَةِ وَالْحَيَاءِ مِنْ أَهْلِ الْبُيُوتَاتِ الصَّالِحَةِ وَالْقَدَمِ فِي الْإِسْلَامِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، فَإِنَّهُمْ أَكْرَمُ أَخْلَاقًا ، وَأَصَحُّ أَعْرَاضًا ، وَأَقْلُّ فِي الْمَطَامِعِ إِشْرَافًا ، وَأَبْلَغُ فِي عَوَاقِبِ الْأُمُورِ نَظَرًا .

(١) كذا في ١ ، وهو الصواب وفي ب : « القضاء » .

ثُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمُ الْأَرْزَاقَ، فَإِنَّ ذَلِكَ قُوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِصْلَاحِ أَنْفُسِهِمْ، وَغِنًى لَهُمْ عَنْ تَنَاوُلِ مَا تَحْتَ أَيْدِيهِمْ، وَحُجَّةٌ عَلَيْهِمْ إِنْ خَالَفُوا أَمْرَكَ، أَوْ تَلَمَّعُوا أَمَانَتَكَ. ثُمَّ تَفَقَّدْ أَعْمَالَهُمْ، وَابْعَثِ الْعُيُونَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ تَعَاهُدَكَ فِي السِّرِّ لِأُمُورِهِمْ حَدَوَّةٌ لَهُمْ عَلَى اسْتِمْعَالِ الْأَمَانَةِ، وَالرَّفْقِ بِالرَّعِيَّةِ. وَتَحْفَظْ مِنَ الْأَعْوَانِ، فَإِنَّ أَحَدًا مِنْهُمْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَى خِيَانَةٍ اجْتَمَعَتْ بِهَا عَلَيْهِ عِنْدَكَ أَخْبَارُ عُيُونِكَ، اكْتَفَيْتَ بِذَلِكَ شَاهِدًا، فَبَسَطْتَ عَلَيْهِ الْمُقُوبَةَ فِي بَدَنِهِ، وَأَخَذْتَهُ بِمَا أَصَابَ مِنْ عَمَلِهِ، ثُمَّ نَصَبْتَهُ بِمَقَامِ الْمَذَلَّةِ، وَوَسَمْتَهُ بِالْخِيَانَةِ، وَقَلَّدْتَهُ عَارَ التُّهْمَةِ.

\*\*\*

### الشرح :

لَمَّا فَرَّغَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِ الْقَضَاءِ، شَرَعَ فِي أَمْرِ الْعَمَالِ، وَهِيَ عَمَالُ السَّوَادِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْوُقُوفِ وَالْمَصَالِحِ وَغَيْرِهَا، فَأَمَرَهُ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُمْ بِمَدِّ اخْتِبَارِهِمْ وَتَجَرِبَتِهِمْ، وَأَلَّا يُولِيَهُمْ مَحَابَةً لَهُمْ، وَلَنْ يَشْفَعَ فِيهِمْ، وَلَا أَثَرَةٌ وَلَا إِنْعَامًا عَلَيْهِمْ. كَانَ أَبُو الْحَسَنِ بْنُ الْفُرَاتِ يَقُولُ : الْأَعْمَالُ لِلْكَفَاةِ مِنْ أَصْحَابِنَا، وَقَضَاءُ الْحَقُوقِ عَلَى خَوَاصِّ أُمُورِنَا.

وَكَانَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ يَقُولُ : مَنْ تَسَبَّبَ إِلَيْنَا بِشَفَاعَةٍ فِي عَمَلٍ، فَقَدْ حَلَّ عِنْدَنَا مَحَلٌّ مَنْ يَنْهَضُ بغيرِهِ، وَمَنْ لَمْ يَنْهَضْ بِنَفْسِهِ لَمْ يَكُنْ لِلْعَمَلِ أَهْلًا. وَوَقَعَ جَمْفَرُ بْنُ يَحْيَى فِي رُقْعَةٍ مُتَحَرِّمٍ بِهِ : هَذَا فَتَى لَهُ حُرْمَةُ الْأَمَلِ، فَاْمْتَحَنَهُ بِالْعَمَلِ؛ فَإِنْ كَانَ كَافِيًا فَالْسلطانُ لَهُ دُونُنَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَافِيًا فَنَحْنُ لَهُ دُونَ السُّلْطَانِ.

ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « فَإِنَّهُمَا - يَعْنِي اسْتِعْمَالَهُمَ لِلْمَحَابَةِ وَالْأَثَرَةِ - جَمَاعٌ مِنْ شُعَبِ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ ». وَقد تقدَّم شرحٌ مِثْلُ هَذِهِ اللَّفْظَةِ، وَالْمَعْنَى أَنَّ ذَلِكَ يَجْمَعُ ضُرُوبًا مِنَ الْجَوْرِ وَالْخِيَانَةِ. أَمَّا الْجَوْرُ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ عُدِلَ عَنِ الْمُسْتَحَقِّ إِلَى غَيْرِ الْمُسْتَحَقِّ، فِي ذَلِكَ جَوْرٌ عَلَى الْمُسْتَحَقِّ،

وأما الخيانة فلأن الأمانة تقتضى تقليد الأعمال الأكفاء ؛ فمن لم يعتمد ذلك فقد خان من ولّاه .

ثم أمره بتخيّر من قد جرب ؛ ومن هو من أهل البيوتات والأشراف لشدة الحرص على الشيء والخوف من فواته .

ثم أمره بإسباغ الأرزاق عليهم ؛ فإن الجائع لا أمانة له ؛ ولأن الحجة تكون لازمة لهم إن خانوا ، لأنهم قد كفّوا مؤنة أنفسهم وأهليهم بما فرض لهم من الأرزاق<sup>(١)</sup> . ثم أمره بالتطلع عليهم وإذكاء<sup>(٢)</sup> العيون والأرصاد على حركاتهم .

وحدوة باعث ، يقال : حداني هذا الأمر حدوةً على كذا ؛ وأصله سوق الإبل ، ويقال للشّمال حدواء ؛ لأنها تسوق السحاب .

ثم أمره بمؤاخذه من ثبتت خيانتته واستعادة المال منه ؛ وقد صنع عمر كثيرا من ذلك ؛ وذكرناه فيما تقدّم .

قال بمض الأكلسة لعامل من عماله : كيف نومك بالليل ؟ قال : أنامه كله ، قال : أحسنت ! لو سرت ما نمت هذا النوم .

\*\*\*

### الأصل :

وَتَفَقَّدَ أَمْرَ الْخَرَاجِ بِمَا يُصْلِحُ أَهْلَهُ ؛ فَإِنَّ فِي صَلَاحِهِ وَصَلَاحِهِمْ صَلَاحًا لِمَنْ سِوَاهُمْ ، وَلَا صَلَاحَ لِمَنْ سِوَاهُمْ إِلَّا بِهِمْ ؛ لِأَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِيَالٌ عَلَى الْخَرَاجِ وَأَهْلِهِ .

وَلْيَكُنْ نَظْرُكَ فِي عِمَارَةِ الْأَرْضِ أَبْلَغَ مِنْ نَظْرِكَ فِي اسْتِجْلَابِ الْخَرَاجِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِالْعِمَارَةِ ؛ وَمَنْ طَلَبَ الْخَرَاجَ بِغَيْرِ عِمَارَةٍ أَخْرَبَ الْبِلَادَ ، وَأَهْلَكَ

(٢) في ١ ، د « وبعث » .

(١) في د « الرزق » .

العباد ، وَلَمْ يَسْتَقِمْ أَمْرُهُ إِلَّا قَلِيلًا ؛ فَإِنْ شَكَوْا ثِقَلًا أَوْ عِلَّةً ، أَوْ انْقِطَاعَ شَرِبٍ ،  
أَوْ بَالَةٍ ، أَوْ إِحَالَةَ أَرْضٍ اغْتَمَرَهَا غَرَقٌ ، أَوْ أَجْجَفَ بِهَا غَطَشٌ ؛ خَفَّفَتْ عَنْهُمْ  
بِمَا تَرَجُّوْنَ أَنْ يَصْلُحَ بِهِ أَمْرُهُمْ .

وَلَا يَنْفُلَنَّ عَلَيْكَ شَيْءٌ خَفَّفَتْ بِهِ الْمُؤُونَةُ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّهُ ذُخْرٌ بِمُؤَدُّونَ بِهِ عَلَيْكَ  
فِي عِمَارَةِ بِلَادِكَ ، وَتَرْزِيْنٍ وَلَا يَتَكَ ؛ مَعَ اسْتِجْلَالِكَ حُسْنِ ثَنَائِهِمْ ، وَتَبَجُّحِكَ  
بِاسْتِغَاثَةِ الْمَدْلِ فِيهِمْ ؛ مُعْتَمِدًا فَضْلَ قُوَّتِهِمْ ، بِمَا ذَخَرْتَ عِنْدَهُمْ مِنْ إِجْمَاعِكَ لَهُمْ ؛  
وَالثَّقَةِ مِنْهُمْ بِمَا عَوَّدْتَهُمْ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ وَرِفْقِكَ بِهِمْ ؛ فَرُبَّمَا حَدَّثَ مِنَ الْأُمُورِ  
مَا إِذَا عَوَّلْتَ فِيهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَعْدِ احْتِمَالُوهُ ؛ طَيِّبَةً أَنْفُسُهُمْ بِهِ ، فَإِنَّ الْعُمَرَانَ مُحْتَمِلٌ  
مَا سَمَّيْتَهُ ؛ وَإِنَّمَا يُؤْتَى خَرَابُ الْأَرْضِ مِنْ إِعْوَازِ أَهْلِهَا ، وَإِنَّمَا يُمَيَّزُ أَهْلُهَا لِإِشْرَافِ  
أَنْفُسِ الْوَلَاةِ عَلَى الْجَمْعِ ؛ وَسُوءُ ظَنِّهِمْ بِالْبَقَاءِ ، وَقِلَّةُ انْتِفَاعِهِمْ بِالْمَبْرِ .

\*\*\*

### الْمُشْرَحُ :

انتقل عليه السلام من ذكر العمال إلى ذكر أرباب الخراج ودَهَاقِين السَّوَادِ ، فقال :  
تَفَقَّدَ أَمْرَهُمْ ، فَإِنَّ النَّاسَ عِيَالٌ عَلَيْهِمْ ؛ وَكَانَ يُقَالُ : اسْتَوْصُوا بِأَهْلِ الْخَرَاجِ ؛ فَإِنَّكُمْ  
لَا تَزَالُونَ سِمَانًا مَا سَمِنُوا .

ورُفِعَ إِلَى أَنْوَشِرِوَانٍ أَنَّ عَامِلَ الْأَهْوَازِ قَدْ حَمَلَ مِنْ مَالِ الْخَرَاجِ مَا يَزِيدُ عَلَى الْعَادَةِ ؛  
وَرُبَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ قَدْ أَجْجَفَ بِالرَّعِيَّةِ ، فَوَقَّعَ : يُرَدُّ هَذَا الْمَالُ عَلَى مَنْ قَدْ اسْتَوْفَى مِنْهُ ؛  
فَإِنَّ تَكْثِيرَ الْمَلِكِ مَالَهُ بِأَمْوَالِ رَعِيَّتِهِ بِمَنْزِلَةِ مَنْ يَحْصِنُ سَطُوحَهُ بِمَا يَقْتُلُهُ مِنْ قَوَاعِدِ  
بَيْلَانِهِ .

وكان على خاتم أنوشروان: لا يكون عمران، حيث يجور السلطان .

وروى: « استحلاب الخراج » بالحاء .

ثم قال: « فإن شكوا ثِقَلًا » ، أى ثقل طَسَق<sup>(١)</sup> الخراج المضروب عليهم ، أو ثقل وطأة العامل .

قال: « أو علة » ، نحو أن يصيب الغلة آفة كالجراد والبرق أو البرد .

قال: « أو انقطاع شرب »<sup>(٢)</sup> ، بأن ينقص الماء في النهر ، أو تتعلق أرض الشرب عنه لفقد الحفر .

قال: « أو بالة » ، يعنى المطر .

قال: « أو إحالة أرض اغتمرها غرق » ، يعنى أو كَوْن الأرض قد حالت ، ولم يحصل منها ارتفاع ؛ لأنَّ الفرق غمرها وأفسد زرعها .

قال: « أو أجحف بها عطش » ، أى أتلها .

فإن قلت : فهذا هو انقطاع الشرب ؟

قلت : لا ، قد يكون الشرب غير منقطع ، ومع ذلك يُجْحَف بها العطش ، بأن لا يكفيها الماء الموجود في الشرب .

ثم أمره أن يخفف عنهم متى لحقهم شيء من ذلك ؛ فإنَّ التخفيف يصلح أمورهم ، وهو وإن كان يُدْخِل على المال نقصاً في العاجل إلا أنه يقتضى<sup>(٣)</sup> توفير زيادة في الآجل ؛ فهو بمنزلة التجارة التي لا بدَّ فيها من إخراج رأس المال وانتظار عوده وعود ربحه .

(١) في اللسان عن التهذيب : « الطسق شبه الخراج له مقدار معلوم ؛ وليس بعربى خالص » .

(٢) الشرب بالكسر : النصيب من الماء .

(٣) في د « يفضى إلى » .



قال : « ومع ذلك فإنه يفضى إلى تزيين بلادك بممارستها ، وإلى أنك تَبْجَح بين الولاية بإفاضة العدل في رعيتك معتمداً فَضْلَ قُوَّتِهِمْ » ؛ و« معتمداً » ، منصوب على الحال من الضمير في « خَفَّفت » الأولى ، أى خَفَّفت عنهم معتمداً بالتخفيف فضل قُوَّتِهِمْ .  
والإجماع : الترفيه .

ثم قال له : وربما احتجتَ فيما يمسد إلى تكلفتهم بمحادث يحدث عندك المساعدة بمالٍ يقسطونه عليهم قرضاً أو معونة محضة ؛ فإذا كانت لهم ثروة نهضوا بمثل ذلك ، طيبة قلوبهم<sup>(١)</sup> به .

ثم قال عليه السلام : فإن العمران محتمل ما حتمته .  
سمعت أبا محمد بن خُليد - وكان صاحب ديوان الخراج في أيام الناصر لدين الله - يقول لمن قال له : قد قيل عنك : إنَّ واسط والبصرة قد خربت لشدة العُنف بأهلها في تحصيل الأموال ! فقال أبو محمد : ما دام هذا الشطَّ بحاله ، والمُخْل نابتاً في منابته بحاله ، ما تخرب واسط والبصرة أبداً .

ثم قال عليه السلام : « إنما تُؤَوَّى الأرض » ، أى إنما تُدْهَى من إعواز أهلها ، أى من فقرهم .

قال : والموجب لإعوازهم طمعُ ولائهم في الجباية وجمع الأموال لأنفسهم ولسلطانهم وسوء ظنهم بالبقاء يحتمل أن يريد به أنهم يظنون طول البقاء وينسون الموت والزوال .  
ويحتمل أن يريد به أنهم يتخيّلون العزْل والصرف ، فينهزون الفرص ، ويقتطمون الأموال ، ولا ينظرون في عمارة البلاد .

\*\*\*

---

(١) في د « نفوسهم » .

## [ عهد سا بور بن أردشير لابنه ]

وقد وجدت في عهد سا بور بن أردشير إلى ابنه كلاماً يشابه كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا العهد ؛ وهو قوله :

واعلم أن قوام أمرك بدور الخراج ، ودور الخراج بعمارة البلاد ، وبلوغ الغاية في ذلك استصلاح أهله بالعدل عليهم ، والمعونة لهم ؛ فإن بعض الأمور لبعض سبب ، وعوام الناس لخواصهم عدّة ، وبكل صنف منهم إلى الآخر حاجة ، فاختر لذلك أفضل من تقدر عليه من كتابك ، وليكونوا من أهل البصر والعفاف والكفاية ، واسترسل إلى كل امرئ منهم شخصاً<sup>(١)</sup> يضطلع به ويمكنه تمجيد الفراغ منه ؛ فإن اطلعت على أن أحداً منهم خان أو تمدّى فنكّل به ، وبالغ في عقوبته ؛ واحذر أن تستعمل على الأرض الكثير خراجها إلا البعيد الصوت ، العظيم شرف المنزلة . ولاتولين أحداً من قواد جندك الذين هم عدّه للحرب ، وجنّة من الأعداء ، شيئاً من أمر الخراج ؛ فلعلك تهجم من بعضهم على خيانة في المال ، أو تضيق للعمل ؛ فإن سوّغته المال ، وأغضيت له على التضييع ، كان ذلك هلاكاً وإضراراً بك وبرعيّتك ، وداعيةً إلى فساد غيره ؛ وإن أنت كافأته فقد استفسدته ، وأضقت<sup>(٢)</sup> صدره ، وهذا أمر توقّيه حزم ، والإقدام عليه خرق ، والتقصير فيه عجز .

واعلم أن من أهل الخراج من يلجئ بعض أرضه وضياعه إلى خاصّة الملك وبطانته ؛ لأحد أمرين ؛ أنت حرى بكراهما : إمّا لامتناع من جور المال وظلم الولاة ؛ وتلك منزلة يظهر بها سوء أثر المال وضعف الملك وإخلاله بما تحت يده ، وإمّا للدفع عما يلزمهم

(١) في د « شقفا » . (٢) في د « وأضفت » .

من الحق والتيسر له ، وهذه خلة تفسد بها آداب الرعية ، وتنتقص بها أموال الملك ،  
فاحذر ذلك ، وعاقب المتجشئين والمالجأ إليهم .

\*\*\*

ركب زياد يوما بالسوس يطوف بالضياح والزروع ، فرأى عمارة حسنة ، فتعجب منها ،  
نخاف أهلها أن يزيد في خراجهم ، فلما نزل دعا وجوه البلد ، وقال : بارك الله عليكم ،  
فقد أحسنتم العمارة ، وقد وضعت عنكم مائة ألف درهم . ثم قال : ما توفروا على من تهالك  
غيرهم على العمارة وأمنهم جورى أضعاف ما وضعت عن هؤلاء الآن ؛ والذي وضعته بقدر  
ما يحصل من ذاك ، وثواب عموم العمارة وأمن الرعية أفضل ربح .

\*\*\*

### الأصل :

ثم انظر في حال كتابك ؛ فوال على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التي  
تدخل فيها مكايدك وأسرارك ، بأجمعهم لوجود صالح الأخلاق بمن لا يبطرهُ  
الكرامة ، فيجتري بها عليك في خلاف لك بحضرة ملا . ولا تقصر به الفعلة  
عن إيراد مكاتبات عمالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك ، وفيما  
يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضعف عقدًا اعتقده لك ، ولا يمجز عن إطلاق ما  
عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه  
يكون بقدر غيره أجهل .

ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنابتك وحسن الظن منك ،

فَإِنَّ الرَّجَالَ يَتَمَرَّضُونَ لِإِعْرَاسَاتِ الْوُلاَةِ بِتَصْنَعِهِمْ وَحُسْنِ حَدِيثِهِمْ ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ النَّصِيحَةِ وَالْأَمَانَةِ شَيْءٌ ؛ وَلَكِنْ اخْتَبَرَهُمْ بِمَا وُلُّوا لِلصَّالِحِينَ قَبْلَكَ ، فَأَعْمِدْ لِأَحْسَنِهِمْ كَانَ فِي الْعَامَّةِ أَثَرًا ، وَأَعْرِفِهِمْ بِالْأَمَانَةِ وَجْهًا ، فَإِنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى نَصِيحَتِكَ لِلَّهِ ، وَلَيْمَنْ وَلَّيْتَ أَمْرَهُ .

وَاجْعَلْ لِرَأْسِ كُلِّ أَمْرٍ مِنْ أُمُورِكَ رَأْسًا مِنْهُمْ ؛ لَا يَقْهَرُهُ كِبَرُهَا ، وَلَا يَتَشَتُّ عَلَيْهِ كَثِيرُهَا ؛ وَمَهْمَا كَانَ فِي كِتَابِكَ مِنْ عَيْبٍ فَتَغَابَيْتَ عَنْهُ الْزِمْتَهُ .

\*\*\*

### [ فصل فيما يجب على مصاحب الملك ]

#### الشرح :

لما فرغ من أمر الخراج ، شرع في أمر<sup>(١)</sup> الكتاب الذين يكون أمر الحضرة ، ويترسلون عنه إلى عماله وأمرائه ، وإليهم معاهد التدبير وأمر الديوان ، فأمره أن يختير الصالح منهم ، ومن يوثق على الاطلاع على الأسرار والمكاييد والحيل والتدبيرات ، ومن لا يبطله الإكرام والتقريب ، فيطمع فيجتري على مخالفته في ملأ من الناس والرد عليه ، ففي ذلك من الوهن للأمير وسوء الأدب الذي انكشف الكاتب عنه ما لا خفاء به .

قال الرشيد للكسائي : يا علي بن حمزة ، قد أحللتك المحل الذي لم تكن تبلفه همته ، فروثنا من الأشعار أعفها ، ومن الأحاديث أجمها لحسن الأخلاق ، وذاكرنا بآداب الفرس والهند ، ولا تسرع علينا الرد في ملأ ، ولا تترك تثقيفنا في خلاء .  
وفي آداب ابن المقفع : لا تكونن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك على

(١) في د « ذكر » .

طاعتهم في المكروه عندك وموافقتهم فيما خالفك ، وتقدير الأمور على أهوائهم دون هواك ، فإن كنت حافظاً إذا ولّوك . حذراً إذا قرّبوك ، أميناً إذا ائتمنوك ، تعلمهم وكأنك تتعلم منهم ، وتأدّبهم وكأنك تتأدّب بهم ، وتشكرهم ولا تكلفهم الشكر ؛ ذليلاً إن صرّموك ، راضياً إن أسخطوك ، وإلا فالبعد منهم كل البعد ، والحذر منهم كل الحذر . وإن وجدت عن السلطان وصحبته غيًى فاستغن عنه ، فإنه من يخدم السلطان حقّ خدمته يخلّي بينه وبين لذة الدنيا وعمل الأخرى ، ومن يخدمه غير حق الخدمة فقد احتمل وزر الآخرة ، وعرض نفسه للهلكة والفضيحة في الدنيا . فإذا صحبت السلطان فعليك بطول الملازمة من غير إملال ، وإذا نزلت منه بمنزلة الثقة فاعزل عنه كلام الملّقى ، ولا تُكثر له من الدّعاء ، ولا تردّن عليه كلاماً في حفل وإن أخطأ ، فإذا خلوت به فبصره في رفق ، ولا يكوننّ طلبك ما عنده بالمسألة ، ولا تستبطئه وإن أبطأ ، ولا تخبرنه أنّ لك عليه حقّاً ، وأنّك تعتمد عليه ببلاء ، وإن استطعت ألا تنسى حقك وبلاءك بتجديد النصيح والاجتهاد فافعل ، ولا تعطينه المجهود كلّهُ من نفسك في أوّل صحبتك له ، وأعدّ موضعاً للمزيد . وإذا سأل غيرك عن شيء فلا تكن المجيب .

واعلم أنّ استلابك الكلام خفة فيك واستخفاف منك بالسائل والمسئول ، فإنت قائل إن قال لك السائل : ما ليّاك سألتُ ؛ أو قال المسئول : أجب بمجالسته ومحادثته أيّها المعجب بنفسه ، والمستخفّ بسلطانه .

وقال عبدُ الملك بنُ صالح لمؤدّبٍ ولده بعد أن اختصّه بمجالسته ومحادثته : يا عبد الله ، كنّ على التماس الحظّ فيك بالسكوت أحرص منك على التماسه بالكلام ، فإنهم قالوا : إذا أعجبك الكلام فأصمت ، وإذا أعجبك الصمت فكلّم . وأعلم أن أصعب الملوك معاملة الجبارُ الفطن المتفكّد ، فإنّ ابتليت بصحبته فأحترس ، وإن عوفيت فأشكر الله على السلامة ، فإنّ السلامة أصل كلّ نعمة . لا تساعدني على ما يقمّح بي ، ولا تردّن علىّ

خطأ في مجلس ، ولا تكلفني جواب التشميت والتهنئة ، ودع عنك : كيف أصبح الأمير ، وكيف أمسى ! وكلمني بقدر ما أستطيعك ، واجعل بدل التقريظ لي صواب الاستماع مني . واعلم أن صواب الاستماع أحسن من صواب القول ، فإذا سمعتني أتحدث فلا يفوتك منه شيء ، وأرني فهمك إياه في طرفك ووجهك ، فما ظنك بالملك وقد أحلك محلّ المعجب بما يسمعك إياه ، وأحلت له محلّ من لا يسمع منه ! وكلّ من هذا يُحبط إحسانك ، ويُسقط حقّ حرمتك ، ولا تستدع الزيادة من كلامي بما تُظهر من استحسان ما يكون مني ، فن أسوأ حالا ممن يستكدّ الملوك بالباطل ، وذلك يدلّ على تهاونه بقدر ما أوجب الله تعالى من حقهم . واعلم أنّي جعلتك مؤدّبا ، بعد أن كنت معلّما ، وجعلتك جليسا مقرّبا بعد أن كنت مع الصبيان مباعدا ، فنتي لم تعرف نقصان ما خرجت منه ، لم تعرف رُجحان ما دخلت فيه ، وقد قالوا : من لم يعرف سوء ما أولى ، لم يعرف حُسن ما أُبلّ .

\*\*\*

ثم قال عليه السلام : وليكن كاتبك غير مقصّر عن عرض مكتوبات عمالك عليك ، والإجابة منها حسن الوكالة والنيابة عنك فيما يحتاج به لك عليهم من مكتوباتهم ، وما يُصدره عنك إليهم من الأجوبة ، فإن عقّد لك عقدا قوّاه وأحكمه ، وإن عقّد عليك عقدا اجتهد في نقضه وحلّه . قال : وأن يكون عارفا بنفسه ، فن لم يعرف قدر نفسه لم يعرف قدر غيره .

ثمّ نهاه أن يكون مستند اختياره لهؤلاء فراسته فيهم ، وغلبة ظنه بأحوالهم ، فإن التدليس ينمّ في ذلك كثيرا ، وما زال الكتّاب يتصنّعون للأمرء بحسن الظاهر ، وليس وراء ذلك كثير طائل في النصيحة والمعرفة ، ولكن يلبنني أن يرجع في ذلك إلى ما حكمت

به التجربة لهم ، وما وُلّوه من قبل ، فإن كانت ولايتهم وكتابتهم حسنة مشكورة فهم هم ، وإلا فلا ، ويتمتعون لفراسات الولاة ، يعملون أنفسهم بحيث يعرف بضروب من التصنع ، وروى : « يتمرّضون » .

ثم أمره أن يقسم فنون الكتابة وضروبها بينهم نحو أن يكون أحدهم للرسائل إلى الأطراف والأعداء ، والآخر لأجوبة عمال السواد ، والآخر بحضرة الأمير في خاصته وداره ، وحاشيته وثقافته .

ثم ذكر له أنه مأخوذ مع الله تعالى بما يتغابى عنه ، ويتغافل من عيوب كتابه ، فإن الدين لا يبيح الإغضاء والغفلة عن الأعوان وألحوا ، ويوجب التطلّع عليهم .

\*\*\*

### [فصل في الكتاب وما يلزمهم من الآداب]

واعلم أنّ الكاتب الذى يشير أمير المؤمنين عليه السلام إليه هو الذى يسمى الآن فى الاصطلاح العرفى وزيراً ، لأنّه صاحب تدبير حضرة الأمير ، والنائب عنه فى أموره ، وإليه تصل مكتوبات العمال وعنه تصدر الأجوبة ، وإليه العرض على الأمير ، وهو المستدرك على العمال ، والمهيمن عليهم ، وهو على الحقيقة كاتب الكتاب ، ولهذا يسمونه : الكاتب المطلق .

وكان يقال : للكاتب على الملك ثلاث : رفع الحجاب عنه ، وإتمام الوشاة عليه ، وإفشاء السرّ إليه .

وكان يقال : صاحب السلطان نصفه ، وكاتبه كُله . وينبغى لصاحب الشرطة أن يطيل الجلوس ، ويدبّر العُيُوس ، ويستخفّ بالشفاعات .

وكان يقال : إذا كان الملك ضعيفا ، والوزير شرها ، والقاضي جائرا ، فرقوا الملك بشعاعا .

وكان يقال : لا تحفّ صولة الأمير مع رضا الكاتب ، ولا تثقن برضا الأمير مع سُخط الكاتب ، وأخذ هذا المعنى أبو الفضل بن العميد فقال :

وزعمت أنك لست تُفكر بعد ما عَليقتُ يدك بذمة الأمراء  
هيات قد كذبتك فكرتك التي قد أوهمتكَ غيبي عن الوزراء  
لم تُغن عن أحدٍ ممالا لم تجد أرضا ولا أرضَ بغير سماء  
وكان يقال : إذا لم يُشرف الملك على أموره ، صار أغش الناس إليه وزيره .

وكان يقال : ليس الحرب الغشوم بأسرع في اجتياح<sup>(١)</sup> الملك من تضييع مراتب الكتاب حتى يصيبها أهل التذلة ، ويزهدها فيها أولو الفضل .

\*\*\*

### [فصل في ذكر ما أصبحت به الأوائِلُ الوزراء]

وكان يقال : لا شيء أذهب بالدول من استكفاء الملك الأسرار .

وكان يقال : من سعادة رجدة المرء ألا يكون في الزمان المختلط وزيرا للسلطان .

وكان يقال : كما أن أشجع الرجال يحتاج إلى السلاح ، وأسبق الخيل يحتاج إلى السّوط ، وأحد الشّفار يحتاج إلى المسنن ، كذلك أحزم الملوك وأعقلهم يحتاج إلى الوزير الصالح .

وكان يقال : صلاح الدنيا بصلاح الملوك ، وصلاح الملوك بصلاح الوزراء ،

---

(١) اجتياح الملك : الذهاب به .



وكما لا يَصْلُحُ الملك إلا بمن يستحقّ الملك ، كذلك لا تَصْلُحُ الوزارة إلا بمن يستحقّ الوزارة .

وكان يقال : الوزير الصالح لا يرى أن صلاحه في نفسه كائن صلاحا حتّى يتصل بصلاح الملك وصلاح رعيّته ، وأن تكون عنايته فيما عطف الملك على رعيّته ، وفيما استمعطف قلوب الرعيّة والعامة على الطاعة للملك ، وفيما فيه قوام أمر الملك من التدبير الحسن ، حتّى يجمع إلى أخذ الحقّ تقديم عموم الأمن . وإذا طرقت الحوادث ، كان للملك غُدّة وعتادا ، وللرعيّة كفايا محتاطا ، ومن ورائها حاميا ذابّا ، يعنيه من صلاحها مالا يعنيه من صلاح نفسه دونها .

وكان يقال : مَثَلُ الملك الصالح إذا كان وزيره فاسدا مَثَلُ الماء العذب الصافي وفيه التماسح ، لا يستطيع الإنسان - وإن كان ساجحا ، وإلى الماء ظامئا - دخوله ، حذرا على نفسه .

قال عمر بن عبد العزيز لمحمد بن كعب القرظيّ حين استُخلف : لو كنت كاتبى وردّى لى على ما دُفعت إليه ! قال : لا أفعل ، ولكنى سأرشدك ؛ أسرع الاستماع ، وأبطئ فى التصديق حتّى يأتىك واضح البرهان ، ولا تعملن بثبجتك فيما تكتفى فيه بلسانك ، ولا سوطك فيما تكتفى فيه بثبجتك ، ولا سيفك فيما تكتفى فيه بسوطك .

وكان يقال : التقاط الكاتب للرّشا وضبطُ الملك لا يجتمعان .

وقال أبرويز لكاتبه : اكتم السرّ ، واصدّق الحديث ، واجتهد فى النصيحة ، وعليك بالحدّز ؛ فإنّ لك علىّ ألاّ أعجّل عليك حتّى أستأنّى لك ، ولا أقبل فيك قولاً حتّى أستيقن ، ولا أطمعُ فيك أحدا فتُمْتال ؛ واعلم أنّك بمنجاة<sup>(١)</sup> رفعة فلا تحطّئها ، وفى

(١) المنجاة : ما ارتفع من الأرض .

ظلّ مملكتي فلا تستزِيلَنَّهُ . قارب الناس بحاملةً من نفسك ، وابعدهم مساحمةً عن عدوك ، واقصد إلى الجليل اذدرا ما لندك ، وتنزه بالمفاف صونا لمروءتك ، وتحسن عندى بما قدرت عليه . احذر لا تُسرِعَنَّ الألسنةَ عليك ، ولا تقبَّحَنَّ الأحداثُ عنك ، وصن نفسك صون الدرة الصافية ، وأخلصها إخلاص الفضة البيضاء ، وعاتبها معاتبة الحذر المشفق ، وحصنها حصين المدينة المنيمة . لا تدعن أن ترفع إلى الصغير فإنه يدل على (١) الكبير ، ولا تكتمن عني الكبير فإنه ليس بشاغل عن الصغير . هذب أمورك ثم اتقى بها ، وأحكم أمرك ثم راجعني فيه ، ولا تجترئن على فأمتمض ، ولا تنقبضن مني فأتهم ، ولا تمرضن ما تلقاني به ولا تخدجنه (٢) ؛ وإذا أفكرت فلا تعجل ، وإذا كتبت فلا تعذر ، ولا تستعن بالفضول فإنها علاوة على الكفاية ، ولا تقصرن عن التحقيق فإنها هجنة بالمقالة ، ولا تلبس كلاما بكلام ، ولا تبعدن معنى عن معنى . وأكرم لى كتابك عن ثلاث : خضوع يستخفه ، وانتشار يهجنه ، ومعانٍ تعقد به . واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول وليكن بسطة كلامك على كلام السوق كبسطة الملك الذى تحدته على الملوك . لا يكن ما نلته عظيما ، وما تكلم به صغيرا ، فإنما كلام الكاتب على مقدار الملك ، فاجعله عاليا كعلوه ، وفائقا كتفوقه ، فإنما جماع الكلام كله خصال أربع : سؤالك الشيء ، وسؤالك عن الشيء ، وأمرُك بالشيء ، وخبرُك عن الشيء ؛ فهذه الخصال دعائم المقالات ، إن التمس إليها خامس لم يوجد ، وإن نقص منها واحد لم يتم ؛ فإذا أمرت فأحكم ، وإذا سألت فأوضح ، وإذا طلبت فأسمع ، وإذا أخبرت فحقق ، فإنك إذا فعلت ذلك أخذت بجرائم القول كله ، فلم يشتبه عليك واردة ، ولم تُعجزك صادرة . أثبت في دواوينك ما أخذت ، وأحصر فيها ما أخرجت ، وتيقظ لما تُعطى ، وتجرّد لما تأخذ ، ولا يغلبنك النسيان عن الإحصاء ، ولا الأناة عن التقدم ، ولا تخرجن

(١) كذا في ١ ، وهو الوجه ؛ وفي ب : « عن الكبير » .

(٢) التريض : التوهين ، والتخديج : أن تأتي بالشيء ناقصاً .

وزن قيراط في غير حق ؛ ولا تعظمن إخراج الألوف الكثيرة في الحق ؛ وليكن ذلك كله  
عن مؤامرتي .

\*\*\*

### الأصل :

ثُمَّ اسْتَوْصِ بِالتَّجَارِ وَذَوِي الصَّنَاعَاتِ ، وَأَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا ، الْمُقِيمِ مِنْهُمْ  
وَالْمُضْطَرِّبِ بِمَالِهِ ، وَالْمُتَرَفِّقِ بِيَدَيْهِ ؛ فَإِنَّهُمْ مَوَادُّ الْمَنَافِعِ ، وَأَسْبَابُ الْمَرَافِقِ ،  
وَجُلَابُهُمَا مِنَ الْمَبَاعِدِ وَالْمَطَارِحِ ؛ فِي بَرِّكَ وَبَحْرِكَ ، وَسَهْلِكَ وَجَبَلِكَ ، وَحَيْثُ  
لَا يَلْتَقِي النَّاسُ لِمَوَاضِعِهِمَا ، وَلَا يَجْتَرِثُونَ عَلَيْهَا ؛ فَإِنَّهُمْ سِلْمٌ لَا تُخَافُ بَأْفَاقَتُهُ ،  
وَصُلَحٌ لَا تُخْشَى غَائِلَتُهُ .

وَتَقَدَّرَ أُمُورُهُمْ بِحَضْرَتِكَ ، وَفِي حَوَاشِي بِلَادِكَ . وَاعْلَمْ - مَعَ ذَلِكَ - أَنَّ فِي  
كَثِيرٍ مِنْهُمْ ضَيْقًا فَاحِشًا ، وَشُحًّا قَبِيحًا ، وَاخْتِكَارًا لِلْمَنَافِعِ ، وَتَحَكُّمًا فِي الْبَيْعَاتِ ،  
وَذَلِكَ بَابٌ مَضْرُوبٌ لِلْعَامَّةِ ، وَعَيْبٌ عَلَى الْوَلَاةِ ، فَاْمَنْعُ مِنَ الْإِخْتِكَارِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مَنَعَ مِنْهُ . وَلَيْكُنِ الْبَيْعُ بَيْنَمَا تَمْنَحَانِ بِمَوَازِينٍ عَدْلٍ ،  
وَأَسْعَارٍ لَا تُجْجِفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْبَائِعِ وَالْمُبْتَاعِ ؛ فَمَنْ قَارَفَ حُكْرَةً بَعْدَ  
نَهْيِكَ إِيَّاهُ فَكَفَّلْ بِهِ ، وَعَاقِبْهُ مِنْ غَيْرِ إِسْرَافٍ .

\*\*\*

### الشرح :

خرج عليه السلام الآن إلى ذكر التجار وذوي الصناعات ؛ وأمره<sup>(١)</sup> بأن يعمل معهم  
الخير ، وأن يوصي غيره من أمرائه وعماله أن يعملوا معهم الخير . واستوصى بمعنى «أوص»

(١) ا ، ب : « أمره » ، بدون واو .

نحو قرّ في المكان واستقرّ ، وعلا قرّنه واستعلاه .

وقوله : « استوصِ بالتّجار خيرا » ، أى أوصِ نفسك بذلك ، ومنه قول النبيّ صلّى الله عليه وآله : « استوصوا بالنساء خيرا » ؛ ومفعولا « استوص وأوصِ » ها هنا محذوفان للعلم بهما ، ويجوز أن يكون « استوصِ » أى اقبل الوصيّة منيّ بهم ، وأوصِ بهم أنتَ غيرك .

ثم قسم عليه السلام الموصى بهم ثلاثة أقسام : اثنان منها للتّجار<sup>(١)</sup> ، وهما المقيم ، والمضطرب ، يعنى المسافر . والضرب : السير في الأرض ؛ قال تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وواحد لأرباب الصناعات ، وهو قوله : « والمترفق بيّده » ، ورؤى « بيّده » ، تثنية يد .

والمطارح : الأماكن البعيدة .

وحيث لا يلتئم الناس : لا يجتمعون ، ورؤى « حيث لا يلتئم » ؛ بحذف الواو . ثم قال : « فإنهم أولو سلّم » ، يعنى التجار والصناع ، استعطفه عليهم ، واستماله إليهم .

وقال : ليسوا كمال الخراج وأمرء الأجناد ، فجانبهم ينبغى أن يراعى ، وحالهم يجب أن يُحاط ويحمى ، إذ لا يتخوّف منهم بائقة لا في مال يخنونون فيه ، ولا في دولة يُفسدونها . وحواشي البلاد : أطرافها .

ثم قال له : قد يكون في كثير منهم نوع من الشحّ والبخل فيدعوهم ذلك إلى الاحتكار في الأقوات ، والخيف في البيعات . والاحتكار<sup>(٣)</sup> : ابتياع الغلات في أيام

(١) د : « التجار » . (٢) سورة النساء ١٠١ .

(٣) د : « فالاحتكار » .

رخصها ، وادّخارها في المخازن<sup>(١)</sup> إلى أيام الغلاء والقحط . والحيف : تطفيف في الوزن والكيل ، وزيادة في السمر<sup>(٢)</sup> ، وهو الذي عبّر عنه بالتحكم ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الاحتكار ؛ وأما التطفيف وزيادة التسعير فنهى<sup>(٣)</sup> عنهما في نص الكتاب<sup>(٤)</sup> . وقارَفَ حُكْرَةً : واقفها ، والحاء مضمومة ، وأمره أن يؤدب فاعل ذلك من غير إسراف ، وذلك أنه دون المعاصي التي توجب الحدود ، فغاية أمره من التعزير الإهانة والمنع .

\*\*\*

## الأصل :

ثُمَّ اللَّهُ اللَّهُ فِي الطَّبَقَةِ السُّفْلَى مِنَ الَّذِينَ لَا حِيلَةَ لَهُمْ ؛ مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمُحْتَاجِينَ وَأَهْلِ الْبُؤْسَى وَالزَّمْنَى ، فَإِنَّ فِي هَذِهِ الطَّبَقَةِ قَانَمًا وَمُعْتَرًا .  
وَاحْفَظِ اللَّهَ مَا اسْتَحْفَظَكَ مِنْ حَقِّهِ فِيهِمْ ، وَاجْعَلْ لَهُمْ قِسْمًا مِنْ بَيْتِ مَالِكَ ، وَقِسْمًا مِنْ غُلَّتِ صَوَافِي الْإِسْلَامِ فِي كُلِّ بَلَدٍ ، فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى ، وَكُلٌّ قَدْ اسْتُرِعِيَ حَقَّهُ .  
وَلَا يَشْغَلَنَّكَ عَنْهُمْ بَطْرٌ ، فَإِنَّكَ لَا تُعْذَرُ بِتَضْيِيعِ التَّافِهِ لِإِحْكَامِكَ الْكَثِيرِ الْمُهْمِّ ؛ فَلَا تُشْخِصْ هَمَّكَ عَنْهُمْ ، وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لَهُمْ . وَتَفَقَّدْ أُمُورَ مَنْ لَا يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ ، يَمِّنْ تَقْتَحِمُهُ الْعُيُونُ ، وَتَحْقِرُهُ الرِّجَالُ ؛ فَفَرِّغْ لِأَوَّلِكَ ثِقَتَكَ مِنْ أَهْلِ الْخَشْيَةِ وَالتَّوَاضُعِ ، فَلْيَرْفَعْ إِلَيْكَ أُمُورَهُمْ .  
ثُمَّ ائْمَلْ فِيهِمْ بِالْإِعْذَارِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَوْمَ تَلْقَاهُ ؛ فَإِنَّ هَوْلًا مِنْ بَيْنِ الرَّعِيَةِ أَخْوَجُ إِلَى الْإِنْصَافِ مِنْ غَيْرِهِمْ ؛ وَكُلٌّ تَقَاعُذِرُ إِلَى اللَّهِ فِي تَأْدِيَةِ حَقِّهِ إِلَيْهِ .

(١) د : « المخازن » . (٢) د : « التسعير » .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿ وَيُحْلِلْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴾ .

وَتَعْمَدُ أَهْلَ الْيَتِيمِ ، وَذَوِي الرَّقَّةِ فِي السَّنِّ ، مِمَّنْ لَا حِيلَةَ لَهُ ، وَلَا يَنْصِبُ لِلْمَسْأَلَةِ  
نَفْسَهُ ، وَذَلِكَ عَلَى الْوَلَاةِ ثَقِيلٌ ، وَالْحَقُّ كُلُّهُ ثَقِيلٌ ؛ وَقَدْ يُخَفِّفُهُ اللَّهُ عَلَى أَقْوَامٍ  
. طَلَبُوا الْعَاقِبَةَ فَصَبَرُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَوَقَّعُوا بِصِدْقِ مَوْعُودِ اللَّهِ لَهُمْ .

\*\*\*

### الشَّيْخُ :

انتقل من التجار وأرباب الصناعات إلى ذكر فقراء الرعية ومغموريها ، فقال :  
وأهل البؤس ، وهي البؤس كالنعمى للنعم ، والزمنى أولو الزمانة .  
والقانع : السائل ؛ والمعتز : الذي يمرض لك ولا يسألك ، وهما من ألفاظ الكتاب  
المعزي<sup>(١)</sup> .

وأمره أن يعطيهم من بيت مال المسلمين لأنهم من الأصناف المذكورين في قوله تعالى :  
﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى  
وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وأن يعطيهم من غلات صوافي الإسلام - وهي الأرضون  
التي لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب - وكانت صافية لرسول الله صلى الله عليه وآله ،  
فلما قبض صارت لفقراء المسلمين ، ولما يراه الإمام من مصالح الإسلام .

ثم قال له : « فَإِنَّ لِلْأَقْصَى مِنْهُمْ مِثْلَ الَّذِي لِلْأَدْنَى » ، أى كل فقراء المسلمين سواء  
في سهامهم ، ليس فيها أقصى وأدنى ، أى لا تؤثر من هو قريب إليك أو إلى أحدٍ  
من خاصتك على من هو بعيد ليس له سببٌ إليك ، ولا علقه بينه وبينك . ويمكن  
أن يريد به : لا تصرف غلات ما كان من الصوافي في بعض البلاد إلى مساكين ذلك

(١) وهو قوله تعالى في سورة الحج ٣٦ : ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَارِعَ وَالْمُعْتَرَّ ﴾ .  
(٢) سورة الأنفال ٤١ .

البلد خاصة ؛ فإن حقّ البعيد عن ذلك البلد فيها كمثل حقّ المقيم في ذلك البلد .  
والثافه : الحقيّر . وأشخصتُ زيدا من موضع كذا ؛ أخرجته عنه . وفلان يصعّر خدّه  
للناس ، أى يتكبر عليهم .  
وتفتّحه العيون : تزدريه . وتحتقره والإعذار إلى الله : الاجتهاد والمبالغة في تأدية حقّه  
والقيام بفرائضه .

\*\*\*

كان بعض الأكاسرة يجلس للمظالم بنفسه ، ولا يثق إلى غيره ، ويقعد بحيث يسمع  
الصوت ، فإذا سمعه أدخل المتظلم ، فأصيب بصمّ في سمعه فنادى مناديه ، إنّ الملك يقول :  
أيها الرعيّة ، إني إنّ أصبتُ بصمّ في سمعي فلم أصب في بصري ؛ كلّ ذى ظلامة فليلبس ثوبا  
أحمر ، ثمّ جلس لهم في مستشرق له .  
وكان لأمير المؤمنين عليه السلام بيتٌ سماء بيت القيصص ، يلقى الناس فيه رقاعهم ،  
وكذلك كان فعل المهديّ محمد بن هارون الواثق ، من خلفاء بني العباس .

\*\*\*

الأصل :

وَأَجْعَلْ لِّدَوَى الْحَاجَاتِ مِنْكَ قِسْمًا تَفَرِّغْ لَهُمْ فِيهِ شَخْصَكَ ، وَتَجْلِسُ لَهُمْ مَجْلِسًا  
عَامًّا ؛ فَتَتَوَاضَعُ فِيهِ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَكَ ، وَتُعْمِدُ عَنْهُمْ جُنْدَكَ وَأَعْوَانَكَ مِنْ أَحْرَاسِكَ  
وَشُرَطِكَ ؛ حَتَّى يُكَلِّمَكَ مُتَكَلِّمُهُمْ غَيْرَ مُتَتَمِّعٍ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ فِي غَيْرِ مَوْطِنٍ : « لَنْ نُقَدِّسَ أُمَّةً لَا يُؤْخَذُ لِلضَّعِيفِ فِيهَا حَقُّهُ  
مِنَ الْقَوِيِّ ؛ غَيْرَ مُتَتَمِّعٍ » .

ثُمَّ أُحْتَمِلَ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ، وَنَحَّ عَنْهُمْ الضِّيقَ وَالْأَنْفَ، يَبْسُطُ اللَّهُ عَلَيْكَ  
بَذَلِكَ أَكْنَافَ رَحْمَتِهِ، وَيُوجِبُ لَكَ ثَوَابَ طَاعَتِهِ. وَأَعْطَى مَا أَعْطَيْتَ هَنِيئًا، وَامْنَعُ  
فِي إِجْمَالٍ وَإِعْذَارٍ.

ثُمَّ أُمُورٌ مِنْ أُمُورِكَ لَا بَدَّ لَكَ مِنْ مُبَاشَرَتِهَا؛ مِنْهَا إِجَابَةُ عُمَّالِكَ بِمَا يَعْيًا عَنْهُ  
كُتَابُكَ، وَمِنْهَا إِصْدَارُ حَاجَاتِ النَّاسِ عِنْدَ رُودِهَا عَلَيْكَ بِمَا تَخْرُجُ بِهِ صُدُورُ  
أَعْوَانِكَ. وَأَمْضِ لِكُلِّ يَوْمٍ عَمَلَهُ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ مَا فِيهِ.

\*\*\*

### الشرح :

هذا الفصل من تنمة ما قبله، وقد رُوي : « حتى يكلمك مكلّمهم » ، فاعل من « كَلَّمَ »  
والرواية الأولى أحسن .

وغير متنتع : غير مزعج ولا مقلق . والمتنتع في الخبر النبوي : المتروك المضطرب .  
في كلامه عيًّا من خوف لحقه ، وهو راجع إلى المعنى الأول .

والخرق : الجهل . ورُوي : « ثُمَّ احْتَمِلَ الْخُرْقَ مِنْهُمْ وَالْعِيَّ » . والعِيَّ وهو الجهل  
أيضا ، والرواية الأولى أحسن .

ثم بين له عليه السلام أنه لا بدَّ له من هذا المجلس لأمرٍ آخر غير ما قدّمه عليه السلام ،  
وذلك لأنّه لا بدَّ من أن يكون في حاجات الناس ما يضيّق به صدور أعوانه ، والثواب  
عنه ، فيتميّن عليه أن يباشرها بنفسه ؛ ولا بدَّ من أن يكون في كتب عمّاله الواردة عليه



ما يعيا كتابه عن جوابه ، فيجيب عنه بعلمه . ويدخل في ذلك أن يكون فيها ما لا يجوز في حُكم السياسة ومصلحة الولاية أن يطلع الكتاب عليه ، فيجيب أيضا عن ذلك بعلمه .

ثم قال له : لا تُدْخِلْ عملَ يومٍ في عمل يومٍ آخر فَيُتْعِبَكَ وَيُكَدِّرَكَ ؛ فَإِنَّ لِكُلِّ يَوْمٍ ما فيه من العمل .

\*\*\*

### الأفضل :

وَاجْمَلْ لِنَفْسِكَ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى أَفْضَلَ تِلْكَ الْمَوَاقِيتِ ، وَأَجْزَلَ تِلْكَ الْأَقْسَامِ ، وَإِنْ كَانَتْ كُلُّهَا لِلَّهِ ؛ إِذَا صَلَحَتْ فِيهَا النِّيَّةُ ، وَسَلِمَتْ مِنْهَا الرَّعِيَّةُ .  
وَلْيَكُنْ فِي خَاصَّةِ مَا تُخْلِصُ بِهِ لِلَّهِ دِينَكَ إِقَامَةُ فَرَائِضِهِ الَّتِي هِيَ لَهُ خَاصَّةٌ ، فَأَعْطِ اللَّهَ مِنْ بَدَنِكَ فِي لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ ، وَوَفِّ مَا تَقَرَّبْتَ بِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنْ ذَلِكَ كَامِلًا غَيْرَ مَثْلُومٍ وَلَا مَنْقُوصٍ ، بِالْغَا مِنْ بَدَنِكَ مَا بَلَغَ .  
وَإِذَا قُمْتَ فِي صَلَاتِكَ لِلنَّاسِ فَلَا تَكُونَنَّ مُنْفَرًّا وَلَا مُضْمِعًا ، فَإِنَّ فِي النَّاسِ مَنْ بِهِ الْعِلَّةُ ، وَلَهُ الْحَاجَةُ ؛ وَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حِينَ وَجَّهَنِي إِلَى الْيَمَنِ : كَيْفَ أَصَلَّى بِهِمْ ؟ فَقَالَ : « صَلِّ بِهِمْ كَصَلَاةِ أَوْعَفِهِمْ ؛ وَكُنْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا » .

\*\*\*

### الشرح :

لما فرغ عليه السلام من وصيته بأمور رعيته ، شرع في وصيته بأداء الفرائض التي

افترضها الله عليه من عبادته ، ولقد أحسن عليه السلام في قوله : « وإن كانت كلها لله » ، أي أن النظر في أمور الرعية مع صحة النية وسلامة الناس من الظلم من جملة العبادات والفرائض أيضاً .

ثم قال له : « كاملاً غير مثلوم » ، أي لا يحملنك شغل السلطان على أن تختصر الصلاة اختصاراً ، بل صلّها بفرائضها وسننها وشعائرها في نهاريك وليّلك ؛ وإن أتعبك ذلك ونال من بدنك وقوتك .

ثم أمره إذا صلى بالناس جماعة ألا يطيل فينفرهم عنها ، وألا يخذج الصلاة وينقصها فيضيعها<sup>(١)</sup> .

ثم روى خبراً عن النبي صلى الله عليه وآله ، وهو قوله عليه السلام له : « صلّ بهم كصلاة أضعفهم » ، وقوله : « وكن بالمؤمنين رحماً » ؛ يحتمل أن يكون من تنمة الخبر النبوي ، ويحتمل أن يكون من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، والظاهر أنه من كلام أمير المؤمنين من الوصية للأشر ؛ لأن اللفظة الأولى عند أرباب الحديث هي المشهور في الخبر .

\*\*\*

### الأصل :

وَأَمَّا بِمَدِّ هَذَا ؛ فَلَا تُطَوِّلَنَّ اخْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ ، فَإِنَّ اخْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنْ الرِّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ ، وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ . وَالِاخْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا اخْتَجَبُوا دُونَهُ ، فَيَصْنُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ ، وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ ، وَيَقْبَحُ الْحَسَنُ ، وَيَحْسَنُ الْقَبِيحُ ، وَيَشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ ؛ وَإِنَّمَا الْوَالِي بَشَرٌ لَا يَعْرِفُ مَا تَوَارَى عَنْهُ النَّاسُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ ، وَلَيْسَتْ عَلَى الْحَقِّ سِمَاتٌ تُعَرِّفُ بِهَا ضُرُوبُ الصَّدَقِ مِنَ

(١) د : « فيضعها » .

الْكَذِبِ ؛ وَإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ إِمَّا أَمْرُؤٌ سَخَتْ نَفْسُكَ بِالْبَذْلِ فِي الْحَقِّ ، فَعِمَّ  
أَخْتِجَابُكَ مِنْ وَاجِبِ حَقِّ تَعْطِيهِ ، أَوْ فَعَلَ كَرِيمٌ تُسَدِّدُهُ ! أَوْ مُبْتَلًى بِالْمَنْعِ ، فَمَا  
أَسْرَعَ كَفَّ النَّاسِ عَنْ مَسْأَلَتِكَ ، إِذَا أَيْسُوا مِنْ بَذْلِكَ ، مَعَ أَنَّ أَكْثَرَ حَاجَاتِ  
النَّاسِ إِلَيْكَ مَا لَا مَوْوَنَةَ فِيهِ عَلَيْكَ ، مِنْ شَكَاةٍ مَظْلَمَةٍ ، أَوْ طَلَبِ إِنْصَافٍ  
فِي مُمَامَلَةٍ .

\*\*\*

### الشَّرْحُ :

نُهَاةٌ عَنِ الْاِخْتِجَابِ ؛ فَإِنَّهُ مَظَنَّةُ انْطَوَاءِ الْأُمُورِ عَنْهُ ، وَإِذَا رُفِعَ الْحِجَابُ دَخَلَ عَلَيْهِ  
كُلُّ أَحَدٍ فَعَرَفَ الْأَخْبَارَ ، وَلَمْ يَخَفْ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَحْوَالِ تَحْمَلِهِ .

ثُمَّ قَالَ : لَمْ تَحْتَجِبْ ، فَإِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ يَحْتَجِبُونَ كَيْلًا يُطَلَّبُ مِنْهُمْ الرُّفْدُ !  
وَأَنْتَ فَإِنْ كُنْتَ جَوَادًا سَمِحًا لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَى الْحِجَابِ دَايِعٌ ، وَإِنْ كُنْتَ ثُمَسِكًا فَسَيَعْلَمُ  
النَّاسُ ذَلِكَ مِنْكَ ، فَلَا يَسْأَلُكَ أَحَدٌ شَيْئًا .

ثُمَّ قَالَ : عَلَى أَنْ أَكْثَرَ مَا يَسْأَلُ مِنْكَ مَا لَا مَوْوَنَةَ عَلَيْهِ فِي مَالِهِ ؛ كَرَدِّ ظُلَامَةٍ أَوْ إِنْصَافٍ  
مِنْ خَصْمٍ .

\*\*\*

### [ ذَكَرَ الْحِجَابَ وَمَا وَرَدَ فِيهِ مِنَ الْخَبَرِ وَالشَّعْرِ ]

وَالْقَوْلُ فِي الْحِجَابِ كَثِيرٌ :

حَضَرَ بَابَ عَمْرِاءَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَشْرَافِ : مِنْهُمْ سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ وَالْأَفْرَعُ  
ابْنُ حَابِسٍ ، فَخِجَبُوا ، ثُمَّ خَرَجَ الْأَذَنُ فَنَادَى : أَيْنَ عَمَّارٌ ؟ أَيْنَ سَلْمَانُ ؟ أَيْنَ صُهَيْبٌ ؟

فأدخلهم فتممرت<sup>(١)</sup> وجوه القوم ، فقال سهيل بن عمرو : لم تتمر وجوهكم ! دعوا ودعينا :  
فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر اليوم لأنتم غدا لهم<sup>(٢)</sup> أحسد .  
وأستاذن أبو سفيان على عثمان فحجبه ، فقيل له : حجبتك ! فقال : لا عدمت من أهلي  
من إذا شاء حجبتني .

وحجبت معاوية أبا الدرداء ؟ فقيل لأبي الدرداء : حجبتك معاوية ! فقال : من يمش  
أبواب الملوك يهن ويكرم ، ومن صادف بابا مُغلَقا عليه وجَد إلى جانبه بابا مفتوحا ،  
إن سأل أُعطى ، وإن دعا أُجيب ، وإن يكن معاوية قد أحتجب فربُّ معاوية  
لم يحتجب .

وقال أرويز لحاجبه : لا تَضَعَنَّ شريفا بصُعبوبة حجاب ، ولا ترفعنّ وضيعا بسهولته ؛  
ضع الرجال مواضع أخطائهم ، فمن كان قديما شرفه ثم ازدردعه<sup>(٣)</sup> ولم يهدمه بعد آبائه  
فقدّمه على شرفه الأول ، وحسّن رأيه الآخر ، ومن كان له شرف متقدّم ولم يصن ذلك  
حياطةً له ، ولم يزدردعه تثير المغارسة ، فألحق بآبائه من رفعة حاله ما يقتضيه سابق شرفهم ،  
وألحق به في خاصته ما ألحق بنفسه ، ولا تأذن له إلا دبريّا وإلا سرارا ؛ ولا تاحقه بطبقة  
الأوليين . وإذا ورد كتاب عامل من عَمَّا لى فلا تحبسه عني طرفة عين إلا أن أكون على  
حال لا تستطيع الوصول إلىّ فيها ، وإذا أتاك من يدعي النصيحة لنا فلتكتبها سرا ثم  
أدخله بعد أن تستأذن له ، حتى إذا كان منّي بحيث أراه فأدفع إلىّ كتابه ، فإن أحمَدت  
قبلت ، وإن كرهت رفضت . وإن أتاك عالم مشتهر بالعلم والفضل يستأذن ، فأذن له ، فإن  
العلم شريف وشريف صاحبه ، ولا تحجبنّ عني أحدا من أفناء الناس ، إذا أخذتُ مجلسي  
مجلس العامة ، فإن الملك لا يُحجب إلا عن ثلاث : عي يكره أن يُطلع عليه منه ،  
أو يخل يكره أن يدخل عليه من يسأله ، أو رية هو مصرّ عليها فيشفق من إبدائها .

(١) تممرت وجوههم : تفتت غيظاً وحنقا . (٢) ساقطة من د . (٣) ازدردعه : أهبطه .

ووقوف الناس عليها ، ولا بد أن يحيطوا بها علماً ، وإن اجتهد في سترها . وقد أخذ هذا المعنى الأخير محمود الوراق فقال :

إذا اعتصم الوالى بإغلاق بابيه	وردّ ذوى الحاجات دون حجابيه
ظننت به إحدى ثلاثٍ وربّما	رجمتُ بظنٍّ واقعٍ بصوابيه
أقول به مسٌّ من العيِّ ظاهره	ففى إذنه للناس إظهارٌ ما به
فإن لم يكن عيِّ اللسان فغالب	من البخل يحمى ماله عن طلابه
وإن لم يكن لاذا ولاذا فريمة	يكتتمها مستورةٌ بثيابيه

أقام عبد العزيز بن زُرارة الكلابي على باب معاوية سنةً في شملة من صوف لا يأذن له؛ ثمّ أذن له وقرّبه وأدناه ، ولطف محله عنده حتى ولّاه مصر ، فكان يقال : استأذن أقوام لعبد العزيز بن زُرارة ، ثمّ صار يستأذن لهم ، وقال في ذلك :

دخلتُ على معاوية بن حرب	ولكن بعد يأسٍ من دخول
وما نلتُ الدخولَ عليه حتى	حللتُ بحلّة الرجل الذليل
وأغضيتُ الجفونَ على قذاها	ولم أنظر إلى قالٍ وقيل
وأدركتُ الذى أمّلتُ منه	وحرمانُ السنَى زادَ المَجُول

ويقال : إنه قال له لما دخل عليه أميرُ المؤمنين : دخلتُ إليك بالأمل ، وأحتملت جفوتك بالصبر ، ورأيتُ بيابك أقواماً قدّمهم الحظّ ، وآخرين أخرهم الحرمان ، فليس ينبغي للمقدّم أن يأمن عواقب الأيام ، ولا للمؤخّر أن يئسّ من عطف الزّمان .

وأوّل المعرفة الاختبار ، فابلُ واختبر إن رأيت . وكان يقال : لم يلزم باب السلطان أخذُ قَصَبٍ على ذلّ الحجاب ، وكلام البوّاب ، وألقى الأنف ، وحمل الضّميم ، وأدام الملازمة ، إلّا وصل إلى حاجته أو إلى معظمها .

قال عبد الملك لحاجبه : إنك عينٌ أنظرُ بها ، وجُنَّةٌ أَسْتَلِمُ بها ، وقد وَلَّيْتُكَ ما وراءَ بابي ، فإذا تراك صانما برعيتي ؟ قال : أنظر إليهم بعينك ، وأحكمهم على قدر منازلهم عندك ، وأضمتهم في إبطائهم عن بابك ، ولزوم خدمتك مواضع استحقاقهم ، وأرتبهم حيث وضعهم ترتيبك ، وأحسن إبلاغهم عنك وإبلاغك عنهم . قال : لقد وفيت بما عليك ، ولكن إن صدقت ذلك بفعلك . وقال دِعْبِل وقد حُجِبَ عن باب مالك بن طوق :

لَعَمْرِي لئن حَجَبْتَنِي العبيدُ      لَمَّا حَجَبْتُ دُونَكَ العافية<sup>(١)</sup>  
سَأَرِي بها من وراء الحجابِ      شَتَاءَ تَأْتِيكَ بالدَاهِيَةِ  
نُصِيبُ السَّمِيعَ، وَنُعْمَى البَصِيرَ      وَيُسْأَلُ مِنْ مِثْلِهَا العافية

وقال آخر :

سَأَتْرُكُ هَذَا البابَ مادامَ إِذْنُهُ      عَلَى مَا أَرَى حَتَّى يَلِينَ قَلِيلًا  
فَا خَابَ مِنْ لَمْ يَأْتَهُ مَتَرُفًا      وَلَا فَازَ مَنْ قَدَرَامَ فِيهِ دُخُولًا  
إِذَا لَمْ نَجِدْ لِلإِذْنِ عِنْدَكَ مَوْضِعًا      وَجَدْنَا إِلَى تَرْكِ الهِجَاءِ سَبِيلًا

وكتب أبو العتاهية إلى أحمد بن يوسف الكاتب وقد حجبه :

وإنْ عَدْتُ بعدَ اليومِ إِنِّي لظالمٌ      سَأَصْرِفُ وَجْهِي حَيْثُ تُبْغِي المَكَارِمُ  
مَتَى يُفْلِحَ الغَادِي إِلَيْكَ لِحَاجَةٍ      وَنُصْفُكَ مُحْجُوبٌ ، وَنُصْفُكَ نَائِمٌ !  
يعنى ليله ونهاره .

استأذن رجلان على معاوية ، فأذن لأحدهما - وكان أشرف منزلة من الآخر - ثم أذن للآخر فدخل ، فجلس فوق الأول ، فقال معاوية : إن الله قد أَلَزَمَنَا تأديبكم

(١) ديوانه ٢١٢ ، ونقلها عن ابن أبي الحديد ( النجف ١٩٦٢ ) .

كما أَرَمْنَا رعايتكم ، وإِنَّا لم نَأْذَن له قبلك ، ونحن نريد أن يكون مجلسه دونك ، فقم  
لا أقام الله لك وزنا . وقال بشار :

تأبى خلائقُ خالدٍ وفَعَالُهُ      إِلَّا تَجَنَّبَ كُلَّ أَمْرِ عَائِبٍ  
وإذا أُتِينَا البابَ وقتَ غَدَائِهِ      أدنى الغدَاءِ لنا برغم الحاجبِ  
وقال آخرهم هجو :

يا أميرا على جَرِيْبٍ من الأر      ضِرْ له تسعةٌ من الحِجَابِ  
قاعد في الخرابِ يحجُبُ عَنَّا      ما سَمِعْنَا بحاجِبٍ في خرابِ  
وكتب بعضهم إلى جعفر بن محمد بن القاسم بن عُبَيْد الله بن سليمان بن وهب :  
أبا جعفرٍ إنَّ الولايةَ إن تَكُنْ      منبلةً قوسا فأنت لها نَبْلُ  
فلا تَرْتَفِعْ عَنَّا لِأَمْرِ وَلِيَّتِهِ      كما لم يصغرْ عندنا شأنك العَزْلُ  
ومن جيّد ما مَدِح به بشر بن مروان قول القائل :

بعيدُ مراد الطرف ما رَدَّ طَرَفُهُ      حذارِ النَّوَاشِي بابِ دارٍ ولا سِتْرِ  
ولو شاء بِشْرُكَ كان من دونِ بابِهِ      طهاطُمٌ سُوْدٌ أو صقالبَةٌ مُحْمَرٌ<sup>(١)</sup>  
ولكنَّ بِشْرا يَسْتَرِ البابَ لِلَّتِي      يكون لها في غِيبِها الحدُّ والأجرُ  
وقال بشار :

خليلٌ من كعبٍ أعياناً أخاكما      على دهرِهِ إنَّ الكريمَ يَمِينُ  
ولا تَبْخَلَا بِخَلِّ ابْنِ قَرْعَةٍ إِنَّهُ      مخافةً أن يَرْجَى نَدَاهُ حَزِينُ  
إذا جِئْتَهُ للعرَفِ أغلَقَ بابَهُ      فلم تَلَقَهُ إِلَّا وأنتَ كَمِينُ  
فقل لأبي يَحْيَى متى تُدْرِكُ العلا      وفي كلِّ معروفٍ عليك يَمِينُ !

(١) الطهاطم : الأعاجم.

شَرِبَ أَوْ عَمَلَ مُشْتَرِكٍ ، يَحْمِلُونَ مَوْنَتَهُ عَلَى غَيْرِهِمْ ، فَيَكُونُ مَهْنَأُ ذَلِكَ لَهُمْ دُونَكَ ، وَعَيْبُهُ عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

وَالْزِمِ الْحَقَّ مَنْ لَزِمَهُ مِنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَكُنْ فِي ذَلِكَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا ، وَاقِمًا ذَلِكَ مِنْ قَرَابَتِكَ وَخَوَاصِّكَ حَيْثُ وَقَعَ ، وَابْتَغِ عَاقِبَتَهُ بِمَا يَثْقُلُ عَلَيْكَ مِنْهُ ؛ فَإِنَّ مَغْنَمَةَ ذَلِكَ مُحْمُودَةٌ .

وَإِنْ ظَنَنْتَ الرَّعِيَّةَ بِكَ حَيفًا ، فَأُصْحِرْ لَهُمْ بُعْذَرِكَ ، وَأَعْدِلْ عَنْكَ ظُنُونَهُمْ بِإِصْحَارِكَ ؛ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ إِعْذَارًا تَبْلُغُ بِهِ حَاجَتَكَ مِنْ تَقْوِيَعِهِمْ عَلَى الْحَقِّ .

\*\*\*

### النَّبْرُخ :

نهأ عليه السلام عن أن يحمل أقاربه وحاشيته وخوَصَّه على رقاب الناس ، وأن يمكنهم من الاستئثار عليهم والتطاول والإذلال ، ونهأ من أن يقطع أحداً منهم قطعةً ، أو يملكه ضيعةً تضرّ بمن يجاورها من السادة والدهاقين<sup>(١)</sup> في شرب يتغلبون على الماء منه ، أو ضياعٍ يُضيفونها إلى ما ملكهم إِيَّاه ، وإعفاء لهم من مؤنة ، أو حفر وغيره ، فيمنعهم الوُلاة منه مراقبةً لهم ، فيكون مؤنة ذلك الواجب عليهم قد أسقطت عنهم ، وحمل ثقلها على غيرهم .

ثم قال عليه السلام : لأنّ منفعة ذلك في الدّنيا تكون لهم دونك ، والوزر في الآخرة عليك ، والعيب والذمّ في الدنيا أيضاً لاحقان بك .

ثم قال له : إن اتهمتكَ الرعية بحيفٍ عليهم ، أو ظنّت بك جوراً ، فادكر لهم عذرَكَ

(١) الدهاقين : جمع دهقان ؛ وهو من ألقاب الرؤساء في الأعاجم .



وقال إبراهيم بن هرمة :

هَئِئْ إِذَا نَزَلَ الْوَفُودُ بِيَابِهِ  
سَهْلُ الْحِجَابِ مُؤَدَّبُ الْخُدَامِ<sup>(١)</sup>  
وَإِذَا رَأَيْتَ صَدِيقَهُ وَشَقِيقَهُ  
لَمْ تَدْرُ أَيُّهُمَا ذُو الْأَرْحَامِ

وقال آخر :

وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي الْكَرِيمَ إِذَا أَتَى  
عَلَى طَمَعٍ عِنْدَ اللَّيْمِ يُطَالِبُهُ  
وَأُرَى لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ عِنْدَ بَابِهِ  
كَمَرِئَتِي لِلطَّرْفِ وَالْعِلْجِ رَاكِبُهُ  
وقال عبد الله بن محمد بن عيينة :

أَتَيْتُكَ زَائِرًا لِقَضَاءِ حَقِّ  
فَخَالَ السَّتْرَ دُونَكَ وَالْحِجَابُ  
وَأَرَأَيْ مَذْهَبَ عَنْ كُلِّ نَاءٍ  
يُجَانِبُهُ إِذَا عَزَّ الذَّهَابُ  
وَلَسْتُ بِسَاقِطٍ فِي قَدَرِ قَوْمٍ  
وَإِنْ كَرِهُوا كَمَا يَقَعُ الذَّهَابُ

وقال آخر :

مَا ضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى رَاغِبٍ  
تَطَلَّبَ الرِّزْقَ وَلَا رَاهِبٍ  
بَلْ ضَاقَتْ الْأَرْضُ عَلَى شَاعِرٍ  
أَصْبَحَ يَشْكُو جَفْوَةَ الْحَاجِبِ  
قَدْ شَتَمَ الْحَاجِبَ فِي شَعْرِهِ  
وَلَمَّا يَقْصِدُ لِلصَّاحِبِ

\*\*\*

الأصل :

ثُمَّ إِنَّ لِلْوَالِي حَاصَّةً وَبِطَانَةً، فَيَسِمُ اسْتِمْنَارًا وَتَطَاوُلًا، وَقَلَّةُ إِنْصَافٍ فِي مُعَامَلَةٍ،  
فَإَخْسِمَ مَثْوَنَةً أَوْلَيْكَ بِقَطْعِ أَسْبَابِ تِلْكَ الْأَحْوَالِ، وَلَا تَقْطَعَنَّ لِأَحَدٍ مِنْ حَاشِيَتِكَ  
وَحَامَتِكَ قَطِيعَةً، وَلَا يَطْمَعَنَّ مِنْكَ فِي أُعْتِقَادِ عُقْدَةٍ تَضُرُّ بِمَنْ يَلِيهَا مِنَ النَّاسِ فِي

في ذلك ، وما عندك ظاهرا غير مستور ، فإنه الأولى والأقرب إلى استقامتهم لك على الحق .

وأصحرتُ بكذا ، أى كشفته ؛ مأخوذٌ من الإصحار ، وهو الخروج إلى الصحراء .  
وحامة الرجل : أقرُّبه وبطائه . واعتقدت عقدة ، أى ادّخرت ذخيرة . والمهنا مصدر  
هنا كذا . ومغبة الشيء : عاقبته .  
واعدل عنك ظنونهم : نجهها . والإعذار : إقامة العذر .

\*\*\*

[ طرف من أخبار عمر بن عبد العزيز ونزاهته في خلافته ]

ردَّ عمرُ بنُ عبد العزيز المظالم التي احتَقَبها<sup>(١)</sup> بنو مروان فأبفضوه وذمَّوه ؛ وقيل :  
إنهم سَمَّوه فُتات .

وروى الزبير بن بكار في " الموقَّعات " ، أنَّ عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز  
دخل على أبيه يوما وهو في قائلته ، فأيقظَه . وقال له : ما يؤمِّنك أن تؤثَّى في منامك  
وقد رُفِعَت إليك مظالم لم تقضِ حقَّ الله فيها ! فقال : يا بنيَّ إنَّ نفسي مطيَّبة إن لم أرفُقْ بها  
لم تبلِّغني ، إنِّي لو أتعبتُ نفسي وأعوانِي لم يكن ذلك إلَّا قليلا حتَّى أسقط ويسقطوا ،  
وإنِّي لأحتسب في نومتي من الأجر مثل الذي أحتسب في يقظتي ، إنَّ الله جلَّ ثناؤه  
لو أراد أن ينزل القرآن جملةً لأنزله ، ولكنه أنزل الآية والآيتين حتَّى استكثر<sup>(٢)</sup> الإيمان  
في قلوبهم .

ثم قال : يا بنيَّ ممَّا أنا فيه أمرٌ هو أهمُّ إلى أهل بيتك ، هم أهل العدة والمدد ، وقبلهم  
ما قبلهم ، فلو جمعتُ ذلك في يوم واحد خشيتُ انتشارهم على ، ولكني أنصف من الرجل

(١) يقال احتقب فلان الإثم ؛ كأنه جمعه واحتقبه من خلفه . (٢) د : « استكثر » .

والأثنين ، فيبلغ ذلك من وراءهما ، فيكون أنجع له ، فإن يُرد الله إتمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الأخرى فحسب عبدٍ أن يعلم الله منه أنه يحب أن ينصف جميع رعيته .

وروى جويرية بن أسماء ، عن إسماعيل بن أبي حكيم ، قال : كنا عند عمر بن عبد العزيز ، فلما تفرقنا نادى مناديه : الصلاة جامعة ! فجلت المسجدة ، فإذا عمرُ على المنبر ، فحمد الله وأنتى عليه ، ثم قال : أمّا بعد ، فإن هؤلاء - يعنى خلفاء بني أمية قبله - قد كانوا أعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا أن نأخذها منهم ، وما كان ينبغي لهم أن يُعطوناها ، وإني قد رأيت الآن أنه ليس عليّ في ذلك دون الله حسيب ، وقد بدأت بنفسى والأقربين من أهل بيتي ، اقرأ يا مزاحم . فجعل مزاحمُ يقرأ كتابا فيه الإقطاعات بالضيايع والتواحي ، ثم يأخذه عمرُ بيده فيقصّه بالجلّم <sup>(١)</sup> ، لم يزل كذلك حتى نودي بالظهر .

وروى الفرات بن السائب ؛ قال : كان عند فاطمة بنت عبد الملك بن مروان جوهر جليل ، وهبها أبوها ، ولم يكن لأحد مثله ، وكانت تحت عمر بن عبد العزيز ، فلما ولي الخلافة قال لها : اختاري ؛ إمّا أن تردّي جوهرك وحليّك إلى بيت مال المسلمين ، وإمّا أن تأذني لي في فراقك ، فإني أكره أن أجتمع أنا وأنتِ وهو في بيت واحد . فقالت : بل أختارك عليه وعلى أضعافه لو كان لي ؛ وأمرت به فحمل إلى بيت المال ، فلما هلك عمر وأستخلف يزيد ابن عبد الملك قال لفاطمة أخته : إن شئتِ رددته عليك ؛ قالت : فإني لا أشاء ذلك ، طبتُ عنه نفسا في حياة عمر ، وأرجع فيه بعد موته ! لا والله أبدا . فلما رأى يزيد ذلك قسمه بين ولده وأهله .

وروى سهيل بن يحيى المروزي عن أبيه ، عن عبد العزيز ، عن عمر بن عبد العزيز ، قال : لما دفن سليمان صعد عمرُ على المنبر فقال : إني قد خلعتُ ما في رقبتي من بيعتكم . فصاح الناسُ صيحةً واحدة : قد اخترناك ، فنزل ودخل وأمر بالسّور فهتكت ،

(١) الجلم : القس .

والثياب التي كانت تُبَسِّط للخلفاء فحُمِلَتْ إلى بيت المال ، ثم خرج و نادى مناديه : مَنْ كانت له مظلمةٌ من بعيد أو قريب من أمير المؤمنين فليحضر؛ فقام رجل ذِيَّ من أهل حصَّ أبيض الرأس واللحية ، فقال : أسألك كتابَ الله ! قال : ما شأنك ؟ قال : العباسُ بن الوليد ابن عبد الملك أغتصبني ضيعتي - والعباس جالس - فقال عمر : ما تقول يا عباس ؟ قال : أقطعتُها أمير المؤمنين الوليد ، وكتب لي بها سجلاً . فقال عمر : ما تقول أنت أيها الذمي ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أسألك كتابَ الله ! فقال عمر : إياها لعمري إن كتاب الله لأحقُّ أن يُتَّبَعَ من كتاب الوليد ، اردد عليه يا عباس ضيعتَه ؛ فجعل لا يدع شيئاً مما كان في أيدي أهل بيته من المظالم إلا ردّها مظلمةً مظلمةً .

وروى ميمون بن مهران ، قال : بعث إلى عمر بن عبد العزيز وإلى مكحول وأبي قلابة فقال : ما ترون في هذه الأموال التي أخذها أهلي من الناس ظُلماً ؟ فقال مكحول قولاً ضعيفاً كرهه عمر ، فقال : أرى أن تستأنف وتدع ما مضى ، فنظر إلى عمر كالستينيتي ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، أحضر ولدك عبد الملك لننظر ما يقول . فحضر ، فقال : ما تقول يا عبد الملك ؟ فقال : ماذا أقول ؟ ألسنت تعرف مواضعها ! قال : بلى والله ، قال : فأرددوها ، فإن لم تفعل كنت شريكاً لمن أخذها .

وروى ابن درستويه ، عن يعقوب بن سُفيان ، عن جويرية بن أسماء ، قال : كان بيد عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة ضيعة المعروفة بالسهلة ، وكانت باليمامة . وكانت أمراً عظيماً لها غلة عظيمة كثيرة ، إنما يعيش وعيش أهله منها ، فلما ولي الخلافة قال لزاحم مولاه - وكان فاضلاً - : إني قد عزمت أن أرد السهلة إلى بيت مال المسلمين ، فقال مزاحم : أتدري كم ولدك ؟ إنهم كذا وكذا ، قال : فذرفت عيناه ، فجعل يستدمع ويمسح الدّماء بأصبعه الوسطى ، ويقول : أكلهم إلى الله ، أكلهم إلى الله ! فمضى مزاحم فدخل على عبد الملك ابن عمر ، فقال له : ألا تعلم ما قد عزم عليه أبوك ! إنه يريد أن يرد السهلة ، قال : فما قلت

له ؟ قال : ذكرتُ له ولده فجعل يستدمع ويقول : أكلهم إلى الله . فقال عبد الملك :  
 بئس وزيرُ الدين أنت ! ثم وثب وانطلق إلى أبيه فقال للآذن : استأذن لي عليه ، فقال :  
 إنه قد وضع رأسه الساعة للقائلة ، فقال : استأذن لي عليه ؛ فقال : أما ترجمونه ! ليس له  
 من الليل والنهار إلا هذه الساعة . قال : استأذن لي عليه لا أم لك ! فسمع عمرُ كلامهما ،  
 فقال : ائذن لعبد الملك ، فدخل فقال : على ماذا عزمت ؟ قال : أردتُ السَّهْلَةَ قال : فلا تؤخّر  
 ذلك قم الآن . قال : فجعل عمرُ يرفع يديه ويقول : الحمد لله الذي جعل لي من ذريتي مَنْ  
 يعينني على أمر ديني . قال : نعم يا بني أصلي الظهر ، ثم أصعد المنبر فأردّها علانيةً على  
 رؤوس الناس ، قال : ومن لك أن تعيش إلى الظهر ! ثم من لك أن تسلم نيتك إلى الظهر  
 إن عشت إليها ! فقام عمر فصعد المنبر ، فخطب الناس ورد السَّهْلَةَ .

\*\*\*

قال : وكتب عمرُ بنُ الوليد بن عبد الملك إلى عمرَ بن عبد العزيز لما أخذ بنى مروان  
 برد المظالم كتاباً أغلظَ له فيه ، من بُجَلَّتِهِ : إِنَّكَ أُرَرَيْتَ عَلَى كُلِّ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْخُلَفَاءِ  
 وَعَبْتَهُمْ ، وَسَرْتَ بغير سيرتهم بُغْضاً لهم وشناً لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعت ما أمر  
 الله به أن يُوصَلَ ، وعمدّت إلى أموال قريش وموارثهم فأدخلتها بيت المال جوراً وعدواناً ،  
 فاتق الله يا بن عبد العزيز وراقبه ، فإنّك خصصت أهل بيتك بالظلم والجور . والذى خصّ  
 محمداً صلى الله عليه وآله بما خصّه به لقد أزددت من الله بُعْداً بولايتك هذه التي زعمت أنّها  
 عليك بلاء . فأقصِر عن بعض ما صنعت ، وأعلم أنّك بمن جبار عزيز وفي قبضته ،  
 ولن يتركك على ما أنت عليه .

قالوا : فكتب عمرُ جوابه : أمّا بعد ، فقد قرأت كتابك ، وسوف أُجيبك بنحو منه ،  
 أمّا أوّل أمرك يا بن الوليد فإنّ أمك نُبَاتة أمة السَّكُون ، كانت تطوف في أسواق رَحْص ،  
 وتدخل حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ؛ اشتراها ذبيان بنُ ذبيان من قِء المسلمين ، فأهاها

لأبيك ، فحمت بك ، فبئس الحامل وبئس المحمول ! ثم نشأت فكنت جباراً عنيدا . وتزعم  
أن من الظالمين لأنى حرمتك وأهل بيتك في الله الذى هو حق القرابة والمساكين  
والأرامل ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعملك صبياً سفيهاً على جند المسلمين تحكّم  
فيهم برأيك ، ولم يكن له في ذاك نية إلا حبّ الوالد ولده ، فويل لك وويل لأبيك ! ما أكثر  
خصماءكم يوم القيامة ! وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل الحجاج بن يوسف على  
محمّسى العرب ، يسفك الدم الحرام ، يأخذ المال الحرام . وإن أظلم منى وأترك لعهد  
الله من استعمل قرّة بن شريك ، أعرابياً جافياً على مصر ، وأذن له في المعازف والخمر  
والشرب واللهو . وإن أظلم منى وأترك لعهد الله من استعمل عثمان بن حيان على الحجاز ،  
فينشد الأشعار على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله ، ومن جعل للعالية البرية سهماً في  
الخنس ؛ فرويداً يابن نباتة ، ولو التقت حلقتا البطان<sup>(١)</sup> وردّ الفء إلى أهله ، لتفرّغت  
لك ولأهل بيتك فوضعتكم على المحبّة البيضاء ، فطالما تركتم الحق ، وأخذتم في بُنيّات  
الطريق ! ومن وراء هذا من الفضل ما أرجو أن أعمله ؛ بيع رقبته ، وقسم ثمنك بين  
الأرامل واليتامى والمساكين ، فإن لكلّ فيك حقاً ، والسلام علينا ، ولا ينال سلام  
الله الظالمين .

\*\*\*

وروى الأوزاعي قال : لما قطع عمر بن عبد العزيز عن أهل بيته ما كان من قبله  
يجرّونه عليهم من أرزاق الخاصة ، فتكلّم في ذلك عتبسة بن سعيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ،  
إن لنا قرابة ، فقال : ما لي إن يتّسع لكم ، وأما هذا المال فحقّكم فيه كحقّ رجل بأقصى  
برك النعماد<sup>(٢)</sup> ، ولا يمنعه من أخذه إلا بعد مكانه . والله إنى لأرى أن الأمور

(١) التقت حلقتا البطان : مثل يضرب للأمر العظيم .

(٢) برك النعماد : موضع بين مكة وزبيد .

لو أَسْتَحَالَتْ حَتَّى يُصْبِحَ أَهْلُ الْأَرْضِ يَرُونَ مِثْلَ رَأْيِكُمْ لَنَزَلَتْ بِهِمْ بَاقِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ .

وَرَوَى الْأَوْزَاعِيُّ أَيْضًا ، قَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمًا وَقَدْ بَلَغَهُ عَنْ بَنِي أُمَيَّةَ كَلَامٌ أَغْضَبَهُ : إِنَّ اللَّهَ فِي بَنِي أُمَيَّةَ يَوْمًا - أَوْ قَالَ : ذُبْحًا - وَإِيْمُ اللَّهِ لَنْ كَانَ ذَلِكَ الذَّبْحُ - أَوْ قَالَ ذَلِكَ الْيَوْمَ - عَلَى يَدَيِ الْأَعْدِرْنَ اللَّهُ فِيهِمْ . قَالَ : فَلَمَّا بَلَغَهُمْ ذَلِكَ كَفَّفُوا ، وَكَانُوا يَعْلَمُونَ صَرَامَتَهُ ، وَإِنَّهُ إِذَا وَقَعَ فِي أَمْرٍ مَضَى فِيهِ .

وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ ، قَالَ : قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَوْمًا لِحَاجِبِهِ : لَا تُدْخِلْنِي عَلَى الْيَوْمِ إِلَّا مَرَوَانِيَا . فَلَمَّا اجْتَمَعُوا قَالَ : يَا بَنِي مَرْوَانَ ، إِنَّكُمْ قَدْ أُعْطِيتُمْ حَظًّا وَشَرَفًا وَأَمْوَالًا ، إِنِّي لِأَحْسِبُ شَطَرَ أَمْوَالِ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَوْ ثُلُثِيهَا فِي أَيْدِيكُمْ ، فَسَكَّتُوا ، فَقَالَ : أَلَا تُجِيبُونِي ؟ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : فَا بِالْكَ ؟ قَالَ : إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْزِعَ عَنْكُمْ ، فَأُرَدِّهَا إِلَى بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ : وَاللَّهِ لَا يَكُونُ ذَلِكَ حَتَّى يَحَالَ بَيْنَ رُءُوسِنَا وَأَجْسَادِنَا ، وَاللَّهِ لَا نُكْفِرُ أَسْلَافَنَا ، وَلَا نُنْفِقُ<sup>(١)</sup> أَوْلَادَنَا . فَقَالَ عُمَرُ : وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَسْتَمِينُوا عَلَى بَنِي أَسَدٍ لَطَلَبَ هَذَا الْحَقُّ لَهُ لَأَضْرَعْتُ خُدُودَكُمْ ! قَوْمُوا عَنِّي .

وَرَوَى مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ ، قَالَ : ذَكَرَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَنْ كَانَ قَبْلَهُ مِنَ الْمَرْوَانِيَّةِ فَمَاجِبَهُمْ ، وَعِنْدَهُ هَشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّا وَاللَّهِ نَكْرَهُ أَنْ تَعْبِيبَ آبَاءَنَا ، وَتَضَعُ شَرْفَنَا ؛ فَقَالَ عُمَرُ : وَأَيَّ عَيْبٍ أُعْيِبُ مِمَّا عَابَهُ الْقُرْآنُ !

وَرَوَى نَوْفَلُ بْنُ الْفَرَاتِ ، قَالَ : شَكَا بَنُو مَرْوَانَ إِلَى عَاتِكَةَ بِنْتِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ عُمَرَ ، فَقَالُوا : إِنَّهُ يَعْيِبُ أَسْلَافَنَا ، وَيَأْخُذُ أَمْوَالَنَا . فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لَهُ - وَكَانَتْ عَظِيمَةً عِنْدَ بَنِي مَرْوَانَ - فَقَالَ لَهَا : يَا عَمَّةُ ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قُبِضَ وَتَرَكَ

(١) ب : « وَنَفَقَ » .

الناس على نهرٍ مَوْرود ، فولى ذلك النهرَ بعده رجلاً لم يستخصاً أنفسمها وأهلها منه بشيء ، ثم وليه ثالثٌ ففكرى منه ساقيةً ، ثم لم تزل الناس يُكرُّون منه السواقي حتى تركوه يابساً لا قطرَة فيه ، وأيم الله لئن أبقانى الله لأسكُرَنَّ<sup>(١)</sup> تلك السواقي حتى أعيد النهر إلى مجراه الأول ؛ قالت : فلا يُسبِّون إذاً عندك ! قال : ومن يسبِّهم ! إنما يرفع الرجل مظلمته فأردّها عليه .

وروى عبدُ الله بن محمد التيمي ، قال : كان بنو أمية يُنزِلون عاتكة بنت مروان بن الحكم على أبوابِ قصورهم ، وكانت جليلةً الموضع عندهم ، فلما ولى عمرُ قال : لا يلى إنزالها أحدٌ غيرى ، فأدخلوها على دابتها إلى باب قُبته ، فأنزَلها ، ثم طبَّق لها وسادتين ، إحداها على الأخرى ، ثم أنشأ يُمازحها - ولم يكن من شأنه ولا من شأنها المزاح - فقال : أما رأيت الحرس الذين على الباب ؟ فقالت : بلى ، وربما رأيتهم عند من هو خير منك ! فلما رأى الفضب لا يتحلل عنها ترك المزاح وسألها أن تذكر حاجتهم ، فقالت : إن قرأبتك يشكونك ، ويزعمون أنك أخذت منهم خير غيرك ، قال : ما مدمتهم شيئاً هو لهم ، ولا أخذت منهم حقاً يستحقونه ! قالت : إني أخاف أن يهيجوا عليك يوماً عصيباً<sup>(٢)</sup> ، وقال : كل يوم أخافه دون يوم القيامة - فلا وقانى الله شرّه . ثم دعا بدِينار وبجمرة وجلد فألقى الدِينار في النار ، وجعل ينفخ حتى أحمَرَّ ، ثم تناوله بشيء فأخرجه فوضعه على الجلد ، فنشَّ وفتر ، فقال : يا عمّة ، أما تأوين لابن أخيك ، من مثل هذا ، فقامت فخرجت إلى بنى مروان فقالت : تزوجون في آل عمر بن الخطّاب ، فإذا نزَعوا إلى الشبه<sup>(٣)</sup> جزعتم ! اصبروا له .

وروى وهّيب بن الورد ، قال : اجتمع بنو مروان على باب عمر بن عبد العزيز ، فقالوا لولده : قل لأبيك يَأْذَن لنا ، فإن لم يأذن فأبلغ إليه عنا وسالة ، فلم يأذن لهم ، وقال :

(١) سكر الساقية : سدها . (٢) د : « أن يهيجوا عليك غضباً يوماً » .

(٣) كذا في د ، وفي أ ، ب « السنة » .



فليقولوا ، فقالوا : قل له : إن من كان قبلك من الخلفاء كان يعطينا ، ويعرف لنا مواضعنا ، وإن أباك قد حرّمنا ما في يديه . فدخّل إلى أبيه فأبلغه عنهم ، فقال : اخرج فقل لهم : إني أخلف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم .

وروى سعيد بن عمّار ، عن أسماء بنت عبيد ، قال : دخل عنبسة بن سعيد بن العاص على عمر بن عبد العزيز ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن من كان قبلك من الخلفاء كانوا يعطوننا عطايا منعتناها ، ولى عيال وضيعة ، فأذن لي أخرج إلى ضيعتي ، وما يصلح عيالي ! فقال عمر : إن أحبّكم إلينا من كفانا مؤثنته . فخرج عنبسة ، فلما صار إلى الباب ناداه : أبا خالد ! أبا خالد ! فرجع فقال : أكثر ذكر الموت فإن كنت في ضيق من العيش وسّع عليك ، وإن كنت في سعة من العيش ضيّقه عليك .

وروى عمر بن عليّ بن مقدّم ، قال : قال ابن صغير لسليمان بن عبد الملك لمزاحم : إن لي حاجة إلى أمير المؤمنين عمر ؟ قال : فاستأذنت له ، فأدخله ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لم أخذت قطيعتي ؟ قال : معاذ الله أن آخذ قطيعةً ثبتت في الإسلام ! قال : فهذا كتابي بها - وأخرج كتابا من كمه - فقراء عمر وقال : لمن كانت هذه الأرض ؟ قال : كانت للمسلمين ، قال : فالمسلمون أولى بها . قال : فاردّد عليّ كتابي ؟ قال : إنك لو لم تأتني به لم أسألكه ، فأما إذ جئتني به فلست أدعك تطلب به ما ليس لك بحق . فبكي ابن سليمان ، فقال لمزاحم : يا أمير المؤمنين ، ابن سليمان تصنع به هذا . قال : وذلك لأن سليمان عهد إلى عمر ، وقدمه على إخوته - فقال عمر : ويحك يامزاحم ! إنّي لأجد له من اللوط<sup>(١)</sup> ما أجد لو لددى ، ولكنّها نفس أجادل عنها .

وروى الأوزاعي ، قال : قال هشام بن عبد الملك ، وسعيد بن خالد بن عمر بن عثمان

(١) في اللسان : « قد لاط حبه بقلبي ، أي لصق ، وفي حديث أبي البختري : ما أزعج أن عليا أفضل من أبي بكر وعمر ؛ ولكن أجد له من اللوط ما لأجد لأحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم » .

ابن عقّان لعمر بن عبد العزيز : يا أمير المؤمنين ، استأنف العمل برأيك فيما تحت يدك ، واخل بين من سبقك وبين ما وُلّوه عليهم كان ، أو لهم ، فإنك مستكف أن تدخل في خير ذلك وشره . قال : أنشدك الله الذي إليه تعودان ، لو أن رجلا هلك وترك بين الأصغر وأكبر ، فغرّ الأكبر الأصغر بقوتهم ، فأكلوا أموالهم ، ثم بلغ الأصغر الحلم فجاءوكا بهم وبما صنعوا في أموالهم ما كنتم صانعين ؟ قال : كننا نردّ عليهم حقوقهم حتى يستوفوها . قال : فإنني وجدت كثيرا ممن كان قبلي من الولاة غرّ الناس بسلطانه وقوته ، وآثر بأموالهم أتباعه وأهله ورهطه وخاصته ، فلما وليت أتوني بذلك ، فلم يسعني إلا الرد على الضعيف من القوى ، وعلى الدنيا من الشريف . فقالا : يوفق الله أمير المؤمنين .

\*\*\*

## الأصل

وَلَا تَدْفَعَنَّ صَلَاحًا دَعَاكَ إِلَيْهِ عَدُوُّكَ لِلَّهِ فِيهِ رِضًا ، فَإِنَّ فِي الصَّاحِرِ دَعَاً لِيَجْنُودِكَ ؛ وَرَاحَةً مِنْ هُمُومِكَ ، وَأَمْنًا لِبِلَادِكَ ؛ وَلَكِنْ الْحَذَرُ كُلُّ الْحَذَرِ مِنْ عَدُوِّكَ بَعْدَ صَلَاحِهِ ، فَإِنَّ الْعَدُوَّ رُبَّمَا قَارَبَ لِيَتَغَفَّلَ . فَخُذْ بِالْحَزْمِ ، وَأَتَّهِمْ فِي ذَلِكَ حُسْنَ الظَّنِّ . وَإِنْ عَقَدْتَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَدُوِّكَ عَقْدَةً ، أَوْ أَلْبَسْتَهُ مِنْكَ ذِمَّةً ، فَحُطَّ عَهْدُكَ بِالْوَفَاءِ ، وَارْعَ ذِمَّتَكَ بِالْأَمَانَةِ .

وَأَجْعَلْ نَفْسَكَ جُنَّةً دُونَ مَا أُعْطِيَتْ ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ شَيْءٌ إِلَّا النَّاسُ أَشَدُّ عَلَيْهِ اجْتِمَاعًا مَعَ تَفَرُّقِ أَهْوَائِهِمْ ، وَتَشْتَتِ آرَائِهِمْ ، مِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ بِالْمُحْدُودِ ؛ وَقَدْ لَزِمَ ذَلِكَ الْمُشْرِكُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ دُونَ الْمُسْلِمِينَ ؛ لِمَا اسْتَوْبَلُوا مِنْ عَوَاقِبِ الْعَدْرِ . فَلَا تُمْدِرَنَّ بِذِمَّتِكَ ، وَلَا تَخِيسَنَّ بِعَهْدِكَ ، وَلَا تَخْتَلَنَّ عَدُوَّكَ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَجْتَرِئُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا جَاهِلٌ شَقِيئٌ ، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ عَهْدَهُ وَذِمَّتَهُ أَمْنًا أَفْضَاهُ بَيْنَ الْعِمَادِ بِرَحْمَتِهِ ،

وَحَرِيماً يَسْكُنُونَ إِلَى مَنَعَتِهِ ، وَيَسْتَفِيضُونَ إِلَى جَوَارِهِ ، فَلَا إِذْغَالَ وَلَا مُدَالَسَةَ وَلَا خِدَاعَ فِيهِ .

وَلَا تَعْقِدُهُ عَقْداً تُجَوِّزُ فِيهِ الْعِلَلَ ، وَلَا تُعَوِّلَنَّ عَلَى لَحْنِ الْقَوْلِ بِمَدَالَتَا كَيْدٍ وَالتَّوَثُّقَةِ ، وَلَا يَدْعُوَنَّكَ ضَيْقُ أَمْرٍ لَزَمَكَ فِيهِ عَهْدُ اللَّهِ إِلَى طَلَبِ انْفِسَاخِهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، فَإِنَّ صَبْرَكَ عَلَى ضَيْقِ أَمْرٍ تَرْجُو انْفِرَاجَهُ وَفَضْلَ عَاقِبَتِهِ ، خَيْرٌ مِنْ غَدْرِ تَخَافُ تَبِعَتَهُ ، وَأَنْ تُحِيطَ بِكَ مِنَ اللَّهِ طِلْبَةً لَا تَسْتَقِيلُ فِيهَا دُنْيَاكَ وَلَا آخِرَتَكَ .

\*\*\*

### الْبَرْخ :

أَمْرَهُ أَنْ يَقْبَلَ السَّلَامَ وَالصَّلَحَ إِذَا دُعِيَ إِلَيْهِ ، لِمَا فِيهِ مِنْ دَعَاةِ الْجَنُودِ ، وَالرَّاحَةِ مِنَ الْهَمِّ ، وَالْأَمْنِ لِلْبِلَادِ ، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَحْذَرُ بَعْدَ الصَّلَحِ مِنْ غَائِلَةِ الْعَدُوِّ وَكَيْدِهِ ، فَإِنَّهُ رُبَّمَا قَارِبَ بِالصَّلَحِ لِيَتَغَفَّلَ ، أَيْ يَطْلُبَ غَفْلَتَكَ ، نَخَذَ بِالْحَزْمِ ، وَأَتَتْهُمْ حُسْنُ ظَنِّكَ ، لَا تَتَّقُ وَلَا تَسْكُنُ إِلَى حُسْنِ ظَنِّكَ بِالْعَدُوِّ ، وَكُنْ كَالطَّائِرِ الْحَذِيرِ .

ثُمَّ أَمْرَهُ بِالْوَفَاءِ بِالْمُيُودِ ؛ قَالَ : وَاجْعَلْ نَفْسَكَ جُتَّةً دُونَ مَا أُعْطِيَتْ ، أَيْ وَلَوْ ذَهَبَتْ نَفْسُكَ فَلَا تَغْدِرْ .

وَقَالَ الرَّائِدِيُّ : النَّاسُ مُبْتَدَأُ ، وَأَشَدُّ مُبْتَدَأُ ثَانٍ ، وَمِنْ تَعْظِيمِ الْوَفَاءِ خَبْرُهُ ، وَهَذَا الْمُبْتَدَأُ الثَّانِي مَعَ خَبَرِهِ خَبَرُ الْمُبْتَدَأِ الْأَوَّلِ ، وَمَحَلُّ الْجُمْلَةِ نَصْبٌ لِأَنَّهَا خَبَرُ لَيْسَ ، وَمَحَلُّ لَيْسَ مَعَ اسْمِهِ وَخَبَرُهُ رَفْعٌ ، لِأَنَّهُ خَبَرٌ ، فَإِنَّهُ وَشَيْءٌ اسْمٌ لَيْسَ ، وَمِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ هَالٌ ، وَلَوْ تَأَخَّرَ لَكَانَ صِفَةً لَشَيْءٍ . وَالصَّوَابُ أَنَّ « شَيْءٌ » اسْمٌ لَيْسَ ، وَجَازَ ذَلِكَ وَإِنْ كَانَ نَكْرَةً لِاعْتِمَادِهِ عَلَى النَّفْيِ ، وَلِأَنَّ الْجَارَّ وَالْمَجْرُورَ قَبْلَهُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ كَالصَّفَةِ ، فَتَخَصَّصَ بِذَلِكَ وَقَرَّبَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ ، وَالنَّاسُ : مُبْتَدَأُ ، وَأَشَدُّ : خَبْرُهُ ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْمَرْكَبَةُ مِنْ مُبْتَدَأٍ

وخبر في موضع رَفَع لآنها صفةُ « شئ » وأما خبر المبتدأ الذي هو « شئ » فمحذوف ، وتقديره « في الوجود » كما حذف الخبر في قولنا : لا إله إلا الله ، أى في الوجود . وليس يصح ما قال الراوندى من أن « أشد » مبتدأ ثان ، و « من تعظيم الوفاء » خبره ، لأن حرف الجر إذا كان خبراً المبتدأ تعلق بمحذوف ، وهاهنا هو متعلق بأشد نفسه ، فكيف يكون خبراً عنه ! وأيضاً فإنه لا يجوز أن يكون أشد من تعظيم الوفاء خبراً عن الناس ، كما زعم الراوندى ، لأن ذلك كلامٌ غير مفيد ، ألا ترى أنك إذا أردت أن تُخبر بهذا الكلام عن المبتدأ الذي هو « الناس » لم يَقم من ذلك صورةٌ محصلةٌ تفيدك شيئاً ، بل يكون كلاماً مضطرباً !

ويمكن أيضاً أن يكون « من فرائض الله » في موضع رَفَع ، لأنه خبر المبتدأ ، وقد قدم عليه ، ويكون موضع « الناس » وما بعده رَفَع ، لأنه خبر المبتدأ الذي هو « شئ » كما قلناه أولاً ، وليس يمتنع أيضاً أن يكون : « من فرائض الله » منصوب الموضع ، لأنه حال ، ويكون موضع « الناس أشد » رفعاً ، لأنه خبر المبتدأ ، الذي هو « شئ » .

ثم قال له عليه السلام : وقد لزم المشركون مع شِرِّ كههم الوفاء بالمهود ، وصار ذلك لهم شريعةً بينهم سنةً ، فالإسلام أولى بال لزوم والوفاء .

واستوبلوا : وجدوه وريلاً ، أى ثقيلًا ، استوبلت البلد ، أى استوتخته واستثقلت ، ولم يوافق مزاجك .

ولا تحيسن بمهذك : أى لا تفدين ، خاس فلان بذمته ، أى غدر . ونكث .

قوله : « ولا تحتلن عدوك » ، أى لا تمكرن به ، حثلته ، أى خدعته .

وقوله : « أفصاه بين عباده » ، جعله مشتركاً بينهم ، لا يختص به فريق دون

فريق .

قال : « ويستفيضون إلى جواره » ، أى ينتشرون فى طلب حاجتهم ومآربهم ، ساكنين إلى جواره ، فإلى ها هنا متعلقة بمحذوف مقدّر ، كقوله تعالى : ﴿ فى تسع آياتٍ إلى فرعون ﴾<sup>(١)</sup> ، أى مرسلًا . قل : « فلا إدغال » ، أى لا إفساد ، والدّغّل : الفساد . ولا مُدالسة ، أى لا خديعة ، يقال : فلان لا يوالس ولا يُدالس ، أى لا يخادع ولا يخون ، وأصل الدّلس الظلمة ، والتدليس فى البّيع : كتمان عيب السلعة عن المشتري .

ثمّ نهاه عن أن يعقد عقداً يمكن فيه التأويلات والعلل وطلب المخارج . ونهاه إذا عقد العقد بينه وبين العدو أن ينقضه معوّلاً على تأويل خفى أو فحوى قول ، أو يقول : إنما عنيت كذا ؛ ولم أعن ظاهر اللفظة ؛ فإن العقود إنما تُعقد على ما هو ظاهر فى الاستعمال متداول فى الاصطلاح والعرف لا على ما فى الباطن . وروى « انفساحه » بالحاء المهملة ، أى سعته .

\*\*\*

### [ فصل فيما جاء فى الحذر من كيد العدو ]

قد جاء فى الحذر من كيد العدو والنهى عن التفريط فى الرأى السكون إلى ظاهر السلم أشياء كثيرة ، وكذا فى النهى عن الغدر والنهى عن طلب تأويلات اليهود وفسخها بغير الحق . فرط عبد الله بن طاهر فى أيام أبيه فى أمرٍ أشرف فيه على العطب ، ونجا بعد لأى<sup>(٢)</sup> فكتب إليه أبوه : أتانى يا بُنى من خبر تفريطك ما كان أكبر عندى من نعيك لو ورَدَ ، لأنى لم أرجُ قط ألا تموت ، وقد كنتُ أرجو ألا تفتضح بترك الحزم واليقظ . وروى ابنُ الكلبي أن قيسَ بنَ زهير لما قتلَ حذيفة بنَ بدر ومن معه بجفَر الهبابة ،

(٢) بعد لأى ؛ بعد جهد .

(١) سورة النمل ١٢ .

خرج حتى لحق بالنمر بن قاسط وقال : لا تنظرُ في وجهي غطفانيَّة بعد اليوم ؛ فقال :  
يا معاشرَ النمر ، أنا قيس بن زهير ، غريبٌ طريدٌ شريدٌ موتور ، فأنظروا لي  
امراةً قد أدبها النسي وأذلها الفقر . فزوجوه بامراةٍ منهم ، فقال لهم : إني لا أقيم فيكم  
حتى أخبركم بأخلاق ، أنا نفورٌ غيورٌ أنف ، ولستُ أخفر حتى أبتلى ، ولا أغارُ حتى أرى ،  
ولا آنف حتى أظلم . فرضوا أخلاقه ، فأقام فيهم حتى وُلد له ، ثم أراد أن يتحول عنهم ،  
فقال : يا معاشرَ النمر ، إنَّ لكم حقاً على في مصاهرتي فيكم ، ومُقامي بين أظهركم ،  
وإني موصيكم بخصالٍ أمرُكم بها ، وأنها كم عن خصالٍ عليكم بالآناة فإنَّ بها تُدرك  
الحاجة ، وتنال الفرصة ، وتسويد من لا تُعابون بتسويده ، والوفاء بالعهود فإنَّ به  
يعيشُ الناس ، وإعطاء ما تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنع ما تريدون منعه قبل الإتمام ،  
وإجارة الجار على الدهر ، وتنفيس البيوت عن منازل الأيامي ، وخلط الضئيف بالعيال .  
وأنها كم عن القدر ، فإنه عارُ الدهر ، وعن الرِّهان فإنَّ به تُكِلتُ ما لكأ أخى ، وعن  
البقي فإنَّ به صُرِعَ زهيرٌ أبى ، وعن السرف في الدماء ؛ فإنَّ قتلى أهل الهبابة أودى  
العار . ولا تُمطُوا في الفضول فتعجزُوا عن الحقوق ، وأنكحوا الأيامي الأكفاء فإنَّ  
لم تصيبوا بهنَّ الأكفاءَ فخيرُ بيوتهنَّ القبور . وأعلموا أني أصبحتُ ظالماً ومظلوماً ، ظلمي  
بنو بدرٍ بقتلهم مالكا ، وظلمتهم بقتلي مَنْ لا ذنب له . ثم رحل عنهم إلى غمار<sup>(١)</sup> فتنصّر  
بها ، وعَفَّ عن المأكَل حتى أكل الحنظل إلى أن مات .

\*\*\*

### الأصل :

إِيَّاكَ وَالِدَّمَاءَ وَسَفَكَهَا يَغْيِرُ حِلَّهَا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَذْعَى لِنِقْمَةٍ ؛ وَلَا أَعْظَمَ

(١) غمار : اسم واد بنجد .

لَتَبْعَةٍ ، وَلَا أُخْرَى بِزَوَالِ نِعْمَةٍ ؛ وَانْقِطَاعِ مُدَّةٍ ، مِنْ سَفْكِ الدِّمَاءِ بِغَيْرِ حَقِّهَا ،  
وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ مُبْتَدِئُ الْحُكْمِ بَيْنَ الْعِبَادِ فِيمَا تَسَافَكُوا مِنَ الدِّمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ،  
فَلَا تُقَوِّينَ سُلْطَانَكَ بِسَفْكِ دَمٍ حَرَامٍ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْمَعُهُ وَيُوْهِنُهُ ، بَلْ يُزِيلُهُ  
وَيَنْقُلُهُ .

وَلَا غَدْرَ لَكَ عِنْدَ اللَّهِ وَلَا عِنْدِي فِي قَتْلِ الْعَمْدِ ، لِأَنَّ فِيهِ قَوَدَ الْبَدَنِ ،  
وَإِنْ ابْتُلِيتَ بِخَطَا ، وَأَفْرَطَ عَلَيْكَ سَوْطُكَ أَوْ يَدُكَ بِالْمُقُوبَةِ ، فَإِنَّ فِي الْوَكْزَةِ  
فَمَا فَوْقَهَا مَقْتَلَةً ، فَلَا تَطْمَحَنَّ بِكَ نَحْوَةُ سُلْطَانِكَ عَنْ أَنْ تُودَى إِلَى أَوْلِيَاءِ الْمُقْتُولِ  
حَقِّهِمْ .

\*\*\*

### الشَّرْحُ :

قد ذكرنا في وصية قيس بن زهير آثافا انتهى عن الإسراف في الدماء ، وتلك وصية  
مبنية على شريعة الجاهلية مع حميتها ونها أسكها على القتل والقتال ، ووصية أمير المؤمنين  
عليه السلام مبنية على الشريعة الإسلامية ، وانتهى عن القتل والعُدوان الذي لا يُسيغه  
الدين ، وقد ورد في الخبر المرفوع : « إِنَّ أَوَّلَ مَا يَقْضِي اللَّهُ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بَيْنَ الْعِبَادِ أَمْرُ  
الدِّمَاءِ » . قال : إنه ليس شيء أَدْعَى إِلَى حُلُولِ النِّقَمِ ، وَزَوَالِ النِّعَمِ ، وَأَنْتَقَالَ الدُّوْلُ ، مِنْ  
سَفْكِ الدَّمِ الْحَرَامِ ، وَإِنَّكَ إِنْ ظَنَنْتَ أَنَّكَ تُقَوِّى سُلْطَانَكَ بِذَلِكَ ، فَلَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا ظَنْنْتَ ،  
بَلْ تَضْمَعُهُ ، بَلْ تُعْدِمُهُ بِالْكَلْبَةِ .

ثم عرّفه أَنَّ قَتْلَ الْعَمْدِ يُوجِبُ الْقَوَدَ وقال له : « قَوَدَ الْبَدَنِ » أى يجب عليك هدم  
صورتك كما هدمت صورة المقتول ، والمراد إرهابه بهذه اللفظة أَنَّهَا أَبْلَغُ مِنْ أَنْ يَقُولَ لَهُ :  
« فَإِنَّ فِيهِ الْقَوَدَ » .

ثم قال : إِنْ قَتَلْتَ خَطَاً أَوْ شَبِهَ عَمْدٍ كَالضَّرْبِ بِالسَّوْطِ فَعَلَيْكَ الدِّيَّةُ . وقد اختلف .

الفتهاء في هذه المسألة ، فقال أبو حنيفة وأصحابه : القتل على خمسة أوجه : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ ، وما أُجْرِيَ بِمَجْرَى الخطأ ، وقتل بسبب .

فالعمد : ما تعمّد به ضرب الإنسان بسلاح ، أو ما يجري مجرى السلاح ، كالحديد من الخشب وريطة<sup>(١)</sup> القصب ، والمرؤة<sup>(٢)</sup> المحددة ، والنار ؛ وموجب ذلك المأثم والقود إلا أن ينفو الأولياء ، ولا كفارة فيه .

وشبه العمد أن يتمدّد الضرب بما ليس بسلاح ، ولا أُجْرِيَ بِمَجْرَى السلاح ، كالخجر العظيم ، والخشبة العظيمة ، وموجب ذلك المأثم والكفارة ، ولا قود فيه ، وفيه الدية منلظة على العاقلة .

والخطأ على وجهين : خطأ في القصد ، وهو أن يَرْمِيَ شخصاً يظنّه صيداً ، فإذا هو آدمي . وخطأ في الفعل ، وهو أن يَرْمِيَ غَرَضاً فيصيب آدمياً ، وموجب النوعين جميعاً الكفارة والدية على العاقلة ، ولا مأثم فيه .

وما أُجْرِيَ بِمَجْرَى الخطأ مثل النائم يتقلب على رَجُل فيقتله ، فحُكِمَ حَكْمُ الخطأ . وأما القتل بسبب ، فخافر البئر وواضع الحجر في غير ملكه ، وموجبُهُ إذا تَلَفَ فيه إنسانٌ الدية على العاقلة ، ولا كفارة فيه .

فهذا قولُ أبي حنيفة ومَنْ تَابَعَهُ ؛ وقد خالفه أصحابه أبو يوسف ومحمد في شبه العمد ، وقالوا : إذا ضَرَبَهُ بِمَجْرَى عَظِيمٍ أو خشبة غليظة فهو عمد ، قال : وشبه العمد أن يتمدّد ضربه بما لا يقتل به غالباً ، كالعصا الصغيرة ، والسوط ؛ وبهذا القول قال الشافعي .

وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أن المؤدّب من الولاة إذا تَلَفَ تحت

(١) الليط : قشر القصب اللازق به .

(٢) المرؤة : حجر أبيض براق ؛ وفي الحديث : « قال له عدى بن حاتم : إذا أصاب أحدنا صيداً وليس معه سكين ، أئذبح بالمرؤة وشقة العصا » ؟



يده إنسان في التأديب فعلية الدية ، وقال لى قوم من فقهاء الإمامية : إن مذهبنا أن لا دية عليه ، وهو خلاف ما يقتضيه كلام أمير المؤمنين عليه السلام .

\*\*\*

### الأصل :

وَإِيَّاكَ وَالْإِعْجَابَ بِنَفْسِكَ ، وَالثِّقَةَ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا ، وَحُبَّ الْإِطْرَاءِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَوْثَقِ فُرُصِ الشَّيْطَانِ فِي نَفْسِهِ ، لِيَمَحَقَ مَا يَكُونُ مِنْ إِحْسَانِ الْمُحْسِنِينَ .  
وَإِيَّاكَ وَالْمَنَّ عَلَى رَعِيَّتِكَ بِإِحْسَانِكَ ؛ أَوْ التَّزَيُّدَ فِيمَا كَانَ مِنْ فِعْلِكَ ، أَوْ أَنْ تَمْدَهُمْ ، فَتُتْبِعَ مَوْعِدَكَ بِخُلْفِكَ ، فَإِنَّ الْمَنَّ يُبْطِلُ الْإِحْسَانَ ، وَالتَّزَيُّدُ يَذْهَبُ بِنُورِ الْحَقِّ ، وَالْخُلْفُ يُوجِبُ الْمَقْتَّ عِنْدَ اللَّهِ وَالنَّاسِ ، قَالَ اللَّهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

وَإِيَّاكَ وَالْمَعْجَلَةَ بِالْأُمُورِ قَبْلَ أَوَانِهَا ، أَوْ التَّسَاقُطَ فِيهَا عِنْدَ امْتِكَانِهَا ، أَوْ اللَّجَاجَةَ فِيهَا إِذَا تَنَكَّرَتْ ، أَوْ الْوَهْنَ عَنْهَا إِذَا اسْتَوْضَحَتْ ، فَصَغَ كُلُّ أَمْرٍ مَوْضِعُهُ ، وَأَوْقَعَ كُلُّ عَمَلٍ مَوْقِعُهُ .

وَإِيَّاكَ وَالِاسْتِثْنَاءَ بِمَا النَّاسُ فِيهِ أُسُوءَةٌ ، وَالتَّغَابِيَ عَمَّا تُعْنَى بِهِ بِمَا قَدْ وَضَحَ لِلْمُيُونِ ، فَإِنَّهُ مَا خُوذَ مِنْكَ لِغَيْرِكَ ، وَعَمَّا قَلِيلٍ تَنَكْشِفُ عَنْكَ أَغْطِيَةُ الْأُمُورِ ، وَيُلْتَصَفُ مِنْكَ لِلْمَظْلُومِ .

اُمْلِكْ حِمِيَّةَ أَنْفِكَ ، وَسُورَةَ حَدِّكَ ، وَسَطْوَةَ يَدِكَ ، وَغَرْبَ لِسَانِكَ ، وَاحْتِرْسْ مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بِكَفِّ الْبَادِرَةِ ، وَتَأْخِيرِ السَّطْوَةِ ، حَتَّى يَسْكُنَ غَضَبُكَ ، فَتَمْلِكَ الْاِخْتِيَارَ . وَلَنْ تَحْكُمَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ حَتَّى تُكْثِرَ هُمُومَكَ بِذِكْرِ الْمَعَادِ إِلَى رَبِّكَ .

(١) سورة الصف ٣ .

وَالْوَاجِبُ عَلَيْكَ أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا مَضَى لِمَنْ تَقَدَّمَكَ ، مِنْ حُكُومَةٍ عَادِلَةٍ ، أَوْ سُنَّةٍ فَاضِلَةٍ ، أَوْ أَثَرٍ عَنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، أَوْ فَرِيضَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، فَتَقْتَدِيَ بِمَا شَاهَدْتَ مِمَّا عَمِلْنَا بِهِ فِيهَا ، وَتَجْتَهِدَ لِنَفْسِكَ فِي اتِّبَاعِ مَا عَهَدْتُ إِلَيْكَ فِي عَهْدِي هَذَا ، وَاسْتَوْفَتْ بِهِ مِنَ الْحُجَّةِ لِنَفْسِي عَلَيْكَ ، لِكَيْلَا تَكُونَ لَكَ عِلَّةٌ عِنْدَ تَسْرِعِ نَفْسِكَ إِلَى هَوَاهَا .

\*\*\*

### الشنخ :

قد اشتمل هذا الفصل على وصايا نحنُ شارِحوها ، منها قوله عليه السلام : « إِيَّاكَ وما يُعْجِبُكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَالثِّقَةُ بِمَا يُعْجِبُكَ مِنْهَا » ؛ قد ورد في الخبر : « ثلاثٌ مُهِلِكَاتٌ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهُوَى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ » ؛ وفي الخبر أيضا : « لَا وَحْشَةَ أَشَدَّ مِنَ الْعُجْبِ » ، وفي الخبر : « النَّاسُ لَأَدَمَ ، وَأَدَمٌ مِنْ تَرَابٍ ، فَمَا لِابْنِ آدَمَ وَالْفَخْرِ وَالْعُجْبِ ! » . وفي الخبر : « الْجَارُّ ثَوْبَهُ خِيَلَاءُ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ؛ وفي الخبر - وقد رأى أبا دُجَانَةَ يَتَبَخَّرُ : « إِنَّهَا لِمِشِيَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ إِلَّا بَيْنَ الصَّفَيْنِ » .

ومنها قوله : « وَحُبُّ الْإِطْرَاءِ » ، نَظَرَ الْمُأْمُونُ مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ النُّوشَجَانِيُّ الْمُتَكَلِّمُ ، فَجَعَلَ يَصَدِّقُهُ وَيُطْرِيهِ وَيُسْتَحْسِنُ قَوْلَهُ ، فَقَالَ الْمُأْمُونُ : يَا مُحَمَّدُ ، أَرَأَيْكَ تَنْقَادُ إِلَى مَا تَظُنُّ أَنَّهُ يَسْرَتُنِي قَبْلَ وَجُوبِ الْحُجَّةِ لِي عَلَيْكَ ، وَتُطْرِيَنِي بِمَا لَسْتُ أُحِبُّ أَنْ أُطْرَى بِهِ ، وَتَسْتَخْذِرُنِي فِي الْمَقَامِ الَّذِي يَلْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِيهِ مُقَاوِمًا لِي ، وَمَحْتَجًّا عَلَيَّ ، وَلَوْ شِئْتَ أَنْ أَقْسِرَ الْأُمُورَ بِفَضْلِ بَيَانٍ ، وَطُولِ لِسَانٍ ، وَأُعْتَصِبَ الْحُجَّةَ بِقُوَّةِ الْخُلَافَةِ ، وَأَهْبَةِ الرِّيَاسَةِ لَصِدَّقْتُ وَإِنْ كُنْتُ كَاذِبًا ، وَعَدَلْتُ وَإِنْ كُنْتُ جَائِرًا ، وَصُوبْتُ وَإِنْ كُنْتُ مُخْطِئًا ،

لكنى لا أرضى إلا بنقلة الحجّة ، ودفع الشبهة ، وإن أنقص الملوك عقلاً ، وأسحقهم رأياً ، من رضى بقولهم : صدق الأمير .

وأثنى رجل على رجل ، فقال : الحمد لله الذى سترنى عنك . وكان بعض الصالحين يقول إذا أطراه إنسان : ليسألك<sup>(١)</sup> الله عن حسن ظنك .

ومنها قوله : « وإياك والمن » ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا صِدْقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ﴾<sup>(٢)</sup> . وكان يقال : المنّ حبة للنفس ، مفسدة للصنع .

ومنها نهيه إياه عن التزيد فى فعله ، قال عليه السلام : إنه يذهب بنور الحق ، وذلك لأنّه محض الكذب ، مثل أن يسدى ثلاثة أجزاء من الجليل فيدعى فى المجالس والمحافل أنّه أسدى عشرة ، وإذا خالط الحق الكذب أذهب نوره .

ومنها نهيه إياه عن خلف الوعد ، قد مدح الله نبياً من الأنبياء وهو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام بصدق الوعد . وكان يقال : وعد الكريم نقد وتنجيل ، ووعد اللئيم مظل وتعطيل . وكتب بعض الكتّاب : وحق لمن أزهَرَ بقول ، أن يُشمر بفعل . وقال أبو مقاتل الضرير : قلت لأعرابي : قد أكثر الناس فى المواعيد ؛ فما قولك فيها ؟ فقال : بشئ ! الوعد مشغلة للقلب الفارغ ، متممة للبدن الخافض ، خيرُه غائب ، وشره حاضر . وفى الحديث المرفوع : « عِدَّةُ الْمُؤْمِنِ كَأَخْذِ الْبَالِدِ » ، فما أمير المؤمنين عليه السلام فقال : « إنه يوجب المقت » ، واستشهد عليه بالآية . والمقت : البغض .

ومنها نهيه عن العجلة ؛ وكان يقال : أصاب متنبّت أو كاد ، وأخطأ عجّل أو كاد . وفى المثل : « ربّ عجّل لهّ هبّ رينا » ، وذمها الله تعالى فقال : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾<sup>(٣)</sup> .

(١) فى د « لاساءك » . (٢) سورة البقرة ٢٦٤ . (٣) سورة الأنبياء ٣٧ .

ومنها نهيه عن التساقط في الشيء الممكن عند حضوره ، وهذا عبارة عن النهي عن  
الحرص والجشع ، قال الشنفرى :

وإنْ مُدَّتْ الأيدي إلى الزادِ لم أكنْ      بأعجلِهِمْ إذْ أَجْشَعُ القومِ أَعْجَلُ  
ومنها نهيه عن اللجاجة في الحاجة إذا تعذرت ؛ كان يقال : من لاجَّ الله فقد جمَّه  
خصما ، ومن كان الله خصمه فهو مخصوم ، قال الفرزدق :

دُئِهَا سَمَاوِيَّةٌ تَجْرِي عَلَى قَدَرٍ      لَا تُفْسِدُنَهَا بِرَأْيِ مِنْكَ مَعْكُوسِ  
ومنها نهيه له عن الوهن فيها إذا استوضحت ، أى وَضَحَتْ وانكشفت ، ويُروى :  
« وَاسْتَوْضِحَتْ » فِعْلٌ مَا لَمْ يَسْمُ فاعله ، والوهن فيها إهالها وتركُ انتهاز الفرصة فيها ،  
قال الشاعر :

فإذا أمكنتْ فبادرْ إليها      حَذَرًا مِنْ تَعَذُّرِ الإِمْكَانِ

ومنها نهيه عن الاستثثار ، وهذا هو الخلق النبوى ، غنم رسولُ صلى الله عليه  
وآله غنائمَ خَيْرٍ ، وكانت مِلءُ الأرضِ نعمًا ، فلَمَّا ركب راحلته وسارَ تَبِعَهُ الناسُ يطلبون  
الغنائمَ وقَسَمَهَا ، وهو ساكتٌ لا يكلمهم ، وقد أَكثَرُوا عليه إلحاحًا وسؤالًا ، فَرَّ بِشَجَرَةٍ  
نَخْلَتْ<sup>(١)</sup> رداءه ، فالتفت فقال : ردّوا علىّ ردائي ، فلو ملكت بعدد رَمْلِ تِهَامَةٍ مَغْنَمًا  
لقسمته بينكم عن آخره ثُمَّ لَا تَجِدُونَنِي بِخَيْلٍ وَلَا جَبَانًا ، وَنَزَلَ وَقَسَمَ ذَلِكَ الْمَالَ عَنْ آخِرِهِ  
عليهم كَلَّةً ، لم يأخذ لنفسه منه وبرّةً .

ومنها نهيه له عن التغابي ، وصورة ذلك أن الأمير يُوعَى إليه أن فلانا من خاصّته يفعل  
كذا ، ويفعل كذا من الأمور المنكرة ويرتكبها سرًّا ، فيتغابى عنه ويتغافل ، نهاه عليه  
السلام عن ذلك وقال : إِنَّكَ مَاخُودٌ مِنْكَ لَغَيْرِكَ ، أى معاقب ؛ تقول : اللَّهُمَّ خذْ لِي مِنْ  
فلانٍ بِحَقِّي ، أى اللَّهُمَّ انتقم لِي مِنْهُ .

(١) د « فاختطفت » .

ومنها نهيه إياه عن الغضب ، وعن الحكم بما تقتضيه قوته الغضبية حتى يسكن غضبه ، قد جاء في الخبر المرفوع : « لا يقضى القاضي وهو غضبان » ، فإذا كان قد نهى أن يقضى القاضي وهو غضبان على غير صاحب الخصومة ، فبالأولى أن ينهى الأمير عن أن يسطو على إنسان وهو غضبان عليه .

وكان لكسرى أنوشروان صاحب قدرته ونصبه لهذا المعنى يقف على رأس الملك يوم جلوسه ، فإذا غضب على إنسان وأمر به قرع سلسلة تاجه يقضيب في يده وقال له : إِنَّمَا أَنْتَ بَشَرٌ ، فَارْحَمِ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمُكَ مَنْ فِي السَّمَاءِ .

\*\*\*

### الأفضل :

ومن هذا المهدو هو آخره :

وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ رَغْبَةٍ ، أَنْ يُوقِنِي وَإِيَّاكَ لِمَا فِيهِ رِضَاؤه ، مِنْ الْأَقَامَةِ عَلَى الْمَذَرِ الْوَاضِحِ إِلَيْهِ وَإِلَى خَلْقِهِ ، مِنْ حُسْنِ الثَّنَاءِ فِي الْعِبَادِ ، وَجَمِيلِ الْأَثَرِ فِي الْبِلَادِ ، وَتَمَامِ النِّعْمَةِ ، وَتَضْمِينِ الْكَرَامَةِ ؛ وَأَنْ يُخْتِمَ لِي وَلَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّهَادَةِ ؛ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ<sup>(١)</sup> ، وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ[ عَلَى<sup>(٢)</sup> ] آلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ .

\*\*\*

### الشنخ :

رَوَى : « كُلِّ رَغْبَةٍ » ، والرغبة ما يُرَغَبُ فيه ؛ فَأَمَّا الرَّغْبَةُ فَصَدْرُ رَغَبٍ فِي كَذَا ، كَأَنَّهُ قَالَ : الْقَادِرُ عَلَى إِعْطَاءِ كُلِّ سُؤَالٍ ، أَى إِعْطَاءِ كُلِّ سَأَلٍ مَا سَأَلَهُ .

(١) في د « وانا إليه داغبون » . (٢) من « د » .

ومعنى قوله : « من الإقامة على العذر » ، أى أسأل الله أن يوفّقنى للإقامة على الاجتهاد ، وبذل الوسع فى الطاعة ، وذلك [ لأنه<sup>(١)</sup> ] إذا بذل جهده فقد أعذر ، ثم فسر اجتهاده فى ذلك فى رضا الخلق ، ولم يفسّر اجتهاده فى رضا الخالق ، لأنه معلوم ؛ فقال : هو حسنُ الثناء فى العباد ، وجميل الأثر فى البلاد .

فإن قلت : فقولُه « وتَمَامُ النِّعْمَةِ » على ماذا تعطفه ؟

قلت : هو معطوفٌ على « ما » من قوله « لما فيه » ، كأنه قال : أسأل الله توفيقى لذا ولتمام النعمة ، أى ولتمام نعمته علىّ ، وتضاعف كرامته لىّ ، وتوفيقه لها هو توفيقه للأعمال الصالحة التى يستوجبها بها .

\*\*\*

### [ فصل فى ذكر بعض وصايا العرب ]

وينبئنى أن يذكر فى هذا الموضع وصايا من كلام قوم من رؤساء العرب أوصوا بها أولادهم ورهطهم ، فيها آدابٌ حسان ، وكلام فصيح ، وهى مناسبة لعهد أمير المؤمنين عليه السلام هذا ، ووصاياهِ المودعة فيه ، وإن كان كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام أجَلّ وأعلى من أن يُناسِبَه كلام ، لأنه قبس من نور الكلام الإلهى ، وفرع من دوحَةِ المنطق النبوى .

روى ابنُ الكلبيّ قال : لما<sup>(٢)</sup> حضرت الوفاةُ أوس بنُ حارثة أخا الخزرج ، لم يكن له ولدٌ غير مالك بن الأوس ، وكان لأخيه الخزرج خمسة ، قيل له : كُنّا نأمرُك بأن تزوجَ فى شبابك فلم تفعلَ حتّى حضرك الموت ، ولا ولدَ لك إلّا مالك ! فقال : لم يهلك هالكٌ تركَ مثلكَ مالك ، وإن كان الخزرجُ ذا عدَد ، وليس لمالك ولد ، ففعل الذى استخرج

(١) من د . (٢) أمالى القالى ١ : ٢٠ .

الْعَذَقُ مِنَ الْجَرِيْمَةِ <sup>(١)</sup> ، والنارَ مِنَ الْوَيْثِمَةِ <sup>(٢)</sup> أَنْ يَجْعَلَ لِمَالِكٍ نَسْلاً ، وَرَجَلاً بُسْلاً <sup>(٣)</sup> ،  
وَكَلَّنَا إِلَى الْمَوْتِ . يَا مَالِكُ ، الْمَنِيَّةُ وَلَا الدَّيَّةُ ، وَالْعَتَابُ قَبْلَ الْعِقَابِ ، وَالتَّجَلُّدُ لَا التَّبَلُّدُ ،  
وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَبْرَ خَيْرٌ مِنَ الْفَقْرِ ، وَمَنْ لَمْ يُعْطِ قَاعِدًا حُرْمَ قَائِمًا ، وَشَرَّ الشَّرْبِ الْأُسْتِنْفَافُ وَشَرُّ  
الطَّعْمِ الْأُقْتِنَافُ <sup>(٤)</sup> ، وَذَهَابُ الْبَصَرِ ، خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ النَّظَرِ ، وَمِنْ كَرَمِ الْكَرِيمِ الدَّفْعُ  
عَنِ الْحَرِيمِ ، وَمَنْ قَلَّ ذَلٌّ ، وَخَيْرُ الْغِنَى الْقِنَاعَةُ ، وَشَرُّ الْفَقْرِ الْخُضُوعُ . الدَّهْرُ صَرَفَانِ :  
صَرَفُ رِخَاءٍ ، وَصَرَفُ بَلَاءٍ ؛ وَالْيَوْمُ يَوْمَانِ : يَوْمُ لَكَ وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، فَإِذَا كَانَ لَكَ فَلَا تَبْطَرُ ،  
وَإِذَا كَانَ عَلَيْكَ فَاصْطَبِرْ ، وَكَلَاهَا سَيْنَحَسِيرٌ <sup>(٥)</sup> وَكَيْفَ بِالسَّلَامَةِ ، لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُ إِقَامَةٌ ،  
وَحَيَّاكَ رَبُّكَ .

\*\*\*

وَأَوْصَى <sup>(٦)</sup> الْحَارِثُ بْنُ كَعْبٍ بَنِيهِ فَقَالَ : يَا بَنِيَّ ، قَدَأْتُ عَلَى مَائَةٍ وَسِتُّونَ سَنَةً  
مَا صَاحْتُ يَمِينِي يَمِينَ غَادِرٍ ، وَلَا قَنَعْتُ لِنَفْسِي بِخُلَّةٍ فَاجِرٍ ، وَلَا صَبَوْتُ بِابْنَةٍ عَمٍّ  
وَلَا كَنَنَةً <sup>(٧)</sup> ، وَلَا بَحْتُ لَصَدِيقٍ بَسَرٍّ ، وَلَا طَرَحْتُ عَنْ مُؤَمِّسَةٍ قَنَاعًا ، وَلَا بَقِيََ عَلَيَّ دِينَ  
عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ - وَقَدْ رَوَى عَلَى دِينِ شُعَيْبٍ - مِنَ الْعَرَبِ غَيْرِي وَغَيْرَ تَيْمٍ بْنِ مَرْءٍ بْنِ أَسَدٍ  
ابْنِ خَزِيمَةٍ ، فَوُتُوا عَلَى شَرِيعَتِي ، وَأَحْفَظُوا [عَلَى] <sup>(٨)</sup> وَصِيَّتِي ، وَإِلَهُكُمْ فَاتَّقُوا ، يَكْفِيَكُمْ  
مَا أَهَمَّكُمْ ، وَيُصْلِحْ لَكُمْ حَالَكُمْ ، وَإِيَّاكُمْ وَمَعْصِيَتَهُ ، فَيَحِلَّ بِكُمْ الدَّمَارُ ، وَيُوحِشَ مِنْكُمْ  
الدِّيَارُ . كُونُوا جَمِيعًا ، وَلَا تَفَرَّقُوا فَتَكُونُوا شَيْعًا ، وَبُزَّوْا قَبْلَ أَنْ تُبَزَّوْا <sup>(٩)</sup> ، فَمُوتْ

(١) الجريمة : النواة ، والعذق : النخلة . (٢) الويثمة : الصخرة .

(٣) بسل : جمع باسل ؛ وهو الشجاع . (٤) الاستنفاف : الامتصاص والاستنفاف : الأخذ بجملة .

(٥) يعني ينكشف .

(٦) الوصايا ١٢٣ ، ونسب هذه الوصية إلى مالك بن المنذر البجلي . قال : « وقد كان أصاب دماً في قومه ؛  
فخرج هارباً بأهله حتى أتى بهم بنى هلال ، فلما احتضر أوصى بنيه ، وأمرهم أن يعطوا قومه النصف من  
حدثه الذي أحدثه فيهم .

(٧) الكنة : امرأة الابن أو الأخ . (٨) تكلمة من د . (٩) بزّه : سلبه .

في عزّ، خيرٌ من حياة في ذلٍّ وعجز، وكلّ ما هو كائن كائنٌ، وكلّ جمع إلى تباين، والدهر صرْفان: صرْف بلاء، وصرْف رخاء، واليوم يومان: يومُ حَبْرَة<sup>(١)</sup>، ويومُ عَبْرَة، والناس رجلان: رجلٌ لك، ورجلٌ عليك. زوّجوا النساء الأكفاء، وإلا فانتظروا بهنّ القضاء، وليكن أطيب طيبهنّ الماء، وإياكم والورْهَاء، فإنّها أدوا الداء، وإنّ ولدها إلى أفن<sup>(٢)</sup> يكون. لا راحة لقاطع القراة. وإذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم، وآفة العدد اختلاف الكلمة، والتفصّل بالحسنة يقي السيئة، والمكافأة بالسيئة دخول فيها، وعمل السوء يُزيلُ النعماء، وقطيعة الرّحم تورث الهمّ، وانتهاك الحرمة يُزيل النعمة، وعقوق الوالدين يُعقب التّكّد، ويُخرّب البلد، ويمحق العدد، والإصراف في النصيحة، هو الفضيحة، والحقد منع الرّدّد، ولزوم الخطيئة يُعقب البلية، وسوء الدّعة<sup>(٣)</sup> يقطع أسباب المنفعة، والضغائن تدعو إلى التباين؛ يا بنيّ إني قد أكلتُ مع أقوام وشربتُ، فذهبوا وغبرتُ، وكأني بهم قد لحقتُ، ثم قال:

أكلتُ شبّابى فأفنيتهُ وأبليتُ بعد دُهورٍ دُهوراً  
ثلاثةً أهليين صاحبتهُم فبادوا وأصبحتُ شيخاً كبيراً  
قليلَ الطعام عسيرَ القيا لم قد ترك الدهرُ خطوئى قصيراً  
أبيتُ أراعى نجومَ السماء أقلبُ أمري بطنونا ظُهوراً

\*\*\*

وصّى أكرمُ بنُ صَيْفِيّ بنيه ورهطه فقال: يا بنيّ تميم، لا يفوتنكم وعظي، إن فاتكم الدهر بنفسي، إنّ بين حَيْزوى وصدرى لكلاماً لا أجْدُ له موافعَ إلا<sup>(٤)</sup> أَسْمَاعَكُم ولا مقارَ إلا قلوبكم، فتلقوه بأسماع مُصْغية، وقلوب دواعية، تحمدوا ممبته: الهوى

(١) الحبرة: السرور. (٢) الأفن: الفساد.

(٣) الوسايا: «الرعة». (٤) في د «غير».



يَقْظَان ، والعقل راقد، والشَّهَوَاتُ مطلقة ، والحزم معقول ، والنفسُ مهملة ، والروية مقيّدة ،  
ومن جهة التّواني وترك الروية يتلف الحزم ، ولن يَعدَم المُشَاوِرُ مُرْشِدًا ، والمستبدُّ برأيه  
موقوف على مداحض الزّلل ، ومن سَمِعَ سَمِعَ به ، ومصارعُ الرّجال تحت بُروق الطمع ،  
ولو اعتُبرتْ مواقعُ المحن ما وُجدتْ إلّا في مَقَاتِلِ الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرّشاد ،  
ومن سلك الجدد <sup>(١)</sup> أَمِنَ العثار ، ولن يَعدَم الحسودُ أن يُتعب قلبه ، ويُشغل فكره ،  
ويُورث غيظه ، ولا تجاوز مضرّته نفسه . يا بني تميم ، الصبرُ على جرع الحلم أَعْدَبُ من  
جنا ثمر الندامة ، ومن جَعَلَ عِرْضَهُ دُونَ مَالِهِ اسْتَهْدَفَ لِلذَّمِّ ، وكَلَّمَ اللّسانَ أَنْكَبَى مِنْ كَلَمِ  
السّنان ، والكلمة مرهونةٌ ما لم تَنجُمْ من الفم ؛ فإذا نُجِمتْ مزجت ، فهي أَسَدُ مُحَرَّبٍ ،  
أو نار تَلَهَّب ، ورأى الناصح اللبيب دليلًا لا يجوز ، ونفاذُ الرأى في الحرب ، أجدى من  
الطعن والضرب .

\* \* \*

وأوصى يزيدُ بنُ المهلب ابنه تَحْلَدًا حين استخلفه على جُرْجَان ، فقال له : يا بُنَيَّ ،  
قد استخلفتك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحَيَّ من اليمين فكُنْ لَهُمْ كما قال الشاعر :

إذا كنتَ مرْتَادَ الرّجَالِ لِنَفْعِهِمْ      فَرِشْ واصْطَنعْ عِنْدَ الَّذِينَ بِهِمْ تَرَمِي

وانظر هذا الحَيَّ من ربيعة فإنهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر هذا الحَيَّ  
من تميم فأمرهم <sup>(٢)</sup> ولا تُزَهِ لهم ، ولا تُدْرِهِمْ فيطمعوا ، ولا تُقْصِصْهُمْ فيقطعوا ، وانظر هذا  
الحَيَّ من قيس فإنهم أكفاء قومك في الجاهلية ، ومناصِفُهم المآثر في الإسلام ، ورضاهم  
منك البُشْر . يا بني ، إنَّ لأبيك صنائعَ فلا تَقْسِدْها ، فإنه كفى بالمرء نقصاً أن يهْلِك  
ما بنى أبوه ، وإياك والدِّماء فإنه لا تَقِيَّةَ معها ، وإياك وشتم الأعراس فإنَّ الحرَّ

(١) الجدد : الأش المستوية . (٢) د « فأنظرهم » .

لا يرضيه عن عرضه عوض، وإياك وضرب الأبخار فإنه عارٌ باقٍ، ووترٌ مطلوب، واستعمل على التَّجدة والفضل دون الهوى، ولا تغزل إلاّ عن عَجْز أو خيانة. ولا يمنك من اصطناع الرّجل أن يكون غيرك قد سبقك إليه، فإنّك إنما تصطنع الرجال لفضّلها. وليكن صديقك عند مَنْ يكافئك عنه العشائر. احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم. وإذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه، وليكن رسولك فيما بيني وبينك مَنْ يفقه عني وعنك؛ فإنّ كتاب الرجل موضع عقله، ورسوله موضع سِرّه. وأستودعك الله، فلا بدّ للمودّع أن يسكت، ولمشيّع أن يرجع. وما عفّ من المنطق وقلّ من الخطيئة أحبُّ إلى أبيك.

\*\*\*

وأوصى قيس بن عاصم المنقريّ بنيه، فقال: يا بنيّ، خذوا عني فلا أحد أنصح لكم مني. إذا دفتنوني فأنصرفوا إلى رحالكم، فسودّوا أكرّمكم، فإنّ القوم إذا سودّوا أكرّمهم خلفوا أباهم، وإذا سودّوا أصغروهم أزرى ذلك بهم في أكفائهم. وإياكم ومعصية الله وقطيعة الرّيح، وتمسكوا بطاعة أمرائكم فإنهم من رفعوا ارتفع، ومن وَضَعُوا اتَّضَع. وعليكم بهذا المال فأصلحوه، فإنه منبّهة للكريم، وجنّة لِعِرْض اللّيم. وإياكم والمسالّة فإنّها آخر كسب الرّجل، وإن أحداً لم يسأل إلاّ ترك الكسب، وإياكم والفتياحة، فإنّي سمعتُ رسول الله صلّى الله عليه وآله ينهى عنها، وادفوني في ثيابي التي كنتُ أصليّ فيها وأصوم، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفني فقد كانت بيني وبينهم مشاحنات في الجاهليّة والإسلام، وأخاف أن يُدخلوا عليكم بي عارا. وخذوا عني ثلاث خصال: إياكم وكلّ عِرْق لثيم أن تُلايسوه فإنه إن يسرّركم اليوم يسوكم غداً، واكظموا الغيظ، واحذروا بنيّ أعداء آبائكم فإنهم على منهاج آبائهم، ثم قال:

أحيا الضغائن آباءاً لنا سلفوا فلن تبید وللاباء أبناء  
قال ابن الكلبي : فيحكى الناس هذا البيت سابقاً للزبير ، وما هو إلا لقيس  
ابن عاصم .

\*\*\*

وأوصى عمرو بن كاثوم التَّمَلُّبِيُّ<sup>(١)</sup> [ بنيه ]<sup>(٢)</sup> فقال : يا بنيّ ؛ إني قد بلغت من العمر  
ما لم يبلغ أحدٌ من آبائي وأجدادي ، ولا بدّ من أمرٍ مقتبَلٍ ، وأن ينزل بي ما نزل بالآباء  
والأجداد والأمهات والأولاد ، فاحفظوا غني ما أوصيكم به . إني والله ما عبرت رجلاً قطّ  
أمراً إلا عبرني مثله ؛ إن حقاً خفي ، وإن باطلاً فباطل ، ومن سبّ سبّ ، فكفّوا عن الشتم  
فإنه أسلم لأغراضكم . وصلوا أرحامكم تعمّرْ دَارُكم<sup>(٣)</sup> ، وأكرموا جاركم بحسن ثنائكم ،  
وزوّجوا بنات العمّ بنى العمّ فإن تعدّتم بهنّ إلى الغرباء فلا تألوا بهنّ [عن]<sup>(٤)</sup> إلا كفاء .  
وأبعدوا بيوت النساء من بيوت الرجال ، فإنه أغصّ للبصر ، وأغفّ للذكّر ؛ ومتى  
كانت المعاينة واللقاء ، ففي ذلك داءٌ من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يفار لغيره كما يفار  
لنفسه ، وقُلْ مَنْ انتهك حرمةً لغيره إلا انتهكت حرمتَهُ . وامنموا القريب من ظمّ  
الغريب ، فإنك تُدِلُّ على قريبك ، ولا يجمل بك ذلّ غريبك ، وإذا تنازعتم في الدماء فلا  
يكن حَقُّكم الكفاء ، فربّ رجل خيرٌ من ألف ، ووُدّ خيرٌ من خلف ، وإذا حدّثتم فعُوا ،  
وإذا حدّثتم فأوْجزوا ، فإنّ مع الإكثار يكون الإهذار ، وموتٌ عاجلٌ خيرٌ من ضنّ  
أجل ، وما بكيتُ من زمان إلا دهاني بعده زمان ، وربما شجّاني<sup>(٥)</sup> من لم يكن أمرُهُ

(١) ب : « التَّمَلُّبِيُّ » تحريف . (٢) تكملة من د .

(٣) في د « دياركم » .

(٤) من د .

(٥) شجّاني : أحزني .

عَنَانِي ، وَمَا عَجِبْتُ مِنْ أَخْذُونَةٍ إِلَّا رَأَيْتُ بِعِهَا أُعْجِبَةٌ . وَعَلِمُوا أَنَّ أَشْجَعَ الْقَوْمِ الْمَطُوفُ ،  
وَأَخِيرُ الْمَوْتِ تَحْتَ ظِلَالِ السِّيفِ ، وَلَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا رُيَّةَ لَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَلَا فِيمَنْ إِذَا  
مُتُّوا لَمْ يُعْتَبَرْ ، وَمَنْ النَّاسُ مِنْ لَا يَرْجَى خَيْرُهُ ، وَلَا يَخَافُ شَرَّهُ ، فَبِكُوءِهِ<sup>(١)</sup> خَيْرٌ مِنْ  
دَرِّهِ ، وَعَقُوقُهُ خَيْرٌ مِنْ بَرِّهِ ، وَلَا تُبْرَحُوا فِي حَبْلِكُمْ فَإِنَّ مِنْ أَرْحَ فِي حَبْلِ آلٍ ذَلِكَ إِلَى قَبِيحٍ  
بَغْضٍ ، وَكَمْ قَدْ زَارَنِي إِنْسَانٌ وَزُرْتُهُ ، فَأَنْقَلَبَ الدَّهْرُ بِنَا فُقْبَرْتُهُ . وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَلِيمَ سَلِيمٌ ،  
وَأَنَّ السَّفِيهَ كَلِيمٌ ، إِنِّي لَمْ أَمُتْ وَلَكِنْ هَرِمْتُ ، وَدَخَلْتَنِي ذِلَّةٌ فَسَكْتُ ، وَضَعَفَ قَلْبِي  
فَأَهْرَتُ<sup>(٢)</sup> ، سَلِّمَكُمْ رَبِّكُمْ وَحَيًّا كَمَا

\*\*\*

وَمِنْ كِتَابِ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابَكٍ إِلَى بَنِيهِ وَالْمُلُوكِ مِنْ بَعْدِهِ : رَشَادُ الْوَالِي خَيْرٌ لِلرَّعِيَّةِ مِنْ  
خَضْبِ الزَّمَانِ ، الْمَلِكُ وَالِدَيْنِ تَوْءَمَانِ لَا قَوَامَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ ، فَالِدَيْنِ أَسُّ الْمُلْكِ  
وَعِمَادُهُ ، ثُمَّ صَارَ الْمَلِكُ حَارِسَ الدِّينِ ، فَلَا يَدُّ لِلْمُلْكِ مِنْ أَسِّهِ ، وَلَا يَدُّ لِلدِّينِ مِنْ حَارِسِهِ ، فَأَمَّا  
مَا لَا حَارِسَ لَهُ فَضَائِعٌ ، وَمَا لَا أَسَّ لَهُ فَهَدُومٌ ، إِنَّ رَأْسَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِبَادِرَةَ السَّلَاطَةِ  
إِيَّاكُمْ إِلَى دِرَاسَةِ الدِّينِ وَتَأْوِيلِهِ وَالتَّفَقُّهِ فِيهِ ، فَتَحْمِلُكُمْ الثِّقَّةَ بِقُوَّةِ الْمَلِكِ عَلَى التَّهَانِ بِهِمْ ،  
فَتَحْدُثُ فِي الدِّينِ رِيَاسَاتٌ مُنْتَشِرَاتٌ سِرًّا فِيمَنْ قَدْ وَرَثَتْمْ وَجَفَوْتُمْ ، وَحَرَمْتُمْ وَأَخْفَعْتُمْ ،  
وَصَغَّرْتُمْ مِنْ سِفْلَةِ النَّاسِ وَالرَّعِيَّةِ وَخَشَوْ الْعَامَّةَ ، ثُمَّ لَا تَنْشَبُ تِلْكَ الرِّيَاسَاتُ أَنْ تَحْدُثَ  
خُرْقًا فِي الْمُلْكِ وَوَهْنًا فِي الدَّوْلَةِ . وَعَلِمُوا أَنَّ سُلْطَانَكُمْ إِنَّمَا هُوَ عَلَى أَجْسَادِ الرَّعِيَّةِ لَا عَلَى  
قُلُوبِهَا ، وَإِنْ غَلِبْتُمْ النَّاسَ عَلَى مَافِي أَيْدِيهِمْ فَلَنْ تَغْلِبُوهُمْ عَلَى مَافِي عُقُولِهِمْ وَأَرَائِهِمْ وَمَكَايِدِهِمْ .  
وَعَلِمُوا أَنَّ الْعَاقِلَ الْمَحْرُومَ سَأَلَ عَلَيْكُمْ لِسَانَهُ ، وَهُوَ أَقْطَعُ سَيْفِيهِ ، وَإِنْ أَشَدَّ مَا يَضُرُّ بِكُمْ مِنْ  
لِسَانِهِ مَا صَرَفَ الْحِيلَةَ فِيهِ إِلَى الدِّينِ ، فَكَانَ لِلدُّنْيَا يَحْتَاجُ<sup>(٣)</sup> ، وَلِلدِّينِ فِيمَا يَظْهَرُ يَتَمَصَّبُ ، فَيَكُونُ

(١) بَكَاتُ النَّاظَةِ بِكُوءٍ : قُلْ لِبَنِيهَا .

(٢) أَهْرَتُ : ذَهَابَ الْعَقْلُ . (٣) ١ : « يَجْنَحُ » .

للدِّينِ بِكَأْوِهِ ، وإِليه دَعَاؤُهُ ، ثُمَّ هُوَ أَوْحَدُ اللَّتَابِعِينَ وَالْمُصَدِّقِينَ وَالْمُنَاصِحِينَ وَالْمُؤَاذِرِينَ ، لِأَنَّ تَمَعُّبَ<sup>(١)</sup> النَّاسِ مُوَكَّلٌ بِالْمُلُوكِ ، وَرَحْمَتُهُمْ وَمَحَبَّتُهُمْ مُوَكَّلَةٌ بِالضَّعْفَاءِ الْمَغْلُوبِينَ ، فَاحْذَرُوا هَذَا الْمَعْنَى كُلَّ الْحَذَرِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمَلِكِ أَنْ يَعْرِفَ لِلْعِبَادِ وَالنِّسَاكِ أَنْ يَكُونُوا أَوَّلَى بِالَّذِينَ مِنْهُ ، وَلَا أَحَدَبَ عَلَيْهِ وَلَا أَغْضَبَ لَهُ . [ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ ]<sup>(٢)</sup> أَنْ يَخْلِيَ النَّسَاكَ وَالْعِبَادَ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ فِي نُسُكِهِمْ وَدِينِهِمْ ، فَإِنَّ خُرُوجَ النَّسَاكِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ عَيْبٌ عَلَى الْمُلُوكِ وَعَلَى الْمَمْلَكَةِ ، وَتُسْلَمَةُ بَيِّنَةِ الضَّرَرِ عَلَى الْمَلِكِ وَعَلَى مَنْ بَعْدَهُ .

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ قَدْ مَضَى قَبْلَنَا مِنْ أَسْلَافِنَا مُلُوكٌ كَانِ الْمَلِكُ مِنْهُمْ يَتَمَهَّدُ الْحَاجِيَةَ بِالْتَفْتِيْشِ وَالْجَمَاعَةَ بِالْتَفْضِيلِ ، وَالْفِرَاقَ بِالْإِشْغَالِ ، كَتَمَهَّدَ جَسَدَهُ بِقَصِّ فُضُولِ الشَّعْرِ وَالظُّفْرِ وَغَسَلَ الدَّرْنَ وَالنَّمْرَ<sup>(٣)</sup> وَمَدَاوَاةَ مَا ظَهَرَ مِنَ الْأَدْوَاءِ وَمَا بَطْنِ ، وَقَدْ كَانَ مِنْ أَوْلَئِكَ الْمُلُوكِ مَنْ صَحَّحَ مَمْلَكَةَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ صَحَّةِ جَسَدِهِ ، فَتَنَابَهَتْ تِلْكَ الْأَمْلَاكُ بِذَلِكَ كَأَنَّهُمْ مَلِكٌ وَاحِدٌ ، وَكَأَنَّ أَرْوَاحَهُمْ رُوحٌ وَاحِدَةٌ ، يَمْكُنُ أَوَّلُهُمْ لِآخِرِهِمْ ، وَيَصْدُقُ آخِرُهُمْ أَوَّلُهُمْ ، يَجْتَمِعُ أَبْنَاءُ أَسْلَافِهِمْ ، وَمَوَارِيثُ آرَائِهِمْ ، وَثَمَرَاتُ عَقُولِهِمْ عِنْدَ الْبَاقِي مِنْهُمْ بَعْدَهُمْ ، وَكَأَنَّهُمْ جُلُوسٌ مَعَهُ يَحْدُثُونَهُ وَيُشَاوِرُونَهُ ، حَتَّى كَانَتْ عَلَى رَأْسِ دَارِ بْنِ دَارٍ مَا كَانَ مِنْ غَلْبَةِ الْإِسْكَندَرِ الرَّومِيِّ عَلَى مَا غَلَبَ عَلَيْهِ مِنْ مُلْكِهِ . وَكَانَ إِفْسَادُهُ أَمْرَنَا ، وَتَفَرُّقَتُهُ جَمَاعَتَنَا ، وَتَحْزِينُهُ عَمْرَانِ مَمْلَكَتِنَا أُبْلَغَ لَهُ فِيمَا أَرَادَ مِنْ سَفْكَ دِمَائِنَا ، فَلَمَّا أَذِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي جَمْعِ مَمْلَكَتِنَا ، وَإِعَادَةِ أَمْرِنَا ، كَانَ مِنْ بَعْثِهِ إِيَّانَا مَا كَانَ . وَبِالْإِعْتِبَارِ يُتَمَقَّى الْعِثَارُ ، وَالتَّجَارِبُ الْمَاضِيَةُ دَسْتُورٌ يُرْجَعُ إِلَيْهِ مِنَ الْحَوَادِثِ الْآتِيَةِ .

وَاعْلَمُوا أَنَّ طَبَاعَ الْمُلُوكِ عَلَى غَيْرِ طَبَاعِ الرِّعْيَةِ وَالسُّوْقَةِ : فَإِنَّ الْمَلِكَ يَطِيفُ بِهِ الْعَزْ ، وَالْأَمْنُ وَالسَّرُورُ وَالْقُدْرَةُ عَلَى مَا يَرِيدُ ، وَالْأَنْفَةُ وَالْجِرْأَةُ وَالْعَبَثُ وَالْبَطَرُ ، وَكَلَّمَا أَزْدَادَ

(١) فِي « بَغْنِ » . (٢) تَكْمَلَةٌ مِنْ د . (٣) ب : « . وَالنَّمْسِ » .

فى العمر تنفسا ، وفى الملك سلامةً أزداد من هذه الطبائع والأخلاق حتى يُسلمه ذلك إلى سكر السلطان الذى هو أشد من سكر الشراب ، فينسى النكبات والعثرات ، والغير والدوائر وخش تسلط الأيام ، ولؤم غلبة الدهر ، فيرسل يده بالفعل ولسانه بالقول . وعند حسن الظن بالأيام تحدث الغير ، وتزول التعم ؛ وقد كان من أسلافنا وقدماء ملوكنا من يذكره عزه الدل ، وأمنه الخوف ، وسروره السكابة ، وقدرته المعجزة ، وذلك هو الرجل الكامل قد جمع بهجة الملوك ، وفكرة الشوكة ، ولا كمال إلا فى جمعها .

واعلموا أنكم ستبذلون على الملك بالأزواج والأولاد والقرباء والوزراء والأخذان ، والأنصار والأعوان والمتقربين والندماء والمضحكين ، وكل هؤلاء - إلا قليلا - أن يأخذ لنفسه أحب إليه من أن يعطى منها عمله ، وإنما عمله سوق ليومه ، وذخيرة لغيره ، فنصيحتة للملوك فضل نصيحتة لنفسه وغاية الصلاح عنده صلاح نفسه ، وغاية الفساد عنده فسادها ؛ يقيم للسلطان سوق المودة ما أقام له سوق الأرباح والمنافع ، إذا استوحش الملك من ثقائه أطبقت عليه ظلم الجهالة . أخوف ما يكون العامة [ آمن ما يكون الوزراء ، وآمن ما يكون العامة<sup>(١)</sup> ] أخوف ما يكون الوزراء .

واعلموا أن كثيرا من وزراء الملوك من يحاول استبقاء دولته وأيامه بإيقاع الاضطراب ، والخبط فى أطراف مملكة الملك ، ليجتاح الملك إلى رأيه وتدييره ؛ فإذا عرفهم هذا من وزير من وزرائكم فأعزلوه فإنه يدخل الوهن والنقص على الملك والرعية لصلاح حال نفسه ، ولا تقوم نفسه بهذه النفوس كلها .

واعلموا أن بدء ذهاب الدولة ينشأ من قبل إهمال الرعية بغير أشغال معروفة ولا أعمال معلومة ، فإذا نشأ الفراغ تولد منه النظر فى الأمور ، والفكر فى الفروع والأصول . فإذا نظروا فى ذلك نظروا فيه بطائع مختلفة ، فتختلف بهم المذاهب ، ويتولد من اختلاف مذاهبهم تعاديههم وتضاغيبهم ، وهم مع اختلافهم هذا متفقون ومجتمعون على بغض الملوك ، فكل صنف منهم إنما يجرى إلى فجيعة الملك بملكه ، ولكنهم لا يجدون سائما إلى

(١) تكملة من دونهما يستقيم الكلام .

ذلك أوثق من الدين والناموس ، ثم يتولّد من تمازيهم أنّ الملك لا يستطيع جمعهم على هوى واحد ، فإن انفرد باختصاص بعضهم صارَ عدوّ بقيّتهم ، ولّى طباع العامة استئثارُ الوُلاة وملاّهم ، والنّفاسَة<sup>(١)</sup> عليهم ، والْحَسَدُ لهم ، وفي الرعيّة المحروم والمضروب والمقام عليه الحدود ، ويتولّد من كثرتهم مع عداوتهم أن يجبّئ الملك عن الإقدام عليهم ، فإنّ في إقدام الملك على الرعيّة كلّها كافّة تفريراً بملكه. ويتولّد من جُبْن الملك عن الرعيّة استعجالهم عليه ، وهم أقوى عدوّ له وأخلقه بالظفر ، لأنّه جاضر مع الملك في دار ملكه ، فن أفضى إليه الملكُ بعدى فلا يكوننّ بإصلاح جسده أشدّ اهتماماً منه بهذه الحال ، ولا تكوننّ لشيء من الأشياء أكره وأنكرُ لرأسٍ صار ذنباً ، وذنبٌ صار رأساً ، ويد مشغولة صارت فارغةً ، أو غنى صارَ فقيراً ، أو عامل مصروف ، أو أمير معزول .

واعلموا أنّ سياسة الملك وحراسته ألا يكون أبن الكاتب إلّا كاتباً ، وابن الجنديّ إلّا جنديّاً ، وابن التاجر إلّا تاجراً ، وهكذا في جميع الطبقات ، فإنّه يتولّد من تفقّل الناس عن حالاتهم أن يلتبس كلّ امرئ منهم فوق مرتبته ، فإذا انتقل أو شكّ أن يرى شيئاً أرفع مما انتقل إليه ، فيحسّد أو ينافس ، وفي ذلك من الضرر المتولّد ما لا خفاء به ، فإنّ عجز ملكٍ منكم عن إصلاح رعيّته كما أوصيناه فلا يكون للقميص القمّل أسرع خلعا منه لِمَا لبسَ من قيص ذلك الملك .

واعلموا أنّه ليس ملكٌ إلّا وهو كثير الذّكر لمن يلي الأمر بعده ، ومن فساد أمر الملك نشرُ ذِكْرِهِ ولاة العهود ، فإنّ في ذلك ضروباً من الضرر ، وأنّ ذلك دخولُ عداوة بين الملك وولى عهده ، لأنّه تطمح عينه إلى الملك ، ويصير له أحبابٌ وأخدان يمتنونه ذلك ، ويستبطلون موتَ الملك . ثم إنّ الملك يستوحش منه ، وتنساق الأمور إلى هلاك أحدهما ، ولكن لينظر الوالى منكم لله تعالى ثمّ لنفسه ثمّ للرعيّة ، ولينتخب وليّاً للعهد من بعده

(١) النّفاسَة : كراهة الخير لهم .

ولا يُعلمه ذلك ، ولا أحد من الخلق قريبا كان منه أو بعيدا ، ثم يكتب أسمه في أربع صحائف ، ويختتمها بخاتمه ، ويضعها عند أربعة نفر من أعيان أهل المملكة ، ثم لا يكون منه في سرّه وعلايته أمرٌ يستدلّ به على وليّ عهده من هؤلاء في إدناء وتقريب يعرف به ، ولا في إقصاء وإعراضٍ يُستَراب له . وليتق ذلك في اللحظة والكلمة ، فإذا هلك الملكُ جمعت تلك الصحائفُ إلى النسخة التي تكون في خزانة اللك ، فتفصّ جميعا ، ثم ينوّه حينئذ بأسم ذلك الرجل ، فيلقى الملك إذا لقيه بحداثة عهده بحال السّوقه ، ويلبسه إذا لبسه ببصر السّوقه وسمّيتها ، فإن في معرفته بحاله قبل إفضاء الملك إليه سُكراً تُحدِثه عنده ولاية العهد ، ثم يلقاه الملك فيزيده سُكراً إلى سكره ، فيعمى ويصمّ ، هذا مع ما لا بدّ أن يلقاه أيام ولاية العهد من حيّل الثّناة ، وبغى الكذّابين ، وترقية الثّمامين ، وإيفار صدره ، وإفساد قلبه على كثير من رعيّته ، وخواصّ دولته ، وليس ذلك بمحمود ولا صالح .

واعلموا أنّه ليس للملك أن يحكّف ، لأنّه لا يقدر أحدٌ أستكراهه ، وليس له أن يغضب لأنّه قادر ، والغضب لقاح الشرّ والندامة ، وليس له أن يعبت ويكعب ، لأنّ اللّعب والعبت من عمل الفراغ ، وليس له أن يفرغ لأنّ الفراغ من أمر السّوقه ، وليس للملك أن يحسّد أحداً إلّا على حُسن التدبير ، وليس له أن يخاف لأنّه لا يدّ فوق يده .

واعلموا أنّكم لن تقدروا على أن تحتموا أفواه الناس من الطّمن والإزراء عليكم ، ولا قدرة لكم على أن تجملوا القبيح من أفعالكم حسنا ؛ فأجهدوا في أن تحسّن أفعالكم كلّها ، وألاّ تجعلوا للمّة إلى الطّمن عليكم سيلا .

واعلموا أنّ لباس الملك ومطعمه ومشربه مقاربٌ للباس السّوقه ومطعمهم ، وليس



فضل الملك على الشُّوقَةِ إِلَّا بِقُدْرَتِهِ عَلَى اقْتِنَاءِ الْحَامِدِ وَأُسْتِفَادَةِ الْمَكَارِمِ ، فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا شَاءَ أَحْسَنَ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ الشُّوقَةُ .

واعلموا أَنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ بَطَانَةً ، وَلِكُلِّ رَجُلٍ مِنْ بَطَانَتِهِ بَطَانَةٌ ، ثُمَّ إِنَّ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْ بَطَانَةِ الْبَطَانَةِ بَطَانَةٌ ، حَتَّى يَجْتَمِعَ مِنْ ذَلِكَ أَهْلُ الْمُلْكِ ، فَإِذَا أَقَامَ الْمَلِكُ بَطَانَتَهُ عَلَى حَالِ الصَّوَابِ فِيهِمْ ، أَقَامَ كُلُّ أَمْرٍ مِنْهُمْ بَطَانَتَهُ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ حَتَّى يَجْتَمِعَ عَلَى الصَّلَاحِ عَامَّةَ الرِّعْيَةِ .

احذروا بَابًا وَاحِدًا طَالَمَا أَمِنْتُمْهُ فَضَرَّتْنِي ، وَحَذَرْتُهُ فَتَفَعَّنِي . احذروا إِفْشَاءَ السَّرِّ بِحَضْرَةِ الصَّغَارِ مِنْ أَهْلِيكُمْ وَخَدَمِكُمْ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ يَصْغُرُ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَنْ سَحْلِ ذَلِكَ السَّرِّ كَمَلًا ؛ لَا يَتْرَكَ مِنْهُ شَيْئًا حَتَّى يَضَعَهُ حَيْثُ تَكْرَهُونَ إِمَّا سَقَطًا أَوْ غَشَا .

واعلموا أَنَّ فِي الرِّعْيَةِ صِنْفًا أَتَوَا الْمَلِكُ مِنْ قَبْلِ النَّصَاحِ لَهُ ، وَالتَّمَسُّوا إِصْلَاحَ مَنَازِلِهِمْ بِإِفْسَادِ مَنَازِلِ النَّاسِ ، فَأُولَئِكَ أَعْدَاءُ النَّاسِ وَأَعْدَاءُ الْمُلُوكِ ، وَمَنْ عَادَى الْمُلُوكَ وَالنَّاسَ كُلَّهُمْ فَقَدْ عَادَى نَفْسَهُ .

واندملوا أَنَّ الدَّهْرَ حَامِلُكُمْ عَلَى طَبَقَاتٍ ؛ فَفِيهَا حَالُ السَّخَاءِ حَتَّى يَدْنُو أَحَدُكُمْ مِنَ الشَّرِّفِ ، وَمِنْهَا حَالُ التَّبْذِيرِ حَتَّى يَدْنُو مِنَ الْبُخْلِ ، وَمِنْهَا حَالُ الْأَنَافَةِ حَتَّى يَدْنُو مِنَ الْبَلَادَةِ ، وَمِنْهَا حَالُ أَتَهَازِ الْفُرْصَةِ حَتَّى يَدْنُو مِنَ الْخِلْفَةِ ، وَمِنْهَا حَالُ الطَّلَاقَةِ فِي اللِّسَانِ حَتَّى يَدْنُو مِنَ الْهَذَرِ ، وَمِنْهَا حَالُ الْأَخْذِ بِحَكْمَةٍ <sup>(١)</sup> الصَّمْتِ حَتَّى يَدْنُو مِنَ الْعِيِّ ، فَالْمَلِكُ مِنْكُمْ جَدِيرٌ أَنْ يَبْلُغَ مِنْ كُلِّ طَبَقَةٍ فِي مُحَاسِنِهَا حَدَّهَا ، فَإِذَا وَقَفَ عَلَيْهِ أُلْجِمَ نَفْسَهُ عَمَّا وَرَاءَهَا .

واعلموا أَنَّ ابْنَ الْمَلِكِ وَأَخَاهُ وَأَبْنَ عَمِّهِ يَقُولُ : كَدْتُ أَنْ أَكُونَ مَلِكًا ، وَبِالْحَرِيِّ إِلَّا أَمُوتَ حَتَّى أَكُونَ مَلِكًا ، فَإِذَا قَالَ ذَلِكَ قَالَ مَا لَا يَسِرُّ الْمَلِكُ ، وَإِنْ كَتَمَهُ فَلَدَاءُ

(١) الحِكْمَةُ فِي الْأَصْلِ : اللَّجَامُ ؛ وَالْكَلَامُ عَلَى الْإِسْتِمَارَةِ .

في كلِّ مكتوم ، وإذا تمتّ ذلك جعل الفساد سُلماً إلى الصلاح ، ولم يكن الفساد سُلماً إلى صلاح قطّ . وقد رُسمتْ لَكُمْ في ذلكِ مثلاً ، اجملوا الملك لا ينبغي إلا لأبناء الملوك من بنات عمومهم ، ولا يصلح من أولاد بنات العم إلا كامل غير سخيّف العقل ، ولا عازبُ الرأي ، ولا ناقص الجوارح ، ولا مطعونٌ عليه في الدين ، فإنَّكم إذا فعلتم بذلك قلّ طلاب الملك ، وإذا قلّ طلابُهِ استراح كلُّ امرئٍ إلى ما يليه ، ونَزَعَ إلى حدِّ يَليهِ ، وعرف حاله ، ورضى معيشته ، واستطاب زمانه .

فقد ذكرنا وصايا قوم من العرب ، ووصايا أكثر ملوكِ الفُرس وأعظمهم حكمةً نُضمِّمُ إلى وصايا أمير المؤمنين فيحصل منها وصايا الدين والدنيا ، فإنَّ وصايا أمير المؤمنين عليه السلام ، الدِّينُ عليها أغلب ، ووصايا هؤلاء الدِّنيا عليها أغلب ، فإذا أخذ من أخذ التوفيق بيده بمجموع ذلك فقد سَعِدَ ، ولا سعيد إلا مَنْ أسعده الله .

(٥٤)

### الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخزاعي،  
وذكر هذا الكتاب أبو جعفر الإسكافي في كتاب المقامات :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ عَلِمْتُمَا - وَإِنْ كَتَمْتُمَا - أَكْثَرَ لَمْ أُرِدِ النَّاسَ حَتَّى أَرَادُونِي ، وَلَمْ  
أَبَايَهُمْ حَتَّى بَايَعُونِي ؛ وَإِنِّكُمَا مِمَّنْ أَرَادَنِي وَبَايَعَنِي ، وَإِنَّ الْعَامَّةَ لَمْ تُبَايَعْنِي لِسُلْطَانٍ  
غَالِبٍ ، وَلَا لِحِرْصٍ حَاضِرٍ ، فَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَا نِي طَائِعِينَ فَارْجِعَا وَتَوْبَا إِلَى اللَّهِ  
مِنْ قَرِيبٍ ، وَإِنْ كُنْتُمَا بَايَعْتُمَا نِي كَارِهِينَ فَقَدْ جَعَلْتُمَا لِي عَلَيْكُمَا السَّيْلَ بِإِظْهَارِكُمَا  
الطَّاعَةَ وَإِسْرَارِكُمَا الْمَعْصِيَةَ . وَلَعَمْرِي مَا كُنْتُمَا بِأَحَقَّ الْمُهَاجِرِينَ بِالتَّقِيَّةِ  
وَالِكِتْمَانِ .

وَإِنْ دَفَعْتُمَا هَذَا الْأَمْرَ قَبْلَ أَنْ تَدْخُلَا فِيهِ كَانَ أَوْسَعَ عَلَيْكُمَا مِنْ خُرُوجِكُمَا  
مِنْهُ بَعْدَ إِفْرَارِكُمَا بِهِ .

وَقَدْ رَعِمْتُمَا أَتَى قَتَلْتُ عُثْمَانَ ، فَبَيَّنِّي وَبَيَّنَّكُمَا مَنْ تَخَلَّفَ عَنِّي وَعَنْكُمَا مِنْ  
أَهْلِ الْمَدِينَةِ ، ثُمَّ يَلْزِمُ كُلُّ امْرِئٍ بِقَدْرِ مَا احْتَمَلَ .

فَارْجِعَا أَيُّهَا الشَّيْخَانِ عَنْ رَأْيِكُمَا ؛ فَإِنَّ الْآنَ أَعْظَمُ أَمْرِكُمَا الْعَارُ ، مِنْ قَبْلِ  
أَنْ يَجْتَمِعَ الْعَارُ وَالنَّارُ . وَالسَّلَامُ .

## الشَّيْخُ :

### [ عمران بن الحصين ]

هو عمران بنُ الحَصِين بن عبيد بن خَلَف بن عبد بن نَهْم بن سالم بن غاضرة بن سُلُول ابن حُبَشِيَّة بن سُلُول بن كعب بن عمرو الخُزَاعِيّ . يكنى أبا مُجَيْدٍ بَابنه مُجَيْد بن عمران . أسلمَ هو وأبو هريرة عامَ خَيْر ، وكان من فضلاء الصَّحابة وفقهائهم ، يقول أهلُ البصرة عنه : إِنَّه كان يرى الحَفَظَةَ ، وكانت تكلمه حتى اكْتَوَى .

وقال محمد بن سيرين : أَفْضَلُ من نَزَلَ البصرة من أصحاب رسول الله صَلَّى الله عليه وآله عمرانُ بنُ الحَصِين وأبو بَكْرَةَ . واستقضىه عبد الله بن عامر بن كُرَيْز على البصرة فَعَمِلَ له أَيَّامًا ، ثم أَسْتَعْفَاه فَأَعْفَاه ، ومات بالبصرة سنة اثنتين وخمسين في أَيَّام معاوية .

\*\*\*

### [ أبو جعفر الإسكافي ]

وأما أبو جعفر الإسكافيّ — وهو شيخنا محمد بن عبد الله الإسكافيّ — عدّه قاضى القضاة فى الطبقة السابعة من طبقات المعتزلة مع عباد بن سُلَيْمان الصَّيْمَرِيّ ، ومع زُرْقَان ، ومع عيسى بن الهيثم الصوفىّ ، وجعل أوّل الطبقة ثمانية بن أشرس أبا معن ، ثم أبا عثمان الجاحظ ، ثم أبا موسى عيسى بن صُبَيْح المردار ، ثم أبا عمران يونس بن عمران ثمّ محمد بن شبيب ، ثم محمد بن إسماعيل بن العسكرىّ ، ثم عبد الكريم بن رَوْح العسكرىّ ، ثم أبا يعقوب يوسف بن عبد الله الشَّحَام ، ثمّ أبا الحسين الصالحىّ ،

ثم الجعفران : جعفر بن جرير وجعفر بن ميسر ، ثم أبا عمران بن النخاش ، ثم أبا سعيد أحمد ابن سعيد الأسدي ، ثم عباد بن سليمان ، ثم أبا جعفر الإسكافي هذا . وقال : كان أبو جعفر فاضلا عالما ، وصنف سبعين كتابا في علم الكلام .

وهو الذي نقض كتاب " العمانية " ، على أبي عثمان الحافظ في حياته ، ودخل الحافظ الوراقين ببغداد ، فقال : من هذا الغلام السوادى الذى بلغنى أنه تعرض لنقض كتابي ! وأبو جعفر جالس ! فأخفى منه حتى لم يره .

وكان أبو جعفر يقول بالتفضيل على قاعدة معتزلة ببغداد ، ويبالغ في ذلك ، وكان علوى الراى ، محققا منصفاً ، قليل العصبية .

\*\*\*

ثم نعود إلى شرح ألفاظ الفصل ومعانيه :  
قوله عليه السلام : « لم أرد الناس » ، أى لم أرد الولاية عليهم حتى أرادوا هم منى ذلك .

قال : « ولم أبايعهم حتى بايعوني » ، أى لم أمدد يدي إليهم مدّ الطلب والحرص على الأمر ، ولم أمددها إلا بعد أن خاطبوني بالإمرة والخلافة ، وقالوا بألسنتهم : قد بايعناك ، فحينئذ مددت يدي إليهم .

قال : ولم يبايعنى العامة والمسلمون لسلطان غصبهم وقهرهم على ذلك ، ولا لحرص حاضر ، أى مال موجود فرّقته عليهم .

ثم قسم عليهما الكلام ، فقال : إن كنتم بايعتماني طوعا عن رضا فقد وجب عليكما الرجوع ، لأنه لا وجه لانتقاض تلك البيعة ، وإن كنتم بايعتماني مكرهين عليها فالإكراه

له صورة ، وهى أن يجرد السيف ويمدّ العنق ، ولم يكن قد وقع ذلك ، ولا يمكنكم أن تدعيه ، وإن كنتم بايعتماني لا عن رضا ولا مكرهين بل كارهين ، وبين المكره والكاره فرق بين ، فالأمور الشرعية إنما تُبنى على الظاهر ، وقد جعلتمنا على أنفسكم السبيل بإظهاركم الطاعة ، والدخول فيما دخل فيه الناس ، ولا اعتبار بما أمرتكم من كراهية ذلك . على أنه لو كان عندى ما يكرهه المسلمون لكان المهاجرون فى كراهية ذلك سواء ؛ فما الذى جعلكم أحقّ المهاجرين كلهم بالكتمان والتقية !

ثم قال : وقد كان امتناعكم عن البيعة فى مبدأ الأمر أجل من دخولكم فيها ثم نكثها .

قال : وقد زعمنا أن الشبهة التى دخلت عليكم فى أمرى أنى قتلت عثمان ، وقد جعلت الحكم بينى وبينكم من تخاف عني وعنكم من أهل المدينة ، أى الجماعة التى لم تنصروا عليا ولا طلحة ، كمحمد بن مسلمة ، وأسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وغيرهم ، يعنى أنهم غير متهمين عليه ولا على طلحة والزبير ، فإذا حكموا لزم كل امرئ منا بقدر ما تقتضيه الشهادات . ولا شبهة أنهم لو حكموا وشهدوا بصورة الحال لحكموا ببراءة على عليه السلام من دم عثمان ، وبأن طلحة كان هو الجلة والتفصيل فى أمره وحصره وقتله ، وكان الزبير مساعداً له على ذلك ، وإن لم يكن مكاشفاً مكاشفة طلحة .

ثم نهاهما عن الإصرار على الخطيئة ، وقال لهما : إنكم إنما تخافان العار فى رجوعكم وانصرافكم عن الحرب ، فإن لم ترجعا اجتمع عليكم العار والنار ؛ أما العار فلا نكسها تهزمان وتفران عند اللقاء فتعيران بذلك ، وأيضاً سيكشف للناس أنكم كنتم على باطل فتعيران بذلك ، وأما النار فإليها مصير العصاة إذا ماتوا على غير توبة واحتمال العار ، وحده أهون من احتماله واحتمال النار معه .

(٥٥)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ جَعَلَ الدُّنْيَا لِمَا بَعْدَهَا ، وَابْتَلَى فِيهَا أَهْلَهَا ، لِيَعْلَمَ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَسْنَا لِلدُّنْيَا خُلُقْنَا ، وَلَا بِالسَّعَى فِيهَا أَمْرُنَا ، وَإِنَّمَا وَضَعْنَا فِيهَا لِنُبْتَلَى بِهَا ، وَقَدْ ابْتَلَانِي اللَّهُ بِكَ وَابْتَلَاكَ بِي ، فَجَعَلَ أَحَدَنَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ ، فَغَدَوْتَ عَلَى طَلَبِ الدُّنْيَا بِتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ ، وَطَلَبْتَنِي بِمَا لَمْ تَجْنِ يَدِي وَلَا لِسَانِي ، وَعَصَبْتَهُ أَنْتَ وَأَهْلُ الشَّامِ بِي ، وَاللَّبَّ عَالِمُكُمْ جَاهِلُكُمْ ، وَقَالَتْكُمْ قَاعِدَتُكُمْ .

فَاتَّقِ اللَّهَ فِي نَفْسِكَ ، وَنَازِعِ الشَّيْطَانَ قِيَادَكَ ، وَاصْرِفْ إِلَى الْآخِرَةِ وَجْهَكَ ، فَهِيَ طَرِيقُنَا وَطَرِيقُكَ ، وَاحْذَرْ أَنْ يُصِيبَكَ اللَّهُ مِنْهُ بِعَاجِلٍ قَارِعَةٍ تَمَسُّ الْأَصْلَ ، وَتَقْطَعُ الدَّائِرَ ، فَإِنَّ أَوَّلِي لَكَ بِاللَّهِ أَلْيَّةٌ غَيْرَ فَاجِرَةٍ ، لَنْ جَمَعْتَنِي وَإِيَّاكَ جَوَاسِعُ الْأَقْدَارِ لَا أَزَالُ بِبَاحْتِكَ ، ﴿ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ .

\*\*\*

الشرح :

قال عليه السلام : « إن الله قد جعل الدنيا لما بعدها » ، أى جعلها طريقاً إلى الآخرة .  
ومن الكلمات الحكمية : الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تمروها . وابتلى فيها أهلها  
أى اختبرهم ليعلم أيهم أحسن عملاً ، وهذا من ألفاظ القرآن العزيز ، والمراد ليعلم خلقه ،

أو ليعلم ملائكتيه ورُسُلُه ، فحذف المضاف ، وقد سبقت ذكر شيء يناسب ذلك فيما تقدم ، قال : « ولسنا للدنيا خُلِقْنَا » ، أى لم نخلق للدنيا فقط .

قال : « ولا بالسعى فيها أمرنا » ، أى لم نؤمر بالسعى فيها لها ، بل أُمِرْنَا بالسعى فيها لغيرها .

ثم ذكر أن كل واحد منه ومن معاوية مُبْتَلًى بصاحبه ، وذلك كابتلاء آدم بإبليس وإبليس بآدم .

قال : « فندوت على طلب الدنيا بتأويل القرآن » ، أى تعدت وظلمت ، و « على » ها هنا متعلقة بمحذوف دلّ عليه الكلام ، تقديره مثابرا على طلب الدنيا أو مصرا على طلب الدنيا ، وتأويل القرآن ما كان معاوية يموّه به على أهل الشام فيقول لهم : أنا وليّ عثمان ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا ﴾<sup>(١)</sup> .

ثم يمدّهم الظفر والدولة على أهل العراق بقوله تعالى : ﴿ فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴾<sup>(١)</sup> .

قوله : « وعصبته أنت وأهل الشام » ، أى ألزمتيه كما تلزم العصاة الرأس ، « وألب عالمكم جاهلكم » ؛ أى حرّض .

والقياد : جبل تقاد به الدابة .

قوله : واحذر أن يصيبك الله منه بما جل قارعة ، الضمير في « منه » راجع إلى الله تعالى ، « ومن » لا ابتداء الغاية .

---

(١) سورة الإسراء ٣٣ .



وقال الراوندى : منه ، أى من البُهْتان الذى أتيت به ، أى من أجله ، و « من » للتعليل ، وهذا بعيد وخلاف الظاهر .

قوله : « تمسّ الأصل » ، أى تقطعه ، ومنه ماء ممسوس أى يقطع الغلّة . ويقطع الدابر أى العقب والنسل .

والأليّة : اليمين . وباحة الدار : وسَطُها ، وكذلك ساحَتُها ، ورؤى بناحيته .  
قوله : « بماجل قارعة ، وجوامع الأقدار » ، من باب إضافة الصفة إلى الموصوف<sup>(١)</sup> للتأكيد ، كقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ <sup>(٢)</sup> ﴾ .

---

(١) د : « الصلة إلى الموصول » . (٢) سورة الحاقة ٥١ .

(٥٦)

الأفضل :

ومن كلام له عليه السلام وصى به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته  
إلى الشام :

اتَّقِ اللَّهَ فِي كُلِّ مَسَاءٍ وَصَبَاحٍ ، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْفَرُورَ ، وَلَا تَأْمَنْهَا  
عَلَى حَالٍ .

وَأَعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرُدَّ نَفْسَكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا تُحِبُّ مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ ، سَمَتْ بِكَ  
الْأَهْوَاءُ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِ ، فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَالِيًا رَادِعًا ، وَلِلزَّوَانِكِ عِنْدَ الْحَفِيفَةِ  
وَأَقِمَّا قَائِمًا .

\*\*\*

[ شريح بن هانئ ]

الشَّيْخُ :

هو شريح بن هانئ بن يزيد بن نهيك بن دُرَيْد بن سُفْيَان بن الضَّبَاب ، وهو سَلَمَةٌ  
ابن الحارث بن ربيعة بن الحارث بن كعب المَذْحِجِي . كان هانئ يُكْنَى في الجاهلية  
أبا الحكم ، لأنه كان يحكم بينهم ، فكانه رسول الله صلى الله عليه وآله بأبي شريح ،  
إذ وفد عليه . وابنه شريح هذا من جَلَّة أصحاب علي عليه السلام ، شهد معه الشاهد كلَّهما ،  
وعاش حتى قُتِلَ بِسَجِسْتَانَ في زمن الحجاج ، وشريح جاهلي إسلامي ، يكنى أبا المقدم ،

ذَكَرَ ذَلِكَ كُلَّهُ أَبُو عَمَرَ بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ الْاِسْتِيعَابِ<sup>(١)</sup> .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : وَخَفَ عَلَى نَفْسِكَ الْفُرُورَ ، يَعْنِي الشَّيْطَانَ ، فَأَمَّا الْفُرُورُ بِالضَّمِّ  
فَمَصْدَرٌ . وَالرَّادِعُ : الْكَافُّ لِلْمَانِعِ . وَالتَّرَوَاتُ : الْوَثَبَاتُ . وَالْحَفِيفَةُ : الْغَضَبُ . وَالْوَارِقُ :  
فَاعِلٌ ، مِنْ وَقَمْتُهُ أَيْ رَدَدْتُهُ أَقْبَحَ الرَّدِّ وَقَهْرْتُهُ . يَقُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنْ لَمْ تَرُدِّعْ نَفْسَكَ  
عَنْ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِكَ أَفْضَتْ بِكَ إِلَى كَثِيرٍ مِنَ الضَّرَرِّ ، وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ :  
فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَ بَطْنَكَ سُؤْلَهَا      وَفَرَجَكَ نَالًا مُنْتَهَى الذَّمِّ أَجْمَعًا<sup>(٢)</sup>

---

(١) الْاِسْتِيعَابُ ٦٠٧ . (٢) الْبَيْتُ لِحَاتِمٍ ، وَهُوَ مِنْ شَوَاهِدِ الْمَفْنَى ٣٣١ .

(٥٧)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة عند مسيره من المدينة

إلى البصرة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنِّي خَرَجْتُ عَنْ حَيِّي هَذَا إِمَّا ظَالِمًا وَإِمَّا مَظْلُومًا ، وَإِمَّا بَاطِلًا  
وَإِمَّا مُبِينًا عَلَيْهِ ، وَأَنَا أَذْكُرُ اللَّهَ مَنْ بَلَّغَهُ كِتَابِي هَذَا لَمَّا نَفَرَ إِلَيَّ ، فَإِنْ كُنْتُ  
مُحْسِنًا أَعَانَنِي ، وَإِنْ كُنْتُ مُسِيئًا اسْتَعْتَبَنِي .

\*\*\*

الشرح :

ما أحسنَ هذا التقسيم وما أبلغه في عطف القلوب عليه ، واستمالة النفوس إليه !  
قال : لا يخلو حال في خروجي من أحد أمرين : إمَّا أن أكون ظالماً أو مظلوماً ،  
وبدأ بالظالم هُضمًا لنفسه<sup>(١)</sup> ، وثلاً يقول عدوه : بدأ بدعوى كونه مظلوماً ، فأعطى عدوه  
من نفسه ما أراد .

قال : فليَنقِرِ المسلمون إلىَّ فإنَّ وجدوني مظلوماً أعانوني ، وإن وجدوني ظالماً نهَوْنِي .  
عن ظلمي لأعْتَبَ وأُنِيبَ إلى الحقِّ . وهذا كلام حسن ، ومراده عليه السلام يحصل على  
كلا الوجهين ، لأنه إمَّا أراد أن يستنفرهم ، وهذان الوجهان يقتضيان نفيهم إليه على كل  
حال ، والحي : المنزل ، ولما هاهنا بمعنى إلا ، كقوله تعالى : ﴿ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا  
حَافِظٌ ﴾<sup>(٢)</sup> في قراءة من قرأها بالتشديد .

(١) في د : « وأرأى بالظالم هدم نفسه » . (٢) سورة الطارق ٤ .

(٥٨)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين :

وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَّا التَّقِينَا بِالْقَوْمِ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ ، وَنَبِيَّنَا وَاحِدٌ ، وَدَعْوَتُنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ ، وَلَا نَسْتَرِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّصْدِيقِ بِرَسُولِهِ وَلَا يَسْتَرِيدُونَنَا ، وَالْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءٌ ، فَقُلْنَا : تَعَالَوْا نُدَاوِي مَا لَا يُدْرِكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّارِزَةِ ، وَتَسْكِينِ الْعَامَةِ ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمِعَ ، فَنَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ فِي مَوَاضِعِهِ ، فَقَالُوا : بَلْ نُدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ ، فَأَبَوْا ، حَتَّى جَنَحَتِ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ ، وَوَقَدَتْ نِيرَانَهَا وَحَمَشَتْ (١) .

فَلَمَّا ضَرَسْتَنَا وَإِيَّاهُمْ ، وَوَضَعْتَ خَالَجَهَا فِينَا وَفِيهِمْ ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا ، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا ، حَتَّى اسْتَبَانَ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ ؛ وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ الْمَعْدِرَةُ ، فَعَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنَ الْهَلَكَةِ ، وَمَنْ لَجَّ وَتَمَادَى فَهُوَ الرَّائِسُ الَّذِي رَانَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السُّوءِ عَلَى رَأْسِهِ .

\*\*\*

(١) في د و وجيت .

## السِّنْجُ :

رُوى : « التَّقِينَا والقوم » بالواو ، كما قال :

\* قلتُ إذ أقبلتُ وزهر تهادى \*

ومن لم يروها بالواو فقد استراح من التكلف .

قوله : « والظاهر أن ربنا واحد » ، كلامٌ من لم يحكم لأهل صفين من جانب معاوية حُكمًا قاطعًا بالإسلام ، بل قال : ظاهرهم الإسلام ، ولا خاف بيننا وبينهم فيه ، بل اُخلف في دم عثمان .

قال عليه السلام : قلنا لهم : تعالوا فلنُطْفِئُ هذه النائرة الآن بوضع الحرب ، إلى أن تتمهد قاعدتي في الخلافة وتزول هذه الشوائب التي تكدر على الأمر ، ويكون للناس جماعة ترجع إليها ، وبعد ذلك أتمكن من قتل عثمان بأعيانهم فأقتص منهم ، فأبوا إلا المكابرة والمغالبة والحرب .

قوله : « حتى جَنَحَتِ الحرب ورَكَدَت » ، جَنَحَت : أقبلت ، ومنه : قد جَنَحَ الليل ، أى أقبل ، ورَكَدَت : دامت وثَبَّتَت .

قوله : « وَوَقَدَتُ نيرانُها » ، أى التهمت .

قوله : « وَحِشْتُ » ، أى أستمريت وشَبَّت . ورُوى : « وَأَسْتَحْشَمْتُ <sup>(١)</sup> » وهو أصح ؛ ومن رواها « حَمَسْتُ » بالسین المهمة أراد أشتدت وصلبت .

قوله : « فلما ضَرَسْنَا وإياهم » أى عضننا بأضراسها ، ويقال : ضَرَسَهم الدهر ، أى اشتدَّ عليهم .

---

(١) فى د « واستجرت » . والمعنى عليه يستقيم أيضا .

قال : لَمَّا أَشَدَّتْ الحرب علينا وعليهم ، وَأَكَلَتْ مِنَّا ومنهم ، عادوا إلى ما كُنَّا سألناهم  
أَبْتَدَاءً ، وَضَرَعُوا إِلَيْنَا فِي رَفْعِ الحرب ، وَرَفَعُوا المصاحفَ يسألون النزولَ على حُكْمِهَا ،  
وإِعْمَادَ السَّيْفِ ، فَأَجَبْنَاهُمْ إِلَى ذَلِكَ .

قوله : « وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا » كلمةٌ فصِيحةٌ ، وهى تَعْدِيَةُ الفعلِ اللّازِمِ ، كَأَنَّهُمَا لَمَّا  
كَانَتْ فِي مَعْنَى الْمُسَابَقَةِ ، وَالْمُسَابَقَةُ مُتَعَدِيَةٌ عَدَى الْمُسَارَعَةَ .

قوله : « حَتَّى اسْتَبَانَتْ » ، يقول : اسْتَمَرَرْنَا عَلَى كِفِّ الحرب ووضعيها ، إجابةً  
لسؤالهم ، إِلَى أَنْ اسْتَبَانَتْ عَلَيْهِمْ حُجَّتُنَا ، وَبَطَلَتْ مَعَاذِيرُهُمْ وَشُبُهَاتُهُمْ فِي الحرب وَشَقَّ العَصَا ،  
فَمَنْ تَمَّ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ ، أَيْ عَلَى أَنْقِيَادِهِ إِلَى الْحَقِّ بَعْدَ ظُهُورِهِ لَهُ ، فَذَلِكَ الَّذِي خَلَّصَهُ اللَّهُ مِنْ  
الهِلَاكِ وَعَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَمَنْ لَجَّ مِنْهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَتَمَادَى فِي ضَلَالِهِ فَهُوَ الرَّآكِسُ ؛ قَالَ قَوْمٌ :  
الرَّآكِسُ هُنَا بِمَعْنَى الْمَرْكُوسِ ، فَهُوَ مَقْلُوبٌ فَاعِلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَهَوَّ فِي  
عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴾ <sup>(١)</sup> أَيْ مَرْضِيَّةٍ ، وَعِنْدِي أَنَّ اللَّفْظَةَ عَلَى بَابِهَا ، يَعْنِي أَنَّ مَنْ لَجَّ فَقَدْ  
رَكَسَ نَفْسَهُ ، فَهُوَ الرَّآكِسُ ، وَهُوَ الْمَرْكُوسُ ، يَقَالُ : رَكَسَهُ وَأَرَكَسَهُ بِمَعْنَى ، وَالْكِتَابُ  
الْعَزِيزُ جَاءَ بِالْهَمْزِ فَقَالَ : ﴿ وَاللَّهُ أَرَكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ <sup>(٢)</sup> ، أَيْ رَدَّاهُمْ إِلَى كُفْرِهِمْ <sup>(٣)</sup> ؛  
وَيَقُولُ : ارْتَكَسَ فُلَانٌ فِي أَمْرٍ كَانَ نَجَا مِنْهُ ، وَرَانَ عَلَى قَلْبِهِ ، أَيْ رَانَ هُوَ عَلَى قَلْبِهِ ، كَمَا  
قُلْنَا فِي الرَّآكِسِ ؛ وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ - وَهُوَ اللَّهُ - مُحذُوفًا ، لِأَنَّ الْفَاعِلَ لَا يُحْذَفُ ،  
بَلْ يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْفَاعِلُ كَالْمَحذُوفِ ، وَلَيْسَ بِمَحذُوفٍ ، وَيَكُونُ الْمَصْدَرُ وَهُوَ  
الرَّيْنُ ، وَدَلَّ الْفِعْلُ عَلَيْهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ ثُمَّ بَدَأَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا  
الْآيَاتِ ﴾ <sup>(٤)</sup> أَيْ بَدَأَهُمُ الْبَدَاءَ . وَرَانَ بِمَعْنَى غَلَبَ وَغَطَّى ؛ وَرَوَى « فَهُوَ الرَّآكِسُ  
الَّذِي رَيْنَ عَلَى قَلْبِهِ » .

(١) القارعة ٧ . (٢) سورة النساء ٨٨ .

(٣) في د « كيدهم » . (٤) سورة يوسف ٣٥ .

— ١٤٤ —

قال : وصارت دائرة السوء على رأسه ، من ألفاظ القرآن العزيز ، قال الله تعالى :  
﴿ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ﴾<sup>(١)</sup> والدوائر : الدُّوَل .  
قال :

\* وإنَّ على الباغي تدورُ الدوائر \*  
والدائرة أيضا : الهزيمة ، يقال : على مَنْ الدائرةُ منهما ، والدوائر أيضاً الدَّواهي .

---

(١) سورة الفتح ٧ .



(٥٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان :  
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْوَالِيَ إِذَا اخْتَلَفَ هَوَاهُ مَنَعَهُ ذَلِكَ كَثِيرًا مِنَ الْعَدْلِ ، فَلْيَسْكُنْ  
أَمْرُ النَّاسِ عِنْدَكَ فِي الْحَقِّ سَوَاءً ، فَإِنَّهُ لَيْسَ فِي الْجَوْرِ عَوَضٌ مِنَ الْعَدْلِ ، فَاجْتَنِبْ  
مَا تُنْكِرُ أَمْثَالَهُ ، وَابْتَدِلْ نَفْسَكَ فِيمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، رَاجِيًا ثَوَابَهُ ، وَمُتَخَوِّفًا  
عِقَابَهُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلِيَّةٍ لَمْ يَفْرُغْ صَاحِبُهَا فِيهَا قَطُّ سَاعَةً إِلَّا كَانَتْ فَرِغَتُهُ  
عَلَيْهِ حَسْرَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَإِنَّهُ لَنْ يُغْنِيكَ عَنِ الْحَقِّ شَيْءٌ أَبَدًا ، وَمِنَ الْحَقِّ عَلَيْكَ  
حِفْظُ نَفْسِكَ ، وَالِاخْتِسَابُ عَلَى الرَّغِيَةِ بِجُهِدِكَ ، فَإِنَّ الَّذِي يَصِلُ إِلَيْكَ مِنْ ذَلِكَ  
أَفْضَلُ مِنَ الَّذِي يَصِلُ بِكَ ؛ وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

الشرح :

[الأسود بن قطبة]

لم أقف إلى الآن على نسب الأسود بن قطبة ، وقرأت في كثير من النسخ أنه حارثي  
من بني الحارث بن كعب ؛ ولم أتحقق ذلك ، والذي يغلب على ظني أنه الأسود بن زيد  
ابن قطبة بن غنم الأنصاري من بني عبيد بن عدى . ذكره أبو عمر بن عبد البر في  
كتاب " الاستيعاب " ، وقال : إن موسى بن عقبة عدّه فيمن شهد بدراً (١) .

(١) الاستيعاب ١ : ٩٠ ( طبعة نهضة مصر ) .

قوله عليه السلام : « إذا اختلفَ هَوَى الوالى منعه كثيرا من الحق » قولٌ صِدْقٌ ،  
لأنه متى لم يكن الخَصمان عند الوالى سواءً فى الحق جَارَ وظَلَمَ .

ثم قال له : فإنه ليس فى الجورِ عِوضٌ من العَدْل ؛ وهذا أيضا حقٌ ، وفى العَدْل كلُّ  
العِوض من الجور .

ثم أمره باجتنب ما ينكر مثله من غيره ، وقد تقدّم نحوه هذا .

وقوله : « إلا كانت فرغته » كلمةٌ فصيحةٌ ، وهى المرة الواحدة من الفراغ ،  
وقد روى عن النبىِّ صلى الله عليه وآله : « إن الله يُبْغِضُ الصَّحِيحَ الفارغ لا فى شُغْل  
الدنيا ولا فى شُغْل الآخرة » ، ومرادُ أمير المؤمنين عليه السلام ها هنا الفراغُ من عمل  
الآخرة خاصّة .

قوله : « فإن الذى يصل إليك من ذلك أفضلُ من الذى يصل بك » ، معناه : فإنَّ  
الذى يصل إليك من ثواب الاحتساب على الرعيّة ، وحفظ نفسك من مَظالِمهم وآلِئف  
عليهم ، أفضلُ من الذى يصل بك من حِرَاسَةِ دِيَارِهِمْ<sup>(١)</sup> وأَعْرَاضِهِمْ وأَمْوَالِهِمْ ؛  
ولا شُبْهة فى ذلك ، لأنَّ إحدى المنفعتين دائمة ، والأخرى منقِطعة ، والنفع الدائمُ أفضلُ  
من المنقِطع .

(١) ب : « دعائهم » تصحيف ، صوابه فى ا ، د .

(٦٠)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش<sup>(١)</sup> :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَنْ مَرَّ بِهِ الْجَيْشُ مِنْ جُبَاةِ الْخَرَاجِ  
وَعَمَالِ الْبِلَادِ :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ قَدْ سَيَّرْتُ جُنُودًا هِيَ مَارَّةٌ بِكُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَقَدْ أَوْصَيْتُهُمْ  
بِمَا يَحِبُّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ كَفِّ الْأَذَى ، وَصَرْفِ الشَّدَى ، وَأَنَا أَبْرَأُ إِلَيْكُمْ  
وإِلَى ذِمَّتِكُمْ مِنْ مَعَرَّةِ الْجَيْشِ ، إِلَّا مِنْ جَوْعَةِ الْمُضْطَرِّ لَا يَحِدُّ عَنْهَا مَذْهَبًا  
إِلَى شِيعَةٍ<sup>(٢)</sup> ، فَتَكَلَّوْا مَنْ تَنَاوَلَ مِنْهُمْ ظُلْمًا عَنْ ظُلْمِهِمْ ، وَكَفُّوا أَيْدِيَ سَفَهَائِكُمْ  
عَنْ مُضَادَّتِهِمْ ، وَالتَّعَرَّضِ لَهُمْ فِيمَا اسْتَشْتَيْنَاهُ مِنْهُمْ ، وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِ الْجَيْشِ ،  
فَارْفَعُوا إِلَيَّ مَطَالِيكُمْ ، وَمَا عَرَاكُمْ مِمَّا يَغْلِبُكُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ وَلَا تُطِيقُونَ دَفْعَهُ  
إِلَّا بِاللَّهِ<sup>(٣)</sup> وَبِي ، أُغَيِّرُهُ بِمَعُونَةِ اللَّهِ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

\*\*\*

الشرح :

رُوي « عن مضاررتهم » بالراء المشددة . وجبابة الخراج : الذين يجمعونه ، جبيت الماء  
في الحوض ، أى جمعته . والشدى : الضرب والشر ، تقول : لقد أشديت وآذيت . وإلى ذمتكم ،  
أى إلى اليهود والنصارى الذين بينكم<sup>(٤)</sup> ، قال عليه السلام : « من آذى ذميتا فكأنما<sup>(٥)</sup> آذاني » ،

(١) د « عملهم الجيش » . (٢) مخطوطة الهج : « إلا إلى شيعه » .

(٣) د « بإذن الله » . (٤) د « بذمتكم » .

(٥) د « فقد » .

وقال : إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا ، وأموالهم كأموالنا ، ويسمى هؤلاء ذمة ، أى أهل ذمة ، بحذف المضاف . والمعرة : المصرة ، قال : الجيش ممنوع من أذى من يمر به من المسلمين وأهل الذمة إلا من سدّ جوعة المضطرّ منهم خاصة ، لأنّ المضطرّ تباح له الميتة فضلا عن غيرها .

ثمّ قال : فنكّلوا من تناول ، ورؤى « بمن تناول » بالباء ، أى عاقبوه . و « عن » فى قوله : « عن ظلمهم » ، يتعلق بنكّلوا ، لأنها فى معنى « اردعوا » ؛ لأنّ النكال يُوجب الردع .

ثمّ أمرهم أن يكفّوا أيديّ أحداهم وسفاههم عن مُنازعة الجيش ومصادمته ، والتعرض لمنعه عما استثناء ، وهو سدّ الجوعة عند الاضطرار ، فإنّ ذلك لا يجوز فى الشرع ، وأيضا فإنّه يُفضى إلى فتنة وهرج .

ثمّ قال : « وأنا بين أظهر الجيش » ، أى أنا قريبٌ منكم ، وسائرٌ على إثر الجيش ، فارفعوا إلى مظالمكم وما عراكم منهم على وجه الغلبة والقهر ، فإنّ مغيرٌ ذلك ومنتصفٌ لكم منهم .

(٦١)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله على هيت  
ينكر عليه تركه دفع من يحتازبه من جيش العدو طالبا للغارة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ تَضْيِيعَ الْمَرْءِ مَا وُلِّيَ ، وَتَكَلُّفُهُ مَا كُفِيَ ، لَمْ يُجْزِ حَاضِرُهُ ،  
وَرَأَى مُتَبَرِّهُ . وَإِنَّ تَمَاطِيكَ الْغَارَةِ عَلَى أَهْلِ قَرْيَيسِيَا ، وَتَعْطِيلَكَ مَسَالِكَ الْبَيْتِ وَلَيْتَاكَ  
لَيْسَ لَهَا مَنْ يَمْنَعُهَا ، وَلَا يَرُدُّ الْجَيْشَ عَنْهَا - لَرَأَى شَعَاعُ ، فَقَدْ صِرْتَ جَسْرًا لِمَنْ  
أَرَادَ الْغَارَةَ مِنْ أَعْدَائِكَ عَلَى أَوْلِيَائِكَ ، غَيْرَ شَدِيدِ الْمُنْكَبِ ، وَلَا مَهِيْبِ الْجَانِبِ ،  
وَلَا سَادٍ لُغْرَةٍ ، وَلَا كَاسِرٍ لِعَدُوٍّ شَوْكَةٍ ، وَلَا مُنْعِنٍ عَنْ أَهْلِ مِصْرِهِ (١) ، وَلَا يُجْزِي  
عَنْ أَمِيرِهِ .

\*\*\*

الشرح :

[ كميل بن زياد ونسبه ]

هو كميل بن زياد بن سهيل بن هيثم بن سعد بن مالك بن الحارث بن صهبان  
ابن سعد بن مالك بن النخع بن عمرو بن وعلة بن خالد بن مالك بن أدد . كان من أصحاب  
علي عليه السلام وشيعته وخاصته ، وقتله الحجاج على المذهب فيمن قتل من الشيعة .  
وكان كميل بن زياد عامل علي عليه السلام على هيت ، وكان ضعيفا ، يمر عليه سرايا معاوية  
تنهب أطراف العراق ولا يردّها ، ويحاول أن يجبر ما عنده من الضعف بأن يُغير

(١) في د « النصرة » .

على أطراف أعمال معاوية مثل قرقيسيا وما يجري بحرآها من القرى التى على الفرات ،  
فأنكر عليه السلام ذلك من فعله ، وقال: إن من المعجز الحاضر أن يهيل الوالى ما ولىه ،  
ويتكلف ما ليس من تكليفه .

\*\*\*

والمُتَبَّر: الهالك ؛ قال تعالى : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَبَّرُونَ مَا هُمْ فِيهِ ﴾ (١) .  
والمسالح : جمع مَسَلَحَة ، وهى المواضع التى يقام فيها طائفة من الجند لحمايتها .  
ورأى شِماع ، بالفتح ، أى متفرق .  
ثم قال له : « قد صرت جِسْرًا » أى يعبرُ عليك العدو كما يعبرُ الناسُ على الجسور ،  
وكأنَّ الجسر لا يمتنع من يعبرُ به ويمرُّ عليه فكذلك أنت .  
والثُّغْرَة : الثُّلْمَة . وُجُز : كافٍ ومُغْنٍ ؛ والأصل « مُجْزَى » بالهمز ، نَقُصِبَ .

(٦٢)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشر رحمة الله  
لما ولاه إمارتها :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ ،  
وَمُهَيِّمِنًا عَلَى الْمُرْسَلِينَ ؛ فَلَمَّا مَضَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَنَازَعَ الْمُسْلِمُونَ الْأَمْرَ  
مِنْ بَعْدِهِ ؛ فَوَاللَّهِ مَا كَانَ يُلْقَى فِي رُوعِي ، وَلَا يَخْطُرُ بِيَالِي أَنَّ الْعَرَبَ تَزْعِجُ هَذَا  
الْأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ، وَلَا أَنَّهُمْ مُنَحَّوهُ عَنِّي مِنْ  
بَعْدِهِ ، فَمَا رَاعَنِي إِلَّا انْتِيَالُ النَّاسِ عَلَى فُلَانٍ يُبَايِعُونَهُ ، فَأَمْسَكْتُ بِيَدِي حَتَّى رَأَيْتُ  
رَاجِعَةَ النَّاسِ قَدْ رَجَعَتْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، يَدْعُونَ إِلَى سِخْرِ دِينِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَآلِهِ ، فَخَشِيتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ أَنْ أَرَى فِيهِ ثَلَمًا أَوْ هَدَمًا ، تَكُونُ  
الْمُصِيبَةُ بِهِ عَلَى أَعْظَمَ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا يَتَكُمُ ، الَّتِي إِنَّمَا هِيَ مَتَاعُ أَيَّامٍ قَلِيلٍ ،  
يَزُولُ مِنْهَا مَا كَانَ ، كَمَا يَزُولُ السَّرَابُ ، وَكَمَا يَتَقَشَّعُ السَّحَابُ ، فَهَضَمْتُ فِي تِلْكَ  
الْأَحْدَاثِ حَتَّى زَاغَ الْبَاطِلُ وَزَهَقَ ، وَاطْمَأَنَّ الدِّينُ وَتَنَهَّنَه .

\*\*\*

الشيخ :

المُهِمِّن : الشاهد ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا ﴾ ، أَيْ  
تشهد بإيمان مَنْ آمَنَ وكُفْرَ مَنْ كَفَرَ . وقيل : تشهد بصحة نبوة الأنبياء قبلك .

وقوله : « على المرسلين » ، يؤكد صحة هذا التفسير الثانى ، وأصل اللفظة من « آمن غيره من الخوف » ، لأن الشاهد يؤمن غيره من الخوف بشهادته ، ثم تصرّفوا فيها فأبدلوا إحدى همزتى « مؤامن » ياء فصار « مؤيمن » ، ثم قلبوا الهمزة هاء كأرقت وهرقت فصار « مهيمن » .

والرّوع : الخلد ؛ وفى الحديث : « إنّ رُوح القدس نفث فى رُوعى » ، قال : ما يخطر لى ببال أنّ العرب تعدّل بالأمر بعد وفاة محمد صلى الله عليه وآله عن بنى هاشم ، ثمّ من بنى هاشم عني ؛ لأنّه كان المتيقن بحكم الحال الحاضرة . وهذا الكلام يدلّ على بطلان دعوى الإمامية النصّ وخصوصا الجلىّ .

قال : « فما راعنى إلا اثتيال الناس » ، تقول للشئ يفجؤك بغتة : ما راعنى إلا كذا ، والرّوع بالفتح ؛ الفرع ، كأنه يقول : ما أزعنى شئ بسد ذلك السكون الذى كان عندى ، وتلك الثقة التى اطمأنتُ إليها إلا وقوع ما وقع من اثتيال الناس - أى انصباهم من كلّ وجه كما ينثاب التراب - على أبى بكر ، وهكذا لفظ الكتاب الذى كتبه للأشتر ، وإعسا الناس يكتبونه الآن « إلى فلان » تدّسما من ذكر الاسم كما يكتبون فى أوّل الشّقشِقِيّة : « أما والله لقد تقمّصها فلان » ، واللفظ « أما والله لقد تقمّصها ابن أبى قحافة » .

قوله : « فأمسكتُ يدى » ، أى امتنعتُ عن بيعته ، حتى رأيت راجعة الناس ، يعنى أهل الرّدة كمسيلة ، وسجّاح وطليحة بن خويلد ومانى الزكاة ؛ وإن كان مانعوا الزكاة قد اختلف فى أنهم أهل رِدّة أم لا .  
ومحقّ الدّين : إبطاله .

وزَهَق : خَرَجَ وزال . تمنّه : سكن ، وأصله الكفّ ، تقول : نهنت السبع فتنهته ،



أى كَفَّ عن حركته وإقدامه ، فكانَ الدِّينَ كانَ متحرِّكاً مضطرباً فسكن وكف عن ذلك الاضطراب .

\*\*\*

رَوَى أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ الكبير أن رسول الله صلى الله عليه وآله لما مات اجتمعت أسدٌ وغطفانٌ وطَّيٌّ على طُلَيْحَةَ بنِ خُوَيْلِدٍ إلا ما كان من خواصِّ أقوام في الطوائف الثلاث ، فاجتمعت أسدٌ بِسَمِيرَاءَ ، وغطفانٌ بِجَنُوبِ حِطِيبَةَ<sup>(١)</sup> وطَّيٌّ في حدود أرضهم ، واجتمعت ثعلبة بن أسد ومن يليهم من قيس بالأبرق<sup>(٢)</sup> من الرِّبَذَةِ ، وتأشَّب<sup>(٣)</sup> إليهم ناس من بني كنانة ، ولم تحملهم البلاد ، فافترقوا فرقتين : أقامت إحداها بالأبرق ، وسارت الأخرى إلى ذى القَصَّةِ ، وبعثوا وفوداً إلى أبي بكر يسألونه أن يقارهم على إقامة الصلاة ومنع الزكاة ، فعزم الله لأبي بكر على الحق ، فقال : لو مَنَعُونِي عِقَالاً<sup>(٤)</sup> لجاهدتهم عليه . ورجع الوفود إلى قومهم فأخبروهم بقلَّةِ من أهل المدينة ، فأطمعهم فيها وعلم أبو بكر والمسلمون بذلك ، وقال لهم أبو بكر : أيها المسلمون ، إنَّ الأرضَ كافرةٌ ، وقد رأى وفدُهم منكم قِلَّةً ، وإنكم لا تدرُونَ أَلَيْلًا تُؤْتُونَ أم نهاراً ، وأدناهم منكم على بريد ، وقد كان القوم يأملون أن نقبل منهم ونؤادعهم ، وقد أبيننا عليهم ، ونبذنا إليهم ، فأعدُّوا واستمِدُّوا . فخرج على عليه السلام بنفسه ، وكان على نَقَبٍ من أنقاب المدينة ، وخرج الزبير وطاححة وعبد الله بن مسعود وغيرُهم فكانوا على الأنقاب الثلاثة ، فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى طرق القومُ المدينة غارَةً مع الليل ، وخلفوا بعضهم بذى حُسَيٍّ

(١) في الأصول : « طيبة » والصواب ما أثبتته من تاريخ الطبري .

(٢) في الأصول : « الأزرق » ، والصواب ما أثبتته من الطبري .

(٣) تأشَّبوا إليهم : انضموا .

(٤) أراد بالعتال الجبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في إبل الصدقة . وانظر نهاية ابن الأثير .

ليكونوا ردةً لهم ، فوافوا الانقلاب وعليها المسلمون ، فأرسلوا إلى أبي بكر بالخبر ، فأرسل إليهم أن الزموا مكانكم ، ففعلوا ، وخرج أبو بكر في جمعٍ من أهل المدينة على النواضح ، فانتشر العدو بين أيديهم ، واتبعهم المسلمون على النواضح حتى بلغوا ذا حُسى ، فخرج عليهم الكُميين بأنحاء<sup>(١)</sup> قد نثخوها ، وجعلوا فيها الجبال ، ثم دَهْدَهَوْها بأرجلهم في وجوه الإبل ، فتدَّهَدَه<sup>(٢)</sup> كلَّ نِجْىٍ منها في طوله<sup>(٣)</sup> فنفرت إبلُ المسامين ، وهم عليها - ولا تنفر الإبلُ من شيءٍ تفارها من الأنحاء - فعاجت بهم لا يملكونها حتى دخلت بهم المدينة ، ولم يصرع منهم أحدٌ ولم يُصَبْ ، فبات المسلمون تلك الليلة يَتَيْتُون ، ثم خرجوا على تعبئة ، فما طلع الفجرُ إلَّا وهم والقومُ على صعيد واحد ، فلم يَسْمَعُوا للمسلمين حِسًّا ولا هَمْسًا حتى وضعوا فيهم السيف ، فاقتتلوا أحجاز ليلتهم ، فما ذَرَّ قرنُ الشمس إلا وقد وَلَّوا الأدبار وغلَّبوهم على عامة ظهرهم ، ورجعوا إلى المدينة ظافرين<sup>(٤)</sup> .

قلت : هذا هو الحديث الذى أشار عليه السلام إلى أنه نهض فيه أيام أبي بكر . وكأنه جوابٌ عن قول قائل : إنه عمل لأبي بكر ، وجاهد بين يدي أبي بكر ، فبَيَّن عليه السلام عذرَه في ذلك ، وقال : إنه لم يكن كما ظنَّه القائل ، ولكنه من باب دَفْعِ الضرر عن النفس وعن الدين ، فإنه واجبٌ سواء كان للناس إمام أو لم يكن .

\*\*\*

[ ذكر ما طعن به الشيعة في إمامة أبي بكر والجواب عنها ]

ويبينى حيث جرى ذكرُ أبي بكر في كلام أمير المؤمنين عليه السلام أن نذكر ما أورده قاضى القضاة فى "المُنَى" ، من المطاعن التى طُنَّ بها فيه وجواب قاضى القضاة

(١) الأنحاء : جمع نَحْى ، وهو الزق . (٢) دَهْدَهَوْها : دفعوها .

(٣) الطول : الحبل يشد به . (٤) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٤٤ ( طبعة المعارف ) مع تصرف واختصار .

عنها ، واعتراضُ المرتضى في ” الشافي “ ، على قاضي القضاة ، ونذكرُ ما عندنا في ذلك ، ثم نذكر مطاعن أخرى لم يذكرها قاضي القضاة .

\*\*\*

### [ الطعنُ الأول ]

قال قاضي القضاة بعد أن ذكر ما طعن به فيه في أمر فذلك ، وقد سبق القولُ فيه .  
ومما طعن به عليه قولهم : كيف يصلح للإمامة من يُخبر عن نفسه أن له شيطانا يعتريه  
ومن يحذّر الناسَ نفسه ، ومن يقول : « أقبيلوني » بعد دخوله في الإمامة ، مع أنه لا يحلّ  
للإمام أن يقول : أقبيلوني البيعة !

أجاب قاضي القضاة فقال : إن شيخنا أبا عليّ قال : لو كان ذلك نقصا فيه لكان قولُ  
الله في آدمَ وحواءَ : ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقوله : ﴿ فَازْلَمَهُمَا الشَّيْطَانُ ﴾ <sup>(٢)</sup> ،  
وقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، يوجب النقص في الأنبياء . وإذا لم يجب ذلك ، فكذلك ما وصف به أبو بكر  
نفسه ، وإنما أراد أنه عند الغضب يُشفق من المعصية ويحذّر منها ، ويخاف أن يكون  
الشيطان يعتريه في تلك الحال فيؤسّوس إليه ، وذلك منه على طريق الزجر لنفسه عن  
المعاصي ، وقد روى عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه ترك مخالصة الناس في حقوقه إشفافا  
من المعصية ، وكان يولّي ذلك عقيلا ، فلما أسنّ عقيل كان يولّيها عبد الله بن جعفر . فأما  
ما روى في إقالة البيعة فهو خبرٌ ضعيف ، وإن صحّ فالمراد به التنبيه على أنه لا يبالي لأمر  
يرجع إليه أن يُقبله الناسُ البيعة ، وإنما يضرّون بذلك أنفسهم ؛ وكأنه نبه بذلك

(١) سورة الأعراف ٢٠ . (٢) سورة البقرة ٣٦ .

(٣) سورة الحج ٥٢ .

على أنه غير منكروه لهم ، وأنه قد خلاهم وما يريدون إلا أن يعرض ما يوجب خلافه . وقد روي أن أمير المؤمنين عليه السلام أقال عبد الله بن عمر البيعة حين استقاله ، والمراد بذلك أنه تركه وما يختار .

اعترض المرتضى رضي الله عنه فقال: أما قول أبي بكر: « وَلَيْتُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ ، فَإِنْ أَسْتَقَمْتُ فَاتَّبِعُونِي ، وَإِنْ أَعْوَجَجْتُ فَقَوِّمُونِي ، فَإِنِّي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي عِنْدَ غَضَبِي ، فَإِذَا رَأَيْتُمُونِي مَغْضَبًا فَاجْتَنِبُونِي لَا أُؤْثِّرُ فِي أَشْعَارِكُمْ وَأَبْشَارِكُمْ » ، فإنه يدل على أنه لا يصلح للإمامة من وجهين : أحدهما أن هذا صفة من ليس بمعصوم ، ولا يأمن الغلط على نفسه من يحتاج إلى تقويم رعيته له إذا وقع في المعصية ، وقد بينا أن الإمام لا بد أن يكون معصوما موقفا مسددا ، والوجه الآخر أن هذه صفة من لا يملك نفسه ، ولا يضبط غضبه ، ومن هو في نهاية الطيش والحدة والخرق والمجالة . ولا خلاف أن الإمام يجب أن يكون منزها عن هذه الأوصاف ، غير حاصل عليها وليس يشبهه قول أبي بكر ما تلاه من الآيات كلها . لأن أبا بكر خبر عن نفسه بطاعة الشيطان عند الغضب ، وأن عادته بذلك جارية ، وليس هذا بمنزلة من يؤسوس إليه الشيطان ولا يطيعه ، ويزين له القبيح فلا يأتيه ، وليس وسوسة الشيطان بعيب على الموسوس له إذا لم يستزل ذلك عن الصواب ، بل هو زيادة في التكليف ، ووجه يتضاعف معه الثواب ؛ وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ قيل : معناه في تلاوته ؛ وقيل : في فكرته ، على سبيل الخاطر ، وأي الأمرين كان ، فلا عار في ذلك على النبي صلى الله عليه وآله ولا نقص ، وإنما العار والنقص على من يطيع الشيطان ويتبع ما يدعو إليه . وليس لأحد أن يقول : هذا إن سلم لكم في جميع الآيات لم يسلم في قوله تعالى : ﴿ فَازْلَهِمُ الشَّيْطَانَ ﴾ ؛ لأنه قد خبر عن تأثير غوايته ووسوسته بما كان منهما من الفعل . وذلك أن المعنى الصحيح في هذه الآية أن آدم وحواء كانا مندوبين إلى اجتناب الشجرة وترك تناول منها ، ولم يكن ذلك عليهما واجبا لازما ،

لأنّ الأنبياء لا يُخَلِّونَ بالواجب ، فوسوس لها الشيطان حتى تنكأوا من الشجرة ، فتركا مندوبا إليه ، وحرّما بذلك أنفسهما الثواب ، وسماه إزالالا ، لأنّه حطّ لهما عن درجة الثواب وفعل الأفضل ؛ وقوله تعالى في موضع آخر : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ <sup>(١)</sup> لا ينافي هذا المعنى ، لأنّ المعصية قد يُسمّى بها من أخلّ بالواجب والندب معا . قوله : « فغوى » أى خاب من حيث لم يستحقّ الثواب على ما نُدب إليه . على أنّ صاحب الكتاب يقول : إنّ هذه المعصية من آدم كانت صغيرة لا يستحقّ بها عقاباً ولا ذمّاً ، فعلى مذهبه أيضا تكون المفارقة بينه وبين أبى بكر ظاهرة ، لأنّ أبى بكر خبر عن نفسه أنّ الشيطان يعتريه حتّى يؤثّر في الأشعار والأبشار ، ويأتى ما يستحقّ به التقويم ، فأين هذا من ذنب صغير لا ذمّ ولا عقاب عليه ، وهو يجرى من وجه من الوجوه تجرى المباح ، لأنّه لا يؤثّر في أحوال فاعله <sup>(٢)</sup> وحطّ رتبته ؛ وليس يجوز أن يكون ذلك منه على سبيل الخشية والإشفاق على ما ظنّ ، لأنّ مفهوم خطابه يقتضى خلاف ذلك ، ألا ترى أنّه قال : « إنّ لى شيطاناّ يعتريى » وهذا قول من قد عرّف عادته ، ولو كان على سبيل الإشفاق والخوف لخرج عن هذا المخرج ، ولكان يقول : فإنّى لا آمن من كذا وإنّى لمشفق منه . فأما ترك أمير المؤمنين عليه السلام خاصمة الناس في حقوقه فكانّه إنّما كان تنزّها وتكرّما ؛ وأى نسبة بين ذلك وبين من صرّح وشهد على نفسه بما لا يليق بالأئمة ! وأمّا خبر استقالة البيعة وتضعيف صاحب الكتاب له فهو أبدا يضعف ما لا يوافقه من غير حجة يعمدها في تضعيفه . وقوله : إنّّه ما أستقال على التحقيق ، وإنّما نبّه على أنّه لا يبالى بخروج الأمر عنه ، وأنّه غير مكره لهم عليه ؛ فبعيد من الصواب ؛ لأنّ ظاهر قوله « أقيلونى » أمرٌ بالإقالة ، وأقلّ أحواله أن يكون عرضا لها وبذلا ، وكلا الأمرين قبيح . ولو أراد ما ظنّه لكان له

---

(١) سورة طه ١٢١ . (٢) الشافى : « حال فاعله » .

في غير هذا القول مندوحة ، ولكان يقول : إني ما أكرهتكم ولا حَمَلْتُكم على مبايعتي ، وما كنتُ أبالي ألا يكون هذا الأمر في ولا إليّ ، وإنّ مفارقتَه لتسرّني لولا ما أزمينيه الدخولُ فيه من التمسك به ، ومتى عدَلنا عن ظواهر الكلام بلا دليل ، جرّ ذلك علينا ما لا رَقبَل لنا به . وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام فإنّه لم يُقل ابنَ عمر البَيعة بعد دُخولها فيها وإنّما استعفاه من أن يُلزمه البَيعة ابتداءً فأعفاه قلة فكر فيه ، وعلماً بأنّ إمامته لا تثبتُ بمبايعة من يُبايعه عليها ، فأين هذا من أَسْئالة بَيعة قد تقدّمت وأُستقرّت (١) !

\*\*\*

قلت : أمّا قولُ أبي بكر : « وَلَيْتُكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ » فقد صدّق عند كثير من أصحابنا ؛ لأنّ خيرهم على بنُ أبي طالب عليه السلام ، ومن لا يقول بذلك يقول بما قاله الحسن البصريّ : والله إنّ له ليمعلم أنّه خيرهم ، ولكنّ المؤمن يَهْضِم نفسه . ولم يطمئن المرتضى فيه بهذه اللفظة لنطيل القول فيها . وأمّا قولُ المرتضى عنه إنّ قال : « فَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي عِنْدَ غَضَبِي » ، فالشهور في الرواية : « فَإِنَّ لِي شَيْطَانًا يَعْتَرِينِي » (٢) ، قال المفسرون : أراد بالشيطان الغضب وسماه شيطانا على طريق الاستعارة ، وكذا ذكره شيخنا أبو الحسين في « الفرار » . قال معاوية للإنسان غَضِبَ في حَضْرته فتكلّم بما لا يتكلّم بمثله في حضرة الخلفاء : اربّع على ظلمك (٣) أيها الإنسان ، فإنّما الغضب شيطان ، وإنّا لم نقل إلا خيراً .

وقد ذكر أبو حمزة محمد بن جرير الطبري في « كتاب التاريخ الكبير » خطبتي أبي بكر عقيبَ بَيعته بالسقيفة ، ونحن نذكرها نقلاً من كتابه ، أمّا الخطبة الأولى فهي :

(١) الشافعي ٤١٥ ، ٤١٦ . (٢) أي من غير ذكر لفظ « عند الغضب » .

(٣) اربّع على نفسك ؛ أي توقف .

أما بعد أيها الناس ، فَإِنِّي وَلَيْتَكُمْ وَلَسْتُ بِمُخَيِّرِكُمْ ، فَإِن أَحْسَنْتُمْ فَأَعِينُونِي ، وَإِن أَسَأْتُ فِقْوُومُونِي ، لَأَنَّ الصَّدَقَ أَمَانَةٌ ، وَالْكَذِبَ خِيَانَةٌ ، الضَّعِيفُ مِنْكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ ، وَالْقَوِيُّ مِنْكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى أَخَذَ الْحَقُّ مِنْهُ ، لَا يَدْعُ قَوْمَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرْبَهُمُ اللَّهُ بِالذِّلَّةِ ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ . أَطِيعُونِي مَا أَمَرْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ : قَوْمُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ رَحِمَكُمُ اللَّهُ .

وَأما الْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ فَهِيَ : أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا مِثْلَكُمْ ، وَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلَّكُمْ سَتَكْفُونَنِي مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يُطِيقُهُ <sup>(١)</sup> . إِنْ اللَّهُ أَصْطَفَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَعَصَمَهُ مِنَ الْآفَاتِ ، وَإِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُتَّبِوعٍ ، فَإِنِ اسْتَقَمْتُ فَاتَّبِعُونِي ، وَإِن زُغْتُ فِقْوُومُونِي ، وَإِن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرِضَ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَطْلُبُهُ بِمُظْلَمَةٍ ضَرْبَةٍ سَوْطِهَا دُونَهَا . أَلَا وَإِن لِي شَيْطَانًا يَمْتَرِينِي ، فَإِذَا غَضِبْتُ فَأَجْتَنِبُونِي لَا أُؤْثِّرَ فِي أَسْعَارِكُمْ وَأُبْشَارِكُمْ . أَلَا وَإِنَّكُمْ تَعْدُونَ وَتَرُوحُونَ فِي أَجَلٍ قَدْ غَيْبَ عَنْكُمْ عِلْمُهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَلَّا يَمْضِيَ هَذَا الْأَجَلُ إِلَّا وَأَنْتُمْ فِي عَمَلٍ صَالِحٍ فَافْعَلُوا ، وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا ذَلِكَ إِلَّا بِاللَّهِ . فَسَابِقُوا فِي مَهَلِ آجَالِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُسَلِّمَ آجَالُكُمْ إِلَى انْقِطَاعِ الْأَعْمَالِ ، فَإِنَّ قَوْمًا نَسُوا آجَالَهُمْ ، وَجَمَلُوا أَعْمَالَهُمْ لِغَيْرِهِمْ ، فَأَمَّا هَؤُلَاءِ أَنْ تَكُونُوا أَمْثَالَهُمْ . الْجَدُّ الْجَدُّ ! الْوَحَا الْوَحَا ! فَإِنَّ وَرَاءَكُمْ طَالِبًا حَاشِيًا ، أَجَلُهُ <sup>(٢)</sup> مَرَّةً سَرِيعَةً . احْذَرُوا الْمَوْتَ ، وَاعْتَبَرُوا بِالْآبَاءِ وَالْأَبْنَاءِ وَالْإِخْوَانِ ، وَلَا تَغْبِطُوا الْأَحْيَاءَ إِلَّا بِمَا يُغْبِطُ بِهِ الْأَمْوَاتُ <sup>(٣)</sup> .

إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَّا مَا يُرَادُ بِهِ وَجْهُهُ ، فَارِيدُوا وَجْهَ اللَّهِ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَاعْلَمُوا

(١) الطبري : « يطيق » .

(٢) الطبري : « أجلا » . (٣) إلى هنا في الطبري نهاية الخبة ؛ وما بعدها من خطبة أخرى ..

أَنَّمَا أَخْلَصْتُمْ لِّلَّهِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَلطَاعَةً أَتَيْتُمُوهَا ، وَحَظَّ ظَفَرُكُمْ بِهِ ، وَضَرَائِبَ أَدَيْتُمُوهَا ،  
 وَسُلْفٍ قَدْ مَتَمُّوهُ مِنْ أَيَّامٍ فَانِيَةٍ لِأُخْرَى بَاقِيَةٍ ، لِحِينَ فَقَرَكُم وَحَاجَتِكُمْ ؛ فَاعْتَبَرُوا عِبَادَ اللَّهِ بِمَنْ  
 مَاتَ مِنْكُمْ ، وَتَفَكَّرُوا فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ أَيْنَ كَانُوا أَمْسَ وَأَيْنَ هُمْ الْيَوْمَ ! أَيْنَ الْجَبَّارُونَ ؟  
 أَيْنَ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ ذِكْرُ الْقِتَالِ وَالْعَلْبَةِ فِي مَوَاطِنِ الْحَرْبِ ! قَدْ تَضَعُضَعُ بِهِمُ الدَّهْرُ ، وَصَارُوا  
 رَمِيماً ، قَدْ تَرُكْتَ عَلَيْهِمُ الْقَالَاتِ الْخَبِيثَاتِ ، وَإِنَّمَا الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ .  
 وَأَيْنَ الْمُلُوكُ الَّذِينَ أَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا ! قَدْ بَمَدُّوا بِسَيِّئِ ذِكْرِهِمْ ، وَبَقِيَ ذِكْرُهُمْ  
 وَصَارُوا كَلَّاشِئ . أَلَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْقَى عَلَيْهِمُ التَّيْبِعَاتِ ، وَقَطَّعَ عَنْهُمْ الشَّهَوَاتِ وَمَضَوُا  
 وَالْأَعْمَالُ أَعْمَالُهُمْ ، وَالدُّنْيَا دُنْيَا غَيْرِهِمْ ، وَبَقِينَا خَلْفًا مِنْ بَعْدِهِمْ ، فَإِنْ نَحْنُ اعْتَبَرْنَا بِهِمْ  
 نَجُوتُنَا ، وَإِنْ اغْتَرَدْنَا كُنَّا مِثْلَهُمْ . أَيْنَ الْوَضَاءُ <sup>(١)</sup> الْحَسَنَةُ وَجُوهُهُمْ ، الْمُعْجَبُونَ بِشَبَابِهِمْ !  
 صَارُوا تُرَاباً ، وَصَارَ مَا فَرَطُوا فِيهِ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ ، أَيْنَ الَّذِينَ بَنُوا الْمَدَائِنَ وَحَصَّنُوهَا بِالْحَوَائِطِ ،  
 وَجَمَلُوهَا فِيهَا الْعَجَائِبَ ، وَتَرَكُوهَا لِمَنْ خَلَفَهُمْ أَفْثَكَ مَسَاكُنُهُمْ خَاوِيَةً ، وَهُمْ فِي ظُلَمِ  
 الْقُبُورِ ، ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ <sup>(٢)</sup> . أَيْنَ مَنْ تَعْرِفُونَ مِنْ  
 آبَائِكُمْ وَإِخْوَانِكُمْ ! قَدْ انْتَهَتْ بِهِمْ آجَالُهُمْ فَوَرَدُوا عَلَى مَا قَدَّمُوا عَلَيْهِ ، وَأَقَامُوا لِلشَّقْوَةِ  
 وَلِلسَّعَادَةِ . أَلَا إِنَّ اللَّهَ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ سَبَبٌ يُعْطِيهِ بِهِ  
 خَيْرًا ، وَلَا يَصْرِفُ عَنْهُ بِهِ شَرًّا إِلَّا بِطَاعَتِهِ وَاتِّبَاعِ أَمْرِهِ ، وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِبَادُ مَدِينُونَ ،  
 وَأَنَّ مَا عِنْدَهُ لَا يُدْرِكُ إِلَّا بِتَقْوَاهُ وَعِبَادَتِهِ . أَلَا وَإِنَّهُ لَا خَيْرَ بِخَيْرِ بَعْدِهِ النَّارِ وَلَا شَرٍّ بِشَرِّ  
 بَعْدَهُ الْجَنَّةِ <sup>(٣)</sup> .

فَهَذِهِ خُطْبَتَا أَبِي بَكْرٍ يَوْمَ السَّقِيْفَةِ ، وَالْيَوْمَ الَّذِي يَلِيهِ ، إِنَّمَا قَالَ : « إِنَّ لِي شَيْطَانًا  
 يَمْتَرِيَنِي ، وَأَرَادَ بِالشَّيْطَانِ الْغَضَبَ ، وَلَمْ يُرَدَّ أَنْ لَهُ شَيْطَانًا مِنْ مَرَدَةِ الْجَنِّ يَعْتَرِيهِ إِذَا

(١) الوضاء : ذوو الوضاعة والحسن . (٢) سورة مريم : ٩٨ .

(٣) تاريخ الطبري ٣ : ٢٢٣ ، ٢٢٥



غضب فالزيادة فيما ذكره المرتضى في قوله : « إن لي شيطانا يعتريني عند غضبي » ، تحريف لا محالة ، ولو كان له شيطان من الجنّ يعتاده وينوبه لكان في عداد المصروعين من المجانين ، وما ادّعى أحد على أبي بكر هذا لا من أوليائه ولا من أعدائه ؛ وإنما ذكرنا خطبته على طولها والمراد منها كلمة واحدة ؛ لما فيها من الفصاحة والموعظة على عادتنا في الاعتناء بإيداع هذا الكتاب ما كان ذاهباً هذا المذهب ، وسالكا هذا السبيل .

فأما قول المرتضى : « فهذه صفة من ليس بمعصوم » ، فالأمر كذلك والعصمة عندنا ليست شرطاً في الإمامة ولولم يدل على عدم اشتراطها ؛ إلا أنه قال على المنبر بحضور الصحابة هذا القول ، وأقروا على الإمامة - لكن في عدم كون العصمة شرطاً ، لأنه قد حصل الإجماع على عدم اشتراط ذلك ، إذ لو كان شرطاً لأنكر منكر إمامته كما لو قال : إنّي لا أصبر عن شرب الخمر وعن الزنى .

فأما قوله : « هذه صفة طائش لا يملك نفسه » ، فلمعنى إن أبا بكر كان حديداً ه وذكره عمر بذلك ، وذكره غيره من الصحابة بالجدّة والسرعة ؛ ولكن لا بحيث أن تبطل به أهليته للإمامة ؛ لأن الذي يبطل الإمامة من ذلك وما يخرج الإنسان عن العقل ، وأما ما هو دون ذلك فلا . وليس قوله : « فأجتنبوني لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم » محمول على ظاهره ، وإنما أراد به المبالغة في وصف القوة الغضبية عنده ، وإلا فما سمعنا ولا نقلناقل من الشيعة ولا من غير الشيعة أن أبا بكر في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله ولا في الجاهلية ولا في أيام خلافته أحتد على إنسان فقام إليه فصر به بيده ومزق شعره . فأما ما حكاه قاضي القضاة عن الشيخ أبي علي من تشبيه هذه اللفظة بما ورد في القرآن ؛ فهو على تقدير أن يكون أبو بكر عني الشيطان حقيقة . وما أعترض به المرتضى ثانية عليه غير لازم ، لأن الله تعالى قال : ﴿ فَوَسَّوْا لَهُمُ الشَّيْطَانُ ﴾ ، وتمتّب ذلك قبولها

وسوسته ، وأكلهما من الشجرة ، فكيف يقول المرتضى : ليس قول أبي بكر بمنزلة مَنْ وَسَّوسَ لَهُ الشَّيْطَانُ فَلَمْ يُطِعْهُ ! وكذلك قوله تعالى في قصة موسى لما قَتَلَ الْقَبْطِيَّ : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴾ ، وكذلك قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا ﴾ ، وقوله : ﴿ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ ﴾ ، وما ذهب إليه المرتضى من التأويلات مبني على مذهبه في العصمة الكلية ، وهو مذهب يحتاج في نُصْرَتِهِ إلى تَكْلَافٍ شَدِيدٍ وَتَمَسُّفٍ عَظِيمٍ فِي تَأْوِيلِ الْآيَاتِ ؛ عَلَى أَنَّهُ إِذَا سُلِّمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَلْقَى فِي تِلَاوَةِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَا لَيْسَ مِنَ الْقُرْآنِ حَتَّى ظَنَّهُ السَّامِعُونَ كَلَامًا مِنَ كَلَامِ الرَّسُولِ ، فَقَدْ نَقَضَ دَلَالَةَ التَّنْفِيرِ الْمُقْتَضِيَةَ عِنْدَهُ فِي الْعِصْمَةِ ، لِأَنَّهُ لَا تَنْفِيرَ عِنْدَهُ أَبْلَغَ مِنْ تَمْكِينِ اللَّهِ الشَّيْطَانَ أَنْ يَخْلِطَ كَلَامَهُ بِكَلَامِهِ ، وَرَسُولُهُ يُؤْذِيهِ إِلَى الْمَكَلَّفِينَ حَتَّى يَمْتَقِدَ السَّامِعُونَ كَلِمَهُمْ أَنَّ السَّكَامِينَ كَلَامٌ وَاحِدٌ .

وأما قوله : إِنْ آدَمَ كَانَ مَنَّادًا إِلَى آلَا يَأْكُلُ مِنَ الشَّجَرَةِ لَا مَحْرَمَ عَلَيْهِ أَكْلُهَا ، وَلَفْظَةُ « عَصَى » إِنَّمَا الْمُرَادُ بِهَا خَالَفَ الْمُنْدُوبَ <sup>(١)</sup> ، وَلَفْظَةُ « غَوَى » ؛ إِنَّمَا الْمُرَادُ « خَابَ » مِنْ حَيْثُ لَمْ يَسْتَحِقَّ الثَّوَابَ عَلَى اعْتِمَادِ مَا نُدِبَ إِلَيْهِ ؛ فَقَوْلُهُ يَدْفَعُهُ ظَاهِرُ الْآيَةِ ، لِأَنَّ الصَّيْغَةَ صَيْغَةُ النَّهْيِ ، وَهِيَ قَوْلُهُ : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ وَالنَّهْيُ عِنْدَ الْمُرْتَضَى يَقْتَضِي التَّحْرِيمَ لَا مَحَالَةَ ، وَلَيْسَ الْأَمْرُ الَّذِي قَدْ يَرَادُ بِهِ التَّدْبِيرُ ، وَقَدْ يَرَادُ بِهِ الْوُجُوبُ .

وَأَمَّا قَوْلُ شَيْخِنَا أَبِي عَلِيٍّ : إِنْ كَلَامَ أَبِي بَكْرٍ خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِسْفَاقِ وَالْحَذَرِ مِنَ الْمَعْصِيَةِ عِنْدَ الْغَضَبِ فَجَيِّدٌ .

وَأَعْتَاضَ الْمُرْتَضَى عَلَيْهِ بِأَنَّهُ لَيْسَ ظَاهِرُ اللَّفْظِ ذَاكَ غَيْرُ لَازِمٍ ، لِأَنَّ هَذِهِ عَادَةُ الْعَرَبِ ، يَمْتَرُونَ عَنِ الْأَمْرِ بِمَا هُوَ مِنْهُ بِسَبَبٍ وَسَبِيلٍ ، كَقَوْلِهِمْ : لَا تَدْنُ مِنَ الْأَسَدِ فَيَأْكُلُكَ ، فَلَيْسَ أَنَّهُمْ قَطَعُوا عَلَى الْأَكْلِ عِنْدَ الدَّنْوِ ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ الْحَذَرُ وَالْخَوْفُ وَالتَّوَقُّعُ لِلْأَكْلِ عِنْدَ الدَّنْوِ .

وأما الكلام في قوله : « أقيلوني » ، فلو صحَّ الخبرُ لم يكن فيه مطعن عليه ، لأنه إنما أراد في اليوم الثاني اختبارَ حالهم في البيعة التي وقعت في اليوم الأول ليعلم وليَّه من عدوِّه منهم ؛ وقد روى جميعُ أصحاب السَّير أنَّ أميرَ المؤمنين خطب في اليوم الثاني من بيئته فقال : أيُّها النَّاسُ ؛ إنَّكم بايعتموني على السمع والطاعة ، وأنا أعرض اليوم عليكم ما دعوتموني إليه أمس ، فإنَّ أجبتُم قعدتُ لكم ، وإلا فلا أجد على أحد . وليس بجيد قولُ المرتضى : إنه لو كان يريدُ العرضَ والبذلَ لكان قد قال كذا وكذا ، فإنَّ هذه مُضايقة منه شديدةٌ للألفاظ ، ولو شرعنا في مثل هذا لفسد أكثرُ ما يتكلم به الناس . على أنَّنا لو سلمنا أنه استقالهم البيعةَ حقيقةً ، فلم قال المرتضى : إنَّ ذلك لا يجوز ؟ أليس يجوز للقاضي أن يستقيل من القضاء بعد توليته<sup>(١)</sup> إِيَّاه ، ودخوله فيه ! فكذلك يجوز للإمام أن يستقيل من الإمامة إذا انس من نفسه ضعفاً عنها ، أو انس من رعيته نبوةً عنه ، أو أحسَّ بفساد ينشأ في الأرض من جهة ولايته على الناس ؛ ومنَّ يذهب إلى أن الإمامة تكون بالاختيار كيف يمنع من جواز استقالة الإمام وطلبه إلى الأمة أن يختاروا غيره لعدوِّه يعلمه من حال نفسه ! وإنما يمنع من ذلك المرتضى وأصحابه القائلون بأنَّ الإمامة بالنصِّ ، وإنَّ الإمام محرَّم عليه ألا يقوم بالإمامة ، لأنه مأمور بالقيام بها لتعيينه خاصةً دون كلِّ أحدٍ من المكلفين . وأصحاب الاختيار يقولون : إذا لم يكن زيد إماماً كان عمرٌو إماماً عوضه ، لأنهم لا يعتبرون الشروط التي يعتبرها الإمامية من العصمة ، وأنه أفضل أهل عصره وأكثرهم ثواباً وأعلمهم وأشجعهم ، وغير ذلك من الشروط التي تقتضي تفرده وتوحيده بالأمر ، على أنه إذا جاز عندهم أن يترك الإمام الإمامة في الظاهر كما فعله الحسن ، وكما فعله غيره من الأئمة بعد الحسين عليه السلام للتقية ، جاز للإمام

---

(١) كذا في أو د ، وب : « توليه » .

على مذهب أصحاب الاختيار أن يترك الإمامة ظاهراً وباطناً لمُذَرِّ يَعْلَمُهُ من حال نفسه أو حال رعيته .

\*\*\*

### الطعن الثاني

قال قاضي القضاة بعد أن ذكر قول عمر : « كانت بيعة أبي بكر فُلْتَنَة » - وقد تقدّم منا القول في ذلك في أوّل هذا الكتاب : ومما طعنوا به على <sup>(١)</sup> أبي بكر أنه قال عند موته : ليتني كنتُ سألتُ رسول الله صلى الله عليه وآله عن ثلاثة ، فذكر في أحدها : ليتني كنتُ سألتُهُ : هل للأُنصار في هذا الأمر حقٌّ ؟ قالوا ، وذلك يدلّ على شكّه في صحة بيعته ، وربما قالوا : قد رُوِيَ أنه قال في مرّاضه : ليتني كنتُ تركتُ بيت فاطمة لم أَلْ كُشِفْهُ ، وليتني في ظُلّة بنى ساعدة كنتُ : ضربتُ على [ يَدِ ] <sup>(٢)</sup> أحد الرّجلين ، فكان هو الأمير ، وكنتُ الوزير . قالوا : وذلك يدلّ على ما رُوِيَ من إقدامه على بيت فاطمة عليها السلام عند اجتماع عليّ عليه السلام والزيّير وغيرهما فيه ، ويدلّ على أنه كان يرى الفضل لغيره لا لنفسه .

قال قاضي القضاة : والجوابُ أنّ قوله : « ليتني » لا يدلّ على الشكّ فيما تمّناه ، وقول إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لَيْظَمَ لِي قَلْبِي ﴾ <sup>(٣)</sup> أقوى من ذلك في الشبهة . ثمّ حمل تمنّيه على أنه أراد سماع شيء مفصّل ، أو أراد : ليتني سألتُهُ عند الموت ، لقرب العهد ، لأنّ ما قرّب عهده لا يُنسى ويكونُ أَرْدَعَ للأُنصار على ما حاولوه . ثمّ قال : على أنه ليس في ظاهره أنه تمنّى أن

(١) ب : « في » . (٢) تكملة من كتاب الشافي .

(٣) سورة البقرة ٦٢ .

يسأل : هل لهم حق في الإمامة أم لا ؟ لأن الإمامة قد يتعلق بها حقوق سواها . ثم دفع الرواية المتعلقة ببیت فاطمة عليها السلام ، وقال : فأما تمنّيه أن يبايع غيره ؛ فلو ثبت لم يكن ذمّاً لأن من اشتدّ التكليف عليه فهو يتمنى خلافه <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

اعترض المرتضى رحمه الله هذا الكلام فقال : ليس يجوز أن يقول أبو بكر : « ليتني كنت سألت عن كذا » . إلا مع الشكّ والشبهة ، لأنّ مع العلم واليقين <sup>(٢)</sup> لا يجوز مثلاً هذا القول ، هكذا يقتضى الظاهر ، فأما قول إبراهيم عليه السلام ، فإنما سأغ أن يعدل عن ظاهره لأنّ الشكّ لا يجوز على الأنبياء ، ويجوز على غيرهم ؛ على أنه عليه السلام قد نفي عن نفسه الشكّ بقوله : ﴿ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ ، وقد قيل : إن مُرَوِّدَ قال له : إذا كنت تزعم أن لك ربّاً يُحيي الموتى فاسأله أن يُحيي لنا ميتاً إن كان على ذلك قادراً ، فإن لم تفعل ذلك قتلتك ، فأراد بقوله : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ ، أي لآمنَ تَوَعَّدَ عدوك لي بالقتل . وقد يجوز أن يكون طلب ذلك لقومه وقد سألوه أن يرغب إلى الله تعالى فيه فقال : ليطمئن قلبي إلى إجابتك لي ، وإلى إزاحة علة قومي ، ولم يرد : ليطمئن قلبي إلى أنك تقدر على أن تُحيي الموتى ؛ لأنّ قلبه قد كان بذلك مطمئناً ؛ وأى شيء يريد أبو بكر من التفضيل أكثر من قوله : « إنّ هذا الأمر لا يصلح إلا لهذا الحيّ من خريش » ! وأى فرق بين ما يقال عند الموت وبين ما يقال قبله إذا كان محفوظاً معلوماً ، لم تُرفع كلمة ولم تُنسخ !

وبعد ، فظاهر الكلام لا يقتضى <sup>(٣)</sup> هذا التخصيص ، ونحن مع الإطلاق والظاهر . وأى حقّ يجوز أن يكون للأنصار في الإمامة غير أن يتولاهما رجل منهم حتى يجوز أن يكون الحقّ الذي تمنّى أن يسأل عنه غير الإمامة ! وهل هذا إلا تَمَسُّفٌ وتكفُّفٌ !

(١) نقله المرتضى في الشافعي ١٩٤ . (٢) الشافعي : « اليقين » . (٣) ١ : « يقضي » .

وأى شبهة تبقى بعد قول أبي بكر : ليتنى كنتُ سألتُه : هل للأُتُصار في هذا الأمر حقٌّ فكنا لا ننازعه أهله ؟ ومعلومٌ أنَّ التنازع لم يقع بينهم إلا في الإمامة نفسها ، لا في حقِّ آخر من حقوقها .

فأما قوله : إنَّا قد بينا أنه لم يكن منه في بيت فاطمة ما يُوجب أن يتمنى أنه لم يفعله ؛ فقد بينا فساد ما ظنَّه فيما تقدم .

فأما قوله : إنَّ من اشتدَّ التكليفُ عليه قد يتمنى خلافه ؛ فليس بصحيح ؛ لأنَّ ولاية أبي بكر إذا كانت هي التي اقتضاها الدين ، والنظر للمسلمين في تلك الحال وما عداها كان مفسدة ، ومؤدياً إلى الفتنة ، فالتَّمتُّي لخلافها لا يكون إلا قبيحاً <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

قلت : أما قول قاضي القضاة : إنَّ هذا التَّمتُّي لا يقتضي الشكَّ في أن الإمامة لا تكون إلَّا في قریش ، كما أن قول إبراهيم : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ ، لا يقتضي الشكَّ في أنه تعالى قادرٌ على ذلك فجيد .

فأما قول المرتضى : إنَّما ساعَ أن يُمدَّل عن الظاهر في حقِّ إبراهيم لأنه نبيٌّ معصوم لا يجوز عليه الشك ؛ فيقال له : وكذلك ينبغي أن يُمدَّل عن ظاهر كلام أبي بكر ، لأنه رجلٌ مُسلم عاقل ، فحسنُ الظنِّ به يقتضي صيانة أفعاله وأقواله عن التناقض . قوله : إنَّ إبراهيم قد نفى عن نفسه الشك بقوله : « بلى ولكن ليطمئن قلبي » قلنا : إنَّ أبا بكر قد نفى عن نفسه الشكَّ بدفع الأُتُصار عن الإمامة وإثباتها في قریش خاصة ، فإن كانت لفظة « بلى » دافعةً لشكِّ إبراهيم الذي يقتضيه قوله : ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ ، ففعل أبي بكر وقوله يوم السَّقيفة

(١) الشَّائ ٤١٩ ، وفي د : « إلانسا » .

يَدْفَعُ الشَّكَّ الَّذِي يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ : « لَيْتَنِي سَأَلْتُهُ » ، وَلَا فَرْقَ فِي دَفْعِ الشَّكِّ بَيْنَ أَنْ يَتَقَدَّمَ الدَّفْعُ أَوْ يَتَأَخَّرَ أَوْ يُقَارَنَ .

ثمَّ يُقَالُ لِلْمُرْتَضَى : أَلَسْتَ فِي هَذَا الْكِتَابِ - وَهُوَ « الشَّافِي » - بِبَنْتٍ<sup>(١)</sup> أَنْ قِصَّةَ السَّقِيْفَةِ لَمْ يَجْرِ فِيهَا ذِكْرُ نَصٍّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِأَنَّ الْأَثَمَةَ مِنْ قُرَيْشٍ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا احْتِجَاجُ أَبِي بَكْرٍ وَعَمَرَ بِأَنَّ قُرَيْشًا أَهْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَعَشِيرَتُهُ ، وَأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَطِيعُ غَيْرَ قُرَيْشٍ ؛ وَذَكَرَتْ عَنِ الزَّهْرِيِّ وَغَيْرِهِ أَنَّ الْقَوْلَ الصَّادِرَ عَنْ أَبِي بَكْرٍ : إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَصْلَحُ إِلَّا لِهَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ ، لَيْسَ نَصًّا مَرُورِيًّا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَإِنَّمَا هُوَ قَوْلُهُ قَالَ أَبُو بَكْرٍ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ ، وَرَوَيْتُ فِي ذَلِكَ الرِّوَايَاتِ ، وَنَقَلْتُ مِنَ الْكُتُبِ مِنْ تَارِيخِ الطَّبَرِيِّ وَغَيْرِهِ صُورَةَ الْكَلَامِ وَالْجِدَالَ الدَّائِرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَنْصَارِ ! فَإِذَا كَانَ هَذَا قَوْلُكَ فَلِمَ تَسْكُرُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ قَوْلُهُ : لَيْتَنِي كُنْتُ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ لِلْأَنْصَارِ فِي هَذَا الْأَمْرِ حَقٌّ ! لِأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْ النَّصَّ وَلَا رَوَاهُ وَلَا رَوَى لَهُ ؛ وَإِنَّمَا دَفَعَ الْأَنْصَارَ بَنُو عَمٍّ مِنَ الْجِدَالِ ؛ فَلَا جَرَمَ بَقِيَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ ، وَقَالَ عِنْدَ مَوْتِهِ : لَيْتَنِي كُنْتُ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . وَلَيْسَ ذَلِكَ حَمَا يَقْتَضِي شَكَّكَ فِي بَيْعَتِهِ كَمَا زَعَمَ الطَّاعِنُ ، لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَشْكُ فِي بَيْعَتِهِ لَوْ كَانَ قَالَ قَائِلُ أَوْ ذَهَبَ ذَاهِبٌ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَةَ لَيْسَتْ إِلَّا فِي الْأَنْصَارِ ، وَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ ذَلِكَ ، بَلِ النِّزَاعُ كَانَ فِي : هَلِ الْإِمَامَةُ مَقْصُورَةٌ عَلَى قُرَيْشٍ خَاصَّةً ، أَمْ هِيَ فَوْضَى بَيْنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ؟ وَإِذَا كَانَتْ الْحَالُ هَذِهِ لَمْ يَكُنْ شَاكًّا فِي إِمَامَتِهِ وَبَيْعَتِهِ بِقَوْلِهِ : « لَيْتَنِي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « هَلْ لِلْأَنْصَارِ فِي هَذَا حَقٌّ ؟ » لِأَنَّ بَيْعَتَهُ عَلَى كِلَا التَّقْدِيرَيْنِ تَكُونُ صَحِيحَةً .

(١) فِي د « أُبْنِت » .

فأما قولُ قاضي القضاة : لعله أراد حقاً للأنصار غير الإمامة نفسها ؛ فليس بجيد ، والذي اعترضه به المرتضى جيد ، فإن الكلام لا يدلّ إلا على الإمامة نفسها ، ولفظة المنازعة تؤكد ذلك .

وأما حديث المهجوم على بيت فاطمة عليها السلام فقد تقدّم الكلام فيه ، والظاهرُ عندى صحة ما يرويه المرتضى والشيعة ، ولكن لا كلّ ما يزعمونه ، بل كان بعض ذلك ، وحقّ لأبي بكر أن يندم ويتأسّف على ذلك ، وهذا يدلّ على قوة دينه وخوفه من الله تعالى ، فهو بأن يكون منقبة<sup>(١)</sup> له أولى من كونه طمنا عليه .

فأما قولُ قاضي القضاة : إنّ من اشتدّ التكليفُ عليه فقد يتمنى خلافه واعتراضُ المرتضى عليه ، فكلام قاضي القضاة أصحّ وأصوب ، لأنّ أبا بكر - وإن كانت ولايته مصلحةً وولايةً غيره مفسدة - فإنّه ما يتمنى أن يكون الإمامُ غيره ، مع استلزام ذلك للمفسدة ، بل تمنّى أن يلى الأمرَ غيره وتكون المصلحةُ بحالها ، ألا ترى أنّ خصال الكفارة في اليمين كلّ واحدة منها مصلحة ، وما عداها لا يقوم مقامها في المصلحة ، وأحدها يقوم مقام الأخرى في المصلحة ! فأبو بكر تمنّى أن يلى الأمرُ عمر أو أبو عبيدة بشرطٍ أن تكون المصلحة الدينية التي تحصل من بيعته حاصلةً من بيعة كلّ واحدٍ من الآخرين .

\*\*\*

### الظمن الثالث

قالوا : إنّهُ ولّى عمرَ الخلافة ، ولم يولّه رسولُ الله صلّى الله عليه وآله شيئاً

(١) منقبة ؛ أى مفضرة .



من أعماله البتة إلا ما ولّاه يوم خيبر ، فرجع منهزماً وولّاه الصدقة ، فلمّا شكاه العباس عزّله .

أجاب قاضي القضاة بأن تركه عليه السلام أن يولّيه لا يدلّ على أنّه لا يصلح لذلك ، وتوليّته إياه لا يدلّ على صلاحيّته للإمامة ، فإنّه صلى الله عليه وآله قد ولّى خالد بن الوليد وعمر بن العاص ، ولم يدلّ ذلك على صلاحيّتهما للإمامة ، وكذلك تركه أن يولّى لا يدلّ على أنّه غير صالح ، بل المعتبر بالصفات التي تصلح للإمامة ، فإذا كملت صلح لذلك ، ولّى من قبل أو لم يولّ ، وتثبت أنّ النبي صلى الله عليه وآله ترك أن يولّى أمير المؤمنين عليه السلام أموراً كثيرة ولم يجب إلا من يصلح لها ، وثبت أن أمير المؤمنين عليه السلام لم يولّ الحسين عليه السلام أبنته ، ولم يمنع ذلك من أن يصلح للإمامة . وحكى عن أبي عليّ أنّ ذلك إنما كان يصحّ أن يتعلق به لو ظفروا بتقصير من عمر فيما تولّاه ، فأما وأحواله معروفة في قيامه بالأمر حين يمجّز غيره ، فكيف يصحّ ما قالوه ! وبعد فهلاّ دلّ ما روى من قوله : وإن تولّوا عمر تجدوه قوياً في أمر الله ، قوياً في بدنه على جواز ذلك ! وإن ترك النبي صلى الله عليه وآله تولّيته ، لأنّ هذا القول أقوى من الفعل (١) .

اعترض المرتضى رحمه الله فقال : قد علمنا بالعادة أنّ من ترشّح لكبار الأمور لا بدّ من أن يدرّج إليها بصغارها ، لأنّ من يريد بعض الملوك تأهيله للأمر من بعده لا بدّ من أن يلبّيه عليه بكلّ قول وفعل يدلّ على ترشيحه لهذه المنزلة ، ويستكفيه من أمور ولاياته (٢) ما يعلم عنده أو يغلب على ظنه صلاحه لما يريدّه له . وإن من يرى الملك مع حضوره وامتداد الزمان وتطاوُلُه لا يستكفيه شيئاً من الولايات ، ومتى ولّاه عزّله ؛ وإنما يولّى غيره ويستكفي سواه ، لا بدّ أن يغلب في الظنّ أنه ليس بأهلٍ للولاية ، وإن جوزنا أنّه لم يولّه لأسباب كثيرة سوى أنّه لا يصلح للولاية ، إلّا أنّ مع هذا التجويز لا بدّ أن

(١) نقله المرتضى في الشافي ٤١٩ . (٢) الشافي : من أموره ولاياته .

يَغْلِبُ عَلَى الظَّنِّ بِمَا ذَكَرْنَاهُ . فَأَمَّا خَالِدٌ وَعَمْرُوٌّ فَإِنَّمَا لَمْ يَصْلُحَا لِلْإِمَامَةِ لِفَقْدِ شُرُوطِ الْإِمَامَةِ فِيهِمَا ، وَإِنْ كَانَا يَصْلُحَانِ لِمَا وَلِيَاهُ مِنَ الْإِمَارَةِ ، فَتَرَكَ الْوَلَايَةَ مَعَ أَمْتِدَادِ الزَّمَانِ وَتَطَاوُلِ الْأَيَّامِ ، وَجَمِيعِ الشُّرُوطِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا تَقْتَضِي غَلَبَةَ الظَّنِّ لِفَقْدِ الصَّلَاحِ ، وَالْوَلَايَةَ لَشَيْءٍ <sup>(١)</sup> لَا تَدُلُّ عَلَى الصَّلَاحِ لِفَعْلِهِ إِذَا كَانَتْ الشَّرَائِطُ فِي الْقِيَامِ بِذَلِكَ الْغَيْرِ مَعْلُومًا فَقْدُهَا . وَقَدْ نَجَّدَ الْمَلِكُ يُوْلَى بَعْضَ أُمُورِهِ مِنْ لَا يَصْلُحُ لِلْمُلْكِ بَعْدَهُ لظُهُورِ فَقْدِ الشَّرَائِطِ فِيهِ ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِحَضْرَتِهِ مَنْ يُرَشِّحُهُ لِلْمُلْكِ بَعْدَهُ ، ثُمَّ لَا يُؤَلِّيهُ عَلَى تَطَاوُلِ الزَّمَانِ شَيْئًا مِنَ الْوَلَايَاتِ . فَبِانِ الْفَرْقِ بَيْنِ الْوَلَايَةِ وَتَرْكِهَا فِيمَا ذَكَرْنَاهُ .

فَأَمَّا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِنْ لَمْ يَتَوَلَّ جَمِيعَ أُمُورِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي حَيَاتِهِ ، فَقَدْ تَوَلَّى أَكْثَرَهَا وَأَعْظَمَهَا وَخَلَفَهُ فِي الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ الْأَمِيرَ عَلَى الْجَيْشِ الْمَبْعُوثِ إِلَى حَبِيرَ ، وَجَرَى الْفَتْحُ عَلَى يَدَيْهِ بَعْدَ أَنْهَزَامِ مَنْ أَنْهَزَمَ مِنْهَا ، وَكَانَ الْمُؤَدَّى عَنْهُ سُورَةُ رَأْيٍ بَعْدَ عَزْلِ مَنْ عَزَلَ عَنْهَا وَارْتِجَاعِهَا مِنْهُ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عَظِيمِ الْوَلَايَاتِ وَالْمَقَامَاتِ بِمَا يَطُولُ شَرْحُهُ ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُؤَلَّ عَلَيْهِ وَإِلَّا قَطَّ لَكُنْفِي .

فَأَمَّا اعْتِرَاضُهُ بِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُؤَلَّ الْحُسَيْنَ فَبَعِيدٌ عَنِ الصَّوَابِ ، لِأَنَّ أَيَّامَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ تَطُلْ فَيَتِمَّكَنْ فِيهَا مِنْ مَرَادَاتِهِ ، وَكَانَتْ عَلَى قِصَرِهَا مَنْقَسِمَةً بَيْنَ قِتَالِ الْأَعْدَاءِ ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا بُوِيعَ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ خَرَجَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ فَأُحْتَاجَ إِلَى قِتَالِهِمْ ، ثُمَّ انْكَفَأَ مِنْ قِتَالِهِمْ إِلَى قِتَالِ أَهْلِ الشَّامِ ، وَتَعَقَّبَ ذَلِكَ قِتَالُ أَهْلِ التَّهْرَوَانِ ، وَلَمْ تَسْتَقِرَّ بِهِ الدَّارُ وَلَا أَمْتَدَّ بِهِ الزَّمَانُ ، وَهَذَا بِخِلَافِ أَيَّامِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ الَّتِي تَطَاوَلَتْ وَامْتَدَّتْ ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ نَصَّ عَلَيْهِ بِالْإِمَامَةِ بَعْدَ أَخِيهِ الْحَسَنِ ، وَإِنَّمَا تُطَلَّبُ الْوَلَايَاتُ لِفَلَاةِ الظَّنِّ بِالصَّلَاحِ لِلْإِمَامَةِ .

فَإِنْ كَانَ هُنَاكَ وَجْهُ يَقْتَضِي الْعِلْمَ بِالصَّلَاحِ لَهَا كَانَ أَوْلَى مِنْ طَرِيقِ الظَّنِّ ، عَلَى أَنَّهُ

(١) الْكَافِي لِلشَّيْءِ .

لاخلاف بين المسلمين أنَّ الحسينَ عليه السلام كان يصلح للإمامة وإن لم يؤلِّه أبوه الولايات ، وفي مثل ذلك خلافٌ من حالِ عمرَ ، فأفترق الأمران . فأما قوله : إنه لم يعثر على عمرَ بتقصير في الولاية ، فمن سلّم بذلك ! أو ليسَ يَعْلَمُ أنَّ مخالفتَه تُعدّ تقصيرا كثيرا ، ولو لم يكن إلّا ما اتفق عليه من خطئه في الأحكام ورجوعه من قولٍ إلى غيره ، واستثنائه الناس في الصغير والكبير ، وقوله : كلّ الناس أفتةٌ من عمرَ ، لكان فيه كفاية . وليس كلّ النهوض بالإمامة يرجع إلى حُسن التدبير والسياسة الدنياوية ورمّ الأعمال والاستظهار في رِعاية الأموال وتمصير الأمصار ووضع الأعشار ، بل حظّ الإمامة من العلم بالأحكام والفُتيا بالحلّ والحرام ، والناسخ والمنسوخ ، والمحكم والمتشابه أقوى ، فمن قصر في هذا لم ينفعه أن يكون كاملاً في ذلك .

فأما قوله : فهلّ دلّ ما رُوِيَ من قوله عليه السلام : فإن « وَلَيَتِمَّ عَمْرٌ وَجَدْتُمُوهُ قَوِيًّا فِي أَمْرِ اللَّهِ قَوِيًّا فِي بَدَنِهِ » ، فهذا لو ثبت لدلّ ، وقد تقدّم القول<sup>(١)</sup> عليه . وأقوى ما يُبطله عدولُ أبي بكر عن ذكره ، والاحتجاجُ به لما أراد النصّ على عمرَ ، فعُتِبَ على ذلك وقيل له : ما تقول لربك إذ وَلَّيْتَ علينا قَظًا غليظًا ! فلو كان صحيحا لكان يحتجّ به ويقول : وَلَيَتِمَّ عَلَيْكُمْ مَنْ شَهِدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَوِيٌّ فِي أَمْرِ اللَّهِ ، قَوِيٌّ فِي بَدَنِهِ . وقد قيل في الطعن على صحّة هذا الخبر : إنَّ ظاهره يقتضي تفضيل عمرَ على أبي بكر ، والإجماع بخلاف ذلك ، لأنّ القوّة في الجسم فضل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾<sup>(٢)</sup> . وبمد ، فكيف يُعارض ما اعتمدناه من عدوله عليه السلام عن ولايته - وهو أمرٌ معلومٌ - بهذا الخبر المردود المدفوع !

\*\*\*

قلتُ : أمّا ما ادّعاء من عادة الملوك ، فالأمر بخلافه ، فإنّا قد وقفنا على سير الأكلسة وملوك الرُوم وغيرهم فما سمعنا أن أحد منهم رشّح ولده

(٢) سورة البقرة ٢٤٧ .

(١) في د « الكلام » .

للملك بعده باستعماله على طرف من الأطراف ، ولا جيش من الجيوش ، وإنما كانوا يثقونهم بالآداب والفروسيّة في مقام منسكهم لا غير ، والحال في ملوك الإسلام كذلك ، فقد سمعنا بالدولة الأمويّة ، ورأينا الدولة العبّاسيّة ، فلم نعرف الدولة التي ادّعاها المرتضى ، وإنما قد يقع في الأقلّ النادر شيء مما أشار إليه ، والأغلب الأكثر خلاف ذلك . على أن أحبابنا لا يقولون إنّ عمر كان مرشّحاً للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ليقلّ لهم : فلو كان قد رشّحه للخلافة بعده لاستكفاه كثيراً من أموره ؛ وإنما عمر مرشّح عندهم في أيام أبي بكر للخلافة بعد أبي بكر ، وقد كان أبو بكر استعمله على القضاء مدّة خلافته ؛ بل كان هو الخليفة في المعنى ، لأنه فوّض إليه أكثر التدبير ، فعلى هذا يكون قد سلّمنا أن ترك استعمال النبي صلى الله عليه وآله لعمر يدلّ على أنه غير مرشّح في نظره للخلافة بعده ، وكذلك نقول : ولا يلزم من ذلك ألا يكون خليفة بعد أبي بكر ، على أننا لا نسلّم أنه ما استعمله ، فقد ذكر الواقدي وابن إسحاق أنه بعثه في سرّيّة في سنة سبع من الهجرة إلى الوادي المعروف ببرمة - بضم الباء وفتح الراء - وبها جمع من هوازن ، فخرج ومعه دليل من بني هلال ، وكانوا يسرون الليل ويكمنون النهار ، وأتى الخبر هوازن فهربوا ، وجاء عمر محالّهم ، فلم يلتق منهم أحداً ، فانصرف إلى المدينة .

ثم يُمارض المرتضى بما ذكره قاضي القضاة من ترك توليّة على ابنه الحسين عليهما السلام ، وقوله في المُذَر عن ذلك : إنّ عليّاً عليه السلام كان ممنوّاً بحرب البُغاة والخوارج لا يدفع المُعارضَة ؛ لأنّ تلك الأيام التي هي أيام حروبه مع هؤلاء هي الأيام التي كان ينبغي أن يولّي الحسين عليه السلام بعض الأمور فيها ، كاستعماله على جيش ينفذه سرّيّة إلى بعض الجهات ، واستعماله على الكوفة بعد خروجه منها إلى حرب صيفين ، أو استعماله على القضاء ،

وليس اشتغاله بالحرب يمنع له عن ولاية ولده ، وقد كان مشتغلا بالحرب ، وهو يولى  
بنى عمه العباس الولايات والبلاد الجليّة .

فأمّا قوله : على أنّه قد نصّ عليه بالإمامة بعد أخيه الحسن ؛ فهذا يُغنى عن توليته  
شيئاً من الأعمال ؛ فلِقائل أن يمتنع ما ذكره من حديث النصّ ، فإنّه أمرٌ تنفرد به  
الشيعة وأكثُر أرباب السّير والتّواريخ لا يذكرون أنّ أمير المؤمنين عليه السلام نصّ  
على أحدٍ . ثمّ إن ساع له ذلك ساع لقاضى القضاة أن يقول : إنّ قول النّبيّ صلّى الله عليه  
وآله : « اقتدوا باللّذين من بعدى : أبى بكر وعمر » ؛ يغنى عن تولية عمر شيئاً من  
الولايات ، لأنّ هذا القول آكد من الولاية فى ترشّحه للخلافة .

فأمّا قوله : على أنّه لا خلاف بين المسلمين فى صلاحية الحسن للخلافة  
وإن لم يولّه أبوه الولايات ، وفى عمر خلاف ظاهر بين المسلمين ؛ فلِقائل أن يقول له :  
إجماع المسلمين على صلاحية الحسن للخلافة لا يدفع المعارضة ، بل يؤكّدها ،  
لأنّه إذا كان المسلمون قد أجمّعوا على صلاحيته للخلافة ولم يكن ترك تولية أبيه  
إيّاها الولايات قادحاً فى صلاحيته لها بعده ، جاز أيضاً أن يكون ترك تولية  
رسول الله صلّى الله عليه وآله عمر الولايات فى حياته غير قادح فى صلاحيته  
للخلافة بعده .

ثمّ ما ذكره من تقصير عمر فى الخلافة بطريق اختلاف أحكامه ، ورجوعه إلى  
فتاوى العلماء ، فقد ذكرنا ذلك فيما تقدّم لما تكلمنا فى مطاعن الشيعة على عمر  
وأجبنا عنه .

وأما قوله : لا يُغنى حُسن التدبير والسياسة ورّم الأمور ، مع القصور فى الفقه ،  
فأصحابنا يذهبون إلى أنّه إذا تساوى اثنان فى خصال الإمامة إلّا أنّه كان أحدهما أعلم والآخر

أسوس ، فإن الأسوس أولى بالإمامة ، لأن حاجة الإمامة إلى السياسة وحسن التدبير آكد من حاجتها إلى العلم والفقه .

وأما الخبر المروي في عمر - وهو قوله : وإن تولوها عمر - فيجوز ألا يكون أبو بكر سميّه من رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويكون الراوى له غيره ، ويجوز أن يكون سميّه وشذ عنه أن يحتج به على طلحة لما أنكر استخلاف عمر ، ويجوز ألا يكون شذ عنه وترك الاحتجاج به استغناء عنه لعله أن طاحه لا يمتدّ بقوله عند الناس إذا عارض قوله . ولعله كنى عن هذا النصّ بقوله : إذا سألتني ربّي قلت له : استخلفت عليهم خير أهلك ؛ على أنّا متى فتحنا باب « هلا احتج فلان بكذا » جرّ علينا ما لا قبل لنا به . وقيل : هلا احتج على عليه السلام على طلحة وعائشة والزبير بقول رسول الله صلى الله عليه وآله : « من كنت مولاه فهذا عليّ مولاه » ، وهلا احتج عليهم بقوله : « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى » ، ولا يمكن الشيعة أن يمتدروا هاهنا بالتيّة ، لأن السيوف كانت قد سلّت من الفريقين ، ولم يكن مقام تقيّة .

وأما قوله : هذا الخبر لو صحّ لاقتضى أن يكون عمر أفضل من أبي بكر ، وهو خلاف إجماع المسلمين ؛ فلقاتل أن يقول : لم قلت إنّ المسلمين أجمعوا على أنّ أبا بكر أفضل من عمر ، مع أنّ كتب الكلام والتصانيف المصنّفة في المقالات مشحونة بهذا الفرقة العمريّة ، وهم القائلون إنّ عمر أفضل من أبي بكر ، وهي طائفة عظيمة من المسلمين ، يقال : إنّ عبد الله بن مسعود منهم ، وقد رأيت أنّ جماعة من الفقهاء يذهبون إلى هذا ، ويتناظرون عليه ؛ على أنّه لا يدلّ الخبر على ما ذكره المرتضى ، لأنّه وإن كان عمر أفضل منه باعتبار قوّة البدن ، فلا يدلّ على أنّه أفضل منه مطلقا ، فمن الجائز أن يكون بإزاء هذه الخصلة خصال كثيرة في أبي بكر من خصال الخير يُفضل بها على عمر ،

أَلَا تَرَى أَنَّا نَقُولُ : أَبُو دُجَانَةَ أَفْضَلُ مِنْ أَبِي بَكْرٍ بِجِهَادِهِ بِالسَّيْفِ فِي مَقَامِ الْحَرْبِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَفْضَلُ مِنْهُ مَاطَلًا ، لِأَنَّ فِي أَبِي بَكْرٍ مِنْ خِصَالِ الْفَضْلِ مَا إِذَا قِيسَ بِهِذِهِ الْخِصْلَةُ أُرْبَى عَلَيْهَا أَعْضَاغًا مُضَاعَفَةً .

\*\*\*

### الطعن الرابع

قَالُوا : إِنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَرَّرَ حِينَ مَوْتِهِ الْأَمْرَ بِتَنْفِيزِ جَيْشِ أُسَامَةَ ، فَتَأَخَّرَ يَقْتَضِي خَالَفَةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . فَإِنْ قُلْتُمْ : إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ ، قِيلَ لَكُمْ : لَا شَكَّ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ فِي الْجَيْشِ ، وَأَنَّهُ حَبَسَهُ وَمَنَعَهُ مِنَ النَّفُوذِ مَعَ الْقَوْمِ . وَهَذَا كَالْأَوَّلِ فِي أَنَّهُ مَعْصِيَةٌ ، وَرَبَّمَا قَالُوا : إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جَمَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ لِيَتَّبِعُوا بَعْدَ وَفَاتِهِ عَنِ الْمَدِينَةِ ، فَلَا يَقَعُ مِنْهُمْ تَوَثُّبٌ عَلَى الْإِمَامَةِ ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَجْعَلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ الْجَيْشِ ، وَجَعَلَ فِيهِ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُمَانَ وَغَيْرَهُمْ ، وَذَلِكَ مِنْ أَوْكَدِ الدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَرِدْ أَنْ يُخْتَارُوا لِلْإِمَامَةِ (١) .

أَجَابَ قَاضِي الْقَضَاءِ بِأَنَّهُ أَنْكَرَ أَوَّلًا أَنْ يَكُونَ أَبُو بَكْرٍ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ ، وَأَحَالَ عَلَى كُتُبِ الْمَفَازِي ، ثُمَّ سَلَّمَ ذَلِكَ وَقَالَ : إِنَّ الْأَمْرَ لَا يَقْتَضِي الْفَوْرَ ، فَلَا يَلْزَمُ مِنْ تَأَخُّرِ أَبِي بَكْرٍ عَنِ النَّفُوذِ أَنْ يَكُونَ عَاصِيًا . ثُمَّ قَالَ : إِنَّ خُطَابَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِتَنْفِيزِ الْجَيْشِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مُتَوَجِّهًا إِلَى الْقَائِمِ بَعْدَهُ ، لِأَنَّهُ مِنْ خُطَابِ الْأَئِمَّةِ ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَلَّا يَدْخُلَ الْحَاظِبُ بِالتَّنْفِيزِ فِي الْجُمْلَةِ ؛ ثُمَّ قَالَ ؛ وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِمَامًا مُنْصَوِّصًا عَلَيْهِ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ لَا قَبْلَ بِالْخُطَابِ عَلَيْهِ ، وَخَصَّهُ بِالْأَمْرِ بِالتَّنْفِيزِ دُونَ الْجَمِيعِ .

ثمَّ ذَكَرَ أَنَّ أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مُشْرُوطًا بِالمصلحة وبأنَّ لا يعرض ما هو أهمُّ منه ، لأنَّه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ ، وإن أعقب ضرراً في الدين ، ثمَّ قوى ذلك بأنَّه لم يُسَكَّرْ على أسامة تأخُّره ، وقوله : « لَمْ أَكُنْ لِأَسْأَلْ عَنْكَ الرَّكْبَ » ؛ ثمَّ قل : لو كان الإمام منصوباً عليه لجاز أن يستردَّ جيشَ أسامة أو بعضه لُنْصَرْتِهِ ، وكذلك إذا كان بالأختيار ؛ ثمَّ حكى عن الشيخ أبي عليٍّ أَسْتَدْلَاهُ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ بِأَنَّهُ وَلَّاهُ الصَّلَاةَ فِي مَرَّضِهِ ، مَعَ تَكْرِيرِهِ أَمْرَ الْجَيْشِ بِالنَّفُوذِ وَالخُرُوجِ .

ثمَّ ذَكَرَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِنَّمَا يَأْمُرُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِمَصَالِحِ الدُّنْيَا مِنَ الْحُرُوبِ وَنَحْوِهَا مِنْ اجْتِهَادِهِ ، وَلَيْسَ بِوَاجِبٍ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَنْ وَحْيٍ ، كَمَا يَجِبُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَأَنَّ اجْتِهَادَهُ يَجُوزُ أَنْ يَخَالَفَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يَجُزْ فِي حَيَاتِهِ ، لِأَنَّ اجْتِهَادَهُ فِي الْحَيَاةِ أَوَّلَى مِنْ اجْتِهَادِهِ غَيْرِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ أَنَّ الْعِلَّةَ فِي احْتِبَاسِ عَمْرِو بْنِ الْجَيْشِ حَاجَةً أَبِي بَكْرٍ إِلَيْهِ ، وَفِيَاؤُهُ بِمَا لَا يَقُومُ بِهِ غَيْرُهُ ، وَأَنَّ ذَلِكَ أَحْوَطُ لِلدِّينِ مِنْ نَفُوذِهِ .

ثمَّ ذَكَرَ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَارَبَ مَعَاوِيَةَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَمْرٍ مِنْ رَسُولِهِ ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ تَرَكَ مُحَارَبَتَهُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ ، وَلَمْ يَجِبْ بِذَلِكَ إِلَّا يَكُونَ مِمْتَثِلًا لِلْأَمْرِ . وَذَكَرَ تَوَلِيَّتَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبَا مُوسَى ، وَتَوَلِيَّةَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ مَعَ مَا جَرَى (١) مِنْهُمَا وَأَنَّ ذَلِكَ يَقْتَضِي الشَّرْطَ .

ثمَّ ذَكَرَ أَنَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْإِمَامَةِ مِمَّنْ ضَمَّهُ جَيْشُ أُسَامَةَ يَجِبُ تَأْخِيرُهُ لِيُخْتَارَ لِلْإِمَامَةِ أَحَدُهُمْ ، فَإِنَّ ذَلِكَ أَهَمُّ مِنْ نَفُوذِهِمْ ، فَإِذَا جَازَ لِهَذِهِ الْعِلَّةِ التَّأْخِيرُ قَبْلَ الْعَقْدِ جَازَ التَّأْخِيرُ بَعْدَهُ لِلْمُعَاوَضَةِ وَغَيْرِهَا ، وَطَعْنٌ فِي قَوْلِ مَنْ جَعَلَ إِنَّ إِخْرَاجَهُمْ فِي الْجَيْشِ عَلَى جِهَةِ الْإِبَادَةِ لَهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ بَأَنَّ قَالَ : إِنَّ بُعْدَهُمْ عَنِ الْمَدِينَةِ لَا يَمْنَعُ مِنْ أَنْ يُخْتَارُوا لِلْإِمَامَةِ ،

(١) فِي « ظَهَر » .



ولأنه عليه السلام لم يكن قاطعا على موته لا محالة ، لأنه لم يرد : نفذوا جيش أسامة في حياتي . ثم ذكر أن ولاية أسامة عليهما لا تقتضي فضله وأنهما دونه ، وذكر ولاية عمرو بن العاص عليهما وإن لم يكونا دونه في الفضل ، وأن أحدا لم يفضل أسامة عليهما .

ثم ذكر أن السبب في كون عمر من جملة جيش أسامة أن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي قال عند ولاية أسامة : تولي علينا شاب حدث ونحن مشيخة قريش ! فقال عمر : يا رسول الله ، مرني حتى أضرب عنقه ، فقد طعن في تأميرك إياه ؛ ثم قال : أنا أخرج في جيش أسامة تواضعا وتعظيما لأمره عليه السلام .

اعترض المرتضى هذه الأجوبة ، فقال : أما كون أبي بكر في جملة جيش أسامة فظاهر ، قد ذكره أصحاب السير والتواريخ ، وقد روى البلاذري في تاريخه وهو معروف بالثقة والضبط ؛ وبرى من مملأة الشيعة ومقاربتها ، أن أبا بكر وعمر معا كانا في جيش أسامة ، والإنكار لما يجري هذا المجرى لا يُغني شيئا ، وقد كان يجب على من أحال بذلك على كتب المغازی في الجملة أن يرمي إلى الكتاب المتضمن لذلك بعينه ليرجع إليه ، فأما خطابه عليه السلام بالتنفيذ للجيش فالمقصود به الفور دون التراخي ، إما من حيث مقتضى الأمر على مذهب من يرى ذلك لغة ، وإما شرعا من حيث وجدنا جميع الأمة من لدن الصحابة إلى هذا الوقت يحملون أوامرهم على الفور<sup>(١)</sup> ، ويطلبون في تراخيها الأدلة . ثم لو لم يثبت كل ذلك لكان قول أسامة : لم أكن لأسأل عنك الركب ، أوضح دليل على أنه عقل من الأمر الفور ، لأن سؤال الركب عنه عليه السلام بمد وفاته لا معنى له .

(١) الشافعي : « من حيث دل دلائل الشرع عليه » .

وأما قول صاحب الكتاب : إنه لم يُنكر على أسامة تأخره فليس بشيء ،  
 وأى إنكارٍ أبلغ من تكراره الأمر ، وترداده القول في حالٍ يُشغل عن المهم ،  
 ويقطع الفكر إلا فيها ! وقد كرّر الأمر على الأمور تارةً بتكرار الأمر ، وأخرى  
 بغيره . وإذا سلمنا أن أمره عليه السلام كان متوجّهاً إلى القائم بعده بالأمر لتنفيذ الجيش.  
 بعد الوفاة لم يلزم ما ذكره من خروج المخاطب بالتنفيذ عن الجملة ؛ وكيف يصحّ ذلك  
 وهو من جملة الجيش ، والأمر متضمّن تنفيذ الجيش ! فلا بدّ من نفوذ كلّ من كان في  
 'جمليته' ، لأنّ تأخّر بعضهم يسلبُ النافذين اسمَ الجيش على الإطلاق . أو ليس من مذهب  
 صاحب الكتاب أن الأمر بالشىء أمرٌ بما لا يتمّ إلّا معه ! وقد اعتمد على هذا في مواضع  
 كثيرة ، فإن كان خروجُ الجيش ونفوذه لا يتمّ إلّا بخروج أبي بكر ، فالأمر بخروج الجيش  
 أمرٌ لأبي بكر بالنفوذ والخروج ، وكذلك لو أقبل عليه على سبيل التخصيص ؛ وقال :  
 نذّوا جيشَ أسامة ، وكان هو من جملة الجيش ، فلا بدّ أن يكون ذلك أمراً له بالخروج .  
 واستدلّاه على أنه لم يكن هناك إمامٌ منصوصٌ عليه بعموم الأمر بالتنفيذ ، ليس بصحيح ؛  
 لأننا قد بينّا أنّ الخطاب إنّما توجه إلى الحاضرين ، ولم يتوجه إلى الإمام بعده ؛ على أنّ  
 هذا لازمٌ له ، لأنّ الإمام بعده لا يكون إلّا واحداً ، فلم يتمّ الخطاب ولم يفرد به الواحد  
 فيقول : لينفذ القائم من بعدى بالأمر جيشَ أسامة ، فإنّ الحال لا يختلف في كون الإمام  
 بعده واحداً بين أن يكون منصوصاً عليه أو مختاراً .

وأما ما ادّعاء أنّ الشرط<sup>(١)</sup> في أمره عليه السلام لهم بالنفوذ فباطل ، لأنّ إطلاق  
 الأمر يمنع من إثبات الشرط ، وإنّما يثبت من الشروط ما يقتضيه الدليل إثباته من  
 التمكن والقُدرة ، لأنّ ذلك شرطٌ ثابت في كلّ أمر ورد من حكيم ، والمصلحة  
 بخلاف ذلك ، لأنّ الحكيم لا يأمر بشرط المصلحة ، بل إطلاق الأمر منه يقتضي ثبوت  
 المصلحة وانتفاء الفسدة ، وليس كذلك التمكن ، وما يجري مجراه ، ولهذا لا يشترط

(١) في د « وأما ادعاؤه الشرط » .

أُحْدِثُ فِي أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالشَّرَائِعِ الْمَصْلُحَةِ وَانْتِفَاءِ الْمَفْسَدَةِ .  
وَشَرَطُوا فِي ذَلِكَ التَّكَنُّ وَرَفْعَ التَّعَذُّرِ ، وَلَوْ كَانَ الْإِمَامُ مَنْصُوصًا عَلَيْهِ بِعَيْنِهِ وَأُسْمُهُ لَمَّا جَازَ  
أَنْ يَسْتَرِدَّ جَيْشَ أُسَامَةَ ؛ بِخِلَافِ مَا ظَنَّهُ ، وَلَا يَعْزِلُ مَنْ وَلَّاهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا يُؤَلَّى مِنْ عَزَلِهِ  
لِلْعِلَّةِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا .

فَأَمَّا اسْتِدْلَالُ أَبِي عَلِيٍّ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمْ يَكُنْ فِي الْجَيْشِ بِمَحْدِثِ الصَّلَاةِ ، فَأَوَّلُ مَا فِيهِ  
أَنَّهُ اعْتَرَفَ بِأَنَّ الْأَمْرَ بِتَنْفِيزِ الْجَيْشِ كَانَ فِي الْحَيَاةِ دُونَ بَعْدِ الْوَفَاةِ ، وَهَذَا نَاقِضٌ لِمَا بَنَى  
صَاحِبُ الْكِتَابِ عَلَيْهِ أَمْرَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ثُمَّ إِنَّمَا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ يُؤَلِّهِ الصَّلَاةَ وَذَكَرْنَا مَا فِي ذَلِكَ . ثُمَّ مَا الْمَانِعُ مِنْ أَنْ  
يُؤَلِّيه تِلْكَ الصَّلَاةَ إِنْ كَانَ وَلَّاهُ إِيَّاهَا ، ثُمَّ يَأْمُرُهُ بِالْذَّفُودِ مِنْ بَعْدِ مَعَ الْجَيْشِ ! فَإِنَّ الْأَمْرَ  
بِالصَّلَاةِ فِي تِلْكَ الْحَالِ لَا يَقْتَضِي أَمْرَهُ بِهَا عَلَى التَّأْيِيدِ .

وَأَمَّا ادِّعَاؤُهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَأْمُرُ بِالْحُرُوبِ وَمَا يَتَّصِلُ بِهَا عَنْ أَجْتِهَادٍ  
دُونَ الْوَحْيِ ، فَمَعَاذَ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ صَحِيحًا ، لِأَنَّ حُرُوبَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمْ تَكُنْ مِمَّا يَخْتَصُّ  
بِمَصَالِحِ أُمُورِ الدُّنْيَا ، بَلْ لِلدِّينِ فِيهَا أَقْوَى تَعَلُّقٍ ، لِمَا يَعُودُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ بِفَتْوحِهِ مِنْ  
الْعِزِّ وَالْقُوَّةِ وَعِلْوِ الْكَلِمَةِ . وَلَيْسَ يَجْرِي ذَلِكَ مَجْرَى أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ وَنَوْمِهِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ  
لَا تَعَلُّقٌ لَهُ بِالْدِّينِ ، فَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ عَنْ رَأْيِهِ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ تَكُونَ مَسْغَاظِيهِ وَبِعَوْنِهِ مَعَ التَّعَلُّقِ  
الْقَوِيِّ لَهَا بِالْدِّينِ عَنْ أَجْتِهَادٍ لَجَازَ ذَلِكَ فِي الْأَحْكَامِ .

ثُمَّ لَوْ كَانَ ذَلِكَ عَنْ أَجْتِهَادٍ لَمَّا سَاعَتْ مُخَالَفَتُهُ فِيهِ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، كَمَا لَا تَسُوغُ فِي حَيَاتِهِ .  
فَكُلُّ عِلَّةٍ تَمْنَعُ مِنْ أَحَدِ الْأَمْرَيْنِ هِيَ مَانِعَةٌ مِنَ الْآخَرِ . فَأَمَّا الْاعْتِذَارُ لَهُ عَنْ حَبْسِ عَمْرِ  
عَنِ الْجَيْشِ بِمَا ذَكَرَهُ فَبَاطِلٌ ؛ لِأَنَّا قَدْ قُلْنَا : إِنَّ مَا يَأْمُرُ بِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَا يَسُوغُ مُخَالَفَتَهُ مَعَ  
الْإِمْكَانِ ، وَلَا مُرَاعَاةَ لِمَا عَسَا يَعْرِضُ فِيهِ مِنْ رَأْيٍ غَيْرِهِ ، وَأَيُّ حَاجَةٍ إِلَى عَمْرِ بَعْدَ تَمَامِ  
الْعَمْدِ ، وَاسْتِقْرَارِهِ وَرِضَا الْأُمَّةِ بِهِ ، عَلَى طَرِيقِ <sup>(١)</sup> الْخِلَافِ وَإِجْمَاعِهَا عَلَيْهِ ، وَلَمْ يَكُنْ

(١) فِي د : « مَذْهَب » .

هناك فتنة ولا تنازع ولا اختلاف يحتاج فيه إلى مشاورته وتدبيره ! وكلّ هذا تعلُّلٌ باطل .

فأمّا محاربة أمير المؤمنين عليه السلام معاوية فإنّما كان مأمورا بها مع التمكن ووجود الأنصار ، وقد فُعل عليه السلام من ذلك ما وجب عليه لَمّا تمكّن منه ، فأمّا مع التمدّد وفقر الأنصار فما كان مأمورا بها . وليس كذلك القول في جيش أسامة ، لأنّ تأخّر من تأخّر عنه كان مع القدرة والتمكن . فأمّا تولية أبي موسى فلا ندرى كيف يشبه ما نحن فيه ، لأنّه إنّما ولّاه بأن يرجع إلى كتاب الله تعالى فيحكم فيه وفي خصمه بما يقتضيه ، وأبو موسى فعَل خلاف ما جُعِلَ إليه ، فلم يكن ممثّلا لأمر من ولّاه ، وكذلك خالدُ ابن الوليد إنّما خالف ما أمره به الرسولُ صلّى الله عليه وآله فتبرأ من فعله ، وكلّ هذا لا يشبه أمره عليه السلام بتنفيذ جيش أسامة أمراً مطلقاً ، وتأكيده ذلك وتكرارُه له ، فأمّا جيش أسامة فإنّه لم يضمّ من يصلح للإمامة ، فيجوز تأخيرهم ليختار أحدهم على ما ظنّه صاحبُ الكتاب . على أنّ ذلك لو صحّ أيضاً لم يكن عُذراً في التأخّر ؛ لأنّ مَنْ خرج في الجيش يُمكن أن يختار وإن كان بعيداً ، ولا يمتنع بُمده من صحّة الاختيار ، وقد صرّح صاحبُ الكتاب بذلك . ثمّ لو صحّ هذا العُذر لكان عُذراً في التأخّر قبل العُقد ، فأمّا بعد إبرامه فلا عُذر فيه ، والمماضدة التي ادّعاها قد بيّنا ما فيها .

فأمّا ادّعاء <sup>(١)</sup> صاحب الكتاب رادّاً على من جَعَلَ إخراج القوم في الجيش لِيتمّ أمرُ النصّ أن مَنْ أُمِدَّهم لا يمتنع أن يختاروا للإمامة فيدلّ على أنّه لم يتبين معنى هذا الطعن على حقيقته ، لأنّ الطاعن به لا يقول إنّ أُمِدَّهم لثلاث يختاروا للإمامة ، وإنّما يقول : إنّ أُمِدَّهم حتّى يَلْتَصِبَ بِمُدّه في الأرض مَنْ نصّ عليه ، ولا يكون هُناك من يُنارِعُه ويخالِفُه .

(١) في د : « قول » .

وأما قوله : لم يكن قاطعاً على موته فلا يضر تسليمه ، أليس كان مُشْفِقاً وخائفاً ! وعلى الخائف أن يتحرّز ممّن يخاف منه . فأما قوله : فإنه لم يرد : تقدّوا الجيش في حياتي فقد بينا ما فيه . فأما ولاية أسامة على من وُكِّلَ عليه ، فلا بدّ من اقتضاها لفضله على الجماعة فيما كان والياً فيه ، وقد دلّلنا فيما تقدّم من الكتاب على أنّ ولاية المفضّل على الفاضل فيما كان أفضل منه فيه قبيحة ، فكذلك القول في ولاية عمرو بن العاص عليهما فيما تقدّم ، والقول في الأمرين واحد .

وقوله : إنّ أحداً لم يدّع فضل أسامة على أبي بكر وعمر ، فليس الأمر على ما ظنّه ؛ لأنّ من ذهب إلى فساد إمامة المفضّل لا بدّ من أن يُفضّل أسامة عليهما فيما كان والياً فيه ، فأما ادّعاؤه ما ذكره من السبب في دخول عمر في الجيش فما نعرفه ، ولا وقفنا عليه إلّا من كتابه ، ثمّ لو صحّ لم يُغن شيئاً ، لأنّ عمر لو كان أفضل من أسامة لمَنعه الرسول صلى الله عليه وآله من الدخول في إمارته والمسير تحت لوائه ، والتواضع لا يقتضى فعل القبيح<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

قلت : إنّ الكلام في هذا الفصل قد تشعب شعباً كثيرة ، والمرضى رحمه الله لا يُورد كلام قاضي القضاة بنصّه ، وإنما يختصره ويورده مبتوراً ، ويؤمّ إلى المعاني إجماعاً لطيفاً ، وغرضه الإيجاز ، ولو أورد كلام قاضي القضاة بنصّه لكان أليق ، وكان أبعد عن الظنّة ، وأدفع لقول قائل من خصومه : إنّ يحرف كلام قاضي القضاة ، ويذكره على غير وجهه ، ألا ترى أنّ من نصّب نفسه لأختصار كلام فقد ضمن على نفسه أنّه قد فهم معاني ذلك الكلام حتى يصحّ منه اختصاره ؛ ومن الجائر أن يظنّ أنّه قد فهم

---

(١) الشافعي ٤٢٠ ، ٤٢١ .

بعض المواضع ولم يكن قد فهمه على الحقيقة ، فيختصر ما في نفسه ؛ لا ما في تصنيف ذلك الشخص ، وأما من يُورد كلام الناس بنصّه فقد استراح من هذه التّبعة ، وعرض عقل غيره وعقل نفسه على الناظرين والسامعين .

ثم نقول : إنّ هذا الفصل ينقسم أقساما :

منها قولُ قاضي القضاة : لا نُسلم أنّ أبا بكر كان في جيش أسامة .

وأما قول المرتضى : إنه قد ذكره أربابُ السّير والتواريخ ، وقوله : إنّ البلاذريّ ذكره في تاريخه ، وقوله : هلاّ عيّن قاضي القضاة الكتاب الذي ذكر أنّه يتضمن عدم كون أبي بكر في ذلك الجيش ! فإنّ الأمر عندى في هذا الموضع مشتبّه ، والتواريخ مختلفة في هذه القضية<sup>(١)</sup> ، فمنهم من يقول : إنّ أبا بكر كان في مُجلة الجيش ، ومنهم من يقول : إنّّه لم يكن ، وما أشار إليه قاضي القضاة بقوله في كتب المغازي لا ينتهى إلى أمر صحيح ، ولم يكن ممّن يستحلّ القول بالباطل في دينه ولا في رئاسته . ذكر الواقديّ في كتاب المغازي أنّ أبا بكر لم يكن في جيش أسامة ، وإنما كان عمر ، وأبو عبيدة ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل ، وقتادة بن النعمان ، وسلمة بن أسلم ، ورجال كثير من المهاجرين ، والأنصار ، قال : وكان المنكر لإمارة أسامة عيّاش بن أبي ربيعة . وغير الواقديّ يقول : عبد الله بن عيّاش ؛ وقد قيل : عبد الله بن أبي ربيعة أخو عيّاش .

وقال الواقديّ : وجاء عمر بن الخطّاب فودّع رسول الله صلّى الله عليه وآله ليسير مع أسامة . وقال : وجاء أبو بكر فقال : يا رسول الله ، أصبحت مُفيتا بحمد الله ، واليوم يومُ أُنبةٍ خارجة ، فأذن لي ، فأذن له ، فذهب إلى منزله بالسّنج<sup>(٢)</sup> وسار أسامة في المسكر ، وهذا تصريح بأنّ أبا بكر لم يكن في جيش أسامة .

(١) في د : « القصة » . (٢) السّنج : إحدى محال المدينة ؛ وكان بها منزل أبي بكر حين تزوج مليكة ؛ وقيل حبيبة بنت خارجة (ياقوت) .

وذكر موسى بن عُقبة في كتاب "الغازي"، أن أبا بكر لم يكن في جيش أسامة وكثير من المحدثين يقولون: بل كان في جيشه:

فأما أبو جعفر محمد بن جرير الطبري فلم يذكر أنه كان في جيش أسامة إلا عمر . وقال أبو جعفر: حدثني الشَّاذي بإسنادٍ ذكره أن رسول الله صلى الله عليه وآله ضرب قبل وفاته بعثاً على أهل المدينة ومن حولهم وفيهم عمر بن الخطاب، وأمر عليهم أسامة ابن زيد، فلم يجاوز آخرهم الخندق حتى قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، فوقف أسامة بالناس ثم قال لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله فاستأذنه يأذن لي أرجع بالناس، فإن معي وجوه الصحابة، ولا آمن على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله، وثقل رسول الله صلى الله عليه وآله وأثقال المسلمين أن يتخطفهم المشركون حول المدينة؛ وقالت الأنصار لعمر سراً: فإن أباي إلا أن يمضي فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولي أمرنا رجلاً أقدم سناً من أسامة، فخرج عمر بأمر أسامة فأبى أبو بكر فأخبره بما قال أسامة، فقال أبو بكر: لو تخطفتني الكلاب والذئاب لم أرد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: فإن الأنصار أمروني أن أبلغك أنهم يطلبون إليك أن تولي أمرهم رجلاً أقدم سناً من أسامة، فوثب أبو بكر - وكان جالساً - فأخذ بلحية عمر وقال: تكلت أنك أمك يا ابن الخطاب! أستمع لرسول الله صلى الله عليه وآله وتأمرني أن أنزعه! فخرج عمر إلى الناس، فقالوا له: ما صنعت؟ فقال: امضوا تكلتكم أمهاتكم! ما لقيت في سبيلكم اليوم من خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله! ثم خرج أبو بكر حتى أتاهم فأشخصهم<sup>(١)</sup> وشيعهم، وهو ماشٍ وأسامة راكب، وعبد الرحمن ابن عوف يقود دابة أبي بكر، فقال له أسامة بن زيد: يا خليفة رسول الله، لتركبن أو لأنزرن، فقال: والله لا تنزل ولا أركب، وما على أن أغبر قدامي في سبيل الله ساعة،

(١) أشخصهم: بعث بهم .

فإنَّ للغازی بكلِّ خُطوةٍ یخطوها سبعمائة حسنة تُکُتَبُ له ، وسبعمائة درجة تُرَفَعُ له ، وسبعمائة خطیئة تُمَحَى عنه ، حتَّى إذا انتهی قال لأسامه : إنْ رأیتَ أنْ تُعینَی بِعَمَرٍ فافعلْ ، فأذنَ له ، ثم قال : أیها الناس ، قِفُوا حتَّى أوصیکم بِعَشْرٍ فاحفظوها عَنِّی : لا تَحُونُوا ولا تَغْدِرُوا ولا تَغْلُوا ولا تُثْمَلُوا ولا تَقْتُلُوا طفلاً صغیراً ، ولا شیخاً کبیراً ، ولا امرأةً ، ولا تَعْمُرُوا نَخْلاً ولا تُحَرِّقُوهُ ، ولا تَقْطَعُوا شجرةً مُثمرةً ، ولا تَذْبَحُوا شاةً ولا بَعِیراً ولا بَقرةً إلا لما کَلَّه ، وسوف تَمُرُّونَ بأقوامٍ قد فرَّغوا أَنفُسَهُم للعبادة فی الصَّوامِعِ ، فدعُوهم فیما فرَّغوا أَنفُسَهُم له ، وسوف تُقدِّمونَ على أقوامٍ یأتونکم بِصِحَافٍ فیها ألوانُ الطعامِ ، فلا تأکُلُوا مِن شَیْءٍ حتَّى تَدْکُرُوا اسمَ الله علیه ، وسوف تَلْقَوْنَ أقواماً قد حَصَّوْا<sup>(١)</sup> أوساطَ رءوسهم وتركُوا حولها مِثْلَ العَصَائِبِ ، فاخفِّقُوهم<sup>(٢)</sup> بالسَّیُوفِ خَفِیقاً ؛ أفناهم اللهُ بِالطَّمَنِ والطَّاعُونِ ، سَیْرُوا على اسمِ الله .

وأما قولُ الشیخِ أبی علیٍّ فإنه یدلُّ على أنَّه لم یکن فی جیشِ أسامة ، أمرُهُ إیَّاهُ بالصَّلَاةِ . وقولُ المرتضی : هذا اعترافٌ بأنَّ الأمرَ بتنفيذِ الجیشِ کان فی الحالِ دونَ ما بعدَ الوفاةِ ، وهذا ینقُضُ ما بنى علیه قاضی القضاة أمرَهُ ؛ فلیُقالَ أنْ یقولُ : إنَّه لا ینقُضُ ما بناءً ، لأنَّ قاضی القضاة ما قال : إنَّ الأمرَ بتنفيذِ الجیشِ ما کانَ إلاَّ بِمَسَدِ الوفاةِ ، بل قال : إنَّه أمرٌ ، والأمرُ على التَّراخی ، فلو نفذَ الجیشُ فی الحالِ لجاز ، ولو تأخَّرَ إلى بعدِ الوفاةِ لجاز .

فأما إنکارُ المرتضی أنْ تكونَ صَلَاةُ أبی بکرٍ بالنَّاسِ كانت عن أمرِ رسولِ الله صلی الله علیه وآله فقد ذکرنا ما عندنا فی هذا فیما تقدَّم .

وأما قوله : یجوز أنْ یكونَ أمرُهُ بِصَلَاةٍ واحدةٍ أو صلاتین ، ثمَّ أمرُهُ بالنَّفوذِ بعدَ

(١) حصَّ شمره : حلقه . (٢) اخفَّقوهم : اضربوهم .



ذلك ، فهذا لَعَمْرَى جَائِزٌ . وقد يُمكن أن يقال : إنه لما خرج متحاملاً من شدة المرض فتأخر أبو بكر عن مُقَامِهِ ، وصلى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بالناس ، أمره بالنفوذ مع الجيش ، وأسكت رسول الله صلى الله عليه وآله في أثناء ذلك اليوم ، واستمر أبو بكر على الصلاة بالناس ، إلى أن توفى عليه السلام ، فقد جاء في الحديث أنه أسكت ، وأن أسامة دخل عليه فلم يستطع كلامه لكنه كان يرفع يديه ويضعهما<sup>(١)</sup> عليه كالداعي له . ويمكن أن يكونَ زمان هذه السكينة قد امتدَّ يوماً أو يومين ، وهذا الموضعُ من المواضع المشبهة عندى .

ومنها قولُ قاضى القضاة : إنَّ الأمرَ على التراخي ، فلا يلزم من تأخر أبي بكر عن النفوذ أن يكونَ عاصياً .

فأما قولُ المرتضى : الأمرُ على الفور إمَّا لغةً عند من قال به ، أو شرعاً لإجماع الكلِّ على أن الأوامر الشرعية على الفور إلَّا ما خرج بالدليل ، فالظاهر في هذا الموضع صحة ما قاله المرتضى ، لأنَّ قرائن الأحوال عند من يقرأ السير ويعرف التواريخ تدلُّ على أنَّ الرسولَ صلى الله عليه وآله كان يحثُّهم على الخروج والمسير ، وهذا هو الفور .

وأما قولُ المرتضى وقولُ أسامة : لم أكن لأسأل عنك الركب ، فهو أوضح دليل على أنه عقل من الأمر الفور ، لأنَّ سؤال الركب عنه بعد الوفاة لا معنى له . فلقائق أن يقول : إنَّ ذلك لا يدلُّ على الفور ، بل يدلُّ على أنه مأمور في الجملة بالنفوذ والمسير ، فإنَّ التعميل والتأخير<sup>(٢)</sup> مفضَّان إلى رأيه ، فلما قال له النبيُّ صلى الله عليه وآله : لم تأخرت عن المسير ؟ قال : لم أكن لأسير وأسأل عنك الركب ، إني انتظرتُ عافيتك ، فإني إذا سرتُ وأنت على هذه الحال لم يكن لي قلب للجهاد ، بل أكون قلقاً شديد الجزع ، أسأل

(١) في د « ويحطها » . (٢) في د « والتأجيل » .

عنك الرُّكْبَان ، وهذا الكلام لا يدلّ على أنه عقْل من الأمر الفور لا محالة ، بل هو على أن يدلّ على التراخي أظهر ، وقولُ النبيّ صلى الله عليه وآله : « لِمَ تأخّرت عن المسير ؟ » لا يدلّ على الفور ؛ لأنه قد يقال مثل ذلك لمن يؤمر بالشئ على جهة التراخي إذا لم يكن سؤال إنكار .

وقول المرتضى : لأن سؤال الرُّكْب عنه بعد الوفاة لا معنى له ، قولٌ من قد توهّم على قاضى القضاة أنه يقول : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله ما أمرهم بالنفوذ إلّا بعد وفاته ، ولم يقل قاضى القضاة ذلك ، وإنما ادّعى أن الأمر على التراخي لا غير ، وكيف يُظنّ بقاضى القضاة أنه حمل كلام أسامة على سؤال الرُّكْب بعد الموت ! وهل كان أسامة يعلم الغيب فيقول ذاك ! وهل سأل أحدٌ عن حال أحد من المرضى بعد موته !

فأمّا قول المرتضى عقيب هذا الكلام : لا معنى لقول قاضى القضاة إنه لم ينكر على أسامة تأخّره ، فإن الإنكار قد وقع بتكرار الأمر حالاً بعد حالٍ ، فلغائل أن يقول : إن قاضى القضاة لم يجعل عدم الإنكار على أسامة حجة على كون الأمر على التراخي ، وإنما جعل ذلك دليلاً على أن الأمر كان مشروطاً بالمصلحة ، ومن تأمل كلام قاضى القضاة الذى حكاه عنه المرتضى تحقق ذلك ، فلا يجوز للمرتضى أن ينتزعه من الوضع الذى أورده فيه ، فيجعلَه فى موضع آخر .

ومنها قول قاضى القضاة : الأمر بتنفيذ الجيش يجب أن يكون متوجّهاً إلى الخليفة بعده ، والمخاطب لا يدخل تحت الخطاب ، واعتراض المرتضى عليه بأن لفظة « الجيش » يدخل تحتها « أبو بكر » فلا بدّ من وجوب النفوذ عليه ، لأنّ عدم نفوذه يسلب الجماعة اسم « الجيش » ؛ فليس بجيّد ، لأنّ لفظة « الجيش » لفظة موضوعة لجماعة من الناس قد أُعدّت للحرب ، فإذا خرج منها واحدٌ أو اثنان لم يزل مسمّى الجيش عن الباقيين ، والمرتضى

اعتقد أن ذلك مثل الماهيات المركبة ، نحو العشرة إذا عُدم منها واحد زال مسمى العشرة ، وليس الأمر كذلك ، يبين ذلك أنه لو قال بعضُ الملوك لمائة إنسان : أنتم جيشي ، ثم قال لواحد منهم : إذا مت فأعطِ كل واحدٍ من جيشي درهماً من خزانتي ، فقد جعلتكَ أميراً عليهم لم يكن له أن يأخذ لنفسه درهماً ، ويقول : أنا من جملة الجماعة الذين أطلق عليهم لفظة الجيش .

ومنها قولُ قاضي القضاة : هذه القضية تدلّ على أنه لم يكن هناك إمامٌ منصوبٌ عليه ؛ وأما قول المرتضى : فقد بينا أن الخطاب إنما توجه إلى الحاضرين لا إلى القائم بالأمر بعده ، فلم نجد في كلامه في هذا الفصل بطوله ما يبين فيه ذلك ، ولا أعلم على ماذا أحال ! ولو كان قد بين - على ما زعم - أن الخطاب متوجه إلى الحاضرين ، لكان الإشكال قائماً ، لأنه يقال له : إذا كان الإمام المنصوص عليه حاضراً عنده فلم وجه الخطاب إلى الحاضرين ! ألا ترى أنه لا يجوز أن يقول الملكُ للرعية : اقضوا بين هذين الشخصين والقاضي حاضرٌ عنده ، إلا إذا كان قد عزّله عن القضاء في تلك الواقعة عن الرعية !

فأما قول المرتضى : هذا ينقلب عليكم ، فليس ينقلب ؛ وإنما ينقلب لو كان يريد تنفيذ الجيش بعد موته فقط ، ولا يريدُه وهو حيّ ، فكان يجيء ما قاله المرتضى لينفذ القائم بالأمر بعدى جيش أسامة ، فأما إذا كان يريد نفوذ الجيش من حين ما أمر بنفوذه فقد سقط القاب ، لأن الخليفة حينئذ لم يكن قد تعيّن ، لأن الاختيار ما وقع بعد ، وعلى مذهب المرتضى الإمام متعيّن حاضر عنده نصب عيّنه ، فافترق الوصفان .

\*\*\*

ومنها قول قاضي القضاة : إن مخالفة أمره صلى الله عليه وآله في النفوذ مع الجيش أو في إنفاذ الجيش لا يكون معصيةً ، وبين ذلك من وجوه :

أحدها : أن أمره عليه السلام بذلك لابد أن يكون مشروطاً بالمصلحة ، وألا يعرض ما هو أهم من نفوذ الجيش ، لأنه لا يجوز أن يأمرهم بالنفوذ وإن أعقب ضرراً في الدين ، فأما قول المرتضى : الأمر المطلق يدل على ثبوت المصلحة ، ولا يجوز أن يجعل الأمر المطلق ؛ فقول جيد إذا اعترض به على الوجه الذي أورده قاضي القضاة ، فأما إذا أورده أصحابنا على وجه آخر فإنه يندفع كلام المرتضى ، وذلك أنه يجوز تخصيص عمومات النصوص بالقياس إلى الجلي عند كثير من أصحابنا ، على ما هو مذكور في أصول الفقه ، فلم لا يجوز لأبي بكر أن يخص عموم قوله : « أنفذوا بعث أسامة » لمصلحة غلبت على ظنه في عدم نفوذه نفسه ، ولمفسدة غلبت على نفسه <sup>(١)</sup> في نفوذه نفسه مع البعث !

\*\*\*

وثانيها : أنه عليه السلام كان يبعث السرايا عن اجتهاد لا عن وحي يحرم مخالفته . فأما قول المرتضى : إن للدين تعلقاً قوياً بأمثال ذلك <sup>(٢)</sup> ، وإنها ليست من الأمور الدنياوية المحضة نحو أكله وشربه ونومه ، فإنه يعود على الإسلام بفتوحه عز وقوة وعلو كلمة فيقال له : وإذا أكل اللحم وقوى مزاجه بذلك ونام نوما طبيعياً يزول عنه به المرض والإعياء ، اقتضى ذلك أيضاً عز الإسلام وقوته ، فقل إن ذلك أيضاً عن وحي .

ثم إن الذي يقتضيه فتوحه وغزواته وحروبه من العز وعلو الكلمة لا ينافي كون تلك الغزوات والحروب باجتهاده ، لأنه لا منافاة بين اجتهاده وبين عز الدين وعلو كلمته بحروبه ، وأن الذي ينافي اجتهاده بالرأي هو مثل فرائض الصلوات ومقادير الزكوات ومناسك الحج ، ونحو ذلك من الأحكام التي تشعر بأنها متلقاة من محض الوحي ، وليس للرأي والاجتهاد فيها مدخل ، وقد خرج بهذا الكلام الجواب عن قوله :

(١) في د « ظنه » . (٢) ١ : « هذا » .

لو جاز أن تكون السرايا والحروب عن اجتهاده ، لجاز أن تكون الأحكام كلها عن اجتهاده . وأيضا فإن الصحابة كانوا يراجعونه في الحروب وآرائه التي يدبرها بها ويرجع عليه السلام إليهم في كثير منها بعد أن قد رأى غيره ، وأما الأحكام فلم يكن يُراجع فيها أصلا ، فكيف يُحمل أحدُ البايين على الآخر .

فأما قوله : لو كانت عن اجتهاد لوجب أن يحرم مخالفته فيها وهو حي ، لا فرق بين الحالين ؛ فلنأخذ أن يقول : القياس يقتضي ما ذكرت ، إلا أنه وقع الإجماع على أنه لو كان في الأحكام أو في الحروب والجهاد ما هو بأجتهاده لما جازت مخالفته ، والعسول عن مذهبه وهو حي لم يختلف أحد من المسلمين في ذلك ، وأجازوا مخالفته بعد وفاته بتقدير أن يكون ما صار إليه عن اجتهاد ؛ والإجماع حجة .

فأما قول قاضي القضاة : لأن اجتهاده وهو حي أولى من اجتهاد غيره ، فليس يكاد يظهر ، لأن اجتهاده ، وهو ميت أولى أيضا من اجتهاد غيره ، ويفلب على ظني أنهم فرقوا بين حالتي الحياة والموت ، فإن في مخالفته وهو حي نوعا من أذى له ، وأذاه محرم لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾ (١) ، والأذى بعد الموت لا يكون ، فأفترق الحالان .

\*\*\*

ونألفها : أنه لو كان الإمام منصوبا عليه لجاز أن يسترد جيش أسامة أو بمضه لنصرته ؛ فكذلك إذا كان بالاختيار ، وهذا قد منع منه المرتضى ، وقال : إنه لا يجوز للمنصوص عليه ذلك ، ولا أن يولّى من عزله رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا أن يعزل من ولّاه رسول الله صلى الله عليه وآله .

\*\*\*

وإن وقف تصرّفه على اختياره ، وصار ذلك عندهم بمنزلة أن يختار المسلمون واحدا يحكم بينهم ، ثم يموت من رضى بذلك ، فإن تصرّفه يبقى على ما كان عليه ، وقال قوم من أصحابنا : ينزل ، وإن هذا النوع من التصرف لا يستفاد إلا من جهة الإمام ، ولا يقوم به غيره ، وإذا ثبت أن أسامة قد بطلت ولايته لم يبق تبعه<sup>(١)</sup> على أبي بكر في الرجوع من بعض الطريق إلى المدينة .

\*\*\*

وخامسها : أن أمير المؤمنين عليه السلام ولّى أبا موسى الحكم ، وولّى رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد السرية إلى الغميصاء<sup>(٢)</sup> ، وهذا الكلام إنما ذكره قاضي القضاة تنمّة لقوله : إن أمره عليه السلام بنفوذ بمث أسامة كان مشروطا بالمصلحة ؛ قال : كما أن توليته عليه السلام أبا موسى كانت مشروطة باتّباع القرآن ، وكما أن تولية رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد كانت مشروطة بأن يعمل بما أوصاه به ، فحالفا ولم يعمل بالحق ، فإذا كانت هذه الأمور مشروطة فكذلك أمره جيش أسامة بالنفوذ كان مشروطا بالمصلحة وألا يعرض ما يقتضى رجوع الجيش أو بعضه إلى المدينة ، وقد سبق القول في كون الأمر مشروطا .

\*\*\*

وسادسها : أن أبا بكر كان محتاجا إلى مقام عمر عنده ليعاضده<sup>(٣)</sup> ويقوم في تمهيد أمر الإمامة ما لا يقوم به غيره ، فكان ذلك أصلح في باب الدين من مسيره<sup>(٤)</sup> مع الجيش ، فجاز أن يحبس عنده لذلك ؛ وهذا الوجه مختص بمن قال : إن أبا بكر لم يكن في الجيش ، وإيضاح عذره في حبس عمر عن النفوذ<sup>(٥)</sup> مع الجيش .

(١) : ١ : « شيء » . (٢) الغميصاء : موضع أوقع فيه خالد بن الوليد بيني جذيمة .

(٣) بعدها في ١ : « ويعاونه » . (٤) : ١ : « سيره » .

(٥) : ١ : « التنفيذ » .

ورابُعها : أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَام تَرَكَ حَرْبَ مُعَاوِيَةَ فِي بَعْضِ الْحَالَات ، وَلَمْ يُوجِبْ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ عَاصِيًا ، فَكَذَلِكَ أَبُو بَكْرٍ فِي تَرْكِ النَّفْوذِ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ .

فَأَمَّا قَوْلُ الْمُرْتَضَى : إِنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَام كَانَ مَأْمُورًا بِحَرْبِ مُعَاوِيَةَ مَعَ التَّمَكُّنِ وَوُجُودِ الْأَنْصَارِ ، فَإِذَا عَدِمَا لَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا بِحَرْبِهِ ؛ فَلِقَائِلِ أَنْ يَقُولَ : وَأَبُو بَكْرٍ كَانَ مَأْمُورًا بِالنَّفْوذِ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ مَعَ التَّمَكُّنِ وَوُجُودِ الْأَنْصَارِ ، وَقَدْ عُدِمَ التَّمَكُّنُ لَمَّا اسْتُخْلِفَ ، فَإِنَّهُ قَدْ تَحَمَّلَ أَعْبَاءَ الْإِمَامَةِ ، وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ الْخُرُوجُ مِنَ الْمَدِينَةِ ، الَّتِي هِيَ دَارُ الْإِمَامَةِ ، فَلَمْ يَكُنْ مَأْمُورًا وَالْحَالُ هَذِهِ بِالنَّفْوذِ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ .

فَإِنْ قُلْتَ : الْإِشْكَالُ عَلَيْهِ كَيْفَ إِنْ تَمَّا هُوَ مِنْ قَبْلِ الْاسْتِخْلَافِ ، كَيْفَ جَازَ لِأَبِي بَكْرٍ أَنْ يَتَأَخَّرَ عَنِ الْمَسِيرِ ؟ وَكَيْفَ جَازَ لَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَهُوَ مَأْمُورٌ بِالْمَسِيرِ ؟ وَهَلَّا نَفَذَ لُوجْهَهُ وَلَمْ يَرْجِعْ ، وَإِنْ بَلَغَهُ مَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ !

قُلْتَ : لَعَلَّ أُسَامَةَ أَذِنَ لَهُ ، فَهُوَ مَأْمُورٌ بِطَاعَتِهِ ، وَلِأَنَّهُ رَأَى أُسَامَةَ وَقَدْ عَادَ بِاللَّوَاءِ فَمَادَ هُوَ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُمَكِّنُهُ أَنْ يَسِيرَ إِلَى الرُّومِ وَحْدَهُ ، وَأَيْضًا فَإِنَّ أَصْحَابَنَا قَالُوا : إِنَّ وِلَايَةَ أُسَامَةَ بَطَلَتْ بِمَوْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَعَادَ الْأَمْرُ إِلَى رَأْيِ مَنْ يَنْصَبُ لِلْأَمْرِ ، قَالُوا : لِأَنَّ تَصَرُّفَ أُسَامَةَ إِنْ تَمَّا كَانَ مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، ثُمَّ زَالَ تَصَرُّفُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِمَوْتِهِ ، فَوَجَبَ أَنْ يَزُولَ تَصَرُّفُ أُسَامَةَ ، لِأَنَّ تَصَرُّفَهُ تَبِعَ لِتَصَرُّفِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . قَالُوا : وَذَلِكَ كَالْوَكِيلِ تَبَطَّلَ وَكَانَتْهُ بِمَوْتِ الْمَوْكَّلِ ، قَالُوا : وَيَفَارِقُ الْوَصِيَّ لِأَنَّ وَلَايَتَهُ لَا تَثْبُتُ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ الْوَصِيِّ ، فَهُوَ كَمَهْدِ الْإِمَامِ إِلَى غَيْرِهِ لَا يَثْبُتُ إِلَّا بَعْدَ مَوْتِ الْإِمَامِ ، ثُمَّ فَرَّعَ أَصْحَابُنَا عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مَسْأَلَةً وَهِيَ : الْحَاكِمُ هَلْ يَنْعَزِلُ بِمَوْتِ الْإِمَامِ أَمْ لَا ؟ قَالَ قَوْمٌ مِنْ أَصْحَابِنَا : لَا يَنْعَزِلُ وَبَنُوهُ عَلَى أَنْ التَّوَلَّى مِنْ غَيْرِ جِهَةِ الْإِمَامِ يَجُوزُ ، فَجَعَلُوا الْحَاكِمَ نَائِبًا عَنِ الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ ، لَا عَنِ الْإِمَامِ ،

فأما قول المرتضى فإن ذلك غير جائز ، لأن مخالفة النص حرام ، فقد قلنا : إن هذا مبنى على مسألة تخصيص العمومات الواردة في القرآن بالقياس .

وأما قوله : أى حاجة كانت لأبي بكر إلى عمر بعد وقوع البيعة ، ولم يكن هناك تنازع ولا اختلاف ! فعجيب ، وهل كان لولا مقام عمر وحضوره في تلك المقامات يتم لأبي بكر أمره أو ينتظم له حال ! ولولا عمر لما باع علي ولا الزبير ، ولا أكثر الأنصار ، والأمر في هذا أظهر من كل ظاهر .

\*\*\*

وسأبها : أن من يصلح للإمامة ممن ضمه جيش أسامة يجب تأخيرهم ليختار للإمامة أحدهم ، فإن ذلك أهم من نفوذهم ، فإذا جاز لهذه العلة التأخر قبل العقد جاز التأخر بعده للمعاوضة وغيرها .

فأما قول المرتضى : إن ذلك الجيش لم يضم من يصلح للإمامة ، فبناء على مذهبه في أن كل من ليس بمعصوم لا يصلح للإمامة . فأما قوله : ولو صح ذلك لم يكن عذراً في التأخر ، لأن من خرج في الجيش يمكن أن يختار ولو كان بعيداً ، ولا يمكن بعده من صحة الاختيار ، فلنائل أن يقول : دار الهجرة هي التي فيها أهل الحل والعقد ، وأقارب رسول الله صلى الله عليه وآله والقرءاء وأصحاب السقيفة ، فلا يجوز العدول عن الاجتماع والمشاورة فيها إلى الاختيار على البعد ، وعلى جناح السفر من غير مشاركة من ذكرنا من أعيان المسلمين .

فأما قوله : ولو صح هذا العقد لكان عذراً في التأخر قبل العقد ، فأما بعد إبرامه فلا عذر فيه ؛ فلنائل أن يقول : إذا أجزت التأخر قبل العقد لنوع من المصلحة فأجز التأخر بعد العقد لنوع آخر من المصلحة ، وهو المعاوضة والمساعدة .



هذه الوجوه السبعة كلها لبيان قوله : تأخر أبي بكر أو عمر عن النفوذ في جيش أسامة ، وإن كان مأمورا بالنفوذ .

\*\*\*

ثم نعود إلى تمام أقسام الفصل .

ومنها<sup>(١)</sup> قول قاضي القضاة : لا معنى لقول من قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله قصد إبعادهم عن المدينة ، لأن بُمدَّهم عنها لا يمنعهم من أن يختاروا واحداً منهم للإمامة ، ولأنه عليه السلام لم يكن قاطعاً على موته لا محالة ، لأنه لم يرد : تقدوا جيش أسامة في حياته .

وقد اعترض المرتضى هذا فقال : إنه لم يتبين معنى الطعن ، لأن الطاعن لا يقول : إنهم أبعدوا عن المدينة كي لا يختاروا واحداً للإمامة ، بل يقول : إنما أبعدوا لينتصب بعد موته صلى الله عليه وآله في المدينة الشخص الذي نص عليه ، ولا يكون حاضراً بالمدينة من يخالفه ويُنازعه ، وليس يضرنا ألا يكون صلى الله عليه وآله قاطعاً على موته ، لأنه وإن لم يكن قاطعاً فهو لا محالة يُشفق ويخاف من الموت ، وعلى الخائف أن يتحرز مما يخاف منه ؛ وكلام المرتضى في هذا الموضع أظهر من كلام قاضي القضاة .

ومنها قول قاضي القضاة : إن ولاية أسامة عليهما لا تقتضي كونهما دونَه في الفصل ، كما أن عمرو بن العاص لما وُلِّيَ عليهما لم يقتض كونه أفضل منهما . وقد اعترض المرتضى هذا بأنه<sup>(٢)</sup> يقيح تقديم المفضول على الفاضل فيما هو أفضل منه ، وأن تقديم عمرو بن العاص عليهما في الإمرة يقتضي أن يكون أفضل منهما فيما يرجع إلى الإمرة والسياسة ، ولا يقتضي أفضليته عليهما في غير ذلك ، وكذلك القول في أسامة .

(١) انظر ص ١٨٢ . (٢) د : « فإنه » .

ولفائل أن يقول : إنَّ الملوك قد يؤمرون الأمراء على الجيوش لوجهين : أحدها أن يقصد الملك بتأمير ذلك الشخص أن يسوس الجيش ويدبره بفضل رأيه وشيخوخته وقديم تجربته وما عرف من يُمن نقيته في الحرب وقود العساكر ، والثاني أن يؤمر على الجيش غلاماً حدثاً من غلمانه أو من ولده أو من أهله ، ويأمر الأكبر من الجيش أن يشقوه ويعلموه ، ويأمره أن يتدبر بتدبيرهم ، ويرجع إلى رأيهم ؛ ويكون قصد الملك من ذلك تخريج ذلك الغلام وتربيته على الإمارة ، وأن يُثبت له في نفوس الناس منزلةً ، وأن يُرشحه لجلال<sup>(١)</sup> الأمور ومماظم الشئون ، وفي الوجه الثاني لا يقبض ، فلم لا يجوز أن يكون تأمير أسامة عليهما من قبيل الوجه الثاني ؟ والحال يشهد لذلك ، لأنَّ أسامة كان غلاماً لم يبلغ ثمانى عشرة سنة حين قبض النبي صلى الله عليه وآله ، فمن أين حصل له من تجربة الحرب وممارسة الوقائع وقود الجيش ما يكون به أعرف بالإمرة من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وغيرهم !

ومنها قول قاضي القضاة : إنَّ السبب في كون عمر في الجيش أنه أنكر على عبد الله ابن عياش بن أبي ربيعة تسخطه إمرة أسامة ، وقال : أنا أخرج في جيش أسامة ؛ فخرج من تلقاء نفسه تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله . وقد أعتزضه المرتضى فقال : هذا شيء لم نسمعه من راوٍ ، ولا قرأناه في كتاب ؛ وصدق المرتضى فيما قال ، فإنَّ هذا حديثٌ غريب لا يُمرَف .

وأما قول عمر : دَعْنِي أَضْرِبْ عَنْقَهُ فَقَدْ نَافَقَ ؛ فنقول مشهورٌ لاحالة ، وإنَّما الغريب الذي لم يُعرف كون عمر خرج من تلقاء نفسه في الجيش مُراغمةً لعبد الله بن عياش ابن أبي ربيعة ، حيث أنكر ما أنكر ؛ ولعلَّ قاضي القضاة سمعه من راوٍ أو نقله من كتاب ، إلا أننا نحن ما وقفنا على ذلك .

(١) ب : « بجلال » ، وما أثبتته من ١ ، د . (٢) ١ : « سخطه » .

## الطعن الخامس

قالوا : إنه صلى الله عليه وآله لم يؤلّ أبابكر الأعمال ووَلّى غيره ، ولما ولّاه الحجّ بالناس وقراءة سُورَةِ بَرَاءَةِ عَلَى النَّاسِ ، عزّله عن ذلك كلّهُ . وجعل الأمر إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، وقال : « لا يؤدّى عني إلا أنا أو رجل مني » ، حتّى يرجع أبو بكر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله .

أجاب قاضي القضاة فقال : لو سلّمنا أنّه لم يؤلّه ، لمّا دلّ ذلك على نقص ، ولا على أنّه لم يصلح للإمامة ، بل لو قيل : أنّه لم يؤلّه لحاجته إليه بحضرته ، وإنّ ذلك رفعة له لكان أقرب ، لا سبّا ، وقد روى عنه ما يدلّ على أنهما وزيرا ، وإنّه كان صلى الله عليه وآله محتاجا إليهما وإلى رأيهما ، فلذلك لم يؤلّهما ، ولو كان للعمل على تركه فضل لكان عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وغيرهما أفضل من أكابر الصحابة ؛ لأنّه عليه السلام ولّاهما وقدّمهما ، وقد قدّمنا أن توليته هي بحسب الصّلاح ، وقد يؤلّى المفضول على الفاضل تارة والفاضل أخرى ، وربما وُلّي الواحد لاستغنائاه عنه بحضرته ، وربما ولّاه لاتّصال بينه وبين من يؤلّى عليه ، إلى غير ذلك . ثمّ ادّعى أنّه وُلّي أبابكر على الموسم والحجّ قد ثبتت بلا خلاف بين أهل الأخبار ولم يصحّ أنّه عزّله ، ولا يدلّ رجوع أبي بكر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله مستفهما عن القصة على المزّل ؛ ثمّ جعل إنكار من أنكر حجّ أبي بكر في تلك السنة بالناس ؛ كإنكار عبّاد وطبقته أخذ أمير المؤمنين عليه السلام سورة براءة من أبي بكر . وحكى عن أبي عليّ أنّ المعنى كان في أخذ الشّورة من أبي بكر أنّ من عادة العرب أن سيّدا من سادات قبائلهم إذا عقد عقد القوم ، فإنّ ذلك العقد لا ينحلّ إلّا أن يحلّه هو أو بعض سادات قومه ، فلما كان هذا عادتهم وأراد النبيّ صلى الله عليه وآله أن ينيذ<sup>(١)</sup> إليهم عقدهم ، وينقض ما كان بينه وبينهم ، علّم

(١) ينيذ المقد : نقضه .

أنه لا ينحلّ ذلك إلّا به أو بسيد من سادات رَهْطه، فمدّل عن أبي بكر إلى أمير المؤمنين المقرّب في النسب . ثمّ ادّعى أنّه صلّى الله عليه وآله ولّى أبا بكر في مرّضه الصّلاة ، وذلك أشرف الولايات ، وقال في ذلك : يأتي الله ورسوله والمسلمون إلّا أبا بكر .

ثمّ اعترض نفسه بصلاته عليه السلام خلف عبد الرحمن بن عوف : وأجاب بأنّه صلّى الله عليه وآله إنّما صلّى خلفه ، لا أنّه ولّاه الصلاة وقّده فيها . قال : وإنّما قدّم عبد الرحمن عند غيبة النبيّ صلّى الله عليه وآله فصلّى بغير أمره ، وقد ضاق الوقت ، فجاء النبيّ صلّى الله عليه وآله فصلّى خلفه (١) .

اعترض المرتضى فقال : قد بينّا أنّ تركه صلّى الله عليه وآله الولاية لِبعض أصحابه مع حضوره وإمكان ولايته والعدول عنه إلى غيره ، مع تطاول الزمان وامتداده ، لا بدّ من أن تقضى غلبة الظنّ بأنّه لا يصلح للولاية ، فأما ادّعاؤه أنّه لم يوكّله لأفتقاره إليه بحضرته وحاجته إلى تديره ورأيه ، فقد بينّا أنّه عليه السلام ما كان يفتقر إلى رأى أحدٍ لِكامله ورُجحانه على كلّ أحد ، وإنّما كان يُشاور أصحابه على سبيل التّعليم لهم والتّأديب ، أو لغير ذلك ممّا قد ذُكر . وبمّ ، فكيف استمرت هذه الحاجة ، واتّصلت منه إليهما حتّى لم يستغنّ في زمانٍ من الأزمان عن حضورهما فيوليّهما ! وهل هذا إلّا قدحٌ في رأى رسول الله صلّى الله عليه وآله ونسبته إلى أنّه كان ممّن يُحتاج إلى أن يلقن ويوقّف على كلّ شيء ، وقد نزهه الله تعالى عن ذلك ! فأما ادّعاؤه أنّ الرواية قد وردت بأنّهما وزيراه فقد كان يجب أن يصحّح ذلك قبل أن يعتمدوه ويحتجّ به ؛ فإنّنا ندفعه عنه أشدّ دفع . فأما ولاية عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فقد تكلمنا عليها من قبل ، وبينّا أنّ ولايتهما تدلّ على صلاحهما لِمَا وُلّياه ، ولا تدلّ على صلاحهما للإمامة ، لأنّ شرائط الإمامة لم تتكامل فيهما ، وبينّا أيضا أنّ ولاية الفضول على الفاضل لا تجوز ، فأما تَمَظيمه

وإكباره قولَ مَنْ يذهب إلى أن أبا بكر عَزَلَ عن أداء السُّورة والموسم جميعاً ، وجمعه بين ذلك في البعد وبين إنكار عباد أن يكون أمير المؤمنين عليه السلام أرتَجَعَ سورة براءة من أبي بكر ؛ فأول ما فيه أننا لا نُنكر أن يكون أكثر الأخبار واردة بأن أبا بكر حجَّ بالناس في تلك السنة ؛ إلا أنه قد رَوَى قومٌ من أصحابنا خلاف ذلك ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام كان أميرَ الموسم في تلك السنة ، وأن عَزَلَ الرجل كان عن الأمرين معاً . واستكبار ذلك . وفيه خلافٌ لا معنى له ، فأما ما حكاه عن عباد فإننا لا نعرفه ، وما نظنُّ أحداً يذهب إلى مثله ، وليس يمكنه بإزاء ذلك جَعْدَ مذهب أصحابنا الذي حكيناه ، وليس عباد لو صحَّت الروايةُ عنه بإزاء من ذكرناه ، فهو مليءٌ بالجهالات ودَفْعَ الضرورات . وبعد ، فلو سلَّمنا أن ولايةَ الموسم لم تُفسَخْ لكان الكلامُ باقياً ، لأنه إذا كان ماولى مع تطاول الزَّمان إلا هذه الولاية ، ثم سَلِبَ شطرها ، والأخفم الأعظم منها ، فليس ذلك إلا تنبيهها على ما ذكرناه .

فأما ما حكاه عن أبي عليٍّ من أن عادةَ العرب ألا يحلَّ ما عقَّده الرئيسُ منهم إلا هو أو المتقدم من رَهْطه ؛ فمعاذ الله أن يُجرى النبيَّ صلى الله عليه وآله سُنَّتَه وأحكامه على عادات الجاهليَّة ، وقد بينَّ عليه السلام لما رَجَعَ إليه أبو بكر يسأله عن أخذ السُّورة منه الحال ، فقال : إنَّه أُوحيَ إلىَّ ألا يؤدَّى عنى إلا أنا أو رجلٌ منى ، ولم يذكرْ ما أدَّاه أبو عليٍّ ؛ على أن هذه العادة قد كان يعرفها النبيَّ صلى الله عليه وآله قبلَ بَمِثْلِهِ أبا بكر بسُّورة براءة ، فما باله لم يَعمِدْها في الابتداء ويبعث من يجوز أن يحلَّ عقَّده من قومه !

فأما أدعاؤه ولايةَ أبي بكر الصَّلَاة فتد ذكرنا فيما تقدَّم أنَّهُ لم يُؤلَّه إياها . فأما فصلُّه بين صلاته خلف عبد الرحمن وبين صلاة أبي بكر بالناس ، فليس بشيء ، لأننا إذا كنَّا قد دلَّلنا على أن الرسولَ صلى الله عليه وآله ما قدَّم أبا بكر إلى الصَّلَاة ، فقد

أُسْتُوَى الأَمْرَانِ . وبعد ؛ فَأَيَّ فَرْقٍ بَيْنَ أَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَهُ وَبَيْنَ أَنْ يُؤَلِّيَهُ وَيَقْدِّمَهُ ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ صَلَاتَهُ خَلْفَهُ إِقْرَارٌ لَوْلَايَتِهِ وَرِضَاً بِهَا ، فَقَدْ عَادَ الْأَمْرُ إِلَى أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ كَأَنَّهُ قَدْ صَلَّى بِأَمْرِهِ . وَإِذْنُهُ ! عَلَى أَنَّ قِصَّةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَوْكَدُ ، لِأَنَّهُ قَدْ اعْتَرَفَ بِأَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى خَلْفَهُ ، وَلَمْ يَصِلْ خَلْفَ أَبِي بَكْرٍ ، وَإِنْ ذَهَبَ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَى أَنَّهُ قَدَّمَهُ وَأَمَرَهُ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ خُرُوجِهِ إِلَى الْمَسْجِدِ وَتَحَامُلِهِ .

ثُمَّ سَأَلَ الْمُرْتَضَى رَحِمَهُ اللَّهُ نَفْسَهُ ؛ فَقَالَ : إِنَّ قِيلَ : لَيْسَ يَخْلُو النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ سَلَّمَ فِي الْإِبْتِدَاءِ سُورَةَ بَرَاءَةٍ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِأَمْرِ اللَّهِ أَوْ بِأُجْتِهَادِهِ وَرَأْيِهِ ؛ فَإِنْ كَانَ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يَرْتَجِعَ مِنْهُ السُّورَةُ قَبْلَ وَقْتِ الْإِدَاءِ ، وَعِنْدَكُمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ نَسْخُ الشَّيْءِ قَبْلَ تَقْضِي وَقْتِ فِعْلِهِ ! وَإِنْ كَانَ بِأُجْتِهَادِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ ، فَعِنْدَكُمْ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيهَا يَجْرَى هَذَا الْمَجْرَى !

وَأَجَابَ فَقَالَ : إِنَّهُ مَا سَلَّمَ السُّورَةَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ إِلَّا بِإِذْنِهِ تَعَالَى ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُ بِإِدَائِهَا ، وَلَا كَلَّفَهُ قِرَاءَتَهَا عَلَى أَهْلِ الْمَوْسَمِ ، لِأَنَّ أَحَدًا لَمْ يُمَكِّنْهُ أَنْ يَنْقُلَ عَنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذَلِكَ لَفْظِ الْأَمْرِ وَالتَّكْلِيفِ ، فَكَأَنَّهُ سَلَّمَ سُورَةَ بَرَاءَةٍ إِلَيْهِ لَتَقْرَأَ عَلَى أَهْلِ الْمَوْسَمِ ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِذِكْرِ الْقَارِئِ الْمُبَلِّغِ لَهَا فِي الْحَالِ ؛ وَلَوْ نُقِلَ عَنْهُ تَصْرِيحٌ لَجَازَ أَنْ يَكُونَ مَشْرُوطًا بِشَرْطٍ لَمْ يَظْهَرْ .

فَإِنْ قِيلَ : فَأَيَّ فَائِدَةٍ فِي دَفْعِ السُّورَةِ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَهُوَ لَا يَرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَهَا ، ثُمَّ ارْتِجَاعِهَا مِنْهُ ؟ وَهَلَّا دُفِعَتْ فِي الْإِبْتِدَاءِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ !

قِيلَ : الْفَائِدَةُ فِي ذَلِكَ ظُهُورُ فَضْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَرْتَبَتِهِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الَّذِي نَزِعَتِ السُّورَةُ عَنْهُ لَا يَصْلُحُ لِمَا يَصْلُحُ لَهُ ، وَهَذَا غَرَضُ قَوِيٍّ فِي وَقْعِ الْأَمْرِ عَلَى مَا وَقَعَ عَلَيْهِ <sup>(١)</sup> .

قلت : قد ذكرنا فيما تقدم القول في تولية الملك بعض أصحابه ، وترك تولية بعضهم ، وكيفية الحال في ذلك ؛ على أنه قد روى أصحاب المغازي أنه أمر أبو بكر في شعبان من سنة سبع على سرية بمها إلى نجد فلقوا جمعا من هوازن فبيتهم<sup>(١)</sup> ؛ فروى إياس بن سلمة عن أبيه ؛ قال : كنت في ذلك البعث ، فقتلت بيدي سبعة منهم ، وكان شعارنا : « أُمِّتْ أُمِّتْ » ، وقتل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله قوم ، وجرح أبو بكر وأرث<sup>(٢)</sup> وعاد إلى المدينة ؛ على أن أمراء السرايا الذين كان يبعثهم صلى الله عليه وآله كانوا قوما مشهورين بالشجاعة ولقاء الحروب ، كمحمد بن مسلمة ، وأبي دجاجة ، وزيد بن حارثة ونحوهم ، ولم يكن أبو بكر مشهورا بالشجاعة ولقاء الحروب ، ولم يكن جباناً ولا خوارا<sup>(٣)</sup> وإنما كان رجلا مجتمع القلب عاقلا ، ذا رأى وحسن تدبير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يترك بمثله في السرايا ، لأن غيره أنفع منه فيها ، ولا يدل ذلك على أنه لا يصلح للإمامة ، وأن الإمامة لا تحتاج أن يكون صاحبها من المشهورين بالشجاعة ، وإنما يحتاج إلى ثبات القلب ، وألا يكون هلعاً طائر<sup>(٤)</sup> الجفان . وكيف يقول المرتضى : إنه صلى الله عليه وآله لم يكن محتاجاً إلى رأى أحد ، وقد نقل الناس كلهم رجوعه من رأى إلى رأى عند المشورة ، نحو ما جرى يوم بدر من تغير المنزل لما أشار عليه الحباب بن المنذر ، ونحو ما جرى يوم الخندق من فسخ رأيه في دفع ثلث تمر المدينة إلى عيينة بن حصن ليرجع بالأحزاب عنهم ، لأجل ما رآه سعد بن معاذ وسعد بن عباد من الحرب ، والمداول عن الصلح ، ونحو ما جرى في تلقيح النخل بالمدينة وغير ذلك ! فأما ولاية أبي بكر الموسم فأكثر الأخبار على ذلك ، ولم يرو عنه عزله عن الموسم إلا قوم من الشيعة .

(١) بيتهم ؛ أي دبروا أمرهم .

(٢) أرث ، على البناء المجهول : حمل من المعركة رهيناً ؛ أي جريحاً وبه رمق .

(٣) الحوار : الضعيف . (٤) الهلع : الخش الجزع .

وأما ما أنكره المرتضى من حال عباد بن سليمان ودفعه أن يكون على أخذ براءة من أبي بكر واستغرابه ذلك عجب ، فإن قول عباد قد ذهب إليه كثير من الناس ، ورَوَوْا أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يدفع براءة إلى أبي بكر ، وأنه بعد أن نفذ أبو بكر بالحجيج أتبعه عليًا ومعه تسع آيات من براءة ، وقد أمره أن يقرأها على الناس ويؤذنهم بنقض العهد وقطع الدنيا ، فانصرف أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأعاده على الحجيج ، وقال له : أنت الأمير ، وعلى المبلغ ، فإنه لا يبلغ عني إلا أنا أو رجل مني ، ولم ينكر عباد أمر براءة بالكلية ، وإنما أنكر أن يكون النبي صلى الله عليه وآله دفعها إلى أبي بكر ثم انتزعتها منه ، وطائفة عظيمة من المحدثين يروون ما ذكرناه ، وإن كان الأكثر الأظهر أنه دفعها إليه ثم أتبعه بعلي عليه السلام فانزعها منه ؛ والمقصود أن المرتضى قد تعجب مما لا يتعجب من مثله ، فظن أن عبادا أنكر حديث براءة بالكلية ، وقد وقفت أنا على ما ذكره عباد في هذه القضية في كتابه المعروف بكتاب " الأبواب " ، وهو الكتاب الذي نقضه شيخنا أبو هاشم ، فأما عذر شيخنا أبي علي ، وقوله : إن عادة العرب ذلك ، واعتراض المرتضى عليه ، فالذي قاله المرتضى أصح وأظهر ، وما نسب إلى عادة العرب غير معروف ، وإنما هو تأويل تأول به متمصبو أبي بكر لانتزاع براءة منه ، وليس بشيء . ولست أقول ما قاله المرتضى من أن غرض رسول الله صلى الله عليه وآله إظهار أن أبا بكر لا يصلح للأداء عنه ، بل أقول : فعمل ذلك لمصلحة رآها ، ولعل السبب في ذلك أن عليًا عليه السلام من بني عبد مناف وهم جرة قريش بمكة ، وعليًا أيضًا شجاع لا يُقام له<sup>(١)</sup> ، وقد حصل في صدور قريش منه الهيبة الشديدة والخافة العظيمة ، فإذا حصل مثل هذا الشجاع البطل وحوله من بني عمه وهم أهل العزة والقوة والحيّة ،

(١) ب : « لا يقال » تحريف .



كان أَدعى إلى نجاته من قريش ، وسلامة نفسه وبلوغ الغرض من نَبَذ العهد على يده ؛ ألا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وآله في عمرة الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى مكة يطلب منهم الإذن له في الدخول ، وإنما بعثه لأنه من بنى عبد مناف ، ولم يكن بنو عبد مناف - وخصوصاً بنى عبد شمس - ليمكثوا من قتله ، ولذلك حمل بنو سعيد ابن العاص على بعير يوم دَخَلَ مكة وأحدقوا به مُستلثمين<sup>(١)</sup> بالسلاح ، وقالوا له : أقبل وأدبر ، ولا تخف أحداً ، بنو سعيد أعزّة الحرم . وأما القول في تولية رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر الصّلاة ، فقد تقدّم ، وما رامه قاضي القضاة من الفرق بين صلاة أبي بكر بالناس وصلاة عبد الرحمن بهم ، مع كون رسول الله صلى الله عليه وآله صلى خلفه ضعيفاً ، وكلام المرتضى أقوى منه . فأما السؤال الذى سألته المرتضى من نفسه فقوى ، والجواب الصحيح أن بعث براءة مع أبي بكر كان باجتهاد من الرسول صلى الله عليه وآله ، ولم يكن عن وَحْي ولا من جملة الشرائع التى تُتَلَقَّى عن جبرائيل عليه السلام ، فلم يقبَح نَسْخُ ذلك قبل تقضى وقت فعله ، وجواب المرتضى ليس بقوى ، لأنه من البعيد أن يُسَلَّم سورة براءة إلى أبي بكر ولا يقال له : ماذا تصنع بها ؟ بل يقال : خذ هذه معك لا غير . والقول بأن الكلام مشروط بشرط لم يظهر خلاف الظاهر ، وفتح هذا الباب يُفسد كثيراً من القواعد .

\*\*\*

### الطعن السادس

إن أبا بكر لم يكن يعرف الفقه وأحكام الشريعة ، فقد قال فى الكَلالة<sup>(٢)</sup> : أقول

(١) المستلثم : لابس اللأمة .

(٢) الكَلالة : من لا ولد له ولا والد ، وما لم يكن من النسب لى .

فيها برأى ، فإن يكن صواباً فمن الله ، وإن يكن خطأ فنتى<sup>(١)</sup> ، ولم يعرف ميراث الجد ، ومن حاله هذه لا يصلح للإمامة .

أجاب قاضي القضاة بأن الإمام لا يجب أن يعلم جميع الأحكام ، وأن القدر الذي يحتاج إليه هو القدر الذي يحتاج إليه الحاكم ، وأن القول بالرأى هو الواجب فيما لا نص فيه ، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام بالرأى في مسائل كثيرة .

اعترض المرتضى فقال : قد دللنا على أن الإمام لا بد أن يكون عالماً بجميع الشرعيات ، وفرقنا بينه وبين الحاكم ، ودللنا على فساد الرأى والاجتهاد . وأما أمير المؤمنين عليه السلام فلم يقل قط بالرأى ، وما يروى من خبر بيع أمهات الأولاد غير صحيح ، ولو صح لجاز أن يكون أراد بالرأى الرجوع إلى النصوص والأدلة ، ولا شبهة عندنا أن قوله كان واحداً في الحالين<sup>(٢)</sup> ، وإن ظهر في أحدها خلاف مذهبه للتقية<sup>(٣)</sup> .

\*\*\*

قلت : هذا الطعن مبني على أمرين : أحدهما هل من شرط الإمامة أن يعلم الإمام كل الأحكام الشرعية أم لا ؟ وهذا مذكور في كتبنا الكلامية ؛ والثاني هو القول في الاجتهاد والرأى حق أم لا ؟ وهذا مذكور في كتبنا الأصولية .

\*\*\*

### الطعن السابع

قصة خالد بن الوليد وقتله مالك بن نويرة ومضاعفته امرأته من ليلته ، وأن أبا بكر

---

(١) الشافعي : فني ومن الشيطان ، ونحو قوله وقد سئل عن قوله : ﴿ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴾ ، فلم يعرف معناه ، والأب : المرعى في اللغة ، لا يذهب على أحده أدنى أنس بالعربية ، ونحو ميراث الجدة وأنه لم يعرف الحكم فيه ، ونظائر ذلك كثيرة معروفة . (٢) ب : « القولين » . (٣) انظر الشافعي ٤٢٢ .

تَرَكَ إِقَامَةَ الْحَدِّ عَلَيْهِ ، وَزَعَمَ أَنَّهُ سَيْفٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ سَلَّهَ اللَّهُ عَلَى أَعْدَائِهِ ، مَعَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَوْجَبَ الْقَوْدَ وَحَدَّ الزَّانَا عُمُومًا ، وَأَنَّ عَمَرَ نَبِيَّهُ وَقَالَ لَهُ : اقْتُلْهُ ، فَإِنَّهُ قَتَلَ مُسْلِمًا .

أَجَاب قَاضِي الْقَضَاءُ فَقَالَ : إِنَّ شَيْخَنَا أَبَا عَلِيٍّ قَالَ : إِنَّ الرِّدَّةَ ظَهَرَتْ مِنْ مَالِكِ بْنِ نُوَيْرَةَ ، لِأَنَّهُ جَاءَ فِي الْأَخْبَارِ أَنَّهُ رَدَّ صَدَقَاتِ قَوْمِهِ عَلَيْهِمْ لَمَّا بَلَغَهُ مَوْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَمَا فَعَلَهُ سَائِرُ أَهْلِ الرِّدَّةِ فَاسْتَحَقَّ الْقَتْلَ . فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ : فَقَدْ كَانَ يَصَلِّي ، قِيلَ لَهُ : وَكَذَلِكَ سَائِرُ أَهْلِ الرِّدَّةِ ، وَإِنَّمَا كَفَرُوا بِالْإِمْتِنَاعِ مِنَ الزَّكَاةِ ، وَأَعْتَقَادِهِمْ إِسْقَاطَ وَجُوبِهَا دُونَ غَيْرِهِ . فَإِنْ قِيلَ : فَلِمَ أُنْكَرَ عُمَرُ ؟ قِيلَ : كَانَ الْأَمْرُ إِلَى أَبِي بَكْرٍ ، فَلَا وَجْهَ لِلْإِنْكَارِ عَمَرًا ، وَقَدْ يَجُوزُ أَنْ يَمْلِكُمْ أَبُو بَكْرٍ مِنَ الْحَالِ مَا يَخْفَى عَلَى عَمَرَ . فَإِنْ قِيلَ : فَمَا مَعْنَى مَا رَوَى عَنْ أَبِي بَكْرٍ مِنْ أَنَّ خَالِدًا تَأَوَّلَ فَأَخْطَأَ ، قِيلَ : أَرَادَ مَحْكَمَتَهُ عَلَيْهِ بِالْقَتْلِ ، وَقَدْ كَانَ الْوَاجِبُ عِنْدَهُ عَلَى خَالِدٍ أَنْ يَتَوَقَّفَ لِلشُّبْهَةِ . وَاسْتَدَلَّ أَبُو عَلِيٍّ عَلَى رِدَّتِهِ بِأَنَّ أَخَاهُ مَتَمَّمُ بْنُ نُوَيْرَةَ لَمَّا أُنْشِدَ عَمَرَ مَرْثِيَّتَهُ أَخَاهُ قَالَ لَهُ : وَدِدْتُ أَنْ أَقُولُ الشَّعْرَ فَأَرَى أَخِي زَيْدًا بِمِثْلِ مَا رَكِبْتَ بِهِ أَخَاكَ ! فَقَالَ مَتَمَّمُ : لَوْ قُتِلَ أَخِي عَلَى مِثْلِ مَا قُتِلَ عَلَيْهِ أَخُوكَ مَارِئِيَّتُهُ ، فَقَالَ عَمَرُ : مَا عَزَانِي أَحَدٌ بِمِثْلِ تَعَزِّيَّتِكَ ، فَدَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ مَالِكًا لَمْ يُقْتَلْ عَلَى الْإِسْلَامِ كَمَا قُتِلَ زَيْدٌ .

وَأَجَابَ عَنْ تَزْوِيجِ خَالِدٍ بِأَمْرَاتِهِ بِأَنَّهُ إِذَا قُتِلَ عَلَى الرِّدَّةِ فِي دَارِ الْكُفْرِ جَازَ تَزْوِيجُ أَمْرَاتِهِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، وَإِنْ كَانَ لَا يَجُوزُ أَنْ يَطَّأَهَا إِلَّا بَعْدَ الْأَسْتَبْرَاءِ .

وَحَكَى عَنْ أَبِي عَلِيٍّ أَنَّهُ إِنَّمَا قَتَلَهُ لِأَنَّهُ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَ : «صَاحِبُكَ» ، وَأَوْهَمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَيْسَ بِصَاحِبِهِ ، وَكَانَ عِنْدَهُ أَنَّ ذَلِكَ رِدَّةٌ وَعِلْمٌ عِنْدَ الْمَشَاهِدَةِ

المَقْصِد، وهو أميرُ القوم، فجاز أن يَقْتُلَهُ وإن كان الأولَى أَلَا يَسْتَعِجِل، وأن يكشف الأَمْرَ في رِدَّتِهِ حَتَّى يَتَضَحَّ، فلهذا لم يَقْتُلَهُ أبو بكر به . فَأَمَّا وَطْؤُهُ لَأَمْرَاتِهِ فلم يَثْبُتْ، فلا يصحُّ أن يُجْعَلَ طَمَعًا فِيهِ <sup>(١)</sup> .

اعْتَرَضَ الرِّضِيُّ فَقَالَ : أَمَامَنُ خَالِدٍ فِي قَتْلِ مَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ وَأَسْتَبَاحَةَ أَمْرَاتِهِ وَأُمُوهُ لِنَسَبَتِهِ إِيَّاهُ إِلَى رِدَّةٍ لَمْ تَظْهَرَ مِنْهُ ، بَلْ كَانَ الظَّاهِرُ خِلَافُهَا مِنَ الْإِسْلَامِ ، فَمُظْمٍ . وَبِجَرِّ جِرَاهُ فِي الْعِظَمِ تَنَافُلٌ مِنْ تَغَافُلٍ عَنْ أَمْرِهِ ، وَلَمْ يُقَمْ فِيهِ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَقْرَهُ عَلَى الْخَطَا الَّذِي شَهِدَ هُوَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيَجْرِي جِرَاحُهَا مِمَّنْ أَمَكَّنَهُ أَنْ يَعْلَمَ الْحَالَ فَأَهْمَكُهَا وَلَمْ يَتَصَفَّحْ مَا رَوَى مِنَ الْأَخْبَارِ فِي هَذَا الْبَابِ وَتَعَصَّبَ لِأَسْلَافِهِ وَمِزْجِهِ . وَكَيْفَ يَجُوزُ عِنْدَ خُصُومِنَا عَلَى مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ جَحْدُ الزَّكَاةِ مَعَ الْمَقَامِ عَلَى الصَّلَاةِ ، وَهِيَ جَمِيعًا فِي قَرْنٍ <sup>(٢)</sup> ! لَأَنَّ الْعِلْمَ الْفَرُوقِيَّ بَأَنَّهُمَا مِنْ دِينِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَشَرِيعَتِهِ عَلَى حَدٍّ وَاحِدٍ ، وَهَلْ نَسَبُهُ مَالِكٍ إِلَى الرِّدَّةِ مَعَ مَا ذَكَرْنَاهُ إِلَّا قَدْخُ فِي الْأَصُولِ وَنَقْضُ مَا تَضَمَّنَتْهُ مِنْ أَنَّ الزَّكَاةَ مَعْلُومَةٌ ضَرُورَةٌ مِنْ دِينِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَأَعْجَبُ مِنْ كُلِّ عَجِيبٍ قَوْلُهُ : وَكَذَلِكَ سَاطِرُ أَهْلِ الرِّدَّةِ ، يَعْنِي أَنَّهُمْ كَانُوا يَصَلُّونَ وَيَجْعَدُونَ الزَّكَاةَ ، لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا أَنَّ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ غَيْرُ مُمْكِنٍ ! وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ ، وَقَدْ رَوَى جَمِيعُ أَهْلِ التَّنْقِيلِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ لَمَّا وَصَّى الْجَيْشَ الَّذِينَ أَنْذَرَهُمْ بِأَنْ يُؤَذَّنُوا وَيُؤَيَّمُوا ، فَإِنْ أَذَّنَ الْقَوْمُ كَأَذَانِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ كَفَّوْا عَنْهُمْ ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا أَغَارُوا عَلَيْهِمْ ، فَجَعَلَ أَمَارَةَ الْإِسْلَامِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الرِّدَّةِ الْأَذَانَ وَالْإِقَامَةَ ! وَكَيْفَ يُطْلَقُ فِي سَاطِرِ أَهْلِ الرِّدَّةِ مَا أَطْلَقَهُ مِنْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَصَلُّونَ ، وَقَدْ عَلِمْنَا أَنَّ أَصْحَابَ مُسَيْلَمَةَ وَطَلْحَةَ وَغَيْرِهِمَا مِمَّنْ كَانَ أَدْعَى النَّبُوَّةَ وَخَلَعَ الشَّرِيعَةَ مَا كَانُوا يَرَوْنَ الصَّلَاةَ وَلَا شَيْئًا مِمَّا جَاءَتْ بِهِ شَرِيعَتُنَا . وَقِصَّةُ مَالِكٍ مَعْرُوفَةٌ عِنْدَ مَنْ تَأَمَّلَ كِتَابَ السِّيَرِ وَالنَّقْلِ ، لِأَنَّهُ كَانَ عَلَى صَدَقَاتِ قَوْمِهِ بَنَى

(١) نقله الشافعي في المرتضى ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٢) القرن : الحبل ؛ والسلام على الاستعارة .

يَرْبُوعَ وَالْيَا مِنْ قَبْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَلَمَّا بَلَغَتْهُ وَفَاةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمْسَكَ عَنْ أَخْذِ الصَّدَقَةِ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ لَهُمْ : تَرَبَّصُوا بِهَا حَتَّى يَقُومَ قَائِمٌ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَنَنْظُرَ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِهِ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي شَعْرِهِ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَالَ رَجُلٌ سَدَّدَ الْيَوْمَ مَالِكٌ	وَقَالَ رَجُلٌ مَالِكٌ لَمْ يَسْدِدْ
فَقُلْتُ : دَعُونِي لَا أَبَا لِأَيِّكُمْ	فَلَمْ أُخْطِرْ رَأْيًا فِي الْقَامِ وَلَا النَّدَى
وَقُلْتُ : خَذُوا أَمْوَالَكُمْ غَيْرَ خَائِفٍ	وَلَا نَاطِرٍ فِيمَا يَجِيءُ بِهِ غَدَى
فَدُونَكُمْ مَوَاهِجًا إِنَّمَا هِيَ مَالِكُمْ	مَصُورَةٌ أَخْلَاقُهَا لَمْ تَجْدِدْ
سَأَجْعَلُ نَفْسِي دُونَ مَا تَحْذَرُونَهُ	وَأُرْهِنُكُمْ يَوْمًا بِمَا قُلْتُمْ يَدِي
فَإِنْ قَامَ بِالْأَمْرِ الْمَجْدِدُ قَائِمٌ	أَطْعَمْنَا وَقَلْنَا : الدِّينُ دِينُ مُحَمَّدٍ

فَصَرَّحَ كَمَا تَرَى أَنَّهُ اسْتَبَقَى الصَّدَقَةَ فِي أَيْدِي قَوْمِهِ رِفْقًا بِهِمْ ، وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ ، إِلَى أَنْ يَقُومَ بِالْأَمْرِ مَنْ يَدْفَعُ ذَلِكَ إِلَيْهِ . وَقَدْ رَوَى جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ السِّيَرِ ، وَذَكَرَهُ الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ ؛ أَنَّ مَالِكًَا نَهَى قَوْمَهُ عَنِ الْاجْتِمَاعِ عَلَى مَنَعِ الصَّدَقَاتِ وَفَرَّقَهُمْ ، وَقَالَ : يَا بَنِي يَرْبُوعَ ، إِنَّا كُنَّا قَدْ عَصَيْنَا أَمْرًا إِذْ دَعَوْنَا إِلَى هَذَا الدِّينِ ، وَبَطَّأْنَا النَّاسَ عَنْهُ ، فَلَمْ نُفْلِحْ وَلَمْ نَنْجَحْ ، وَإِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ فَوَجَدْتُ الْأَمْرَ يَتَأْتِي هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ بغيرِ سِيَاسَةٍ ، وَإِذَا أَمَرَ لَا يَسُوسُهُ النَّاسُ ؛ فَإَيَّاكُمْ وَمُعَادَاةَ قَوْمٍ يُصْنَعُ لَهُمْ فَتَفَرَّقُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَمْوَالِهِمْ ، وَرَجَعَ مَالِكٌ إِلَى مَنْزِلِهِ ، فَلَمَّا قَدِمَ خَالِدُ الْبَطَّاحِ بَثَّ السَّرَايَا وَأَمَرَهُمْ بِدَاعِيَةِ الْإِسْلَامِ وَأَنْ يَأْتُوهُ بِكُلِّ مَنْ لَمْ يُجِبْ ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ أَمْتَنَعَ أَنْ يَقَاتِلُوهُ ، بَخَاءُ تَهْتِ الْخَيْلِ بِمَالِكِ بْنِ نُؤَيْرَةَ فِي نَقَرٍ مِنْ بَنِي يَرْبُوعَ ؛ وَاخْتَلَفَ السَّرِيَّةُ فِي أَمْرِهِمْ ، وَفِي السَّرِيَّةِ أَبُو قَتَادَةَ الْحَارِثُ بْنُ رَبِيعٍ ، فَكَانَ مِمَّنْ شَهِدَ أَنَّهُمْ أَذْنُوا وَأَقَامُوا وَصَلُّوا ، فَلَمَّا اخْتَلَفُوا فِيهِمْ

أمرهم خالد فحسبوا وكانت ليلة باردة لا يقوم لها شيء ، فأمر خالد منادياً يُنادي : « أدفئوا أسراءكم »<sup>(٢)</sup> ، فظنوا أنهم أمرُوا بقتلهم ، لأن هذه اللفظة تستعمل في لغة كنانة لاقتل ، فقتلَ ضِرَارُ بْنُ الْأَزْوَْرِ مالكا ، وتزوج خالد زوجته أم تميم بلى المنهال<sup>(٣)</sup> .

وفي خبر آخر أن السرية التي بعث بها خالد لما غشيت القوم تحت الليل راءوهم ، فأخذ القوم السلاح ! قال : فقلنا : إنا المسلمون ، فقالوا : ونحن المسلمون ، قلنا : فما بالُ السلاح معكم ! قلنا : فضعوا السلاح ؛ فلما وضعوا السلاح ربطوا أسارى فأتوا بهم خالدا . فحدث أبو قتادة خالد بن الوليد أن القوم نادوا بالإسلام ، وأن لهم أماناً ، فلم يلتفت خالد إلى قولهم وأمر بقتلهم ، وقسم سببيهم ، وحلف أبو قتادة ألا يسير تحت لواء خالد في جيش أبداً ، وركب فرسه شاذاً إلى أبي بكر ، فأخبره الخبر ، وقال له : إني نهيتُ خالدا عن قتله ، فلم يقبل قولي ، وأخذ بشهادة الأعراب الذين غرضهم الغنائم ، وإن عمر لما سمع ذلك تكلم فيه عند أبي بكر فأكثر وقال : إن القصاص قد وجب عليه . ولما أقبل خالد ابن الوليد قافلاً دخل المسجد وعليه قباء له عليه صدأ الحديد ، مُمتجراً<sup>(٤)</sup> بعمامة له قد فرز في عمامته أسهما ، فلما دخل المسجد قام إليه عمر فزاع الأسهم عن رأسه فخطمها ، ثم قال له : فاعدو نفسيه ، أعدوت على امرئ مسلم فقتلته ، ثم نزوت على امرأته ! والله لترجمنك بأحجارك . وخالد لا يكلمه ، ولا يظن إلا أن رأى أبي بكر مثل رأيه حتى دخل إلى أبي بكر وأعتذر إليه بمذره وتجاوز عنه ، فخرج خالد وعمر جالس في المسجد فقال : هلُم إلي يا ابن أم شحلة ! فعرف عمر أن أبا بكر قد رضى عنه فلم يكلمه ، ودخل بيته<sup>(٥)</sup> .

وقد روى أيضا أن عمر لما وُلِّيَ جمع من عشيرة مالك بن نويرة من وجد منهم

(١) ب : « ادفو » ، صوابه في د والطبرى . (٢) الطبرى : « أسراءكم » .

(٣) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٨ ( المعارف ) ، مع تصرف واختصار .

(٤) اعتبر العامة : لبسها . (٥) تاريخ الطبرى ٣ : ٢٧٩ . ٢٨٠ .

وَأَسْتَرْجَعَ مَا وَجَدَ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، فَرَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا مَعَ نَصِيئِهِمْ كَانَتْ مِنْهُمْ . وَقِيلَ : إِنَّهُ ارْتَجَعَ بَعْضَ نِسَائِهِمْ مِنْ نَوَاحِي دِمَشْقَ ، وَبَعْضَهُنَّ حَوَامِلَ ، فَرَدَّهِنَّ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ . فَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ فِي خَطَا خَالِدٍ ، وَخَطَا مِنْ تَجَاوَزَ عَنْهُ . وَقَوْلُ صَاحِبِ الْكِتَابِ : إِنَّهُ يَجُوزُ أَنْ يَخْفَى عَنْ عُمَرَ مَا يَظْهَرُ لِأَبِي بَكْرٍ لَيْسَ بِشَيْءٍ ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ فِي قِصَّةِ خَالِدٍ لَمْ يَكُنْ مُشْتَبَهًا ، بَلْ كَانَ مُشَاهِدًا مَعْلُومًا لِكُلِّ مَنْ حَضَرَهُ ؛ وَمَا تَأَوَّلَ بِهِ فِي الْقَتْلِ لَا يُعْذَرُ لِأَجْلِهِ ، وَمَا رَأَيْنَا أَبَا بَكْرٍ حَكَمَ فِيهِ بِحُكْمِ التَّأَوَّلِ وَلَا غَيْرِهِ ، وَلَا تَلَاقَى خَطَاهُ وَزَلَّتْهُ ، وَكَوْنُهُ سَيِّئًا مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ عَلَى مَا ادَّعَاهُ لَا يَسْقُطُ عَنْهُ الْأَحْكَامُ ، وَيَبْرُتُهُ مِنَ الْآثَامِ . وَأَمَّا قَوْلُ مَتِّعٍ : لَوْ قُتِلَ أَخِي عَلَى مَا قُتِلَ عَلَيْهِ أَخُوكَ لَمَا رَكِبْتُهُ ، لَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُرْتَدًّا ، فَكَيْفَ يَظُنُّ عَاقِلٌ أَنَّ مَتًّا يَعْتَرِفُ بِرِدَّةِ أَخِيهِ وَهُوَ يَطَالِبُ أَبَا بَكْرٍ بِدَمِهِ وَالْاِقْتِصَاصِ مِنْ قَاتِلِيهِ ، وَرَدَّ سَبِيهِ ، وَأَنَّهُ أَرَادَ فِي الْجُمْلَةِ التَّقَرُّبَ إِلَى عُمَرَ بِتَقْرِيطِ أَخِيهِ ! ثُمَّ لَوْ كَانَ ظَاهِرَ هَذَا الْقَوْلِ كِبَاظُهُ لَكَانَ إِنَّمَا يَقْصِدُ تَفْضِيلَ قِتْلَةِ زَيْدٍ عَلَى قِتْلَةِ مَالِكٍ ، وَالْحَالُ فِي ذَلِكَ أَظْهَرَ ، لِأَنَّ زَيْدًا قُتِلَ فِي بَعْثِ الْمُسْلِمِينَ ذَا أَبَا عَنْ وَجُوهِهِمْ ، وَمَالِكٌ قُتِلَ عَلَى شُبْهَةٍ ، وَبَيْنَ الْأَمْرَيْنِ فَرْقٌ .

وَأَمَّا قَوْلُهُ فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « صَاحِبُكَ » فَقَدْ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : إِنَّهُ أَرَادَ الْقُرَشِيَّةَ لِأَنَّ خَالِدًا قُرَشِيٌّ . وَبَعْدَ ، فَلَيْسَ فِي ظَاهِرِ إِضَافَتِهِ إِلَيْهِ دَلَالَةٌ عَلَى تَفْيِهِ لَهُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَلَوْ كَانَ عِلْمُ مَنْ مَقْصِدُهُ الْأَسْتِخْفَافَ وَالْإِهَانَةَ عَلَى مَا ادَّعَاهُ صَاحِبُ الْكِتَابِ لَوَجِبَ أَنْ يَعْتَذِرَ خَالِدٌ بِذَلِكَ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَيَعْتَذِرَ بِهِ أَبُو بَكْرٍ لَمَّا طَالَبَهُ عُمَرُ بِقَتْلِهِ ، فَإِنَّ عُمَرَ مَا كَانَ يَمْنَعُ مِنْ قَتْلِ قَادِحٍ فِي نُبُوَّةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ فَأَيُّ مَعْنَى لِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ : تَأَوَّلَ فَأَخْطَا ! وَإِنَّمَا تَأَوَّلَ فَأَصَابَ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ عَلَى مَا ذَكَرَ <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

قلت : أما تعجب المرتضى من كون قومٍ منموا الزكاة وأقاموا على الصلاة ودعواه أن هذا غير ممكن ولا صحيح ، فالحجب منه كيف يُنكر وقوع ذلك ، وكيف ينكر إمكانه ! أما الإمكان فلأنه لا ملازمة بين العبادتين إلا من كونهما مقترنتين في بعض المواضع في القرآن ، وذلك لا يُوجب تلازمهما في الوجود ، أو من قوله : إن الناس يعلمون كون الزكاة واجبة في دين الإسلام ضرورة ، كما تعلمون كون الصلاة في دين الإسلام ضرورة ، وهذا لا يمنع اعتقادهم سقوط وجوب الزكاة لشبهة دخلت عليهم . فإنهم قالوا : إن الله تعالى قال لرسوله : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ ﴾ (٢) قالوا : فوصف الصدقة المفروضة بأنها صدقة من شأنها أن يطهر رسول الله صلى الله عليه وآله الناس ويزكّيهم بأخذها منهم ، ثم عقب ذلك بأن فرض عليه مع أخذ الزكاة منهم أن يصلي عليهم صلاة تكون سكنا لهم . قالوا : وهذه الصفات لا تتحقق في غيره ؛ لأن غيره لا يطهر الناس ويزكّيهم بأخذ الصدقة ، ولا إذا صلى على الناس كانت صلاته سكنا لهم ، فلم يجب علينا دفع الزكاة إلى غيره . وهذه الشبهة لا تنافي كون الزكاة معلوما وجوبها ضرورة من دين محمد صلى الله عليه وآله ، لأنهم ما جحدوا وجوبها ، ولكنهم قالوا : إنه وجوب مشروط ؛ وليس يُعلم بالضرورة انتفاء كونها مشروطة ، وإنما يُعلم ذلك بنظر وتأويل ، فقد بان أن ما ادّعاه من الضرورة ليس بدال على أنه لا يمكن أحد اعتقاد نفي وجوب الزكاة بعد موت الرسول ، ولو عرّضت مثل هذه الشبهة في صلاة لصحّ لذهاب أن يذهب إلى أنها قد سقطت عن الناس ؛ فأما الوقوع فهو المعلوم ضرورة بالتواتر ، كالعلم بأن أبا بكر ولي الخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله ضرورة بطريق التواتر ، ومن أراد الوقوف على ذلك فليُنظر في كتب التواريخ



أبا بكر ردَّ سؤال العرب ولم يُجبهم من مُجلته :

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا فيالعماد الله ما لأبي بكر (١)  
أيورثها بكره إذا مات بعده وتلك لعمر الله قاصمة الظهر  
فهلّا ردّدتم وفدنا بإجابة وهلاّ حسبتُم منه راسية البكر  
فإنّ الذي سألوكُم فنعمتم لكاتمر أو أخلى لحلف بني فهر (٢)

وروى أبو جعفر قال : لما قدّمت العرب المدينة على أبي بكر فكلّموه في إسقاط الزكاة، نزّلوا على وجوه الناس بالمدينة فلم يبق أحدٌ إلّا وأنزل عليه ناساً منهم ، إلا العباس ابن عبد المطلب ، ثم اجتمع إلى أبي بكر المسلمون ، نخوفوه بأس العرب واجتماعها . قال رضار بن الأزور : فما رأيتُ أحداً - ليس رسول الله - أملاً بحرب شعواء من أبي بكر فجعلنا (٣) نخوفه (٤) ونزّوه ، وكأنّما إنّما نخبره بما له لا ما عليه ، واجتمعت كلمة المسلمين على إجابة العرب إلى ما طلبت ، وأبي أبو بكر أن يفعل إلّا ما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يأخذ إلّا ما كان يأخذ ، ثم أجّلهم يوماً وليلة ، ثم أمرهم بالانصراف ، وطاروا إلى عشارهم (٥) .

وروى أبو جعفر ، قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث عمرو بن العاص إلى عُمان قبل موته ، فأتوه وهو بُعْمان ، فأقبل قافلاً إلى المدينة ، فوجد العرب قد منعت الزكاة ، فنزل في بني عامر على قُرّة بن هبيرة ، وقُرّة يقدّم رجلاً ويؤخّر أخرى ، وعلى ذلك بنو عامر كلّهم إلّا الخواص . ثم قدّم المدينة ، فأطافت به قريش ، فأخبرهم أن المساكر مُعسكرة حولهم ، فتفرّق المسلمون ، وتحلّقوا حلّقا ، وأقبل عمر بن الخطاب ، فرّ بحلقة

(١) أورد صاحب الأغاني البيت الأول والثاني ( ٢ : ١٥٧ - طبعة دار الكتب ) ونسبهما إلى الخطيئة .

(٢) الطبري ٣ : ٢٤٦ ، وفيه : « أو أخلى إلى من التمر » .

(٣) ب : « يجعلنا » ، وصوابه من الطبري ، د . (٤) الطبري : « نخبره » .

(٥) تاريخ الطبري ٣ : ٢٥٨ .

وهم يتحدثون فيما سمعوا من عمرو ، وفي تلك الحلقة على عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد ، فلما دنا عمر منهم سكتوا ، فقال : في أي شيء أنتم ؟ فلم يخبروه ؛ فقال : ما أعلمني بالذي خلوتم عليه ! فغضب طلحة وقال : الله يابن الخطاب ! إنك لتعلم الغيب ! فقال : لا يعلم الغيب إلا الله ، ولكن أظن قلتهم : ما أخوفنا على قريش من العرب وأخلقهم ألا يقرّوا بهذا الأمر . قالوا : صدقت ، فقال : فلا تخافوا هذه المنزلة ، أنا والله منكم على العرب أخوف مني عليكم من العرب (١) .

قال أبو جعفر : وحدثني السري ، قال : حدثنا شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : نزل عمرو بن العاص بمصر فنه من عثمان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقرّة بن هبيرة بن سلمة بن يسير ، وحوله عساكر من أبنائهم ، فذبح له ، وأكرم منزلته ، فلما أراد الرحلة خلا به وقال : يا هذا ؛ إن العرب لا تطيب لكم أنفسا بالإتاوة ، فإن أنتم أعتيمتموها من أخذ أموالها فستسمع وتطيع ، وإن أبيتتم فإنها تجتمع عليكم ؛ فقال عمرو : أتوعدنا بالعرب وتخوفنا بها ! موعدا نحش أمك ، أما والله لأوطئته عليك الخيل ، وقدم على أبي بكر والمسلمين فأخبرهم (٢) .

وروى أبو جعفر قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد فرق عماله في بني تميم على قبض الصدقات فجعل الزبير بن بدر على عوف والرباب ، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون ، وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو على بني عمرو ، ومالك بن نويرة على بني حنظلة ، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب صفوان إلى أبي بكر حين وقع إليه الخبر بموت النبي صلى الله عليه وسلم بصدقات بني عمر ، وبما ولي منها ، وما ولي سبرة ، وأقام سبرة في قومه لحدث إن ناب ، وأطرق قيس بن عاصم ينظر ما الزبير قان صانع ؟ فكان له عدوا وقال وهو ينتظره وينتظر ما يصنع : ويلي عليه ! ما أدري ما أصنع إن أنا

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٥٨٠ ، ٢٥٩ . (٢) تاريخ الطبري ٣ : ٢٥٩ .

فإنها تشتمل من ذلك على ما يشفى ويكفى . وقال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في التاريخ الكبير بإسناد ذكره : إنَّ أبا بكر أقام بالمدينة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وتوجهه أسامة في جيشه إلى حيث قُتل أبوه زيد بن حارثة لم يحدث شيئاً ، وجاءته وفود العرب مرتدين يُقرّون بالصلاة ويمنعون الصدقة ، فلم يقل منهم وردّهم ، وأقام حتى قدم أسامة بعد أربعين يوماً من شُخصه ، ويقال : بعد سبعين يوماً<sup>(١)</sup> .

وروى أبو جعفر قال : امتنعت العرب قاطبة من أداء الزكاة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله إلا قريشا وثقيفا<sup>(٢)</sup> .

وروى أبو جعفر ، عن السري<sup>(٣)</sup> عن شعيب ، عن سيف ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، قال : ارتدت العرب ومَنعت الزكاة إلا قريشا وثقيفا ، فأما هوازن فقدَمَت رجلاً وأُخِرَت أخرى ، أمسكوا الصدقة<sup>(٤)</sup> .

وروى أبو جعفر ، قال : لما مَنعت العرب الزكاة كان أبو بكر ينتظر قدوم أسامة بالجيش ، فلم يحارب أحداً قبل قدومه إلا عَبَسَا وذُبَيَّان ، فإنه قاتلهم قبل رجوع أسامة<sup>(٥)</sup> .

وروى أبو جعفر ؛ قال : فِدِمَتْ وفودٌ من قبائل العرب المدينة ، فزَلَوْا على وجوه الناس بها ، ويحْمِلُونَهُمْ إلى أبي بكر أن يقيموا الصلاة وألَّا يُؤْتُوا الزكاة ، فَمَرَّم اللهُ لأبي بكر على الحق ، وقال : لو مَنَعُونِي عِقَالُ بَيْرٍ لَجَاهَدْتُهُمْ عليه<sup>(٦)</sup> .

وروى أبو جعفر شُمرًا للخطيل<sup>(٧)</sup> بن أوس ، أخى الحُطَيْثَةِ في معنى منع الزكاة ، وأن

(١) تاريخ الطبري ٣ : ١٧٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٢ . (٣) ب : « السدى » ؛ صوابه في ١ ، د وتاريخ الطبري .

(٤) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٢ . (٥) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٣ .

(٦) تاريخ الطبري ٣ : ٢٤٤ . والمقال : الحبل الذي كان يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة

(٧) في الأصول : « الخطل » ، وصوابه من تاريخ الطبري .

بأبى بكر وأتيتُهُ بصدقات قومي خلفني فيهم فساءني عندهم ، وإن رددتها عليهم فليأتين  
أبا بكر فيسوءني عنده ، ثم عزم قيس على قسمتها في مُقاعيس والبُطون ، ففعل وعزم الزُّبرقان  
على الوفاء ، فأتبع صفوان بصدقات عوف والرباب حتى قديم بها المدينة وقال شعرا يُعريض  
فيه بقيس بن عاصم ، ومن جليلته :

وفيت بأذواد الرسول وقد أبت سعاة فلم ير دُءُ بميراً أميرها  
فلما أرسل أبو بكر إلى قيس العلاء بن الحضرمي أخرج الصدقة ، فأتاه بها وقدم معه  
إلى المدينة (١) .

وفي تاريخ أبي جعفر الطبري من هذا الكثير الواسع ، وكذلك في تاريخ غيره من  
التواريخ ، وهذا أمرٌ معلوم بأضطرار ، لا يجوز لأحد أن يُخالف فيه .  
فأما قوله : كيف يصح ذلك ، وقد قال لهم أبو بكر : إذا أذنوا وأقاموا كأذانكم وإقامتكم ،  
فكفوا عنهم ، فجعل أماراة الإسلام والبراءة من الردة الأذان والإقامة ، فإنه قد أسقط  
بعض الخبر ؛ قال أبو جعفر الطبري في كتابه : كانت وصيته لهم : إذا نزلتم فأذنوا وأقيموا ،  
فإن أذن القوم وأقاموا فكفوا عنهم ، فإن لم يفعلوا فلا شيء إلا الغارة ، ثم اقتلوا كل قتلة ؛  
الخرق فما سواه ، وإن أجابوا داعية الإسلام فأسألوهم ، فإن أقرّوا بالزكاة فأقبلوا منهم ،  
وإن أبوا فلا شيء إلا الغارة ، ولا كلمة (٢) .

فأما قوله : وكيف يُطلق قاضي القضاة في سائر أهل الردة ما أطلقه من أنهم كانوا  
يصلون ومن مجلهم أصحابُ مُسيلة وطلحة ! فإنما أراد قاضي القضاة بأهل الردة هاهنا  
ما نعى الزكاة لا غير ، ولم يُرد من جحد الإسلام بالكلمة .

فأما قصة مالك بن نويرة وخالده بن الوليد فإنها مشتبهة عندي ، ولا غرو فقد  
أشتبهت على الصحابة ، وذلك أن من حضرها من العرب اختلفوا في حال القوم : هل كان

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٦٧ ، ٢٦٨ . (٢) تاريخ الطبري ٣ : ٢٧٩ .

عليهم شعار الإسلام أولا ؟ وأختلف أبو بكر وعمر في خالد مع شدة اتفاقهما ، فأما الشعر الذي رواه المرتضى لملك بن نؤيرة فهو معروف إلا البيت الأخير ، فإنه غير معزوف ، وعليه عمدة المرتضى في هذا المقام ، وما ذكره بعد من قصة القوم صحيح كله مطابق لما في التواريخ إلا مويضعات يسيرة :

منها قوله : إن مالكا نهى قومه عن الاجتماع على منع الصدقات ، فإن ذلك غير منقول وإنما المنقول أنه نهى قومه عن الاجتماع في موضع واحد ، وأمرهم أن يتفرقوا في ميابهم ؛ ذكر ذلك الطبري ولم يذكر نهيه إياهم عن الاجتماع على منع الصدقة ، وقال الطبري : إن مالكا تردد في أمره : هل يحمل الصدقات أم لا ؟ فجاءه خالد وهو متحير سبيح .

ومنها أن الطبري ذكر أن ضرار بن الأزور قتل مالكا عن غير أمر خالد ، وأن خالد لما سمع الواعية خرج وقد فرغوا منهم ، فقال : إذا أراد الله أمراً أصابه ؛ قال الطبري : وغضب أبو قتادة لذلك ، وقال لخالد : هذا عملك ! وفارقه وأتى أبا بكر فأخبره فغضب عليه أبو بكر حتى كلمه فيه عمر ، فلم يرض إلا أن يرجع إلى خالد ، فرجع إليه حتى قدم معه المدينة<sup>(١)</sup> .

ومنها أن الطبري روى أن خالدًا لما تزوج أم تميم بنت المنهال امرأة مالك لم يدخل بها وتركها حتى تقضى طهرها ، ولم يذكر المرتضى ذلك .  
ومنها أن الطبري روى أن متممًا لما قدم المدينة طلب إلى أبي بكر في سببهم ، فكتب له برد السبى ؛ والمرتضى ذكر أنه لم يرد إلا في خلافة عمر .  
فأما قول المرتضى : إن قول متمم : لو قتل أخى على مثل ما قتل عليه أخوك لما ركبته ،

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٧٨ .

لا يدلّ على ردّته ، فصحيح ، ولا ريب أنّه قصّد تقريظَ زيد بن الخطاب وأن يرضى عمرُ أخاه بذلك . ونعمًا قال المرتضى ! إنّ بين القَتْلَتَيْنِ فرقا ظاهرا ، وإليه أشارَ متممُ لا حالة .

فأما قولُ مالك : صاحبك ، يعنى النبيّ صلى الله عليه وآله ، فقد روى هذه اللفظة الطبريُّ في التاريخ ، قال : كان خالدٌ يمتدّر عن قتله ، فيقول : إنّهُ قال له وهو يراجّهُ : ما إخالُ صاحبكم إلّا قال كذا وكذا ، فقال له خالد : أو ما تمدّه لك صاحباً<sup>(١)</sup> ! وهذه لعمري كلمةٌ جافية ؛ وإن كان لها نخرَج في التأويل ، إلّا أنّهُ مُستكرّه ، وقرائنُ الأحوال يعرفها من شاهدها وسمِعها ، فإذا كان خالدٌ قد كان يمتدّر بذلك ، فقد أندفعَ قولُ المرتضى : هلا اعتدّر بذلك ! ولستُ أنزّه خالدًا عن الخطأ ، وأعلم أنّهُ كان جَبّارا فاتكّا لا يُراقب الدين فيما يحمله عليه الغضب وهوَى نفسه ، ولقد وقّع منه في حياة رسولِ الله صلى الله عليه وآله مع بنى جذيمة بالغميصاء أعظمُ ممّا وقّع منه في حقِّ مالك بن نويرة ، وعفا عنه رسولُ الله صلى الله عليه وآله بمدّ أن غَضِبَ عليه مُدّة وأعرَضَ عنه ، وذلك العفو هو الَّذي أطمعهُ حتى فَعَلَ ببنى يَرْبوع ما فَعَلَ بالبُطاح .

\*\*\*

### الطعن الثامن

قولهم : إنّ مما يُؤثّر في حاله وحالِ عمرَ دَفَنَهُمَا مع رسولِ الله صلى الله عليه وآله في بَيْتِهِ ، وقد منع الله تعالى الكلَّ من ذلك في حالِ حَيَاتِهِ - فكيف بمدّ الممات - بقوله تعالى : ﴿ لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> .

أجاب قاضي القضاة بأن الموضع كان ملكا لعائشة ، وهي حُجْرَتُهَا التي كانت

(١) تاريخ الطبري ٣ : ٢٨٠ . (٢) سورة الأحزاب ٥٣ .

معروفةً بها ، والحجرُ كُلُّها كانت أملاكاً لأزواج النبي صَلَّى الله عليه وآله ، وقد نطق القرآنُ بذلك في قوله : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وذكر أن عمرَ استأذن عائشةَ في أن يُدفنَ في ذلك الموضع ، وحتى قال : إن لم تأذن لي فأدفنوني في البقيع ، وعلى هذا الوجه يُحمَل ما رَوَى عن الحسن عليه السلام أنه لما مات أوصى أن يُدفنَ إلى جنب رسولِ الله صَلَّى الله عليه وآله ، وإن لم يترك في البقيع ، فلما كان من مروان وسعيد بن العاص ما كان دُفنَ بالبقيع . وإنما أوصى بذلك بإذن عائشةَ ؛ ويجوز أن يكون علم من عائشة أنها جعلت الموضعَ في حُكم الوقف ، فاستباحوا ذلك لهذا الوجه ؛ قال : وفي دفنه عليه السلام في ذلك الموضع ما يدل على فضل أبي بكر ؛ لأنه عليه السلام لما مات اختلفوا في موضع دفنه ؛ وكثر القول حتى روى أبو بكر عنه صلى الله عليه وآله أنه قال ما يدل على أن الأنبياء إذا ماتوا دُفِنوا حيث ماتوا ، فزال الخلافُ في ذلك <sup>(٢)</sup> .

اعترض المرتضى فقال : لا يخلو موضع قبر النبي صَلَّى الله عليه وآله من أن يكون باقياً على مأسكه عليه السلام ، أو يكون انتقل في حياته إلى عائشة على ما ادَّعاه ؛ فإن كان الأول لم يخلُ أن يكون ميراثاً بدمه أو صدقة ؛ فإن كان ميراثاً فما كان يخلُ لأبي بكر ولا لعمر من بعده أن يأمرهما بدفنهما فيه إلا بعد إرضاء الورثة الذين هم على مذهبينا فاطمة وجماعةُ الأزواج ، وعلى مذهبهم هؤلاء والعباس ، ولم نجد واحداً منهما خاطب أحداً من هؤلاء الورثة على ابتياع هذا المكان ولا استنزله عنه بضمن ولا غيره . وإن كان صدقة فقد كان يجب أن يُرضى عنه جماعةُ المسلمين وبيتاعه منهم ؛ هذا إن جاز الأبتياح لما يجري هذا المجرى ، وإن كان انتقل في حياته فقد كان يجب أن يظهر سبب انتقاله والحجة فيه ، فإن فاطمة عليها السلام لم يَقنعَ منها في انتقال فدك إلى ملكها بقولها ، ولا بشهادة من

(١) سورة الأحزاب : ٣٣ . (٢) نقله المرتضى في الشافعي ٤٢٤ .

شَهِدَهَا. فَأَمَّا تَعْلَقُهُ بِإِضَافَةِ الْبُيُوتِ إِلَيْهِنَّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾؛ فَمِنْ ضَعِيفِ الشُّبْهَةِ؛ لِأَنَّا قَدْ بَيَّنَّا فِيَا مَضَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّ هَذِهِ الْإِضَافَةُ لَا تَقْتَضِي الْمَلِكَ، وَإِنَّمَا تَقْتَضِي السَّكْنَى، وَالْعَادَةُ فِي اسْتِعْمَالِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ فِيَا ذِكْرُ نَاهِ ظَاهِرَةٍ، قَالَ تَعَالَى: ﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ﴾<sup>(١)</sup>؛ وَلَمْ يُرِدِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا حَيْثُ يَسْكُنْنَ وَيُنْزِلْنَ دُونَ حَيْثُ يَمْلِكُنَّ وَمَا أَشْبَهَهُ، وَأُظْرَفَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ تَقَدَّمَ قَوْلُهُ: إِنَّ الْحَسَنَ عَلَيْهِ السَّلَامَ اسْتَأْذَنَ عَائِشَةَ فِي أَنْ يُدْفِنَ فِي الْبَيْتِ حَتَّى مَنَعَهُ مَرْوَانُ وَسَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ مَكَابِرَةٌ مِنْهُ ظَاهِرَةٌ، فَإِنَّ الْمَانِعَ لِلْحَسَنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا عَائِشَةُ، وَلَعَلَّ مِنْ ذِكْرِهِ مِنْ مَرْوَانَ وَسَعِيدَ وَغَيْرَهُمَا أَغْنَاهَا وَاتَّبَعَ فِي ذَلِكَ أَمْرَهَا، وَرَوَى أَنَّهَا خَرَجَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ عَلَى بَغْلٍ حَتَّى قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَوْمًا عَلَى بَغْلٍ وَيَوْمًا عَلَى جَمَلٍ! فَكَيْفَ تَأْذَنُ عَائِشَةُ فِي ذَلِكَ، وَهِيَ مَالِكَةٌ الْمَوْضِعِ عَلَى قَوْمِهِمْ، وَيَمْنَعُ مِنْهُ مَرْوَانُ وَغَيْرُهُ مِمَّنْ لَا مَلِكَ لَهُ فِي الْمَوْضِعِ وَلَا شَرِيكَ وَلَا يَدَا وَهَذَا مِنْ قَبِيحِ<sup>(٢)</sup> مَا يَرْتَكِبُ. وَأَيُّ فَضْلٍ لِأَبِي بَكْرٍ فِي رَوَايَتِهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَدِيثَ الدَّفْنِ! وَعَمَلُهُمْ بِقَوْلِهِ إِنْ صَحَّ مِنْ مَذْهَبِ صَاحِبِ الْكِتَابِ وَأَصْحَابِهِ الْعَمَلُ بِخَبَرِ الْوَاحِدِ الْمَدْلُ فِي أَحْكَامِ الدِّينِ الْعَظِيمَةِ، فَكَيْفَ لَا يَعْمَلُ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ فِي الدَّفْنِ وَهُمْ يَعْمَلُونَ بِقَوْلِ مَنْ هُوَ دُونَهُ فِيَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ<sup>(٣)</sup>!

\*\*\*

قُلْتُ: أَمَّا أَبُو بَكْرٍ؛ فَإِنَّهُ لَا يَلْحَقُهُ بِدَفْنِهِ مَعَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَمٌّ؛ لِأَنَّهُ مَا دَفَنَ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا دَفَنَهُ النَّاسُ وَهُوَ مَيِّتٌ، فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ خَطَأً فَلَا إِثْمَ وَالذَّمُّ لَاحِقَانِ بِمَنْ فَعَلَ بِهِ ذَلِكَ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ بِأَنَّهُ أَوْصَى أَنْ يُدْفَنَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَإِنَّمَا قَدْ يُمَكِّنُ أَنْ يَتَوَجَّهَ هَذَا الطَّمَنُ إِلَى عَمْرِ، لِأَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ أَنْ يُدْفَنَ فِي الْحِجْرَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَأَبِي بَكْرٍ. وَالْقَوْلُ عِنْدِي مُشْتَبِهٌ فِي أَمْرِ حُجْرَةِ الْأَزْوَاجِ:

(١) سورة الطلاق ١ . (٢) الشافعي: «أقبح». (٣) الشافعي ٤٢٤ .



هل كانت على ملك رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن تُتوفى، أم ملكها نساؤه؟ والذي  
تنطق به التواريخ أنه لما خرج من قباء ودخل المدينة وسكن منزل أبي أيوب،  
اختط المسجد واختط حُجْر نساؤه وبناته، وهذا يدل على أنه كان المالك للمواضع،  
وأما خروجها عن ملكه إلى الأزواج والبنات فمما لم أفهم عليه. ويجوز أن تكون  
الصحابة قد فهمت من قرآن الأحوال ومما شاهدوه منه عليه السلام؛ أنه قد أقر كل بيت  
منها في يد زوجة من الزوجات على سبيل المحبة والمطية، وإن لم يُنقل عنه في ذلك صيغة  
لفظ مُعَيَّن، والقول في بيت فاطمة عليها السلام كذلك، لأن فاطمة عليها السلام لم تكن  
تملك مالا، وعلى عليه السلام بملها كان فقيراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله  
حتى إنه كان يستقي الماء ليَهُود بيده، يَسْقِي بِسَاتِنِهِمْ لِقُوتٍ يدفعونه إليه، فمن أين  
كان له ما يبتاع به حُجْرَة يسكن فيها هو وزوجته<sup>(١)</sup>! والقول في كثير من الزوجات  
كذلك أنهن كن فقيرات مُدَقِّعات، نحو صفية بنت حيي بن أخطب، وجويرية بنت  
الحارث، وميمونة، وغيرهن، فلا وجه يُمكن أن يملك منه هؤلاء النسوة والبت  
الحُجْر؛ إلا أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله وهبها لهن؛ هذا إن ثبت أنها خرجت  
عن ملكيته عليه السلام، وإلا فهي باقية على ملكيته بأستصحاب الحال. والقول في  
حُجْرَة زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وآله كذلك، لأنه أقدمها من مكّة مفارقةً  
لبعلها أبي العاص بن الربيع، فأسكنها بالمدينة في حُجْرَة منفردة خالية عن بعل، فلا بد  
أن تكون تلك الحُجْرَة بمقتضى ما يتغلب على الظن ملكاً له عليه السلام، فيُستدام  
الحكم بملكها لها إلى أن نجد دليلاً يثقلنا عن ذلك. وأما رقية وأم كلثوم زوجتا عثمان،  
فإن كان مُمَثْرِيَا ذامال فيجوز أن يكون ابتاع حُجْرَة سكنت فيها الأولى منهما، ثم  
الثانية بعدها.

---

(١) ب: « زوجة » .

فأما أحتجاجُ قاضي القضاة بقوله : ﴿ وَقَرَنَ فِي بُيُوتِكِنَّ ﴾ ؛ فاعتراضُ المرتضى عليه قوًى ، لأنَّ هذه الإضافة إنما تقتضى التخصيص فقط لا التمايك ، كما قال : ﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ ﴾<sup>(١)</sup> ؛ ويجوز أن يكون أبو بكر لما رَوَى قوله : « نحن لا نُورَث » ترك الحَجَرَ في أيدي الزَّوجات والبت على سبيل الإقطاع لهنَّ لا التمايك ، أى أباحهنَّ السُّكنى لا التصرف في رقاب الأرض والأبلية والآلات ، لما رأى في ذلك من المصلحة ، ولأنَّه كان من المتجهنَّ القبيح إخراجهنَّ من البيوت ، وليس كذلك فذلك ؛ فإنها قريةٌ كبيرةٌ ذاتُ نخلٍ كثير خارجةٌ عن المدينة ، ولم تكن فاطمةٌ مُتصرفَةً فيها من قبَل نفسها ولا بوكيلها ، ولا رأتهما قطَّ ، فلا تُشبه حالها حالَ الحَجَر . وأيضاً لإباحة هذه الحَجَر وزيارة أثمانهنَّ ، فإنها كانت مبنيةً من طين قصيرة الجدران ، فعملُ أبا بكر والصَّحابة استحقَّقوها ، فأقرَّوا النساءَ فيها وعرضوا المسلمين عنها بالشئ اليسير ممَّا يقتضى الحساب أن يكون من سهم الأزواج والبت عند قسمة الفئ .

وأما القولُ في الحسن وما جرى من عائشة وبنى أمية فقد تقدَّم ؛ وكذلك القولُ في الخبر المروى في دَفْنِ الرسول صلى الله عليه وآله ، فكان أبو المظفر هبةُ الله بن الموسوي صدر المخزن المعمور ، كان في أيام الناصر لدين الله إذا حادثته حديثَ وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله ورواية أبي بكر ما رواه من قوله عليه السلام : « الأنبياء يُدفنون حيث يموتون » ، يحلف أنَّ أبا بكر افتمل هذا الحديث في الحال والوقت ، ليُدْفَنَ النبي صلى الله عليه وآله في حُجْرة ابنته ، ثم يُدفَن هو معه عند موته ، علماً منه أنه لم يبقَ من عمره إلَّا مثل ظلم<sup>(٢)</sup> الحمار ، وأنَّه إذا دُفِنَ النبي صلى الله عليه وآله في حُجْرة ابنته فإن ابنته تدفنه لا محالة في حُجرتها عند بعلها ، وأنَّ دَفْنَ النبي صلى الله عليه وآله في موضعٍ

(١) سورة الطلاق ١ .

(٢) يقال : ما بقى منه إلَّا ظم الحمار ؛ أى شئ يسير لأنه ليس شئ أقر طمًا منه .

آخرَ فربما لا يتهيأ له أن يُدفنَ عنده ، فرأى أن هذا الفوز بهذا الشرف العظيم ، وهذا المكان الجليل ، ممّا لا يقتضي حسن التدبير فوته ، وإن انتهاز الفرصة فيه واجب ، فرَوَى لهم الخبرَ ، فلا يُمكنهم بعدَ روايته ألاّ يعملوا به ، لاسيّما وقد صار هو الخليفة ، وإليه السلطان والنفع والضرر ، وأدرك ما كان في نفسه ، ثمّ نسجَ عمرُ على منواله ، فرَغِبَ إلى عائشة في مثل ذلك ، وقد كان يُكرِّمها ويقدمها على سائر الزّوجات في العطاء وغيره ، فأجابته إلى ذلك ، وكان مُطاعاً في حياته وبعد مماته ، وكان يقول : واعجباً للحسن وطمعه في أن يُدفنَ في حُجرة عائشة ! والله لو كان أبوه الخليفةَ يومئذ لما تهيأ له ذلك ، ولا تمّ لبغض عائشة لهم ، وحسد الناس إياهم ، وتماثروا بني أمّية وغيرهم من قريش عليهم ! ولهذا قالوا : يُدفنَ عثمانُ في حَشٍّ كوكب<sup>(١)</sup> ، ويُدفنَ الحسنُ في حُجرة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، فكيف والخليفةُ معاويةُ والأمراء بالمدينة بنو أمّية ، وعائشةُ صاحبةُ الموضع ، والناصرُ لبني هاشم قليل ، والشانئ كثير . وأنا أستغفر الله ممّا كان أبوالمظفر يحلف عليه ، وأعلم وأظنّ ظنّاً شبيهاً بالعلم أن أبا بكر ما رَوَى إلّا ما سمع ، وأنّه كان اتقى لله من ذلك .

\*\*\*

### الظعن التاسع

قولهم : إنّه نصّ على عمرَ بالخلافة ؛ نخالف رسول الله صلّى الله عليه وآله على زعمه ، لأنّه كان يزعم هو ومن قال بقوله أن رسول الله صلّى الله عليه وآله لم يستخلف .

---

(١) حش كوكب : موضع بالمدينة .

والجواب أن كونه لم يستخلف لا يدلّ على تحريم الاستخلاف ، كما أنه من لم يركب الفيل لا يدلّ على تحريم ركوب الفيل . فإن قالوا : ركوب الفيل فيه منفعة ولا مضرّة فيه ولم يردّ نصّ بتحريمه ، فوجب أن يحسن . قيل لهم : والاستخلاف مصلحة ، ولا مضرّة فيه ؛ وقد أجمع المسلمون أنه طريق إلى الإمامة ، فوجب كونه طريقاً إليها ، وقد روى عن عمر أنه قال : إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني - يعني أبا بكر - وإن أترك فقد ترك من هو خير مني - يعني رسول الله صلى الله عليه وآله . فأما الاجتماع المشار إليه فهو أن الصحابة أجمعوا على أن عمرَ إمامٌ بنصّ أبي بكر عليه ، وأنفذوا أحكامه ، وانقادوا إليه لأجل نصّ أبي بكر لا لشيء سواه ، فلو لم يكن ذلك طريقاً إلى الإمامة لما أطبقوا عليه . وقد اختلف الشيخان أبو عليّ وأبو هاشم في أن نصّ الإمام على إمام بعده : هل يكفي في انعقاد إمامته ؟ فقال أبو عليّ : لا يكفي ، بل لابدّ من أن يرضى به أربعة حتى يجرى عهده إليه بجرى عقد الواحد برضا أربعة ؛ فإذا قارنه رضا أربعة صار بذلك إماماً ، ويقول فيبيعة عمر : إن أبا بكر أحضر جماعة من الصحابة لما نصّ عليه ، ورجع إلى رضاهم بذلك ، وقال أبو هاشم : بل يكفي نصّه عليه ، ولا يُراعى في ذلك رضا غيره به ، ولو ثبت أن أبا بكر فعله لكان على طريق التبّع للنصّ ، لا أنه يؤثر في إمامته مع العهد ؛ ولعل أبا بكر إن كان فعل ذلك فقد استطاب به نفوسهم ، ولهذا لم يؤثر فيه كراهية طلحة حين قال : ولّيت علينا فظّاً غليظاً . ويبين ذلك أنه لم ينقل استئذان العقد من الصحابة لعمر بعد موت أبي بكر ولا اجتماع جماعة لعقد البيعة له ، والرضا به ، فدلّ على أنهم اكتفوا بعهد أبي بكر إليه .

## الطعن العاشر

قولهم : إنه سَمِيَ نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لاستخلافه إياه بعد موته ، مع اعترافه أنه لم يستخلفه .

والجواب أن الصحابة سمّته خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته ، والاستخلاف على الصلاة عند الموت له منزلة على الاستخلاف على الصلاة حال الحياة ، لأن حال الموت هي الحال التي تكون فيها اليهود والوصايا وما يهتم به الإنسان من أمور الدنيا والدين ، لأنها حال المفارقة . وأيضا فإن رسول الله صلى الله عليه وآله ما استخلف أحدا على الصلاة بالمدينة وهو حاضر ، وإنما كان يستخلف على الصلاة قوما أيام غيبتة عن المدينة ، فلم يحصل الاستخلاف المطلق على الصلاة بالناس كلهم ، وهو صلى الله عليه وآله حاضر بين الناس حتى إلا لأبي بكر ، وهذه منزلة ظاهرة على سائر الاستخلافات في أمر الصلاة ، فلذلك سمّوه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله . وبعد ، فإذا ثبت أن الإجماع على كون الاختيار طريقا<sup>(١)</sup> إلى الإمامة وحجة ، وثبت أن قوما من أفاضل الصحابة اختاروه للخلافة ، فقد ثبت أنه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله ، لأنه لا فرق بين أن ينصّ الرسول صلى الله عليه وآله على شخص معين ، وبين أن يشير إلى قوم فيقول : من اختار هؤلاء القوم فهو الإمام ؛ في أن كل واحد منهما يصح أن يُطلق عليه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله<sup>(٢)</sup> .

\*\*\*

---

(١) : « سبيلا » .

### الطعن الحادى عشر

قولهم : إنه حرق الفُجاءة السُّلَمِيَّ بالنار ، وقد نهى النبيُّ صلى الله عليه وآله أن يُحرق أحد بالنار .

والجواب أن الفُجاءة جاء إلى أبي بكر كما ذكر أصحابُ التواريخ فطلب منه سلاحاً يتقوى به على الجهاد في أهل الردّة ، فأعطاه ، فلما خرج قطع الطريق ونهب أموال المسلمين وأهل الردّة جميعاً ، وقتل كلَّ من وجَد ، كما فعلت الخوارجُ حيث خرجتْ ، فلما ظفّر به أبو بكر رأى حرّقه بالنار إرهاباً لأمثاله من أهل الفساد ، ويجوز للإمام أن يخصّ النصّ العام بالقياس الجليّ عندنا (١) .

\*\*\*

### الطعن الثانى عشر

قولهم : إنه تكلم في الصلاة قبل التسليم ، فقال : لا يفعلنّ خالد ما أمرته ؛ قالوا : ولذلك جازّ عند أبي حنيفة أن يخرج الإنسان من الصلاة بالكلام وغيره من مفسدات الصلاة من دون تسليم ، وبهذا احتجّ أبو حنيفة .

والجواب أن هذا من الأخبار التى تنفرد بها الإمامية ، ولم تثبت ؛ وأما أبو حنيفة فلم يذهب إلى ما ذهب إليه لأجل هذا الحديث ، وإنما احتجّ بأن التسليم خطاب آدمي ، وليس هو من الصلاة وأذكارها ، ولا من أركانها ، بل هو ضدّها ، ولذلك يبطّلها قبل التمام ، ولذلك لا يسلم المسبوق تبعاً لسلام الإمام ، بل يقوم من غير تسليم ؛ فدلّ على أنه ضدّ للصلاة وجميع الأضداد بالنسبة إلى رفع الضدّ على وتيرة واحدة ، ولذلك استوى الكلّ في

---

(١) الجلى : الواضح .

الإبطال قبل التمام ، فيستوى الكلّ في الانتهاء بعد التمام . وما يذكره القوم من سبب كلام أبي بكر في الصلاة أمره بعيد ، ولو كان أبو بكر يريد ذلك لأمر خالدا أن يفعل ذلك الفعل بالشخص المعروف وهو نائم ليلاً في بيته ، ولا يعلم أحد من الفاعل .

\*\*\*

### الطعن الثالث عشر

قولهم : إنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو على الشام يأمره أن يقتل سعد بن عبادة ، فكمن له هو وآخر معه ليلاً ، فلما مرّ بهما رمياه فقتلاه ، وهتف صاحبُ خالد في ظلام الليل بعد أن ألقيا سعدا في بئر هناك فيها ماء بيتين :

نحن قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة

ورميناه بسهمين فلم تُخطِ فؤاده

يوهم أنّ ذلك شعر الجنّ ، وأنّ الجنّ قتلت سعدا ، فلما أصبح الناس فقدوا سعدا ، وقد سمع قوم منهم ذلك الهاتف فطلبوه ، فوجدوه بعد ثلاثة أيام في تلك البئر ، وقد اخضرّ ، فقالوا : هذا ميسيس الجنّ ؛ وقال شيطانُ الطاق لسائل سأله : ما منع عليا أن يُخاصم أبا بكر في الخلافة ؟ فقال : يا بن أخى ، خاف أن تقتله الجنّ .

والجواب ، أما أنا فلا أعتقد أنّ الجنّ قتلت سعدا ، ولا أنّ هذا شعرُ الجنّ ، ولا أرتاب أن البشر قتلوه ، وأنّ هذا الشعر شعر البشر ، ولكن لم يثبت عندى أن أبا بكر أمر خالدا ، ولا أستبعد أن يكون فعله من تلقاء نفسه ليرضى بذلك أبا بكر - وحاشاه - فيكون الإثم على

خالد ، وأبو بكر برىء من إثمه ؛ وما ذلك من أفعال خالد ببعيد .

\*\*\*

### الطعن الرابع عشر

قوْلهم : إنّه لما أُستخلف قطعَ لنفسه على بيت المال أجره كلّ يوم ثلاثة دراهم ، قالوا : وذلك لا يجوز ، لأنّ مَصَارِفَ أموالِ بيتِ المسلمين لم يُذكر فيها أجره للإمام .  
والجواب أنّه تعالى جعلَ في جملة مصرف أموالِ الصّدقاتِ العاملين عليها ، وأبو بكر من العاملين . وأعلم أنّ الإماميّة لو أنصفتْ لرأت أنّ هذا الطعن بأن يكونَ من مناقبِ أبي بكر أولى من أن يكونَ من مساوئِهِ <sup>(١)</sup> ومثاليهِ ، ولكنّ المصنّبة لا حيلة فيها .

\*\*\*

### الطعن الخامس عشر

قوْلهم : إنّه لما أُستخلف صرّخَ مناديه في المدينة : من كان عنده شيءٌ من كلامِ الله فليأتنا به ؛ فإنّا عازمون على جمع القرآن ، ولا يأتنا بشيءٍ منه إلّا ومعه شاهدًا عدلٌ ؛ قالوا : وهذا خطأ ، لأنّ القرآن قد بان بفصاحته عن فصاحة البشر ، فأى حاجةٍ إلى شاهدٍ عدلٍ !  
والجواب ، أنّ المرتضى ومن تابعه من الشيعة لا يصحّ لهم هذا الطعن ؛ لأنّ القرآن عندهم ليس مُعْجَزًا بفصاحته ، على أنّ من جعل معجزته للفصاحة لم يقل : إنّ كلّ آية من القرآن هي مُعْجِزة في الفصاحة ، وأبو بكر إنّما طلب كلّ آية من القرآن لا السّورة بتمامها وكلّها التي يتحقّق الإعجاز من طريق الفصاحة فيها . وأيضاً فإنّه لو أحضر إنسانُ آيةً أو آيتين ولم يكن معه شاهد ، فربّما تختلف العربُ : هل هذه في الفصاحة بالغة



مبلغ الإعجاز اللفظي ، أم هي ثابتة من كلام العرب بثبوته ؛ غير بالغة إلى حد الإعجاز ؟ فكان يلتبس الأمر ويقع النزاع ، فاستظهر أبو بكر بطلب الشهود تأكيداً ، لأنه إذا انضمت الشهادة إلى الفصاحة الظاهرة ثبت أن ذلك الكلام من القرآن .

\*\*\*

الأفضل :

ومن هذا الكتاب :

إِنِّي وَاللَّهِ لَوَ لَقِيتُهُمْ وَاحِدًا وَهُمْ طَلَعُ الْأَرْضِ كُفَّاهَا مَا بَالَيْتُ وَلَا اسْتَوْحَشْتُ ؛ وَإِنِّي مِنْ صَلَاتِهِمُ الَّذِي هُمْ فِيهِ ، وَالْهُدَى الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ ، لَعَلِّي بِصِيرَةٍ مِنْ نَفْسِي ، وَبِقِيَمٍ مِنْ رَبِّي . وَإِنِّي إِلَى لِقَاءِ اللَّهِ لَمُشْتَأِقٌ ، وَلِحُسْنِ ثَوَابِهِ لَمُنْتَظِرٌ رَاجٍ ؛ وَلَكِنِّي آسَى أَنْ يَلِيَ هَذِهِ الْأُمَّةَ سَفَهَاءُهَا وَفُجَّارُهَا ، فَيَتَّخِذُوا مَالَ اللَّهِ دُولًا ، وَعِبَادَهُ خَوَلًا ، وَالصَّالِحِينَ حَرْبًا ، وَالْفَاسِقِينَ حِزْبًا ؛ فَإِنَّ مِنْهُمْ الَّذِي شَرِبَ فِيكُمْ الْحَرَامَ ، وَجُلِدَ حَدًّا فِي الْإِسْلَامِ . وَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُسْلِمْ حَتَّى رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ الرِّضَايُخُ ؛ فَلَوْلَا ذَلِكَ مَا أَكْثَرْتُ تَأْلِيْبَكُمْ وَتَأْيِيْبَكُمْ ، وَجَمْعَكُمْ وَتَحْرِيبَكُمْ ، وَلَتَرَكْتُكُمْ إِذْ أَبَيْتُمْ وَوَيْبْتُمْ .

أَلَا تَرَوْنَ إِلَى أَطْرَافِكُمْ قَدْ انْتَقَصَتْ ، وَإِلَى أَمْصَارِكُمْ قَدْ افْتُتِحَتْ ، وَإِلَى مَمَالِكِكُمْ تَزُورُ ، وَإِلَى بِلَادِكُمْ تُغْزَى !

انْفِرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ إِلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ ، وَلَا تَتَّاقِلُوا إِلَى الْأَرْضِ فَتَقْرُوا بِالْخَسْفِ ، وَتَبْوءُوا بِالذَّلِّ ، وَيَكُونَ نَصِيبُكُمْ الْأَخْسَ ؛ وَإِنَّ أَخَا الْحَرْبِ الْأَرِقُّ وَمَنْ نَامَ لَمْ يَنْمَ عَنْهُ ؛ وَالسَّلَامُ .

### الشَّيْخُ :

طِلَاعُ الْأَرْضِ : مَلُوْهَا ، وَمِنْهُ قَوْلُ عَمْرِو : لَوْ أَنَّ لِي طِلَاعَ الْأَرْضِ ذَهَبًا لَأَفْتَدَيْتُ بِهِ  
مَنْ هُوَ الْمُطَّلَعُ .

وَأَسَى : أَحْزَنَ .

وَأَكْثَرْتَ تَأْلِيْبَكُمْ : تَحْرِيسَكُمْ وَإِغْرَاءَكُمْ بِهِ . وَالتَّائِيْبُ : أَشَدُّ اللَّوْمِ .

وَوَيْبُكُمْ : ضَمَمْتُمْ وَقْتَكُمْ . وَمَمَالِكُكُمْ تَزَوَى ، أَيْ تُقْبَضُ .

وَلَا تَتَأَقَّلُوا ، بِالتَّشْدِيدِ ، أَصْلُهُ « تَتَأَقَّلُوا » . وَتَقَرَّوْا بِالْخُسْفِ : تَعْتَرِفُوا بِالضَّيْمِ

وَتَصَبَّرُوا لَهُ . وَتَبَوَّءُوا بِالذَّلِّ : تَرَجَّعُوا بِهِ . وَالْأَرِيقُ : الَّذِي لَا يَنَامُ . وَمِثْلُ قَوْلِهِ عَلَيْهِ

السَّلَامُ : « مَنْ نَامَ لَمْ يَنْمُ عَنْهُ » قَوْلُ الشَّاعِرِ :

لِلَّهِ دَرْكٌ مَا أُرِدْتَ بِشَائِرِ حَرَّازٍ ، لَيْسَ عَنِ الثَّرَاتِ بِرَاقِدٍ<sup>(١)</sup>

أَسْهَرَتْهُ ثُمَّ اضْطَجَعَتْ وَلَمْ يَنْمُ حَنَّاقًا عَلَيْكَ وَكَيْفَ نَوْمُ الْحَاقِدِ !

فَأَمَّا الَّذِي رُضِخَتْ لَهُ عَلَى الْإِسْلَامِ الرِّضَائِخُ ، فَمَعَاوِيَةُ ؛ وَالرِّضِخَةُ : شَيْءٌ قَلِيلٌ يُعْطَاهُ

الْإِنْسَانُ يُصَانِعُ بِهِ عَنْ شَيْءٍ<sup>(٢)</sup> يُطْلَبُ مِنْهُ كَالْأَجْرِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُ مِنَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ الَّذِينَ

رَغِبُوا فِي الْإِسْلَامِ وَالطَّاعَةِ بِحِمَالٍ وَشَاءَ دُفِعَتْ إِلَيْهِمْ ، وَهُمْ قَوْمٌ مَعْرُوفُونَ كَمَعَاوِيَةَ وَأَخِيهِ

يَزِيدَ ، وَأَبِيهِمَا أَبِي سُفْيَانَ ، وَحَكِيمُ بْنُ حِزَامٍ ، وَسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو ، وَالْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ

ابْنُ الْمُنِيرَةِ ، وَخُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعُزَّى ، وَالْأَخْلَسُ بْنُ شَرِيْقٍ ، وَصَفْوَانُ بْنُ أُمَيَّةَ ،

وَعُمَيْرُ بْنُ وَهَبِ الْجَمَحِيِّ ، وَعُيَيْنَةُ بْنُ حِصْنٍ ، وَالْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ ، وَعَبَّاسُ بْنُ مِرْدَاسٍ

وغيرهم . وَكَانَ إِسْلَامُ هَؤُلَاءِ لِلطَّمَعِ وَالْأَغْرَاضِ الدُّنْيَاوِيَّةِ ، وَلَمْ يَكُنْ عَنْ أَصْلٍ وَلَا عَنْ

يَقِيْنٍ وَعِلْمٍ .

---

(١) الثَّرَاتُ : جَمْعُ تَرَةٍ ؛ وَهِيَ الْأَخَذُ بِالثَّأْرِ . (٢) فِي د « أَمْر » .

وقال الراوندى : عَنِ بقوله : «رُضِخَتْ لَهُم الرضائخُ» عمرو بن العاص، وليس بصحيح، لأنَّ عمرا لم يُسلم بعد الفتح، وأصحاب الرضائخ كلَّهم أسلموا بعد الفتح، صُوبُوا على الإسلام بفنائهم حُنين . ولمعمرى إن إسلام عمرو كان مدخولا أيضا ؛ إلاَّ أنَّه لم يكن عن رَضِخَةٍ ، وإنما كان لمعمرى آخر . فأما الذى شرب الحرام ، وجُلِدَ فى حدِّ الإسلام ، فقد قال الراوندى : هو المغيرة بنُ شُعْبَةَ ، وأخطأ فيما قال ، لأنَّ المغيرة إنما اتَّهم بالزنا ولم يُحدِّد ولم يجرِ للمغيرة ذكرٌ فى شرب الخمر ، وقد تقدَّم خبرُ المغيرة مُستوفى ، وأيضا فإنَّ المغيرة لم يشهد صِفَتَيْن مع معاوية ولا مع على عليه السلام ، وما للراوندى وهذا ! إنما يعرف هذا الفنَّ أربابُه . والذى عناه على عليه السلام الوليد بنُ عُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط ، وكان أشدَّ الناس عليه وأبْلَغَهم تحريضا لمعاوية وأهل الشام على حرِّبه .

\*\*\*

### [ أخبار الوليد بن عُقْبَةَ ]

ونحن نذكر خبرَ الوليد وشُرْبَه الخمر مذقولا من كتاب " الأغاني " لأبي الفرج على بن الحسين الأصفهاني ؛ قال أبو الفرج : كان سبب إمارة الوليد بن عُقْبَةَ الكوفة لعثمان ما حدثني به أحمد بنُ عبد العزيز الجوهري ، قال : حدثنا عمر بنُ شُبَّة ، قال : حدثني عبد العزيز بن محمد بن حكيم ، عن خالد بن سعيد بن عمرو بن سعيد ، عن أبيه ، قال : لم يكن يجلس مع عثمان على سريرِه إلاَّ العباس بن عبد المطلب ، وأبو سُفْيَان بن حرب ، والحكم بن أبي العاص ، والوليد بن عُقْبَةَ ، ولم يكن سريرُه يَسَعُ إلاَّ عثمان وواحدا منهم ، فأقبل الوليدُ يوما فجلس ، فجاء الحكم بن أبي العاص فأومأ عثمانُ إلى الوليد ، فرحل له عن مجلسه ، فلما قام الحكم قال الوليد : واللَّهِ يا أمير المؤمنين لقد تَدَجَّلَجَ فى صدرى بيتان فلتُهما حين رأيتك آثرت ابنَ عمك على ابنِ أمك . وكان الحكم عمَّ عثمان ، والوليد أخاه

لأُمّه - فقال عثمان : إن الحَكَمَ شيخُ قريش ؛ فما البيتان ؟ فقال :  
رَأَيْتُ لَعَمَّ المرءِ زُلْفَى قَرَايَةٍ      دَوْنِ أَخِيهِ حَدَثًا لَمْ يَكُن قَدِمًا  
فَأَمَلْتُ عَمْرًا أَنْ يَشِبَّ وَخَالِدًا      لَكِي يَدْعُوَانِي يَوْمَ نَائِبَةِ عَمَّا  
يعنى عَمْرًا وَخَالِدًا أَبْنَى عُثْمَانَ . قال : فرق له عُثْمَانُ وقال : قد وَلَّيْتُكَ الكُوفَةَ ،  
فَأَخْرَجَهُ إِلَيْهَا <sup>(١)</sup> .

قال أبو الفَرَجِ : وأخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، قال : حَدَّثَنِي عَمْرُ بْنُ شَبَّةَ ، قال : حَدَّثَنِي  
بَعْضُ أَصْحَابِنَا ، عَنْ أَبِيْن <sup>(٢)</sup> دَابَّ قال : لَمَّا وَلَّى عُثْمَانُ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ الْكُوفَةَ قَدِمَهَا  
وَعَلَيْهَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، فَأُخْبِرَ بِقُدُومِهِ وَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّهُ قَدْ أَمَرَ ، فَقَالَ : وَمَا صَنَعَ ؟ قَالُوا :  
وَقَفَ فِي السُّوقِ فَهُوَ يَحْدُثُ النَّاسَ هُنَاكَ ، وَلَسْنَا نَنْكُرُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ ، فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ جَاءَهُ  
نِصْفَ النَّهَارِ ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَى سَعْدٍ ، فَأَذِنَ لَهُ ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ بِالْإِمْرَةِ ، وَجَلَسَ مَعَهُ ، فَقَالَ لَهُ  
سَعْدٌ : مَا أَقْدَمَكَ يَا أَبَا وَهَبٍ ؟ قَالَ : أَحْبَبْتُ زِيَارَتَكَ ؛ قَالَ : وَعَلَى ذَاكَ ، أَجِئْتَ بِرِيدًا ؟ قَالَ :  
أَنَا أَرِزَنُ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ أَحْتَاجُوا إِلَى عَمَلِهِمْ فَسَرَّحُونِي إِلَيْهِ ، وَقَدْ أَسْتَمَعَلَنِي  
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْكُوفَةِ . فَسَكَتَ سَعْدٌ طَوِيلًا ، ثُمَّ قَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَصْلَحْتَ بَعْدَنَا  
أَمْ فَسَدْنَا بَعْدَكَ ! ثُمَّ قَالَ :

يَكَلِّبُنِي وَجُرَّيْنِي ضُبَاعُ وَأَبْشَرِي      بَلَحْمُ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدْ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ  
فَقَالَ الْوَلِيدُ : أَمَا وَاللَّهِ لَا نَأْتِي قَوْلَ الشُّعْرِ مِنْكَ ، وَأُرْوَى لَهُ ، وَلَوْ شِئْتُ لَأَجَبْتُكَ ، وَلَكِنِّي  
أَدْعُ ذَاكَ لِمَا تَعْلَمُ . نَعَمْ وَاللَّهِ لَقَدْ أَمَرْتُ بِمَحَاسِنِكَ ، وَالنَّظِيرِ فِي أَمْرِ عَمَّاكَ . ثُمَّ بَعَثَ إِلَى  
عَمَّالِ سَعْدٍ فُجِّسَهُمْ وَضَيَّقَ عَلَيْهِمْ ، فَكَتَبُوا إِلَى سَعْدٍ يَسْتَفِيشُونَ بِهِ ، فَكَلَّمَهُ فِيهِمْ فَقَالَ لَهُ :  
أَوَ لِلْمَعْرُوفِ عِنْدَكَ مَوْضِعٌ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، نَفَلْتُ سَبِيلَهُمْ <sup>(٣)</sup> .

(١) الأغاني ٤ : ١٧٤ ( ساسي ) . وفي د « فَأَخْرَجَ » .

(٢) في د « عَنْ زَأْدَانَ » .

(٣) الأغاني ٤ : ١٧٥ ، ١٧٦ ( ساسي ) .

قال أحمد<sup>(١)</sup> : وحدثنى عمر ، عن أبي بكر الباهلي ، عن هُشيم ، عن العوام ابن حوشب . قال : لما قدم الوليدُ على سعد قال له سعد : والله ما أدري كسنت بعدنا أم حقنا بعدك ! فقال : لا تجزعن يا أبا إسحاق ، فإنه المُلْك يتغداه قوم ويتمشاه آخرون . فقال سعد : أراكم والله ستجعلونه مُلكاً<sup>(٢)</sup> .

قال أبو الفرج : وحدثننا أحمد قال : حدثنى عمر قال : حدثنى هارون بن معروف ، عن ضمرة بن ربيعة ، عن ابن شوذب قال : صلى الوليدُ بأهل الكوفة الغداة أربع ركعات ، ثم التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ فقال عبدُ الله بن مسعود : ما زلنا معك في زيادة منذ اليوم<sup>(٣)</sup> .

قال أبو الفرج : وحدثنى أحمد قال : حدثننا عمر ، قال : حدثننا محمد بن حميد ، قال : حدثننا جرير ، عن الأجلح ، عن الشعبي قال : قال الحطيئة يذكر الوليد :  
 شهد الحطيئة يوم يلتقي ربه أن الوليد أحق بالندى<sup>(٤)</sup>  
 نادى وقد تمت صلاتهم أأزيدكم - سكرًا - ولم يدري<sup>(٥)</sup>  
 فأبوا أبا وهب ولو أذنوا لقرنت بين الشفع والوتر<sup>(٦)</sup>  
 كفوا عنانك إذ جريت ولو ترَكُوا عنانك لم تزل تجري<sup>(٧)</sup>

(١) هو أحمد بن عبد العزيز الجوهري .

(٢) الأغاني ٤ : ١٧٦ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٧٦ . (٤) الأغاني ٤ : ١٧٦ وفي د « حين يذكر ربه » .

(٥) الديوان : « أأزيدكم ثلاً » .

(٦) الديوان . « ليزيدهم خيرا ولو قبلوا » .

(٧) الديوان : « خلعوا عنانك » ؛ وبعده :

ورأوا شمائلَ ماجدٍ أنفٍ يعطى على اليسور والعُسْرِ  
 قرعت مكدوباً عليك ولم تُردد إلى عُذرٍ ولا فقرٍ

وقال الحطيئة أيضاً :

تكلّم في الصلاة وزادَ فيها      علانيةً وأعلنَ بالذّفاق<sup>(١)</sup>  
ومَجَّ الخمرَ في سننِ المصلّي      ونادى والجميعُ إلى افتراقِ  
أزيدُكم على أن تحمدوني      فالكمُ ومالي من خلاقِ<sup>(٢)</sup>

قال أبو الفرج : وأخبرنا محمد بن خلف وكيع قال : حدثنا حماد بن إسحاق ، قال :  
حدثني أبي قال : قال أبو عبيدة وهشام بن الكلبي والأصمعي : كان الوليد زانياً  
يشرب الخمر ، فشرب بالكوفة وقام ليصلي بهم الصبح في المسجد الجامع ، فصلى بهم  
أربع ركعات ثم التفت إليهم فقال : أزيدكم ؟ وتقياً في الحراب بعد أن قرأ بهم رافعاً  
صوته في الصلاة :

عَلِقَ القلبُ الرّباباً      بعد ما شابت وشاباً

فشخص أهل الكوفة إلى عثمان فأخبروه بخبره ، وشهدوا عليه بشرب الخمر ،  
فأتى به ، فأمر رجلاً من المسلمين أن يضربه الحد ، فلما دنا منه قال : نشدتك الله  
وقرابتي من أمير المؤمنين ! فتركه ، تخاف على بن أبي طالب عليه السلام أن يعطل الحد ،  
فقام إليه نحوه بيده ، فقال الوليد : نشدتك الله والقراة ! فقال أمير المؤمنين عليه السلام :  
اسكت أبا وهب ، فإنما هلك بنو إسرائيل لتمطيلهم الحدود ؛ فلما ضربته وفرغ منه قال :  
لتدعوني قريش بمدها جلّادا . قال إسحاق : وحدثني مصعب بن الزبير قال : قال الوليد  
بعد ما شهدوا عليه فجُلد : اللهم إنهم قد شهدوا عليّ بزور ، فلا تُرضهم عن أمير ،  
ولا تُرض عنهم أميراً ، قال : وقد عكس الحطيئة أبياته فجعلها مدحاً للوليد :  
شهد الحطيئة حين يلقى ربّه      أن الوليد أحقّ بالعدر

(١) ملحق ديوانه ١١٩ ، وفيه : « وجاهر بالذفاق » .

(٢) الأغاني ٤ : ١٧٦ .

كَفَّوْا عَنَّا نَكَ إِذْ جَرَيْتَ وَلَوْ تَرَكَوْا عَنَّا نَكَ لَمْ تَزَلْ تَجْرِي  
وَرَأَوْا شَمَائِلَ مَا جَدَّ أَنْفٍ يُغْطِي عَلَى الْمَيْسُورِ وَالْعُسْرِ  
فَنَزَعَتْ مَكْذُوبًا عَلَيْكَ وَلَمْ تُنْزَعْ عَلَى طَمَعٍ وَلَا دُغْرِ<sup>(١)</sup>

قال أبو الفرج : ونسختُ من كتاب هارون بن الرّباب بخطّه ، عن عمر بن شُبّة ؛  
قال : شهد رجلٌ عند أبي العجّاج - وكان على قضاء البصرة - على رجل من المعيطيّين  
بشهادة ، وكان الشاهد سكران ، فقال المشهود عليه ، وهو المعيطيّ : أعزّك الله أيّها  
القاضي ، إنّه لا يُحسِن من السُّكر أن يقرأ شيئاً من القرآن ، فقال الشاهد : بلى أحسن ،  
قال : فاقراً ، فقال :

عَلِقَ الْقَلْبُ الرَّبَابَا بَعْدَ مَا شَابَتْ وَشَابَا

يَمَجُن<sup>(٢)</sup> بذلك ، وَيَحْكِي مَا قَالَهُ الْوَلِيدُ فِي الصَّلَاةِ ، وكان أبو العجّاج أحمق ،  
فظنّ أنّ هذا الكلام من القرآن ، فجعل يقول : صدّق الله ورسوله ، ويلكم ، كم  
تعملون ولا تعملون<sup>(٣)</sup>

قال أبو الفرج : وأخبرني أحمد بن عبد العزيز ، قال : حدّثنا عمر بن شُبّة ، عن  
الدائنيّ ، عن مبارك بن سلام ، عن فطر بن خليفة ، عن أبي الضّحى ، قال : كان ناسٌ من  
أهل الكوفة يتطلّبون عثرة الوليد بن عقبة ، منهم أبو زَيْب الأزدّيّ ، وأبو مَوْرَع ،  
فجاء يوماً ولم يحضر الوليد الصلّاة ، فسألا عنه ، فتلفّفا حتّى علما أنّه يشرب ، فاقتحما الدار  
فوجداه يقي ، فاقتحملاه وهو سكران حتّى وضعاه على سريره ، وأخذّا خاتمه من يده ،  
فأفاق ، فأفتقد خاتمه ، فسأل عنه أهله ، فقالوا : لا ندري ، وقد رأينا رجلين دخلا عليك

(١) الأغاني ٤ : ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) يمجن : يقول قولاً لا يدري ما عاقبته ؛ ومنه الماجن ؛ وفي الأغاني : « ولما تماجن » .

(٣) الأغاني ٤ : ١٧٧ ، ١٧٨ .

فاحتَمَلَاكَ فَوَضَعَاكَ عَلَى سَرِيرِكَ . فقال : صفوها لى ، فقالوا : أحدهما آدم<sup>(١)</sup> طَوَالَ حَسَنَ  
الوجه ، والآخَرُ عَرِيضَ سَرَبُوعٍ عَلَيْهِ خَمِيصَةٌ<sup>(٢)</sup> ، فقال : هذا أبو زَيْنَب ، وهذا أبو مَوَرَّع ؛  
قال : وَلَقِيَ أَبُو زَيْنَبُ وَصَاحِبَهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُبَيْشٍ الْأَسَدِيَّ وَعَلَقْمَةَ بْنَ يَزِيدَ الْبَكْرِيَّ  
وغيرَهما ، فَأَخْبَرُوهُمْ ، فقالوا : اشخصوا إلى أمير المؤمنين فأعلموه ، وقال بعضهم : إِنَّهُ لَا يَقْبَلُ  
قَوْلَكُمْ فِي أَخِيهِ ، فَشَخَّصُوا إِلَيْهِ ، فقالوا : إِنَّا جِئْنَاكَ فِي أَمْرٍ ، وَنَحْنُ مُخْرَجُوهُ إِلَيْكَ مِنْ  
أَعْنَاقِنَا ، وَقَدْ قِيلَ : إِنَّكَ لَا تَقْبَلُهُ ، قال : وما هو ؟ قالوا : رأينا الوليدَ وهو سَكْرَانٌ مِنْ  
خَمْرِ شَرَبَهَا ، وَهَذَا خَاتَمُهُ أَخَذْنَاهُ مِنْ يَدِهِ وَهُوَ لَا يَمِيقُ . فَأَرْسَلَ عُمَانُ إِلَى عَلِيٍّ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ فَأَخْبَرَهُ ، فقال : أَرَأَيْتَ أَنْ تُشَخِّصَهُ ، فَإِذَا شَهِدُوا عَلَيْهِ بِمَحْضَرٍ مِنْهُ حَدَّثْتَهُ . فَكَتَبَ  
عُمَانُ إِلَى الْوَلِيدِ ، فَقَدَّمَ عَلَيْهِ ، فَشَهِدَ عَلَيْهِ أَبُو زَيْنَبُ وَأَبُو مَوَرَّعَ وَجُنْدَبُ الْأَزْدِيُّ وَسَعْدُ  
ابْنُ مَالِكٍ الْأَشْعَرِيُّ ، فقال عُمَانُ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ : قُمَا يَا الْحَسَنُ فَأَجْلِسْهُ ، فقال عليٌّ عَلَيْهِ  
السَّلَامُ لِلْحَسَنِ ابْنِهِ : قُمِ فَاضْرِبْهُ ؛ فقال الحسن : مَالِكٌ وَلِهَذَا ، يَكْفِيكَ غَيْرُكَ ؛ فقال عليٌّ  
لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ : قُمِ فَاضْرِبْهُ ، فَضْرَبَهُ بِمِخْصَرَةٍ<sup>(٣)</sup> فِيهَا سَيْرٌ لَهُ رَأْسَانُ ، فَلَمَّا بَلَغَ أَرْبَعِينَ  
قال : حَسْبُكَ .

قال أبو الفرج : وَحَدَّثَنِي أَحْمَدُ قال : حَدَّثَنَا عُمَرُ قال : حَدَّثَنِي الْمَدَائِنِيُّ  
عَنِ الْوَقَاصِيِّ ، عَنِ الزَّهْرِيِّ قال : خَرَجَ رَهْطٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ إِلَى عُمَانَ فِي أَمْرِ الْوَلِيدِ ،  
فقال : أَكَلْنَا غَضِبَ رَجُلٍ عَلَى أَمِيرِهِ رَمَاهُ بِالْبَاطِلِ ! لَنْ أَصْبِيحْتُ لَكُمْ لِأَنْتُمْ لَكُمْ بِكُمْ ،  
فَاسْتَجَارُوا بِمَائِشَةٍ ، وَأَصْبَحَ عُمَانُ فَسَمِعَ مِنْ حُجْرَتِهَا صَوْتًا وَكَلَامًا فِيهِ بَعْضُ الْفِلْظَةِ ،  
فقال : أَمَا يَجِدُ فُسَّاقُ الْعِرَاقِ وَمُرَاقِبُهَا مَلْجَأً إِلَّا بَيْتَ عَائِشَةَ ! فَسَمِعْتُ ، فَرَفَعْتُ نَعْلِي رَسُولِ  
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَقَالَتْ : تَرَكْتَ سَنَةَ صَاحِبِ هَذَا النِّعْلِ . وَتَسَامِعُ النَّاسَ فُجَاءَ وَاحْتِ  
مَلَأُوا الْمَسْجِدَ ، فَمَنْ قَائِلٌ : قَدْ أَحْسَنْتَ ، وَمَنْ قَائِلٌ : مَا لِلنِّسَاءِ وَلِهَذَا ! حَتَّى تَخَاصِمُوا

(١) الآدم : الأسمر . (٢) الخميصة : كساء أسود مربع له علمان .

(٣) المِخْصَرَةُ : مَا اخْتَصَرَهُ الْإِنْسَانُ بِيَدِهِ فَأَمْسَكَ مِنْ عَصَا أَوْ مَقْرَعَةٍ أَوْ عَكَازَةٍ وَمَا أَشْبَهَهَا .



وَتَضَارَبُوا بِاللِّعَالِ، ودخل رهطٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان فقالوا له: اتق الله ولا تُعطل الحدود، واعزل أخاك عنهم؛ ففعل<sup>(١)</sup>.

قال أبو الفرج: حدثنا أحمد قال: حدثني عمر، عن المدائني، عن أبي محمد الناجي، عن مطر الوراق، قال: قدم رجلٌ من أهل الكوفة إلى المدينة فقال لعثمان: إني صليتُ صلاةَ الغداة خلف الوليد، فالتفت في الصلاة إلى الناس، فقال: أأزيدكم، فإني أجدُ اليوم نشاطاً؟ وشيئنا منه رائحة الخمر، فضرب عثمان الرجل؛ فقال الناس: عطلت الحدود، وضربت الشهود<sup>(٢)</sup>.

قال أبو الفرج: وحدثنا أحمد، قال: حدثنا عمر قال: حدثنا أبو بكر الباهلي، عن بعض من حدثه قال: لما شهد على الوليد عند عثمان يشرب الخمر كتب إليه يأمره بالشخص؛ فخرج معه قومٌ يعذرونه، منهم عدي بن حاتم الطائي، فنزل الوليد يوماً يسوقُ بهم، فارتجز وقال:

لا تحسبنا قد نسينا الأحقاف<sup>(٣)</sup> والنشواتِ من مُعْتَقٍ صافٍ

\* وعزف قيناتٍ علينا عُرَافٍ \*

فقال عدي: فأين تذهب بنا إذن! فأقم<sup>(٤)</sup>.

قال أبو الفرج: وقد روى أحمد عن عمر، عن رجاله، عن الشعبي، عن جندب الأزدي، قال: كنتُ فيمن شهد على الوليد عند عثمان، فلما استتممتُ عليه الشهادة حبسه عثمان. ثم ذكر باقي الخبر وضرب على عليه السلام إياه، وقول الحسن ابنه: «مالك ولهذا»، وزاد فيه، وقال على عليه السلام: لست إذن مُسليماً؛ أو قال: من المسلمين.

(١) الأغاني ٤ : ١٧٨ . (٢) الأغاني ٤ : ١٧٨ .

(٣) الأغاني : « الإيلاف » ؛ وهو ضرب من السير .

(٤) الأغاني ٤ : ١٧٨ ، ١٧٩ . (٥) الأغاني ٤ : ١٧٩ .

قال أبو الفرج : وأخبرني أحمد ، عن عمر عن رجاله ، أن الشهادة لما تمت قال عثمان لعلي عليه السلام : دونك ابن عمك فأقيم عليه الحد . فأمر علي عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام ، فلم يفعل ، فقال : يكفيك غيرك ! فقال علي عليه السلام : بل ضعفت وهنت وعجزت ؛ قم يا عبد الله بن جعفر فاجلده ، فقام فجلده ، وعلي عليه السلام يعد حتى بلغ أربعين ، فقال له علي عليه السلام : أمسك حسبك ، جلد رسول الله صلى الله عليه وآله أربعين ، وجلد أبو بكر أربعين ؛ وكمّلها عمر ثمانين ؛ وكل سنة (١) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد ، عن عمر ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد ابن سعيد ، قال : وأخبرني بذلك أيضاً إبراهيم بن محمد بن أيوب ، عن عبد الله بن مسلم ، قالوا جميعاً : لما ضرب عثمان الوليد الحد ، قال : إنك لتضر بني اليوم بشهادة قوم ليعتقلنك حاماً قابلاً (٢) .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عبد العزيز الجوهري ، عن عمر بن شبة ، عن عبد الله بن محمد بن حكيم ، عن خالد بن سعيد . وأخبرني أيضاً إبراهيم ، عن عبد الله ، قالوا جميعاً : كان أبو زبيد الطائي نديماً للوليد بن عتبة أيام ولايته الكوفة ، فلما شهدوا عليه بالسك من الخمر خرج عن الكوفة معزولاً ، فقال أبو زبيد يتذكر أيامه ويندامته :

من يرى المير أن تمشي على ظهر المرورى حداثتهن عجال !  
ناعجات والبيت بيت أبي وهب خلا تحن فيه الشمال  
يعرف الجاهل المضلل أن الدهر فيه النكراه والزوال  
ليت شعري كذاكم العهد أم كما نوا أناساً كمن يزول فزالوا !

(١) الأغاني ٤ : ١٧٩ . (٢) الأغاني ٤ : ١٧٩ .

(٣) ابن أروى ، هو الوليد بن عتبة ؛ وأروى هي أم عثمان بن عفان .

بعد ما تعلمين يا أمّ عمرو  
 ووجوه تودّنا مشرقات ونوال إذا أريد النّوال  
 أصبح البيت قد تبدّل بالحيّ وجوها كأنّها الأقيال<sup>(١)</sup>  
 كلّ شيء يحتال فيه الرجال غير أن ليس للمنايا احتيال  
 ولعمري الإله لو كان للسير ف مضاء وللسان مقال<sup>(٢)</sup>  
 ما تناسيتك الصفاء ولا الودّ ولا حال دونك الإشغال  
 ولحرمت لحك المتعضّي ضلّة ضلّ حلمهم ما اغتالوا<sup>(٣)</sup>  
 قولهم شرّ بك الحرام وقد كان شراب سوى الحرام حلال  
 وأبى ظاهر العداوة والشّنة إنّ إلامقال ما لا يُقال  
 من رجال تقارضوا منكرات ليقلّوا الذي أرادوا فقلوا  
 غير ما طالبين ذحلاً ولكن مال دهره على أناس فقلوا  
 من يحنّك الصفاء أو يتبدّل أو يزُل مثل ما يزول الظلال  
 فاعلمن أننى أخوك أخو الودّ حياتى حتى تزول الجبال  
 ليس يُحنّى عليك يوماً بمال أبدأ ما أقلّ نعلًا قبّال<sup>(٤)</sup>  
 ولك النصر باللسان وبالكف إذا كان لليدين مصال<sup>(٥)</sup>

قال أبو الفرج : وحدّثني أحمد قال : حدّثني عمر قال : لما قدم الوليد بن عتبة الكوفة قدم عليه أبو زُبَيْد فأنزله دار عقيل بن أبي طالب على باب المسجد ، وهى التى

(١) الأقيال : الملوك الجاهليون . وفى الأغاني : « الأقتال » جمع قتل ؛ وهو العدو .

(٢) الأغاني : « مصال » ، يقال : صال على قرنه ، وإذا وثب عليه واستطال .

(٣) المتعضّي : المتقطع والمنفرد . (٤) قبال النعل : زمام بين الإصبع والى تليها .

(٥) الأغاني ٤ : ١٧٩ ، ١٨٠ .

تُعرف بدار القبطى ، فكان مما احتجّ به عليه أهل الكوفة أن أبا زبيد كان يخرج إليه من داره وهو نصرانىّ يخرق المسجد فيجعله طريقا (١) .

قال أبو الفرج : وأخبرنى محمد بن العباس اليزيدىّ قال : حدثنى عمى عبيد الله ، عن ابن حبيب عن ابن الأعرابىّ ، أن أبا زبيد وفد على الوليد حين استعله عثمان على الكوفة ، فأنزله الوليد دار عقيل بن أبى طالب عند باب المسجد ، واستوّهبها منه ، فوهبها له ، فكان ذلك أول الطعن عليه من أهل الكوفة ، لأنّ أبا زبيد كان يخرج من داره حتى يشقّ المسجد إلى الوليد فيسمرّ عنده ، ويشرب معه ، ويخرج فيشقّ المسجد وهو سكران ، فذاك نبههم عليه . قال : وقد كان عثمان ولّى الوليد صدقاتٍ بنى تغلب ، فبلغه عنه شعرٌ فيه خلاعة ، فنزله . قال : فلما ولّاه الكوفة اختصّ أبا زبيد الطائى وقرّبه ، ومدحه أبو زبيد بشعر كثير ، وقد كان الوليد يستعمل الربيع بن مريّ بن أوس بن حارثة بن لأم الطائى على الحمى فيما بين الجزيرة وظهر الحيرة ، فأجذبت الجزيرة ؛ وكان أبو زبيد فى بنى تغلب نازلا ، فخرج بإبلهم ليرعيهم ، فأبى عليهم الربيع بن مريّ ومنعهم ، وقال لأبى زبيد : إن شئت أرعيتك وحدك فعلت ؛ فأتى أبو زبيد إلى الوليد فشكاه ، فأعطاه ما بين القصور الحمر من الشام ، إلى القصور الحمر من الحيرة ، وجعلها له حمى ، وأخذها من الربيع ابن مريّ ، فقال أبو زبيد يدعُ الوليد ، والشعر يدلّ على أن الحمى كان بيد مريّ بن أوس ، لا بيد الربيع ابنه ، وهكذا هو فى رواية عمر بن شبة :

لعمركم أبيت يا بن أبى مريّ      لغيرك من أباح لنا الديارا (٢)

أباح لنا أبارق ذات قور      وترعى القفّ منها والقفارا (٣)

(١) الأغاني ٤ : ١٨٠ . (٢) الأغاني : « لها الديارا » .

(٣) الأبارق : جمع الأبرق ، وهو الأرض الغليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة . والقف ما ييس من البقول وتناثر حبه وورقه ؛ ترعاه الإبل وتسمن عليه .

بحمد الله ثم فتى قريش      أبى وهب غدت بُدْنا غزارا<sup>(١)</sup>  
أباح لنا ولا نحمل عليكم      إذا ما كنتم سنةً جزارا  
قال : يقول : إذا أجذبتم فإننا لا نحميها عليكم ، وإذا كنتم أساتم وحيتموها علينا  
فتى طالت يداه إلى العالی      وطحطحت المجدمة القصارا<sup>(٢)</sup>  
قال : ومن شعر أبى زبيد فيه يذكر نصره له على مرى بن أوس بن حارثة :  
يا ليت شعري بأبناء أتبوها      قد كان يعنى بها صدرى وتقديرى  
عن امرئ ما يزده الله من شرف      أفرح به ومرى غير مسرور  
إن الوليد له عندى وحق له      ودّ الخليل ونصح غير مذخور  
لقد دمانى وأذنانى وأظهرنى      على الأعادى بنصر غير تغير  
وشدّب القوم عنى غير مكثر      حتى تناهوا على رغب وتصغير  
نفسى فداه أبى وهب وقل له      يا أمّ عمرو فحلى اليوم أو سيري<sup>(٣)</sup>  
وقال أبو زبيد يمدح الوليد ويتألم لفراقه حين عزل عن الكوفة :  
لعمري لئن أئسى الوليد ببلدة      سواى لقد أمسيت للدهر معورا<sup>(٤)</sup>  
خلا أن رزق الله غديراً      وإنى له راجع وإن سار أشهراً  
وكان هو الحصن الذى ليس مسلمى      إذا أنا بالنكراء هيّجت معشراً  
إذا صادفوا دونى الوليد فإنما      يرون بوادى ذى حاس مزعفراً<sup>(٥)</sup>

(١) غزارا : جمع غزيرة ؛ وهى من الإبل الكثيرة اللبن .

(٢) طحطح الرجل ماله : فرقة . (٣) الأغاني ٤ : ١٨٠ .

(٤) المعور : الذى لا حافظ له .

(٥) ذو حاس : موضع تلقاء عرعر ، أو مأسدة . والمزعفر : الأسد الورد ، وبعده فى الأغاني :

خصيب بنان ما يزال براكب      يحبّ وضاحى جلده قد تقشراً

وهي طويلة يصف فيها الأسد<sup>(١)</sup> .

قال أبو الفرج : وحدثنا أحمد بن عبد العزيز قال : حدثنا عمر عن رجاله ، عن الوليد قال : لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله مكة جعل أهل مكة يأتونه بصبيانهم ، فيدعو لهم بالبركة ، ويمسح يده على رؤوسهم ، فجاء بي إليه وأنا مخلق ، فلم يمسنى ، وما منعه إلا أن أرى خَلَقَتْنِي بِخَلْقٍ ، فلم يمسنى من أجل الخلق<sup>(٢)</sup> .

قال أبو الفرج : وحدثني إسحاق بن بنان الأتطبي ، عن حُنَيْش بن ميسر ، عن عبد الله بن موسى ، عن أبي ليلى ، عن الحكم ، عن سميد بن جبير ، عن ابن عباس قال : قال الوليد بن عقبة لعلى بن أبي طالب عليه السلام : أنا أحد منك سِنَانًا ، وأبسط منك لسانًا ، وأملاً للكتيبة ؛ فقال على عليه السلام : اسكت يا فاسق ، فنزل القرآن فيهما : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمد بن عبد العزيز ، عن عمر بن شبة ، عن محمد بن حاتم ، عن يونس بن عمر ، عن شَيْبَان ، عن يونس ، عن قتادة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾<sup>(٤)</sup> . قال : هو الوليد بن عقبة ، بعثه النبي صلى الله عليه وآله مُصَدِّقًا إلى بنى المصطلق ، فلما رأوه أقبلوا نحوه ، فهابهم ، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال له : إنهم ارتدوا عن الإسلام ، فبعث النبي صلى الله عليه وآله عليه وسلم خالد بن الوليد ، فعلم علمهم ، وأمره أن يثبّت ، وقال له : انطلق ولا تمجل ، فانطلق حتى أتاهم ليلاً ، وأتقذ عيونه نحوه ، فلما جاءوه أخبروه أنهم متمسكون بالإسلام وسمع أذانهم وصلاتهم ، فلما أصبح أتاهم فرأى ما يعجبه ، فرجع إلى الرسول صلى الله عليه وآله فأخبره ، فنزلت هذه الآية<sup>(٥)</sup> .

(١) الأغاني ٤ : ١٨٢ . (٢) الأغاني ٤ : ١٨٢ .

(٣) سورة السجدة : ١٨ . (٤) سورة الحجرات ٦ .

(٥) الأغاني ٤ : ١٨٢ .

قلت : قد لَمَحَ ابنُ عبد البرِّ صاحبُ كتاب " الاستيعاب " ، في هذا الموضع نكتةً حَسَنَةً ، فقال في حديث الخُلُوق : هذا حديثٌ مضطربٌ منكَّرٌ ، لا يصحُّ ، وليس يمكن أن يكونَ مَنْ بَعَثَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ مُصَدِّقًا صَبِيًّا يَوْمَ الْفَتْحِ ؛ قال : وبدلًا أيضًا على فساده أنَّ الزبيرَ بنَ بَكَّارٍ وغيره من أهل العلم بالسَّيَرِ والأخبار ذَكَرُوا أَنَّ الْوَلِيدَ وَأَخَاهُ عُمَارَةَ ابْنَيْ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ خَرَجَا مِنْ مَكَّةَ لِيَرَدَا أُخْتَهُمَا أُمَّ كَثُومَ عَنِ الْهَجْرَةِ ، وَكَانَتْ هَجْرَتُهُمَا فِي الْهَذْنَةِ الَّتِي بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَبَيْنَ أَهْلِ مَكَّةَ ، وَمَنْ كَانَ غَلَامًا مُخَلَّقًا بِالْخُلُوقِ يَوْمَ الْفَتْحِ لَيْسَ يَجِيءُ مِنْهُ مِثْلُ هَذَا . قال : ولا خلافَ بين أهل العلم بتأويل القرآن أنَّ قوله عزَّ وجلَّ : ﴿ إِنْ جَاءَ كُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أُنْزِلَتْ فِي الْوَلِيدِ لَمَّا بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ مُصَدِّقًا ، فَكَذَّبَ عَلَى بَنِي الْمُصْطَلِقِ وَقَالَ : إِنَّهُمْ ارْتَدُّوا وَامْتَنَعُوا مِنْ أَدَاءِ الصَّدَقَةِ . قال أبو عمر : وفيه وفي عليٍّ عليه السلام نَزَلَ : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> ؛ في قصتهما المشهورة . قال : ومن كان صبيًا يومَ الْفَتْحِ لَا يَجِيءُ مِنْهُ مِثْلُ هَذَا ، فوجب أن يُنْظَرَ فِي حَدِيثِ الْخُلُوقِ ، فَإِنَّهُ رَوَاةُ جَمْفَرِ بْنِ بَرْقَانَ ، عَنْ ثَابِتٍ ، عَنْ الْحِجَّاجِ ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْهَمْدَانِيِّ ؛ وَأَبُو مُوسَى مَجْهُولٌ لَا يَصَحُّ حَدِيثُهُ .

\*\*\*

ثمَّ نَعُودُ إِلَى كِتَابِ أَبِي الْفَرَجِ الْأَصْبَهَانِيِّ ؛ قَالَ أَبُو الْفَرَجِ : وَأَخْبَرَنِي أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ ، عَنْ عَمْرِو بْنِ شَبَّةَ ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى ، عَنْ نَعِيمِ بْنِ حَكِيمٍ ، عَنْ أَبِي مَرْيَمَ ، عَنْ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَنَّ امْرَأَةَ الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ جَاءَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ تَشْتَكِي إِلَيْهِ الْوَلِيدَ ، وَقَالَتْ : إِنَّهُ يَضْرِبُهَا ، فَقَالَ لَهَا : ارْجِعِي إِلَيْهِ وَقُولِي لَهُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَجَارَنِي ، فَاِنْطَلَقَتْ ، فَكُنْتُ سَاعَةً ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَقَالَتْ : إِنَّهُ

ما أَقْلَعَ عَنِّي ، ففطع رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هُدْبَةً<sup>(١)</sup> من ثَوْبِهِ وقال : اذهبي بها إليه وقولي له : إنَّ رسولَ الله قد أجازني ، فانطلقتُ فمكثتُ ساعةً ثم رجعتُ فقالت : ماذا ندي إلا ضَرْباً ، فرفع رسولُ الله صلى الله عليه وآله يده ثم قال : « اللهم عليك بالوليد » مرتين أو ثلاثاً<sup>(٢)</sup> .

قال أبو الفرج : واختصَّ الوليد لما كان والياً بالكوفة ساحراً كاد يفتن الناس ، كان يُرِيهِ كَتِيبَتَيْنِ تَقْتَتِلَانِ فَتَحْمِلُ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَتَهْزِمُهَا ، ثم يقول له أَيْسَرُكَ أَنْ أُرِيكَ الْهَزِمَةَ تَغْلِبُ الْغَالِبَةَ فَتَهْزِمُهَا ؟ فيقول : نعم ، فجاء جُنْدُبُ الْأَزْدِيُّ مُشْتَمِلاً عَلَى سَيْفِهِ ، فقال : أَفِرْجَوَالِي ، فَأَفِرْجُوا فُضِرْبَهُ حَتَّى قَتَلَهُ ، فَخَبَسَهُ الْوَلِيدُ قَلِيلًا ثُمَّ تَرَكَهُ<sup>(٣)</sup> .

قال أبو الفرج : وروى أحمدُ عن عمر ، عن رجله ، أن جُنْدُبًا لَمَّا قَتَلَ السَّاحِرَ حَبَسَهُ الْوَلِيدُ ، فقال له دينار بن دينار : فيم حبستَ هذا ، وقد قَتَلَ من أَعْلَنَ بالسِّحْرِ في دين محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ثم مضى إليه فَأَخْرَجَهُ مِنَ الْحَبْسِ ، فَأَرْسَلَ الْوَلِيدَ إِلَى دِينَارِ ابْنِ دِينَارٍ فَقَتَلَهُ<sup>(٤)</sup> .

قال أبو الفرج : حدَّثني عمِّي الحسن بن محمد قال : حدَّثني الخراز ، عن الدائمي ، عن علي بن مجاهد ، عن محمد بن إسحاق ، عن يزيد بن رومان ، عن الزَّهْرِيِّ وغيره ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله لَمَّا انْصَرَفَ عَنْ غَزَاةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ نَزَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَسَاقَ بِالْقَوْمِ وَرَجَزَ ، ثُمَّ آخَرَ فَسَاقَ بِهِمْ وَرَجَزَ ، ثُمَّ بَدَأَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله أَنْ يُوَاسِيَ أَصْحَابَهُ ، فَزَلَ فَسَاقَ بِهِمْ وَرَجَزَ ، وَجَمَلَ يَقُولُ فِيمَا يَقُولُ :

جُنْدَبُ وَمَا جُنْدَبُ وَالْأَفْطَعُ زَيْدُ الْخَيْرِ

(١) الاستيعاب . (٢) الأغاني ٤ : ١٨٣ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٨٣ . (٤) الأغاني ٤ : ١٨٣ .



فدنا منه أصحابه فقالوا: يا رسول الله ، ما ينفعنا سيرنا مخافة أن تنهشك دابة ، أو  
تصيبك نكبة . فركب ودنوا منه وقالوا : قلتَ قولاً لا ندرى ماهو ؟ قال : وماذا ؟ قالوا :  
كنتَ تقول : جُنْدَب وما جُنْدَب ، والأقطع زيد الخير .

فقال : رجلان يكونان في هذه الأمة يضرب أحدهما ضربة يفرق بين الحق والباطل ،  
وتقطع يد الآخر في سبيل الله ، ثم يُتبع الله آخر جسده بأوله ، وكان زيد ، هو زيد بن  
صُوحان ، وقطعت يده في سبيل الله يوم جُلّوا ، وقتل يوم الجمل مع عليّ بن أبي طالب  
عليه السلام ؛ وأما جندب هذا فدخل على الوليد بن عُقبه وعنده ساحر يقال له :  
أبو شيّان ، يأخذ أعين الناس ، فيخرج مصارين بطنهم ثم يردها ، فجاء من خلفه  
فصرّ به فقتله ، وقال :

المن وليداً وأبا شيّان وابن حبيش ركب الشيطان

\* رسول فرعون إلى هامان<sup>(١)</sup> \*

قال أبو الفرج : وقد روى أن هذا الساحر كان يدخل عند الوليد في جوف بقرة  
حية ، ثم يخرج منها ؛ فراه جندب فذهب إلى بيته ، فاشتمل على سيف ، فلما دخل  
الساحر في البقرة قال جندب : ﴿ أَفْتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> ، ثم ضرب وسط  
البقرة فقطعها وقطع الساحر معها ، فدعر الناس ، فسجنه الوليد ، وكتب بأمره  
إلى عثمان<sup>(٣)</sup> .

\*\*\*

قال أبو الفرج : فرّوى أحمد بن عبد العزيز ، عن حجاج بن نصير ، عن قرّة ، عن

(١) الأغاني ٤ : ١٨٣ ، ١٨٤ . (٢) سورة الأنبياء ٣ .

(٣) الأغاني ٤ : ١٨٤ .

نحمد بن سيرين ، قال : انطلق مجندب بن كعب الأزدي قاتل الساحر بالكوفة إلى السجن ، وعلى السجن رجل نصراني من قبل الوليد ، وكان يرى جندب بن كعب يقوم بالليل ويصبح صائماً ، فوكل بالسجن رجلاً ، ثم خرج فسأل الناس عن أفضل أهل الكوفة ، فقالوا : الأشعث بن قيس ، فاستضافه ، فجعل يراه ينام الليل ثم يصبح فيدعو بغيره ، فخرج من عنده وسأل : أي أهل الكوفة أفضل ؟ قالوا : جرير بن عبد الله ، فذهب إليه فوجده ينام الليل ثم يصبح فيدعو بغيره ، فاستقبل القبله ، وقال : ربّي ربّ جندب ، وديني دين جندب . ثم أسلم <sup>(١)</sup> .

قال أبو الفرج : فلما نزع عثمان الوليد عن الكوفة أمر عليها سعيد بن العاص ، فلما قدمها قال : اغسلوا هذا المنبر ، فإن الوليد كان رجلاً نجساً ، فلم يصمده حتى غسل . قال أبو الفرج : وكان الوليد أسن من سعيد بن العاص ، وأسخى نفساً ، وألين جانباً ، وأرضى عندهم ، فقال بعض شعرائهم :

وجاءنا من بعده سعيد <sup>(٢)</sup>      ينقص في الصاع ولا يزيد  
وقال آخر منهم :

فررت من الوليد إلى سعيد      كأهل الحِجر إذ فرّوا فباروا  
يلينا من قریش كل عام      أميرٌ محدثٌ أو مستشارٌ  
لنا نارٌ تحرقنا فنخشى      وليس لهم - ولا يخشون - نار <sup>(٣)</sup>

قال أبو الفرج : وحدّثنا أحمد ، قال : حدّثنا عمر ، عن المدائني ، قال : قدّم الوليد بن

(١) الأغاني ٤ : ١٨٣ . (٢) أول الرجز في الأغاني :

\* يا ويلتنا قد ذهب الوليد \*

(٣) الأغاني ٤ : ١٨٤ .

عقبة الكوفة في أيام معاوية زائراً للمغيرة بن شعبة ، فأتاه أشرافُ الكوفة فسلموا عليه . وقالوا : والله مارأينا بمدك مثلك ؛ فقال : أخيراً أم شراً ! قالوا : بل خيراً ، قال : ولكنني مارأيتُ بعدكم شراً منكم . فأعادوا الثناء عليه ، فقال : بعض ما تأتون به ! فوالله إنَّ بُغْضَكُمْ لَتَأَنَفٌ ، وإنَّ حَسَمَكُمْ لَصَلَفٌ<sup>(١)</sup> .

قال أبو الفرج : وَرَوَى عُمَرُ بْنُ شُبَّهٍ ؛ أَنَّ قَبِيصَةَ بْنَ جَابِرٍ كَانَ مِمَّنْ كَثُرَ<sup>(٢)</sup> عَلَى الْوَلِيدِ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ يَوْمَا الْوَلِيدُ وَقَبِيصَةُ عَنْده : يَا قَبِيصَةُ ، مَا كَانَ شَأْنُكَ وَشَأْنُ الْوَلِيدِ ؟ قَالَ : خَيْرٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ وَصَلَ الرَّحِمَ ، وَأَحْسَنَ الْكَلَامَ ، فَلَا تَسْأَلُ عَنْ شُكْرِهِ وَحُسْنِ ثَنَاءٍ ، ثُمَّ غَضِبَ عَلَى النَّاسِ وَغَضِبُوا عَلَيْهِ ، وَكُنَّا مَعَهُمْ ، فَإِذَا ظَالِمُونَ فَنَسْتَعْفِرُ اللَّهَ ، وَإِذَا مَظْلُومُونَ فَيَعْفِرُ اللَّهُ لَهُ ؛ فَخُذْ فِي غَيْرِ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَإِنَّ الْحَدِيثَ يُنْسَى الْقَدِيمَ . قَالَ مَعَاوِيَةُ : مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا قَدْ أَحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَبَسَطَ الْخَيْرَ ، وَقَبَضَ الشَّرَّ . قَالَ : فَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْيَوْمَ أَقْدَرُ عَلَى ذَلِكَ فَاغْلَمْهُ ، فَقَالَ : اسْكُتْ لَا سَكْتٌ ، فَسَكَّتْ وَسَكَّتِ الْقَوْمُ ، فَقَالَ مَعَاوِيَةُ بِمَدِّ يَسِيرٍ : مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ يَا قَبِيصَةُ ؟ قَالَ : نَهَيْتَنِي عَمَّا كُنْتُ أَحِبُّ فَسَكَّتْ عَمَّا لَا أَحِبُّ .

قال أبو الفرج : ومات الوليدُ بنُ عقبة فُوقَ الرِّقَّةِ ، ومات أبو زُبَيْدٍ هناك ، فدُفِنَا جَمِيعًا فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ ، فَقَالَ فِي ذَلِكَ أَشْجَعُ السُّكْتَى وَقَدْ مَرَّ بِقَبْرَيْهِمَا :

سمررتُ على عظام أبي زُبَيْدٍ      وقد لاحتْ بِلَقْعَةٍ صُلُودٌ  
فكان له الوليدُ نديمَ صِدْقٍ      فنَادَمَ قَبْرُهُ قَبْرَ الْوَلِيدِ  
وما أَدْرِي بَمَنْ تَبْدُو الْمَنَايا      بِحَمْرَةٍ أَمْ بِأَشْجَعِ أَمْ يَزِيدٍ !

قيل : هم إخوانه ، وقيل : ندماؤه<sup>(٣)</sup> .

قال أبو الفرج : وحدثني أحمدُ بنُ عبد العزيز ، عن محمد بن زكريَّا الغلابيِّ ،

(١) الأغاني ٤ : ١٨٤ . (٢) كذا في ١ ، د ، و ، ب : « كبر » . (٣) الأغاني ٤ : ١٨٥ .

عن عبد الله بن الصّحّاح ، عن هشام بن محمد ، عن أبيه ، قال : وقد الوليدُ بنُ عقبة — وكان جواداً — إلى معاوية ، فقيل له : هذا الوليدُ بنُ عقبة بالباب ، فقال : والله ليرجعنّ مغيطاً غيرَ مُعطى ، فإنه الآن قد أتانا يقول : على دينٍ وعلى كذا ، ائذن له ، فأذن له ، فسأله وتحدّث معه ، ثم قال له معاوية : أما والله إن كنّا لنُحبّ إتيانَ مالك بالوادي ، ولقد كان يُعجب أمير المؤمنين ، فإن رأيتَ أن تهبه ليزيدَ فافعل ، قال : هو ليزيد ، ثم خرج وجعل يختلف إلى معاوية ، فقال له يوما : انظر يا أمير المؤمنين في شأني ، فإنّ على مؤونة ، وقد أرهقني دين ، فقال له : ألا تستحي لنفسك وحسبك ، تأخذ ما تأخذه فتبذره ، ثم لا تنفك تشكو ديناً ! فقال الوليد : أفعل ، ثم أنطلق من مكانه ، فسار إلى الجزيرة ، وقال يخاطب معاوية :

فإذا سئلتَ تقول : « لا »      وإذا سألتَ تقول : هاتِ  
تأبى فمالَ الخير لا      تُروى وأنتَ على الفُراتِ  
أفلا تَميلُ إلى « نَعَمْ »      أو تَرُكُ « لا » حتى الماتِ !  
وبلغ معاوية شُخوصه إلى الجزيرة يخافه ، وكتب إليه : أقبل ، فكتبَ :  
أَعِفَّ وأستعفى كما قد أمرتني      فأعطِ سِوَايَ مابداً لك وأبجَلِـ  
سأحدو رِكابِي عنك إنَّ عزمي      إذا نأبني أمرٌ كسلِّعَ مُنْصَلِـ  
وإني امرؤُ للنأي مِنِّي تطرُّبُ      وليس شَبَا قُفْلٍ على بِمُقْفَلِـ  
ثم رحل إلى الحجاز ، فبعث إليه معاوية بجائزة<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

وأما أبو عمر بنُ عبد البرّ فإنه ذَكَرَ في " الاستيعاب " ، في باب الوليد ، قال : إنَّ له أخباراً فيها شناعة تقطع على سوء حاله ، وقُبِحَ أفعاله ؛ غَفَرَ اللهُ لنا وله ؛ فلقد كان من رجال قُرَيْش

ظرفاً وحِلماً وشجاعةً وجُوداً وأدباً ، وكان من الشعراء المطبوعين . قال : وكان الأصمعيّ وأبو عُبَيْدة وابنُ الكلبيّ وغيرهم يقولون : إنّه كان فاسقاً شَرِيبَ خمرٍ ، وكان شاعراً كريماً . قال : وأخبارُهُ في شُرْبِهِ الخمرَ ومَنادِمَتِهِ أبا زُبَيْدٍ الطائيّ كثيرةٌ مشهورةٌ ، ويسمُّجُ بنا ذِكْرُهَا ، ولكنّا نذكرُ منها طَرَفًا . ثمّ ذَكَرَ ما ذَكَرَهُ أَبُو الفَرَجِ في الأغانى ، وقال : إنَّ خَبَرَ الصلاةِ وهو سَكْرَانٌ ، وقوله : « أَأَزِيدُكُمْ ؟ » خبرٌ مشهورٌ رَوَتْهُ الثَّقَاتُ من نَقْلَةِ الحديثِ .

قال أبو عمر بن عبد البرّ : وقد ذكر الطَّبْرِيُّ في روايةٍ أنّه تَغَضَّبَ عليه قومٌ من أَهْلِ الكوفةِ حَسَدًا وَبَغْيًا ، وشهدوا عليه بِشُرْبِ الخمرِ ، وقال : إنَّ عَثْمَانَ قال له : يا أَخِي اصْبِرْ ، فإنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكَ وَيَبْوِءُ القَوْمُ بِإِثْمِكَ .

قال أبو عمر : هذا الحديث لا يَصِحُّ عند أَهْلِ الأخبارِ ونَقْلَةِ الحديثِ ، ولا لَهُ عند أَهْلِ العِلْمِ أصلٌ ؛ والصَّحِيحُ ثُبُوتُ الشَّهادَةِ عليه عِنْدَ عَثْمَانَ ، وجَلْدُهُ الحَدَّ ، وأنَّ عَلِيًّا هو الَّذِي جَلَّدَهُ . قال : ولم يَجْلِدْهُ بِيَدِهِ ، وَإِنَّمَا أَمَرَ بِجَلْدِهِ ، فَنُسِبَ الْجَلْدُ إِلَيْهِ .

قال أبو عمر : ولم يَرَوْا الوليدُ من السَّنَةِ ما يَحْتَاجُ فِيهَا إِلَيْهِ ، ولكنَّ حَارِثَةَ بْنَ مَضْرَبٍ رَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : « مَا كَانَتْ نَبْوَةٌ إِلَّا كَانَ بَعْدَهَا مُلْكٌ »<sup>(١)</sup> .

(١) الاستيعاب ١٥٥٢ وما بعدها (طبعة نهضة مصر) .

(٦٣)

الأفضل :

ومن كتابه عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري وهو عامله على الكوفة ،  
وقد بلغه عنه تثبيطه الناس عن الخروج إليه لما نذبهم لحرب أصحاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ : أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي  
عَنْكَ قَوْلُهُ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ ، فَإِذَا قَدِمَ عَلَيْكَ رَسُولِي فَارْفَعْ ذِيْلَكَ ، وَاشْدُدْ مِزْرَكَ ،  
وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ ، وَانْدُبْ مِنْ مَمَكَ ، فَإِنْ حَقَّقْتَ فَأَنْفُذْ ، وَإِنْ تَفَشَّلتْ فَأَبْمُدْ ،  
وَإِنَّمُ اللَّهُ لَتَوْتِيَنَّ مِنْ حَيْثُ أَنْتَ ، وَلَا تُتْرَكُ حَتَّى يُخْلَطَ زُبْدُكَ بِخِثْرِكَ ، وَذَائِبُكَ  
بِحَامِدِكَ ، وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قَعْدَتِكَ ، وَتَحْذَرَ مِنْ أَمَامِكَ ، كَحِذْرِكَ مَنْ خَلْفَكَ ،  
وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو ، وَلَكِنَّهَا الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى ، يُرَكَّبُ سَجْهَهَا ، وَيُذَلُّ  
صَعْبُهَا ، وَيُسَهَّلُ جَبَلُهَا . فَأَعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَأَمْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُذْ نَصِيْبَكَ وَحَظَّكَ ، فَإِنْ  
كَرِهْتَ فَتَنَحَّ إِلَى غَيْرِ رَحْبٍ ، وَلَا فِي نَجَاةٍ ، فَيَا لِحَرِيٍّ لَتُكْفَيْنَ وَأَنْتَ نَارِيٌّ حَتَّى لَا يُقَالَ :  
أَيْنَ فُلَانٍ ! وَاللَّهِ إِنَّهُ لَحَقَّ مَعَ مُحِقٍّ وَمَا يُبَالِي مَا صَنَعَ الْمُلْحِدُونَ ! وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

الْبُشْرُحُ :

المراد بقوله : « قَوْلُهُ هُوَ لَكَ وَعَلَيْكَ » ، أَنَّ أَبَا مُوسَى كَانَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْكَوْفَةِ :  
إِنْ عَلَيَّا إِمَامٌ هُدًى ، وَبَيْعَتُهُ صَحِيحَةٌ ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الْقِتَالُ مَعَهُ لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَهَذَا الْقَوْلُ  
بِمَعْضِهِ حَقٌّ ، وَبِمَعْضِهِ بَاطِلٌ .

وقوله : « فَارْفَعْ ذَيْكَ » ، أى شَمِّرْ لِلنَّهْوضِ مَعِيَ وَالْحَاقِ بِي ، لِشَهِدَ حَرْبَ أَهْلِ  
الْبَصْرَةِ ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ : « وَأَشْدُّ مِثْرَكَ » ، وَكَاتَمَا كُنَايَتَانِ عَنِ الْجِدِّ وَالتَّشْمِيرِ  
فِي الْأَمْرِ .

قال : « وَاخْرُجْ مِنْ جُحْرِكَ » ، أَمَرَهُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ مَنْزِلِهِ لِلْحَاقِ بِهِ ، وَهِيَ كُنَايَةٌ  
فِيهَا غَضٌّ مِنْ أَبِي مُوسَى وَأُسْتَهَانَةٌ بِهِ لِأَنَّهُ لَوْ أَرَادَ إِعْظَامَهُ لَقَالَ : وَاخْرُجْ مِنْ خَيْسِكَ<sup>(١)</sup> ،  
أَوْ مِنْ غِيْلِكَ<sup>(٢)</sup> كَمَا يُقَالُ لِلْأَسَدِ ، وَلَكِنَّهُ جَعَلَهُ ثَعْلَبًا أَوْ ضَبًّا .  
قال : « وَانْدُبْ مَنْ مَعَكَ » ، أى ، وَانْدُبْ رَعِيَّتَكَ مِنْ أَهْلِ الْكَوْفَةِ إِلَى الْخُرُوجِ مَعِيَ  
وَالْحَاقِ بِي .

ثم قال : « وَإِنْ تَحَقَّقْتَ فَانْفُذْ » أى أَمْرُكَ مَبْنًى عَلَى الشَّكِّ ، وَكَلَامُكَ فِي طَاعَتِي  
كَالْمُنْتَقِضِ ، فَإِنْ حَقَّتْ لَزُومَ طَاعَتِي لَكَ فَانْفُذْ ، أى سِرُّ حَتَّى تَقْدِمَ عَلَيَّ ، وَإِنْ أَقْتَمَ عَلَى  
الشَّكِّ فَأَعْتَزِلِ الْعَمَلَ ، فَقَدْ عَزَلْتُكَ .

قوله : « وَأَيُّمَ اللَّهِ لَتُؤْتِيَنَّ » مَعْنَاهُ إِنْ أَقْتَمَ عَلَى الشَّكِّ وَالْأَسْتِرَابَةِ وَتَثْبِيطِ أَهْلِ  
الْكُوْفَةِ عَنِ الْخُرُوجِ إِلَى وَقُولِكَ لَهُمْ : لَا يَحِلُّ لَكُمْ سَلُّ السَّيْفِ لَا مَعَ عَلِيٍّ وَلَا مَعَ طَلْحَةَ ،  
وَالزَّوْمَا بِيُوتِكُمْ ، وَاسْكُرُوا سَيُوفَكُمْ ، لِيَأْتِيَنَّكُمْ . وَأَنْتُمْ فِي مَنَازِلِكُمْ بِالْكُوْفَةِ أَهْلُ الْبَصْرَةِ  
مَعَ طَلْحَةَ ، وَنَأْتِيَنَّكُمْ نَحْنُ بِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالْحِجَازِ ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْكُمْ سَيْفَانِ مِنْ أَمْلَكُمْ وَمِنْ  
خَلْفِكُمْ ، فَتَكُونُ ذَلِكَ الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى الَّتِي لَا شَوَاةَ لَهَا .

قوله : « وَلَا تَتْرِكْ حَتَّى يَخْلُطَ زُبْدُكَ بِخَاثِرِكَ » تَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا ضَرَبْتَهُ حَتَّى أَتَخَنَّتَهُ :  
لَقَدْ ضَرَبْتَهُ حَتَّى خَلَطَتْ زُبْدُهُ بِخَاثِرِهِ ، وَكَذَلِكَ حَتَّى خَلَطَتْ ذَائِبُهُ بِجَامِدِهِ ، وَالْخَاثِرُ :  
اللَّبَنُ الْغَلِيظُ ، وَالزُّبْدُ خِلَاصَةُ اللَّبَنِ وَصَفْوَتُهُ ، فَإِذَا أَتَخَنَّتَ الْإِنْسَانَ ضَرْبًا كُنْتَ كَأَنَّكَ

(١) الخبيث : معرس الأسد (٢) الفيل : الشجر الكثير اللثف .

خَلَطَتْ مَا رَقَّ وَلَطَفَتْ مِنْ أَخْلَاطِهِ بِمَا كُنْتُ وَغَلُظْتُ مِنْهَا ، وَهَذَا مَثَلٌ ، وَمَعْنَاهُ لَتَفْسُدَنَّ حَالُكَ وَلَتُخْذَلْنَ ، وَلِيُضْرِبَنَّ مَا هُوَ الْآنَ مُنْتَظَمٌ مِنْ أَمْرِكَ .

قوله : « وَحَتَّى تُعْجَلَ عَنْ قِمَدَتِكَ » ، الْقِمْدَةُ بِالنَّكْسِ هَيْئَةُ الْقَعُودِ كَالْجُلُوسَةِ وَالرَّكْبَةُ أَيْ وَلِيَمْجَلَنَّ الْأَمْرُ عَنْ هَيْئَةِ قَعُودِكَ ، يَصِفُ شِدَّةَ الْأَمْرِ وَصَعُوبَتَهُ .

قوله : « وَتَحْذَرَنَّ أَمَامَكَ كَحَذَرِكَ مِنْ خَلْفِكَ » ، يَعْنِي يَا تُبَيْكُ مِنْ خَلْفِكَ إِنْ أَقْبَتَ عَلَى مَنْعِ النَّاسِ عَنِ الْحَرْبِ مَعَنَا وَمَعَهُمْ أَهْلُ الْبَصْرَةِ وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ ، فَتَكُونُ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ قَوْفِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ﴾ (١) .

قوله : « وَمَا هِيَ بِالْهُوَيْنَى الَّتِي تَرْجُو » ، الْهُوَيْنَى تَصْنِيرُ « الْهُونَى » الَّتِي هِيَ أَنْثَى « أَهْوَنَ » ، أَيْ لَيْسَتْ هَذِهِ الدَّاهِيَةُ وَالْجَائِئَةُ الَّتِي أَذْكَرُهَا لَكَ بِالشَّيْءِ الْهَيْنِ الَّذِي تَرْجُو إِنْ دَفَعَهُ وَسَهَوَلَتَهُ .

ثُمَّ قَالَ : بَلْ هِيَ الدَّاهِيَةُ الْكُبْرَى سَتَفْعَلُ لَا مَحَالَةَ إِنْ اسْتَمَرَّتْ عَلَى مَا أَنْتَ عَلَيْهِ ، وَكُنَى عَنْ قَوْلِهِ : « سَتَفْعَلُ لَا مَحَالَةَ » بِقَوْلِهِ : « يَرْكَبُ جُلُهَا » وَمَا بَعْدَهُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّهَا إِذَا رُكِبَ جُلُّهَا ، وَذَلِكَ صَعْبُهَا وَسَهْلُ وَغُرُّهَا فَقَدْ فَعَلَتْ ، أَيْ لَا تَقُلْ : هَذَا أَمْرٌ أَعْظَمُ صَعْبُ الْمَرَامِ ، أَيْ قَصْدِ الْجِيُوشِ مِنْ كَلَالِ الْجَائِبِينَ الْكَوْفَةِ ، فَإِنَّهُ إِنْ دَامَ الْأَمْرُ عَلَى مَا أُشِرْتَ إِلَى أَهْلِ الْكَوْفَةِ مِنَ التَّخَاذُلِ وَالْجُلُوسِ فِي الْبُيُوتِ ، وَقَوْلِكَ لَهُمْ : « نَكُنْ عَبْدَ اللَّهِ الْمَقْتُولِ » لَنَقَعَنَّ بِمَوْجِبِ مَا ذَكَرْتَهُ لَكَ ، وَلِيَرْتَكِبَنَّ أَهْلُ الْحِجَازِ وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ هَذَا الْأَمْرَ الْمُسْتَصْعَبَ ، لِأَنَّا نَحْنُ نَطْلُبُ أَنْ تَمْلِكَ الْكَوْفَةَ ، وَأَهْلُ الْبَصْرَةِ كَذَلِكَ ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهَا الْفَرِيقَانِ .

ثُمَّ عَادَ إِلَى أَمْرِهِ بِالْخُرُوجِ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ : « فَاعْقِلْ عَقْلَكَ ، وَامْلِكْ أَمْرَكَ ، وَخُذْ نَصِيئَتَكَ



وَحَظَّكَ » ، أى من الطاعة ، واتباع الإمام الذى لَزِمْتَكَ ببعته ، فإن كرهتَ ذلك ،  
فتنحَّ عن العمل فقد عزلتُكَ . وابعُدْ عَنَّا لا فى رَحْبٍ ، أى لا فى سَمَةِ ، وهذا ضدُّ قولهم :  
مَرَّحِبًا .

ثم قال : فجديرٌ أن تكفى ما كُلفته من حضور الحرب وأنت نائمٌ ، أى لست  
معدودا عندنا ولا عند الناس من الرجال الذين تفتقر الحروب والتدويرات إليهم ،  
فسُيُغْنَى اللهُ عَنْكَ ولا يقال : أين فلان ؟

ثم أقسم أنه لحقٌ ، أى أنى فى حرب هؤلاء لعملى حقٌ ، وإن من أطاعنى مع إمام  
مُحِقٍّ ليس يُبَالَى ما صنع الملحدون ، وهذا إشارةٌ إلى قولِ النبىِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله :  
« اللَّهُمَّ أَدِرِ الْحَقَّ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ » .

(٦٤)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتابه \* :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا كُنَّا نَحْنُ وَأَنْتُمْ عَلَى مَا ذَكَرْتَ مِنَ الْأُلْفَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَمْسِ أَنَا آمَنَّا وَكَفَرْتُمْ ، وَالْيَوْمَ أَنَا اسْتَقَمْنَا وَفُتِنْتُمْ ، وَمَا أَسْلَمَ مُسْلِمُكُمْ إِلَّا كَرَهَا ، وَبَعْدَ أَنْ كَانَ أَنْفُ الْإِسْلَامِ كُلُّهُ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ حَرْبًا . وَذَكَرْتَ أَنِّي قَتَلْتُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ ، وَشَرَدْتُ بِمَائِشَةَ ، وَنَزَلْتُ بَيْنَ الْمِصْرَيْنِ ، وَذَلِكَ أَمْرٌ غِبْتُ عَنْهُ ، فَلَا عَلَيْكَ ، وَلَا الْعُذْرُ فِيهِ إِلَيْكَ .

وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَايَرِي فِي جَمْعِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدْ انْقَطَعَتِ الْهِجْرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ ، فَإِنْ كَانَ فِيكَ عَجَلٌ فَاسْتَرْفِهِ ، فَإِنِّي إِنْ أُرْرَكَ فَذَلِكَ جَدِيرٌ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ إِعْمًا بَعَثَنِي إِلَيْكَ لِلنَّفَقَةِ مِنْكَ ، وَإِنْ تَزُرْنِي فَكَمَا قَالَ أَخُو بَنِي أُسْدٍ :  
مُسْتَقِيمِلِينَ رِيَّاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلُودٍ  
وَعِنْدِي السَّيْفُ الَّذِي أَعْضَضْتُهُ بِجَدِّكَ وَخَالِكَ وَأَخِيكَ فِي مَقَامٍ وَاحِدٍ .

فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا عَلِمْتَ الْأَغْلَفُ الْقَلْبِ ، الْمُقَارِبُ الْعَقْلِ ، وَالْأَوَّلَى أَنْ يُقَالَ لَكَ :  
إِنَّكَ رَقِيتَ سُلْمًا أَطْلَعَكَ مَطْلَعُ سُوءٍ عَلَيْكَ لَا لَكَ ، لِأَنَّكَ نَشَدْتَ غَيْرَ صَالَتِكَ ،  
وَرَعَيْتَ غَيْرَ سَائِمَتِكَ ، وَطَلَبْتَ أَمْرًا لَسْتَ مِنْ أَهْلِهِ وَلَا فِي مَدِينِهِ ، فَمَا أَبْعَدَ قَوْلَكَ  
مِنْ فِعْلِكَ !

(\*) بقية شرح هذه الرسالة في الجزء الثامن عشر .

وَقَرِيبٌ مَا أَشْبَهْتَ مِنْ أَعْمَامٍ وَأُخُوَالٍ ! سَمَكْتَهُمُ الشَّقَاوَةُ وَتَمَنَّى الْبَاطِلُ ، عَلَى  
الْجُحُودِ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَصُرِعُوا مَصَارِعَهُمْ حَيْثُ عَلِمْتَ ، لَمْ يَذْفَعُوا  
عَظِيمًا ، وَلَمْ يَمْنَعُوا حَرِيمًا ، يَوْقَعُ سَيْوِفٍ مَا خَلَا مِنْهَا الْوَعَى ، وَلَمْ تُمَاشِهَا  
الْهُوَيْنَى .

وَقَدْ أَكْثَرْتَ فِي قِتَاةِ عُثْمَانَ ؛ فَادْخُلْ فَبَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ ، ثُمَّ حَاكِمِ الْقَوْمَ إِلَى ،  
أَهْلِكَ وَإِيَّاهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَمَّا تِلْكَ الَّتِي تُرِيدُ ؛ فَإِنَّهَا خُدْعَةُ الصَّبِيِّ عَنِ اللَّبَنِ  
فِي أَوَّلِ الْفِصَالِ ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ .

\*\*\*

## الشَّيْخُ :

### [ كِتَابُ مَعَاوِيَةَ إِلَى عَلِيٍّ ]

أَمَّا الْكِتَابُ الَّذِي كَتَبَهُ إِلَيْهِ مَعَاوِيَةُ ، وَهَذَا الْكِتَابُ جَوَابُهُ ، فَهُوَ :  
مِنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ ، إِلَى عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ :  
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّا بَيْنِي عَبْدُ مَنْفٍ لَمْ نَزَلْ نَنْزَعُ مِنْ قَلْبٍ وَاحِدٍ ، وَنَجْرِي فِي حَلْبَةٍ وَاحِدَةٍ ،  
لَيْسَ لَبْمُضْنَا عَلَى بَعْضِ فَضْلٍ ، وَلَا لِقَائُنَا عَلَى قَاعِدِنَا نَفَرٍ ؛ كَلَّتْنَا مَوْتَلَفَةً ، وَأَلْفَتْنَا جَامِعَةً ،  
وَدَارُنَا وَاحِدَةً ، يَجْمَعُنَا كَرَمُ الْعِرْقِ ، وَيَحْوِينَا شَرَفُ النَّجَارِ ، وَيَحْنُو قُوَيْنَا عَلَى ضَعِيفِنَا ،  
وَيُوَاسِي غَنِيْنُنَا فَقِيرَنَا ، قَدْ خَلَصَتْ قُلُوبُنَا مِنْ وَغَلِ الْحَسَدِ ، وَطَهَّرَتْ أَنْفُسُنَا مِنْ خُبْثِ  
النِّيَّةِ ، فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى كَانَ مِنْكَ مَا كَانَ مِنَ الْإِدْهَانِ فِي أَمْرِ ابْنِ عَمِّكَ ، وَالْحَسَدِ لَهُ ،  
وَنُصْرَةِ النَّاسِ عَلَيْهِ ، حَتَّى قُتِلَ بِمَشْهَدٍ مِنْكَ ؛ لَا تَدْفَعُ عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلَا يَدَ . فَلَيْتَكَ

أظهرت نصره ، حيث أسردت خبره ، فكنت كالتعلق بين الناس بعمد<sup>(١)</sup> وإن ضعف ، والمتبري من دمه بدفع وإن وهن ، ولكذك جلست في دارك تدس إليه الدواهي ، وترسل إليه الأفاعي ؛ حتى إذا قضيت وطرك منه ، أظهرت شماتة ، وأبدت طلاقه ، وحسرت للأمر عن ساعدك ، وثمرت عن سافك ، ودعوت الناس إلى نفسك ، وأكرهت أعيان المسلمين على بيعت<sup>(٢)</sup>ك ، ثم كان منك بمد ما كان ؛ من قتلك شيخ<sup>(٣)</sup>ي المسلمين أبي محمد طلحة وأبي عبد الله الزبير ، وهما من الموعودين بالجنة ، والبشر قاتل أحدهما بالنار في الآخرة ، هذا إلى تشريدك بأ<sup>(٤)</sup>م المؤمنين عائشة وإحلالها محل الهون ، مبتدلة بين أيدي الأعراب وفسقة أهل الكوفة ، فن بين مشهر لها ، وبين شامت بها ، وبين ساخر منها . ترى ابن عمك كان بهذه لو رآه راضيا ، أم كان يكون عليك ساخلا ، ولك عنه زاجرا ! أن تؤذي أهله وتشرّد بحليلته ، وتسفك دماء أهل ملته . ثم ترك دار الهجرة التي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : « إن المدينة لتنفى حبشها كما ينفي الكبير<sup>(٥)</sup> » خبث الحديد ، فلمرى لقد صبح وعدّه وصدق قوله ، ولقد نفّت حبشها ، وطردت عنها من ليس بأهل أن يستوطنها ، فأفت بين المصرين ، وبعدت عن بركة الحرمين ، ورضيت بالكوفة بدلا من المدينة ، وبجواررة الخورنق والحيرة عوضا عن مجاورة خاتم النبوة ، ومن قبل ذلك ما عبث خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام حياتهما ، فقعدت عنهما وألّبت عليهما ، وامتنعت من بيعتهما ، ورمت أمر<sup>(٦)</sup>الم يرك الله تعالى له أهلا ، ورقيت سلما وعرا ، وحاولت مقاما دخضا ، وأدعيت ما لم تجد عليه ناصرا ؛ ولعمري لو وليتها حينئذ لما ازدادت إلا فسادا واضطرابا ، ولا أعقت ولا يتكها إلا انتشارا وارتدادا ؛ لأنك الشامخ بأنهم ، الذاهب بنفسه ، المستطيل على الناس بلسانه ويده ؛ وها أنا سائر<sup>(٧)</sup> إليك في جمع

(١) : « بعدو » .

(٢) الكير : زق ينفخ فيه الحداد .

من المهاجرين والأنصار تحفهم سيوفٌ شاميّة ، ورماحٌ قحطانيّة ، حتى يحاكموك إلى الله .  
فانظر لنفسك وللمسلمين ، واذفع إلى قتلة عثمان ؛ فإنهم خاصتكَ وخلصاؤك والمحدقون بك ،  
فإن أبيت إلا سلوك سبيل اللجاج ، والإصرار على الغي والضلال ، فاعلم أنّ هذه الآية إنما  
نزلت فيك وفي أهل العراق معك : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا  
رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ  
بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (١) .

\* \* \*

ثم نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل ومعانيه ، قال عليه السلام : لعمري إنّنا كنا بيتاً واحداً  
في الجاهلية ، لأننا بنو عبد مناف ، إلا أن الفرقة بيننا وبينكم حصلت منذ بعث الله محمداً  
صلى الله عليه وآله ، فإننا آمنّا وكفرتم ، ثم تأكدت الفرقة اليوم بأننا استقمنا على منهاج  
الحق وفتنتم .

ثم قال : « وما أسلم من أسلم منكم إلا كرهاً » ، كأبي سفيان وأولاده يزيد ومعاوية  
وغيرهم من بني عبد شمس .

قال : « وبمداً أن كان أنف الإسلام محارباً لرسول الله صلى الله عليه وآله » أى فى  
أول الإسلام ، يقال : كان ذلك فى أنف دولة بنى فلان ، أى فى أولها ، وأنف كل شيء  
أوله وطرفه ، وكان أبو سفيان وأهله من بنى عبد شمس أشدّ الناس على رسول الله صلى  
الله عليه وآله فى أول الهجرة ، إلى أن فتح مكة ، ثم أجابه عن قوله : « قتلت طلحة  
والزبير ، وشردت بمائشة ، ونزلت بين المصريين » بكلام مختصر أعرض فيه عنه

هَؤَانًا بِهِ ، فقال : هذا أمرٌ غبت عنه ، فليس عليك كان العدوان الذي ترزئهم ، ولا العذرُ إليك لو وجب على العذرُ عنه .

فأما الجواب المفصل فإن يقال : إن طلحة والزبير قتلا أنفسهما ببغيهما ونكثهما ، ولو استقاما على الطريقة لسليما ، ومن قتله الحق فدمه هدر ، وأما كونهما شيخين من شيوخ الإسلام فغير مدفوع ؛ ولكن العيب يحدث ، وأصحابنا يذهبون إلى أنهما تابا وفارقا الدنيا نادمين على ما صنعنا ، وكذلك نقول نحن ؛ فإن الأخبار كثرت بذلك ، فهما من أهل الجنة لتوبتهما ؛ ولولا توبتهما لكانا هالكين كما هلك غيرهما ، فإن الله تعالى لا يحابي أحدا في الطاعة والتقوى ، ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾ (١) .

وأما الوعد لهما بالجنة فشرط بسلامة العاقبة ، والكلام في سلامتهما ، وإذا ثبتت توبتهما فقد صحَّ الوعد لهما وتحقق ؛ وقوله : « بشر قاتل ابن صفية بالنار » ، فقد اختلف فيه ، فقال قومٌ من أرباب السير وعلماء الحديث : هو كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام غير مصروف ، وقوم منهم جعلوه مصروفا ، وعلى كل حال فهو حق ، لأن ابن جرموز قتله مولى خارجا من الصف ، مفارقا للحرب ؛ فقد قتله على توبة وإنابة ورجوع من الباطل ، وقاتل من هذه حاله فاسق مستحق للنار ؛ وأما أم المؤمنين عائشة فقد صحَّت توبتها ، والأخبار الواردة في توبتها أكثر من الأخبار الواردة في توبة طلحة والزبير ، لأنها عاشت زمنا طويلا ، وهما لم يبقيا ، والذي جرى لها كان خطأ منها ، فأى ذنب لأمير المؤمنين عليه السلام في ذلك ! ولو أقامت في منزلها لم تبتذل بين الأعراب وأهل الكوفة ؛ على أن أمير المؤمنين عليه السلام أكرمها وصانها وعظم من شأنها ، ومن أحب أن يقف على ما فعله معها فليطالع كتب السيرة . ولو كانت فعلت بعمر ما فعلت به ، وشقت عصا الأمة عليه ، ثم ظفر بها ، لقتلها وضربها إربا إربا ، ولكن عليا كان حليما كريما .

وأما قوله : « لو عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم فبرّك هل كان يرضى لك أن تؤذى حليته ! » فلملّى عليه السلام أن يقلب الكلام عليه ، فيقول : أفترأه لو عاش أكان يرضى لحليته أن تؤذى أخاه ووصيّيه ! وأيضا أترأه لو عاش أكان يرضى لك يابن أبي سفيان أن تُنازع عليا الخلافة وتفرق جماعة هذه الأمة ! وأيضا أترأه لو عاش أكان يرضى لطلحة والزيبر أن يبايعا ، ثم ينكثا لسبب ، بل قالا : جئنا نطلب الدراهم ، فقد قيل لنا : إن بالبصرة أموالا كثيرة ! هذا كلام يقوله مثلها !

فأما قوله : « تركت دار الهجرة » ، فلا عيبَ عليه إذا انقضت عليه أطراف الإسلام بالبنى والفساد أن يخرج من المدينة إليها ، ويهذب أهلها ؛ وليس كلُّ من خرج من المدينة كان خبيثا ، فقد خرج عنها عمرُ مرارا إلى الشام . ثم لملىّ عليه السلام أن يقلب عليه الكلام فيقول له : وأنت يا معاوية ؛ قد نفثت المدينة أيضا عنها ، فأنت إذا خبث ، وكذلك طلحة والزيبر وعائشة الذين تتعصب لهم وتحتج على الناس بهم ، وقد خرج عن المدينة الصالحون ، كابن مسعود وأبي ذرٍّ وغيرهما ، وماتوا في بلادٍ نائيةٍ عنها .

وأما قوله : « بعدت عن حرمة الحرمين ، ومجاورة قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فكلام إقناعي ضعيف ، والواجب على الإمام أن يقدم الأهم فالأهم من مصالح الإسلام ، وتقديم قتال أهل البغي على المقام بين الحرمين أولى . فأما ما ذكره من خذلانه عثمان وشماتته به ودعائه الناس بعد قتله إلى نفسه وإكراهه طلحة والزيبر وغيرها على بيعته فكله دعوى والأمر بخلافها ، ومن نظر كتب السير عرّف أنه قد بهته وادعى عليه ما لم يقع منه .

وأما قوله : « التويت على أبي بكر وعمر ، وقعدت عنهما ، وحاولت الخلافة بمدرسول الله صلى الله عليه وسلم » ، فإنّ عليّا عليه السلام لم يكن يجحد ذلك ولا يُنكره ، ولا ريب

أَبَهُ كَانَ يَدْعِي الْأَمْرَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لِنَفْسِهِ عَلَى الْجُبْلَةِ ، إِمَّا لِنَصِّ كَمَا تَقُولُهُ الشَّيْعَةُ ، أَوْ لِأَمْرِ آخَرَ كَمَا يَقُولُهُ أَصْحَابُنَا . فَأَمَّا قَوْلُهُ : « لَوْ وَلِيَتْهَا حِينَئِذٍ لَفَسَدَ الْأَمْرُ وَأُضْطَرَبَ الْإِسْلَامُ » ، فَهَذَا عِلْمٌ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَعَلَّهُ لَوْ وَلِيَهَا حِينَئِذٍ لَاسْتَقَامَ الْأَمْرُ وَصَلَحَ الْإِسْلَامُ وَتَمَّدَ ، فَإِنَّهُ مَا وَقَعَ الْأُضْطِرَابُ عِنْدَ وَلَايَتِهِ بَعْدَ عُمَانَ إِلَّا لِأَنَّ أَمْرَهُ هَانَ عِنْدَهُمْ بِنَأْخِرِهِ عَنِ الْخِلَافَةِ ، وَتَقَدَّمَ غَيْرُهُ عَلَيْهِ ، فَصَغُرَ شَأْنُهُ فِي النَّفُوسِ ، وَقَرَّرَ مِنْ تَقَدُّمِهِ فِي قُلُوبِ النَّاسِ أَنَّهُ لَا يَصْلُحُ لَهَا كُلُّ الصَّلَاحِيَةِ ، وَالنَّاسُ عَلَى مَا يَحْصُلُ فِي نَفْسِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ وَلِيَهَا ابْتِدَاءً وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا أَيَّامَ حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ الرَّفِيعَةِ وَالْأَخْتِصَاصِ الَّذِي كَانَ لَهُ ، لَكَانَ الْأَمْرُ غَيْرَ الَّذِي رَأَيْنَاهُ عِنْدَ وَلَايَتِهِ بَعْدَ عُمَانَ . وَأَمَّا قَوْلُهُ : « لِأَنَّكَ الشَّامِخُ بِأَنْفِهِ ، الذَّاهِبُ بِنَفْسِهِ » ، فَقَدْ أُسْرِفَ فِي وَصْفِهِ بِمَا وَصَفَهُ بِهِ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عِنْدَهُ زَهُوٌّ لَكِنْ لَا هَكَذَا ، وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَعَ زَهُوِّهِ أَلْطَفَ النَّاسِ خُلُقًا .

\*\*\*

ثُمَّ نَرْجِعُ إِلَى تَفْسِيرِ أَلْفَاظِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ قَوْلُهُ : « وَذَكَرْتَ أَنَّكَ زَائِرِي فِي جَمْعٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، وَقَدْ أَنْقَطَعَتِ الْمُهْجَرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ » هَذَا الْكَلَامُ تَكْذِيبٌ لَهُ فِي قَوْلِهِ : « فِي جَمْعٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ » ، أَيْ لَيْسَ مَعَكَ مُهَاجِرٌ لِأَنَّ أَكْثَرَ مَنْ مَعَكَ مِمَّنْ رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ هُمُ ابْنَاءُ الطَّلَقَاءِ ، وَمِنْ أَسْلَمَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ » .

وَعَبَّرَ عَنْ يَوْمِ الْفَتْحِ بِعِبَارَةِ حَسَنَةٍ فِيهَا تَقْرِيعٌ لِمَعَاوِيَةَ وَأَهْلِهِ بِالْكَفْرِ ، وَأَتَتْهُمْ لَيْسُوا مِنْ ذَوِي السَّوَابِقِ ، فَقَالَ : « قَدْ أَنْقَطَعَتِ الْمُهْجَرَةُ يَوْمَ أُسِرَ أَخُوكَ » ، يَعْنِي يَزِيدَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ أُسِرَ يَوْمَ الْفَتْحِ فِي بَابِ الْخَنْدَمَةِ ، وَكَانَ خَرَجَ فِي نَفَرٍ مِنْ قَرِيشٍ يُحَارِبُونَ وَيَمْنَعُونَ



من دخول مكة ، فقتل منهم قومٌ وأسير يزيدُ بنُ أبي سفيان ، أسره خالدُ بنُ الوليد ، فخلصه أبو سفيان منه ، وأدخله داره ؛ فأمن لأنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال يومئذ : « من دخل دارَ أبي سفيان فهو آمن » .

\*\*\*

### [ ذكر الخبر عن فتح مكة ]

ويجب أن نذكر في هذا الموضع ملخص ما ذكره الواقدي في كتاب " المغازي " ، في فتح مكة ، فإن الموضع يقتضيه ؛ لقوله عليه السلام : « ما أسلم مسلمكم إلا كرها » ، وقوله : « يوم أسير أخوك » .

قال محمد بن عمر الواقدي في كتاب " المغازي " :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد هادن قريشاً في عام الحديبية عشر سنين ، وجعل خزاعة داخله معه ، وجعلت قريشُ بنى بكر بن عبد مناة من كنانة داخله معهم ، وكان بين بنى بكر وبين خزاعة تراتٌ في الجاهلية ودماء ، وقد كانت خزاعة من قبلُ حالفت عبد المطلب بن هاشم ، وكان معها كتابٌ منه ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يعرف ذلك ، فلما تم صلح الحديبية وأمن الناس ، سمع غلامٌ من خزاعة إنساناً من بنى كنانة يقال له : أنس بن زُنيمة الدؤلي<sup>(١)</sup> ينشد هجاءً له في رسول الله صلى الله عليه وآله ، فغضب ففجعه ، فخرج أنس إلى قومه فأراهم شجته فنار بينهم الشر ، وتذاكروا أحقادهم القديمة ، والقوم مجاورون بمكة ، فاستنجدت بكر بن عبد مناة<sup>(٢)</sup> قريشاً على خزاعة ، فمن قريش من كره ذلك وقال : لأنقض عهد محمد ، ومنهم من خف إليه . وكان أبو سفيان أحد من كره ذلك ، وكان صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص

(١) ا « الدبلي » . (٢) ب : « مناف » ، وصوابه في ا ، د .

مَنْ أَعَانَ بَنِي بَكْرٍ ، وَدَسَّوْا إِلَيْهِمُ الرِّجَالَ بِالسَّلَاحِ سَرًّا ، وَبَيَّتُوا خُزَاعَةَ لَيْلًا ، فَأَوْقَعُوا بِهِمْ ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا عَاتَبُوا قُرَيْشًا ، فَجَحَدَتْ قُرَيْشٌ أَنَّهَا أَعَانَتْ بَكْرًا ، وَكَذَّبَتْ فِي ذَلِكَ ، وَتَبَرَّأَ أَبُو سُفْيَانَ وَقَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ مِمَّا جَرَى ، وَشَخَّصَ قَوْمٌ مِنْ خُزَاعَةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ مُسْتَصْرِحِينَ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ ، فَقَامَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ الْخُزَاعِيُّ فَأَنشَدَهُ :

لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا      حَلَفَ أَيْنَا وَأَيُّهُ الْأَتْلَدَا<sup>(١)</sup>  
لَكُنْتَ وَالِدًا وَكُنَّا وَلَدًا<sup>(٢)</sup>      ثَمَّتَ أَسْلَمُنَا وَلَمْ نَنْزِعْ يَدًا  
إِنَّ قُرَيْشًا أَخْلَفُوكَ الْمَوْعِدَا      وَنَقَضُوا مِيثَاقَكَ الْمُؤَكَّدَا  
هُمْ يَبْتَئُونَ بِالْوَتِيرِ هُجَبَا<sup>(٣)</sup>      تَنَلَوُ الْقُرْآنَ رُكْعًا وَسُجَّدَا  
وَزَعَمُوا أَنْ لَسْتَ تَدْعُو أَحَدًا      وَهُمْ أَذَلُّ وَأَقَلُّ عَدَدَا  
فَانْصُرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَيَّدَا<sup>(٤)</sup>      وَادْعُ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا<sup>(٥)</sup>  
فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرِي مُزِيدَا<sup>(٦)</sup>      فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا  
\* قَرْمٌ لِقَوْمٍ مِنْ قُرُومٍ أَصِيدَا \*

ثُمَّ ذَكَرُوا لَهُ مَا أَثَارَ الشَّرَّ ، وَقَالُوا لَهُ : إِنَّ أَنَسَ بْنَ زُنَيْمٍ هَجَاكَ ، وَإِنَّ صَفْوَانَ ابْنَ أُمَيَّةَ وَفُلَانًا وَفُلَانًا دَسَّوْا إِلَيْنَا رَجَالَ قُرَيْشٍ مُسْتَنْصِرِينَ ، فَيَبْتَئُونَ بِمَنْزِلِنَا بِالْوَتِيرِ فَقَتَلُونَا ، وَجِئْنَاكَ مُسْتَصْرِحِينَ بِكَ ، فَزَعَمُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَامَ مُغَضَّبًا يَجْرُ رِدَائِهِمْ وَيَقُولُ : « لَا نَصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ خُزَاعَةَ فَمَا أَنْصُرُ مِنْهُ نَفْسِي ! » .

(١) فِي الْأَصُولِ : « الْأَمْلَا » وَصَوَابُهُ مِنْ ابْنِ هِشَامٍ ٤ : ١٠ . وَالْأَتْلَدُ : الْقَدِيمُ .

(٢) ابْنُ هِشَامٍ : « قَدْ كُنْتُمْ وَلَدًا » . (٣) الْوَتِيرُ : اسْمُ مَاءٍ بَعِيْنُهُ .

(٤) أَيَّدَا : قُوْيَا ؛ وَفِي ب : « أَبْدَا » ؛ وَالصَّوَابُ مَا فِي ابْنِ هِشَامٍ .

(٥) الْمَدَدُ : الْإِعْوَانُ . (٦) الْفَيْلَقُ : الْمَسْكِرُ .

قلتُ : فصَادَفَ ذلك من رسول الله صلى الله عليه وآله إشارة وحُبًّا لنقض العهد ، لأنه كان يريد أن يفتح مكَّة وهمَّ بها في عام الحديبية فصدَّ ، ثمَّ همَّ بها في عُمره القضية ، ثمَّ وقف لأجل العهد والميثاق الذي كان عقَّده معهم ، فلمَّا جرى ما جرى على خُزاعة أغتَنَمَهَا .

قال الواقدي : فكتب إلى جميع الناس في أقطار الحجاز وغيرها يأمرهم أن يكونوا بالمدينة في رمضان من سنة ثمانٍ للهجرة ، فوافته الوفود والقبائل من كلِّ جهة ، فخرج من المدينة بالناس يوم الأربعاء لعشرٍ خَلُون من رمضان في عشرة آلاف ، فكان المهاجرون سبعمائة ، ومعهم من الخيل ثلثمائة فرسٍ ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ، معهم من الخيل خمسمائة ، وكانت مَرْيَتَةُ ألفاً ، فيها من الخيل مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة ، فيها من الخيل ثلاثون فرسا ، وكانت جُهَيْنَةُ ثمانمائة معها خمسون فرسا ، ومن سائر الناس تمامُ عشرة آلاف ، وهم بنو ضَمْرَةَ وبنو غِفَارٍ وأشَجَع وبنو سُليم وبنو كَعْب بن عمرو وغيرهم . وعَقَدَ للمهاجرين ، ثلاثة ألوية : لواء مع عليّ ، ولواء مع الزبير ، ولواء مع سعد ابن أبي وقاص ، وكانت الراياتُ في الأنصار وغيرهم ، وكتم عن الناس الخبر ، فلم يعلم به إلا خواصه ، وأما قريش بمكَّة فنَدِمَتْ على ما صنعتُ بخُزاعة ، وعرفت أن ذلك انقضاء ما بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلَّم من العهد ، ومشى الحارثُ بن هشام وعبدُ الله بنُ أبي ربيعة إلى أبي سُفْيَان فقالا له : إنَّ هذا أمرٌ لا بدَّ له أن يُصلَح ، والله إن لم يُصلَح لا يَرُوعكم إلا محمدٌ في أصحابه . وقال أبو سُفْيَان : قد رأتُ هندُ بنتُ عُتْبَةَ رؤيا كرهتها وأفظمتها ، وخفتُ من شرِّها ، قالوا : ما رأتِ ؟ قال : رأتُ كأن دماً أُقبِل من الحجُّون يسيل حتى وقف بالهندمة مَلِيًّا ، ثمَّ كأنَّ ذلك الدم لم يكن ؛ فكَّره القومُ ذلك وقالوا : هذا شرٌّ .

قال الواقدي : فلمَّا رأى أبو سُفْيَان ما رأى من الشرِّ قال : هذا والله أمرٌ لم أشهده

ولم أغب عنه ، لا يحمل هذا إلا على ، ولا والله ماشوورت ولا هوئت<sup>(١)</sup> حيث بلغني ، والله ليغزونا محمد إن صدق ظني وهو صادق ، ومالي بُدّ أن آتي محمداً فأكلّمه أن يزيد في الهدنة ، ويجدد العهد قبل أن يبلغه هذا الأمر . قالت قريش : قد والله أصبت ؛ وندمت قريش على ما صنعت بخزاعة وعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وآله لا بدّ أن يغزوها ؛ فخرج أبو سفيان وخزّج معه مولّى له على راحلتين ، وأسرع السير وهو يرى أنه أوّل من خرج من مكة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : وقد روي الخبر على وجه آخر ، وهو أنه لما قديم ركب خزاعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بمن قتل منهم ، قال لهم : بمن تهتمكم وطلبتمكم ؟ قالوا : بنو بكر بن عبد مناة ، قال : كلّها ؟ قالوا : لا ، ولكن تهمتنا بنو نفاثة قصرة<sup>(٢)</sup> ، ورأسهم نوفل بن معاوية الضفائي ؛ فقال : هذا بطن من بكر ، فأنا باعث إلى أهل مكة فسألتهم عن هذا الأمر ، وخيرهم في خصال . فبعث إليهم ضمرة يخبرهم بين إحدى خلال ثلاث : بين أن يدّوا خزاعة ، أو يبرءوا من حلف نفاثة ، أو ينيذ إليهم على سواء . فأناهم ضمرة فخيرهم بين الخلال الثلاث ، فقال قريظة بن عبد عمرو الأعمى : أمّا أن ندّي قتل خزاعة ، فإنّا إن ودّينا لم يبق لنا سيد ولا لبد<sup>(٣)</sup> ، وأمّا أن نبرأ من حلف نفاثة ، فإنه ليس قبيلة تحجّ هذا البيت أشدّ تعظيماً له من نفاثة ، وهم حلفاؤنا فلا نبرأ من حلفهم ، ولكنّا ننّيد إليه على سواء . فعاد ضمرة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، وندمت قريش أن ردّت ضمرة بما ردّته به .

قال الواقدي : وقد روي غير ذلك ؛ روي أن قريشاً لما ندمت على قتل خزاعة وقالت : محمد غازينا ، قال لهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح — وهو يومئذ كافر مرثد

(١) ب . « هويت » ، وأثبت ما في ا ، د . (٢) قصرة : أي هم دون غيرهم .

(٣) يقال : ما له سيد ولا لبد ؛ أي لا قليل ولا كثير .

عندهم :- إنَّ عندي رأياً ؛ إنَّ محمداً ليس يَغْزُوكُمْ حَتَّى يُمْدِرَ إِلَيْكُمْ وَيُخَيِّرَكُمْ فِي خِصَالِ كُلِّهَا  
أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ مِنْ غَزْوِهِ ، قالوا : ما هي ؟ قال : يرسل إليكم أن تَدُوا قَتْلَى خُرَاعَةَ ، أو تَبْرَأُوا  
مِنْ حِلْفٍ مِنْ تَقَطُّعِ الْعَهْدِ وَهُمْ بَنُو نِفَاةٍ ، أو يَنْبِذَ إِلَيْكُمْ الْعَهْدَ . فقال القومُ : أَخْرِ بِمَا قَالَ  
ابْنُ أَبِي سَرْحٍ أَنْ يَكُونَ ! فقال سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو : ما خَصْلَةٌ أَيْسَرُ عَلَيْنَا مِنْ أَنْ نَبْرَأَ مِنْ حِلْفِ  
نِفَاةٍ ، فقال شَيْبَةُ بْنُ عَثَانَ الْعَبْدَرِيُّ : حُطَّتْ أَخْوَالُكَ <sup>(١)</sup> خُرَاعَةَ ، وغضبت لهم ! قال  
سُهَيْلُ : وأى قريش لم تَلِدْ خُرَاعَةَ ! قال شَيْبَةُ : لا ، ولكن نَدَى قَتْلَى خُرَاعَةَ فَهَرَّ أَهْوَنُ  
عَلَيْنَا . فقال قُرَيْظَةُ بْنُ عَبْدِ عَمْرٍو : لا والله لا نَدِيهِمْ وَلَا نَبْرَأَ عَنْ نِفَاةِ أَبْرِ الْعَرَبِ بِنَا ،  
وَأَعْمَرُهُمْ لَبَيْتَ رَبَّنَا ، ولكن نَذْبِذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سِوَاءٍ . فقال أَبُو سُفْيَانٍ : ما هذا بِشَيْءٍ ، وما  
الرَأْيُ إِلَّا جَعَدَ هَذَا الْأَمْرُ أَنْ تَسْكُونَ قَرِيشَ دَخَاتٍ فِي نَقْضِ الْعَهْدِ ، أو قَطْعِ مَدَّةٍ ، فإن  
قَطَعَهُ قَوْمٌ بغيرِ هَوًى مِنَّا وَلَا مَشُورَةٍ فَمَا عَلَيْنَا ! قالوا : هَذَا هُوَ الرَأْيُ ، لا رَأْيَ إِلَّا الْجَحْدُ  
لِكُلِّ مَا كَانَ مِنْ ذَلِكَ ؛ فقال : أنا أَقْسَمُ أَنَّي لَمْ أَشْهَدْ وَلَمْ أَؤَامِرْ ، وأنا صادق ؛ لقد كَرِهْتُ  
مَا صَنَعْتُمْ ، وعرفتُ أن سَيَكُونُ لَهُ يَوْمٌ غَمَاسٌ <sup>(٢)</sup> ، قالت قَرِيشُ لِأَبِي سُفْيَانٍ : فَأَخْرِجْ أَنْتَ  
بِذَلِكَ ؛ فَخَرَجَ .

قال الواقديّ : وحدثني عبد الله بن عامر الأسلميّ ، عن عطَاءِ بْنِ أَبِي مَرْوَانَ ، قال :  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة صبيحة الليلة التي أُوْقِعَتْ فِيهَا نِفَاةُ وَقُرَيْشٍ بِخُرَاعَةِ  
بِالْوَتِيرِ : يا عائشة لقد حَدَثَ اللَّيْلَةُ فِي خُرَاعَةِ أَمْرٍ ، فقالت عائشة : يا رسول الله ، أترى قريشا  
تَجْتَرِئُ عَلَى نَقْضِ الْعَهْدِ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ ! أَيْنَقُضُونَ وَقَدْ أَفْنَاهُمُ السَّيْفُ ! فقال : العهدُ لِأَمْرِ يَرِيدُهُ  
اللهُ بِهِمْ ، فقالت : خَيْرٌ أَمْ شَرٌّ يَا رَسُولَ اللهِ ؟ فقال : خَيْرٌ .

قال الواقديّ : وحدثني عبد الحميد بن جعفر ، قال : حدثني عمران بن أبي أنس ، عن  
ابن عباس ، قال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَجْرُ طَرَفَ رِدَائِهِ وَيَقُولُ :

(١) ب : « إخوانك » ، وما أثبتته من أ ، د . (٢) يوم غموس ، أى شديد .

« لَا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ - يَعْنِي خُرَاعَةَ - فَيَا أَنْصُرْ مِنْهُ نَفْسِي ! » .

قال الواقدي : وحدثني حرام بن هشام ، عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ! : لَكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَكُمْ يَقُولُ : جَدُّ الْعَهْدِ وَزِدُّ فِي الْهَدَنَةِ وَهُوَ رَاجِعٌ بِسَخَطِهِ . وقال لبني خُرَاعَةَ عمرو بن سالم وأصحابه : ازْجِعُوا وَتَفَرَّقُوا فِي الْأَوْدِيَةِ ، وَقَامَ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ وَهُوَ مُغَضَّبٌ ، فَدَعَا بِمَاءٍ ، فَدَخَلَ يَغْتَسِلُ ؛ فَالْتِ عَائِشَةُ : فَأَسْمَحُهُ يَقُولُ وَهُوَ يَصُبُّ الْمَاءَ عَلَى رِجْلَيْهِ : « لَا نُصِرْتُ إِنْ لَمْ أَنْصُرْ بَنِي كَعْبٍ ! »

قال الواقدي : فَأَمَّا أَبُو سُفْيَانَ فَنَجَرَ مِنْ مَكَّةَ وَهُوَ مَتَخَوِّفٌ أَنْ يَكُونَ عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ وَرَهْطُهُ مِنْ خُرَاعَةَ سَبَقُوهُ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ الْقَوْمُ لَمَّا رَجَعُوا مِنَ الْمَدِينَةِ وَأَتَوْا الْأَبْوَاءَ تَمَرَّقُوا كَمَا أَوْصَاهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَذَهَبَتْ طَائِفَةٌ إِلَى السَّاحِلِ تَعَارِضُ الطَّرِيقِ ، وَلَزِمَ بُدَيْلُ بْنُ أُمٍّ أَصْرَمَ الطَّرِيقِ فِي نَفَرٍ مَعَهُ ، فَلَقِيَهُمْ أَبُو سُفْيَانَ ، فَلَمَّا رَأَاهُمْ أَشْفَقَ أَنْ يَكُونُوا لِقَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ كَانَ الْيَقِينُ عِنْدَهُ ، فَقَامَ لِلْقَوْمِ : مَنْذُكُمْ عَهْدُكُمْ يَثْرِبُ ؟ قَالُوا : لَا عَهْدَ لَنَا بِهَا ، فَعَرَفَ أَنَّهُمْ كَتَمُوهُ ، فَقَالَ : أَمَا مَعَكُمْ مِنْ تَمَرٍّ يَثْرِبُ شَيْءٌ تَطْعِمُونَاهُ ، فَإِنْ لَمْ يَثْرِبْ فَضَلًّا عَلَى تَمَرٍ يَهَامَةُ ؟ قَالُوا : لَا ، ثُمَّ أَتَتْ نَفْسُهُ أَنْ تَقَرَّ ، فَقَالَ : يَا بُدَيْلُ ، هَلْ جِئْتَ مُحَمَّدًا ؟ قَالَ : لَا وَلَكِنِّي سَرْتُ فِي بِلَادِ خُرَاعَةَ مِنْ هَذَا السَّاحِلِ فِي قَتِيلٍ كَانَ بَيْنَهُمْ حَتَّى أَصْلَحْتُ بَيْنَهُمْ . قَالَ : يَقُولُ أَبُو سُفْيَانَ : إِنَّكَ - وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ - بَرٌّ وَاصِلٌ . فَلَمَّا رَاحَ بُدَيْلٌ وَأَصْحَابُهُ جَاءَ أَبُو سُفْيَانَ إِلَى أَبْعَارِ إِبِلِهِمْ فَفَتَّهَا فَأَذْأَفَهَا النَّوَى ، وَوَجَدَ فِي مَنْزِلِهِمْ نَوَى مِنْ تَمَرٍ مَحْجُوزَةٍ كَأَنَّهُ أَلْسِنَةُ الْمَصَافِيرِ ، فَقَالَ : أَحْلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ جَاءَ الْقَوْمُ مُحَمَّدًا . وَأَقْبَلَ حَتَّى قَدِمَ الْمَدِينَةَ ، فَدَخَلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنَّكَ كُنْتَ غَائِبًا فِي صَلْحِ الْحَدِيثِيَّةِ ، فَأَشَدُّ الْعَهْدِ وَزِدْنَا فِي الْمَدَّةِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : وَلِذَلِكَ قَدِمْتَ يَا أَبَا سُفْيَانَ ! قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : فَهَلْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَدَّثَ ؟

فقال : معاذ الله ! فقال رسول الله : فنحن على موثقتنا وصلحنا يوم الحديبية لا نغير ولا نبدل . فقام من عنده فدخل على أخته أم حبيبة ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم طوته دونه ، فقال : أرغبت بهذا الفراش عني ، أم رغبت بي عنه ؟ فقالت : بل هو فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنت أمرؤ نجس مشرك . قال : يا بنيّة ، لقد أصابك بعدى شرّ ، فقالت : إنّ الله هداني للإسلام ، وأنت يا أبت سيّد قريش وكبيرها ، كيف يخفى عنك فضل الإسلام ، وتبذرت حَجْرًا لا يسمع ولا يبصر ! فقال : يا عجبا ! وهذا منك أيضا ! أترك ما كان يعبد آباؤي وأتبع دين محمد ! ثم قام من عندها فلقى أبا بكر ، فكلّمه ، وقال : تكلّم أنت محمداً ، وتجير أنت بين الناس . فقال : أبو بكر : جوارى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم لقى عمر فكلّمه بمثل ما كلّم به أبا بكر ، فقال عمر : والله لو وجدت السُّنُورَ تقاتلكم لأعتتها عليكم . قال أبو سُفيان : جُرّيت من ذى رَحِمٍ شرّاً ! ثم دخل على عثمان بن عفّان فقال له : إنه ليس في القوم أحدٌ أمسّ بي رَحِمًا منك ، فزِدني الهدنة وجِدّد العهد ، فإنّ صاحبك لا يردّ عليك أبداً ؛ والله ما رأيت رجلاً قطّ أشدّ إكراماً لصاحب من محمد لأصحابه ، فقال عثمان : جوارى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء أبو سُفيان حتّى دخل على فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكلّمها ، وقال : أجيرى بين الناس ، فقالت : إنّما أنا امرأة ، قال : إنّ جوارك جائز ، وقد أجارت أختك أبا العاص بن الربيع ، فأجاز محمد ذلك . فقالت فاطمة : ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأبت عليه ، فقال : مَرى أحد هذين ابليك يُجيرُ بين الناس ، قالت : إنّهما صبيان ، وليس يجيرُ الصبي . فلما أبت عليه أتى عليّاً عليه السلام فقال : يا أبا حَسَن ، أجز بين الناس وكلّم محمداً ليزيد في المدة ، فقال علىّ عليه السلام : ويحك يا أبا سُفيان ! إنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عَزَمَ

أَلَا يَفْعَل ، وليس أحدٌ يستطيع أن يكلمه في شيء يكرهه ، قال أبو سُفْيَان : فما الرأي عندك فتشير لأمرى ، فإنه قد ضاقَ على ؟ فرنى بأمرٍ تَرَى أَنَّهُ نَافِعٌ ، قال على عليه السلام : والله ما أجد لك شيئاً مثل أن تقومَ فتُجِيرَ بين الناس ، فإنك سيِّدُ كِنَانَةٍ . قال : أترى ذلك مُغْنِيَا عَنِّي شيئاً ؟ قال على : إني لا أظنّ ذلك والله ، ولكنني لا أجدُ لك غيرَه . فقام أبو سُفْيَان بينَ ظَهْرَيِ الناس فصاح : ألا إني قد أجرتُ بينَ الناس ، ولا أظنّ محمداً<sup>(١)</sup> يحقرني . ثم دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمد ما أظنّ أن تردّ جوارى ! فقال عليه السلام : أنت تقول ذلك يا أبا سُفْيَان ! ويقال : إنه لما صاح لم يأت النبي صلى الله عليه وسلم وركب راحلته وأطلقني إلى مكة . ويروى أنه أيضاً أتى سعد بن عُبَادَةَ فكلّمه في ذلك : وقال : يا أبا ثابت ، قد عرفتَ الذي كان بيني وبينك ، وإنني كنتُ لك في حَرَمِنَا جَاراً ، وكنتُ لي بيثربَ مثلَ ذلك ، وأنتَ سيِّدُ هذه المدّة ، فأَجِرْ بينَ الناس ، وزِدْني في المدّة . فقال سعد : جوارى جوارٍ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما يجيرُ أحدٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فلما انطلق أبو سُفْيَان إلى مكة ، وقد كان طالَت غيبته عن قريش وأبطأ ، فاتّهموه وقالوا : نراه قد صَبَا واتّبع محمداً سراً ، وكنتم إسلامه ؛ فلما دخل على هندٍ ليلاً قالت : قد احتُبستَ حتّى اتّهمك قومك ، فإن كنتَ جئتَهم بنُجْحٍ فأنت الرجل . وقد كان دنا منها ليغشاهَا ، فأخبرَهَا الخبر وقال : لم أجد إلا ما قال لي على ، ففُصِرَتْ بِرِجْلِهَا في صدوره وقالت : قُبِحَتْ من رسولٍ قوم !

قال الواقدي : فحدثني عبدُ الله بنُ عُثْمَانَ ، عن أبي سُلَيْمَانَ ، عن أبيه ، قال : لما أصبح أبو سُفْيَان حَلَقَ رأسَه عند الصنمين : أساف ونائلة ، وذبحَ لهما ، وجعل يمسح بالدمِ رءوسهما ، ويقول : لا أفارق عبادتكما حتّى أموت على ما ماتَ عليه أبي . قال : فعَل ذلك ليبرئ نفسه مما اتّهمته قريش به .

(١) د : « يجبرني » .



قال الواقدي : وقالت قريش لأبي سُفيان : ما صنعت ؟ وما وراءك ؟ وهل جئتنا بكتاب من محمد وزيادة في المدة ؟ فإننا لا نأمن من أن يغزونا ، فقال : والله لقد أتى عليّ ، ولقد كلمت عليه أصحابه فما قدرتُ على شيء منهم ، ورموني بكلمةٍ منهم واحدة ، إلا أن عليّاً قال لما ضاقت بي الأمور : أنت سيد كنانة ، فأجرت بين الناس ، فنادتُ بالجوار ، ثم دخلتُ على محمد فقلت : إني قد أجرتُ بين الناس ، وما أظنّ محمداً يردّ جوارى ، فقال محمد : أنت تقول ذاك يا أبا سُفيان ! لم يزد على ذلك ، قالوا : ما زاد عليّ على أن يلعب بك تلعباً ؟ قال : فوالله ما وجدتُ غير ذلك .

قال الواقدي : فحدثني محمد بن عبد الله ، عن الزهريّ ، عن محمد بن جُبَيْر بن مُطْعِم ، قال : لما خرج أبو سُفيان عن المدينة قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لعائشة : جهّزينا وأخفي أمرَك . وقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : اللهم خذْ عن قريش الأخبارَ والعيونَ حتى تأتيهم بفتنةٍ ؛ وروى أنه قال : اللهم خذْ عليّ أبصارهم فلا يروني إلا بفتنةٍ ، ولا يسمعون بي إلا فجأة . قال : وأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الأنقابَ وجعل عليها الرجالَ ، ومنعَ مَنْ يخرج من المدينة ، فدخل أبو بكر على عائشة وهي تجهّز رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فعملَ له قمحاً سوريّاً ودقيقاً ، وتمراً ، فقال لها : أهنّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بغزوٍ ؟ قالت : لا أدري ؛ قال : إني كنّ همّ بسفرٍ فآذنيننا نهياً ؛ قالت : لا أدري لعلّه أراد بني سُليم ، لعلّه أراد ثقيفاً أو هوازناً ! فاستعجمتُ<sup>(١)</sup> عليه ، فدخل عليّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله فقال : يا رسولَ الله ، أردتَ سفراً ؟ قال : نعم ، قال : أفأجهّز ؟ قال : نعم ، قال : وأين تريد ؟ قال : قريشاً ، وأخفِ ذلك يا أبا بكر ، وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله الناسَ فتجهّزوا ، وطوى عنهم الوجهَ الذي يريد ، وقال له أبو بكر : يا رسولَ الله ، أو ليسَ بيننا وبينهم مدةٌ ؟ فقال : إنهم غدّروا وبَقَضُوا العهدَ ،

(١) يقال : استعجم عليه ؛ إذا سكت ولم يحرك جواباً .

فأنا غازیهم ، فاطور ما ذكرتُ لك ، فكان الناسُ بین ظانٍّ یظُنُّ أنه یرید سُلَیماً ، وظانٍّ یظُنُّ أنه یرید هَوازِنَ ، وظانٍّ یظُنُّ أنه یرید ثَقِیفَا ، وظانٍّ یظُنُّ أنه یرید الشَّامَ ، وبعثَ رسولُ الله صلی الله علیه وآله أبا قتادةَ بنِ ربیعٍ فی نمرٍ إلی بطنٍ لیظنُّ الناسُ أن رسولَ الله صلی الله علیه وآله قدَّم أُمَامَه أُولَئِكَ الرِّجَالَ لتَوجَّهه إلی تلكَ الجُهمَةِ ، ولتَذهَبَ بِذلكَ الْأَخْبَارُ .

قال الواقديّ : حدَّثني المنذرُ بنُ سعد ، عن یزیدِ بنِ رومان ، قال : لَمَّا أَجَمَعَ رسولُ الله صلی الله علیه وآله المسیرَ إلی قریش ، وَعَلِمَ بِذلكَ مَنْ عَلِمَ مِنَ الناسِ ، کَتَبَ حاطبُ ابنُ أبی بلتَعَةَ إلی قریشٍ یُخَبِّرُهُم بِالَّذی أَجَمَعَ عَلَیهِ رسولُ الله صلی الله علیه وآله فی أَمْرِهِمْ ، وَأَعْطَى الْکِتَابَ امْرَأَةً مِنْ مُزَیْنَةَ ، وَجَعَلَ لَهَا عَلَی ذَکَ جُمْلًا عَلَی أَنْ تُبَلِّغَهُ قَرِیشًا ، فَجَعَلَتْ الْکِتَابَ فی رَأسِهَا ، ثُمَّ فَتَلَتْ عَلَیهِ قُرُونَهَا وَخَرَجَتْ بِهِ ، وَأَتَى الْخَبَرَ إلی النَّبِیِّ صلی الله علیه وآله مِنَ السَّمَاءِ بِمَا صَنَعَ حاطبٌ ، فَبَعَثَ عَلَیْهَا عَلَیهِ السَّلَامَ وَالزَّیْبِرَ فَقَالَ : أَدْرِکَا امْرَأَةً مِنْ مُزَیْنَةَ قَدْ کَتَبَ مَعَهَا حاطبٌ کِتَابًا یُحَذِّرُ قَرِیشًا ، فَخَرَجَا وَأَدْرَاکَاهَا بِذی الْحُلَیْفَةِ ، فَاسْتَنْزَلَاهَا وَالتَّمَسَّا الْکِتَابَ فی رَحْلِهَا فَلَمْ یَجِدَا شَیْئًا ، فَقَالَا لَهُ : نَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا کَذَبَ رسولُ الله صلی الله علیه وسلَّم وَلَا کَذَبْنَا ، وَلَتُخْرِجَنَّ الْکِتَابَ أَوْ لَنُکْشِفَنَّکَ . فَلَمَّا رَأَتْ مِنْهُمَا الْجِدَّةَ حَلَّتْ قُرُونَهَا ، وَاسْتَخْرِجَتْ الْکِتَابَ فَدَفَعَتْهُ إِلَیْهِمَا ، فَأَقْبَلَا بِهِ إلی رسولِ الله صلی الله علیه وآله ، فدعا حاطبًا وقال له : مَا حَمَلَکَ عَلَی هَذَا ؟ فَقَالَ : یا رسولَ الله ، وَاللهُ إِنِّی لَمُسْلِمٌ مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، مَا غَیَّرْتُ وَلَا بَدَّلْتُ ، وَلَکِنِّی کُنْتُ امْرَأًا لَیْسَ لَی فی الْقَوْمِ أَصْلٌ وَلَا عَشِیرَةٌ ، وَکَانَ لَی بَیْنَ أَظْهَرُهُمْ أَهْلًا وَوَلَدًا ، فَصَانَعْتُهُمْ . فَقَالَ عَمْرٌ : قَاتِلْکَ اللهُ ! تَرَى رسولَ الله صلی الله علیه وسلَّم یَأْخُذُ بِالْأَنْقَابِ وَتَکْتُبُ إلی قَرِیشٍ تَحْذَرُهُمْ ! دَغْنِی یا رسولَ الله أَضْرِبْ عُنُقَهُ ، فَإِنَّهُ قَدْ نَافَقَ ، فَقَالَ رسولُ الله صلی الله

عليه وآله : وما يدريك يا عمر لعليّ الله قد أطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! قال الواقدي : فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله من المدينة بالأنوية المعقودة والرايات بفدّ العصر من يوم الأربعاء لعشير خلون من شهر رمضان لم يحمل عقده حتى انتهى إلى الصلصل<sup>(١)</sup> ، والمسلمون يقودون الخيل ، وقد امتطوا الإبل ، وقدم أمّهم الزبير بن العوام في مائتين ؛ قال : فلما كان بالبيداء نظر إلى عنان السماء ، فقال : إني لأرى السحاب تستهل<sup>(٢)</sup> بنصر بنى كعب - يعني خراة .

قال الواقدي : وجاء كعب بن مالك ليعلم أي جهة يقصد ؟ فترك بين يديه على ركبتيه ، ثم أنشده :

قَضَيْنَا مِنْ تَهَامَةٍ كُلِّ نَحْبٍ<sup>(٣)</sup>      وَخَيْرَ نَمٍّ أَحْمَيْنَا السُّيُوفَا  
فَسَائِلُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ      قَوَاضِيَهُنَّ دَوْسَا أَوْ ثَقِيفَا  
فَلَسْتُ بِحَاضِرٍ إِنْ لَمْ تَرَوْهَا      بِسَاحَةِ دَارِكُمْ مِنْهَا أُلُوفَا  
فَنَنْتَرِعُ الْخِلَامَ يَبْطُنَ وَجْهٌ      وَنَتْرُكُ دُورَكُمْ مِنْهَا خُلُوفَا

قال : فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يزد على ذلك ، فجعل الناس يقولون : والله ما بين لك رسول الله صلى الله عليه وآله شيئاً ، فلم تزل الناس كذلك حتى نزلوا بحرّ الظّهْران .

قال الواقدي : وخرج العباس بن عبد المطلب ومخرمة بن نوفل من مكة يطلبان رسول الله صلى الله عليه وآله ظناً منهما أنه بالمدينة يريدان الإسلام ، فلقياهما بالسُّقيا .

(١) صلصل : بناوحى المدينة على سبعة أميال منها ؛ نزل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من المدينة إلى مكة عام الفتح . يا قوت .  
(٢) استهل السحاب ؛ إذا كثرت انصبابه .  
(٣) النحب : النذر .

قال الواقدي : فلما كانت الليلة التي أصبح فيها بالبحفة رأى فيها أبو بكر في منامه أن النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه قد دنوا من مكة فخرجت عليهم كذبة تهر<sup>(١)</sup> فلما دنوا منها استلقت على قفاها ، وإذا أطباؤها<sup>(٢)</sup> تشخب لبنا . فقصصها على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : ذهب كلبهم ، وأقبل درهم ، وهم سائلونا بأرحامهم ، وأنتم لا قون بعضهم ، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه .

قال الواقدي : وإلى أن وصل مرّ الظهران لم يبلغ قريشاً حرف واحد من حاله ، فلما نزل بمرّ الظهران أمر أصحابه أن يؤقدوا النار ، فأوقدوا عشرة آلاف نار ، وأجمعت قريش أن يبعثوا أبا سفيان يتجسس لهم الأخبار ، فخرج هو وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء ، قال : وقد كان العباس بن عبد المطلب قال : واسوء صباح قريش والله إن دخلها رسول الله صلى الله عليه وآله عنوة إنه لهلك قريش آخر الدهر ؛ قال العباس : فأخذت بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله الشهباء فركبتها ، وقلت : ألتبس حطاباً أو إنساناً أبعثه إلى قريش فيلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخلها عليهم عنوة ؛ فوالله إني لفي الأراك لئلا أبتغي ذلك إذ سمعت كلاماً يقول : والله إن رأيت كالليلة نارا ، قال : يقول بديل بن ورقاء : إنسها نيران خزاعة جاشها<sup>(٣)</sup> الحرب . قال : يقول أبو سفيان : خزاعة أذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها ؛ فعرفت صوته ، فقلت : أبا حنظلة ! فعرف صوتي ، فقال : لبيك أبا الفضل ! فقلت : ويحك ! هذا رسول الله في عشرة آلاف ، وهو مصبّحكم ؛ فقال : بأبي وأمي ، فهل من حيلة ! فقلت : نعم ، تركب تجز هذه البغلة ، فأذهب بك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه إن ظفر بك دون ذلك ليقتلنك ؛ قال : والله أنا أرى ذلك ، فركب خنفي ، ورحل

(١) تهر : تنبح .

(٢) الأطباء : حملات الضرع من ذات الحنف والظلف والمافر .

(٣) جاشها الحرب : أفرعها .

بُدِيلَ وحكيم فتوجّهت به فلما مررتُ به على نار من نيران المسلمين قالوا : من هذا ؟ فإذا راؤني قالوا : عمُّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم على بَغْلَةٍ رسولِ الله ، حتّى مررتُ بنارِ عمر بن الخطّاب ، فلما رآني قال : من هذا ؟ قلت : العباس ، فذهب ينظرُ فرأى أبا سُفْيَانَ خَلْفِي ، فقال : أبو سُفْيَانَ عدوّ الله ! الحمدُ لله الَّذِي أَمَكَّنَ مِنْكَ بِغَيْرِ عَهْدٍ وَلَا عَقْدٍ ! ثمَّ خرج يشتدُّ نحو رسولِ الله صلى الله عليه وآله ، ورَكَضَتِ الْبَغْلَةُ حتّى أَجْتَمَعْنَا جَمِيعًا عَلَى بَابِ قُبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فدخلتُ ودخلَ عمرُ بنُ الخطّابِ على أُمِّيرِي ، فقال عمر : يا رسول الله ، هذا أبو سُفْيَانَ عدوّ الله قد أَمَكَّنَ اللَّهُ مِنْهُ بِغَيْرِ عَقْدٍ وَلَا عَهْدٍ ، فدعني أضرب عنقه ، فقلت : يا رسول الله ، إني قد أَجَرْتَهُ ، ثمَّ لَزِمْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقلتُ : والله لا يُنَاجِيهِ اللَّيْلَةُ أَحَدٌ دُونِي ، فلما أَكْثَرَ عَمْرُ فِيهِ قُلْتُ : مهلاً يا عمر ! فإنّه لو كان رجلاً من عدوّي بن كعب ما قلت هذا ، ولكنّه أحدُ بني عبد مناف . فقال عمر : مهلاً يا أبا الفضل ، فوالله لإسلامك كان أحبُّ إليّ من إسلام الخطّاب . أو قال : من إسلام رجلٍ من وَلَدِ الخطّابِ - لو أسلم ؛ فقال رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلَهُ أَذْهَبَ بِهِ فَقَدْ أَجَرْنَاهُ ؛ فَلَيِّتْ عِنْدَكَ حتّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَيْنَا إِذَا أَصْبَحْتَ . فلما أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ بِهِ ، فلما رآه رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآلَهُ قَالَ : وَيْحَكَ يَا أبا سُفْيَانَ ! أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ! قَالَ : بَأْبِي أَنْتَ مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَعْظَمَ عَفْوَكَ ! قَدْ كَانَ يَقَعُ فِي نَفْسِي أَنْ لَوْ كَانَ مَسَعَ اللَّهُ إِلَهَ آخِرٍ لَأَغْنَى ؛ قَالَ : يَا أبا سُفْيَانَ أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ! قَالَ : بَأْبِي أَنْتَ مَا أَحْلَمَكَ وَأَكْرَمَكَ وَأَعْظَمَ عَفْوَكَ ! أَمَّا هَذِهِ فَوَاللَّهِ إِنَّ فِي النَّفْسِ مِنْهَا لَشَيْئًا بَعْدُ ، قَالَ الْعَبَّاسُ : فقلتُ وَيْحَكَ ! تَشْهَدُ وَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ تُقْتَلَ . فَتَشْهَدُ . وقال العباس : يا رسول الله ، إِنَّكَ قَدْ عَرَفْتَ أبا سُفْيَانَ وَفِيهِ الشَّرَفُ وَالْفَخْرُ ، فَأَجْمَلْ لَهُ شَيْئًا ، فقال : مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ ، وَمَنْ أَغْلَقَ دَارَهُ فَهُوَ آمِنٌ ، ثُمَّ قَالَ : خُذْهُ فَأَحْبِسْهُ بِمَضِيقِ الْوَادِي إِلَى خَطْمِ الْجَبَلِ

حتى تمرّ عليه جُود الله فيراها . قال العباس : فعدلتُ به في مضيق الوادي إلى خُظم  
 الجبل فحبستُه هناك ، فقال : أغدراً يا بني هاشم ! فقاتلته : إنَّ أهل النُّبوة لا يَغْدِرُونَ ،  
 وإنَّما حبستُك لحاجةٍ ؛ قال : فلمَّا بدأتُ بها أوَّلاً فأعلَمْتَنِيهَا ، فكان أفرخ لرُوعي ! ثمَّ  
 مرَّت به القبائل على قادَيتها ، والكتائبُ على راياتها ، فكان أوَّل من سمرَّ به خالدُ بن  
 الوليد في بني سُليم ، وهم ألف ، ولهم لواءان يحمِل أحدهما العباسُ بنُ مرْداس والآخِرُ  
 .. خُفاف بن نُدبة ، وراية يحمِلها المقداد ، فقال أبو سُفيان ، يا أبا الفُضَّل ، من هؤلاء ؟ قال :  
 هؤلاء بنو سُليم ، وعليهم خالدُ بنُ الوليد ، قال : الفلام ؟ قال : نعم ، فلمَّا حاذى خالدُ  
 العباسَ وأبا سُفيان كَبَّر ثلاثاً وكَبَّرُوا معه ، ثمَّ مضوا . ومرَّ على أثره الزبير بنُ العوام في  
 خمسمائة ، فيهم جماعةٌ من المهاجرين وقومٌ من أَفناء الناس ، ومعه رايةٌ سوداء ، فلمَّا حاذوها  
 كَبَّر : ثلاثاً وكَبَّر أصحابُه فقال . من هذا ؟ قال : هذا الزبير ، قال : ابن أختك ! قال : نعم ،  
 قال : ثمَّ مرَّت به بنو غِفار في ثلثمائة يحمِل رايَتهم أبو ذرٍّ - ويقال : إيماء بن رَحضة - فلمَّا  
 حاذوها كَبَّرُوا ثلاثاً ، قال : يا أبا الفُضَّل : مَنْ هؤلاء ؟ قال : بنو غِفار ؛ قال : مالى  
 ولبنى غِفار ! ثمَّ مرَّت به أسلم في أربعمائة يحمِل لواءها يزيدُ بن الخُصيب ، ولواء آخر مع  
 نَاجية بن الأعمج ، فلمَّا حاذوه كَبَّرُوا ثلاثاً ، فسأل عنهم فقال : هؤلاء أسلم ، فقال : مالى  
 ولأسلم ! ما كان بيننا وبينهم ترّة قطّ ، ثمَّ مرَّت بنو كعب بن عمرو بن خُزاعة في خمسمائة  
 يحمِل رايَتهم بشرُ بن سُفيان ، فقال : من هؤلاء ؟ قال : كعب بن عمرو ، قال : نعم خلفاءُ  
 محمَّد ، فلمَّا حاذوه كَبَّرُوا ثلاثاً . ثمَّ مرت مُزينة في ألفٍ فيها ثلاثة أُلوية مع النُّعمان  
 ابن مقرّن ، وبلال بن الحارث ، وسبداً لله بن عمرو ، فلمَّا حاذوها كَبَّرُوا ، قال : من  
 هؤلاء ؟ قال : مُزينة ، قال : يا أبا الفُضَّل ، مالى ولمُزينة ، قد جاءتنى تُقعقع من شواهدِها<sup>(١)</sup> .

ثم مرّت جُهينة في ثمانمائة ، فيها أربعة ألوية مع معبد بن خالد ، وسويد بن صخر ،  
ورافع بن مكيث ، وعبد الله بن بدر ، فلما حاذوه كبروا ثلاثا فسأل عنهم ، ف قيل :  
جُهينة . ثم مرّت بنو كنانة وبنو ليث وضمرة وسعد بن أبي بكر في مائتين ، يحمل لواءهم  
أبو واقدا الليثي ، فلما حاذوه كبروا ثلاثا ، قال : من هؤلاء ؟ قال : بنو بكر . قال : نعم أهل  
شؤم هؤلاء الذين غزانا محمد لأجلهم ! أما والله ما شورت فيهم ، ولا علمته ، ولقد كنت  
له كارها حيث بلغني ، ولكنه أمرٌ خُم<sup>(١)</sup> ، قال العباس ، لقد خار الله لك في غزو محمد  
إياكم ، ودخلتم في الإسلام كافة ، ثم مرّت أشجع<sup>(٢)</sup> - وهم آخر من مرّ به قبل أن تأتي  
كتيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم ثلاثة يحمل لواءهم معقل بن سنان ، ولواء آخر مع  
نعيم بن مسعود فكبروا - قال : من هؤلاء ؟ قال : أشجع ، فقال : هؤلاء كانوا أشدّ  
الرب على محمد ، قال العباس : نعم ؛ ولكن الله أدخل الإسلام قلوبهم ؛ وذلك من  
فضل الله . فسكت وقال : أما مرّ محمد بعد ؟ قال : لا ، ولو رأيت الكتيبة التي هو فيها  
لرأيت الحديد والخيل والرجال ، وما ليس لأحد به طاقة ، فلما طلعت كتيبة رسول الله  
صلى الله عليه وآله الخضراء طلّع سوادٌ شديد وغبرة من سنانك الخيل ، وجعل الناس  
يمرون ، كلّ ذلك يقول : أما مرّ محمد بعد ؟ فيقول العباس : لا ، حتّى مرّ رسول الله  
صلى الله عليه وآله يسير على ناقته القُصوى بين أبي بكر وأُسَيد بن حُصَير ، وهو يحدثهما ،  
وقال له العباس : هذا رسول الله صلى الله عليه وآله في كَتَبته الخضراء ، فأنظر ، قال :  
وكان في تلك الكتيبة وجوه المهاجرين والأنصار ، وفيها الألوية والرايات ، وكلّهم مُنغمسون  
في الحديد لا يُرَى منهم إلّا الحدق ، ولعمري بن الخطّاب فيها زَجَل<sup>(٢)</sup> وعليه الحديد ،  
وصوته عال ، وهو يزْعها ، فقال : يا أبا الفضل ، من هذا المتكلم ! قال : هذا

(٢) زجل ، أى صوت .

(١) خُم ، أى وقع .

عمرُ بن الخطاب؛ قال: لقد أمرُ أمرُ بنى عَدِيَّ بِمَدَقَلَّةٍ وَذِلَّةٍ! فقال: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ مَنْ يَشَاءُ بِمَا يَشَاءُ، وَإِنَّ عَمَرَ مِمَّنْ رَفَعَهُ الْإِسْلَامُ، وَكَانَ فِي الْكُتَيْبَةِ أَلْفًا دَارِعًا، وَرَايَةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، وَهُوَ أَمَامُ الْكُتَيْبَةِ، فَلَمَّا حَاذَاهَا سَعْدٌ نَادَى: يَا أَبَا سُفْيَانَ:

الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسَبَّى الْحُرْمَةُ

الْيَوْمَ أَذَلَّ اللَّهُ قَرِيشًا، فَلَمَّا حَاذَاهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَادَاهُ أَبُو سُفْيَانَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَرْتَ بِقَتْلِ قَوْمِكَ؟ إِنَّ سَعْدًا قَالَ:

الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَلْحَمَةِ الْيَوْمَ تُسَبَّى الْحُرْمَةُ

الْيَوْمَ أَذَلَّ اللَّهُ قَرِيشًا، وَإِنِّي أَنُشِدُكَ اللَّهَ فِي قَوْمِكَ فَأَنْتَ أَجْرُ النَّاسِ، وَأَرْحَمُ النَّاسِ، وَأَوْصَلَ النَّاسِ. فَقَالَ عُمَانُ بْنُ عَفَانَ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَا نَأْمَنُ سَعْدًا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِي قَرِيشٍ صَوْلَةٌ، فَوَقَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَنَادَاهُ، يَا أَبَا سُفْيَانَ، بَلِ الْيَوْمَ يَوْمُ الْمَرَجَةِ، الْيَوْمَ أَعَزَّ اللَّهُ قَرِيشًا، وَأَرْسَلَ إِلَى سَعْدٍ فَمَزَلَهُ عَنِ اللَّوَاءِ. وَأَخْتَلَفَ فَيَمْنٌ دَفَعَ إِلَيْهِ اللَّوَاءَ فَقِيلَ: دَفَعَهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَذَهَبَ بِهِ حَتَّى دَخَلَ مَكَّةَ، فَغَرَزَهُ عِنْدَ الرَّكْنِ - وَهُوَ قَوْلُ ضَرَّارِ بْنِ الْخَطَّابِ الْفِهْرِيِّ - وَقِيلَ: دَفَعَهُ إِلَى قَيْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ - وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ لَمْ يُخْرِجْهُ عَنْ سَعْدٍ حَيْثُ دَفَعَهُ إِلَى وَلَدِهِ، فَذَهَبَ بِهِ حَتَّى غَرَزَهُ بِالْحِجُونَ؛ قَالَ: وَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ لِلْعَبَّاسِ: مَا رَأَيْتُ مِثْلَ هَذِهِ الْكُتَيْبَةِ قَطُّ، وَلَا أَخْبَرَنِي بِهِ نَخْبَرٌ، سَبَّحَانَ اللَّهَ! مَا لِأَحَدٍ بِهِؤُلَاءِ طَاقَةٌ وَلَا يَدَانِ! لَقَدْ أَصْبَحَ مَلِكُ ابْنِ أَخِيكَ يَا عَبَّاسُ عَظِيمًا، قَالَ: فَقُلْتُ: وَيَحْكُ! إِنَّهُ لَيْسَ بِمَلِكٍ، وَإِنَّهَا النُّبُوءَةُ؛ قَالَ: نَعَمْ.

قَالَ الْوَاقِدِيُّ: قَالَ الْعَبَّاسُ: فَقُلْتُ لَهُ: أَنْجِ وَيَحْكُ، فَأَدْرِكَ قَوْمَكَ قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ



عليهم ؛ فخرج أبو سُفيانَ حتّى دخل من كداء وهو يُنادي : مَنْ دَخَلَ دارَ أبي سُفيان فهو آمِن ، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمِن ، حتّى أنتهى إلى هند بنتِ عُتبة ، فقالت : ما وراءك ؟ قال : هذا مُحَمَّدٌ في عَشْرةِ آلافٍ ، عليهم الحديد ، وقد جَمَلَ لي أَنَّهُ من دَخَلَ دارِي فهو آمِن ، ومن أغلق عليه بابَه فهو آمِن ، ومن أَلْقَى سلاحَه فهو آمِن ، فقالت : قَبِّحَكَ اللهُ من رسول قوم ! وجعلتُ تقول : وَيَحْكُم ! اقتلوا وافدكم قَبِّحَهُ اللهُ مِنْ وافد قوم ! فيقول أبو سُفيان : وَيَحْكُم ! لا تَغَرَّبْكُمْ هَذِهِ من أنفسكم ، فَإِنِّي رَأَيْتُ ما لَمْ تَرَوْا : الرجالَ ، والكُرَاعَ ، والسَّلاحَ ، ليس لأحد بهذا طاقة ، مُحَمَّدٌ في عَشْرةِ آلافٍ ، فَاسْلِمُوا تَسْلَمُوا . وقال المبرّد في «الكامل» ، : أَمْسَكَتْ هَندُ برأس أبي سُفيان وقالت : بئسَ طليعةُ القوم ! والله ما خدشت خدشا ، يا أهلَ مَكَّةَ ، عليكم الحِميتُ الدَّسَمُ فاقتلوه . قال : الْحِمِيَّتُ : الزَّقُّ المَزْفَتُ .

قال الواقديّ : وخرج أهلُ مَكَّةَ إلى ذِي طُوًى يَنْظُرُونَ إلى رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله ، وانضَوًى إلى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةٍ وعِكرمةَ بنِ أبي جهلٍ وسُهَيْلِ بنِ عمرو ناسٌ من أهلِ مَكَّةَ ومن بَنِي بَكْرٍ وهُدَيْلٍ ، فَلَبِسُوا السَّلاحَ ، وَأَقْسَمُوا لا يَدْخُلُ مُحَمَّدٌ مَكَّةَ عَنَوةً أبداً . وكان رجلٌ من بَنِي الدَّوْلِ يُقالُ له : حَماسُ بنِ قيسِ بنِ خالدِ الدَّوْلِيُّ لَمَّا سَمِعَ بِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله جَلَسَ يُصَلِّحُ سلاحَه ، فقالت له امرأته : لِمَ تُمَدِّ السَّلاحَ ؟ قال : لِحَمْدِ وأصحابه ، وإني لأرجو أن أُخْدِمَكَ مِنْهُمْ خادما ، فَإِنَّكَ إِلَيْهِ محتاجة ، قالت : وَيَحْكُم لا تَفْعَل ! لا تُقاتِلْ مُحَمَّدًا ، والله ليُضِلَّنَّ هَذَا عَنكَ لو رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وأصحابه ؛ قال : سَتَرَيْنَ ، وأقبل رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وآله وهو على ناقته القصواء معتَجِرًا <sup>(١)</sup> مُبِرِّدَ حَبْرَةٍ ، وعليه عمامةٌ سوداء ، ورأيتُه سوداء ، ولوأوه أسود ، حتّى وقف بذي طُوًى ، وتوسَّطَ الناسَ ، وإن عُثْنُونَهُ لَيْسَ واسطة الرَّحْلِ ، أو يَقْرُبُ مِنْهُ تواضعاُ اللهُ حيثُ رَأَى ما رَأَى من الفَتْحِ وكثرةِ المسلمين ، وقال : لا عيشَ إِلَّا عيشُ الآخرة .

(١) معتَجِرًا : لا بَسًا .

وجعلت الخليلُ تعجّ بذى طوى في كل وجه ، ثم ثابت وسكنت ، والتفت رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أسيد بن حضير ، فقال : كيف قال حسان بن ثابت ؟ قال : فأشده :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا      تُبِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَا كَدَاهُ <sup>(١)</sup>  
تَظَلَّ جِيَادُنَا مَتَمَطَّاتٍ      تُلَطِّمُهُنَّ بِالْخُرِّ النَّسَاءُ <sup>(٢)</sup>

فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وحمد الله ، وأمر الزبير بن العوام أن يدخل من كداه ، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من الليط ، وأمر قيس بن سعد أن يدخل من كدّى ، ودخل هو صلى الله عليه وآله من أذاخر .

قال الواقدي : وحدثني مروان بن محمد ، عن عيسى بن عميلة الفزاري ، قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة بين الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن .

قال الواقدي : وروى عيسى بن متمر ، عن عباد بن عبد الله ، عن أسماء بنت أبي بكر ، قالت : صعد أبو قحافة بصغرى بناته وأسمها قريبة ، وهو يومئذ أعمى ، وهى تقوده حتى ظهرت به إلى أبي قبيس ، فلما أشرفت به قال : يا بُنَيَّة ، ماذا ترى ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً مقبلاً كثيراً ! قال : يا بُنَيَّة ، تلك الخيل ، فانظري ماذا ترى ؟ قالت : أرى رجلاً يسمى بين ذلك السواد مُقبلاً ومدبراً ، قال : ذاك الوازع ، فانظري ماذا ترى ؟ قالت : قد تفرّق السواد ، قال : قد تفرّق الجيش ، البيت البيت ؟ قالت : فزلت الجارية به وهى تُرعب لما ترى ، فقال : يا بُنَيَّة ، لا تخافى ، فوالله إن أخاك عتيقاً لآثر أصحاب محمد عند محمد ؛ قالت : وعليها طوق من فضة ، فاختلّسه بعض من دخل ،

(١) ديوانه • والنقع : النبار .

(٢) متهمطرات : مسرعات . والخمر : جمع خمار .

فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وآله مكة جمل أبو بكر يُنادي : أنشدكم الله أيها الناس طَوْقَ أُخْتِي ؛ فلم يردَّ أحد عليه ، فقال : يا أُخْتِي احتسبي طَوْقَكَ ، فإنَّ الأمانة في الناس قليل .

قال الواقديّ : ونهَى رسول الله صلى الله عليه وآله عن الحرب ، وأمرَ بقتل ستة رجال وأربع نسوة : عكرمة بن أبي جهل ، وهبار بن الأسود ، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح ، ومقيس بن صُبابة الليثي ، والحويث بن نقييل ، وعبد الله بن هلال بن خطل الأدرمي ، وهند بنت عُثْبَةَ ، وسارة مولاة لبني هاشم ، وقيلَتَيْن لابن خطل : قريبا وقريبة ، ويقال : قريناً وأرنب .

قال الواقديّ . ودخلت الجنودُ كلُّها ، فلم تلقَ حرباً إلا خالداً بن الوليد فإنه وجَدَ جمعاً من قريش وأحايشها قد جمعوا له ، فيهم صفوان بن أمية ، وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، فزعموه الدّخول ، وشهروا السلاح ، ورمَوْه بالنبل ، وقالوا : لا تدخلها عنوةً أيداً ؛ فصاح خالد في أصحابه ، وقَاتَلَهُمْ ، فُقُتِلَ من قريش أربعةٌ وعشرون ، ومن هذيل أربعةٌ ، وانهزموا أقبحَ انهزامٍ حتَّى قُتِلُوا بالحزورة ، وهم مؤلّون من كلِّ وجه ، وأطلقت طائفةٌ منهم فوق رؤوس الجبال ، وأتبَّعهم المسلمون ، وجعل أبو سُفيان بن حرب وحكيم بن حزام يناديان : يا معشرَ قريش ، عَلامَ تقتلون أنفسكم ؟ من دخل داره فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن وضع السلاح فهو آمن ، فجعل الناسُ يقتحمون الدّورَ ويُنلقون عليهم الأبواب ، ويطرحون السلاح في الطّرق حتّى يأخذه المسلمون .

قال الواقديّ : وأشرف رسول الله صلى الله عليه وآله من على منبئية أذاخر ، فنظر إلى البارقة ، فقال : ما هذه البارقة ؟ ألم أنه عن القتال ؟ قيل : يا رسول الله ، خالد بن الوليد

قُوَيْل ، ولو لم يُقاتَلْ ما قَاتَلَ ؛ فقال : قضاء الله خير ، وأقبل ابن خطل مدججاً في الحديد على فرس ذنوب<sup>(١)</sup> بيده قنّاة يقول : لا والله لا يدخلها عنوة حتى يرى ضرباً كأفواه المزاد ، فلما انتهى إلى الخندمة ورأى القتال دخله رعب حتى ما يستمسك من الرعدة ، ومرّ هارباً حتى انتهى إلى الكعبة ، فدخل بين أستارها بعد أن طرح سلاحه وترك فرسه ، وأقبل حماس بن خالد الدؤليّ منهزماً حتى أتى بيته فدقّه ، ففتحت له امرأته فدخل ، وقد ذهبت رُوحه ، فقالت : أين الخادم التي وعدتني؟ مازلتُ مُنتظرتك منذُ اليوم ، تسخر به ، فقال : دعى هذا وأغلق الباب ، فإنه من أغلق بابَه فهو آمن ، قالت : ويحك ! ألم أنهبك عن قتال محمد ! وقلت لك : إنّي ما رأيته يقاتلكم مرّة إلا وظهر عليكم ، وما بابنا ؟ قال : إبه لا يفتح على أحدٍ بابَه ، ثم أنشدها<sup>(٢)</sup> :

إنك لو شهدتنا بالخنْدَمَةِ      إذ فرّ صفوان وفرّ عكرمة  
وَبُو يزيد كالعجوز المؤتمّة      وضربناهم بالسيف المسلمّة<sup>(٣)</sup>  
لهم زئيرٌ خلفنا وغمغمه      لم تنطق في اليوم أدنى كلمة<sup>(٤)</sup>

قال الواقديّ : وحدثني قدامة بن موسى ، عن بشير مولى المازنيين ، عن جابر بن عبد الله ، قال : كنتُ ممن لزم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ، فدخلت معه يوم الفتح من أواخر ، فلما أشرف نظر إلى بيوت مكة ، فحمد الله وأثنى عليه ، ونظر إلى موضع قُبّة بالأبطح تجّاه شعب بني هاشم حيث حُصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله ثلاث

(١) ذنوب . وافر الذنب بالتحرّك .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٢٧ .

(٣) المؤتمّة : التي قتل زوجها فبقى لها أولاد أيتام ، والمسلمة ، أراد المسلمين ، وبعده في ابن هشام :

يَقْطَعْنَ كُلَّ سَاعِدٍ وَجُجِمَهُ      ضَرْباً فَلَا يَسِعُ إِلَّا غَمَمُهُ

(٤) ابن هشام : « لهم نهيت » .

ستين ؛ وقال : يا جابر ، إنَّ منزلنا اليومَ حيث تقاسمتُ علينا قريش في كُفْرها ؛ قال جابر : فذكرتُ كلاما كنتُ أسمعُه في المدينة قبل ذلك ، كان يقول : منزلنا غداً إن شاء الله إذا فتَح علينا مكَّة في الخيف حيث تقاسموا على الكُفْر .

قال الواقديّ : وكانت قُبَّتُه يومئذ بالأدَم ضُرِبَتْ له بالحجون ، فأقبل حتى انتهى إليها ومعه أم سَكَمَة وميمونة .

قال الواقديّ : وحدثني معاوية بن عبد الله بن عبيد الله ، عن أبيه ، عن أبي رافع ، قال : قيل للنبيّ صَلَّى الله عليه وآله : ألا تنزل منزلك من الشعب ؟ قال : وهل ترك لنا عقيل من منزل ! وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ومنازل إخوته من الرجال والنساء بمكَّة ، فقيل لرسول الله صَلَّى الله عليه وآله : فانزل في بعض بيوت مكَّة من غير منازلك . فأبى وقال : لا أدخل البيوت ؛ فلم يزل مضطرباً بالحجون لم يدخل بيتاً ، وكان يأتي إلى المسجد من الحجون ، قال : وكذلك فعل في عُمرَة القصيّة وفي حجّته .

قال الواقديّ : وكانت أمّ هاني بنتُ أبي طالب تحت هُبيرة بن أبي وهب الخزومي فلما كان يوم الفتح دخل عليها سخّوان لها : عبدُ الله بنُ أبي ربيعة والحارث بن هشام الخزوميّان ، فاستجارا بها ، وقالوا : نحن في جوارك ؛ فقالت : نعم أنتما في جوارى . قالت أمّ هاني : فهما عندي إذ دخل عليّ فارسٌ مدجّج في الحديد ولا أعرفه ، فقلت له : أنا بنت عمّ رسول الله ، فأسفر عن وجهه ، فإذا عليّ أخى ، فاعتنقته ، ونظر إليهما فشهّر السيف عليهما ، فقلت : أخى من بين الناس تصنع بي هذا ؟ فألقيتُ عليهما ثوباً ، فقال : أتُجيرين المشركين ! فخلتُ دونهما ، وقلت : لا والله وأبتدي بي قبلهما ؛ قالت : فخرج ولم يكذُ ، فأغلقتُ عليهما بيتاً ، وقلت : لا تخافا ، وذهبتُ إلى خِباء رسول الله صَلَّى الله

عليه وآله بالبطحاء فلم أجده ، ووجدتُ فيه فاطمة ، فقلتُ لها : ما لقيتُ من ابن أُمى على !  
 أجرتَ سَحَوَيْنِ لى من المشركين ، فَتَفَلَّتَ عليهما ليقتلها ، قالت : وكانت أشدَّ على من  
 زوجها ، وقالت : لِمَ تُبْجِرِينَ المشركين ! وَطَلَعَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وعليه القُبَّارُ ،  
 فقال : مرحباً بِفَاحِشَةٍ - وهو اسمُ أم هانئ - فقلتُ : ماذا لقيتُ من ابن أُمى على ما كدتُ  
 أفلتُ منه ! أجرتَ سَحَوَيْنِ لى من المشركين ، فَتَفَلَّتَ عليهما ليقتلها ، فقال : ما كان ذلك  
 له ، قد أَجَرْنَا من أَجْرٍ وَأَمْنًا من أَمْنٍ ، ثم أمر فاطمة فَسَكَبَتْ له غُسْلاً فاغتسل ، ثم  
 صلى ثمانى رَكَعاتٍ في ثوب واحد ملتحفاً به وقت الضُّحَى ؛ قالت : فرجعتُ إليهما وأخبرتهما ،  
 وقلت : إن شئكما فأقيا ، وإن شئكما فارجعا إلى منازلكما ، فأقاما عندى فى منزل يومين ؛ ثم  
 انصرفا إلى منازلهما .

وَأَتَى آتٍ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فقال : إِنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ وَعَبْدَ اللَّهِ  
 ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ جَالِسَانِ فِي نَادِيهِمَا مُتَفَضِّلَانِ فِي الْمَلَأِ الْمَرْغُوفِ ، فقال : لا سبيل  
 إليهما ، قد أَجَرْنَاهما .

قال الواقديّ : ومكث رسول الله صلى الله عليه وآله فى قَبَّةِ سَاعَةٍ من النهار ، ثم  
 دعا بِرَاحِلَتِهِ بعد أن اغتسل وصلى ، فَأَدْرَيْتُ إِلَى بَابِ الْقَبَّةِ ، وخرج وعليه السلاح والمِغْفَرُ  
 على رأسه ، وقد صُفِّ له الناس ، فركبها والخيلُ تَمَجُّجٌ <sup>(١)</sup> ما بين الخندمة إلى الخيول ، ثم  
 مرَّ وأبو بكر إلى جانبه على راحلةٍ أخرى يسير ويُحَادِثُهُ ، وإذا بناتُ أبي  
 أُحَيَّةَ سَمِيدَ بْنَ الْمَاصِ بِالْبَطْحَاءِ حِذَاءَ مَنْزِلِ أَبِي أُحَيَّةَ ، وقد نَشَرْنَ شعورهنَّ ، فلطمن  
 وجوه الخيل بالحرِّ ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر ، فتبسم وأنشده  
 قولَ حَسَّانَ :

(١) تَمَجُّجٌ : تسرع .

تَظَلَّ جِيادُنا مَتَمَطَّراتٍ تُلَطِّمَنَّ بِالْخُرِّ النِّساءَ

فلما انتهى إلى الكعبة تقدّم على راحلته ، فاستلم الركن بحجّته ، وكبر فكبر المسلمون لتكبيره ، وعجّوا بالتكبير حتى ارتجّت مكة ، وجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يشير إليهم أن اسكنوا ، والمشركون فوق الجبال ينظرون ، ثم طاف بالبيت على راحلته ، ومحمد بن مسleme أخذ بزمامها ، وحول الكعبة ثلثمائة وستون صنما مرصوفة بالرصاص ، وكان هُبَلُ أعظمها ، وهو تجاه الكعبة على بابها ، وإساف ونائلة حيث ينحرون ويذبحون الذبائح ، فجعل كلما يمرّ بصنم منها يشير بقضيب في يده ويقول : ﴿ جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقا ﴾ ؛ فيقع الصنم لوجهه ، ثم أمر بهبّل فكسر وهو واقف عليه ، فقال الزبير لأبي سفيان : يا أبا سفيان ، قد كسر هُبَل ، أما إنك قد كفت منه يوم أخذ في غروره حين تزعم أنه قد أنعم ، فقال : دع هذا عنك يا ابن العوام ، فقد أرى أن لو كان مع إله محمد غيره لكان غير ما كان .

قال الواقدي : ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ناحية من المسجد وأرسل بلالاً إلى عثمان بن طلحة يأتيه بالفتاح ، مفتاح الكعبة ، فقال عثمان : نعم ، فخرج إلى أمه وهي بنت شيبّة ، فقال لها والفتاح عندها يومئذ : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد طلب المفتاح ، فقالت : أعيذك بالله أن يكون الذي يذهب مأثرة قومه على يده ! فقال : فوالله لتأتيني به أو ليأتيك غيري فيأخذه منك ، فأدخلته في حُجْرَتِها ، وقالت : أيّ رجل يدخل يده ها هنا ! فبينما هما على ذلك وهو يكلمها إذ سمعت صوت أبي بكر وعمر في الدار ، وعمر رافع صوته حين رأى عثمان أبطأ : يا عثمان اخرج ، فقالت أمه : خذ المفتاح ، فلأن تأخذه أنت أحبُّ إلى من أن يأخذه تيم وعدى ، فأخذه فأتى به رسول الله صلى الله عليه وآله عليه وآله ، فلما تناوله بسط العباس بن عبد المطلب يده وقال : يا رسول الله ، بأبي أنت ! اجمع لنا بين السّقاية والحجّابة ؛ فقال : إنما أعطيك ما ترضون فيه ، ولا أعطيك ما ترزءون منه ،

قالوا : وكان عثمانُ بنُ طلحة قد قَدِمَ على رسول الله صلى الله عليه وآله مع خالد بن الوليد وعمر بن العاص مسلما قبل الفتح .

قال الواقدي : وبَعَثَ رسول الله صلى الله عليه وآله عمر بن الخطاب ومعه عثمان بن طلحة ، وأمره أن يفتح البيت فلا يدع فيه صورة ولا تمثالا إلا صورة إبراهيم الخليل عليه السلام ، فلما دخل الكعبة رأى صورة إبراهيم شيخا كبيرا يستقسم بالأزلام<sup>(١)</sup> .

قال الواقدي : وقد روى أنه أمره بحجور الصور كلها لم يستثن ، فترك عمر صورة إبراهيم ، فقال لعمر : ألم أمرُك ألا تدع فيها صورة ! فقال عمر : كانت صورة إبراهيم ، قال : فاحمها ، وقال : قاتلهم الله ، جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام !

قال : ومحا صورة مريم . قال : وقد رُوي أن رسول الله صلى الله عليه وآله محا الصور بيده ، روى ذلك ابن أبي ذئب ، عن عبد الرحمن بن مهران ، عن عُمَيْر مولى ابن عباس ، عن أسامة بن زيد ، قال : دخلتُ مع رسول الله صلى الله عليه وآله الكعبة ، فرأى فيها صوراً ، فأمرني أن آتيه في الدلو بماء ، فجعل يُبَلُّ به الثوب ويضرب به الصور ويقول : « قاتل الله قوماً يصورون ما لا يخلقون ! » .

قال الواقدي : وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالكعبة فأغْلِقَتْ عليه ، ومعه فيها أسامة بن زيد ، وبلال بن رباح ، وعثمان بن طلحة ، فكث فيها ما شاء الله ، وخالد بن الوليد واقف على الباب يذُبُّ الناس عنه ، حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وآله ، فوقف وأخذ بمِضَادَتِي<sup>(٢)</sup> الباب ، وأشرف على الناس وفي يده المفتاح ، ثم جعله في كُمه ، وأهل مكة قيامٌ تحته ، وبعضهم جلوس قد ليطأ بهم ؛ فقال الحمد لله الذي

(١) الأزلام : القداح . (٢) عضادتَا الباب : حانبا .



صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ماذا تقولون؟ وماذا تظنون؟ قالوا: نقول خيرا، ونظن شرا! أخ كريم، وابن أخ كريم، وقد قدرت، فقال: إني أقول كما قال أخى يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ألا إن كل رباً فى الجاهلية أودم أو مأثرة فهو تحت قدمى هاتين إلا سيادة الكعبة وسقاية الحاج. ألا وفى قتيل شبه العمدة؛ قتيل العصا والسوط الدية مغلظة مائة ناقة، منها أربعون فى بطونها أولادها. إن الله قد أذهب نخوة الجاهلية وتكبرها بأبائها، كلكم لآدم، وآدم من تراب. وأكرمكم عند الله أتقاكم. ألا إن الله حرّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهى حرام بحرم الله، لم تحل لأحد كان قبل، ولا تحل لأحد يأتى بعده، وما أحلت لى إلا ساعة من النهار. قال: يقصدها رسول الله صلى الله عليه وآله بيده هكذا. لا ينفر صيدها، ولا يعضد عضاها، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد، ولا يختلى خلاها. فقال العباس: إلا الإذخر يارسول الله، فإنه لا بد منه للقبور والبيوت، فسكت رسول الله صلى الله عليه وآله ساعة ثم قال إلا الإذخر، فإنه حلال، ولا وصية لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ولا يحل لامرأة أن تعطى من مالها إلا بإذن زوجها، والمسلم أخو المسلم، والمسلمون إخوة، يد واحد على من سواهم، تتكافأ دماؤهم، يسعى بذمتهم أدناهم، ويردّ عليهم أفصاهم، ولا يقتل مسلم بكافر، ولا ذو عهد فى عهده، ولا يتوارث أهل ملتين مختلفتين، ولا تُنكح المرأة على عمّتها ولا على خالتها، والبيّنة على من أدعى، واليمين على من أنكر، ولا تسافر امرأة مسيرة ثلاث إلا مع ذى حرم، ولا صلاة بعد العصر، ولا بعد الصبح، وأنها كم عن صيام يومين: يوم الأضحى ويوم الفطر. ثم قال: ادعوا لى عثمان بن طلحة، فجاء وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال له يوما بمكة قبل الهجرة ومع عثمان المفتاح: لعلك سترى هذا المفتاح بيدي يوما أضعه حيث شئت؛ فقال عثمان: لقد هلك قريش إذا وذلت! فقال عليه السلام: بل عمرت وعزّت؛ قال عثمان: فلما دعانى يومئذ والمفتاح بيده ذكرت قوله حين قال: فأستقبلته

بِشْر ، فَاسْتَقْبَلَنِي بِمِثْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ : خَذُوهَا يَا بَنِي أَبِي طَلْحَةَ خَالِدَةَ تَالِدَةَ ، لَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ . يَا عِثْمَانُ ، إِنَّ اللَّهَ اسْتَأْمَنَكُمْ عَلَى بَيْتِهِ ، فَكُلُّوا بِالْمَعْرُوفِ ؛ قَالَ عِثْمَانُ : فَلَمَّا وَلَّيْتُ نَادَانِي فَرَجَعْتُ ، فَقَالَ : أَلَمْ يَكُنِ الَّذِي قُلْتُ لَكَ ! يَعْنِي مَا كَانَ قَالَهُ بِمَكَّةَ مِنْ قَبْلُ ، فَقُلْتُ : بَلَى أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

قال الواقديّ : وأمر رسولُ الله صلى الله عليه وآله يومئذ برَفْعِ السلاح ، وقال : إِلَّا خُرَاعَةً عَنْ بَنِي بَكْرٍ إِلَى صَلَاةِ الْعَصْرِ . نَحْبِطُوهُمْ بِالسَّيْفِ سَاعَةً ، وَهِيَ السَّاعَةُ الَّتِي أُحِلَّتْ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

قال الواقديّ : وقد كان نوفل بن معاوية الدؤليّ من بني بكر استأمن رسول الله صلى الله عليه وآله على نفسه ، فأمنه ، وكانت خُرَاعَةٌ تَطْلُبُهُ بِدَمَاءٍ مِنْ قَتَلَتْ بِكْرَ وَفَرِيشَ مِنْهَا بِالْوَتِيرِ ، وقد كانت خُرَاعَةٌ قَالَتْ أَيْضاً لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : إِنَّ أُنْسَ بْنَ زُنَيْمٍ هَاجَكَ ، فَمَهَذَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ دَمَهُ ، فَلَمَّا فَتَحَ مَكَّةَ هَرَبَ وَأَلْتَحَقَ بِالْجَبَالِ ، وقد كان قَبْلَ أَنْ يَفْتَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَكَّةَ قَالَ شِعْرًا يَعْتَذِرُ فِيهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، مِنْ مُجَلَّتِهِ :

أَنْتَ الَّذِي تُهْدِي مَعْتَدٌ بِأَمْرِهِ	بَكَ اللَّهُ يَهْدِيهَا وَقَالَ لَهَا أُرْسُدِي
فَاحْلَتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ كَوْرِهَا	أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةٍ مِنْ عَمْدٍ
أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَوْسَعَ نَائِلًا	إِذَا رَاحَ يَهْتَزُّ اهْتَزَّازَ الْمَهْدِ
وَأَكْسَى لِبُرْدٍ الْخَالِ قَبْلَ ارْتِدَائِهِ	وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ الْمُتَجَرِّدِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي	وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ
تَعَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ قَادِرٌ	عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ تِهَامٍ وَمُنْجِدِ
وَنَبِيَّ رَسُولُ اللَّهِ أَنِّي هَوْتُهُ	فَلَا رَفْعَ سَوْطِي إِلَى إِذْنِ يَدِي
سِوَى أَنِّي قَدْ قُلْتُ يَا وَنِيعَ فَنِيَّةٍ	أَصِيبُوا بِنَحْسٍ يَوْمَ طَلَقَ وَأَسْعَدِ !

أصَابَهُمْ مِنْ لَمْ يَكُنْ لِدَمَائِهِمْ      كِفَاءً فَعَزَّتْ عَبْرَتِي وَتَلَدُّدِي  
ذُؤْيَا وَكُلْتُومَا وَسَلَى تَتَابَعُوا      جَمِيعًا فَلَا تَدَمَعُ الْعَيْنُ أَ كَمَدِ  
عَلَى أَنْ سَلَمَى لَيْسَ مِنْهُمْ كَمَثِلِهِ      وَإِخْوَتِهِ وَهَلْ مُلُوكُ كَأَعْبَدِ !  
فَإِنِّي لَا عَرَضًا خَرَقْتُ وَلَا دَمًا      بَهَرَقْتُ فَفَكَّرَ عَالَمُ الْحَقِّ وَأَقْصَدِ

قال الواقدي : وكانت كلمته هذه قد بلغت رسول الله صلى الله عليه وآله قبل أن يفتح مكة ، فنهت عنه ، وكلمه يوم الفتح نوفل بن معاوية الدؤلي ، فقال : يا رسول الله ، أنت أولى الناس بالأمم ، ومن منا لم يعادك ولم يؤذك ، ونحن في جاهلية لا ندري ما نأخذ وما ندع ، حتى هدانا الله بك ، وأنقذنا بيمنك من الملكة ، وقد كذب عليه الركب ، وكثروا في أمره عندك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : دَعِ الركب عنك ، إنا لم نجد بتهامة أحداً من ذوى رحم ولا بعيد الرحم كان أبر بنا من خزاعة ، فاسكت يا نوفل ؛ فلما سكت قال رسول الله صلى الله عليه وآله : قد عفوت عنه فقال نوفل : فذاك أبى وأمى .

قال الواقدي : وجاءت الظُّهر ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بلالا أن يؤذن فوق ظهر الكعبة وقريش في رؤوس الجبال ، ومنهم من قد تغيّب وسر وجهه خوفاً من أن يقتلوا ، ومنهم من يطلب الأمان ، ومنهم من قد آمن . فلما أذن بلال وبلغ إلى قوله : « أشهد أن محمداً رسول الله » ، صلى الله عليه وآله رَفَعَ صَوْتَهُ كَأَشَدِّ مَا يَكُونُ ؛ قال : تقول جَوَيزِيَّةُ بِنْتُ أَبِي جَهْلٍ : قد لَعَمْرِي رَفِيعُ لَكَ ذِكْرُكَ ، فأما الصلاة فسنصلي ، ولكن والله لا نحب من قتل الأحبة أبداً ، ولقد كان جاء أبى الذى جاء محمداً من النبوة ؛ فردّها ولم يردّ خلاف قومه .

وقال خالد بن سعيّد بن العاص : الحمد لله الذى أكرم أبى فلم يُدرِك هذا اليوم ؛

وقال الحارث بن هشام : وأتسكلاه ! ليتني ميت قبل هذا اليوم قبل أن أسمع بلالا ينهق فوق الكعبة ! وقال الحكم بن أبي العاص : هذا والله أحدث العظيم ، أن يصيح عبداً بنى مجمع ، يصيح بما يصيح به على بيت أبي طلحة ؛ وقال سهيل بن عمرو ، إن كان هذا سُخْطاً من الله تعالى فسيغيره ، وإن كان لله رضاءً فسيقره ؛ وقال أبو سفيان : أما أنا فلا أقول شيئاً ، لو قلت شيئاً لأخبرته هذه الحصباء ، قال : فأتى جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره مقالة القوم .

قال الواقدي : فكان سهيل بن عمرو يحدث فيقول : لما دخل محمد مكة انقمعت فدخلت بيتي وأغلقت على ، وقلت لابني عبد الله بن سهيل : اذهب فأطلب لي جوازاً من محمد ، فإني لا آمن أن أقتل ، وجعلت أتذكر أثرى عنده وعند أصحابه فلا أرى أسوأ أثراً مني ، فإني لقيته يوم الحديبية بما لم يلقه أحد به ، وكنت الذي كاتبته ، مع حضوري بذرا وأحداً ، وكلما تحركت قريش كنت فيها ، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا رسول الله ، أبي تؤمنه ؟ قال : نعم ، هو آمن بأمان الله ، فليظهر ، ثم التفت إلى من حوله فقال : من لقي سهيل بن عمرو فلا يُشَدَنَّ النظر إليه . ثم قال : قل له : فليخرج ، فلمعري إن سهيلاً له عقلٌ وشرف ، وما مثل سهيل جهول الإسلام ، ولقد رأى ما كان يوضع فيه إن لم يكن له تتابع ، فخرج عبد الله إلى أبيه فأخبره بمقالة رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال سهيل : كان والله برّاً صغيراً وكبيراً ، وكان سهيل يُقبِل ويُدبر غير خائف ، وخرج إلى خيبر مع النبي صلى الله عليه وآله وهو على شِرْكِهِ حتى أسلم بالجرمارة .

تم الجزء السابع عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد

ويليه الجزء الثامن عشر

## فهرس الكتب\*

- ٤٦ - من كتاب له عليه السلام إلى بعض عماله ٣
- ٤٧ - من وصية له عليه السلام للحسن والحسين عليهما السلام لما ضربه ابن ملجم ٥ - ٦
- ٤٨ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٢
- ٤٩ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية أيضا ١٤
- ٥٠ - من كتاب له عليه السلام إلى أمراءه على الجيوش ١٥
- ٥١ - من كتاب له عليه السلام إلى عماله على الخراج ١٩ - ٢٠
- ٥٢ - من كتاب له عليه السلام إلى أمراء البلاد في معنى الصلاة ٢٢
- وبیان اختلاف الفقهاء في أوقات الصلوات ٢٢ - ٢٩
- ٥٣ - من كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي لما ولّاه على مصر ٣٠ - ٣٧
- ٥٤ - من كتاب له عليه السلام إلى طلحة والزبير مع عمران بن الحصين الخراعي ١٣١
- ٥٥ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ١٣٥
- ٥٦ - من كتاب له عليه السلام أوصى به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته ١٣٩
- إلى الشام
- ٥٧ - من كتاب له عليه السلام إلى أهل الكوفة مسيره من المدينة إلى البصرة ١٤٠
- ٥٨ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى أهل الأمصار يقص فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين ١٤١
- ٥٩ - من كتاب له عليه السلام إلى الأسود بن قطبة صاحب جند حلوان ١٤٥
- ٦٠ - من كتاب له عليه السلام إلى العمال الذين يطأ عملهم الجيوش ١٤٧

- ٦١ - من كتاب له عليه السلام إلى كميل بن زياد النخعي وهو عامله على هيت ١٤٩
- ٦٢ - من كتاب كتبه له عليه السلام إلى أهل مصر مع مالك الأشر  
لما ولّاه ولايتها ٢٢٦-١٥١
- ٦٣ - من كتاب له عليه السلام إلى أبي موسى الأشعري وهو عامله على  
الكوفة ، وقد بلغه عنه تثبيت الناس عن الخروج إليه لما نذبهم لحرب  
أصحاب الجمل ٢٤٦
- ٦٤ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية جوابا عن كتابه ٢٥١ ، ٢٥٠

## \* فهرس الموضوعات

٨ — ١١	فصل في ذكر الآثار الواردة في حقوق الجار
٣٧ — ٣٨	فصل في النهي عن ذكر عيوب الناس وما ورد في ذلك من الآثار
٣٩ — ٤١	فصل في النهي عن سماع السعاية وما ورد في ذلك من الآثار
٥٥ — ٥٨	رسالة الإسكندر إلى أرسطو ورد أرسطو عليه
٦١ — ٦٨	فصل في القضاة وما يلزمهم، وذكر بعض نوادرهم
٧٤ — ٧٥	عهد سابور بن أردشير إلى ابنه
٧٦ — ٧٨	فصل فيما يجب على مصاحب الملك
٧٩ — ٨٠	فصل في الكتاب وما يلزمهم من الآداب
٨٠ — ٨٣	فصل في ذكر ما نصحت به الأوائل الوزراء
٩١ — ٩٦	ذكر الحجاب وما ورد فيه من الخبر والشعر
٩٨ — ١٠٦	طرف من أخبار عمر بن عبد العزيز ونزاهته في خلافته
١٠٩ — ١١٠	فصل فيما جاء في الحذر من كيد العدو
١١٨ — ١٣٠	فصل في ذكر بعض وصايا العرب
١٣٢	عمران بن الحصين
١٣٢ — ١٣٣	أبو جعفر الإسكافي
١٣٩	شريح بن هاني
١٤٩ — ١٥٠	كهيل بن زياد ونسبه
١٥٤ — ٢٢٥	ذكر ما طعن به الشيعة في إمامة أبي بكر والجواب عنها
١٥٥ — ١٦٤	الطعن الأول في ذكر ما طعن به عليه فيه من أمر فدك
١٦٤ — ١٦٨	الطعن الثاني في قوله : ليتني كنت سألت رسول الله عند موته عن ثلاثة ...

- ١٧٥-١٦٨ الطعن الثالث في توليته عمر مع أن رسول الله لم يوله شيئاً من أعماله
- ١٩٤-١٧٥ الطعن الرابع لتأخيره إنفاذ جيش أسامة
- ٢٠١-١٩٥ الطعن الخامس بمناسبة أن الرسول عليه السلام لم يوله الأعمال وولى غيره
- ٢٠٢، ٢٠١ الطعن السادس في أنه لم يعرف الفقه وأحكام الشريعة
- ٢١٤-٢٠٢ الطعن السابع في عدم إقامته الحد على خالد بن الوليد وقد قتل مالك بن نويرة
- الطعن الثامن فيما تم من دفنه وعمر مع رسول الله في بيته ، وقد منع الله تعالى
- ٢١٩-٢١٤ الكل من ذلك في حال حياته
- الطعن التاسع في أنه نص على عمر بالخلافة مخالفاً في ذلك رسول الله صلى الله
- ٢٢٠، ٢١٩ عليه وسلم - بزعمهم
- الطعن العاشر في أنه سمي نفسه بخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم
- ٢٢١ مع اعترافه بأنه لم يستخلفه
- الطعن الحادى عشر في أمره بحرق الفجاءة السلمى بالدار وقد نهى رسول الله
- ٢٢٢ صلى الله عليه وسلم عن ذلك
- ٢٢٣، ٢٢٢ الطعن الثانى عشر في أنه تكلم في الصلاة قبل التسليم
- الطعن الثالث عشر في أنه كتب إلى خالد بن الوليد وهو على الشام يأمره
- ٢٢٤، ٢٢٣ أن يقتل سمعد بن عباد - بزعمهم
- الطعن الرابع عشر في أنه لما استخلف قطع لنفسه على بيت المال أجرة
- ٢٢٤ كل يوم ثلاثة دراهم
- الطعن الخامس عشر في أنه أمر في خلافته بأن من كان عنده شيء من
- ٢٢٥، ٢٢٤ كلام الله فليأته به ؛ مع أن القرآن قد بان بفصاحته عن فصاحة البشر
- ٢٤٥-٢٢٧ أخبار الوليد بن عقبة
- ٢٥٣-٢٥١ كتاب معاوية إلى عليّ
- ٢٨٤-٢٥٧ ذكر الخبر عن فتح مكة



# شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

بتحقيق  
محمد أبو الفضل إبراهيم

الجزء الثامن عشر

دار الجيل  
بيروت

حقوق الطبع محفوظة للناس  
طبعة ثانية  
١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م

# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## بيان

يشتمل هذا الجزء على بقية المختار من كتب أمير المؤمنين ورسائله إلى أعدائه وأمرائه بلاده ، ثم على طائفة من مختار حكمه ومواعظه ، وأجوبة مسائله ، والكلام القصير الخارج في سائر أغراضه .

وقد روجع على الجزء الثالث من المجموعة الخامسة من النسخة المصورة عن أصلها المحفوظ بمكتبة المتحف البريطاني برقم ١٢٦ ؛ وهي النسخة التي رمزت لها بالحرف ( ا ) . وأصل هذا الجزء مكتوب بخط نسخ حديث واضح ، يبدو أنه كتب في القرن الثاني عشر ؛ ويكاد يكون خاليا من الشكل والضبط ؛ حتى فيما جاء فيه من أصل كلام الإمام . ويبدأ من الشرح ببقية الكلام على فتح مكة ؛ إلا أن آخره نقصا يبدأ في أثناء الكلام على شرح قول أمير المؤمنين : « الإعجاب يمنع من الازدياد » ، إلى آخر الجزء . ويقع في ٥٦ ورقة ، مسطر بها ٢٩ سطرا ، وفي كل سطر ١٥ كلمة تقريبا ، ولا يوجد فيه ذكر لام ناسخه ولا تاريخ نسخه .

كما روجع أيضا على الجزء الثاني من المجلد الأخير من مخطوطة دار الكتب برقم ١٨٦٨ - أدب ، وهي التي رمزت لها بالحرف ( د ) ، وسبق وصفها في مقدمة الجزء السادس عشر ، وعلى النسخة المطبوعة على الحجر في طهران سنة ١٣٧١ هـ ؛ وهي التي رمزت لها بالحرف ( ب ) . وأسأل الله أن يوفق ويعين .

محمد أبو الفضل إبراهيم

٢٤ رمضان سنة ١٣٨٢ هـ  
١٨ فبراير سنة ١٩٦٣ م



# شرح نهج البلاغة

لابن أبي الحديد

(٥٨٦ - ٦٥٦)

تأليف

محمد أبو الفضل إبراهيم



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[ ذكر بقيّة الخبر عن فتح مكة ]

قال الواقدي : وهرب هبيرة بن أبي وهب وعبدُ الله بن الزُّبَيْرِ جميعاً حتّى انتهى إلى نَجْران فلم يأمنَا الخوف حتّى دخلا حصنَ نَجْران ؛ فقيل : ما شأنكما ؟ قالا : أمّا قريش فقد قُتِلَت ودخل محمد مكة ، ونحن والله نرى أن محمداً سائر إلى حصنكم هذا ، فجعلت بلحارث بن كعب يُصلحون مارت من حصنهم ، وجمعوا ماشيتهم ؛ فأرسل حسان بن ثابت إلى ابن الزُّبَيْرِ :

لا تعدمن رجلاً أحلك بُغضُهُ      نجران في عيشٍ أجدّ ذميمٍ<sup>(٢)</sup>  
 بليت فئاتك في الحروب فألفت      جوفاء ذات معايبٍ ووُصومٍ<sup>(٣)</sup>  
 غضب الإله على الزُّبَيْرِ وابنه      بمذابٍ سوء في الحياة مقيم

فلما جاء ابن الزُّبَيْرِ شعرُ حسان تهياً للخروج ، فقال هبيرة بن وهب : أين تريد يا ابن عمّ ؟ قال له : أريد والله محمداً ، قال : أتريد أن تتبعه ؟ قال : أرى والله ، قال هبيرة : ياليت أنّي كنتُ رافقتُ غيرك ، والله ما ظننتُ أنّك تتبع محمداً أبداً . قال ابن الزُّبَيْرِ : هو ذاك ، فعلى أيّ شيء أقيمُ مع بني الحارث بن كعب وأترك ابن عمّي وخير الناس وأبرّهم ، وبين قومي وداري ! فأنحدر ابن الزُّبَيْرِ حتّى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) د : « لطفك اللهم لإتمامه بالخير » . (٢) ديوانه ٣٦٠ .

(٣) الوصوم : العيوب ؛ جمع وصم ، ورواية الديوان : « خانة جوفاء ذات وصوم » .

وهو جالس في أصحابه ، فلما نظر إليه قال : هذا ابنُ الزُّبَيْرِ ومعه وجهٌ فيه نورُ الإسلام ، فلما وقف على رسول الله صلى الله عليه وآله قال : السَّلامُ عليك يا رسول الله ، شهدتُ أن لا إله إلا الله ، وأنتَ عبدُه ورسولُه ، والحمد لله الذي هداني للإسلام ، لقد عاديتهُ وأجلبتُ عليك ، وركبتُ الفرسَ والبعيرَ ، ومَشَيْتُ على قَدَمي في عَدَاوَتِكَ ، ثم هربتُ منك إلى نَجْرانَ ، وأنا أريدُ ألا أقربَ الإسلامَ أبداً ؛ ثم أَرَادَنِي اللهُ مِنْهُ بِخَيْرٍ ، فَأَلْقَاهُ فِي قَلْبِي ، وَحَبَّبَهُ إِلَيَّ ، وَذَكَرْتَ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنَ الضَّلَالِ وَاتَّبَاعَ مَا لَا يَنْفَعُ ذَا عَقْلٍ ؛ مِنْ حَجَرٍ يُعْبَدُ ، وَيُذَبِّحُ لَهُ لَا يَدْرِي مَنْ عَبَدَهُ وَمَنْ لَا يَعْبُدُهُ . فقال رسولُ الله صلى الله عليه وآله : الحمدُ لله الذي هدانا للإسلام ، احمَدِ الله ، إِنَّ الإسلامَ يُحِبُّ مَا كَانَ قَبْلَهُ . وَأَقَامَ هُبَيْرَةُ بَنَجْرَانَ ، وَأَسْلَمَتْ أُمُّ هَانِيٍّ ، فَقَالَ هُبَيْرَةُ حِينَ بَلَغَهُ إِسْلَامُهَا يَوْمَ الْفَتْحِ يُوْنِسُهَا شِعْرًا مِنْ مُجْلَتِهِ (١) :

وإن كنتِ قد تابعتِ دينَ محمدٍ وقطعتِ الأرحامَ منكِ جبالها (٢)

فكوني على أعلى سَحُوقٍ بهِضْبَةٍ (٣) مُلَمِّمَةً غبراءَ يَبْسُ بِلَالِها (٤)

فأقام بنجرانَ حتى مات مُشْرِكًا .

قال الواقديّ: وهرب حُوَيْطِبُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ فدخل الحائط (٥) بِمَكَّةَ ، وجاء أبو ذَرٍّ لِحَاجَتِهِ ، فدخل الحائطَ فراه ، فَهَرَبَ حُوَيْطِبُ ، فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ : تَعَالَ فَأَنْتَ آمِنٌ ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ : أَنْتَ آمِنٌ ؛ فَاهْبِ حَيْثُ شِئْتَ ، وَإِنْ شِئْتَ أَدْخَلْتُكَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنْ شِئْتَ فَأِلَى مَنْزِلِكَ . قَالَ : وَهَلْ مِنْ سَبِيلٍ إِلَى مَنْزِلِي أَلَمَّا فَأُقْتَلَ قَبْلَ أَنْ أُصِلَ إِلَى مَنْزِلِي ،

(١) من قصيدة له لى ابن هشام ٤ : ٤٢ ؛ وأولها :

أَشَاقَتُكَ هِنْدُ أُمِّ أَتَاكَ سُؤَالُهَا كَذَلِكَ الْغَوَى أَسْبَابُهَا وَانْفِتَالُهَا

(٢) ابن هشام : « وعطفت الأرحام منك جبالها » .

(٣) كذا في ١ ، وفي ب « سخوف » ؛ وفي د : « سجوف » . وفي ابن هشام : « سحيق » .

(٤) المللمة : المستديرة ، والغبراء : التي علاها الغبار . واليأس : المكان اليابس .

(٥) الحائط هنا : البستان .



أو يدخل على منزلي فأقتل ! قال: فأنا أبْلُغُ معك منزلكَ ، فبلغ معه منزله ، ثم جعل يُنادي على بابه : إنَّ حُويطِبا آمِنَ فلا يهَيِّج . ثم أنصَرَفَ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فأخبره فقال : أو ليس قد أَمَّنا الناسَ كلَّهم إلا من أَمَرْتَ بقتله !

قال الواقدي : وهربَ عكرمةُ بن أبي جهل إلى اليمن حتى ركب البحر ، قال : وجاءت زوجته أم حكيم بنت الحارث بن هشام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله في نسوةٍ منهنَّ هند بنت عتبة - وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله أمرَ بقتلها - والبُغوم<sup>(١)</sup> بنت المعدَّل الكِنَائيَّة امرأة صفوان بن أمية ، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة امرأة الحارث بن هشام ، وهند بنت عتبة . بن الحجاج أمَّ عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورسول الله صلى الله عليه وآله بالأبطح ، فأسلمن ، ولما دخلنَّ عليه دخلنَّ وعنده زَوْجَتاه وابنته فاطمة ونساء من نساء بني عبد المطلب وسألنَّ أن يُبايعهنَّ ، فقال : إني لا أصافح النساء - ويقال : إنه وضع على يده ثوباً فسَحَنَ عليه ، ويقال : كان يؤتى بِدَح من ماء فيدخل يده فيه ثم يرفعُه إليهنَّ ، فيدخلنَّ أيديهنَّ فيه - فقالت أمَّ حكيم امرأة عكرمة : يا رسول الله ، إنَّ عكرمة هَرَبَ منك إلى اليمن ، خاف أن تقتله ، فأمنُّه ، فقال : هو آمِن . فخرجت أمَّ حكيم في طلبه ، ومعها غلامٌ لها رُؤمى ، فراودها عن نفسها ، فجعلت تمنّيه حتى قَدِمَتْ به على حى ، فاستغاثت بهم عليه ، فأوثقوه رباطا ، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل رِيَّامة ، فركب البحر ، فهاج بهم ، فجعل نُوتى السفينة يقول له : أن أخلص ، قال : أى شئ أقول ؟ قال : قل لا إله إلا الله ، قال عكرمة : ما هَرَبْتُ إلا من هذا ، فجاءت أمَّ حكيم على هذا من الأمر ، فجعلت تُلجَّ عليه وتقول : يا بن عمِّ ، جئتُك مِن عند خير الناس ، وأوصل الناس ، وأبرَّ الناس ، لا تُهلك نفسك ، فوقف لها حتى أدركته ، فقالت : إننى قد استأمنتُ لك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمنك ، قال :

(١) ب : « البعوم » . د : « النعوم » ، تحريف ، والصواب ما أثبتته ، وانظر القاموس .

أَنْتِ فَعَلْتِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَنَا كَلَّمْتُهُ، فَأَمَّنَكَ، فَرَجَعَ مَعَهَا، فَقَالَتْ: مَا لَقِيتِ مِنْ غَلَامِكَ  
الرَّومِيِّ! وَأَخْبَرْتَهُ خَبْرَهُ، فَقَتَلَهُ عِكْرَمَةُ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ مَكَّةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: يَا بَنِيكُمْ عِكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ مُؤْمِنًا، فَلَا تَسُبُّوا أَبَاهُ، فَإِنَّ سَبَّ الْمَيِّتِ  
يُؤْذِي الْحَيَّ. وَلَا يَبْلُغُ الْمَيِّتُ. فَلَمَّا وَصَلَ عِكْرَمَةُ وَدَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ  
وَثَبَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ عَلَيْهِ رِداءُ فَرَحًا بِهِ، ثُمَّ جَلَسَ فَوْقَ عِكْرَمَةَ بَيْنَ يَدَيْهِ  
وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ مَنقَبَةٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنْ هَذِهِ أَخْبَرْتَنِي أَنَّكَ أَمَّنْتَنِي؛ فَقَالَ: صَدَقْتَ،  
أَنْتِ آمِنٌ، فَقَالَ عِكْرَمَةُ: فَإِلَّا مَ تَدْعُو؟ فَقَالَ: إِلَى أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ  
رَسُولُ اللَّهِ، وَأَنْ تُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ. . . وَعَدَّ خِصَالِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ عِكْرَمَةُ:  
مَادَعَوْتَ إِلَّا إِلَى حَقٍّ، وَإِلَى حَسَنِ جَمِيلٍ، وَلَقَدْ كُنْتُ فِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَدْعُوَ إِلَى  
مَادَعَوْتَ إِلَيْهِ، وَأَنْتِ أَصْدَقُنَا حَدِيثًا، وَأَعْظَمُنَا بَرًّا. ثُمَّ قَالَ: فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا  
اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لَا تَسْأَلُنِي الْيَوْمَ شَيْئًا أُعْطِيهِ  
أَحَدًا إِلَّا أُعْطَيْتُكَ، قَالَ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي كُلَّ عِدَاوَةٍ عَادَيْتُكَهَا أَوْ مَسِيرٍ  
أَوْضَعْتُ فِيهِ، أَوْ مَقَامٍ لَقِيتُكَ فِيهِ، أَوْ كَلَامٍ قُلْتُهُ فِي وَجْهِكَ، أَوْ ابْنَتٍ غَائِبٌ عَنْهُ. فَقَالَ:  
اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ كُلَّ عِدَاوَةٍ عَادَانِيهَا، وَكُلَّ مَسِيرٍ سَارَ فِيهِ إِلَيَّ يَرِيدُ بِذَلِكَ إِطْفَاءَ  
نُورِكَ، وَاغْفِرْ لَهُ مَا نَالَ مِنِّي وَمِنْ عِرْضِي؛ فِي وَجْهِهِ أَوْ أَنَا غَائِبٌ عَنْهُ. فَقَالَ عِكْرَمَةُ:  
رَضِيتُ بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: أَمَا وَاللَّهِ لَا أَدَعُ نَفَقَةً كُنْتُ أَنْفَقْتُهَا فِي صَدْرِي عَنْ  
سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا أَتَقَتُّ ضَعْفَهَا فِي سَبِيلِ الْإِسْلَامِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَأَجْتَهِدَنَّ فِي الْقِتَالِ  
بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى أُقْتَلَ شَهِيدًا؛ قَالَ: فَردَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمْرَاتَهُ بِذَلِكَ  
النِّكَاحِ الْأَوَّلِ.

قال الواقدي: وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشَّعْبَةَ، وجعل يقول لَغْلَامِهِ

يسار - وليس معه غيره : وَيُحْك! أَنْظِرْ مِنْ تَرَى! فقال : هذا عُمَيْرُ بْنُ وَهَبٍ ؛ قال صفوان : ما أصنع بِعُمَيْرٍ؟ وَاللَّهِ مَا جَاءَ إِلَّا يَرِيدُ قَتْلِي ، قد ظَاهَرَ مُحَمَّدًا عَلَى ، فليَحْتَمِه ، فقال صفوان : يَا عُمَيْرُ ، مَا لَكَ؟ مَا كَفَاكَ مَا صَنَعْتَ ، حَمَلْتَنِي دَيْنُكَ وَعِيَالِكَ ، ثُمَّ جِئْتَ تَرِيدُ قَتْلِي! فقال : يَا أَبَا وَهَبٍ ، جُمْتُ فِدَاكَ اجْتُنْتُكَ مِنْ عِنْدَ خَيْرِ النَّاسِ ، وَأَبْرَ النَّاسِ وَأَوْصَلَ النَّاسِ ، وقد كَانَ عُمَيْرٌ قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، سَيِّدَ قَوْمِي صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةٍ خَرَجَ هَارِبًا لِيَقْذِفَ نَفْسَهُ فِي الْبَحْرِ ؛ خَافَ إِلَّا تَوَلَّيْتَهُ ، فَأَمَّنَّهُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي! فقال : قد أَمَّنْتُهُ ، نَفَرَ جُحُودِي فِي أَثَرِهِ ، فقال : إِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ آمَنَكَ صَفْوَانُ : لَا وَاللَّهِ حَتَّى تَأْتِيَنِي بِعَلَامَةٍ أَعْرِفُهَا ، فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَأَخْبَرَهُ وَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، جِئْتُهُ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ فَقَالَ : لَا أَرْجِعُ إِلَّا بِعَلَامَةٍ أَعْرِفُهَا ، فقال : خُذْ عِمَامَتِي ، فَرَجَعَ عُمَيْرٌ إِلَيْهِ بِعِمَامَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - وَهِيَ الْبُرْدُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَكَّةَ مَعْتَجِرًا بِهِ ، بِرِدْ حَبْرَةٍ أَحْمَرٍ - نَفَرَ جُحُودِي فِي طَلْبِهِ الثَّانِيَةِ<sup>(١)</sup> حَتَّى جَاءَهُ بِالْبُرْدِ فَقَالَ : يَا أَبَا وَهَبٍ ، جِئْتُكَ مِنْ عِنْدِ خَيْرِ النَّاسِ وَأَوْصَلَ النَّاسِ وَأَبْرَ النَّاسِ وَأَحْلَمَ النَّاسِ ، مَجْدُهُ مَجْدُكَ ، وَعِزُّهُ عِزُّكَ ، وَمُلْكُهُ مُلْكُكَ ، ابْنُ أَبِيكَ وَأُمِّكَ ، أَذْكَرُكَ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ ، فَقَالَ : أَخَافُ أَنْ أَقْتَلَ ؛ قَالَ : فَإِنَّهُ دَعَاكَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ رَضِيتَ وَإِلَّا سَيَّرَكَ شَهْرَيْنَ فَهُوَ أَوْفَى النَّاسِ وَأَبْرَهُمْ ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ بِرِدِّهِ الَّذِي دَخَلَ بِهِ مَعْتَجِرًا ، أَتَعْرِفُهُ؟ قَالَ : نَعَمْ ، فَأَخْرَجَهُ ، فَقَالَ : نَعَمْ هُوَ هُوَ ، فَرَجَعَ صَفْوَانُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَوَجَدَهُ يَصَلِّيُ الْمَصْرَ بِالنَّاسِ ، فَقَالَ : كَمْ يَصَلُّونَ؟ قَالُوا : خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ قَالَ : أَحْمَدُهُ يَصَلِّيُ بِهِمْ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَلَمَّا سَلَّمَ مِنْ صَلَاتِهِ صَاحَ صَفْوَانُ : يَا مُحَمَّدُ ، إِنْ عُمَيْرٌ

(١) ا ، ب : « ثَابِتُهُ » ؛ وَأُثْبِتَ مَا فِي د .

ابن وهب جاءني بِرُؤدك ، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم إليك ، فإن رضيت أمراً ، وإلا سیرتني شهرين . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : انزل أبا وهب ، فقال : لا والله أو تبين لي ؟ قال : بل سیر أربعة أشهر . فنزل صفوانُ وخرج معه إلى حُنين وهو كافر ، وأرسل إليه يستعير أذراعه - وكانت مائة درع - فقال : أطوعاً أم كرهاً ؟ فقال عليه السلام : بل طوعاً عارية مؤداة ، فأعاره إياها ، ثم أعادها إليه بعد انقضاء حُنين والطائف ، فلما كان رسول الله صلى الله عليه وآله بالجمرانة يسير في غنائم هوازن ينظر إليها ، فنظر صفوان إلى شعب هناك مملوء أتمماً وشاء ورعاً ، فأدام النظر إليه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يرمقه ، فقال : أبا وهب : يعجبك هذا الشعب ؟ قال : نعم ، قال : هو لك وما فيه . فقال صفوان : ما طابت نفس أحدٍ بمثل هذا إلا نفس نبيٍّ ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال الواقدي : فأما عبدُ الله بن سعد بن أبي سرح فكان قد أسلم ، وكان يكتبُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي ، فربما أملى عليه رسولُ الله صلى الله عليه وآله « سميعٌ عليم » فيكتبُ « عزيزٌ حكيم » ونحو ذلك ، ويقرأ على رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول : كذلك الله ، ويقرأ ، فافتتن ؛ وقال : والله ما يدري ما يقول : ! إني لأكتب له ما شئتُ فلا يُنكر ، وإنه ليوحى إليّ كما يُوحى إلى محمد ، وخرج هارباً من المدينة إلى مكة مرتدّاً ، فأهدر رسول الله دمه ، وأمر بقتله يوم الفتح ، فلما كان يومئذ جاء إلى عثمان - وكان أخاه من الرضاعة - فقال : يا أخى ، إني قد أجرتك فاحتبسني ها هنا وأذهب إلى محمد فكلّمه فيّ ، فإن محمداً إن رآني ضربَ عنقي ، إن جرى أعظمُ الجُرم ، وقد جئتُ تائباً ؛ فقال عثمان : قم فاذهب معي إليه ، قال : كلا ، والله إن رآني ضربَ عنقي ولم يناظرني ، قد أهدرَ دمي وأصحابه يطلبونني في كلِّ موضع ، فقال عثمان : انطلق معي فإنه لا يقتلك إن شاء الله - فلم يرع رسول الله صلى الله عليه وآله إلا بعثمانَ

أَخَذَا بِيَدَيْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ وَاقِفَيْنِ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ عُمَانُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، هَذَا أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ ، إِنَّ أُمَّهُ كَانَتْ تَحْمِلُنِي وَتَرْضِيهِ وَتَرْضِعُنِي وَتَقْطِعُهُ وَتُلْطِفُنِي وَتَتْرَكُهُ ، فَهَبْهُ لِي . فَأَعْرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ عَنْهُ ، وَجَعَلَ عُمَانُ كُلَّمَا أَعْرَضَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْهُ أَسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِهِ ، وَأَعَادَ عَلَيْهِ هَذَا السَّكَّامَ ، وَإِنَّمَا أَعْرَضَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْهُ إِيرَادَةً لِأَنَّهُ يَقُومُ رَجُلٌ فَيَضْرِبُ عُنُقَهُ ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ لَا يَقُومُ أَحَدٌ وَعُمَانُ قَدْ أُنْكَبَ عَلَيْهِ يَقْبَلُ رَأْسَهُ وَيَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بَابِعْهُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي عَلَى الْإِسْلَامِ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ : نَعَمْ ، فَبَابِعْهُ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ : مَا مَنَعَكُمْ أَنْ يَقُومَ مِنْكُمْ وَاحِدٌ إِلَى هَذَا الْكَابِ فَيَقْتُلَهُ - أَوْ قَالَ : الْفَاسِقُ ! فَقَالَ عَبَّادُ بْنُ بَشْرٍ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ، إِنِّي لَا تَبْعُ طَرَفَكَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ ، رَجَاءُ أَنْ تُشِيرَ إِلَيَّ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ . وَيَقَالُ : إِنَّ أَبَا الْبَشِيرِ هُوَ الَّذِي قَالَ هَذَا ؛ وَيَقَالُ : بَلْ قَالَهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنِّي لَا أَقْتُلُ بِالْإِشَارَةِ ؛ وَقِيلَ : إِنَّهُ قَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ لَا يَكُونُ لَهُ خَائِنَةٌ الْأَعْيُنُ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : فَجَعَلَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَعْدٍ يَفِرُّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كُلَّمَا رَأَاهُ ، فَقَالَ لَهُ عُمَانُ : يَا أَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! لَوْ تَرَى ابْنَ أُمِّ عَبْدِ يَفِرُّ مِنْكَ كُلَّمَا رَأَاكَ ! فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ ؛ فَقَالَ : أَوْ لَمْ أَبَابِعْهُ وَأَوْ مَنَّهُ ؟ قَالَ : بَلَى ، وَلَكِنَّهُ يَتَذَكَّرُ عَظَمَ جُرْمِهِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ : إِنَّ الْإِسْلَامَ يَحِبُّ مَا قَبْلَهُ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَأَمَّا الْحَوَيْرِثُ بْنُ مَعْبُدٍ - وَهُوَ مِنْ وَلَدِ قُصَيِّ بْنِ كِلَابٍ - فَإِنَّهُ كَانَ يُؤْذِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلَهُ بِمَكَّةَ ، فَأُهْدِرَ دَمُهُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ فِي مَنْزِلِهِ يَوْمَ الْفَتْحِ وَقَدْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ ، جَاءَ عَلَى عُنُقِهِ السَّلَامُ يَسْأَلُ عَنْهُ ، فَقِيلَ لَهُ : هُوَ فِي الْبَادِيَةِ ، وَأُخْبِرَ الْحَوَيْرِثُ أَنَّهُ جَاءَ يَطْلُبُهُ وَتَنَحَّى عَلَى عُنُقِهِ السَّلَامُ عَنْ بَابِهِ ، فَخَرَجَ الْحَوَيْرِثُ يَرِيدُ أَنْ

يَهْرَبُ مِنْ بَيْتٍ إِلَى بَيْتٍ آخَرَ ، فَنَلْقَاهُ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضَرَبَ عُنُقَهُ .  
 قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَأَمَّا هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ ، فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَمْرَانِ  
 يُحْرِقُهُ بِالنَّارِ ، ثُمَّ قَالَ : إِنَّمَا يَمْدَبُ بِالنَّارِ رَبُّ النَّارِ ، اقْطَعُوا يَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ إِنْ قَدَرْتُمْ  
 عَلَيْهِ ، ثُمَّ اقْتُلُوهُ ، وَكَانَ جُرْمُهُ أَنْ نَخَسَ زَيْنَبَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا  
 هَاجَرَتْ ، وَضَرَبَ ظَهْرَهَا بِالرَّمْحِ وَهِيَ حُبْلَى ، فَأَسْقَطَتْ ، فَلَمْ يَقْدِرِ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ يَوْمَ  
 الْفَتْحِ ، فَلَمَّا رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ طَلَعَ هَبَّارُ بْنُ الْأَسْوَدِ قَائِلًا :  
 أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، فَقَبِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ  
 إِسْلَامَهُ ، فَخَرَجَتْ سَلَمَى مَوْلَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَقَالَتْ : لَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا !  
 أَنْتَ الَّذِي فَعَلْتَ وَفَعَلْتَ ! فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَهَبَّارُ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ : إِنْ الْإِسْلَامَ  
 حَا ذَلِكَ ، وَنَهَى عَنِ التَّمَرُّضِ لَهُ .

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : قَالَ أَبُو عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ  
 وَهَبَّارَ يَعْتَذِرُ إِلَيْهِ وَهُوَ يُطَاطِئُ رَأْسَهُ اسْتِجَابَةً مِمَّا يَعْتَذِرُ هَبَّارُ وَيَقُولُ لَهُ : قَدْ  
 عَفَوْتُ عَنْكَ !

قَالَ الْوَاقِدِيُّ : وَأَمَّا أَبُو خَطْلٍ فَإِنَّهُ خَرَجَ حَتَّى دَخَلَ بَيْنَ أُسْتَارِ الْكُمْبَةِ ، فَأَخْرَجَهُ  
 أَبُو بَرَزَةَ الْأَسْلَمِيُّ مِنْهَا ، فَضَرَبَ عُنُقَهُ بَيْنَ الرَّكْنِ وَالْمَقَامِ - وَيُقَالُ : بَلَّ قَتْلَهُ عَمَّارُ بْنُ  
 يَاسِرٍ ، وَقِيلَ : سَعْدُ بْنُ حُرَيْثٍ الْخَزَوِيُّ ، وَقِيلَ : شُرَيْكُ بْنُ عَبْدِ الْعِجْلَانِيِّ ؛ وَالْأَثْبَتُ  
 أَنَّهُ أَبُو بَرَزَةَ - قَالَ : وَكَانَ جُرْمُهُ أَنَّهُ أَسْلَمَ وَهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَبِعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ  
 عَلَيْهِ وَآلِهِ سَاعِيًا<sup>(١)</sup> ، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنْ خُزَاعَةَ فَقَتَلَهُ ، وَسَاقَ مَا أَخَذَ مِنْ مَالِ الصَّدَقَةِ ،  
 وَرَجَعَ إِلَى مَكَّةَ ، فَقَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ : مَا جَاءَ بِكَ ؟ قَالَ : لَمْ أَجِدْ دِينًا خَيْرًا مِنْ دِينِكُمْ ،  
 وَكَانَتْ لَهُ قَیْمَتَانِ : إِحْدَاهُمَا قَرِيبَى ، وَالْأُخْرَى قَرِيبَةٌ - أَوْ أَرَنْبٌ ، وَكَانَ أَبُو خَطْلٍ يَقُولُ

(١) سَاعِيًا : أَيُّ جَابِيَا لِلزَّكَاةِ .

الشَّعْرَ يَهْجُو به رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ويفنيان به ، ويدخل عليه المشركون بيته فيشربون عنده الخمر ، ويسمعون الغناء بهجاء رسول الله صَلَّى الله عليه وآله .

قال الواقدي : وأما مقيس بن صُبابة فإن أمه سهمية ، وكان يوم الفتح عند أخواله بنى سهم ، فاصطبح الخمر ذلك اليوم في ندأى له ، وخرج كميلاً يتغنى ويتمثل بأبيات منها :

دعيني أسطبخ يا بكرُ إلى رأيت الموت نقبَ عن هشام  
ونقب عن أبيك أبي يزيد أخي القينات والشرب الكرام  
يخبرنا ابنُ كَبْشَة أن سنجياً وكيف حياةُ أصداء وهام !  
إذا ما الرأسُ زال بمنكبيه فقد شبع الأيسُ من الطعام  
أُتقتلني إذا ما كنتُ حيّاً وتُحييني إذا رمت عظامي !  
فلقيه نَميلة بن عبد الله الليثي وهو من رهطه ، فضربه بالسيف حتى قتله ، فقالت أخته تريه :

لعمري لقد أخزى نَميلة رهطه وفجع أصناف النساء بمقيس  
فله عينا من رأى مثل مقيس إذا النفساء أصبحت لم تحرس<sup>(١)</sup>

وكان جُرم مقيس من قبل أن أخاه هاشم بن صُبابة أسلم وشهد المُرَيْسِع مع رسول الله صَلَّى الله عليه وآله ، فقتله رجل من رهط عبادة بن الصامت - وقيل : من بني عمرو ابن عوف وهو لا يعرفه - فظنّه من المشركين ، ففضى له رسول الله صَلَّى الله عليه وآله بالدية على العاقله ، فقَدِم مقيس أخوه المدينة فأخذ ديتَه ، وأسلم ، ثم عدا على قاتل أخيه ، فقتله ، وهرب مرتداً كافراً يَهْجُو رسول الله صَلَّى الله عليه وآله بالشَّعْر ، فأهدر دمه .

(١) يقال : خرس المرأة تخريساً ؛ إذا أطمعت في ولادتها ؛ والبيت في اللسان ( خرس ) .

قال الواقدي : فأما سارة مولاة بني هاشم - وكانت منغنية نواحة بمكة ، وكانت قد قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة تطلب أن يصليها ، وشكت إليه الحاجة وذلك بعد بدر وأحد - فقال لها : أما كان لك في غنائك ونياحك ما يُغنيك ! قالت : يا محمد ، إن قريشا منذ قُتل من قُتل منهم ببدر تركوا استماع الغناء ، فوصلها رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأقر لها بغيراً طعاماً ، فرجعت إلى قريش وهي على دينها ، وكانت يلتقى عليها هجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فتغني به ، فأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفتح أن تقتل ، فقتلت ، وأما قينتا ابن خطل فقتل يوم الفتح إحداها ، وهي أرب ، أو قرينة ، وأما قريبي فاستؤمن لها رسول الله صلى الله عليه وآله ، فأتمتها وعاشت حتى ماتت في أيام عثمان .

قال الواقدي : وقد روي أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر بقتل وحشي يوم الفتح ، فهرب إلى الطائف ، فلم يزل بها مقبياً حتى قدم مع وفد الطائف على رسول الله صلى الله عليه وآله ، فدخل عليه فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنت رسول الله ، فقال : أوحشي ؟ قال : نعم ، قال : اجلس وحدثني كيف قتلت حمزة ؟ فلما أخبره قال : قم وغيب عني وجهك ، فكان إذا رآه توارى عنه .

قال الواقدي : وحدثني ابن أبي ذئب ومعمّر عن الزُّهري ، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف ، عن أبي عمرو بن عدي بن أبي الحمراء ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول بعد فراغه من أمر الفتح وهو يريد الخروج من مكة : أما والله إنك لخير أَرْضِ الله ، وأحب بلادِ الله إليّ ، ولولا أن أهلك أخرجوني ما خرجتُ .

\*\*\*

وزاد محمد بن إسحاق في كتاب ” المغازي “ أن هند بنت عُتبة جاءت إلى رسول الله



صلى الله عليه وآله مع نساء قريش متنكرة متنقبة لخدمتها الذي كان في الإسلام ، وما صنعت بحمزة حين جدعته وبقرت بطنه عن كبده ؛ فهي تخاف أن يأخذها رسول الله صلى الله عليه وآله بخدمتها ذلك ، فلما دنت منه ، وقال حين بايعنه على ألا يُشركن بالله شيئا قلن : نعم ؛ قال : ولا يسرقن ، فقالت هند : والله أنا كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنية فما أعلم أحلال ذلك أم لا ! فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأنتك لهند ! قالت ، نعم ، أنا هند ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسول الله ، فاعفُ عما سلف عفا الله عنك ؛ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ولا يزينن ، فقالت هند : وهل تزي الحرة ! فقال : لا ، ولا يقتلن أولادهن ، فقالت هند : قد لعمري ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا بيد ، فأنت وهم أعرف . فصحك عمر بن الخطاب من قولها حتى أسفرت نواجذها ، قال : ولا يأتين بهتان [ يفتريته<sup>(١)</sup> ] ، فقالت هند : إن إتيان البهتان لقبيح ، فقال : ولا يعصينك في معروف ؛ فقالت : ما جلسنا هذه الجلسة ونحن نريد أن نعصيك .

قال محمد بن إسحاق : ومن جيد شعر عبد الله بن الزبير الذي اعتذر به إلى رسول الله صلى الله عليه وآله حين قدم عليه :

منع الرقاد بلابل وهموم      فالليل ممتد الرواق بهيم<sup>(٢)</sup>  
 مما أتاني أن أحمد لامني      فيه ، فبت كأني محوم  
 ياخير من حلت على أوصالها      عيرانة سرح اليدين سعموم<sup>(٣)</sup>

(١) من د .

(٢) سيرة ابن هشام ٤ : ٣٩ . البلابل : الوسواس المتخاطة . والبهيم : الذي لا ضياء فيه . وفي ابن هشام : « والليل معتلج الرواق » .  
 (٣) العيرانة : الناقة التي تشبه العير ( حمار الوحش ) في شدته ونشاطه . سرح اليدين : خفيتهما . وسعوم : سريعة . وفي ابن هشام : « غشوم » .

إِنِّي لَمُعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنَ الَّذِي  
أَسَدَيْتَ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِيمٌ<sup>(١)</sup>  
أَيُّنَ<sup>(٢)</sup> تَأْمُرُنِي بِأَغْوَى خُطَّةٍ  
سَهْمٌ ، وَتَأْمُرُنِي بِهِ مَخْرُومٌ  
وَأَمْدُ أَسْبَابِ الرَّدَى وَيَقُودُنِي  
أَمْرُ الْغَوَاةِ وَأَمْرُهُمْ مَشْتُومٌ  
فَالْيَوْمَ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ  
قَلْبِي ، وَنُحِيطُ هَذِهِ مَحْرُومٌ  
مَضَتْ الْعِدَاوَةُ وَانْقَضَتْ أَسْبَابُهَا  
وَدَعَتْ أَوَاصِرُ بَيْنِنَا وَحُلُومٌ<sup>(٣)</sup>  
فَانْغَرَفَ فِدَى لَكَ وَالَّذِي كَلَاهُمَا  
زَلَلِي ، فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومٌ  
وَعَلَيْكَ مِنْ عِلْمِ الْمَلِكِ عِلَامَةٌ  
نُورٌ أَعْرُ وَخَاتَمٌ مَخْتُومٌ  
أَعْطَاكَ بَعْدَ حَبَّةٍ بِرَهَانِهِ  
شَرَفًا وَبُرْهَانَ الْإِلَهِ عَظِيمٌ  
وَلَقَدْ شَهِدْتُ بِأَنَّ دِينَكَ صَادِقٌ  
بَرٌّ وَشَأْنُكَ فِي الْعِبَادِ جَسِيمٌ  
وَاللَّهُ يَشْهَدُ أَنَّ أَحْمَدَ مُصْطَفَى  
مُتَقَبَّلٌ فِي الصَّالِحِينَ كَرِيمٌ  
فَرَعٌ عَلا بَنِيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ  
دَوْحٌ تَمَكَّنَ فِي الْعَمَلِ وَأَرْوَمٌ<sup>(٤)</sup>

قال الواقدي : وفي يوم الفتح سمى رسول الله صلى الله عليه وآله أهل مكة الذين دخلها عليهم الطلقاء ، لئنه عليهم بعد أن أظفروه الله بهم ، فصاروا أرقاء له . وقد قيل له يوم الفتح : قد أمكنك الله تعالى نفذ ما شئت من أقارب على غصون - يعنون النساء ؛ فقال عليه السلام : يأتي ذلك إطعامهم الضيف ، وإكرامهم البيت ، ووجوهم مناحر الهدى .

\*\*\*

ثم نعود إلى تفسير ما بقى من ألفاظ الفصل<sup>(٥)</sup>؛ قوله : « فإن كان فيك تجمل فاسترِفِه »

(١) أسديت : صنعت . (٢) في د : « أيا » .

(٣) الخوم : جمع حلم ؛ وهو العقل . (٤) ابن هشام :

قرمٌ عَلا بَنِيَانُهُ مِنْ هَاشِمٍ فَرَعٌ تَمَكَّنَ فِي الدَّرَا وَأَرْوَمٌ

قال ابن هشام : « وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها » .

(٥) انظر ص ٢٥٠ من الجزء السابع عشر من هذا الكتاب

أى كن ذا رَفَاهِيَّة ، ولا تُرهِقَنَّ نَفْسَكَ بِالْمَجَل ، فلا بدَّ من لِقَاءِ بَعْضِنَا بِبَعْضٍ ، فَأَيَّ حَاجَةٍ بِكَ إِلَى أَنْ تَجْعَلَ ! ثُمَّ قَسَرَ ذَلِكَ فَقَالَ : إِنْ أُرُرُكَ فِي بِلَادِكَ ، أَى إِنْ غَزَوْتُكَ فِي بِلَادِكَ نَخْلِقُ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ بِمَشَى لِلانتقام منك ، وَإِنْ ذُرُرْنِي - أَى إِنْ غَزَوْتَنِي فِي بِلَادِي وَأَقْبَلْتَ بِجَمْعِكَ إِلَيَّ .

كُنْتُمْ . كَمَا قَالَ أَخُو بَنِي (١) أَسَدٌ ؛ كُنْتُ أَسْمَعُ قَدِيمًا أَنَّ هَذَا الْبَيْتَ مِنْ شِعْرِ بَشَرٍ بَنَى خَازِمَ الْأَسَدِيِّ ؛ وَالْآنَ فَقَدْ تَصَفَّحْتُ شَعْرَهُ فَلَمْ أَجِدْهُ ، وَلَا وَقَفْتُ بَعْدُ عَلَى قَائِلِهِ ، وَإِنْ وَقَفْتُ فَمَا يُسْتَقْبَلُ مِنَ الزَّمَانِ عَلَيْهِ الْحَقَّةُ .

وَرِيحٌ حَاصِبٌ ، تَحْمِلُ الْحَصْبَاءَ ، وَهِيَ صِغَارُ الْحَصَى ، وَإِذَا كَانَتْ بَيْنَ أَغْوَارٍ - وَهِيَ مَا سَقُلَ مِنَ الْأَرْضِ وَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ رِيحٌ صَيْفٍ - كَانَتْ أَعْظَمَ مَشَقَّةً ، وَأَشَدَّ ضَرَرًا عَلَى مَنْ تُلَاقِيهِ . وَجُلُودٌ ، يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى « حَاصِبٍ » ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ عَطْفًا عَلَى « أَغْوَارٍ » ، أَى بَيْنَ غَوْرٍ مِنَ الْأَرْضِ وَحَرَّةٍ ، وَذَلِكَ أَشَدُّ لِأَذَاهَا لِمَا تَكْسِبُهُ الْحَرَّةُ مِنَ لَفْحِ السَّمُومِ وَوَجْهِهَا . وَالْوَجْهَ الْأَوَّلَ أَلْيَقُ .

وَأَعْضَضْتُهُ أَى جَعَلْتُهُ مَمْضُوضًا بِرُءُوسِ أَهْلِكَ ، وَأَكْثَرَ مَا يَأْتِي « أَفْعَلْتُهُ » أَنْ تَجْعَلَهُ « فَاعِلًا » ، وَهِيَ هَا هُنَا مِنَ الْمَقْلُوبِ ، أَى أَعْضَضْتُ رُءُوسَ أَهْلِكَ بِهِ ، كَقَوْلِهِ : « قَدْ قَطَعَ الْجَبَلُ بِالْمَرْوَدِ » .

وَجَدُّهُ عُثْبَةُ بْنُ رَبِيعَةَ ، وَخَالُهُ الْوَلِيدُ بْنُ عُتْبَةَ ، وَأَخُوهُ حَنْظَلَةُ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ ، قَتَلَهُمْ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَوْمَ بَدْرٍ .

وَالْأَعْلَفَ الْقَلْبُ : الَّذِي لَا بَصِيرَةَ لَهُ ، كَأَنَّ قَابَهُ فِي غِلَافٍ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ﴾ (٢) .

(١) وَهُوَ قَوْلُهُ :

مُسْتَقْبِلِينَ رِيَّاحَ الصَّيْفِ تَضْرِبُهُمْ بِحَاصِبٍ بَيْنَ أَغْوَارٍ وَجُلُودٍ (٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ ٨٨ .

والمقارب العقل ، بالكسر : الذى ليس عقله بجيد ؛ والعامة تقول فيما هذا شأنه :  
مقارب ، بفتح الراء .

ثم قال : الأولى أن يقال هذه الكلمة لك .  
ونشدت الصالة : طلبتها ، وألشدتها : عرفتها ، أى طلبت ما ليس لك .  
والسائمة : المال الراعى ؛ والكلامُ خارجُ مخرج الاستمارة .

فإن قلت : كل هذا الكلام يطابق بمضه بمضاً إلا قوله : « فإ أبعاد قولك من فملك »  
وكيف استبعد عليه السلام ذلك ولا بُدَّ بينهما ، لأنه يَطْلُبُ الخلافة قولاً وفعلًا ! فأى بُدَّ  
بين قوله وفعله !

قلت : لأن فعله البغى ، والخروج على الإمام الذى ثبتت إمامته وصحت ، وتفريق جماعة  
المسلمين ، وشق العصا ، هذا مع الأمور التى كانت تظهر عليه وتقتضى الفسق ؛ من لبس  
الحرير ، والمنسوج بالذهب ، وما كان يتعاطاه فى حياة عثمان من المنكرات التى لم تثبت  
توبته منها ، فهذا فعله .

وأما قوله ؛ فرعه (١) أنه أمير المؤمنين ، وخليفة المسلمين ، وهذا القول بعيد من ذلك  
الفعل جدا .

و « ما » فى قوله : « وقريب ما أشبهت » مصدرية ، أى وقريب شبهك بأعمام وأخوال .  
وقد ذكرنا من قتل من بنى أمية فى حرُوب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما تقدم ، وإليهم  
الإشارة بالأعمام والأخوال ، لأن أخوال معاوية من بنى عبد شمس ، كما أنَّ أعمامه من  
بنى عبد شمس .

قوله : « ولم تماشها الهوينى » أى لم تصحبها ، يصفها بالسرعة والمضى فى الروس الأعناق

---

(١) : ١ : « لزمه » .

وأما قوله : « ادخل فيما دَخَلَ فيه الناسُ وحَاكِمِ القومَ » ، فهي الحُجَّةُ الَّتِي يَحْتَجُّ بِهَا أصحابُنا له في أَنَّهُ لم يُسَلِّمْ قَتْلَةَ عُمَانَ إلى معاويةَ ، وهي حُجَّةٌ صَحِيحَةٌ ، لأنَّ الإمامَ يجبُ أن يُطَاعَ ، ثمَّ يتحاكَمُ إليه أولياءُ الدِّمِّ والمُتَّهِمُونَ ، فإنَّ حَكَمَ بِالْحَقِّ استُدِّيتْ حُكُومَتُهُ ، وإِلَّا فَسَقَ وَبَطَلَتْ [ إِمَامَتُهُ <sup>(١)</sup> ] .

قوله : « فأما تلكَ الَّتِي تُرِيدُهَا » ؛ قيل : إِنَّهُ يريدُ <sup>(٢)</sup> التَّعَلُّقَ بِهَذِهِ الشَّيْءِ ، وهي قَتْلَةُ عُمَانَ ، وقيل : أَرَادَ بِهِ مَا كَانَ معاويةَ يَكْرُرُ طَلَبَهُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ أَنْ يَقِرَّ عَلَى الشَّامِ وَحْدَهُ ، وَلَا يَكْلِفَهُ الْبَيْمَةَ ، قَالَ : إِنَّ ذَلِكَ كَمُخَادَعَةِ الصَّبِيِّ فِي أَوَّلِ فِطَامِهِ عَنِ اللَّبَنِ بِمَا تَصْنَعُهُ النَّسَاءُ لَهُ مِمَّا يَكْرَهُ إِلَيْهِ الْتَدْيَ وَيُسْلِيهِ عَنْهُ ، وَيُرْغَبُهُ فِي التَّمَوُّصِ بِنِيرِهِ ، وَكِتَابُ معاويةَ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ لَمْ يَتَضَمَّنْ حَدِيثَ الشَّامِ .

(٢) لِي د « يعني » .

(١) مِنْ د .

(٦٥)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام إليه أيضا :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ آنَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِاللَّمَحِ الْبَاصِرِ مِنْ عِيَانِ الْأُمُورِ ، فَلَقَدْ سَلَكَتَ  
مَدَارِجَ أَسْلَافِكَ يَادِّعَائِكَ الْأَبَاطِيلَ ، وَافْتِحَاكِمَ غُرُورَ الْمَيْنِ وَالْأَكَاذِبِ ؛ مِنْ  
الْتِيحَالِكَ مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ ، وَابْتِزَازِكَ لِمَا قَدْ اخْتَرَنَ دُونَكَ ؛ فِرَارًا مِنَ الْحَقِّ ،  
وَجُحُودًا لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ ، مِمَّا قَدْ وَعَاهُ سَمُّكَ ، وَمِلَى بِهِ صَدْرُكَ ؛  
فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ، وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ !

فَاخْذَرِ الشُّبُهَةَ وَاشْتِمَالَهَا عَلَى لُبْسَتِهَا ، فَإِنَّ الْفِتْنَةَ طَالَمَا أَغْدَقَتْ جَلَابِيبَهَا ،  
وَأَغْشَتْ الْأَبْصَارَ ظُلُمَتُهَا . وَقَدْ أَنَا فِي كِتَابِ مِنْكَ ذُو أَفَانِينَ مِنَ الْقَوْلِ ضَعُفَتْ قُوَاهَا  
عَنِ السَّلَامِ ، وَأَسَاطِيرَ نَمَّ يَحْكُمُهَا عَنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ ، أَصْبَحْتَ مِنْهَا كَالْخَائِضِ  
فِي الدَّهَاسِ ، وَالْخَائِطِ فِي الدِّيمَاسِ ، وَتَرَقَّيْتَ إِلَى مَرْقَبَةٍ بِعِيدَةِ الْمَرَامِ ، نَازِحَةٍ  
الْأَعْلَامِ ، تَقْصُرُ دُونَهَا الْأَنْوُقُ ، وَيُحَاذِي بِهَا الْعِثُوقُ ؛ وَحَاشَ لِلَّهِ أَنْ تَلِيَ لِلْمُسْلِمِينَ  
مِنْ بَعْدِي صَدْرًا أَوْ وَرْدًا ، أَوْ أُجْرَى لَكَ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ عَقْدًا أَوْ عَهْدًا ! فَمِنْ الْآنَ  
فَتَدَارِكُ نَفْسَكَ وَانْظُرْ لَهَا ، فَإِنَّكَ إِنْ فَرَطْتَ حَتَّى يَنْهَدَ إِلَيْكَ عِبَادُ اللَّهِ أُرِيَتْ  
عَلَيْكَ الْأُمُورُ ، وَمُنِمَتْ أَمْرًا هُوَ مِنْكَ الْيَوْمَ مَقْبُولٌ ، وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

## البُخ :

أَن لَّكَ وَأُنَى لَّكَ بَعْمَى ، أَى قَرُبَ وَحَانَ ، تقول : أَن لَّكَ أَن تَفْعَلَ كَذَا يَثْنِيْنِ أَيُّنَا ،  
وقال :

أَلَمْ يَأْنِ أَنْ لِي تُجْلَ عَنِّي عَمَائِي وَأَقْصُرَ عَن لَيْلَى ، بَلَى قَدْ أُنَى لِيَا  
فَجَمَعَ بَيْنَ اللَّغْتَيْنِ ، و « أُنَى » مقلوبة عن « أَنْ » ؛ ورمما يجرى بجرى المثل قولهم لمن  
يُرُونَهُ شَيْئًا شَدِيدًا يُبْصِرُهُ وَلَا يَشْكُ فِيهِ : قد رَأَيْتُهُ لَهَا بَاصِرًا ، قالوا : أَى نظرا بِتَحْدِيقٍ  
شَدِيدٍ ، وَتَخْرُجُهُ مَخْرَجَ رَجُلٍ لَابِنٍ وَتَاصِرٍ ، أَى ذُو لَبَنٍ وَتَمَرٍ ، فمعنى « بَاصِر »  
ذُو بَصَرٍ ؛ يقول عليه السلام لمعاوية : قد حَانَ لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِمَا تَعْلَمُهُ مِنْ مَعَايِنَةِ الْأُمُورِ  
وَالْأَحْوَالِ وَتَتَحَقَّقَهُ يَقِينًا بِقَلْبِكَ ؛ كما يَتَحَقَّقُ ذُو اللَّحْمِ الْبَاصِرُ مَا يُبْصِرُهُ بِحَاسَّةٍ بَصِيرَةٍ ،  
وَأَرَادَ بَيَانِ الْأُمُورِ هَاهُنَا مَعَايِنَتَهَا ، وَهُوَ مَا يَعْرِفُهُ ضَرُورَةً مِنْ أَسْتَحْقَاقٍ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامِ  
لِلْخِلَافَةِ دُونَهُ ، وَبِرَأْيِهِ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ يَنْسُبُهَا إِلَيْهِ .

ثم قال له : « فَقَدْ سَلَكْتَ » ، أَى أَتَبَعْتَ طَرِيقَ أَبِي سُفْيَانَ أَيْبِكَ وَعُتْبَةَ جَدِّكَ  
وَأَمْثَالَهُمَا مِنْ أَهْلِكَ ذَوِي الْكُفْرِ وَالشَّقَاقِ .

وَالْأَبَاطِيلُ : جَمْعُ بَاطِلٍ عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ ، كَأَنَّهُمْ جَمَعُوا إِبْطِيلًا .

وَالْأَقْتِحَامُ : إِقْلَاءُ النَّفْسِ فِي الْأَمْرِ مِنْ غَيْرِ رَوِيَّةٍ .

وَالْمَبْنِ الْكَذِبُ . وَالْعُرُورُ بِالضَّمِّ الْمَصْدَرُ وَبِالْفَتْحِ الْأَسْمُ .

وَانْتَحَلْتُ الْقَصِيدَةَ ، أَى ادَّعَيْتُهَا كَذِبًا .

قال : « مَا قَدْ عَلَا عَنْكَ » ، أَى أَنْتَ دُونَ الْخِلَافَةِ ، وَلَسْتَ مِنْ أَهْلِهَا وَالْأَبْتَازِ :

الْأُسْتِلَابُ .

قال : « لما قد أخترن دونك » ، يعنى التسمى بإمرة المؤمنين .  
ثم قال : « فراراً من الحق » ، أى فعلت ذلك كله هرباً من التمسك بالحق والدين ،  
وجباً للكفر والشقاق والتغلب .

قال : « وجُحوداً لما هو ألزم » ، يعنى فرض طاعة على عليه السلام ، لأنه قد وعّاها  
سمّيه ؛ لا ريب في ذلك ، إمّا بالنص في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله كما تذكره  
الشيعة - فقد كان معاوية حاضراً يوم الغدير لأنه حجّ معهم حجة الوداع ، وقد كان أيضاً  
حاضراً يوم تبوك حين قال له بمحض من الناس كافة : « أنت منى بمنزلة هارون من  
موسى » ، وقد سُمع غير ذلك - وإمّا بالبيعة كما ذكره نحن فإنه قد اتصل به خبرها ،  
وتواتر عنده وقوعها ، فصار وقوعها عنده معلوما بالضرورة كعلمه بأن في الدنيا بلداً أسماها  
مصر ، وإن كان ما رآها .

والظاهر من كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنه يريد المعنى الأول ! ونحن نخرجه  
على وجه لا يلزم منه ما تقوله الشيعة ، فنقول : لفرض أن النبي صلى الله عليه وآله مانص  
عليه بالخلافة بعده ، أليس يعلم معاوية وغيره من الصحابة أنه لو قال له في ألف مقام : « أنا  
حرب لمن حاربت وسلم لمن سالمت » ، ونحو ذلك من قوله : « اللهم عاد من عاداه » ،  
والله من وآلاه » ، وقوله : « حربك حربى وسلمك سلمى » ، وقوله : « أنت مع الحق  
والحق معك » ، وقوله : « هذا منى وأنا منه » ، وقوله : « هذا أخى » ، وقوله : « يحب الله  
ورسوله » ، ويحبه الله ورسوله » ، وقوله : « اللهم ائتنى بأحب خلقك إليك » ، وقوله : « إنه  
ولى كل مؤمن [ ومؤمنه<sup>(١)</sup> ] بعدى » ، وقوله : فى كلام قاله : « خافى النمل » ، وقوله :  
« لا يحبّه إلا مؤمن ، ولا يُفِضْهُ إلا مُنَافِق » ، وقوله : « إن الجنة لتشتاق إلى أربعة » ، وجعله  
أولهم ؛ وقوله لعمار : « تقتلك الفئة الباغية » ، وقوله : « ستقاتل الناكثين والفاطيين



والمَارِقِينَ بِعِدِي » ، إلى غير ذلك مما يَطُولُ تَمْدَادُهُ جَدًّا ، ويحتاج إلى كتابٍ مفردٍ يُوضَعُ له ،  
أفما كان يَنْبَغِي لمعاويةَ أَنْ يَفْكَرَ في هذا ويتَأَمَّلَهُ ، وَيَخْشَى اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ ! فلعلَّه عليه السلام  
إلى هذا أشار بقوله : « وَجُحُودًا لِمَا هُوَ أَلْزَمُ لَكَ مِنْ لَحْمِكَ وَدَمِكَ مِمَّا قَدْ وَعَاه سَمْعُكَ ،  
وَمُلَىءَ بِهِ صَدْرُكَ » .

قوله : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ! ﴾ <sup>(١)</sup> كَلِمَةٌ مِنَ الْكَلَامِ الإِلَهِيِّ الْمُقَدَّسِ .  
قال : « وَبَعْدَ الْبَيَانِ إِلَّا اللَّبْسُ » ، يقال : لَبَّسْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ لَبْسًا ، أَيْ خَلَطْتُهُ ،  
وَالْمُضَارِعُ يَلْبِسُ بِالْكَسْرِ .

قال : « فَاحْذَرِ الشَّبَهَةَ وَأَشْتَاهَا » عَلَى اللَّبْسَةِ بِالضَّمِّ ، يُقَالُ فِي الْأَمْرِ لُبْسَةٌ أَيْ أَشْتَبَاهُ  
وَلَبَسَ بَوَاضِحٍ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ « أَشْتَاهَا » مُصَدَّرًا مُضَافًا إِلَى مُعَاوِيَةَ ، أَيْ أَحْذَرِ الشَّبَهَةَ  
وَأَحْذَرِ أَشْتَاهَا عَلَى اللَّبْسَةِ ، أَيْ ادَّرَاكَ بِهَا وَتَقَمَّصَكَ بِهَا عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْإِبْهَامِ  
وَالْأَشْتِبَاهِ ؛ وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مُصَدَّرًا مُضَافًا إِلَى ضَمِيرِ الشَّبَهَةِ فَقَطْ ، أَيْ أَحْذَرِ الشَّبَهَةَ  
وَأَحْتَوَاهَا عَلَى اللَّبْسَةِ الَّتِي فِيهَا .

وتقول : أَعْدَفْتُ الْمَرْأَةَ قِنَاعَهَا ، أَيْ أُرْسَلْتُهُ عَلَى وَجْهِهَا ، وَأَعْدَفَ اللَّيْلُ ، أَيْ أَرَخَى  
سُدُولَهُ ، وَأَصْلُ الْكَلِمَةِ التَّنْفِيطِيَّةُ .

وَالْجَلَابِيبُ : جَمْعُ جَلَبَابٍ ، وَهُوَ الثَّوبُ .

قال : « وَأَغَشَّتْ الْأَبْصَارَ ظُلُمَتُهَا » : أَيْ أَكْسَبَتْهَا الْمَشَى وَهُوَ ظِلْمَةُ الْعَيْنِ . وَرَوَى  
« وَأَغَشَّتْ » بِالْفَيْنِ الْمَعْجَمَةُ « ظُلُمَتُهَا » بِالتَّنْصِبِ ، أَيْ جَعَلَتْ الْفِتْنَةَ ظُلُمَتَهَا غِشَاءً لِلْأَبْصَارِ .  
وَالْأَفَانِينُ : الْأَسَالِيبُ الْمُخْتَلِفَةُ .

قوله : « ضَعُفَتْ قُوَاهَا عَنِ السَّلَمِ » ، أَيْ عَنِ الْإِسْلَامِ ، أَيْ لَا تَصْدُرُ تِلْكَ الْأَفَانِينُ

(١) سورة يونس : ٣٢ .

المختلطة عن مُسلم ، وكان كَتَبَ إِلَيْهِ يَطُوبُ مِنْهُ أَنْ يَفْرِدَهُ بِالشَّامِ ، وَأَنْ يُؤَلِّقَهُ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ ، وَالْأَيُّكَفَهُ الْحُضُورَ عِنْدَهُ . وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو : ﴿ اَدْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً ﴾ <sup>(١)</sup> ؛ وَقَالَ : لَيْسَ بِالْمَعْنَى بِهَذَا الصَّلَاحِ ، بَلِ الْإِسْلَامُ وَالْإِيمَانُ لَا غَيْرَ ، وَمَعْنَى « ضَعُفَتْ قُوَاهَا » ، أَيْ لَيْسَ لَتِلْكَ الطَّلَبَاتِ وَالذَّعَاوَى وَالشُّبُهَاتِ الَّتِي تَصْنَعُهَا كِتَابُكَ مِنَ الْقُوَّةِ مَا يَقْتَضِي أَنْ يَكُونَ الْمُتَمَسِّكُ بِهِ مُسْلِمًا ، لِأَنَّهُ كَلَامٌ لَا يَقُولُهُ إِلَّا مَنْ هُوَ ؛ إِمَّا كَافِرٌ مُنَافِقٌ أَوْ فَاسِقٌ ، وَالْكَافِرُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ ، وَالْفَاسِقُ أَيْضًا لَيْسَ بِمُسْلِمٍ - عَلَى قَوْلِ أَصْحَابِنَا - وَلَا كَافِرٌ .

ثُمَّ قَالَ : « وَأَسَاطِيرُ لَمْ يَحْكُهَا مِنْكَ عِلْمٌ وَلَا حِلْمٌ » ، الْأَسَاطِيرُ : الْأَبَاطِيلُ ، وَاحِدُهَا أُسْطُورَةٌ بِالضَّمِّ وَإِسْطَارَةٌ بِالْكَسْرِ وَالْأَلْفِ . وَحَوْكُ الْكَلَامِ : صَنْعَتُهُ وَنَظْمُهُ . وَالْحِلْمُ : الْمَقْلُ ، يَقُولُ لَهُ : مَا صَدَرَ هَذَا الْكَلَامُ وَالْهَجَرُ الْفَاسِدُ عَنْ عَالَمٍ وَلَا عَاقِلٍ .

وَمِنْ رَوَاهَا « الدَّهَّاسُ » بِالْكَسْرِ فَهُوَ جَمْعُ دَهَسَ ، وَمَنْ قَرَأَهَا بِالْفَتْحِ فَهُوَ مُفْرَدٌ ، يَقُولُ ؛ هَذَا دَهَسٌ وَدَهَّاسٌ بِالْفَتْحِ ، مِثْلُ لَبَثٌ وَلَبَّاثٌ لِلْمَكَانِ السَّهْلِ الَّذِي لَا يَبْغُخُ أَنْ يَكُونَ رَمْلًا ، وَلَيْسَ هُوَ بِتَرَابٍ وَلَا طِينٍ .

وَالدَّيَّاسُ بِالْكَسْرِ : السَّرْبُ الْمُظْلِمُ تَحْتَ الْأَرْضِ ، وَفِي حَدِيثِ الْمَسِيحِ : « إِنَّهُ سَبَّطَ الشَّعْرَ ، كَثِيرُ خَيْلَانِ الْوَجْهِ ، كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ دِيَّاسٍ » ، يَعْنِي فِي نَضْرَتِهِ وَكَثْرَةِ مَاءِ وَجْهِهِ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنْ كِنٍ ؛ لِأَنَّهُ قَالَ فِي وَصْفِهِ : كَأَنَّ رَأْسَهُ يَقْطُرُ مَاءً ، وَكَانَ لِلْحِجَابِ سِجْنٌ أَسْمَهُ الدَّيَّاسُ لُظْلُمَتِهِ ، وَأَصْلُهُ مِنْ دَمَسَ الظَّلَامَ يَدْمُسُ أَيْ اشْتَدَّ ، وَلِيلٌ دَامِسٌ وَدَامُوسٌ ، أَيْ مُظْلَمٌ : وَجَاءَنَا فَلَانٌ بِأُمُورِ دُمُسَ ، أَيْ مُظْلِمَةٌ عَظِيمَةٌ ، يَقُولُ لَهُ : أَنْتَ فِي كِتَابِكَ هَذَا كَالْخَائِضِ فِي تِلْكَ الْأَرْضِ الرَّخْوَةِ ، وَتَقُومُ وَتَقَعُ وَلَا تَتَخَلَّصُ ، وَكَالْخَائِضِ فِي اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يَمُتُّ وَيَنْهَضُ وَلَا يَهْتَدِي الطَّرِيقَ .

(١) سورة البقرة ٢٠٨ وانظر تفسير القرطبي ٣ : ٢٣ .

والمَرْقَبَةُ : الموضعُ العالى . والأعلام : جمع عَلَم ، وهو ما يُهْتَدَى به فى الطَّرَقات من المَنَار ، يقول له : سَمَتْ هَمَّتَكَ إِلَى دَعْوَى الْخِلاَفَةِ ، وهى مِنْكَ كالمَرْقَبَةِ الَّتِى لَا تُرَامُ بِتَعَدُّ عَلَى مَنْ يَطْلُبُهَا ، وَلَيْسَ فِيهَا أَعْلَامٌ تَهْدِى إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِهَا ، أَى الطَّرِيقُ إِلَيْهَا غَامِضَةٌ ، كَالْجَبَلِ الْأَمْلَسِ الَّذِى لَيْسَ فِيهِ دَرَجٌ وَمَرَاقٍ يُسَلَّكَ مِنْهَا إِلَى ذِرْوَتِهِ .

وَالْأُنُوقُ عَلَى « فَعُول » بِالْفَتْحِ كَأَكُولٍ وَشَرَّابٍ : طَائِرٌ ، وَهُوَ الرَّخِمَةُ . وَفِى الْمَثَلِ : « أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الْأُنُوقِ » ؛ لِأَنَّهَا تُحَرِّزُهُ وَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يَظْفَرُ بِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ أَوْكَارَهَا فِى رُءُوسِ الْجِبَالِ وَالْأَمَاكِنِ الصَّعْبَةِ الْبَعِيدَةِ .

وَالْمَعْيُوقُ : كَوَكَبٌ مَعْرُوفٌ فَوْقَ زُحَلٍ فِى الْعُلُوِّ ، وَهَذِهِ أَمْثَالٌ ضَرَبَهَا فِى بُعْدِ مَعَاوِيَةَ عَنِ الْخِلاَفَةِ .

ثُمَّ قَالَ : « حَاشَ لِلَّهِ أَنْ أَوْلِيَّكَ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدِى » ، أَى مَعَاذَ اللَّهِ ، وَالْأَصْلُ إِثْبَاتُ الْآلِفِ فِى « حَاشَا » ، وَإِنَّمَا اتَّبَعَ فِيهَا الْمَصْحُوفُ .  
وَالْوَرْدُ وَالصَّدْرُ : الدَّخُولُ وَالْخُرُوجُ ، وَأَصْلُهُ ، فِى الْإِبِلِ وَالْمَاءِ . وَيَنْهَدُ إِلَيْكَ عِبَادُ اللَّهِ ، أَى يَنْهَضُ . وَأَرْتَجِّحُ عَلَيْكَ الْأُمُورُ : أَغْلِقْتُ .

وَهَذَا الْكِتَابُ هُوَ جَوَابُ كِتَابِ وَصَلٍ مِنْ مَعَاوِيَةَ إِلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ قَتْلِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْخَوَارِجُ ، وَفِيهِ تَلْوِيحٌ بِمَا كَانَ يَقُولُهُ مِنْ قَبْلُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ وَعَدَنِي بِقِتَالِ طَائِفَةٍ أُخْرَى غَيْرِ أَصْحَابِ الْبَجَلِ وَصِفِّينَ ، وَإِنَّهُ سَمَّاهُمُ الْمَارِقِينَ ، فَلَمَّا وَقَعَتْ عَلَيْهِمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْبَهْرَوَانِ وَقَتَلَهُمْ كُلَّهُمْ يَوْمَ وَاحِدٍ وَهُمْ عَشْرَةُ آلَافٍ فَارِسٍ أَحَبَّ أَنْ يَذْكُرَ مَعَاوِيَةَ بِمَا كَانَ يَقُولُ مِنْ قَبْلُ ، وَوَعَدُهُ بِهِ أَصْحَابَهُ وَخَوَاصَّهُ ، فَقَالَ لَهُ : قَدْ آتَى لَكَ أَنْ تَنْتَفِعَ بِمَا حَاطَتْ وَشَاهَدَتْ مَعَايِنَةً وَمُشَاهَدَةً ، مِنْ صَدَقِ الْقَوْلِ الَّذِى كُنْتُ أَقُولُهُ لِلنَّاسِ وَيَلْفَنُكَ فَتَسْتَهْزِئُ بِهِ .

(٦٦)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبدالله بن العباس ، وقد تقدم ذكره  
بخلاف هذه الرواية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَفْرَحُ بِالشَّيْءِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَيَفُوتُهُ ، وَيَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ  
الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَيُصِيبُهُ ، فَلَا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ فِي نَفْسِكَ مِنْ دُنْيَاكَ هُلُوعُ لَذَّةٍ ،  
أَوْ شِفَاءُ غَيْظٍ ؛ وَلَكِنْ إِطْفَاءُ بَاطِلٍ ، وَإِحْيَاءُ حَقٍّ .  
وَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا قَدَّمْتَ ، وَأَسْفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ ، وَهَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ .

\*\*\*

الشرح :

هذا الفصل قد تقدم شرح نظيره ، وليس في ألفاظه ولا معانيه ما يفتقر إلى تفسير ،  
ولكننا سنذكر من كلام الحكماء والصالحين كلمات تناسبه .

[ نبذ من كلام الحكماء ]

فمن كلام بعضهم : ما قُدِّرَ لك أُنَاكَ ، وما لم يُقَدَّرْ لك تَمَدَّاكَ ، فَعَلَامَ تَفْرَحُ بِمَا لَمْ  
يَكُنْ بَدَلًا مِنْ وَصُولِهِ إِلَيْكَ ، وَعَلَامَ تَحْزَنُ بِمَا لَمْ يَكُنْ لِيَقْدَمَ عَلَيْكَ !  
ومن كلامهم : الدنيا تقبل إقبال الطالب ، وتدبر إدبار الهارب ، وتصل وصال المهالك ،  
وتفارق فراق المبعض الفارك ، نغيرها يسير ، وعيشها قصير ، وإقبالها خدعة ، وإدبارها

فَجُمِعَ ، وَلَذَّاتُهَا فَانِيَةٌ ، وَتَبِعَاتُهَا بَاقِيَةٌ ، فَاعْتَنِمِ غَفْلَةَ الزَّمَانِ ، وَانْتَهِزْ فُرْصَةَ الْإِمْكَانِ ،  
وَخُذْ مِنْ نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ ، وَتَزَوَّدْ مِنْ يَوْمِكَ لَعَدِّكَ قَبْلَ نَفَادِ الْمُدَّةِ ، وَزَوَالِ الْقُدْرَةِ ،  
فَلِكُلِّ امْرَأٍ مِنْ دُنْيَاهُ مَا يَنْفَعُهُ عَلَى عِمَارَةِ أُخْرَاهُ .

وَمِنْ كَلَامِهِمْ : مَنْ نَكَدَ الدُّنْيَا أَنَّهَا لَا تَبْقَى عَلَى حَالَةٍ ، وَلَا تَخْلُو مِنْ اسْتِحَالَةٍ ،  
تُصْلِحُ جَانِبًا بِإِفْسَادِ جَانِبٍ ، وَتُسَرُّ صَاحِبًا بِمَسَاءَةِ صَاحِبٍ ؛ فَالْسَّكُونُ فِيهَا خَطَرٌ ،  
وَالثِّقَّةُ إِلَيْهَا غَرَرٌ ، وَالْإِلْتِجَاءُ إِلَيْهَا مُحَالٌ ، وَالْاعْتِمَادُ عَلَيْهَا ضَلَالٌ .

وَمِنْ كَلَامِهِمْ : لَا تَبْتَهِجَنَّ لِنَفْسِكَ بِمَا أَدْرَكَتَ مِنْ لَذَّاتِهَا الْجَسْمَانِيَّةِ ، وَابْتَهِجْ لَهَا  
بِمَا تَنَالَهُ مِنْ لَذَّاتِهَا الْعَقْلِيَّةِ . وَمَنِ الْقَوْلُ بِالْحَقِّ ، وَالْعَمَلُ بِالْحَقِّ ، فَإِنَّ اللَّذَّاتِ الْحَسَنِيَّةَ  
خَيَالٌ يَنْفَدُ ، وَالْمَعَارِفُ الْعَقْلِيَّةُ بَاقِيَةٌ بَقَاءَ الْأَبَدِ .

(٦٧)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة :

أَمَّا بَعْدُ ، فَأَقِمْ لِلنَّاسِ الْحَجَّ ، وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ، وَاجْلِسْ لَهُمُ الْعَصْرَيْنِ ،  
فَأَقِمْ الْمُسْتَفْتَى ، وَعَلِّمِ الْجَاهِلَ ، وَذَكِّرِ<sup>(١)</sup> الْعَالِمَ ، وَلَا يَكُنْ لَكَ إِلَى النَّاسِ سَفِيرٌ  
إِلَّا لِسَانَكَ ، وَلَا حَاجِبٌ إِلَّا وَجْهَكَ .

وَلَا تَصْجُبَنَّ ذَا حَاجَةٍ عَنْ لِقَائِكَ بِهَا ، فَإِنَّهَا إِنْ ذِيدَتْ عَنْ أَبْوَابِكَ فِي أَوَّلِ وِرْدِهَا  
لَمْ تُحْمَدَ فِيمَا بَعْدُ عَلَى قَضَائِهَا .

وَانْظُرْ إِلَى مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ مِنْ مَالِ اللَّهِ فَاصْرِفْهُ إِلَى مَنْ قَبْلَكَ مِنْ ذَوِي الْعِيَالِ  
وَالْمَجَاعَةِ ، مُصِيبًا بِهِ مَوَاضِعَ الْمَفَاقِرِ وَالْخَلَّاتِ ، وَمَا فَضَّلَ عَنْ ذَلِكَ فَأَحْمِلْهُ إِلَيْنَا  
لِنَقْسِمَهُ فِيمَنْ قَبْلَنَا .

وَمُرْ أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ سَارِكِنٍ أَجْرًا ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ :  
﴿ سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ﴾<sup>(٢)</sup> فَالْعَاكِفُ : الْمُقِيمُ بِهِ ، وَالْبَادِ : الَّذِي يَخْجُجُ إِلَيْهِ  
مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِ ، وَفَقَّمَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِمَحَابَّتِهِ ؛ وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

(١) في د « وذكر » . (٢) سورة الحج ٢٥ .

## الشَّيْخُ :

قد تقدّم ذكر مُقَمِّ ونسبه . أمّره أن يقيم للناس حجّهم ، وأن يذكرهم بأيّام الله ،  
وهي أيّام الإِنعام ، وأيّام الانتقام ، لتحصّل الرغبة والرّغبة .

واجلس لهم المصّرين : الفدّة والعشّى .

ثمّ قسّم له ثمرة جلوسه لهم ثلاثة أقسام : إمّا أن يفتى مُستفتياً من العامّة في بعض  
الأحكام ، وإمّا أن يعلم متعلّماً يطلب الفقه ، وإمّا أن يُذكر<sup>(١)</sup> علماً ويُباحتّه ويُفاوضه ،  
ولم يذكّر السياسة والأُمور السّلطانيّة لأنّ غرضه متعلّق بالحجّيج ، وهم أضيافه ، يقيمون  
لِإلى سيرة ويقفون ؛ وإنّما يذكّر السياسة وما يتعلّق بها فيما يرجع إلى أهل مكّة ، ومن  
يدخل تحت ولايته دائماً ، ثمّ نهاه عن توسّط السّفراء والحجّاب بينه وبينهم ، بل يلغى  
أن يكون سفيره لسانه ، وحاجّته وجهه ، ورؤى « ولا يكن إلّا لسانك سفيراً لك إلى  
الناس » يجعل « لسانك » اسم كان مثل قوله : ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ﴾<sup>(٢)</sup> ،  
والرواية الأولى هي المشهورة ، وهو أن يكون « سفيراً » اسم كان ، و « لك » خبرها ،  
ولا يصحّ ما قاله الروانديّ : إنّ خبرها « إلى الناس » ، لأنّ « إلى » هاهنا متعلّقة بنفس  
« سفير » ، فلا يجوز أن تكون الخبر عن « سفير » ، تقول : سفرتُ إلى بنى فلان في الصّبح ،  
وإذا تعلّق حرف الجرّ بالكلمة صار كالشيء الواحد .

ثمّ قال : فإنّها إن زِيدت أى طُرِدَت ودُفِعَت .

كان أبو عباد ثابتُ بن يحيى كاتبُ المأمون إذا سئل الحاجة يشتم السائل ، ويسطو  
عليه ويُخجله ، ويُبَكِّكته ساعة ثمّ يأمر له بها ؛ فيقوم وقد صارت إليه ، وهو يذمّه ويلعنه  
قال عليّ بن جبلة الكوكب :

(١) في « يذكر » . (٢) سورة النمل ٥٦ .

لَعَنَ اللَّهُ أَبَا عَبَّادَ لَعْنًا يَتَوَالَى  
يُوسِعُ السَّائِلَ شِمَاءً ثُمَّ يُعْطِيهِ السَّوَالَا

وكان الناسُ يَقِفُونَ لِأَبِي عَبَّادٍ وقتَ رُكُوبِهِ ، فيتقدّم الواحدُ منهم إليه بقصّته ليناوله  
إِيَّاهَا ، فيركّله بِرِجْلِهِ بِالرَّكَّابِ ، وَيَضْرِبُهُ بِسَوْطِهِ ، وَيَطِيرُ غَضَبًا ، ثُمَّ لَا يَنْزِلُ عَنْ فَرْسِهِ  
حَتَّى يَقْضَى حَاجَتَهُ ، وَيَأْمُرُ لَهُ بِطَلْبَتِهِ ، فينصرف الرجلُ بِهَا وهو ذَائِمٌ لَهُ سَاخِطٌ عَلَيْهِ ؛  
فَقَالَ فِيهِ دِعْبَلُ :

أَوَّلَى الْأُمُورِ بِضَيْمَةٍ وَفُسَادٍ	مُلْكٌ يَدْبُرُهُ أَبُو عَبَّادٍ <sup>(١)</sup>
مَتَعَمَّدٌ بِدَوَاتِهِ جُلَسَاءَهُ <sup>(٢)</sup>	فَضْرَجٌ وَخُضْبٌ بِمَدَادٍ
وَكَأَنَّهُ مِنْ دَيْرٍ هَزَقْلٍ مُفْلَتٌ	حَرْبٌ يَجْرُ سَلَاسِلُ الْأَفْيَادِ <sup>(٣)</sup>
فَأَشَدُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ صِنَادَهُ	بِأَشَدِّ مِنْهُ فِي يَدِ الْحَدَادِ

وَقَالَ فِيهِ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ :

قَالَ لِلْخَلِيفَةِ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ	قَيِّدْ وَزِيرَكَ إِنَّهُ رَكَالٌ
فَلَسَوْطُهُ بَيْنَ الرُّءُوسِ مَسَالِكُ	وَلَرِجْلُهُ بَيْنَ الصُّدُورِ مَجَالٌ

وَالْمَفَاقِرُ : الْحَاجَاتُ ؛ يُقَالُ : سَدَّ اللَّهُ مَفَاقِرَهُ ، أَيْ أَعْنَى اللَّهُ فَقْرَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَأْمُرَ  
أَهْلَ مَكَّةَ أَلَّا يَأْخُذُوا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْحَاجِّينَ أَجْرَةَ مَسْكَنٍ ، وَاحْتِجَّ عَلَى ذَلِكَ بِالْآيَةِ ،  
وَأَصْحَابُ أَبِي حَنِيفَةَ يَتَمَسَّكُونَ بِهَا فِي امْتِنَاعِ بَيْعِ دُورِ مَكَّةَ وَإِجَارَتِهَا ، وَهَذَا بِنَاءٌ عَلَى أَنَّ

(١) ديوانه ٧١ ، وروايته : « أَمْرٌ يَدْبُرُهُ أَبُو عَبَّادٍ » وبعده هناك :

خِرْقٌ عَلَى جُلَسَائِهِ فَكَأَنَّهُمْ حَضَرُوا لِلْحَمَةِ وَيَوْمَ جَلَادٍ

(٢) الديوان : « يَسْطُو عَلَى كِتَابِهِ بِدَوَاتِهِ » .

(٣) الديوان : « حَرْدٌ » وَدِيرُ هَزَقْلٍ : مَجْتَمِعُ الْمَجَانِينَ كَانَ .



المسجد الحرام هو مَكَّة كلها ، والشافعي يرى خلاف ذلك ، ويقول : إنه الكعبة ، ولا يمنع من بيع دور مَكَّة ولا إيجارها ، ويحتج بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ ﴾<sup>(١)</sup> ، وأصحاب أبي حنيفة يقولون : إنها إضافة اختصاص لا إضافة تملك ، كما تقول : جلّ الدابة ، وقرأ « سواء » بالنصب على أن يكون أحد مفعولي « جعلنا » أى جعلناه مُستويّاً فيه الماكف والباد ، ومن قرأ بالرفع جعل الجملة هي<sup>(٢)</sup> المفعول الثاني .

---

(١) الحج ٤ . (٢) في د « على » .

(٦٨)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسي رحمه الله قبل أيام خلافته:

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّمَا مَثَلُ الدُّنْيَا مَثَلُ<sup>(١)</sup> الْحَيَّةِ ، لَيِّنٌ مَسْهًا ، قَاتِلٌ سَمُهَا ، فَأَعْرِضْ عَمَّا يُمِجُّكَ فِيهَا ، لِقَلِيلٍ مَا يَصْحَبُكَ مِنْهَا ، وَضَعْ عَنْكَ هُمُومَهَا ، لِمَا أَيْقَنْتَ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا ، وَتَصَرَّفْ حَالَاتِهَا ، وَكُنْ آتِسَ مَا تَكُونُ بِهَا أَحَدَرُ مَا تَكُونُ مِنْهَا ، فَإِنَّ صَاحِبَهَا كُلَّمَا أَطْمَأَنَّ فِيهَا إِلَى سُرُورٍ أَشْخَصَتْهُ إِلَى مَخْذُورٍ ، أَوْ إِلَى إِيْنَاسٍ أَزَالَتْهُ عَنْهُ إِلَى إِيْحَاشٍ ، وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

[ سلمان الفارسي وخبر إسلامه ]

سَلْمَانٌ ، رَجُلٌ مِنْ فَارِسَ مِنْ رَامَهْرُمُزٍ ؛ وَقِيلَ : بَلْ مِنْ أَصْبَهَانَ ، مِنْ قَرِيْبٍ يُقَالُ لَهَا جَبِّي ، وَهُوَ مَعْدُودٌ مِنْ مَوَالِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ؛ وَكُنِيْتُهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ، وَكَانَ إِذَا قِيلَ : ابْنُ مَنْ أَنْتَ ؟ يَقُولُ : أَنَا سَلْمَانُ ، ابْنُ الْإِسْلَامِ ، أَنَا مِنْ بَنِي آدَمَ .  
وَقَدْ رُوِيَ أَنَّهُ قَدْ تَدَاوَلَهُ أَدْبَابُ كَثِيْرَةٍ ، بَضْعَةَ عَشَرَ رَبَّآ ؛ مِنْ وَاحِدٍ إِلَى آخَرٍ حَتَّى أَفْضَى إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ<sup>(٢)</sup> .

وَرَوَى أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ "الاسْتِيعَابِ" ، أَنَّ سَلْمَانَ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ

(١) فِي د « كَتَل » .

(٢) الْإِسْتِيعَابُ ٦٣٤ وَمَا بَعْدَهَا (طَبْعَةٌ نَهْضَةُ مِصْرَ) ، وَبَعْدَهَا هُنَاكَ : « وَمِنْ اللَّهِ عَلَيْهِ بِالإِسْلَامِ » .

صلى الله عليه وآله بصَدَقَةٍ ، فقال : هذه صدقةٌ عليك وعلى أصحابك ، فلم يَقْبَلْهَا ، وقال :  
إنه لا تَحِلُّ لنا الصدقة ، فرفعها ، ثم جاء من الغد بِمِثْلِهَا وقال : هَدِيَّةٌ هذه ، فقال لأصحابه : كلوا .  
وأشتراه من أربابه ، وهم قومٌ يهود بدراهم ، وعلى أن يَغْرِسَ لهم من النخيل كذا  
وكذا ، وَيَعْمَلُ فيها حتى تُدْرِكَ ، فغرس رسولُ الله صلى الله عليه وآله ذلك النخل كله بيده  
إِلَّا نَخْلَةً واحدة غرسها عمرُ بنُ الخطاب ، فأطعم النخل كله إِلَّا تلك النخلة ، فقال رسولُ  
الله صلى الله عليه وآله : « مَنْ غرسها ؟ » قيل : عمر ؛ فقلعها وغرسها رسولُ الله صلى الله  
عليه وآله بيده فأطعمت (١) .

قال أبو عمر : وكان سلمانُ يَسِفُّ (٢) الخوص وهو أميرٌ على المدائن وَيَبِيعُهُ وَيَأْكُلُ  
منه : ويقول : لا أَحِبُّ أن آكُلَ إِلَّا من كَمَلِ يَدِي ، وكان قد تعلم سَفَّ الخوص  
من المدينة .

وأوّل مشاهيده الخندق ، وهو الَّذِي أشار بحفره ، فقال أبو سُفْيَان وأصحابه لما رأوه :  
هذه مَكِيدَةٌ ما كانت العرب تَكِيدُهَا .

قال أبو عمر : وقد رَوَى أن سَلْمَانَ شَهِدَ بَدْرَ وَأُحُدَ ، وهو عبدٌ يومئذٍ ؛ والأكثر أن  
أوّل مشاهيده الخندق ، ولم يَفْتَهُ بعد ذلك مَشْهَدٌ .

قال : وكان سَلْمَانُ خَيْرًا ، فاضلاً ، حَبْرًا ، عالماً ، زاهداً ، متقشفاً .

قال : وذَكَرَ هشامُ بنُ حَسَّانٍ عن الحسنِ البَصْرِيِّ ، قال : كان عطاءُ سَلْمَانَ خَمْسَةَ  
آلَافٍ ، وكان إذا خرج عطاؤه تصدَّقَ به ، ويَأْكُلُ من كَمَلِ يَدِهِ ، وكانت له عِبَادَةٌ يَفْرِشُ  
بعضها وَيَلْبَسُ بعضها .

---

(١) بعدها في الاستيعاب : « من عامها » .

(٢) يسف الخوص ، أى ينسجه ، وفي اللسان : « وفي حديث أبي ذر ، قالت له امرأة : ما في بيتك سفة  
ولا هفة ؛ السفة : ما يسف من الخوص كالزبيل ونحوه » .

قال : وقد ذكر ابن وهب وابن نافع أن سلمان لم يكن له بيت ، إنما كان يستظلُّ بالجُدُرِ والشَّجَرِ ، وأن رجلاً قال له : ألا أبيع لك بيتاً تسكن فيه ؟ قال : لا حاجة لي في ذلك ؛ فما زال به الرجل حتى قال له : أنا أعرف البيت الذي يوافقك ؛ قال : فصِّفه لي ، قال : أبيعني لك بيتاً إذا أنت قت فيه أصاب رأسك سقْفُهُ ، وإن أنت مددت فيه رجلك أصابهما [ الحِدار <sup>(١)</sup> ] ؟ قال : نعم ، فبعتني له .

قال أبو عمر : وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله من وجوه أنه قال : « لو كان الدين في التريا لناله سلمان » ، وفي رواية أخرى « لناله رجل من فارس » .  
قال : وقد رويانا عن عائشة قالت : كان لسلمان مجلس من رسول الله صلى الله عليه وآله يفرد به بالليل حتى كاد يغلبنا على رسول الله صلى الله عليه وآله .  
قال : وقد روى من حديث ابن بريدة ، عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : « أمرني ربي بحب أربعة ، وأخبرني أنه يحبهم : علي ، وأبو ذر ، والمقداد ، وسلمان » .

قال : وروى قتادة عن أبي هريرة ، قال : « سلمان صاحب الكتابين » يعني الإنجيل والقرآن .

وقد روى الأعمش ، عن عمرو بن مرة ، عن أبي البختري ، عن علي عليه السلام أنه سئل عن سلمان فقال : علم الأول ، والعلم الآخر ، ذاك بحر لا يُزَف ، وهو منا أهل البيت .

قال : وفي رواية زاذان ، عن علي عليه السلام : سلمان الفارسي كقمان الحكيم .

قال : وقال فيه كعب الأخبار : سلمان حسي علما وحكمة .

قال: وفي الحديث المروي أن أبا سفيان مرَّ على سلمان وصهيب وبلال في نفرٍ من المسلمين فقالوا: ما أخذتِ السيوفُ من عُقُودِ الله مأخذَها - وأبو سفيان يسمع قولهم - فقال لهم أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدها! وأتى النبي صلى الله عليه وآله وأخبره فقال: يا أبا بكر، لعلك أغضبتهُم! لئن كنتَ أغضبتهُم لقد أغضبتَ الله، فأثام أبو بكر، فقال أبو بكر: يا إخوتاه، لعلِّي أغضبتُكم! قالوا: لا يا أبا بكر، يَغْفِرُ الله لك . قال: وآخَى رسولُ الله صلى الله عليه وآله بينه وبين أبي الدرداء لما آخَى بين المسلمين .

قال: ورسلان فضائلُ جَمَّة ، وأخبارُ حسان ؛ وتوفى في آخرِ خلافةِ عُثمان سنة خمس وثلاثين ؛ وقيل : توفى في أوَّل سنة ستِّ وثلاثين . وقال قوم : توفى في خلافة عمر ، والأوَّل أكثر .

\*\*\*

وأما حديثُ إسلام سلمان فقد ذكره كثيرٌ من المحدثين<sup>(١)</sup> وروَّوه عنه، قال : كنتُ ابنُ دِهقانٍ<sup>(٢)</sup> قرية جَنٍّ من أصبهان ، وبلغ من حُبِّ أبي لي أن حبسني في البيت كما تحبس الجارية ، فأجتهدتُ في الموسيعة حتى صرتُ قطن<sup>(٣)</sup> بيت النار ، فأرسلني أبي يوماً إلى صَيمَةٍ له ، فردتُ بكنيسة النصراني ، فدخلتُ عليهم ، فأعجبني صلاتهم ، فقلت : دين هؤلاء خير من ديني ؛ فسألتهُم : أين أصلُ هذا الدين ؟ قالوا : بالشام ، فهرَّبتُ من والدي حتى قسِمتُ الشام ، فدخلتُ على الأسقف<sup>(٤)</sup> فجعلتُ أخدمه وأتعلم منه ، حتَّى حضرته الوفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ تُوصي بي ؟ فقال : قد هلك الناس وترَكُوا دينهم إلا رجلاً بالموصل فالحقُّ به ، فلَمَّا قَصَى نَجْبَه لحقتُ بذلك الرجل

(١) وقد ذكر خبر إسلامه أيضا ابن هشام ؛ أوردته في السيرة ١ : ٢٣٣ - ٢٤٢ .

(٢) الدهقان : شيخ القرية في بلاد فارس .

(٣) قطن النار : خادمها .

(٤) الأسقف : من وظائف النصرانية ، وهو فوق القسيس ودون المطران .

فلم يَلْبَثْ إِلَّا قليلا حتى حضرته الوفاة ، فقلتُ : إلى مَنْ تُوصي بي ؟ فقال : ما أعلم رجلا بقى على الطريقة المستقيمة إِلَّا رجلا بنصيبين ، فلحقتُ بصاحب نصيبين . قالوا : وتلك الصَّومعة اليوم باقية ، وهي التي تعبد فيها سَلَمَانٌ قبلَ الإسلام . قال : ثمَّ احتضِر صاحب نصيبين ، فَبِمَشْنَى إلى رجل بِمَمُورِيَّةٍ من أرض الروم ، فَأَتَيْتُهُ وَأَقَمْتُ عنده ، واكتسبتُ بُقَيْرَاتٍ وَغَنَمِيَّاتٍ ، فلما نَزَلَ به الموت قلتُ له : بَمَنْ تُوصي بي ؟ فقال : قد ترك الناسُ دينَهُمْ ، وما بقى أَحَدٌ منهم على الحقِّ ؛ وقد أَظَلَّ زمانُ نبيِّ مَبْعُوثٍ بدينِ إبراهيمَ ، يُخْرِجُ بأرض العرب مهاجرا إلى أرض بين حَرَّتَيْنِ ، لها نَخْلٌ ، قلتُ : فما علامته ؟ قال : يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة ، بين كَتِفَيْهِ خَاتَمُ النبوة .

قال : ومر بي رَكَبٌ من كَلْبٍ ، فخرجتُ معهم ، فلما بلغوا بي وادى القُرَى ظَلَمُونِي وَبَاعُونِي من يهوديٍّ ، فَكُنْتُ أَعْمَلُ له في زَرْعِهِ ونَحْلِهِ ، فبينما أنا عنده إذ قَدِمَ ابنُ عمِّ له ، فابتناعني منه ، وحملني إلى المدينة ، فوالله ما هو إِلَّا أن رأيتها ففرقتها ، وبعث الله محمدا بمكة ، ولا أعلم بشيء من أمره ، فبينما أنا في رأس نخلة إذ أقبل ابنُ عمِّ لسَيِّدِي ، فقال : قاتل الله بني قَيْلَةَ ، قد اجتمعوا على رَجُلٍ بِقُبَاءٍ قدم عليهم من مَكَّة ، يزعمون أنه نبيٌّ ؛ قال : فَأَخَذَنِي القُرَى والانتفاض ، ونزلتُ عن<sup>(١)</sup> النخلة ، وجعلتُ أَسْتَقْصِي في السَّوَالِ ، فما كَلَّمَنِي سَيِّدِي بكلمة ، بل قال : أَقْبِلْ على شَأْنِكَ ، ودَعْ ما لا يَعْنِيكَ . فلما أَمْسَيْتُ أَخَذْتُ شَيْئًا كان عندي من التمر ، وَأَتَيْتُ به النبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فقلتُ له : بلغني أنك رجلٌ صالحٌ ، وأن لك أصحابًا غُرَبَاءَ ذَوِي حَاجَةٍ ، وهذا شيء عندي للصدقة ، فرأيتكم أَحَقَّ به مِن غيركم ، فقال عليه السلام لأصحابه : كلوا ، وأمسك فلم يأكل ؛ فقلتُ في نفسي : هذه واحدة ، وانصرفتُ ، فلما كان من الغد أَخَذْتُ ما كان بقيَ عندي وَأَتَيْتُهُ به ، فقلتُ له : إني رأيتك لا تأكل الصدقة ، وهذه هدية ،

---

(١) ب « من » .

فقال : كلوا وأكل معهم ، فقلتُ إنه لمَوْ ، فأكبت عليه أقبّله وأبكي ؛ فقال : مالك ؟  
فقصصْتُ عليه القصّة ؛ فأعجبه ، ثم قال : يا سلمان ، كاتبُ صاحبك ، فكاتبته على  
ثلثمائة نخلة وأربعين أوقية ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله للأَنْصار : « أعيّنوا أحاكم » ،  
فأعانوني بالنخل حتى جمعت ثلثمائة ودية ، فوضعها رسول الله صلى الله عليه وآله بيده ،  
فصحت كلّها ، وأتاه مالٌ من بعض المغازي ، فأعطاني منه ، وقال : أدّ كتابتك ،  
فأدّيت وعتمت .

وكان سلمان من شيعة عليّ عليه السلام وخاصته ، وتزعم الإماميّة أنه أحدُ الأربعة  
الذين خلّقوا رءوسهم وأتوه متقلّدي سيوفهم في خبر يطول ؛ وليس هذا موضع ذكره ،  
وأصحابنا لا يخالفونهم في أن سلمان كان من الشيعة ، وإنما يخالفونهم في أمرٍ أزيد من ذلك ؛  
وما يذكره المحدثون من قوله للمسلمين يوم السقيفة : كرديد ونكرديد محمولٌ عند أصحابنا  
على أن المراد صنعتم شيئاً وما صنعتم ، أي استخلفتم خليفةً ونعم ما فعلتم ، إلا أنّكم عدلتم  
عن أهل البيت ، فلو كان الخليفة منهم كان أولى ؛ والإمامية تقول : معناه : « أسلمتم  
وما أسلمتم » ، واللفظة المذكورة في الفارسية لا تعطى هذا المعنى ، وإنما تدلّ على الفعل  
والعمل لا غير ، ويدل على صحّة قول أصحابنا أن سلمان عمل لعمر على المدائن ، فلو كان  
ما تنسبه الإماميّة إليه حقاً لم يعمل له .

\*\*\*

فأما أَلْفَاظُ الفَصْلِ ومَعَارِينِ فظاهرة ، ومما يُناسِبُ مضمونه قول بعض الحكماء :  
تعرّ عن الشيء إذا مُنِعْتَهُ ، بقلّة صحبته لك إذا أُعْطِيَتْهُ .  
وكان يقال : المالك على الدنيا رجلان : رجلٌ نَافَسَ في عزّها ، ورجلٌ أُنْفَ  
مِنْ ذُلِّهَا .

ومرّ بعض الزهاد بباب دارٍ وأهلها يَبْكُون مَبْتِئاً لهم ؛ فقال : واعجبا لقومٍ مسافرين !  
يكونون مسافرا قد بلغ منزلهم !  
وكان يقال : يا بن آدم ؛ ألا تأسف على مَفْقُود لا يرده عليك القوت ، ولا تفرّج بوجوه  
لا يتركه عليك الموت .

لقي عالمٌ من العلماء راهبا فقال : أيها الراهب ، كيف ترى الدنيا ؟ قال : تُخْلَق  
الأبدان ، وتجدد الآمال ، وتُباعِد الأُمْنِيَّة ، وتُقَرِّب النِّيَّة ؛ قال : فما حال أهلها ؟ قال :  
مَنْ ظَفَر بها نَصَب ، وَمِنْ فَاتَتْهُ أَسَف ؛ قال : فكيف الفَنَى عنها ؟ قال : بقطع الرّجاء منها ؛  
قال : فأى الأصحاب أبرّ وأوفى ؟ قال : العمل الصالح ؛ قال : فأَيُّهم أضرّ وأُنكى ؟ قال :  
النفسُ والهوى ؛ قال : فكيف المخرج ؟ قال : فى سلوكِ المنهج ، قال : وبماذا أسلكتك ؟  
قال : بأن تخلع لباس الشهوات الفانية ، وتعمل للدّار الباقية .



(٦٩)

الأصل :

ومن كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الهمداني :

وَتَمَسَّكَ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ وَانْتَصَحَهُ ، وَأَحْلَلَ حَلَالَهُ ، وَحَرَّمَ حَرَامَهُ ، وَصَدَّقَ  
بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ ، وَاعْتَبَرَ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا ، فَإِنَّ بَعْضَهَا يُشْبِهُ  
بَعْضًا ، وَآخِرَهَا لَا حَقَّ بِأَوَّلِهَا ، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ .

وَعَظَّمَ اسْمَ اللَّهِ أَنْ تَذْكُرَهُ إِلَّا عَلَى حَقٍّ ، وَأَكْثَرَ ذِكْرَ الْمَوْتِ وَمَا بَعْدَ الْمَوْتِ ،  
وَلَا تَعْمَنَنَّ الْمَوْتَ إِلَّا بِشَرْطٍ وَثِيقٍ .

وَاخْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ يَرْضَاهُ صَاحِبُهُ لِنَفْسِهِ ، وَيَكْرَهُهُ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَاخْذَرْ  
كُلَّ عَمَلٍ يُعْمَلُ بِهِ فِي السِّرِّ ، وَيُسْتَعْتَبُ مِنْهُ فِي الْعَلَانِيَةِ ، وَاخْذَرْ كُلَّ عَمَلٍ  
إِذَا سُئِلَ عَنْهُ صَاحِبُهُ أَنْكَرَهُ وَاعْتَذَرَ مِنْهُ . وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنِبَالِ الْقَوْمِ ،  
وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ كَذِبًا ، وَلَا تَرُدَّ عَلَى النَّاسِ  
كُلَّ مَا حَدَّثُوكَ بِهِ ، فَكَفَى بِذَلِكَ جَهْلًا .

وَأكْظِمِ الْغَيْظَ ، وَاحْلَمْ عِنْدَ الْغَضَبِ ، وَتَجَاوَزْ عِنْدَ الْمَقْدِرَةِ ، وَاصْفَحْ مَعَ الدَّوْلَةِ  
تَكُنْ لَكَ الْمَاقَبَةُ ، وَاسْتَصْلِحْ كُلَّ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ بِهَا اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَلَا تُضَيِّقَنَّ نِعْمَةً  
مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عِنْدَكَ ، وَلْيَرَّ عَلَيْكَ أَثَرُ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ .

وَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضَلُهُمْ تَقْدِمَةً مِنْ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ ، وَإِنَّكَ مَا تَقْدِمُ  
مِنْ خَيْرٍ يَبْقَى لَكَ ذُخْرُهُ ، وَمَا تُؤَخِّرُهُ يَكُنْ لِمَعِيرِكَ خَيْرُهُ .

وَاحْذَرِ صَحَابَةَ مَنْ يَفِيلُ رَأْيُهُ ، وَيُنْكِرُ عَمَلُهُ ، فَإِنَّ الصَّ  
بِصَاحِبِهِ .

وَاسْكُنِ الْأُمَصَارَ الْعِظَامَ فَإِنَّهَا جِمَاعُ الْمُسْلِمِينَ ، وَاحْذَرِ مَنَازِلَ الْغَفَدِ  
وَقِلَّةِ الْأَغْوَانِ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ، وَاقْصِرْ رَأْيَكَ عَلَى مَا يَمْنِيكَ .

وَإِيَّاكَ وَمَقَاعِدَ الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا مَحَاضِرُ الشَّيْطَانِ ، وَمَعَارِضُ الْفِتَنِ  
أَنْ تَنْظُرَ إِلَى مَنْ فَضَّلَتْ عَلَيْهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الشُّكْرِ .

وَلَا تَسَافِرْ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ حَتَّى تَشْهَدَ الصَّلَاةَ إِلَّا فَاصِلًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛  
تُعَذِّرُ بِهِ . وَأَطِعِ اللَّهَ فِي مُجَلِّ أُمُورِكَ ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى  
وَخَادِعِ نَفْسِكَ فِي الْعِبَادَةِ وَارْفُقْ بِهَا وَلَا تَقْهَرْهَا ، وَخُذْ عَفْوَهَا وَنَشَاطَهَا ،  
مَكْتُوبًا عَلَيْكَ مِنَ الْفَرِيضَةِ ، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنْ قَضَائِهَا ، وَتَعَاهُذِهَا عِنْدَ نَحْوِ  
وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا  
وَمُصَاحَبَةِ الْفُسَاقِ ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالْشَّرِّ مُلْحَقٌ .

وَوَقِّرِ اللَّهَ ، وَأَحْبِبْ أَحِبَّاءَهُ ، وَاحْذَرِ الْقَضَبَ ، فَإِنَّهُ جُنْدٌ مِنْ جُنُودِ  
وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

الشَّنْخُ :

[ الحارث الأعور ونسبه ]

هو الحارث الأعور صاحبُ أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وهو الحارث بنُ  
ابن كعب بن أسد بن نخلة بن حرث بن سبيع بن صعب بن معاوية الحمداني ؛

الفُتُهاء ، له قولٌ في الفُتُيا ، وكان صاحبُ عُلَى عليه السلام ، وإليه تنسب الشيعة الخطاب  
الذى خاطبه به في قوله عليه السلام :

يا حارِ هَمْدان من يمتَ يَرَنِي      مِنْ مُؤْمِنٍ أَوْ مُنَافِقٍ قَبَلَا  
وهي أبياتٌ مشهورة قد ذكرناها فيما تقدم .

\* \* \*

### [نبذ من الأقوال الحكيمة]

وقد اشتمل هذا الفصل على وصايا جلييلة الموقع :

منها قوله : « وَتَمَسَّكْ بِحَبْلِ الْقُرْآنِ » ، جاء في الخبر المرفوع لما ذكر الثَّقَلَيْنِ فقال :

أحدهما كتابُ الله ، حبل ممدود من السماء إلى الأرض طَرَفَ بيد الله وطرفَ بأيديكم .

ومنها قوله : « انتصحه » أى عُدَّه ناصحاً لك فيما أمرك به ونهاك عنه .

ومنها قوله : « وَأَحِلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ » ، أى احكم بين الناس في الحلال والحرام  
بما نصَّ عليه القرآن .

ومنها قوله : « وَصَدِّقْ بِمَا سَلَفَ مِنَ الْحَقِّ » أى صدِّق بما تضمنته القرآن من أيام الله  
وَمُثَلَّاتِهِ فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ لِمَا عَصَوْا وَكَذَّبُوا .

ومنها قوله : « وَاعْتَبِرْ بِمَا مَضَى مِنَ الدُّنْيَا لِمَا بَقِيَ مِنْهَا » ، وفي المثل : إذا شئت أن تنظر  
الدنيا بعدك فانظرها بعد غيرك ، وقال الشاعر :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا مِثْلُهُمْ غَيْرُ أَنْنَا      أَقْنَا قَلِيلاً بَعْدَهُمْ ثُمَّ نَرْحَلُ<sup>(١)</sup>

ويناسب قوله : « وَآخِرُهَا لَاحِقٌ بِأَوَّلِهَا ، وَكُلُّهَا حَائِلٌ مُفَارِقٌ » قوله أيضاً عليه السلام

---

(١) في د « وترحلوا » والمعنى عليه يستقيم أيضاً .

في غير هذا الفصل الماضي : « للمقيم عبرة .، والميت للحى عظة ، وليس لأمس عودة ، ولا لأمس غداً على ثقة ، الأول للأوسط رائد ، والأوسط للأخير قائد ؛ وكلٌّ بكلِّ لاحق ، والكلُّ للكلِّ مُفارق » .

ومنها قوله : « وعظَّم اسم الله أن تذكره إلا على حقّ » ، قال الله سبحانه : ﴿ ولا تجملوا الله عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ﴾ (١) ، وقد نهى عن الحلف بالله في الكذب والصدق ، أمّا في أحدهما فحرّم وأما في الآخر فمكروه ، ولذلك لا يجوز ذكر اسمه تعالى في لغو القول والهزء والعبث . ومنها قوله : « وأكثر ذكر الموت وما بعد الموت » ، جاء في الخبر المرفوع : « أكثرُوا ذكر هادم (٢) اللذات » ، وما بعد الموت : العقاب والثواب في القبر وفي الآخرة .

ومنها قوله : « ولا تتمنّ الموت إلا بشرط وثيق » ، هذه كلمة شريفة عظيمة القدر ، أى لا تتمنّ الموت إلا وأنت واثق من أعمالك الصالحة أنها تؤدّيك إلى الجنة ، وتُنقذك من النار ؛ وهذا هو معنى قوله تعالى عليه السلام : ﴿ إِنْ زَعَمْتَ أَنْكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾ (٣) .

ومنها قوله : « واحذر كلّ عمل يرضاه صاحبه لنفسه ، ويكرهه لعامة المسلمين ، واحذر كل عمل يُعْمَلُ في السرّ ، ويُستَحْيَا منه في العلانية ، واحذر كل عمل إذا سُئِلَ عنه صاحبه أنكره واعتذر منه » ، وهذه الوصايا الثلاث متقاربة في المعنى ، ويشملها معنى قول الشاعر :

لا تَهَ عَيْنُ خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلُهُ      عَارُ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ (٤)

(١) سورة البقرة . (٢) هادم اللذات ، من الهدم وهو القطع .

(٣) سورة الجمعة ٦ ، ٧ . (٤) لأبي الأسود الدؤلي من قصيدته الميمية ، وأوردها صاحب

الجزانة في ٣ : ٦١٨ .

وقال الله تعالى حاكياً عن نبيٍّ من أنبيائه : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخَالَفَكُمْ إِلَى مَا أَنَسَهَا كُفُّ عَنْهُ ﴾ (١) .

ومن كلام الجُنَيْدِ الصَّوْفِيِّ : لَيْكُنْ تَمَلِّكَ مِنْ وَرَاءِ سِتْرِكَ كَعَمَلِكَ مِنْ وَرَاءِ الزَّجَاجِ الصَّافِي . وفي المثل وهو منسوبٌ إلى عليٍّ عليه السلام : إِيَّاكَ وَمَا يُعْتَذِرُ مِنْهُ .

ومنها قوله : « وَلَا تَجْعَلْ عِرْضَكَ غَرَضًا لِنَبَالِ الْقَوْمِ » ، قال الشاعر :

لَا تَسْتَتِرْ أَبَدًا مَا لَا تَقُومُ لَهُ وَلَا تَهَيِّجَنَّ مِنْ عِرْيَتِهِ الْأَسَدَا (٢)

إِنَّ الزَّائِرَ إِنْ حَرَّ كَتَمَهَا سَفَهًا مِنْ كُورِهَا أَوْجَعَتْ مِنْ لَسَعِهَا الْجَسَدَا

وقال :

مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا . أُسْرَعُ مِنْ مُتَحَدِّرٍ سَائِلٍ

وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى ذِمِّهِ ذَمُّهُ بِالْحَقِّ وَبِالْبَاطِلِ

ومنها قوله : « وَلَا تُحَدِّثِ النَّاسَ بِكُلِّ مَا سَمِعْتَ ، فَكُنِي بِذَلِكَ كَذِبًا » ، قد نهى أن

يُحَدِّثَ الْإِنْسَانُ بِكُلِّ مَا رَأَى مِنَ الْعَجَائِبِ فَضْلًا عَمَّا تَسْمَعُ ، لِأَنَّ الْحَدِيثَ الْغَرِيبَ الْمَعْجَبَ

تُسَارِعُ النَّفْسُ إِلَى تَكْذِيبِهِ ، وَإِلَى أَنْ تَقُومَ الدَّلَالَةُ عَلَى صِدْقِهِ قَدْ فَرَطَ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ

فِيهِ مَا فَرَطَ .

ويقال : إِنَّ بَعْضَ الْعُلَوِيَّةِ قَالَ فِي حَضْرَةِ عَصُدِ الدَّوْلَةِ بَيْغَدَادَ : عِنْدَنَا فِي الْكُوفَةِ نَبِيٌّ

وَزُنُ كُلِّ نَبِيٍّ مِثْقَالَانِ . فَاسْتَطَرَفَ الْمَسْلِكُ ذَلِكَ ، وَكَادَ يَكْذِبُهُ الْحَاضِرُونَ ، فَلَمَّا قَامَ ذَكَرَ

ذَلِكَ لِأَبِيهِ ، فَأَرْسَلَ سَحَابًا كَانَ عِنْدَهُ فِي الْجِبَالِ إِلَى الْكُوفَةِ يَأْمُرُ وَكَلَاءَهُ بِإِرْسَالِ مَائَةٍ

مِجْمَعَةٍ ، فِي رَجُلٍ كُلِّ وَاحِدَةٍ نَبَقَتَانِ مِنْ ذَلِكَ النَّبِيِّ ، فَجَاءَ النَّبِيُّ فِي بُكْرَةِ النَّدَى وَمُحْمَلٍ إِلَى

عَصُدِ الدَّوْلَةِ ، فَاسْتَحْسَنَهُ وَصَدَّقَهُ حِينَئِذٍ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : لَمَعَرَى لَقَدْ صَدَقْتَ ،

(١) هود ٨٨ (٢) العريسة : مأوى الأسد .

ولكن لا تحدث فيما بعدُ بكلِّ ما رأيتَ من الغرائب ، فليس كلَّ وقت يهينُ لك إرسال الحمام .

وكان يقال : الناس يَكْتُبُونَ أحسنَ ما يَسْمَعُونَ ، ويَحْفَظُونَ أحسنَ ما يَكْتُبُونَ ، ويتحدَّثُونَ بأحسن ما يَحْفَظُونَ ؛ والأصدق نوع تحت جنس الأحسن .

ومنها قوله : « ولا تردَّ على الناس كلَّ ما حدَّثوك ، فكفى بذلك جهلاً » ، من الجهل المبادرة بإنكار ما يسمعه ، وقال ابنُ سينا في آخر « الإشارات » ، : إيتاك أن يكون تَكْيِّسُكَ وتبرؤك من العامة ، هو أن تنبرى منكراً لكلِّ شيء ، فلذلك عجز وطيش ، وليس أُلْحَرِقَ في تكذيبك ما لم يستبين لك بعد جلَّيته دون ألْحَرَقَ في تصديقك بما لم تُقَمِّ بين يديك بينة ، بل عليك الاعتصام بحبل التوقف وإن أزعجك استنكار ما يُوعيه سمعك ممَّا لم يرهن على استحالة لك ، فالصواب أن تسرح أمثال ذلك إلى بقعة الإمكان ، ما لم يندك عنها قائمُ البرهان .

ومنها قوله : « واكظم الغيظ » قد مدَّح الله تعالى ذلك فقال : ﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغَيْظَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، ورؤي أن عبداً لموسى بن جعفر عليه السلام قدم إليه صحفة فيها طعام حارٌّ ، ففجّل فصّبها على رأسه ووجهه ، فغضب ، فقال له : ﴿ وَالكَافِرِينَ الْغَيْظَ ﴾ ؛ قال : قد كظمت ، قال : ﴿ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ قال : قد عفوت ، قال : ﴿ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، قال : أنت حرٌّ لوجه الله ، وقد نحلّلتك صبيعتي الفلانية .

ومنها قوله : « وأحلّم عند الغضب » ، هذه مناسبة الأولى ، وقد تقدّم ممّا قول كثير في الحلم وفضله ؛ وكذلك القول في قوله عليه السلام : « وتجاوزُ عند القدرة » ، وكان يقال : القدرة تذهب الحفيظة .

(١) سورة آل عمران ١٣٤ .

ومنها قوله : « واصفح مع الدولة تكن لك العاقبة » ؛ هذه كانت شيمة رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشيمة على عليه السلام ؛ أمّا شيمة رسول الله صلى الله عليه وآله فظفر بمشركي مكة وعنا عنهم ، كما سبق القول فيه في عام الفتح ؛ وأمّا على عليه السلام فظفر بأصحاب الجمل وقد شقوا عصا الإسلام عليه ، وطعنوا فيه وفي خلافته ، فمنا عنهم ، مع علمه بأنهم يفسدون عليه أمره فيما بعد ، ويصّيرون إلى معاوية ، إمّا بأنفسهم أو بآرائهم ومكتوباتهم ، وهذا أعظم من الصفح عن أهل مكة ، لأن أهل مكة لم يبق لهم لما فُتحت فئةٌ يتحيزون إليها ، ويؤسّدون الدين عندها .

ومنها قوله : « وأستصلح كلّ نعمة أنعمها الله عليك » معنى أستصلحها أستد منها ، لأنه إذا استدماها فقد أصلحها ، فإنّ بقاءها صلاح لها ، واستدامتها بالشكر .  
ومنها قوله : « ولا تضيعنّ نعمة من نعم الله عندك » ، أى واس الناس منها ، وأحسن إليهم ، وأجعل بعضها لنفسك وبعضها للصدقة والإيثار ، فإنك إن لم تفعل ذلك تكن قد أضعتّها .

ومنها قوله : « وليرّ عليك أثرُ النعمة » قد أمر بأن يظهر الإنسان على نفسه آثار نعمة الله عليه ، وقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ <sup>(١)</sup> . وقال الرشيد لجعفر : قم بنا لنمضى إلى منزل الأصمى ، ففضيا إليه خفية ومعهما خادمٌ معه ألف دينار ليُدْفَع ذلك إليه ، فدخلا داره فوجدا كساء جرداء ، وبارية <sup>(٢)</sup> سبلاء ، وحصيرا مقطوعا ، وخباء قديمة ، وأباريق من خرف ، ودواة من زجاج ، ودفاتر عليها التراب وحيطانا مملوءة من نسج المناكب ، فوجم الرشيد ، وسأله مسائل غثّة لم تكن من غرضه ، وإنما قطع بها خجله ؛ وقال الرشيد لجعفر : ألا ترى إلى نفس هذا المهن ، قد برزناه بأكثر

(١) الضحى ١١ . (٢) البارية : الحصيرة .

من خمسين ألف دينار وهذه حاله ، لم تظهر عليه آثارُ نعمتنا ! والله لا دفعتُ إليه شيئاً ، وخرج ولم يُعطه .

ومنها قوله : « وأعلم أن أفضل المؤمنين أفضلهم تقدمه من نفسه وأهله وماله » ، أى أفضلهم اتفاقاً في البرِّ والخير من ماله ، وهى التَّقدمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا تَقَدَّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ ﴾ <sup>(١)</sup> ، فأما النفس والأهل ، فإنَّ تقدُّمتهما في الجهاد ، وقد نكون التَّقدمة في النَّفس بأن يشفع شفاعةً حسنةً أو يحضر عند السلطان بكلام طيب ، وثناء حسن ، وأن يصلح بين المتخاصمين ، ونحو ذلك . والتَّقدمة في الأهل أن يحجَّ بولده وزوجته ويكفَّهما المشاقَّ في طاعة الله ، وأن يؤدِّب ولده إن أذنب ، وأن يقيمَ عليه الحدَّ ، ونحو ذلك :

ومنها قوله : « وما تُقدم من خير يبيق لك زُخره وما تؤخره يكن لغيرك خيرُهُ » ، وقد سبق مثلُ هذا ، وأنَّ ما يتركه الإنسان بئمه فقد حُرِّم نفعه ، وكأنَّما كان يكدِّح لغيره ، وذلك من الشقاوة وقلة التوفيق .

ومنها قوله : « وأحذر صحابة من يَفِيلُ رأيه » الصَّحابة بفتح الصاد ، مصدرٌ صحبت والصَّحابة بالفتح أيضاً جمعُ صاحب ، والمرادُ هاهنا الأوَّل ، وقالَ رأيه : فسَدَ ؛ وهذا المعنى قد تكرر ، وقال طرفة :

عن المرء لا تسألُ وسلَّ عن قَرِينِهِ فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْقَارِنِ يَقْتَدِي  
ومنها قوله : « واسكن الأمصار العظام » ، قد قيل : لا تسكن إلا في مصرٍ فيه سوقٌ قائمة ، ونهرٌ جارٍ ، وطبيبٌ حاذق ، وسلطانٌ عادل ، فأما منازل القفلة والجفاء ، فمثلُ قَرْىِ السَّواد الصغار ، فإنَّ أهلها لا نورَ فهم ، ولا ضوءَ عليهم ، وإنما هم كالذَّوابِّ



والأنعام ، كهمهم الحرث والفلاحة ، ولا يفقهون شيئاً أصلاً ، فجاءورهم تعمى القلب ، وتُظلم الحس ، وإذا لم يحسد الإنسان من يمينه على طاعة الله وعلى تعلم العلم قصر فيهما .

ومنها قوله : « وأقصر رأيك على ما يعينيك » ؛ كان يقال : من دخل فيما لا يعنيه فاته ما يعنيه .

ومنها نهيه إتياءه عن القعود في الأسواق ؛ قد جاء في المثل : السوق محلّ الفسوق . وجاء في الخبر الرفوع : « الأسواق مواطن إبليس وجنّده » ، وذلك لأنّها قلما تخلو عن الأيمان الكاذبة ، والبيوع الفاسدة ، وهى أيضا تجتمع النساء المومسات ، وفجار الرجال ، وفيها أجتاع أرباب الأهواء والبدع ، فلا يخلو أن يتجادل اثنان منهم في المذاهب والنحل فيلضي إلى الفتن .

ومنها قوله : « وأنظر إلى من فضّلت عليه » ؛ كان يقال : انظر إلى من دونك ، ولا تنظر إلى من فوقك . وقد بين عليه السلام السرّ فيه فقال : إنّ ذلك من أبواب الشكر ، وصدق عليه السلام ، لأنك إذا رأيت جاهلاً وأنت عالم ، أو عالماً وأنت أعلم منه ، أو فقيراً وأنت أغنى [ منه ]<sup>(١)</sup> ؛ أو مُبتلياً بسقم وأنت مُعافي عنه ، كان ذلك باعثاً وداعياً لك إلى الشكر .

ومنها نهيه عن السفر يوم الجمعة ، ينبغى أن يكون هذا النهي عن السفر يوم الجمعة قبل الصلاة ، وأما بعد الصلاة ، فلا بأس به ، واستثنى فقال : إلا فاصلاً في سبيل الله ، أى شاخصاً إلى الجهاد .

قال : « أو في أمرٍ تُعذر به » ، أى لضرورة دعتك إلى ذلك .

---

(١) تكملة من ١ .

وقد وَرَدَ نهْيٌ كَثِيرٌ عَنِ السَّفَرِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ قَبْلَ أَدَاءِ الْفَرَضِ ، عَلَى أَنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ كَرِهَ ذَلِكَ بَعْدَ الصَّلَاةِ أَيْضًا ، وَهُوَ قَوْلُهُ شَاذٌ .

ومنها قوله : « وَأَطِعِ اللَّهَ فِي جُمَلِ أُمُورِكَ » ، أَيْ فِي جُمَلَتِهَا ، وَفِيهَا كُلِّهَا ، وَلَيْسَ يَعْنِي فِي جُمَلَتِهَا دُونَ تَفَاصِيلِهَا . قَالَ : « فَإِنَّ طَاعَةَ اللَّهِ فَاضِلَةٌ عَلَى غَيْرِهَا » ، وَصَدَقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، لِأَنَّهَا تَوْجِبُ السَّعَادَةَ الدَّائِمَةَ ، وَالْخِلَاصَ مِنَ الشَّقَاءِ الدَّائِمِ ، وَلَا أَفْضَلَ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَى ذَلِكَ .

ومنها قوله : « وَخَادِعُ نَفْسِكَ فِي الْعِبَادَةِ » ؛ أَمَرَهُ أَنْ يَتَلَطَّفَ بِنَفْسِهِ فِي النَّوَافِلِ ، وَأَنْ يُخَادِعَهَا وَلَا يَقْهَرَهَا فِتْمَلًا وَتَضَجَّرَ وَتَتْرُكَ<sup>(١)</sup> ، بَلْ يَأْخُذْ عَفْوَهَا ، وَيَتَوَخَّى أَوْقَاتِ النَّشَاطِ ، وَأَنْشِرَاحَ الصَّدْرِ لِلْعِبَادَةِ .

قَالَ : فَأَمَّا الْفَرَائِضُ فَحُكْمُهَا غَيْرُ هَذَا الْحُكْمِ ، عَلَيْكَ أَنْ تَقُومَ بِهَا ؛ كَرِهَتْهَا النَّفْسُ أَوْ لَمْ تَكْرَهْهَا . ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَقُومَ بِالْفَرِيضَةِ فِي وَقْتِهَا ، وَلَا يُؤَخِّرَهَا عَنْهُ فَتَصِيرَ قَضَاءً .

ومنها قوله : « وَإِيَّاكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ الْمُنُونُ وَأَنْتَ آبِقٌ مِنْ رَبِّكَ فِي طَلَبِ الدُّنْيَا » ؛ هَذِهِ وَصِيَّةٌ شَرِيفَةٌ جَدًّا ، جَعَلَ طَالِبَ الدُّنْيَا الْمُرِضَ عَنِ اللَّهِ عِنْدَ مَوْتِهِ كَالْعَبْدِ الْآبِقِ يَقْدَمُ بِهِ عَلَى مَوْلَاهُ أَسِيرًا مَكْتُوفًا نَاكِسَ الرَّأْسِ ، فَمَا ظَنُّكَ بِهِ حِينَئِذٍ !

ومنها قوله : « وَإِيَّاكَ وَمَصَاحِبَةَ الْفُسَاقِ ، فَإِنَّ الشَّرَّ بِالشَّرِّ مُلْحَقٌ » ؛ يَقُولُ : إِنَّ الطَّبَاعَ يَنْزِعُ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ، فَلَا تَصْحَبَنَّ الْفُسَاقَ فَإِنَّهُ يَنْزِعُ بِكَ مَا فِيكَ مِنْ طَبْعِ الشَّرِّ إِلَى مَسَاعِدَتِهِمْ عَلَى الْفُسُوقِ وَالْمَعْصِيَةِ ، وَمَا هُوَ إِلَّا كَالنَّارِ تَقْوَى بِالنَّارِ ، فَإِذَا لَمْ تُجَاوِرْهَا وَتُمَازِجْهَا نَارٌ كَانَتْ إِلَى الْإِنْطِفَاءِ وَالْحُمُودِ أَقْرَبَ .

(١) : « . وَتَزَلْ » .

ورُوي « مُلْحِق » بكسر الحاء ، وقد جاء ذلك في الخبر النبويّ « فإن عذابك بالكفار مُلْحِق » بالكسر .

ومنها قوله : « وأحبّ أحبّاءه » ، قد جاء في الخبر : « لا يكمل إيمانُ امرئٍ حتّى يُحبّ من أحبّ الله ، ويُبغض من أبغض الله » .

ومنها قوله : « واحذر الغضب » ، قد تقدّم لنا كلامٌ طويل في الغضب . وقال إنسانٌ للنبيّ صلّى الله عليه وآله : أوصني ؛ قال : « لا تغضب » ، فقال : زدني ؛ فقال : « لا تغضب » ؛ قال : زدني ؛ قال : « لا أجِدُ لك مزيداً » ، وإِنّما جملة عليه السلام جُنُوداً عظيماً من جنود إبليس ، لأنّه أصلُ الظلم والقَتْل وإفسادِ كلِّ أمرٍ صالح ، وهو إحدى القوتين المشتومتين اللتين لم يخلق أضرّ منهما على الإنسان ، وهما مَنبَع الشرّ : الغضب والشهوة .

(٧٠)

الأبطل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حنيف الأنصاري وهو عامله  
على المدينة ، في معنى قوم من أهلها لحقوا بمعاوية :

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ رَجُلًا مِمَّنْ فَبَلَكَ يَتَسَلَّلُونَ إِلَى مُعَاوِيَةَ ، فَلَا تَأْسَفُ  
عَلَى مَا يَفُوتُكَ مِنْ عَدِيدِهِمْ ، وَيَذْهَبُ عَنْكَ مِنْ مَدِيدِهِمْ ، فَكَفَى لَهُمْ غِيًّا ، وَلَكَ مِنْهُمْ  
شَافِيًا فَرَّارُهُمْ مِنَ الْهَدَى وَالْحَقِّ ، وَإِضَاعُهُمْ إِلَى الْعَمَى وَالْجَهْلِ ، فَإِنَّمَا هُمْ أَهْلُ دُنْيَا  
مُقْبِلُونَ عَلَيْهَا ، وَمُهْطِعُونَ إِلَيْهَا ، قَدْ عَرَفُوا الْمَدَلَ وَرَأَوْهُ ، وَسَمِعُوهُ وَوَعَوْهُ ، وَعَلِمُوا  
أَنَّ النَّاسَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِّ أَسْوَةٌ ، فَهَرَبُوا إِلَى الْأَثَرَةِ ، فَبَعْدًا لَهُمْ وَسُحْقًا ! إِنَّهُمْ وَاللَّهِ  
لَمْ يَفِرُوا مِنْ جَوْرِ ، وَلَمْ يَلْحَقُوا بِمَدَلٍ ، وَإِنَّا لَنَطْمَعُ فِي هَذَا الْأَمْرِ أَنْ يُذِلَّ اللَّهُ لَنَا  
صَعْبَهُ ، وَيُسَهِّلَ لَنَا حَزَنَهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

\*\*\*

الشيخ :

قد تقدم نسب سهل بن حنيف وأخيه عثمان فيما مضى .  
ويتسللون : يخرجون إلى معاوية هاريين في خفية واستتار .  
قال : « فلا تأسف » أى لا تحزن . والنمى : الضلال .  
قال : « ولك منهم شافيا » ، أى يكفيك فى الانتقام منهم وشفاء النفس من عقوبتهم  
أنهم يتسللون إلى معاوية .

قال: الرضى لمن غاب عنك غيبته ، فذاك ذنبٌ عقابُهُ فيه .

والإيضاح : الإسراع . وَضَعَ البعيرُ أى أَسْرَعَ ، وَأَوْضَعَهُ مَنَاحِيَهُ ، قال :

رَأَى بَرَقًا فَأَوْضَعَ فَوْقَ بَكْرٍ فَلَا يَكُ مَا أَسَالَ وَلَا أَعَامَا

وَمُهْطِعُونَ : مُسْرِعُونَ <sup>(١)</sup> أيضا ، وَالْأَثَرَةُ : الاستئثار ، يَقُولُ : هَدَّ عَرَفُوا أَنَّى لَا أُقِيمُ  
إِلَّا بِالسُّوَيْةِ ، وَأَنْى لَا أَنْفَلُ قَوْمًا عَلَى قَوْمٍ ، وَلَا أُعْطَى عَلَى الْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ كَمَا فَعَلَ  
غَيْرِي ، فَتَرَ كَوْنِي وَهَرَبُوا إِلَى مَنٍ يَسْتَأْثِرُ وَيُؤْثِرُ .

قال : « قَبُمْنَا لَهُمْ وَسُخِّقَا » ، دَعَا عَلَيْهِم بِالْبُغْدِ وَالْهَلَاكِ .

وَرَوَى أَنَّهُمْ لَمْ « يَنْفُرُوا » بِاللَّوْنِ ، مِنْ نَفَرٍ ؛ ثُمَّ ذَكَرَ أَنََّّهُ رَاجِعٌ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَذَلَّ لَهُ  
صَعِبَ هَذَا الْأَمْرَ ، وَيُسَهِّلَ لَهُ حَزَنَتَهُ ؛ وَالْحَزَنُ ، مَا غَلِظَ مِنَ الْأَرْضِ ، وَضِدُّهُ السَّهْلُ .

---

(١) ل ا : « مهطعين : مسرعين » .

(٧١)

الأجل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود العبدى وقد كان استعمله على بعض النواحي ، فخان الأمانة في بعض ما ولاه من أعماله :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ صَلَاحَ أَيْبِكَ غَرَّني مِنْكَ ، وَظَنَنْتُ أَنَّكَ تَتَّبِعُ هَدْيَهُ ، وَتَسْلُكُ سَبِيلَهُ ، فَإِذَا أَنْتَ فِيمَا رُفِيَ إِلَيَّ عَنْكَ لَا تَدْعُ لِهَوَاكَ انْقِيَادًا ، وَلَا تُبْقِي لِآخِرَتِكَ عِتَادًا ، تَعْمُرُ دُنْيَاكَ بِخَرَابِ آخِرَتِكَ ، وَتَصِلُ عَشِيرَتَكَ بِقَطِيعَةِ دِينِكَ ؛ وَلَكِنْ كَانَ مَا بَلَغَنِي عَنْكَ حَقًّا لَجَمَلِ أَهْلِكَ وَشِسْعِ نَمْلِكَ خَيْرٌ مِنْكَ . وَمَنْ كَانَ بِصِفَتِكَ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ أَنْ يُسَدَّ بِهِ ثَغْرُهُ ، أَوْ يُنْفَذَ بِهِ أَمْرُهُ ، أَوْ يُعْمَلَ لَهُ قَدْرُهُ ، أَوْ يُشْرَكَ فِي أَمَانَتِهِ ، أَوْ يُؤْمَنَ عَلَى جَبَايَتِهِ ، فَأَقْبِلْ إِلَيَّ حِينَ يَصِلُ إِلَيْكَ كِتَابِي هَذَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

\*\*\*

قال الرضى رضى الله عنه :

الْمُنْذِرُ [ بن الجارود ] (١) هَذَا هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :  
إِنَّهُ لَنَظَّارٌ فِي عِطْفِيهِ مُخْتَالٌ فِي بُرْدِيهِ ، تَعَالَى فِي شِرَآكِيهِ .

\*\*\*

## البُنْحُ :

### [ ذكر المنذر وأبيه الجارود ]

هو المنذر بن الجارود . واسم الجارود بشر بن خنيس بن المعلّى ؛ وهو الحارث بن زيد بن حارثة بن معاوية بن ثعلبة بن جذيمة بن عوف بن أنمار بن عمرو بن وديعة بن لُكَيْز ابن أفضى بن عبد القيس بن أفضى بن دُعْمَيّ بن جَدِيلَة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معدّ ابن عدنان ، يقيمهم بيت الشرف في عبد القيس ، وإِنَّمَا سُمِّي الجارود لِمَيِّت قاله بعض الشعراء فيه في آخره :

\* كما جرد الجارود بكر بن وائل \* (١)

ووفد الجارود على النبي صلى الله عليه وآله في سنة تسع ، وقيل : في سنة عشر . وذكر أبو عمر بن عبد البر في كتاب « الاستيعاب » ، (٢) أنه كان نصرانياً فأسلم وحسن إسلامه ، وكان قد وفد مع المنذر بن ساوى في جماعة من عبد القيس ، وقال : شهدت بأن الله حقّ وسأحت بنات فؤادى بالشهادة والنهض فأبلغ رسول الله منى رسالةً بأنّي حنيفٌ حيث كنت من الأرض قال : وتد اختلف في نسبه اختلافاً كثيراً ، فقيل : بشر بن المعلّى بن خنيس ؛ وقيل : بشر بن خنيس بن المعلّى ، وقيل : بشر بن عمرو بن العلاء ، وقيل : بشر بن عمرو بن المعلّى ، وكنيته أبو عتاب ، ويكنى أيضاً أبا المنذر .

وسكن الجارود البصرة ، وقتل بأرض فارس ؛ وقيل : بل قتل بهاوند مع الثمان ابن مقرر . وقيل : إنّ عثمان بن العاص بعث الجارود في بعث نحو ساحل فارس ، فقتل

(١) صدره .:

\* ودسّناهم بالخيّل من كلّ جانب \*

(١) الاستيعاب ( نهضة مصر ) ٢٦٢ - ٢٦٤ .

بِمَوْضِع يُعْرَفُ بِمَقْبَةِ الْجَارُودِ ، وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ يُعْرَفُ بِمَقْبَةِ الطَّيْنِ ؛ فَلَمَّا قَتَلَ الْجَارُودُ فِيهِ عَرَقَهُ النَّاسُ بِمَقْبَةِ الْجَارُودِ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ إِحْدَى وَعِشْرِينَ .

وَقَدْ رَوَى عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَحَادِيثٌ وَرَوَى عَنْهُ ، وَأُمُّهُ دَرِيمَةُ بِنْتُ رُوَيْمِ الشَّيْبَانِيَّةِ .

وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرُ بْنُ الْمُثَنَّى فِي كِتَابِ "التَّاجِ" ، : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَكْرَمَ الْجَارُودَ وَعَبْدَ الْقَيْسِ حِينَ وَفَدَا إِلَيْهِ ، وَقَالَ لِلْأَنْصَارِ : « قَوْمُوا إِلَى إِخْوَانِكُمْ ، وَأَشْبَهَ النَّاسَ بِكُمْ » ؛ قَالَ : لَأَنْهُمْ أَصْحَابُ نَخْلٍ ، كَمَا أَنَّ الْأَنْصَارَ وَالْخَزْرَجَ أَصْحَابُ نَخْلٍ ، وَمُسْكُتُهُمُ الْيَحْرِينَ وَالْيَمَامَةَ . قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ : لَوْلَا أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : إِنَّ هَذَا الْأَمْرَ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي قَرِيشٍ لَمَا عَدَلْتُ بِالْخِلَافَةِ عَنِ الْجَارُودِ ابْنِ بَشْرِ بْنِ الْمَلَّى ، وَلَا تُخَالِجَنِي فِي ذَلِكَ الْأُمُورَ .

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : وَلَعَبْدَ الْقَيْسِ سِتُّ خِصَالٍ فَاقَتْ بِهَا عَلَى الْعَرَبِ ؛ مِنْهَا : أَسْوَدُ الْعَرَبِ بَيْتًا ، وَأَشْرَفُهُمْ رَهْطًا الْجَارُودُ هُوَ وَوَلَدُهُ .

وَمِنْهَا أَشْجَعُ الْعَرَبِ حَكِيمُ بْنُ جَبَلَةَ ، قُطِعَتْ رِجْلُهُ يَوْمَ الْجَلِ ، فَأَخَذَهَا بِيَدِهِ وَزَحَفَ عَلَى قَاتِلِهِ فَضْرَبَهُ بِهَا حَتَّى قَتَلَهُ ، وَهُوَ يَقُولُ :

يَا نَفْسُ لَا تُرَاعِي      إِنْ قُطِعَتْ كُرَاعِي

\* إِنْ مَعِيَ ذِرَاعِي \*

فَلَا يُعْرَفُ فِي الْعَرَبِ أَحَدٌ صَنَعَ صَنْيعَهُ .

وَمِنْهَا أَعْبَدُ الْعَرَبِ هَرَمُ بْنُ حَيَّانٍ صَاحِبُ أُوَيْسِ الْقَرَظِيِّ .

وَمِنْهَا أَجُودُ الْعَرَبِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَوَادٍ بْنُ هَمَّامٍ ، غَزَا السُّنْدَ فِي أَرْبَعَةِ آلَافٍ ، فَفَتْحَهَا ، وَأَطْعَمَ الْجَيْشَ كُلَّهُ ذَاهِبًا وَقَافِلًا ، فَبَانَهُ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْجَيْشِ مَرَضٍ ، فَاشْتَهَى خَبِيصًا ،



فأمر باتخاذ الخبيص لأربعة آلائٍ إنسان ، فأطعمهم حتى فضل ، وتقدّم إليهم ألا يؤقد أحدهم منهم ناراً لطعام في عسكره مع ناره .

ومنها أخطب العرب مصقلة بن رقة ، به يضرب المثل فيقال : أخطب من مصقلة .  
ومنها أهدى العرب في الجاهلية وأبمدهم مغاراً ، وأثراً في الأرض في عدوه ، وهو دُعَيْمِيص<sup>(١)</sup> الرمل كان يُعرف بالنجوم هدايةً ، وكان أهدى من القطا ، يدفن بيض النعام في الرمل مملوءاً ماءً ثم يعود إليه فيستخرجه .

فلما المنذر بن الجارود فكان شريفاً ، وابنته الحكم بن المنذر يتلوه في الشرق ،  
بوالمنذر غير معدود في الصحابة ، ولا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا وُلد له في أيامه ، وكان تأمها معجبا بنفسه ، وفي الحكيم أبيه يقول الراجز :

يا حَكَمَ بْنَ الْمَنْذِرِ بْنِ الْجَارُودِ      أَنْتَ الْجَوَادُ ابْنُ الْجَوَادِ الْحَمُودِ  
\* سُرِيقُ الْحَيْدِ عَلِيكَ مَمْدُودُ \*

وكان يقال : أظوع الناس في قومته الجارود بن بشر بن الملقى ، لما تقيص «رسول الله صلى الله عليه وآله فأردت العرب» ، خطب قومه فقال : أيها الناس ، إن كان محمد قد مات فإن الله حي لا يموت ، فاستمسكوا بدينكم ، ومن ذهب له في هذه الفتنة دينار أو درهم أو بقرة أو شاة فعلى مثله ، فخالفه من عبد القيس أحد .

\*\*\*

قوله عليه السلام : « إن صلاح أهلك غرتني منك » ، قد ذكرنا حال الجارود وصحبته وصلاحه ، وكثيرا ما يفتّر الإنسان بحال الآباء فيظن أن الأبناء على منهاجهم ، فلا يكون والأمر كذلك ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ .  
قوله : « فيما رُفّي » بالتشديد ، أي فيأرفع إلى ؟ وأصله أن يكون الإنسان في موضع عالٍ

(١) ب : دميمس ، وانظر القاموس .

فيرقى إليه شيء ، وكأنّ العلوّ ها هنا هو علوّ المرتبة بين الإمام والأمير ، ونحوه قولهم : تعال باعتبار علوّ رتبة الأمر على الأمور . واللام في «لهواك» متعلّقة بمحذوف دلّ عليه «انقيادا» ، ولا يتعلّق بنفس «انقياد» لأنّ المتعلّق من حروف الجرّ بالمصدر لا يجوز أن يتقدّم على المصدر .

والمتاد : المعدّة .

قوله : « وتصل عشيرتك » ، كان فيما رُقّي إليه عنه أنه يقتطع المال ويُفِيضه علي رَهْطه وقومه ويُخْرِج بعضه في لذاته ومآربه .

قوله « لجمل أهيك » ، العرب تَضْرِب بالجلّ المثل في الهوان قال :

لقد عَظُم البعيرُ بغير لُبٍّ ولمْ يَسْتغنِ بالعِظَم البعيرُ<sup>(١)</sup>  
يُصرِّفه الصبيّ بكلِّ وجهٍ ويحبسه على الخسْف الجريّ  
وتَضْرِبُه الوليدةُ بالهراوى فلا غَيْرَ لديه ولا نَكيرُ

فأمّا شُنع النَّمْل فضرب المثل بها في الاستهانة مشهور ، لابتذالها ووطئها الأقدام في التراب .

ثم ذكر أنّه من كان بصفته فليس بأهلٍ لكذا ولا كذا ، إلى أن قال : «أو يشرك في أمانة» ؛ وقد جَمَلَ الله تعالى البلاد والرايا أمانةً في ذمّة الإمام ، فإذا استعمل الممال على البلاد والرايا فقد شَرَكهم في تلك الأمانة .

قال : « أو يؤمن على جباية » ، أي على استِجْباء الخراج وجمعه ، وهذه الرواية التي سمعناها ، ومن الناس من يروونها « على خيانة » وهكذا رواها الراونديّ ، ولم يرو الرواية الصّحيحة التي ذكرناها نحن ؛ وقال يكون « على » متعلّقة بمحذوف ، أو « يؤمن » نفسها ، وهو بعيدٌ ومتكلّف .

(١) للعباس بن مرداس السلمي ، ديوان الحماسة ٤١٩ - بشرح المرزوقي .

ثم أمره أن يُقبل إليه ، وهذه كنايةٌ عن العزل .

فأمّا الكلمات التي ذكرها الرضى عنه عليه السلام في أمر المنذر فهي دالة على أنه نسبه إلى التّيه والمُجِب، فقال: «نظّار في عِطْفِيهِ»، أى جانيه، ينظر تارةً هكذا وتارةً هكذا، ينظرُ لنفسه ، ويستحسن هَيْئَتَهُ ولِبْسَتَهُ ، وينظر هل عنده نقص في ذلك أو عيب فيستدرّكه بإزالته ، كما يفعل أربابُ الزّهو ومن يدعى لنفسه الحسن والملاحه .

قال : « مُخْتَالٌ فِي بُرْذِيهِ : يمشى الخيلاء عُجْبًا » قال محمد بنُ واسع لابن له وقد رآه يَخْتَالُ فِي بَرْدِهِ لَهُ : أَدْنُ ، فدنا فقال : من أين جاءتك هذه الخيلاء وَيْلَكَ ! أمّا أمك فأمة ابتمتها بمائتي درهم ، وأمّا أبوك فلا أكثر الله في الناس أمثاله .

قوله : « تَفَالٌ فِي شِرَاكِيهِ » ، الشّراك : السّير الذي يكون في التّعل على ظهْر القدم . والتّفَل بالسكون : مصدر تَفَل أى بَصَقَ ، والتّفَل محرّكا البُصَاقُ نفسه ، وإِنَّمَا يفعلهُ الْمُعْجِب والتّائه في شِرَاكِيَةِ لِيذهب عنهما الغُبار والوسخ ، يَتَفَلُ فِيهِمَا وَيَسَحّهُمَا لِيعودا كالجدّيين .

(٧٢)

الأمنل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس رضى الله عنه :

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّكَ لَسْتَ بِسَاقٍ أَجَلَكَ ، وَلَا مَرُؤٍ مَأْلَيْسَ لَكَ ، وَاعْلَمْ بِأَنَّ  
الدَّهْرَ يَوْمَانِ : يَوْمٌ لَكَ ، وَيَوْمٌ عَلَيْكَ ، وَإِنَّ الدُّنْيَا دَارُ دُولٍ ، فَمَا كَانَ مِنْهَا لَكَ  
أَنَّكَ عَلَى ضَعْفِكَ ، وَمَا كَانَ مِنْهَا عَلَيْكَ لَمْ تَدْفَعْهُ بِقُوَّتِكَ .

\*\*\*

الشيخ :

قد تقدم شرح مثل هذا الكلام ، وهذا معنى مطروق ، قد قال الناس فيه فأكثر واء ،  
قال الشاعر :

قد يُرْزَقُ الْفَاجِرُ الضَّعِيفُ وَمَا شَدَّ بِكُورٍ رَحْلًا وَلَا قَتَبًا (١)

وَيُخْزَمُ الْمُرَّةُ ذُو الْجِلَادَةِ وَالرَّأْيُ وَمَنْ لَا يَزَالُ مُفْتَرِبًا

ومن جيد ما قيل في هذا المعنى قول أبي يعقوب الخريجي (٢) :

هَلْ الدَّهْرُ إِلَّا حَرْفَةٌ وَنَوَائِبُهُ وَسَرَّاءُ عَيْشٍ زَائِلٌ وَمَصَائِبُهُ

يَقُولُ الْفَتَى تَمَرَّتْ مَالِي وَإِنَّمَا لَوَارِثُهُ مَا تَمَرَّ الْمَالُ كَسْبُهُ

(١) من أبيات نسيها صاحب الأغاني (١٥١ : ٢١ - سائق) إلى ابن عبد الأسد برواية مخالفة .

(٢) ب : « الخريجي » تحريف .

يُحَاسِبُ فِيهِ نَفْسَهُ فِي حَيَاتِهِ  
فَكُلُّهُ وَأَطْعِمُهُ وَخَالِسُهُ وَارثَا  
أَرَى الْمَالَ وَالْإِنْسَانَ لِلدَّهْرِ نُهْبَةً  
لِكُلِّ امْرِئٍ رِزْقٌ وَلِلرِّزْقِ جَالِبٌ  
يُخَيِّبُ الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يُرْزَقُ غَيْرُهُ  
يُسَاقُ إِلَى ذَا رِزْقِهِ وَهُوَ وَادِعٌ  
وَإِنَّكَ لَا تَدْرِي: أَرْزُقُكَ فِي الذِّى  
تَنَاسَ ذُنُوبَ الْأَقْرَبِينَ فَإِنَّهُ  
لَهُ هَفَوَاتٌ فِي الرَّخَاءِ يَشْوُبُهَا  
تَرَاهُ غُدُوًّا مَا أَمِنْتَ وَتَتَّقَى  
لِكُلِّ امْرِئٍ إِخْوَانٌ بَوْسٌ وَنِعْمَةٌ  
وَيَتْرَكُهُ نَهْبًا لِلنَّاسِ لَا يَحَاسِبُهُ  
شَحِيحًا وَدَهْرًا تَعْتَرِيكَ نَوَائِبُهُ  
فَلَا الْبَخْلُ مُبْقِيَةٌ وَلَا الْجُودُ خَارِبَةٌ  
وَلَيْسَ يَقْوَتُ الْمَرْءَ مَا خَطَّ كَاتِبُهُ  
وَيُعْطَى الْفَتَى مِنْ حَيْثُ يُحْرَمُ صَاحِبُهُ  
وَيُحْرَمُ هَذَا الرِّزْقَ وَهُوَ يَفَالِحُهُ  
تَطَالِبُهُ أَمْ فِي الذِّى لَا تَطَالِبُهُ!  
لِكُلِّ حَمِيمٍ رَاكِبٌ هُوَ رَاكِبُهُ  
بِنَصْرَةٍ يَوْمَ لَا تَوَارَى كَوَاكِبُهُ  
بِجَهَنَّمِ يَوْمَ الْوَعَى مَنْ يَخَافُ يَفَالِحُهُ  
وَأَعْظَمُهُمْ فِي النَّائِبَاتِ أَقَارِبُهُ

(٧٣)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية :

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي عَلَى التَّرَدُّدِ فِي جَوَابِكَ، وَالِاسْتِمَاعِ إِلَى كِتَابِكَ، لَمَوْهَنْ رَأَيْتُ ،  
وُحْطِي، فِرَاسَتِي، وَإِنَّكَ إِذْ تُحَاوِلُنِي الْأُمُورَ، وَتُرَاجِمُنِي السُّطُورَ، كَأَلْمُسْتَنْقِلِ النَّارِمْ،  
تُكَذِّبُهُ أَحْلَامُهُ، وَالْمُتَحَيِّرِ الْقَائِمِ يَبْهَظُهُ مَقَامُهُ؛ لَا يَدْرِي أَلَهُ مَا يَأْتِي أَمْ عَلَيْهِ،  
وَلَسْتَ بِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ بِكَ شَبِيهٌ.

وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ أَنَّهُ لَوْلَا بَعْضُ الْإِسْتِيقَاءِ، لَوَصَلَتْ مِنِّي إِلَيْكَ قَوَارِعُ تَقَرُّعِ الْعُظْمِ،  
وَتَنَهَسُ اللَّحْمِ.

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ ثَبَّطَكَ عَنْ أَنْ تُرَاجِعَ أَحْسَنَ أُمُورِكَ، وَتَأْذَنَ لِمَقَالِ  
نَصِيحِكَ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

\*\*\*

الشنخ :

روى « نوازع » جمع نازعة ، أى جاذبة قالمة ، وروى « تهليس اللحم » و « تلہس »  
بتقديم اللام ، وتهليس يكسر اللام : تذييه حتى يصير كبذن به الهلاس ، وهو السل ؛  
وأما تلہس فهو بمعنى تلحس ، أبدلت الحاء هاء ؛ وهو عن لحست كذا بلساني بالكسر ،  
ألحسه ، أى تأتى على اللحم حتى تلحسه لحسا ، لأن الشيء إنما يلحس إذا ذهب وبقى أثره ،  
وأما « يَنهَس » وهى الرواية المشهورة ، فعناه يمترق .

وتأذن بفتح الذال ، أى تسمع .

قوله عليه السلام « إني لموهن رأيي » بالتشديد؛ أى إني لائم نفسي ، ومستضعف رأيي في أن جعلتك نظيرا ، أكتبُ وتجيئني ، وتكتبُ وأجيبك ؛ وإنما كان ينبغي أن يكون جواب مثلك السكوت لهوانك .

\*\*\*

فإن قلت : فما معنى قوله : « على التردد ؟ » .

قلت : ليس معناه التوقف ، بل معناه التردد والتكرار ؛ أى أنا لائم نفسي على أني أكرر تارة بعد تارة أجوبتك عما تكتبه .

\*\*\*

ثم قال : وإنك في مناظرتي ومقاومتى بالأمور التي تحاولها ، والكتب التي تكتبها كاللئيم يرى أحلاما كاذبة ، أو كمن قام مقاما بين يدي سلطان ، أو بين قوم عقلاء ليعتذر عن أمر ، أو ليخطب بأمر في نفسه ، قد بهظه مقامه ذلك ؛ أى أثقله فهو لا يدري : هل ينطق بكلام هو له ، أم عليه ! فيتحير ويتبدل ، ويدركه العي والحصر .

قال : وإن كنت لست بذلك الرجل فإنك شبيه به ؛ أمّا تشبيهه باللئيم ثم ذى الأحلام ، فإن معاوية لو رأى في المنام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أنه خليفة يخاطب بإمرة المؤمنين ، ويحارب عليا على الخلافة ، ويقوم في المسلمين مقام رسول الله صلى الله عليه وآله لما طلب لذلك المنام تأويلا ولا تعبيرا ، ولعدّه من وساوس الخيال وأضغاث الأحلام ؛ وكيف وأتى له أن يخطر هذا بباله ، وهو أبعد الخلق منه ! وهذا كما يخطر للنفاط<sup>(١)</sup> أن يكون مكيكا ، ولا تنظرن إلى نسبه في المناقب<sup>(٢)</sup> ، بل انظر إلى أن

(١) النفاط : مستخرج النفط ؛ وهو الزيت .

(٢) حاشية ب : « قوله ولا تنظرن في المناقب » ؛ قال في القاموس : « النقاب ، بالكسر : الرجل . العلامة والبطن ، ومنه : « فرخان في نقاب » يضرب لمتشابهين ؛ فعلى هذا يريد بالمناقب المشابهة بالنسب .

الإمامة هي نبوة مختصرة ، وأن الطليق المعدود من المؤلفة قلوبهم المكذب بقلبه وإن أقرّ بلسانه ، الناقص المنزلة عند المسلمين ، القاعد في أخريات الصفّ ؛ إذا دخل إلى مجلس فيه أهل السوابق من المهاجرين ، كيف يخطر ببال أحد أنها تصير فيه ويملكها ويسمه الناس وسمها ، ويكون للمؤمنين أميرا ، ويصير هو الحاكم في رقاب أولئك العظماء من أهل الدين والفضل ! وهذا أعجب من العجب ، أن يجاهد النبيّ صلى الله عليه وآله قوماً بسيفه ولسانه ثلاثا وعشرين سنة ، ويلعنهم ويعدّهم عنه ، وينزل القرآن بذهمهم ولعنهم ، والبراءة منهم ، فلما تمهدت له الدولة ، وتغلب الدين على الدنيا ، وصارت شريعة دليّة محكمة ، مات فشيّد ديته الصالحون من أصحابه ، وأوسموا رقعة ملته ، وعظم قدرها في النفوس ، فقبسها منهم أولئك الأعداء الذين جاهدهم النبيّ صلى الله عليه وآله فلكوها وحكموا فيها ، وقتلوا الصالحاء والأبرار وأقارب نبيّهم الذين يظهرون طاعته ، وآلت تلك الحركة الأولى وذلك الاجتهاد السابق إلى أن كان ثمرته لهم ؟ فليته كان يبعث فيرى معاوية الطليق وابنه ، ومرّوان وابنه خلفاء في مقامه ، يحكمون على المسلمين ، فوضح أن معاوية فيما يراجعه ويكاتبه به ؛ كصاحب الأحلام .

وأما تشبيهه إياه بالقائم مقاماً قد بهظه ؛ فلأن الحجج والشبه والمعاذير التي يذكرها معاوية في كتبه أو هن من نسج العنكبوت ، فهو حال ما يكتب كالقائم ذلك المقام يحبط خبط المشواء ، ويكتب ما يعلم هو والعقلاء من الناس أنه سفّه وباطل .

فإن قلت : فما معنى قوله عليه السلام : « لولا بعض الاستبقاء » ؟ وهل كانت الحال تقتضي أن يستبقى ؟ وما تلك القوارع التي أشار إليها ؟

---

== يعني أن معاوية وإن كان في النسب له بعض المشابهة بلسبه عليه السلام من حيث القرشية والقرابة ولكنه . إذ انظرت إلى أن الإمامة هي نبوة مختصرة لا يصلح لها إلا من اجتمعت فيه فضائل من النبوة ومناقب تضارعها وسوابق تتلوها ، وأما الطلقاء وأبناء الطلقاء فليس لهم أن يتعزوا لأن يكونوا من أدنى موالى أربابها .



قلت : قد قيل : إنَّ النبي صلى الله عليه وآله فَوَّضَ إليه أَمْرَ نِسَائِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وجعل إليه أن يقطع عصمة أَيْتِهِنَّ شاء إذا رأى ذلك ، وله من الصحابة جماعة يشهدون له بذلك ، فقد كان قادراً على أن يقطع عصمة أُمِّ حَبِيبَةَ ، ويبيح نكاحها الرِّجَالِ عَقُوبَةَ لَهَا ولَمَعَاوِيَةَ أَخِيهَا ، فَإِنَّهَا كَانَتْ تُبْغِضُ عَلِيًّا كَمَا يُبْغِضُهُ أَخُوهَا ، ولو فعل ذلك لانتَهَسَ لَحْمَهُ ، وهذا قول الإمامية ، وقد رووا عن رجالهم أنه عليه السلام تهَّدَدَ عائشة بضربٍ من ذلك ، وأما نحن فلا نصدِّق هذا الخبر ، ونفسر كلامه على معنى آخر ، وهو أنه قد كان معه من الصَّحَابَةِ قوم كثيرون سَمِعُوا من رسول الله صلى الله عليه وآله يلعن معاوية بعد إسلامه ، ويقول : إِنَّهُ مُنَافِقٌ كَافِرٌ ، وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، والأخبار في ذلك مشهورة ؛ فلو شاء أن يحمل إلى أهل الشام خطوطهم وشهاداتهم بذلك ، ويسمعهم قولهم ملافةً ومشافهةً لفعل ، ولكنه رأى العدول عن ذلك ، مصلحةً لِأَمْرِ يَلْمُهُ هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، ولو فعل ذلك لانتَهَسَ لَحْمَهُ ، وَإِنَّمَا أَبْقَى عَلَيْهِ .

وقلت لأبي زيد البصريّ : لِمَ أَبْقَى عَلَيْهِ ؟ فقال : والله ما أَبْقَى عَلَيْهِ مِرَاعَاةً لَهُ ، وَلَا رِفْقًا بِهِ ، وَلَكِنَّهُ خَافَ أَنْ يَفْعَلَ كَفْعَلَهُ ، فيقول لعمر بن العاص وحبيب بن مسامة ويُسْرَ بْنَ أَبِي أُرْطَاةٍ وَأَبِي الْأَعْوَرِ وَأَمْثَالِهِمْ : ارْوُوا أَنْتُمْ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنْ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ مُنَافِقٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ ، ثُمَّ يُحْمَلُ ذَلِكَ إِلَى أَهْلِ الْعِرَاقِ ؛ فلهذا السبب أَبْقَى عَلَيْهِ .

(٧٤)

الأضل :

ومن حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن - ونقل من خط هشام  
ابن الكلبي :

هَذَا مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ أَهْلُ الْيَمَنِ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ، وَرَبِيعَةُ حَاضِرُهَا وَبَادِيهَا ،  
أَنَّهُمْ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ يَدْعُونَ إِلَيْهِ ، وَيَأْمُرُونَ بِهِ وَيُحْيِيُونَ مَنْ دَعَا إِلَيْهِ وَأَمَرَ بِهِ ،  
لَا يَشْتَرُونَ بِهِ كَمَنَّا قَلِيلًا ، وَلَا يَرْضَوْنَ بِهِ بَدَلًا ، وَأَنَّهُمْ يَدُّ وَاحِدَةً عَلَى مَنْ خَالَفَ  
ذَلِكَ وَتَرَكَهُ ، وَأَنَّهُمْ أَنْصَارُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، دَعْوَتُهُمْ وَاحِدَةٌ ، لَا يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ  
لِمُعْتَبَةٍ عَاتِبٍ ، وَلَا لِعُضْبٍ غَاضِبٍ ، وَلَا لِاسْتِدْلَالٍ قَوْمٍ قَوْمًا ، وَلَا لِمُسَبَّةٍ قَوْمٍ قَوْمًا ،  
عَلَى ذَلِكَ شَاهِدُهُمْ وَغَائِبُهُمْ ، وَسَفِيهِهُمْ وَعَالِيهِمْ ، وَحَلِيمُهُمْ وَجَاهِلُهُمْ .  
ثُمَّ إِنَّ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ كَانَ مَسْئُولًا .  
وَكُتِبَ عَلَى بَنِي أَبِي طَالِبٍ .

\*\*\*

الشنخ :

الحلف : العهد ، أى ومن كتاب حلف ؛ فحذف المضاف . واليمن : كل من ولده  
قحطان ؛ نحو حمير ، وعك ، وجذام ، وكندة ، والأزد ، وغيرهم .  
وربيعة ، هو ربيعة بن زرار بن معد بن عدنان ؛ وهم بكر وتغلب ، وعبد القيس .  
وهشام ، هو هشام بن محمد بن السائب الكلبي ، نسابة ابن نسابة ؛ عالم بأيام العرب  
وأخبارها ، وأبوه أعلم منه ، وهو يروى عن أبيه .

والخاضر : ساكنو الحَضَر : والبادى : ساكنو البادية ؛ واللفظ لفظ المفرد  
والمعنى الجمع .

قوله : « إنهم على كتاب الله » حرف الجرّ يتعلّق بمحذوف ، أى مجتمعون .  
قوله : « لا يشترون به ثمنًا قليلًا » ، أى لا يتموّضون عنه بالثمن ، فسَمّى التعمّوض  
اشتراء ؛ والأصل هو أن يشتري الشيء بالثمن لا الثمن بالشيء ، لكنه من باب اتّساع العرب ،  
وهو من ألفاظ القرآن العزيز (١) .  
وأنهم يدّ واحدة ، أى لا خلف بينهم .

قوله : « لمعتبة عاب » ، أى لا يؤثّر في هذا العهد والحلف ، ولا ينقضه أن يعتب أحد  
منهم على بعضهم ؛ لأنه استجداه فلم يُجديه ، أو طلب منه أمرا فلم يقم به ، ولا لأنّ أحداً  
منهم غضب من أمر صدر من صاحبه ، ولا لأنّ عزيزاً منهم استذلّ ذليلاً منهم ، ولا لأن  
إنساناً منهم سبّ أو هجا بعضهم ، فإنّ أمثال هذه الأمور يتعذّر ارتفاعها بين الناس ؛ ولو  
كانت تنقض الحلف لما كان حلف أصلاً .

واعلم أنه قد ورد في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله : « كلّ حلف كان في الجاهليّة  
فلا يزيد الإسلام إلّا شدة » ؛ ولا حلف في الإسلام ، لكن فعل أمير المؤمنين عليه السلام  
أولى بالاتباع من خبر الواحد ؛ وقد تحالفت العرب في الإسلام مراراً ، ومن أراد الوقوف  
على ذلك فليطلبه من كتب التواريخ .

---

(١) وهو قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ .

(٧٥)

الأفضل :

ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة في أول ما بويع له بالخلافة - ذكره الواقدي في كتاب الجمل :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ :  
أَمَّا بَعْدُ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ إِعْذَارِي فِيكُمْ ، وَإِعْرَاضِي عَنْكُمْ ، حَتَّى كَانَ مَا لَا بُدَّ مِنْهُ  
وَلَا دَفْعَ لَهُ ، وَالْحَدِيثُ طَوِيلٌ ، وَالْكَلَامُ كَثِيرٌ ، وَقَدْ أَذْبَرَ مَا أَذْبَرَ ، وَأَقْبَلَ  
مَا أَقْبَلَ ، فَبَايَعَ مَنْ قَبْلَكَ ، وَأَقْبَلَ إِلَيَّ فِي وَفْدٍ مِنْ أَصْحَابِكَ . وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

الشنخ :

كتابه إلى معاوية ومخاطبته لبني أمية جميعا . قال : « وقد علمت إعداري فيكم » ،  
أى كونى ذا عذرٍ لو لم تُتَّكُمُ أو ذممتكم - يعنى فى أيام عثمان .

ثم قال : « وإعراضى عنكم » أى مع كونى ذا عذرٍ لو فعلت ذلك فلم أفعله ، بل أعرضت  
عن إساءتكم إلى وضربت عنكم صفحا . حتى كان ما لا بد منه - يعنى قتل عثمان  
وما جرى من الرجبة بالمدينة .

ثم قاطعه الكلام مقاطعة وقال له : والحديث طويل ، والكلام كثير ، وقد أذبر  
ذلك الزمان ، وأقبل زمان آخر ، فبايع وأقدم ؛ فلم يبايع ولا قدم ، وكيف يبايع

وعينه طامحة إلى الملك والرياسة منذ أمره عمر على الشام ؛ وكان على الهمة ، تواقاً إلى معالي الأمور ، وكيف يطيع عليّاً والمحرضون له على حربته عدد الحصا ! ولو لم يكن إلا الوليد بن عقبة لكفى ، وكيف يسمع قوله :

فوالله ما هندُ بأمك إن مضى النهارُ ولم يثار بعثاً ثائرُ

أَيَقْتُلُ عَبْدُ الْقَوْمِ سَيِّدَ أَهْلِهِ      ولم تقتلوه ، ليت أمك عاقرُ

ومن عجب أن بت بالشام وادعاً      قريراً وقد دارت عليه الدوائرُ !

ويطيع عليّاً ، ويباع له ، ويُقدم عليه ، ويسلم نفسه إليه ، وهو نازل بالشام في وسط قحطان ودونه منهم حرّة لا ترام ؛ وهم أطوع له من نعله ، والأمر قد أمكنه الشروع فيه ؛ وتالله لو سمع هذا التحريضُ أجبنُ الناس وأضعفهم نفساً وأنقصهم همّة لحركة وشحد من عزمه ؛ فكيف معاوية ، وقد أيقظ الوليدُ بشعره من لا ينام !

(٧٦)

الأضل :

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة :

سَعِ النَّاسَ بِوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ ، وَإِيَّاكَ وَالغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ  
مِنَ الشَّيْطَانِ .

وَأَعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللَّهِ يُبَاعِدُكَ مِنَ النَّارِ ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللَّهِ يُقَرِّبُكَ  
مِنَ النَّارِ .

\*\*\*

الهنج :

روى : « وحلمك » . والقرب من الله ، هو القرب من ثوابه ؛ ولا شبهة أن ما قرب  
من الثواب باعد من العقاب ، وبالعكس لتنافيهما .

فأما وصيته له أن يسع الناس بوجهه ومجلسه وحكمه ، فقد تقدّم شرح مثله ، وكذلك  
القول في الغضب :

وطيرة من الشيطان : بفتح الطاء وسكون الياء ، أى خفة وطيش  
قال الكميت :

وَحِلْمُكَ عِزٌّ إِذَا مَا حَلُمْتَ وَطَيْرَتُكَ الصَّابُ وَالْحَنْظَلُ<sup>(١)</sup>

(٧٧)

## الأفضل

ومن وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس أيضا لما بعثه للاحتجاج على الخوارج :

لَا تُخَاصِمُهُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَلٌ ذُو وُجُوهِ ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ ... وَلَكِنْ حَاجِبُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصًا .

\*\*\*

## الشَّيْخُ

هذا الكلام لا نظير له في شرفه وعلو معناه ، وذلك أن القرآن كثير الاشتباه ، فيه مواضع يُظنُّ في الظاهر أنها متناقضة متنافية ، نحو قوله : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾<sup>(٢)</sup> ، ونحو قوله : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> وقوله : ﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾<sup>(٤)</sup> ، ونحو ذلك ، وهو كثير جدًا ؛ وأما السنة فليست كذلك ، وذلك لأن الصحابة كانت تسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وتستوضح منه الأحكام في الوقائع ، وما عساه يشتبه عليهم من كلامهم ؛ يراجعونه فيه ؛ ولم يكونوا يراجعونه في القرآن إلا فيما قلَّ ؛ بل كانوا يأخذونه منه تلقفًا ، وأكثرهم لا يفهم معناه ،

(١) سورة الأنعام ١٠٣ . (٢) سورة القيامة ٢٣ .

(٣) سورة يس ٩ . (٤) سورة فصلت ١٧ .

لا لأنه غير مفهوم ؛ بل لأنهم ما كانوا يتعاطون فهمه ؛ إما إجلالا له أو لرسول الله أن يسألوه عنه ، أو يجروونه مجرى الأسماء الشريفة التي إنما يراد منها بركتها لا الإحاطة بمعناها ؛ فلذلك كثر الاختلاف في القرآن . وأيضا فإن ناسخه ومنسوخه أكثر من ناسخ السنة ومنسوخها ؛ وقد كان في الصحابة من يسأل الرسول عن كلمة في القرآن يفسرها له تفسيراً موجزاً ، فلا يحصل له كل الفهم ، لما أنزلت آية الكلاله<sup>(١)</sup> ، وقال في آخرها : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾<sup>(٢)</sup> ، سأل عمر عن الكلاله ماهو ؟ فقال له : يكفيك آية الصيف ، لم يزد على ذلك ، فلم يراجع عمر وانصرف عنه ، فلم يفهم مراده ، وبقي عمر على ذلك إلى أن مات ، وكان يقول بعد ذلك : اللهم مهما بيّنت ، فإن عمر لم يتبين ، يشير إلى قوله : ﴿ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا ﴾ وكانوا في السنة ومخاطبة الرسول على خلاف هذه القاعدة ، فلذلك أوصاه على عليه السلام أن يحاجهم بالسنة لا بالقرآن .

فإن قلت : فهل حاجهم بوصيته ؟

قلت : لا ، بل حاجهم بالقرآن ، مثل قوله : ﴿ فابمئشوا حكما من أهله وحكما من أهلها ﴾<sup>(٣)</sup> ومثل قوله في صيد المحرم : ﴿ يحكمكم به ذوا عدل منكم ﴾<sup>(٤)</sup> ؛ ولذلك لم يرجعوا والتجتمت الحرب ، وإنما رجع باحتجاجة نفر منهم .

فإن قلت : فما هي السنة التي أمره أن يحاجهم بها ؟

قلت : كان لأمر المؤمنين عليه السلام في ذلك غرض صحيح ، وإليه أشار ، وحوله كان يطوف ويحوم ، وذلك أنه أراد أن يقول لهم : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « على مع الحق والحق مع على يدور معه حيثما دار » ، وقوله : « اللهم وال من والاه وعاد من عاداه ، وانصر من نصره ، واخذل من خذله » ، ونحو ذلك من الأخبار التي

(١) يريد قوله تعالى في آخر آية من سورة النساء : « يسألونك عن الكلاله » الخ .

(٢) سورة النساء ١٢ . (٣) سورة النساء ٣٥ .

(٤) سورة المائدة ٩٥ .



كانت الصحابة قد سمعها من فلق فيه صلوات الله عليه ، او قد بقى ممن سمعها جماعة  
تقوم الحجة وتثبت بنقلهم ، ولو احتج بها على الخوارج في أنه لا يحل مخالفته والعدول عنه  
بحالٍ لحصل من ذلك غرض أمير المؤمنين في حاجتهم ، وأغراض أخرى أرفع وأعلى منهم ؛  
فلم يقع الأمر بموجب ما أراد ، وقضى عليهم بالحرب ؛ حتى أكلتهم عن آخرهم ، وكان  
أمر الله مفعولا .

(٧٨)

الأضل :

ومن كتاب له عليه السلام أجاب به أبا موسى الأشعري عن كتاب كتبه إليه من المسكان الذي اتعدوا فيه للحكومة - وذكر هذا الكتاب سعيد ابن يحيى الأموى فى كتاب المغازى :

فَإِنَّ النَّاسَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ كَثِيرٍ مِنْ حَظِّهِمْ ، فَمَأْكُلُوا مَعَ الدُّنْيَا ، وَنَطَقُوا بِالْهَوَى ؛ وَإِنِّ نَزَلْتُ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ مَنَزِلًا مُنْجِبًا ؛ اجْتَمَعَ بِهِ أَقْوَامٌ أَعْجَبَتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَأَنَا أَدَاوَى مِنْهُمْ قَرَحًا أَخَافُ أَنْ يَمُودَ عِلْقًا يَمُودُ ، وَابْسَ رَجُلٌ - فَأَعْلَمُ - أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالْفَتْحِهَا مِنِّى ، أَبْتَغِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ ، وَكَرَمَ الْمَالِ .  
وَسَأْفَى بِالَّذِى وَابَيْتُ عَلَى نَفْسِى ، وَإِن تَغَيَّرَتْ عَنْ صَالِحِ مَا فَارَقْتَنِي عَلَيْهِ ، فَإِنَّ الشَّقَى مِنْ حُرْمِ نَفْعِ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجَرُّبَةِ ، وَإِنِّ لَأَعْبُدُ أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ رِبَاطِلٍ ، وَأَنْ أَفْسِدَ أَمْرًا قَدْ أَصْلَحَهُ اللَّهُ ، فَدَعُ عَنْكَ مَا لَا تَعْرِفُ ، فَإِنَّ شِرَارَ النَّاسِ طَائِرُونَ إِلَيْكَ بِأَقْوِيلِ السُّوءِ ، وَالسَّلَامُ .

\*\*\*

الشَّرْحُ :

روى : « ونطقوا مع الهوى » ، أى مائلين مع الهوى .  
وروى : « وأنا أدارى » بالراء ، من المداراة ، وهى الملاينة والمساهلة .

وروى: « نفع ما أولى » باللام ؛ يقول : أوليته معروفا .

وروى: « إن قال قائل يبطل ويفسد أمرا [ قد أصلحه الله <sup>(١)</sup> ] » .

واعلم أن هذا الكتاب كتاب مَنْ شكَّ في أبي موسى واستوحش منه ؛ ومن قد نقل عنه إلى أبي موسى كلاماً إمّا صدقا وإمّا كذباً . [ وقد نقل عن أبي موسى إليه كلاماً إمّا صدقا أيضاً وإمّا كذباً <sup>(٢)</sup> ] ، قال عليه السلام : إنَّ الناس قد تغيَّر كثير منهم عن حظِّهم من الآخرة ، فالوا مع الدنيا . وإني نزلت من هذا الأمر منزلاً معجباً ، بكسر الجيم ، أى يجب مَنْ رآه ، أى يجعله متمعِّباً منه .

وهذا الكلام شكوى من أصحابه ونصَّاره من أهل العراق ؛ فإنهم كان اختلافهم عليه واضطرابهم شديداً جداً . والمنزل والنزول هاهنا مجاز واستعارة ، والمعنى أني حصلت في هذا الأمر الذى حصلت فيه على حال معجبة لمن تأملها ؛ لأنني حصلت بين قوم كل واحد منهم مستبدٌّ برأى يخالف فيه رأى صاحبه ؛ فلا تنتظم لهم كلمة ولا يستوثق لهم أمر ؛ وإن حكمت عليهم برأى أراه أنا خالفوه ونصَّوه ، ومن لا يطاع فلا رأى له ، وأنا معهم كالطبيب الذى يداوى قرْحاً ، أى جراحة قد قاربت الاندمال ولم تندملْ بعدُ ؛ فهو يخاف أن يعود علقماً ، أى دماً .

ثم قال له : ليس أحد - فاعلم - أحرص على ألفة الأمة وضمِّ نشر المسلمين .

وأدخل قوله : « فاعلم » بين اسم ليس وخبرها فصاحة ، ويجوز رفع « أحرص » بجمله

صفةً لاسم « ليس » ؛ ويكون الخبر محذوفاً - أى ليس في الوجود رجل .

وتقول : قد وأيتُ وأياً ، أى وعدت وعداً ، قال له : أمّا أنا فسوف أفي بما وعدت وبما

استقرَّ بيني وبينك ؛ وإن كنت أنت قد تغيَّرت عن صالح ما فارقتني عليه .

فإن قلت : فهل يجوز أن يكون قوله : « وإن تغيّرت » من جملة قوله فيما بعد « فإنّ الشقّ » كما تقول : إن خالفتني فإنّ الشقّ من يخالف الحق .  
قلت : نعم ؛ والأوّل أحسن ؛ لأنه أدخل في مدح أمير المؤمنين عليه السلام كأنه يقول : « أنا أف وإن كنت لا تفي ، والإيجاب يحسنه السلب الواقع في مقابلته :  
\* والصدّ يظهر حسنه الصدّ \*

ثم قال : « وإني لأعبد » أي آنف ، من عبد بالكسر أي أنف ، وفسروا قوله : ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾<sup>(١)</sup> بذلك ، يقول : إني لآنف من أن يقول غيري قولاً باطلاً ، فكيف لا آنف أنا من ذلك لنفسي ! ثم تختلف الروايات في اللفظة بعدها كما ذكرنا .  
ثم قال : « فدع عنك ما لا تعرف » أي لا تبني أمرك إلا على اليقين والعلم القطعي ، ولا تُصغِر إلى أقوال الوشاة ونقطة الحديث ؛ فإنّ الكذب يخالط أقوالهم كثيراً ، فلا تصدّق ما عساه يبلغك عن شرار الناس ؛ فإنّهم سراع إلى أقاويل السوء ؛ ولقد أحسن القائل فيهم :

إِنْ يَسْمَعُوا الْخَيْرَ يُخَفُّوهُ وَإِنْ سَمِعُوا شَرًّا أَذَاعُوا وَإِنْ لَمْ يَسْمَعُوا كَذَبُوا  
ونحو قول الآخر :  
إِنْ يَسْمَعُوا رِيَّةً طَارُوا بِهَا فَرَحًا      وَإِنْ ذُكِرَتْ بُخَيْرٌ عَنْدهُمْ دَفَنُوا<sup>(٢)</sup>

(١) سورة الزخرف ٨١ . (٢) لقعب بن أم صاحب ، مختارات ابن الشجري ١ : ٧

(٧٩)

الأضل :

ومن كتاب كتبه عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد :

أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ مَنَعُوا النَّاسَ الْحَقَّ فَاشْتَرَوْهُ ،  
وَأَخَذُوهُمْ بِالْبَاطِلِ فَأَقْتَدَوْهُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

أى منعوا الناس الحق فاشتري الناس الحق منهم بالرشا والأموال ، أى لم يضمنوا  
الأمر مواضعها ، ولا ولّوا الولايات مستحقّتها ، وكانت أمورهم الدينية والدنيوية تجري  
على وفق الهوى والفرس الفاسد ، فاشتري الناس منهم الميراث والحقوق كما تشتري السلع  
بالمال .

ثم قال : « وأخذوهم بالباطل فاقتدوه » ، أى حملوهم على الباطل فجاء الخلف من بعد  
السلف ، فاقتدوا بآبائهم وأسلافهم في ارتكاب ذلك الباطل ظناً أنه حق لما قد ألفوه ونشئوا  
وربّوا عليه .

وروى « فاستروه » بالسین المهملة أى اختاروه ، يقال استريتُ خيار المال ، أى اخترته  
ويكون الضمير عائداً إلى « الظلمة » لا إلى « الناس » ، أى منعوا الناس حقهم من المال  
واختاروه لأنفسهم واستأثروا به .



# باب الحكم والمواعظ





باب المختار من حكم أمير المؤمنين ومواعظه  
ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله والكلام القصير  
الخارج من سائر أغراضه

\*\*\*

الشَّيْخُ :

اعلم أن هذا الباب من كتابنا كالروح من البدن ، والسواد من العين ؛ وهو الدرّة  
المكنونة التي سائر الكتاب صدّفها ؛ وربما وقع فيه تكرار لبعض ما تقدّم يسير جدًّا ؛  
وسبب ذلك طول الكتاب وبعد أطرافه عن الذهن ، وإذا كان الرضى رحمه الله قدسها  
فكرّر في مواضع كثيرة في ” نهج البلاغة “ على اختصاره كنّا نحن في تكرار يسير  
في كتابنا الطويل أعذر .

(١)

الأصل :

كُنْ فِي الْفِتْنَةِ كَابْنِ اللَّبُونِ ؛ لَا ظَهْرَ قَيْرُ كَبْ ، وَلَا ضَرْعَ فَيْحَلَبَ .

\*\*\*

الشرح :

ابن اللبون : ولد الناقة الذَّكَرُ إذا استكمل السنة الثانية ودخل في الثالثة ؛ ولا يقال للأُنثى : ابنة اللبون ؛ وذلك لأنَّ أمَّهما في الأغلب ترضع غيرها ، فتكون ذات لبن ، واللبون من الإبل والشاة : ذات اللبن ، غزيرة كانت أو بكيفة<sup>(١)</sup> ، فإذا أرادوا الغزيرة قالوا : لبينة ، ويقال : ابن لبون وابن اللبون ، منكراً أو معرباً ، قال الشاعر :

وابن اللبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرَنِ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُرْلِ الْقَنَاعِيسِ<sup>(٢)</sup>

وابن اللبون لا يكون قد كمل وقوى ظهره على أن يركب ، وليس بأنثى ذات ضرع فيُحلب وهو مطَّرح لا يُلتفع به .

وأَيَّامُ الفتنَةِ هي أَيَّامُ الخِصومة والحرب بين رُئِيسَيْنِ ضالِّينِ يدعوان كلاهما إلى ضلالة كفتنة عبد الملك وابن الزبير ، وفتنة مروان والضَّحَّاك ، وفتنة الحِجَّاج وابن الأشعث ونحو ذلك ، فأما إذا كان أحدهما صاحب حق فليست أيام فتنة كالجمل وصِفِّين ونحوهما بل يجب الجهاد مع صاحب الحق وسلِّ السِّيف والنهْي عن النُّكْر وبذل النَّفْس في إعزاز الدين وإظهار الحق .

(١) البَكِيَّة : قليلة اللبن . (٢) لجبر ، ديوانه ٣٢٣ . القرن : الجبل . والقناعيس : الشداد .

قال عليه السلام : أخمِلِ نفسك أيام الفتنة ، وكن ضعيفاً مغموراً بين الناس لا تصلح لهم بنفسك ولا بمالك ولا تنصر هؤلاء وهؤلاء .

وقوله : « فِيرَكَبَ » « فَيُحْلَبَ » ، منصوبان لأنهما جواب النفي ، وفي الكلام محذوف تقديره : « له » ؛ وهو يستحق الرفع ، لأنه خبر المبتدأ ، مثل قولك : لا إله إلا الله ، تقديره « لنا » ، أو « في الوجود » .

(٢)

الأصل :

أُزْرِيَ بِنَفْسِهِ مَنْ اسْتَشَمَرَ الطَّمَعَ ، وَرَضِيَ بِالذُّلِّ مَنْ كَشَفَ عَنْ ضُرِّهِ ،  
وَهَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ أَمَرٍ عَلَيْهَا لِسَانُهُ .

\*\*\*

الشرح :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول في الطمع : قوله عليه السلام « أُزْرِيَ بِنَفْسِهِ » ، أى قصر بها .  
من استشمر الطمع ، أى جعله شعاره أى لازمه .  
وفي الحديث المرفوع : « إن الصفا الزوال الذى لا تثبت عليه أقدام العلماء الطمع » .  
وفي الحديث أنه قال للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »  
أى عند طمع الرزق .

وكان يقال : أكثر مصارع الأبواب تحت ظلال الطمع .

وقال بعضهم : العبيد ثلاثة : عبد رق ، وعبد شهوة ، وعبد طمع .

وسئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن الغنى ، فقال : « اليأس عما فى أيدي الناس ،  
ومن مشى منكم إلى طمع الدنيا فليمش رويداً » .

وقال أبو الأسود :

إِلْسُ عَدُوِّكَ فِي رِفْقٍ وَفِي دَعَاةٍ طَوْبِي لَذَى إِرْبَةٍ لِلدَّهْرِ لِبَّاسٍ  
ولا تَغْرُنْكَ أَحْقَاذُ مَرْمَلَةٍ قَدْ يُرَكِّبُ الدَّيْرَ الدَّامِيَ بِأَحْلَاسٍ  
وَاسْتَفْنِ عَنْ كُلِّ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ إِنَّ النَّنَى الَّذِي اسْتَفْنَى عَنْ النَّاسِ

قال عمر : ما ألحمر صِرْفًا بأذهب لعقول الرجال من الطمع .

وفي الحديث المرفوع : « الطمع الفقر الحاضر » .

قال الشاعر :

رَأَيْتُ مَخِيلَةً فَطِمَعَتْ فِيهَا وَفِي الطَّمَعِ الْمَذَلَّةُ لِلرَّقَابِ

الفصل الثاني في الشكوى : قال عليه السلام : « من كشف للناس ضره » أى شكى

إليهم بؤسه وفقره ، « فقد رضى بالذل » .

كان يقال : لا تشكون إلى أحد ، فإنه إن كان عدواً سره ، وإن كان صديقاً ساءه

وليس سره العدو ولا مساءة الصديق بمحمودة .

سمع الأحنف رجلاً يقول : لم أنم الليلة من وجع ضرسى ؛ فجعل يكثر ، فقال : يا هذا

لم تكثر ؟ فوالله لقد ذهبت عيني منذ ثلاثين سنة فما شكوت ذلك إلى أحد ، ولا أعلمت بها أحداً .

الفصل الثالث في حفظ اللسان : قد تقدم لنا قول شافى في ذلك ، وكان يقال : حفظ

اللسان راحة الإنسان ، وكان يقال : رب كلمة سفكت دماً ، وأورثت ندماً .

وفي الأمثال المامية ، قال اللسان للرأس : كيف أنت ؟ قال : بخير لو تركتني .

وفي وصيه المهلب لولده ، يا بني تباذلوا تحابوا ، فإن بنى الأعيان يختلفون فكيف ببنى

العلات ، إن البر ينسأ في الأجل ، ويزيد في العدد ، وإن القطيعة تورث القلة ، وتعقب

النار بعد الذلّة . اتقوا زلة اللسان فإن الرجل تزلّ رجله فينتمش ، ويزلّ لسانه فيهلك ،  
وعليكم في الحرب بالكيدة ، فإنها أبلغ من النجدة ، وإن القتال إذا وقع وقع القضاء ،  
فإن ظفر الرجل ذو الكيد والحزم سعد ، وإن ظفر به لم يقولوا : فرط .

وقال الشاعر في هذا المعنى :

يموتُ الفتي من عثرةٍ بلسانه      وليس يموتُ المرء من عثرة الرجل

(٣)

الأفضل :

البُخْلُ عَارٌ ، وَالْجُبْنُ مَنْقَصَةٌ ، وَالْفَقْرُ يُخْرِسُ الْفَطِينَ عَنْ حَاجَتِهِ ، وَالْمَقِلُّ غَرِيبٌ فِي بَلَدَتِهِ .

\* \* \*

الشيخ :

هذه ثلاثة فصول :

الفصل الأول في البخل . وقد تقدّم لنا كلام مقنع في ذلك .  
ومن كلام بعض الحكماء في ذلك : ما أقلّ مَنْ يحمده الطالب ، وتستقلّ به العشائر ، ويرضى عنه السائل ، وما زالت أمّ الكرم نزورا وأمّ اللؤم ذلولا . وأكثر الواجدين مَنْ لا يهود ، وأكثر الأجواد من لا يبيد .  
وما أحسن قول القائل : كفى حزناً أنّ الجواد مقتّر عليه ، ولا معروف عند بخيل .  
وكان يقال : البخل مهانة ، والجود مهابة .

ومن أحسن ما نقل من جُود عبد الله المأمون أنّ عمر بن مسعدة كاتبه مات في سنة سبع عشرة ومائتين ، وخلف تركة جليّة ، فبعث أخاه أبا إسحاق المعتصم وجماعة معه من الكتاب ليحصروا مبلغها ، فجاء المعتصم إليه وهو في مجلس الخلافة ، ومعه الكتاب ، فقال : ما رأيتم ؟ فقال المعتصم معظما لما رآه : وجدنا عيّنا ، وصامتا ، وضياعا ، قيمة ذلك أجمع ثمانية آلاف ألف دينار - ومدّ صوته - فقال المأمون : إنّ الله ! والله ما كنت أرضاها

لتابع من أتباعه ليوفر هذا على مخلّفيه ! نخجل المعتصم حتى ظهر خجله للحاضرين.

\*\*\*

الفصل الثاني في الجبن ، وقد تقدم قولنا في فضل الشجاعة .

وقال هشام بن عبد الملك لمسلمة أخيه : يا أبا سعيد ، هل دخلك ذعر في حرب قطّ شهدت؟ قال : ما سلمت في ذلك عن ذعر ينّبه على حيلة ، ولا غشيّني ذعر سلّبنى رأياً ، فقال له هشام : هذه والله البسالة ، قال أبو دلّامة ، وكان جباناً :

إني أعود برّوح أن يقدمني إلى القتال فتشقى بي بنو أسدٍ  
إن المهلب حبّ الموت أورثكم ولم أرث رغبة في الموت عن أحدٍ  
قال المنصور لأبي دلّامة في حرب إبراهيم : تقدّم ويك ! قال : يا أمير المؤمنين ؛ شهدت مع مروان بن محمد أربعة عساكر كلّها انهزمت وكسرت ؛ وإني أعيذك بالله أن يكون عسكرك الخامس .

\*\*\*

الفصل الثالث في الفقر . وقد تقدّم القول فيه أيضاً .

ومثل قوله : « الفقر يخرس الفطن عن حاجته » قول الشاعر :

سأعمل نصّ العيس حتى يكفني غنى المال يوماً أو غنى الحداث  
فللموت خير من حياة يرى لها على الحرّ بالإقلال وسمّ هوان  
متى يتكلمم يبلغ حكم كلامه وإن لم يقلّ قالوا عديم بيان  
كأن الغنى عن أهله بورك الغنى بغير لسان ناطق بلسان  
ومثل قوله عليه السلام : « والمقلّ غريب في بلده » قول خلف الأحمر :  
لا تظنني أنّ الغريب هو النّا لي ولكنّا الغريب المقلّ  
وكان يقال : مالك نورك ، فإن أردت أن تنكسف فقره وأتلفه .



قيل للإسكندر : لم حفظت الفلاسفة المال مع حكمتها ومعرفتها بالدنيا ؟ قال : لئلا  
توجههم الدنيا إلى أن يقوموا مقاماً لا يستحقونه .  
وقال بعض الزهاد : ابدأ برغيفيك فاحرزُهما ثم تمبّد .  
وقال الحسن عليه السلام : مَنْ زعم أنه لا يحبّ المال فهو عندي كاذب ، فإن علمت  
صدقه فهو عندي أحمق .

(٤)

الأفضل :

المعجز آفةً ، والصبر شجاعةً ، والزهد مروءةً ، والورع جنةً ، ولعمّ القرين  
الرضا .

\*\*\*

الشيخ :

فهذه فصول خمسة :

الفصل الأول : قوله عليه السلام « المعجز آفة » ، وهذا حق لأن الآفة هي النقص  
أو ما أوجب النقص ، والمعجز كذلك .  
وكان يقال : المعجز المفرط ترك التأهب للمعاد .  
وقالوا : المعجز مجزان ، أحدهما معجز التقصير وقد أمكن الأمر ، والثاني الجد في طلبه  
وقد فات .

وقالوا : المعجز نائم ، والحزم يقظان .

\*\*\*

الفصل الثاني في الصبر والشجاعة : قد تقدّم قولنا في الصبر .  
وكان يقال : الصبر مرّ ، لا يتجرّعه إلا حرّ .  
وكان يقال : إن للأزمان الحمودة والمذمومة أعماراً وآجالاً كأعمار الناس وآجالهم ؛  
فاصبروا لزمانِ السوء حتى يفنى عمره ، ويأتى أجله .  
وكان يقال : إذا تضيّقت نازلةٌ فاقرها الصبر عليها ، وأكرم مثواها لديك بالتوكل .

والاحتساب لترحل عنك ، وقد أبقْتُ عليك أكثر مما سلَّبتُ منك ، ولا تنسها عند رخائك ، فإنَّ تذكُّرك لها أوقات الرِّخاء يبعد السوء عن فعلك ، وينفي القساوة عن قلبك ويوزعك سَمد الله وتقواه .

\*\*\*

الفصل الثالث : قوله : « والزهد ثروة » ، وهذا حقٌّ ، لأنَّ الثروة ما استغنى به الإنسان عن النَّاس ، ولا غناء عنهم كالزُّهد في دنياهم ؛ فالزُّهد على الحقيقة هو الغنى الأكبر .

وروى أنَّ عليا عليه السلام قال لعمر بن الخطاب أوَّل ما ولى الخلافة : إنَّ سرَّكَ أن تلحق بصاحبك فقصر الأمل ؛ وكلُّ دون الشَّيع ، وارقع القميص ، واخصف الثَّعل ، واستغن عن النَّاس بفقرك تلحق بهما .

وقف ملك على سقراط وهو في الشرففة قد أسند ظهره إلى جُبِّ كان يأوى إليه ، فقال له : سل حاجتك ، فقال : حاجتي أن تتنحى عني ، فقد منعني ظلك المرفق بالشمس ، فسأله عن الجُبِّ ، قال : آوى إليه ، قال : فإن انكسر الجُبِّ لم ينكسر المكان .

وكان يقال : الزُّهد في الدنيا هو الزُّهد في المحمَّدة والرياسة ، لا في المَطعم والمشرب ، وعند العارفين : الزُّهد ترك كلِّ شيء يشغلك عن الله .

وكان يقال : العالم إذا لم يكن زاهداً كان عقوبة لأهل زمانه ، لأنهم يقولون : لولا أنَّ علمه لم يصبَّ عنده الزُّهد لَزَّهَد ، فهم يقتدون بزهده في الزُّهد .

\*\*\*

الفصل الرابع : قوله : « والورع جُنة » ؛ كان يقال : لاعصمة كعصمة الورع والعبادة ؛ أمَّا الورع فيعصمك من المعاصي ، وأمَّا العبادة فتعصمك من خصمك ؛ فإنَّ عدوك لو رآكَ قائماً تصلَّى وقد دخل ليقنتك لصدَّ عنك وهابك .

وقال رجل من بني هلال لبنيه : يا بنيّ أظهروا النُّسكَ فإنَّ الناسَ إنْ رأوا مِنْ أَحَدٍ مِنْكُمْ بخلاً ، قالوا : مقتصد لا يحبُّ الإسراف ، وإنْ رأوا عِيّاً ، قالوا : مُتَوَقِّ يكره الكلام ، وإنْ رأوا جُبْنًا قالوا : متحرّج يكره الإقدام على الشبهات .

\*\*\*

الفصل الخامس : قوله : « ونعم القرينُ الرضا » ، قد سبق منا قول مقنّع في الرضا .  
وقال أبو عمرو بن العلاء : دفعت إلى أرض مجدبة بها نفرٌ من الأعراب ، فقلت لبعضهم : ما أرضكم هذه ؟ قال : كما ترى ، لا زرع ولا ضرع ، قلت : فكيف تعيشون ؟ قالوا : نحترش<sup>(١)</sup> الضُّباب ، ونصيد الدّواب ، قلت : فكيف صبركم على ذلك ؟ قالوا : يا هذا ، سلْ خالقَ الخلقِ ؟ هل سويت ؟ فقال : بل رضيتُ .

وكان يقال : مَنْ سَخِطَ القضاء طاحَ ، ومن رضى به استراح .

وكان يقال : عليك بالرضا ، ولو قُلِّبْتَ على جِزْرِ الفضا .

وفي الخبر المرفوع أنه صلى الله عليه وآله قال عن الله تعالى : « من لم يرض بقضائي فليتخذ ربّاً سواي » .

---

(١) في اللسان : « حرش الضب يحرشه حرشاً ، واحترشه وتحرش وتحمره به : أتى قفا جحره فقعقه بعصاه عليه وأتلعج طرفها في جحره فإذا سمع الصوت حسبه دابة تريد أن تدخل عليه فجاء يرحل على رجلين وعجزه مقانلاً ويضرب بذنبه فناهزه الرجل فأخذ بذنبه فضرب عليه — أي شد القبس — فلم يقدر أن يفيع — أي يفلت منه » .

( ٥ )

الأصل :

العلمُ وِرَاثَةٌ كَرِيمَةٌ ، والآدابُ حُلُلٌ مُجَدَّدَةٌ ، والفِكرُ مِرَآةٌ صَافِيَةٌ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

إنما قال : « العلم وراثته » لأنَّ كلَّ عالمٍ من البشر إنما يكتسب علمه من أستاذٍ يَهْدِيهِ وموقِّفٍ يعلمه ؛ فكأنَّه ورث العلم عنه كما يرث الابنُ المالَ عن أبيه ، وقد سبق منا كلام شافٍ في العلم والأدب .

وكان يقال : عطية العالم شبيهة بمواهب الله عزَّ وجلَّ ، لأنها لا تنفذ عند الجود بها وتبقى بكمالها عند مفيدها .

وكان يقال : الفضائل العلمية تشبه النخل ، بطيء الثمرة ، بعيد الفساد .  
وكان يقال : ينبغي للعالم ألا يترفع على الجاهل ، وأن يتطامنَ له بمقدار ما رفعه الله عليه ، وينقله من الشكِّ إلى اليقين ، ومن الحيرة إلى التبيين ، لأن مكافئته قسوة والصبر عليه وإرشاده سياسة .

ومثاله قول بعض الحكماء : انخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذي هو بالرحمة أحقُّ منه بالغلظة ، ويعذره بنقصه فيما فرط منه ولا يعذر نفسه في التأخر عن هدايته .

وكان يقال : العلم في الأرض بمنزلة الشمس في الفلك ، لولا الشمس لأظلم الجو ، ولولا العلم لأظلم أهل الأرض .

وكان يقال : لا حلة أجمل من حلة الأدب ، لأنّ حُلل الثياب تبلى ، وحلل الآداب تبقى ، وحُلل الثياب قد يفتصبها الغاصب ، ويسرقها السارق ، وحُلل الآداب باقية مع جوهر النفس .

وكان يقال : الفكرة الصحيحة إصطرابٌ روحاني .

وقال أوس بن حجر يرثي :

إِنَّ الَّذِي جَمَعَ السَّاحَةَ وَالنَّجْدَةَ وَالْحَزْمَ وَالنُّهَى جَمَاعاً<sup>(١)</sup>  
الْأَلَمَى الَّذِي يَظُنُّ بِكَ الظَّنَّ كَانَ قَدْ رَأَى وَقَدْ سَمِعَا

ومن كلام الحكماء : النار لا ينقصها ما أخذ منها ، ولكن يخمدُها ألاّ تجد حطباً ،

وكذلك العلم لا يُفْنِيهِ الاقتباس ولكن فقد الحاملين له سبب عدمه .

قيل لبعضهم : أيّ العلوم أفضل ؟ قال : ما العامّة فيه أزهد .

وقال أفلاطون : مَنْ جَهِلَ الشَّيْءَ وَلَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ جَمَعَ عَلَى نَفْسِهِ فَضِيحَتَيْنِ .

وكان يقال : ثلاثة لا تجربة معهن : أدب يزين ، ومجانبة الرّيبة ، وكف الأذى .

وكان يقال : عليكم بالأدب ؛ فإنه صاحبُ في السّفر ، ومؤنس في الوحدة ، وجمال في

الحفَل ، وسبب إلى طلب الحاجة .

وكان عبد الملك أديباً فاضلاً ، ولا يجالس إلا أديباً .

وروى الهيثم بن عديّ عن مسعر بن كدام ، قال : حدّثني سميد بن خالد الجَدَلِيّ ،

قال : لما قدم عبد الملك الكوفة بعد قتل مُصعب دَعَا الناس يعرضهم على فرائضهم ،  
فخضرنا بنى يديه ، فقال : من القوم ؟ قلنا : جَدِيلَة ، فقال : جَدِيلَة عَدُوَان ؟ قلنا : نعم ،  
فأنشده :

عَذِيرَ الْحَيِّ مِنْ عَدُوَا      نَ كَانُوا حَيَّةَ الْأَرْضِ<sup>(١)</sup>  
بَنَى بِمَضْمُومٍ بِمَضَا      فَلَمْ يَرَعُوا عَلَى بَعْضِ  
وَمِنْهُمْ كَانَتِ السَّادَاتُ      وَالْمَوْفُونَ بِالْقَرَضِ  
وَمِنْهُمْ حَكْمٌ يَقْضَى :      فَلَا يُنْقَضُ مَا يَقْضَى  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَجِيزُ النَّاسَ      بِالسَّنَةِ وَالْفَرْضِ

ثم أقبل على رجل منّا وسيم جسيم قدّمناه أمامنا ، فقال : أيكم يقول هذا الشعر ؟  
قال : لا أدري ، فقلت أنا من خلفه : يقوله ذو الإصبع ، فتركنى وأقبل على ذلك الرجل  
الجسيم ، فقال : ما كان اسم ذى الإصبع ؟ قال : لا أدري ، فقلت أنا من خلفه : اسمه  
حُرْثَان ، فتركنى وأقبل عليه ، فقال له : ولم سمى ذا الإصبع ؟ قال : لا أدري ، فقلت أنا  
من خلفه : نهشته حَيَّةٌ فى إصبعه ، فأقبل عليه وتركنى ، فقال : رِمْنِ أَيُّكُمْ كَانَ ؟ فقال :  
لا أدري ، فقلت أنا من خلفه : من بنى تاج الذين يقول الشاعر فيهم :

فَأَمَّا بَنُو تَاجٍ فَلَا تَذْكُرْنَهُمْ      وَلَا تَتَّبِعْنِ عَيْنَاكَ مَنْ كَانَ هَالِكَا

فأقبل على الجسيم ، فقال : كم عطاؤك ؟ قال : سبعمائة درهم ، فأقبل على ، وقال :  
وكم عطاؤك أنت ؟ قلت : أربعمائة ، فقال : يا أبا الزَّعِينَةَ ، حط من عطاء هذا ثلثمائة ،  
وزدّها فى عطاء هذا ، فرحت وعطائى سبعمائة وعطاؤه أربعمائة<sup>(٢)</sup> :

وأنشد منشد بحضرة الواثق هارون بن المعتصم :

(١) يقال للرجل الصعب المنيع : حية الأرض .

(٢) الخبر فى الأغانى ٣ : ٩١ ، ٩٢ .

أُظْلِمُ إِنْ مُصَابَكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظُلمٌ<sup>(١)</sup>

فقال شخص: رجل هو خبر «إن»، ووافقه على ذلك وقم وخالفه آخرون، فقال الواصل: من بقي من علماء النحويين؟ قالوا: أبو عثمان المازني بالبصرة، فأمر بإشخاصه إلى سُرْمَنْ رَأَى بعد إزاحة علته، قال أبو عثمان: فأشخصت، فلما أدخلت عليه قال: بمن الرجل؟ قلت: من مازن، قال: من مازن تميم، أم من مازن ربيعة، أم مازن قيس، أم مازن اليمن؟ قلت: من مازن ربيعة، قال: باسمك؟ بالباء؟— يريد: «ما اسمك» لأن لغة مازن ربيعة هكذا، يبدلون الميم باء والباء ميما— فقلت: مكرأى «بكر»، فضحك وقال: اجلس واطمئن، فجلست فسألني عن البيت فأنشدته منصوباً، فقال: فأين خبر إن؟ فقلت: «ظلم» قال: كيف هذا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ألا ترى أن البيت إن لم يجعل «ظلم» خبر «إن» يكون مقطوع المعنى معدوم الفائدة! فلما كررت القول عليه فهم، وقال: قبح الله من لا أدب له، ثم قال: ألك ولد؟ قلت: بنية، قال: فما قالت لك حين ودعتها؟ قلت: ما قالت بنت الأعشى:

تقول ابنتي حين جد الرّحيلُ أَرَانَا سِوَاهُ وَمِنْ قَدْ يَتِيمٌ<sup>(٢)</sup>  
أَبَانَا فَلَا رِمَتْ مِنْ عِنْدَنَا فَإِنَّا بِخَيْرٍ إِذَا لَمْ تَرَمْ  
أَبَانَا إِذَا أَضْمَرْتُكَ الْبَلَا دُ نَجَفَى وَتُقَطَّعَ مِنْ الرّحِمِ

قال: فما قلت لها؟ قال: قلت: أنشدتها بيت جرير:

ثَقِيَ بِاللّٰهِ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ وَمِنْ عِنْدِ الْخَلِيفَةِ بِالنَّجَاحِ<sup>(٣)</sup>

فقال: ثق بالنجاح إن شاء الله تعالى، ثم أمر لي بألف دينار وكسوة، وردني إلى البصرة<sup>(٤)</sup>.

(١) نسبه ابن خلكان والحري في درة النواص ٤٣ إلى العرجي، ونسبه البغدادي في الخزانة ٣١٧: إلى الحارث بن خالد الخزومي.

(٢) ديوانه ٣٣. (٣) ديوانه ٣٦.

(٤) الخبر في طبقات الزبيدي ٩٤، ٩٣.



(٦)

## الأفضل

وَصَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ ، وَالْبَشَاشَةُ حِبَالَةُ الْمَوَدَّةِ ، وَالْإِحْتِمَالُ قَبْرُ الْيُؤُوبِ .  
وَرُؤْيَى أَنَّهُ قَالَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا : الْمُسَالَمَةُ حَبْءُ الْيُؤُوبِ .

\*\*\*

## الشيخ

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله : « صدر العاقل صندوق سرّه ، قد ذكرنا فيما تقدم طرقًا  
صالحًا في كتمان السر .

وكان يقال : لا تُنْكِسْ خَاطِبَ سِرِّكَ .

قال معاوية للنَّجَّارِ العذريّ : ابغِ لي محدثًا ، قال : معى يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ،  
أستريح منك إليه ، ومنه إليك ، وأجعله كتموما ، فإنَّ الرجل إذا اتَّخَذَ جليسا ألقى إليه  
عُجْرَهُ وَبُجْرَهُ .

وقال بعض الأعراب : لا تضع سرّك عند من لا سرّ له عندك .

وقالوا : إذا كان سرّ الملك عند اثنين دخلت على الملك الشبهة ، واتسعت على الرّجلين  
المآذير ؛ فإن عاقبهما عند شياعه ، عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن اتهمهما اتهم بريثا

بجناية مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة عليه .

الفصل الثاني : قوله : « البشاشة حباله المودّة » ، قد قلنا في البشر والبشاشة فيما سبق قولاً مقنعاً .

وكان يقال : البشر دالّ على السخاء من ممدوحك ، وعلى الودّ من صديقك دلالة النور على الثمر<sup>(١)</sup> .

وكان يقال : ثلاث تُبين لك الودّ في صدر أخيك : تلقاه ببشرِك ، وتبدؤه بالسلام ، وتوسّع له في المجلس .

وقال الشاعر :

لا تدخلنك ضجرة من سائلٍ	فلا خير دهرِك أن تُرى مسئولا
لا تجهن بالردّ وجه مؤملٍ	قد رام غيرك أن يُرى مأمولا
تلقى الكريم فتستدلّ ببشره	وترى العُبوس على اللّيم دليلا
واعلم بأنك عن قليلٍ صائرٌ	خبراً فكن خبراً يروق جيلا

وقال البحتري :

لو أنّ كفّك لم تجدْ لمؤمّل	لكفاه عاجلُ بشرِك المهلّل <sup>(٢)</sup>
ولو أنّ مجدك لم يكن متقادماً	أغناك آخر سُوددٍ عن أوّل
أدركت مافات الكهول من الحجا	من عُنفوان شبابك المستقبل
فإذا أمرت فما يقال لك اتّيد	وإذا حكمتَ فما يقال لك : اعدّل

الفصل الثالث : قوله : « الاحتمال قبر العيوب » ، أى إذا احتملت صاحبك وحملت

(١) فى د : « دلالة النور على القمر » : (٢) ديوانه ٢ : ٢١٨ .

عنه ستر هذا الخلق الحسن منك عيوبك ، كما يستر القبر الميت ، وهذا مثل قولهم في الجود :  
كل عيب فالكرم يغطيه .

فأما الخبء فمصدر خبأته أخبؤه ، والمعنى في الروایتين واحد ، وقد ذكرنا في فضل  
الاحتمال والسالة فيما تقدم أشياء سالحة .

ومن كلامه عليه السلام : وجدت الاحتمال أنصر لي من الرجال .

ومن كلامه : من سالم الناس سلم منهم ، ومن حارب الناس حاربوه ؛ فإن العثرة  
للكاثر .

وكان يقال : العاقل خادم الأحمق أبدا ، إن كان فوقه لم يجد من مداراته والتقرب إليه  
بدأ ؛ وإن كان دونه لم يجد من احتماله واستكفاف شره بدأ .

وأسمع رجل يزيد بن عمر بن هبيرة فأعرض عنه ، فقال الرجل : إياك أعنى ، قال :  
وعنك أعرض .

وقال الشاعر :

إذا نطق السفیه فلا تحببه      فخير من إجابته السكوت  
سكت عن السفیه فظن أنى      عييت عن الجواب وما عييت

(٧)

الأصل :

مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَّخَطُ عَلَيْهِ ، وَالصَّدَقَةُ دَوَاءٌ مُجِجٌ ، وَأَعْمَالُ الْمَيَاذِ فِي عَاجِلِهِمْ نَصَبٌ أَعْيُنُهُمْ فِي آجِلِهِمْ .

\*\*\*

الشُّنْخ :

هذه فصول ثلاثة :

الفصل الأول : قوله « من رضى عن نفسه كثر السخط عليه » . قال بعض الفضلاء  
لرجل كان يرضى عن نفسه ويدعى التميز على الناس بالعلم : عليك بقوم تروقهم بزبرجك ،  
وتروعهم بزخرك ، فإنك لا تعدم عزاً ، ولا تفقد غمراً ، لا يبلغ مسبارها غورك ،  
ولا تستغرق أقدارها طورك .

وقال الشاعر :

أَرَى كُلَّ كُلِّ إِنْسَانٍ يَرَى عَيْبَ غَيْرِهِ وَيَعْمَى عَنِ الْعَيْبِ الَّذِي هُوَ فِيهِ  
وَمَا خَيْرٌ مَنْ تَخَفَى عَلَيْهِ عَيْبُهُ وَيَدُو لَهُ الْعَيْبُ الَّذِي بِأَخِيهِ  
وقال بعضهم : دخلت على ابن منارة وبين يديه كتاب قد صنّفه ، فقلت : ما  
هذا ؟ قال : كتاب علمته مدخلاً إلى التّورية ، فقلت : إنّ الناس ينكرون هذا ،  
فلو قطعت الوقت بغيره <sup>(١)</sup> ! قال : النَّاسُ جُهَّالٌ ، وَأَنْتَ ضَدِّهِمْ ؟ قال : نعم ، قلت :

(١) في د : « بغير هذا » .

فينبغي أن يكون ضدّهم جاهلاً عندهم ، قال : كذاكَ هو ! قلت : فقد بقيت أنت  
جاهلاً بإجماع الناس . ، والناس جهّال بقولك وحدك ؛ ومثل هذا المعنى  
قول الشاعر :

إذا كنت تقضي أن عقلك كاملٌ      وأنّ بني حواء غيرك جاهلٌ  
وأن مفيض العلم صدرُك كلّهُ      فمن ذا الذي يدري بأنك عاقل !

\*\*\*

الفصل الثاني : « الصدقة دواء منجّح » ، قد جاء في الصدقة فضل كثير ، وذكرنا بعض  
ذلك فيما تقدم . وفي الحديث المرفوع : « تاجروا الله بالصدقة ترجوا » ؛ وقيل : الصدقة  
صدّاق الجنة .

وقيل للشّبيّ : ما يجب في مائتي درهم ؟ فقال : أمّا من جهة الشّرْع نفمسة دراهم ، وأمّا  
من جهة الإخلاص فالكلّ .

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سئل فقيل : أيّ الصدقة أفضل ؟  
فقال : « أن تعطى وأنت صحيح شحيح ، تأمل البقاء ، وتحشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت  
الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا » .

ومثل قوله عليه السلام : « الصدقة دواء منجّح » ، قول النبيّ صلى الله عليه وآله :  
« داووا مرضاكم بالصدقة » .

\*\*\*

الفصل الثالث : قوله : « أعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم » ، هذا من  
قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ

لَوْ أَنَّ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا<sup>(١)</sup> . وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ \*  
وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(٢)</sup> .

ومن كلام بعضهم : إنما تقدّم على ما قدّمت ، ولست تقدّم على ما تركت ؛ فآثر  
ما تلقاه غدا على ما لا تراه أبدا .

ومن حكمة أفلاطون : اكتم حسن صديقك عن أعين البشر ؛ فإنّ له ممن يبيده  
ملكوت السماء أعيناً ترمقه فتجازي عليه .

---

١: سورة آل عمران ٣٠ . (٢) سورة الزلزلة ٧ ، ٨ .

(٨)

الأضل :

اعجبوا لهذا الإنسان ينظرُ بشحْمٍ ، ويتكلمُ بلحْمٍ ، ويسمعُ بعظمٍ ، ويتنفسُ  
من حَرَمٍ .

\*\*\*

الشرخ :

هذا كلام محمول بعضه على ظاهره ، لما تدعو إليه الضرورة من مخاطبة العامة بما يفهمونه  
والعدول عما لا تقبله عقولهم ، ولا تميمه قلوبهم .

أما الإبصار ؟ فقد اختلف فيه ، فقليل : إنه بخروج شعاع من العين يتصل بالمرئي .  
وقيل : إن القوة المبصرة التي في العين تلاقى بذاتها المرئيات فتبصرها . وقال قوم : بل  
بتكيف الهواء بالشعاع البصري من غير خروج ، فيصير الهواء باعتبار تكيّفه بالشعاع به آلة  
العين في الإدراك .

وقال المحققون من الحكماء : إن الإدراك البصريّ هو بانطباع أشباح المرئيات في  
الرطوبة الجلديّة من العين عند توسط الهواء الشفاف المضيء ، كما تنطبع الصورة في المرآة .  
قالوا : ولو كانت المرآة ذات قوّة مبصرة لأدركت الصوّر المنطبعة فيها ؛ وعلى جميع الأقوال  
فلا بدّ من إثبات القوّة المبصرة في الرطوبة الجلديّة ، وإلى الرطوبة الجلدية وقعت إشارة  
عليه السلام بقوله : « ينظر بشحْمٍ » .

وأما الكلام فحلّه اللسان عند قوم . وقال قوم : ليس اللسان آلة ضرورية في الكلام  
لأنّ من يقطع لسانه من أصله يتكلم ، وأما إذا قطع رأسه لم يتكلم . قالوا : وإنما الكلام

باللهوات ، وعلى كلا القولين فلا بد أن تكون آلة الكلام لحما ، وإليه وقفت إشارة أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وليس هذه البنية المخصوصة شرطا في الكلام على الإطلاق لجواز وجوده في الشجر والجماد عند أصحابنا ؛ وإنما هي شرط في كلام الإنسان ، ولذا قال أمير المؤمنين : « عجبوا لهذا الإنسان » .

فأما السمع للصوت فليس بعظم عند التحقيق ، وإنما هو بالقوة المدخلة في العصب المفروش في الصمّاخ كالنشاء ، فإذا حمل الهواء الصوت ودخل في ثقب الأذن المنتهي إلى الصمّاخ بعد تعويجات فيه جعلت لتجرى مجرى اليراعة المصوتة ، وأفضى ذلك الصوت إلى ذلك العصب الحامل للقوة السامعة حصل الإدراك . وبالجمل فلا بد من عظم ؛ لأن الحامل اللحم والعصب إنما هو العظم .

وأما التنفس فلا ريب أنه من خرم ؛ لأنه من الأنف ، وإن كان قد يمكن لو سدّ الأنف أن يتنفس الإنسان من الفم وهو خرم أيضاً ، والحاجة إلى التنفس إخراج الهواء الحارّ عن القلب وإدخال النسيم البارد إليه ، فجعلت الرئة كالمرّوحة تنبسط وتنقبض ، فيدخل الهواء بها ويخرج من قصبتها النافذة إلى المنخرين .



(٩)

الأصل:

إذا أقيمت الدنيا على قومٍ أغارتهم محاسن غيرهم ، وإذا أدبرت عنهم سلبتهم  
محاسن أنفسهم .

\*\*\*

الشرح :

كان الرشيد أياهم كان حسن الرأي في جعفر بن يحيى ، يحلف بالله أن جعفرأ أفصح من  
قس بن ساعدة ، وأشجع من عامر بن الطفيل ، وأكثب من عبد الحميد بن يحيى ، وأسوس  
من عمر بن الخطاب ، وأحسن من مصعب بن الزبير - وكان جعفر ليس بحسن الصورة ،  
وكان طويل الوجه جدا - وأصبح له من الحجاج لعبد الملك ، وأصبح من عبد الله بن جعفر ،  
وأعف من يوسف بن يعقوب ؛ فلما تغير رأيه فيه أنكر محاسنه الحقيقية التي لا يختلف  
اثنان أنها فيه ، نحو كياسته وسماحته . ولم يكن أحدا يجسر أن يرد على جعفر قولا ولا رأيا .  
فيقال : إن أول ما ظهر من تغير الرشيد له أنه كلم الفضل بن الربيع بشيء قرده عليه  
الفضل ، ولم تجر عاداته من قبل أن يفتح فاه في وجهه ، فأنكر سليمان بن أبي جعفر  
ذلك على الفضل ، فغضب الرشيد لأنكار سليمان ، وقال : ما دخولك بين أخى ومولاى ؟  
كالراضى بما كان من الفضل ، ثم تكلم جعفر بشيء قاله للفضل ، فقال الفضل :  
اشهد عليهما أمير المؤمنين ، فقال جعفر : فض الله فاك يا جاهل ! إذا كان أمير المؤمنين  
الشاهد ، فمن الحاكم المشهود عنده ؟ فضحك الرشيد ، وقال : يا فضل ، لا تمار جعفرا ؛ فإنك  
لا تفتح منه موقما .

واعلم أنا قد وجدنا تصديق ما قاله عليه السلام في العلوم والفضائل والخصائص  
الإنسانية ، دَعُ حديث الدنيا والسلطان والرياسة ، فإن المخطوط من علم أو من فضيلة تضاف  
إليه شوارد تلك الفضيلة وشوارد ذلك الفن ؛ مثاله حظّ علىّ عليه السلام من الشجاعة ،  
ومن الأمثال الحكميّة قلّ أن ترى مثلاً شاردًا أو كلمة حكمية إلا وتضيفها الناس إليه ،  
وكذلك ما يدعى العامة له من الشجاعة وقتل الأبطال حتى يقال : إنه حمل على سبعين ألفاً  
فهزمهم ، وقتل الجنّ في البئر ، وقتل الطوق الحديد في عنق خالد بن الوليد . وكذلك حظّ  
عنتر بن شداد في الشجاعة ، يُذكر له من الأخبار ما لم يكن ، وكذلك ما اشتهر به  
أبو نؤاس في وصف الخمر ، يضاف إليه من الشعر في هذا الفن ما لم يكن قاله ، وكذلك  
جود حاتم وعبدالله بن جعفر ونحو ذلك ؛ وبالعكس من لا حظّ له ينسب عنه ما هو حقيقة له ،  
فقد رأينا كثيرا من الشعر الجيد يُنفى عن قائله استحقاقا له ، لأنه خامل الذكر ، وينسب  
إلى غيره ، بل رأينا كتباً مصنفة في فنون من العلوم تحلّ ذكر مصنفها ونسبت إلى غيرهم  
من ذوى النباهة والصيت ، وكل ذلك منسوب إلى الجَدّ والإقبال .

(١٠)

الأضل :

خَالِطُوا النَّاسَ مُخَالَطَةً إِنْ مُتُّمْ مَعَهَا بَكَوْا عَلَيْكُمْ ، وَإِنْ عِشْتُمْ حَنُّوا إِلَيْكُمْ .

\*\*\*

البنج :

وقد روى : « حَنُّوا » بالخاء المعجمة ، من الحنين ؛ وهو صوت يخرج من الأنف عند البكاء . وإلى تتعلق بمحذوف ، أى حَنُّوا شوقاً إليكم .  
وقد ورد فى الأمر بإحسان العشرة مع الناس الكثير الواسع ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما تقدم .

وفى الخبر المرفوع : « إذا وسعتم الناس ببسط الوجوه ، وحسن الخلق ، وحسن الجوار ، فكأنما وسعتموهم بالمال » .

وقال أبو الدرداء : إِنَّا نَهَشْ فِي وَجْهِهِ أَقْوَامٌ وَإِنْ قُلُوبُنَا لَتَقْلِيهِمْ .

وقال محمد بن الفضل الهاشمي لأبيه : لِمَ تَجْلِسُ إِلَى فُلَانٍ وَقَدْ عَرَفْتَ عِدَاوَتَهُ ؟ قَالَ : أَخْبِي نَاراً ؛ وَأَقْدَحَ عَنْ وَدِّ .

وقال المهاجر بن عبد الله :

وَإِنِّي لِأَقْصَى الرِّءْءِ مِنْ غَيْرِ بِنْفِضَةٍ وَأَدْنَى أَخَا الْبِنْفِضَاءِ مَنَّى عَلَى عَمْدٍ

لِيُحْدِثَ وَدّاً بَعْدَ بِنْفِضَاءٍ أَوْ أَرَى لَهُ مَصْرَعاً يُرْدِي بِهِ اللَّهُ مَنْ يُرْدِي

وقال غفال بن شبة التميمي : كَبْتُ رِذْفَ أَبِي ، فَلَقِيهِ جَرِيرُ بْنُ الْخَطَفَى عَلَى بَغْلَةٍ ،

فخّياه أبي وألفه ، فلما مضى قلت له : أبعده أن قال لنا ما قال ! قال : يا بني أفأوسع جرحي !

وقال محمد بن الحنفية عليه السلام : قد يدفع باحتمال المكروه ما هو أعظم منه .  
وقال الحسن عليه السلام : حُسن السؤال نصف العلم ، ومداواة الناس نصف العقل ،  
والقصد في المعيشة نصف المؤونة .

وهو من ابن شهاب شاعراً فأعطاه ؛ وقال : إن من ابتغاء الخير اتقاء الشر .  
وقال الشاعر :

وأنزلي طول النوى دار غربة متى شئت لافيتُ امرأ لا الشاكلة  
أخا ثقة حتى يقال سجيّة ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله

وفي الحديث المرفوع : « المسلم على المسلم ست : يسلم عليه إذا لقيه ، ويحييه إذا دفاه ،  
ويُسّمته إذا عطس ، ويعودّه إذا مرض ، ويحبّ له ما يحبّ لنفسه ، ويشيع جنازته  
إذا مات » .

ووقف على الله عليه وآله على عجوز ، فجعل يسألها ويتحفّاها ، وقال : « إنّ حُسن  
المهد من الإيمان ، إنّها كانت تأتينا أيام خديجة » .

(١١)

الأصل :

إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْمَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا لِلْقُدْرَةِ عَلَيْهِ .

\*\*\*

الشرح :

قد أخذت أنا هذا المعنى ، فقلت في قطعة لي :

إِنَّ الْأَمَانِيَّ أَكْسَابُ الْجَهْلِ فَلَا تَقْنَعُ بِهَا وَارْكَبِ الْأَهْوَالَ وَالْخَطَرَا  
وَاجْعَلْ مِنَ الْعَقْلِ جَهْلًا وَاطْرَحْ نَظْرًا فِي الْمَوَاقَاتِ وَلَا تَسْتَشِيرِ الْحَذَرَا  
وَإِنْ قَدَرْتَ عَلَى الْأَعْدَاءِ مُنْتَصِرًا فَاشْكُرْ بِعَفْوِكَ عَنْ أَعْدَائِكَ الظُّفَرَا  
وقد تقدّم لنا كلام طويل في الحلم والصفح والعفو .

ونحن نذكر هاهنا زيادة على ذلك : شَجَرَ بين أبي مسلم وبين صاحب مَرَوْ كَلَامٌ  
أَرَبِّي فِيهِ صَاحِبُ مَرَوْ عَلَيْهِ ، وَأَغْلَظَ لَهُ فِي الْقَوْلِ ، فَاحْتَمَلَهُ أَبُو مُسْلِمٍ ، وَنَدِمَ صَاحِبُ مَرَوْ ،  
وَقَامَ بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي مُسْلِمٍ مُعْتَذِرًا ، وَكَانَ قَالَ لَهُ فِي جُمْلَةٍ مَا قَالَ : يَا لَقِيْطُ ! فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ :  
مَهْ ! لِسَانُ سَبْقٍ ، وَوَهْمُ أَخْطَا ، وَالْغَضَبُ شَيْطَانٌ وَأَنَا جَرَّأْتُكَ عَلَى بَاحْتِمَالِكَ قَدِيمًا ؛ فَإِنْ  
كَنتَ لِلذَّنْبِ مُعْتَذِرًا ، فَقَدْ شَارَكَتَكَ فِيهِ ، وَإِنْ كُنتَ مَغْلُوبًا فَالْعَفْوُ يَسْعُكَ . فَقَالَ  
صَاحِبُ مَرَوْ : أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، إِنَّ عَظَمَ ذَنْبِي يَمْنَعُنِي مِنَ الْهَدْوِ . فَقَالَ أَبُو مُسْلِمٍ : يَا عَجِيبَا !  
أَقَابِلَكَ بِإِحْسَانٍ ، وَأَنْتَ مُسِيءٌ ، ثُمَّ أَقَابِلَكَ بِإِسَاءَةٍ وَأَنْتَ حَسَنٌ ! فَقَالَ : الْآنَ  
وَثِقْتَ بِمَعْنَاكَ .

وأذنب بعضُ كُتَّابِ الْمُؤْمِنِينَ ذَنْبًا ، وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ لِيَحْتِجَّ لِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : يَا هَذَا ، قِفْ

مكانك؛ فإنما هو عُذْر أو يمين، فقد وهبتهما لك، وقد تكرر منك ذلك، فلا تزال تسيء  
ونحسن، وتذنب ونغفر؛ حتى يكون العفو هو الذى يصلحك !  
وكان يقال: أحسن أفعال القادر العفو، وأقبحها الانتقام .  
وكان يقال: ظفر الكريم عفو؛ وعفو<sup>(١)</sup> اللئيم عقوبة .  
وكان يقال: ربّ ذنب مقدار العقوبة عليه إعلام المذنب به، ولا يجاوز به حدّ الارتفاع  
إلى الإيقاع .

وكان يقال: ما عفا عن الذنب من قُرّع به .  
ومن الحلم الذى يتضمّن كِبْرًا مستحسنًا؛ ما روى أن مُصمب بن الزبير لَمّا ولى العراق  
عرض النَّاسَ ليدفع إليهم أَرْزاقهم، فنادى مناديه: أين عمرو بن جُرموز؟ ففيل له:  
أيّها الأمير؛ إنه أبعد فى الأرض؛ قال: أو ظنّ الأحق أنى أقتله بأبى عبد الله! قولوا له:  
فليظهر آمنًا، وليأخذ عطاءه مسلمًا .  
وأكثر رجل من سبّ الأحنف وهو لا يجيبه، فقال الرجل: ولى عليه والله  
ما منعه من جوابي إلا هواي عنده!  
وقال لقيط بن زرارَة:

فقل لبني سمي ومالي ومالككم      ترقون مَنى ما استطعتم وأعتق  
أغرّكم أنى بأحسن شيمة      بصيرٌ وأنى بالفواحش أخرق!  
وأنتك قد سابتني فقهرتني      هنيئًا مريئًا أنت بالفحش أحدق

وقال المأمون لإبراهيم بن المهديّ لما ظفّر به: إننى قد شاورت فى أمرك؛ فأشير علىّ  
بقتلك؛ إلّا أنى وجدت قدرك فوق ذنبك؛ فكرهت قتلك للآزم حرمتك . فقال إبراهيم:  
يا أمير المؤمنين؛ إنّ المشير أشار بما تقتضيه السياسة، وتوجيه العادة؛ إلّا أنك أبيت أن

(١) من د: « وظفر » .

تطلب النصر إلا من حيث عودته من العفو ؛ فإن قتات فلك نظراء ؛ وإن عفوت فلا نظير لك . قال : قد عفوت ، فأذهب آمنا .

ضلّ الأعشى في طريقه ، فأصبح بأبيات علقمة بن علاثة ، فقال قائده ، وقد نظر إلى قباب الأدم : واسوء صباحاه يا أبا بصير ! هذه والله أبيات علقمة ؛ فخرج فتيان الحى ، فقبضوا على الأعشى ، فأثوا به علقمة ، فثل بين يديه ، فقال : الحمد لله الذى أظفركى بك من غير ذمة ولا عقد ؛ قال الأعشى : أو تدرى لم ذلك جعلت فداك ! قال : نعم ، لأنهم اليوم منك بتقولك على الباطل مع إحسانى إليك ؛ قال : لا والله ، ولكن أظفرك الله بى ليبلو قدر حليمك فى . فأطرق علقمة ، فاندفع الأعشى فقال :

أَعْلَقَمَ قَدْ صَيَّرَتْنِ الْأُمُورُ      إِلَيْكَ وَمَا كَانَ بِي مَبْكَصُ<sup>(١)</sup>  
كَسَاكُمُ عُلَاثَةُ أَثْوَابُهُ      وَوَرَّتْكُمْ حِلْمُهُ الْأَحْوصُ  
فَهَبْ لِي نَفْسِي فَدَتِكَ النَّفُوسُ      فَلَا زِلْتَ تَنْبِى وَلَا تَنْقُصُ

فقال : قد فعلت ؛ أما والله لو قلت فى بعض ما قلته فى عامر بن عمر ، لأغنيك طول حياتك ، ولو قلت فى عامر بعض ما قلته فى ما أذاقك برد الحياة .

قال معاوية بن خالد بن معمر السدوسى : على ماذا أحبت علياً ؟ قال : على ثلاث : حلمه إذا غضب ، وصدقه إذا قال ، ووفاءه إذا وعد .

(١٢)

الأصل :

أَعَجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجَزَ عَنِ اكْتِسَابِ الْإِخْوَانِ ، وَأَعَجَزُ مِنْهُ مَنْ ضَيَّعَ مَنْ  
ظَفِرَ بِهِ مِنْهُمْ .

\*\*\*

الشَّيْخ :

قد ذكرنا قطعة صالحة من الإخوانيات فيما تقدم . وفي الحديث المرفوع أن النبي  
صلى الله عليه وآله بكى لما قُتِلَ جعفر بمؤتة ، وقال : « المرء كثير بأخيه » .  
وقال جعفر بن محمد عليه السلام : لكلَّ شيءٍ حِلْيَةٌ وحِلْيَةُ الرجل أوداؤه .  
وأنشد ابن الأعرابي :

لَعَمْرُكَ ما مَالُ الفتى بذخيرةٍ ولكنَّ إخوان الصِّفاءِ الدُّخائرُ  
وكان أبو أيوب السَّخْتِيَانِي<sup>(١)</sup> يقول : إذا بلغني موت أخٍ كان لي ؛ فكأنما سقط  
عضو مني .

وكان يقال : الإخوان ثلاث طبقات : طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه ، وطبقة كالدواء  
يحتاج إليه عند المرض ، وطبقة كاللدا لا يُحتاج إليه أبدا .

وكان يقال : صاحبك كرقعة في قميصك ، فانظر بما ترقع قميصك !

---

(١) ب : « السجستاني » ، والصواب ما أثبتته من أ .



وكان يونس بن عبيد يقول : اثنان ما في الأرض أقلّ منهما ، ولا يزُدادان إلا قلة :  
درهم يوضع في حقّ ، وأخ يُسكن إليه في الله .

وقال الشاعر :

أخاك أخاك إنّ مَنْ لا أخا له      كساعٍ إلى الهيجا بغير سلاح  
وإنّ ابن عمّ الرء فاعلم جناحه      وهل ينهض البازي بغير جناح ؟

وقال آخر :

ولن تنفك تُحسد أو تُعادى      فأكثر ما استطعت من الصديقِ  
وبغضك<sup>(١)</sup> للثقيّ أقلّ ضراً      وأسلم من مودة ذى الفسوق<sup>(٢)</sup>  
وأوصى بعضهم ابنه ، فقال : يا بنيّ ، إذا نازعتك نفسك إلى مصاحبة الرّجال فاصحب مَنْ  
إذا صحبته زانك ، وإذا خدمته صانك ، وإذا عرضت لك مؤنة أعانك ؛ وإن قلت صدّق  
قولك ، وإنّ صُلّت شدّ صولك ؛ وإن مددت يدك لأمر مدّها ، وإن بدت لك<sup>(٣)</sup> عورة  
سدّها ، وإن رأى منك حسنة عدّها ، وإن سألتّه أعطاك ، وإن سكّت ابتدأك ، وإن نزلت  
بك ملة واساك ؛ من لا تأتيك منه البوائق ، ولا تختار<sup>(٤)</sup> عليك منه الطرائق ، ولا يخذلك  
عند الحقائق .

ومن الشعر المنسوب إلى عليّ عليه السلام :

إنّ أخاك الحقّ مَنْ كان معك      ومن يضرّ نفسه لينفعك  
ومن إذا ريبُ الزّمان صدّعتك      شئت فيك شمله ليجمّعت

(١) في د « وبغضاء التقى » وهو وجه أيضا .

(٢) ١ : « عنك » .

(٣) في د « ولا تختلف » .

ومن الشعر المنسوب إليه عليه السلام أيضاً :

أخوك الذى إن أجزتكَ ملةٌ من الدهر لم يبرح لها الدهرَ واجاً  
وليس أخوك بالذى إن تشعبتْ عليك أمورُه ظلَّ يلحَاك لائماً  
وقال بعض الحكماء : ينبغي للإنسان أن يوكّل بنفسه كالثين : أحدهما يكلّؤه من أمامه ،  
والآخر يكلّؤه من ورائه ؛ وهما عقله الصحيح ، وأخوه النصيح ؛ فإنَّ عقله وإن صحَّ فلن  
يبصره من عيبه إلا بمقدار ما يرى الرجل من وجهه في المرآة ، ويخفى عليه ما خلفه ، وأما  
أخوه النصيح فيبصره ما خلفه وما أمامه أيضاً  
وكتب ظريف إلى صديق له : إني غير محمود على الاتقياد إليك ، لأننى صادقك من  
جوهر نفسى ، والنفس يتبع بعضها بعضاً .

وفي الحديث الرفوع : « إذا أحبَّ أحدكم أخاه فليعلمه » .  
وقال الأحنف : خير الإخوان من إذا استغنىت عنه لم يزدك ودّاً ، وإن احتجت إليه  
لم ينقصك .

وقال أعشى باهلة يرثى المنتشر بن وهب :

إماسكتُ سبيلاً كنتَ سالكها فاذهب فلا يُبعدنك الله منتشر<sup>(١)</sup>  
من ليس في خيره شرٌّ ينكده على الصديق ولا في صفوه كدرٌ  
وقال آخر يرثى صديقاً له :

أخ طالماً سرّني ذكره وأصبحت أشجى لدى ذكره  
وقد كنتُ أغدو إلى قصره فأصبحتُ أغدو إلى قبره  
وكنتُ أراى غنياً به عن الناس لو مدّ في عمره  
إذا جئته طالباً حاجة فأمري يجوزُ على أمره

رأى بعض الحكماء مصطحبين لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل : صديقان ، قال : فما  
بال أحدهما غنياً والآخر فقيراً !

(١٣)

الأُضْلُ :

وقال عليه السلام في الذين اعتزلوا القتال معه :

خَذَلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَنْصُرُوا الْبَاطِلَ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

قد سبق ذكر هؤلاء فيما تقدّم ، وهم عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وسعد بن أبي وقاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأسامة بن زيد ، ومحمد بن مسلمة ، وأنس بن مالك ؛ وجماعة غيرهم .

وقد ذكر شيخنا أبو الحسين في ” الفرر “ أن أمير المؤمنين عليه السلام لما دعاهم إلى القتال معه ، واعتذروا بما اعتذروا به ، قال لهم : أتتسكرون هذه البيعة ؟ قالوا : لا ، لكنّا لا نقاتل ؛ فقال : إذا بايتم فقد قاتلتم ؛ قال : فسلموا بذلك من الدّم ؛ لأن إمامهم رضى عنهم .

ومعنى قوله : « خذلوا الحق ولم ينصروا الباطل » ، أى خذلوني ولم يحاربوا معي معاوية ؛ وبعض أصحابنا البغداديين يتوقف في هؤلاء ، وإلى هذا القول يميل شيخنا أبو جعفر الإسكافي .

(١٤)

الأصل :

إِذَا وَصَلَتْ إِلَيْكُمْ أَطْرَافُ النِّعَمِ فَلَا تُنْفِرُوا أَقْصَاهَا يُقَلِّعَ الشُّكْرَ .

\*\*\*

الشَّيْخ :

قد سبق القول في الشكر ، ونحن نذكرها هنا زيادة على ذلك .  
قال بعضهم : ما شيبني السنون ، بل شكرى من احتاج أن أشكره .  
وقالوا : العفاف زينة الفقر ، والشكر زينة الغنى .  
وقالوا : من سعادة المرء أن يضع معروفه عند من يشكره .  
ومن جيد ما قيل في الشكر قول أبي نواس :

قد قلتُ للعبّاس معذرا      من ضعف سُكْرِيهِ ومعتزفا<sup>(١)</sup>  
أنت امرؤٌ حَمَلْتَنِي نِعْمًا<sup>(٢)</sup>      أَوْهَتْ قُوَى شَكْرِي فَقَدْ ضَعُفَا  
فإليك منى اليومَ معذرةً<sup>(٣)</sup>      جاءتك بالتّصريح منكشفا  
لا تُسَدِّينَ إِلَيَّ عارفة      حتى أقوم بشكر ما سلفا

وقال البحتري :

فإن أنا لم أشكر لنعماك جاهداً      فلانلتُ نِعْمِي بعدها توجب الشُّكرا<sup>(٤)</sup>

(١) ديوانه ٧١ . (٢) الديوان . « جللتني » .

(٣) الديوان : « قبل اليوم تقدمة » .

(٤) ديوانه ٢ : ٣٦ .

وقال أيضاً :

سأجهدُ في شكري النعماءِ أننى أرى الكُفرَ للنعماءِ ضرباً من الكفرِ

وقال ابن أبي طاهر :

شكرت علياً برّه وبلاءه  
وما أنا من شكري علياً بواحدٍ  
فقصرَ بي شكري وإنى لجاهدُ  
ولكنه في الفضلِ والجودِ واحدُ

وقال أبو الفتح البستي :

لا تظننَّ بي وبركَّ حَيٍّ  
أنا أرضُ وراحتك سحابٌ  
أنَّ شكري وشكرَ غيري مواتٌ  
والأيادي وبُلُّ وشكري نَباتٌ

وقال أيضاً :

وخرّ لما أوليت شكري ساجداً  
ومثلُ الذي أوليتَ يعبدُه الشكرُ

البحتري :

أراك بعين المكتسى ورق الغنى  
ويمجبنى فقري إليك ولم يكنْ  
بلائك اللاتي يعددها الشكرُ  
ليمجبتني لولا محبتك الفقرُ

آخر :

بدأت بمعروفٍ وثنيت بالرضا  
وبأشرت أمرى واعتنيت بحاجتى  
وثلثت بالحسنى وربعت بالكرمِ  
وصدقت لى ظنى، وأنجزت موعدى  
وأخّرت «لا» عني وقدّمت لى «نعم»  
وطبّت به نفساً ولم تتبع اللّذمُ  
وإن نحنُ كافأنا بشكر فواجبُ  
فإن نحنُ قصرنا فلا الودّ متهمُ

(١٥)

الأفضل :

مَنْ ضَيْعَهُ الْأَقْرَبُ أُتِيحَ لَهُ الْأَبَدُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

إنَّ الإنسانَ قد ينصره مَنْ لا يرجو نصره وإنَّ أهله أقربوه وخذلوه ، فقد تقوم به الأجانب من الناس ، وقد وجدنا ذلك في حقِّ رسول الله صلى الله عليه وآله ، ضيَّعه أهله ورهطه من قريش وخذلوه ، وتماثلوا عليه ، فقام بنصره الأوس والخزرج ، وهم أبعد الناس نسباً منه ، لأنه من عدنان وهم من قحطان ، وكلٌّ واحد من الفريقين لا يحبُّ الآخر حتى تحبُّ الأرض الدم . وقامت ربِيعَة بنصر علىَّ عليه السلام في صِفِّين ، وهم أعداء مُضَرَّ الذين هم أهله ورهطه ، وقامت اليمين بنصر معاوية في صِفِّين ، وهم أعداء مُضَرَّ ، وقامت الخراسانية وهم عجم بنصر الدولة العباسية ، وهي دولة العرب . وإذا تأملت السَّيْر وجدت هذا كثيراً شائماً .

(١٦)

الأفضل :

مَا كُلُّ مُفْتُونٍ يُعَانِبُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

هذه الكلمة قالها علي عليه السلام لسعد بن أبي وقاص ومحمد بن مسلمة وعبد الله  
ابن عمر لما امتنعوا من الخروج معه لحرب أصحاب الجمل ، ونظيرها أو قريب منها  
قول أبي الطيب :

فَمَا كُلُّ فَعَالٍ يُجَاوِزُ بِفَعْلِهِ      وَلَا كُلُّ قَوَالٍ لَدَى يُجَابُ<sup>(١)</sup>  
وَرُبَّ كَلَامٍ مَرَّ فَوْقَ مَسَامِعِي      كَمَا طَنَّ فِي لَفْحِ الْهَجِيرِ ذُبَابُ

---

(١) لم أجدها في ديوانه .

(١٧)

الأفضل :

تَذِلُّ الْأُمُورُ لِلْمَقَادِيرِ ، حَتَّى يَكُونَ الْحُتْفُ فِي التَّدْيِيرِ .

\*\*\*

الْبَرْخ :

إذا تأملت أحوال العالم وجدت صدق هذه الكلمة ظاهراً ، ولو شئنا أن نذكر الكثير من ذلك لله كثرنا ما يحتاج في تقييده بالكتابة إلى مثل حجم كتابنا هذا ، ولكننا نذكر لحاً ونكتاً وأطرافاً ودُرراً من القول .

فرس مروان بن محمد - وقد لقي عبد الله بن علي - أنطاعاً وبسط عليها الملك ، وقال : مَنْ جَاءَنِي بِرَأْسٍ فَلَهُ مِائَةُ دَرَاهِمٍ ، فَمَجِزَتِ الْحَفَظَةُ وَالْخُرَّاسُ عَنْ حِمَايَتِهِ ، وَأَشْتَغَلَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْجُنْدِ بِنَهْمِهِ ، وَتَهَاوَتْ الْجَيْشُ عَلَيْهِ لِيَتَهَنَّبُوهُ ، فَغَشِيَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَلِيٍّ بِمَسَاكِرِهِ ، فَفَقَتَلَ مِنْهُمْ مَا لَا يُحْصَى ، وَهَزِمَ الْبَاقُونَ .

وكسر إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن جيش أبي جعفر المنصور بباتجري وأمر أصحابه باتباعهم ، فحال بينهم وبين أصحاب أبي جعفر مائة ضحَضاح ، فكبره إبراهيم وجيشه خوض ذلك الماء ، وكان واسعا ، فأمر أصحابه لوائه أن يتعرج باللواء على مسنأة<sup>(١)</sup> كانت على ذلك الماء يابسة ، فسلكها أصحاب اللواء وهي تفضي بانعراج وانعكاس إلى الأرض اليبس ، فلما رأى عسكر أبي جعفر أن لواء القوم قد تراجع

---

(١) المسناة : ضفيرة تبنى للسيل لترد الماء .



الْقَهْقَرَى ظَنُّوهُمْ مِنْهُمْ مِينَ ، نَعْمَطَقُوا عَلَيْهِمْ ، فَقَتَلُوا مِنْهُمْ مَقْتَلَةً عَظِيمَةً ، وَجَاءَ سَهْمٌ غَرْبٌ<sup>(١)</sup>  
فَأَصَابَ إِبْرَاهِيمَ فَقَتَلَهُ .

وَقَدْ دَبَّرْتُ مِنْ قَبْلُ قَرِيشٌ فِي حِمَاةِ الْعِيرِ بِأَنْ نَفَرْتُ عَلَى الصَّعْبِ وَالذَّلُولِ لِنُدْفَعِ  
رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ<sup>(٢)</sup> ، فَكَانَ هَلَاكُهَا فِي تَدْيِيرِهَا .

وَكُسِرَتِ الْأَنْصَارُ يَوْمَ أُحُدٍ بِأَنْ أُخْرِجَتِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَنِ الْمَدِينَةِ ظَنًّا مِنْهَا  
أَنَّ الظُّفَرَ وَالنُّصْرَةَ كَانَتْ بِذَلِكَ ، وَكَانَ سَبَبُ عَظَمِهَا وَظَفَرِ قَرِيشٍ بِهَا ، وَلَوْ أَقَامَتْ بَيْنَ  
جُذُرَانِ الْمَدِينَةِ لَمْ تَظْفَرُ قَرِيشٌ مِنْهَا شَيْءٌ .

وَدَبَّرَ أَبُو مُسْلِمِ الدَّوْلَةِ الْهَاشِمِيَّةَ ، وَقَامَ بِهَا حَتَّى كَانَ حَتْفُهُ فِي تَدْيِيرِهِ .

وَكَذَلِكَ جَرَى لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْمُحْتَسِبِ مَعَ عَبْدِ اللَّهِ الْمُهْدِيِّ بِالْمَغْرِبِ .

وَدَبَّرَ أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ الْمُسْلِمَةِ رُئُوسُ الرُّؤَسَاءِ فِي إِخْرَاجِ الْبَسَاسِيْرِ عَنِ الْعِرَاقِ حَتَّى كَانَ  
هَلَاكُهُ عَلَى يَدِهِ ، وَكَذَلِكَ أَيْضًا الْعَكْسُ عَلَيْهِ تَدْيِيرُهُ فِي إِزَالَةِ الدَّوْلَةِ الْبُؤْيُيَّةِ مِنَ الدَّوْلَةِ  
السَّلْجُوقِيَّةِ ظَنًّا مِنْهُ أَنَّهُ يَدْفَعُ الشَّرَّ ، بَغَيْرِ الشَّرِّ فَدَفَعَ الشَّرَّ بِمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهُ .

وَأَمْثَالُ هَذَا وَنَظَائِرُهُ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى .

(١) سهم غرب : لا يدري راميهِ .

(٢) اللطيمة : فافلة تحمل العطور .

(١٨)

الأُضْلُ :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : غَيْرُوا الشَّيْبَ ، وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ ؛ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ :  
إِنَّمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ذَلِكَ وَالِدَيْنُ قُلٌّ ، فَأَمَّا الْآنَ وَقَدْ اتَّسَعَ نِطَاقُهُ ، وَضَرَبَ بَحْرَانِهِ ، فامْرُؤٌ وما اختارَ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

اليهود لا تَخْضِبُ ، وكان النبيّ صلى الله عليه وآله أمر أصحابه بالخِضَابِ ليكونوا في مَرَأَى العَيْنِ شَبَابًا فَيَجْتَنِبَ الْمُشْرِكُونَ عَنْهُمْ حَالِ الْحَرْبِ ، فَإِنَّ الشَّيْخَ مَظَنَّةُ الضَّعْفِ .

قال عليّ عليه السلام : « كان ذلك والإسلام قُلٌّ » ، أى قليل ؛ وأما الآن وقد اتَّسَعَ نِطَاقُهُ وَضَرَبَ بَحْرَانَهُ فَقَدْ سَقَطَ ذَلِكَ الْأَمْرُ وَصَارَ الْخِضَابُ مُبَاحًا غَيْرَ مُنْدُوبٍ .

والنِّطَاقُ : ثوبٌ تَلْبَسُهُ الْمَرْأَةُ لِبَسَةً مَخْصُوصَةً لَيْسَ بِصُدْرَةٍ وَلَا سُرْوَابِلَ ، وَسُمِّيَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ ذَاتَ النَّطَاقِينَ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ مِنْ ثَوْبِهَا ذَلِكَ قِطْعَةً شَدَّتْ بِهَا سَفْرَةَ لَهَا حَمَلِهَا أَبُو بَكْرٍ مَعَهُ حِينَ خَرَجَ مِنْ مَكَّةَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَوْمَ الْهِجْرَةِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : « لَقَدْ أَبْدَلَهَا اللَّهُ بِهَا نِطَاقِينَ فِي الْجَنَّةِ » ، وَكَانَ نَقَرُ الشَّامِ يُنَادُونَ عَبْدَ اللَّهِ ابْنَهَا حِينَ حَصَرَهُ الْحِجَّاجُ بِمَكَّةَ يَشْتَمُونَهُ كَمَا زَعَمُوا : يَا بَنَ ذَاتِ النَّطَاقِينَ ، فَيَضْحَكُ عَبْدُ اللَّهِ مِنْهُمْ ، وَقَالَ لَابْنِ أَبِي عَتِيقٍ : أَلَا تَسْمَعُ ! يَظُنُّونَهُ ذِمًّا ثُمَّ يَقُولُ :

\* وتلك شكاة ظاهر عنك عارها (١) \*

واستعار أمير المؤمنين عليه السلام هذه اللفظة لسمة رُقعة الإسلام ، وكذلك استعار قوله : « وضرب بجرانه » ، أى أقام وثبت ، وذلك لأن البعير إذا ضرب بجرانه الأرض - وجرانه مُقدّم عنقه - فقد استناخ وبرك .

وامرؤ مبتدأ وإن كان نكرة ، كقولهم : « شرُّ أهرَّ ذا ناب » ، لخصول الفائدة ، والواو بمعنى « مع » ، وهى وما بعدها الخبر ، وما مصدرية ، أى امرؤ مع اختياره .

\*\*\*

### [ نبذ مما قيل فى الشيب والخضاب ]

فأما القول فى الخضاب فقد روى قوم أن رسول الله صلى الله عليه وآله بدا شيب يسير فى لحيته ، فغيّره بالخضاب ، خَضَبَ بالحِمْاء والكَتَمَ ، وقال قوم : لم يَشِبْ أصلاً . وروى أن عائشة قالت : ما كان الله ليَشِينه بالشيب ، فقيل : أوشين هو يا أم المؤمنين ! قالت : كلّم يكرهه . وأما أبو بكر فصَحَّ الخبر عنه بذلك ، وكذلك أمير المؤمنين ، وقيل : إنه لم يخضب . وقُتِلَ الحسين عليه السلام يوم الطَّفِّ وهو مخضوب . وفى الحديث المرفوع رواه عقبه بن عامر : « عليكم بالحِمْاء ، فإنه خِضَابُ الإسلام ، إنه يصفى البَصَرَ ويذهب بالصداع ، ويزيد فى البهاء ، وإيتاكم والسواد ، فإنه من سَوْد ، سَوْدَ الله وجهه يوم القيامة » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « عليكم بالخضاب ، فإنه أهيب لعدوّكم وأعجب إلى نسائكم » .

(١) لأبى ذؤيب الهذلى ، وصدره :

\* وَعَيْرَهَا الْوَاشُونَ أَنَّى أَحِبَّهَا \*

(٢) ديوان الهذليين ١ : ٢١ .

ويقال في أبواب السكناية المختضب ، هو يسود وجه النذير ، لأن النذير الشيب ؛  
 قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ ﴾ (١) : إنه الشيب .  
 وكان عبد الرحمن بن الأسود أبيض الرأس واللحية ، فأصبح ذات يوم وقد حمزها ؛ وقال :  
 إن عائشة أرسلت إليّ البارحة جاريتهما فأقسمت عليّ لأغيّرن ، وقالت : إن أبا بكر كان يصبغ .  
 ورؤي قيس بن أبي حازم قال : كان أبو بكر يخرج إلينا وكان لحيته ضرام عرْفَج .  
 وعن أبي عامر الأنصاري : رأيت أبا بكر يغير بالحناء والكتم ، ورأيت عمر لا يغير .  
 شيئاً من شيبه ، وقال : إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : « من شاب شيبة  
 في الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة » ، ولا أحب أن أغير نوري .

وكان أنس بن مالك يختضب ويلشد :  
 نسود أعلاها وتأبى أصولها وليس إلى ردّ الشباب سبيل .

وروي أن عبد المطلب وفد على سيف بن ذي يزن ، فقال له : لو خضبت ! فلما عاد  
 إلى مكة خضب ، فقالت له امرأته ثنينة أمّ العباس وضرار : ما أحسن هذا الخضاب  
 لو دام ! فقال :

فلو دام لي هذا الخضابُ حمْدُهُ      وكان بديلاً من خليلٍ قد انصرَمَ  
 تمتعتُ منه والحياةُ قصيرةٌ      ولا بد من موتٍ ثيلةٍ - أو هنَمَ  
 وموتٍ جهينٍ عاجلٍ لا شوى له      أحبُّ إلينا من مقالِكُم حَكَمُ

قال : يعني أنه صار شيخاً ، فصار حكماً بين الناس ، من قوله :  
 لا تَغِرُّ المرء أن يقال له . أضحى فلانٌ لسنه حكماً

وقال أسماء بنُ خارجةَ لجاريتها : اخْضِبِيْنِي ، فقالت حتى متى أَرْقَمُكَ ! فقال :  
عَيَّرْتَنِي خَلَقًا أَبْلَيْتُ جِدَّتَهُ وَهَلْ رَأَيْتِ جَدِيدًا لَمْ يَمُدْ خَلَقًا!  
وأما من يَروِي أَنَّ عَلِيًّا عليه السلام ما خَضَبَ ، فيحتجُّ بقوله ، وقد قيل له : لو غَيَّرْتَ  
شَيْبَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فقال : الْخَضَابُ زِينَةٌ ، وَنَحْنُ فِي مَصِيبَةٍ - يَعْنِي بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى  
اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ . . .

وَسُئِلَ الْحَسَنُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْخَضَابِ ، فَقَالَ : هُوَ جَزَعٌ قَبِيحٌ . وقال محمود الوراق :  
يَا خَاضِبَ الشَّيْبِ الَّذِي فِي كُلِّ ثَلَاثَةٍ يَمُودُ  
إِنَّ الْخَضَابَ إِذَا مَضَى فَكَأَنَّهُ شَيْبٌ جَدِيدٌ  
فَدَعِ الْمَشِيبَ وَمَا يُرِيدُ فَانْ تَعُودَ كَمَا تُرِيدُ  
وقد رَوَى قومٌ عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَرَاهِيَةَ الْخَضَابِ ، وَأَنَّهُ قَالَ : لَوْ اسْتَقْبَلْتُمْ  
الشَّيْبَ بِالتَّوَاضُعِ لَكَانَ خَيْرًا لَكُمْ .

قال الشاعر :

وَصَبَغْتُ مَا صَبَغَ الزَّمَانُ فَلَمْ يَدُمُ صَبْغِي وَدَامَتْ صِبْغَةُ الْأَيَّامِ  
وقال آخر :

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمَغِيرُ شَيْبَهُ كَمَا تُعَدُّ بِهِ مِنَ الشَّبَّانِ  
أَقْصِرْ فَلَوْ سَوَّدَتْ كُلَّ حَامِيَةٍ بِيضَاءَ مَا عُدَّتْ مِنَ الْغُرَبَانِ  
ويقولون في ديوان عَرَضَ الْجَيْشِ بَبْغَدَادَ لَمَنْ يَخْضِبُ: إِذَا ذَكَرُوا حِلْيَتَهُ : مُسْتَعَارٌ ،  
وهي كنايةٌ لطيفة . وأنا أَسْتَحْسِنُ قولَ الْبُحْتَرِيِّ : خَضَبْتُ بِالْمَقْتَرِاضِ : كناية عن قَصِّ  
الشعر الأبيض ، فجعل ذلك خِضَابَهُ عِوَضًا عَنِ الصَّبْغِ ، وَالْأَيَّاتُ هَذِهِ :

لَا بَسَّ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ نَاضٍ وَمَلِيحٌ مِنْ شَيْبَةٍ أَمْ رَاضٍ (١)

(١) ديوانه ٢ : ٧٢ ، من تصيد يعدح فيها ابن الفياض .

وإذا ما امتعّضتُ من وَلَعِ الشَّيِّ      ب برأسى لم يَنْ ذاكَ امْتِمَاضِي  
 ليس يَرْضَى عن الزَّمانِ امرؤُ فيهِ      ه إِلَّا عن غَفْلَةٍ أو تَفَاضِي  
 والبَوَاقِ مِنَ اللَّيَالِي وإنْ خَا      لَفَنَ شَيْئًا شَبِيهَةً بِالْمَوَاضِي<sup>(١)</sup>  
 وأَبَتْ تَرْكِي الغُدِّيَّاتِ والآ      صَالٍ حَتَّى خَضَبْتُ بِالْمِقْرَاضِ  
 ودواءِ المَشْيَبِ كَالْبَخْصِ في عَيْنِي فَقُلْ فِيهِ      في الميُونِ المِرَاضِ  
 طَال حُزْنِي على الشَّبَابِ وما بَيَّضَ      مِنْ لَوْنٍ صَبْغِهِ الفَضْاضِ  
 فهِلْ الحَادِثَاتُ يَا بَنَ عُوفٍ      تَارَكَتْ وَلُبَسَ هَذَا الْبَيَاضِ !

---

(١) الديوان : « فصبغات » .

(١٩)

## الأفضل

مَنْ جَرَى فِي عِنَانِ أَمَلِهِ عَثَرَ بِأَجَلِهِ .

\*\*\*

## الشيخ

قد تقدّم لنا قولٌ كثيرٌ في الأمل ، ونذكرها هنا زيادةً على ذلك :  
قال الحسن عليه السلام : لو رأيتَ الأجلَ ومسيرَه ، لنسيتَ الأملَ وغروره ،  
ويُقدّرُ المقدّرون والقضاءُ يضحك .  
وروى أبو سعيد الخدري أن أسامة بن زيد اشترى وليدةً بمائة دينار إلى شهر ،  
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « ألا تعجبون من أسامة يشتري إلى شهر ! إن أسامة  
لعليلُ الأمل » .  
أبو عثمان النهدي : قد بلغتُ نحواً من ثلاثين ومائة سنةٍ فما من شيءٍ إلا  
قد عرفتُ فيه النقصَ إلا أُملي ، فإنه كما كان .

قال الشاعر :

أراك تزيدك الأيامُ حرصاً      على الدنيا كأنك لا تموتُ  
فهل لك غايةٌ إن صرتَ يوماً      إليها قلتُ حسبي قد رَضيتُ !

وقال آخر :

مَنْ تَمَنَّى الْمُنَى فَأَغْرَقَ فِيهَا      ماتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنَالَ مُنَاهُ  
ليسَ في مالٍ مَنْ يَتَابَعُ في الدَّاتِ فَضْلُهُ      عن نَفْسِهِ لِسِوَاهُ

(٣٠)

الأضل :

أَقِيلُوا ذَوِي الْمُرُوءَاتِ عَثَرَاتِهِمْ فَمَا يَعْثُرُ مِنْهُمْ عَاثِرٌ إِلَّا وَيَدُّهُ بِيَدِ اللَّهِ  
يَرْفَعُهُ .

\*\*\*

البخر :

[ نبذ مما قيل في المروءة ]

قد رُوِيَتْ هذه الكلمة مرفوعة ، ذكر ذلك ابنُ قُتَيْبَةَ في ” عيون الأخبار “  
وأحسن ما قيل في المُرُوءة قولُهم : اللدّة تركُ المروءة ، والمروءة تركُ اللدّة .

وفي الحديث أن رجلاً قام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقال : يا رسولَ الله ،  
أأستُ أفضلَ قومي ! فقال : إن كان لك عقلُك فلك فضلُك ، وإن كان لك خُلُقُك فلك مُروءة ،  
وإن كان لك مالُك فلك حَسَب ، وإن كان لك تَقَى فلك دين .

وسئل الحسن عن المروءة فقال : جاء في الحديث المرفوع : « إن الله تعالى يحبّ معالي  
الأمور ويكره سَفْسَافَهَا » .

وكان يقال : من مُروءة الرجل جلوسه بياب داره .

وقال الحسن : لا دين إلا بمروءة .



وقيل لأبن هُبيرة : ما المروءة ؟ فقال : إصلاح المال ، والرّزانةُ في المجلس ، والغذاء والعشاء بالفناء .

وجاء أيضا في الحديث المرفوع : « حَسَبَ الرَّجُلُ مَالَهُ ، وَكَرَمُهُ دِينُهُ ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ » . وكان يقال : ليس من المروءة كثرةُ الالتفات في الطريق .  
ويقال : سرعةُ المشي تذهبُ بِمُرُوءَةِ الرَّجُلِ .

وقال معاوية لعمر : ما ألدّ الأشياء ؟ قال : مُرُفَتَيَانِ قُرَيْشٍ أَنْ يَقُومُوا ؛ فَلَمَّا قَامُوا قَالَ : إِسْقَاطُ الْمُرُوءَةِ .

وكان عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ يقولُ لَبَنِيهِ : يَا بَنِيَّ الْعَبَا ، فَإِنَّ الْمُرُوءَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَدِّ اللَّيْبِ . وقيل للأحنف : ما المروءة ؟ قال : الْعِفَّةُ وَالْحِرْفَةُ ، تَعَفٍّ عَمَّا حَرَّمَ اللَّهُ ، وَتَحْتَرِفُ فِيهَا أَحَلَّ اللَّهُ .

وقال محمد بن عمران التيمي : لا أشدّ من المروءة ، وهي ألا تعمل في السرّ شيئا تستحي منه في العلانية . وسئل النظام عن المروءة ، فأشدد بيت زهير :

السترُ دونَ الفاحشاتِ ولا يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرٍ (١)

وقال عمر : تعلموا العربية فإنها تزيد في المروءة ، وتعلموا النسب قرب رَجِمَ بِمَهْوَلِهِ قَدْ وَصَلَتْ بِهِ .

وقال ميمون بن مهران : أَوَّلُ الْمُرُوءَةِ طَلَاقَةُ الْوَجْهِ ، وَالثَّانِي التَّوَدُّدُ إِلَى النَّاسِ ، وَالثَّالِثُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ .

وقال مسلمة بن عبد الملك : مُرُوءَتَانِ ظَاهِرَتَانِ : الرِّيَاشُ وَالْفَصَاحَةُ .

وكان يقال : تُعْرَفُ مُرُوءَةُ الرَّجُلِ بِكَثْرَةِ دُيُونِهِ .

وكان يقال : العقل يأمرُك بالأنفَع ، والمروءة تأمرُك بالأجَمَلِ .

(١) ديوانه ٩٥ .

لَا مَعََاوِيَةَ يُزِيدُ ابْنَهُ عَلَى سَمَاعِ الْغِنَاءِ وَحُبِّ الْقِيَانِ ، وَقَالَ لَهُ : أَسْقَطْتَ مَرُوءَتَكَ ،  
فَقَالَ يُزِيدُ : أَتَسْكُمُ بِلِسَانِي كَلِمَةً ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَبِلِسَانِ أَبِي سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَهَنْدِ  
بِنْتِ عُتْبَةَ مَعَ لِسَانِكَ ، قَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ حَدَّثَنِي عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - وَاسْتَشْهَدَ عَلَى ذَلِكَ ابْنَهُ  
عَبْدَ اللَّهِ بِصَدَقِهِ - أَنَّ أَبَا سَفْيَانَ كَانَ يَخْلَعُ عَلَى الْمَغْنَى الْفَاضِلِ وَالْمُضَاعَفِ مِنْ رِثْيَاهُ ،  
وَلَقَدْ حَدَّثَنِي أَنَّ جَارِيَتِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ غَنَّتَاهُ يَوْمًا فَأَطْرَبَتْهُ ، فَجَعَلَ يَخْلَعُ عَلَيْهِمَا  
أَثْوَابَهُ ثَوْبًا ثَوْبًا حَتَّى تَجْرُدَ تَجْرُدَ الْعَيْرِ ، وَلَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَفَّانُ ابْنُ أَبِي الْعَاصِ رُبَّمَا سَحَلَا  
جَارِيَةَ الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ عَلَى أَعْنَاقِهِمَا ، فَرَأَاهَا عَلَى الْأَبْطَحِ وَرَجُلَةٍ قَرِيشٍ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمَا ؛  
مَرَّةً عَلَى ظَهْرِ أَبِيكَ ، وَمَرَّةً عَلَى ظَهْرِ عَفَّانَ ، فَمَا الَّذِي تَنْكُرُ مِنِّي ! فَقَالَ مَعََاوِيَةُ : اسْكُتْ.  
لَحَاكَ اللَّهُ ! وَاللَّهِ مَا أَحَدٌ أَلْحَقَ بِأَبِيكَ هَذَا إِلَّا لِيُفْرِكَ وَيَفْضَحَكَ ، وَإِنْ كَانَ أَبُو سَفْيَانَ  
مَا عَلِمْتَ لِثَقِيلُ الْحِلْمِ ، يَقْظَانُ الرَّأْيَ ، عَازِبُ الْهَوَى ، طَوِيلُ الْأَنَاءِ ، بَعِيدُ الْقَرَرِ ،  
وَمَا سَوْدَتُهُ قَرِيشٌ إِلَّا لِقَضَاهُ .

(٢١)

الأفضل :

قُرِنتُ الهميئة بالخبيبة ، والحياء بالجرمان ، والفرصة تمر مرة السحاب ،  
فانتبهزوا فرص الخير .

\*\*\*

الشرح :

في المثل : من أقدم لم يندم ، وقال الشاعر :

ليس للحاجات إلا من له وجه وقاح  
ولسان طرمذى<sup>(١)</sup> وغدو ورواح  
فعليه السعى فيها وعلى الله النجاح

وكان يقال : الفرصة ما إذا حاولته فأخطأك نفعة ، لم يصل إليك ضره .

ومن كلام ابن المقفع : انتهز الفرصة في إحراز المآثر ، وأغتنم الإمكان بأصطناع  
الخير ، ولا تنتظر ما تعامل فتجاذى عنه بمثله ، فإنك إن غومت بمكروه واشتغلت برصد  
المكافأة عنه قصر العمر بك عن اكتساب فائدة ، وأقتناء منقبة ، وتصرفت أيامك  
بين تعدد عليك ، وانتظار للظفر بإدراك الثأر من خصمك ، ولا عيشة في الحياة أكثر  
من ذلك .

كانت العرب إذا أوفدت وافدا قالت له : إياك والهميئة ؛ فإنها خيبة ؛ ولا تبت عند  
دنب الأمر وبت عند رأسه .

(١) طرمذى : يتمدح بما ليس فيه .

(٢٢)

الأصل :

لَنَا حَقٌّ فَإِنْ أُعْطِينَاهُ وَإِلَّا رَكِبْنَا أَعْجَازَ الْإِبِلِ ، وَإِنْ طَالَ الشَّرَى .

\*\*\*

قَالَ الرَّضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَهَذَا الْقَوْلُ مِنْ لَطِيفِ الْكَلَامِ وَفَصِيحِهِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّا إِنْ لَمْ نُعْطَ حَقَّنَا كُنَّا أَذِلَّةً ، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّدِيفَ يَرْكَبُ عَجْزَ الْبَعِيرِ ، كَالْمُعْبَدِ وَالْأَسِيرِ وَمَنْ يَجْرَى سَجَرًا هَا .

\*\*\*

الشَّرْحُ :

هذا الفصل قد ذكره أبو عبيد الهروى في "الجمع بين الغريبين" وصورته :  
إِنَّ لَنَا حَقًّا إِنْ نَعَطَهُ نَأْخُذْهُ ، وَإِنْ مُنِعَهُ رَكِبَ أَعْجَازَ الْإِبِلِ ، وَإِنْ طَالَ الشَّرَى . قَالَ  
قَدْ فُسِّرَ وَهُوَ عَلَى وَجْهَيْنِ : أَحَدُهُمَا أَنَّ رَاكِبَ عَجْزِ الْبَعِيرِ يَلْحَقُهُ مَشَقَّةٌ وَضُرٌّ ، فَأَرَادَ : أَنَّا  
إِذَا مُنِعْنَا حَقَّنَا صَبَرْنَا عَلَى الْمَشَقَّةِ وَالْمَضَرَّةِ ، كَمَا يَصْبِرُ رَاكِبُ عَجْزِ الْبَعِيرِ ؛ وَهَذَا التفسير  
قَرِيبٌ مِمَّا فُسِّرَ الرضَى . وَالْوَجْهَ الثَّانِي أَنَّ رَاكِبَ عَجْزِ الْبَعِيرِ إِنَّمَا يَكُونُ إِذَا كَانَ غَيْرُهُ قَدْ  
رَكِبَ عَلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ ، وَرَاكِبُ ظَهْرِ الْبَعِيرِ مُتَقَدِّمٌ عَلَى رَاكِبِ عَجْزِ الْبَعِيرِ ، فَأَرَادَ : أَنَّا إِذَا  
مُنِعْنَا حَقَّنَا تَأَخَّرْنَا وَتَقَدَّمَ غَيْرُنَا عَلَيْنَا ، فَكُنَّا كَالرَّاكِبِ رَدِيفًا لِغَيْرِهِ ، وَأكَّدَ الْمَعْنَى  
عَلَى كَلَا التفسيرين<sup>(١)</sup> بقوله : « وَإِنْ طَالَ الشَّرَى » ، لِأَنَّهُ إِذَا طَالَ الشَّرَى كَانَتْ الْمَشَقَّةُ

(١) في د : « التقديرين » .

— ١٣٣ —

على راكب عَجُزٍ البعير أعظم ، وكان الصبر على تأخر راكب عَجُزٍ البعير عن الراكب  
على ظهره أشدَّ وأصعب .

وهذا الكلام تزعم الإمامية أنه قاله يوم السقيفة أوفى تلك الأيام ، ويذهب أصحابنا  
إلى أنه قاله يوم الشورى بعد وفاة عمر واجتماع الجماعة لاختيار واحد من الستة ، وأكثر  
أرباب السِّير ينقلونه على هذا الوجه .

(٢٣)

الأصل :

مَنْ أَبْطَأَ بِهِ عَمَلُهُ ، لَمْ يُسْرِعْ بِهِ حَسْبُهُ .

\*\*\*

الشرح :

هذا الكلام حَثٌّ وَحَضٌّ وتحريض على العبادة ، وقد تقدّم أمثاله<sup>(١)</sup> ، وسيأتى له نظائر كثيرة ، وهو مثل قول النبي صلى الله عليه وآله : « يا فاطمة بنت محمد ، إني لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب ، إني لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ﴾<sup>(٢)</sup> .

---

(١) في د « مثله » . (٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٢٤)

الأصل :

مِنْ كَفَّارَاتِ الذُّنُوبِ الْعِظَامِ إِغَاثَةُ الْمَلْهُوفِ ، وَالتَّنْفِيسُ عَنِ الْمَكْرُوبِ .

\*\*\*

الشرح :

قد جاء في هذا المعنى آثار كثيرة ، وأخبار جميلة . كان العتّابي قد أمّلق ، فجاء فوقّ بباب المأمون يسترزق الله على يديه ، فوافى يحيى بن أكرم ، فعرض له العتّابي ، فقال له : إن رأيت أيتها القاضي أن تعلم أمير المؤمنين مكاني فافعل ، فقال : لست بحاجب ؛ قال : قد علمتُ ، ولكنك ذو فضل ، وذو الفضل معوان ، فقال : سلكت بي غير طريق ؛ قال : إن الله أتخفك منه بجاه ونعمة ، وهو مقبل عليك بالزيادة إن شكرت ، وبالتغيير إن كفرت ، وأنا لك اليوم خير منك لنفسك ، لأنّي أدعوك إلى ما فيه ازدياد نعمتك ، وأنت تأبى عليّ ، ولكلّ شيء زكاة ، وزكاة الجاه رِفْد المستمين . فدخل يحيى فأخبر المأمون به ، فأحضره وحاده ولأطفه ووصله .

(٢٥)

الأصل :

يَا بَنَ آدَمَ ، إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابَعُ عَلَيْكَ نِعْمُهُ وَأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاخْذِرْهُ .

\*\*\*

الشرح :

هذا الكلام تخويف وتحذير من الاستدراج ؛ قال سبحانه : ﴿ سَلَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾<sup>(١)</sup> ؛ وذلك لأن العبد بفروده يعتقد أن موالاة النعم عليه وهو عاص من باب الرضا عنه ، ولا يعلم أنه استدراج له ونقمة عليه .

فإن قلت : كيف يصح القول بالاستدراج على أصولكم في السدل ؟ أليس معنى الاستدراج إيهام العبد أنه سبحانه غيرُ ساخط فعله ومعصيته ! فهل هذا الاستدراج إلا مفسدةٌ وسببٌ إلى الإصرار على القبيح !

قلت : إذا كان المكلف عالمًا بقبح القبيح ، أو متمكِّنًا من العلم بقبحه ثم رأى النعم تتوالى عليه وهو مُصِرٌّ على المعصية ، كان ترادف تلك النعم كالمُنْبَهِّ له على وجوب الحذر ، مثال ذلك مَنْ هو في خِدْمَةِ مَلِكٍ ، وهو عونُ ذلك الملك في دولته ، ويعلم أن الملك قد عرف حاله ، ثم يرى نِعَمَ الملك مترادفةً إليه ، فإنه يجب بمقتضى الاحتياط أن يشتدَّ حَذَرُهُ ، لأنه يقول : ليست حالي مع الملك حالاً من يستحق هذه النعم ، وما هذه إلا مكيدةٌ وتحتها غائلةٌ ، فيجب إذن عليه أن يحذر .



(٢٦)

الأصل :

مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئًا إِلَّا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسَانِهِ ، وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ .

\*\*\*

الشرح :

قال زهير بن أبي سلمى :

وَمَهْمَا تَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ      وَإِنْ خَالَهَا تَخَفَى عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمُ<sup>(١)</sup>

وقال آخر :

تَجَبَّرَنِي الْعَيْنَانِ مَا الْقَلْبُ كَاتِمٌ      وَمَا جَنِّ بِالْبَغْضَاءِ وَالنَّظَرِ الشَّرِيرِ

وقال آخر :

وَفِي عَيْنَيْكَ تَرْجَمَةٌ أَرَاهَا      تَدُلُّ عَلَى الضَّغَائِنِ وَالْحُقُودِ  
وَأَخْلَاقُ عَهْدَتِ اللَّيْنِ فِيهَا      غَدَتُ وَكَأَنَّهَا زُبُرُ الْحَدِيدِ  
وَقَدْ عَاهَدْتَنِي بِخِلَافِ هَذَا      وَقَالَ اللَّهُ : « أَوْفُوا بِالْعُقُودِ »

وكان يقال : العين والوجه واللسان أصحاب أخبار على القلب ، وقالوا : القلوب كالمرآيا المتقابلة ؛ إذا ارتسمت في إحداهن صورة ظهرت في الأخرى .

(٢٧)

الأصل :

امشِ بدائك ما مشى بك .

\*\*\*

الشئخ :

يقول : مهما وجدت سبيلاً إلى الصبر على أمرٍ من الأمور التي قد دُفعت إليها ، وفيها مشقة عليك ، وضرر لاحق بك ، فاصبر ولا تلتمس طريقاً إلى تغيير ما دفعت إليه أن تسلكها بالعنف ، ومراعاة الوقت ، ومعاينة الأفضية والأقدار ؛ ومثال ذلك من يعرض له مرض ما يمكنه أن يحتمله ويدافع الوقت ، فإنه يجب عليه ألا يطرح جانبه إلى الأرض ، ويتخذ إلى النوم على الفراش ، ليعالج ذلك المرض قوة وقهراً ؛ وربما أفصى به مقاهرة ذلك المرض الصغير بالأدوية إلى أن يصير كبيراً مُعضلاً .

(٢٨)

الأضل :

أفضل الزهد إخفاء الزهد .

\*\*\*

الشرح :

إنما كان كذلك لأنّ الجهر بالعبادة والزّهادة والإعلان بذلك قلّ أن يسلم من مخالطة الرّياء ، وقد تقدّم لنا في الرّياء أقوالٌ مُقنّعة .

رأى المنصورُ رجلاً واقفاً ببابه ، فقال : مثل هذا الدرهم بين عينيك وأنت واقفٌ ببابنا ! فقال الربيع : نعم ، لأنّه ضرب على غير السّكة .

شاعر :

مَعشَرُهُ أَثْبَتَ الصَّلَاةَ عَلَيْهِمْ      لِحِبَاءِ يَشْقَاهَا الْحِرَابُ  
عَمَرُوا مَوَاضِعَ التَّصَنُّعِ مِنْهُمْ      وَمَكَانُ الْإِخْلَاصِ مِنْهُمْ خَرَابُ

(٢٩)

الأصل :

إِذَا كُنْتَ فِي إِدْبَارِ الْمَوْتِ فِي إِقْبَالٍ ، فَمَا أَسْرَعَ الْمُلتَقَى !

\*\*\*

الشرح :

هذا ظاهر ، لأنه إذا كان كلما جاء في إدار ، والموت كلما جاء في إقبال ،  
فياسران ما يلتقيان ! وذلك لأن إداره هو توجهه إلى الموت ، وإقبال الموت هو توجهه  
الموت إلى نحوه ، فقد حُقَّ إذن الالتقاء سريعا ، ومثال ذلك سفيلتان بدجلة أو غيرها ،  
تصعد إحداها ، والأخرى تنحدر نحوها ، فلا ريب أن الالتقاء يكون وشيكا .

— ١٤١ —

(٣٠)

الأصل :

الْحَدَرُ الْحَدَرُ ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ سَتَرَ ، حَتَّى كَأَنَّهُ قَدْ غَفَرَ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدّم هذا المعنى وهو الاستدراج الذى ذكرناه آنفاً.

(٣١)

الأصل :

وَسُئِلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنِ الْإِيمَانِ فَقَالَ : الْإِيمَانُ عَلَى أَرْبَعٍ دَعَائِمٌ : عَلَى الصَّبْرِ ، وَالْيَقِينِ ، وَالْمَدْلِ ، وَالْإِجْهَادِ .

وَالصَّبْرُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعٍ شُعَبٍ : عَلَى الشَّوْقِ ، وَالشَّفَقِ ، وَالزُّهْدِ ، وَالتَّرَقُّبِ ؛ فَمَنْ أَشْتَقَّ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنْ الشَّهَوَاتِ ؛ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ اجْتَنَبَ الْمُحَرَّمَاتِ ، وَمَنْ زَهَدَ فِي الدُّنْيَا اسْتَهَانَ بِالْمُصِيبَاتِ ، وَمَنْ ارْتَقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ فِي الْخَيْرَاتِ .

وَالْيَقِينُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعٍ شُعَبٍ : عَلَى تَبْصِيرَةِ الْفِطْنَةِ ، وَتَأَوُّلِ الْحِكْمَةِ ، وَمَوْعِظَةِ الْعِبَرَةِ ، وَسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ ، فَمَنْ تَبَصَّرَ فِي الْفِطْنَةِ ، تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، وَمَنْ تَبَيَّنَتْ لَهُ الْحِكْمَةُ ، عَرَفَ الْعِبَرَةَ ، وَمَنْ عَرَفَ الْعِبَرَةَ ، فَكَأَنَّمَا كَانَ فِي الْأَوَّلِينَ .

وَالْمَدْلُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعٍ شُعَبٍ : عَلَى غَائِصِ الْفَهْمِ ، وَغَوْرِ الْعِلْمِ ، وَزَهْرَةِ الْحِكْمِ ، وَرَسَاخَةِ الْجِلْمِ ، فَمَنْ فَهِمَ عِلْمَ غَوْرِ الْعِلْمِ ، وَمَنْ عَلِمَ غَوْرَ الْعِلْمِ صَدَرَ عَنْ شَرَائِعِ الْجِلْمِ ، وَمَنْ حَلَّمَ لَهُ يَفْرَطُ فِي أَمْرِهِ ، وَعَاشَ فِي النَّاسِ حَمِيدًا .

وَالْإِجْهَادُ مِنْهَا عَلَى أَرْبَعٍ شُعَبٍ : عَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالصَّدَقِ فِي الْمَوَاطِنِ ، وَشَتَاتِ الْفَاسِقِينَ ؛ فَمَنْ أَمَرَ بِالْمَعْرُوفِ شَدَّ ظُهُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ نَهَى عَنِ الْمُنْكَرِ أَرْغَمَ أَنْوَافَ الْمُنَافِقِينَ ، وَمَنْ صَدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ قَضَى مَا عَلَيْهِ ، وَمَنْ شَتَّى الْفَاسِقِينَ وَغَضِبَ لِلَّهِ غَضِبَ اللَّهُ لَهُ وَأَرْضَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَالْكُفْرُ عَلَى أَرْبَعٍ دَعَائِمٍ : عَلَى التَّعَمُّقِ ، وَالتَّنَازُعِ ، وَالزَّيْغِ ، وَالشَّقَاقِ ؛ فَمَنْ تَعَمَّقَ لَهُ يُنْبِإُ إِلَى الْحَقِّ ، وَمَنْ كَثُرَ زَوَاعُهُ بِالْجَهْلِ دَامَ حِمَاهُ عَنِ الْحَقِّ ،

وَمَنْ زَاغَ سَاءَتْ عِنْدَهُ الْحَسَنَةُ ، وَحَسُنَتْ عِنْدَهُ السَّيِّئَةُ ، وَسَكِرَ سُكْرَ الضَّلَالَةِ ،  
وَمَنْ شَاقَّ وَعُرَتْ عَلَيْهِ طُرُقُهُ ، وَأَعْضَلَ عَلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَضَاقَ عَلَيْهِ مَخْرَجُهُ .  
وَالشَّكُّ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ : عَلَى التَّمَادِي ، وَالْهَوْلِ ، وَالتَّرَدُّدِ ، وَالِاسْتِسْلَامِ ؛  
فَمَنْ جَعَلَ الْمِرَاءَ دِينًا لَمْ يُصْبِحْ لَيْلُهُ ، وَمَنْ هَالَهُ مَا بَيْنَ يَدَيْهِ نَكَصَ عَلَى عَقْبِيهِ ،  
وَمَنْ تَرَدَّدَ فِي الرَّيْبِ ، وَطِثَّتْهُ سَنَابِكُ الشَّيَاطِينِ ، وَمَنْ اسْتَسْلَمَ لِهَلَكَةِ الدُّنْيَا  
وَالْآخِرَةِ هَلَكَ فِيهِمَا .

\*\*\*

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَبَعْدَ هَذَا كَلَامٌ تَرَكْنَا ذِكْرَهُ خَوْفَ الإِطَالَةِ  
وَالْخُرُوجِ عَنِ الْمَرَضِ الْمَقْصُودِ فِي هَذَا الْكِتَابِ .

\*\*\*

### التَّيْرُخُ :

من هذا الفصل أَخَذَتِ الصُّوفِيَّةُ وَأَصْحَابُ الطَّرِيقَةِ الْحَقِيقَةِ كَثِيرًا مِنْ فَنُونِهِمْ فِي  
عُلُومِهِمْ ؛ وَمِنْ ثَمَلِ كَلَامٍ سَهْلٍ بَنَى عَبْدُ اللَّهِ التُّسْتَرِيُّ وَكَلَامَ الْجَنِيْدِ وَالسَّرِيِّ وَغَيْرُهُمْ رَأَى  
هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي فَرَشِ كَلَامِهِمْ تَلُوحٌ كَالْكَوَاكِبِ الزَّاهِرَةِ وَكُلِّ الْمَقَامَاتِ وَالْأَحْوَالِ الْمَذْكُورَةِ  
فِي هَذَا الْفَصْلِ قَدْ تَقَدَّمَ قَوْلُنَا فِيهَا .

\*\*\*

### [ مُنْبَذٌ وَحِكَايَاتٌ مِمَّا وَقَعَ بَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ ]

وَنَذَرُ هَاهُنَا الصَّدَقَ فِي الْمَوَاطِنِ ، وَبَيْنَ يَدَيِ الْمُلُوكِ ، وَمَنْ يَغْضَبُ اللَّهَ ، وَيَنْهَى عَنِ  
الْمُنْكَرِ ، وَيُقِيمُ بِالْحَقِّ وَلَا يُبَالِي بِالسُّلْطَانِ وَلَا يُرَاقِبُهُ .

دخل عمرُ بنُ عبد العزيز على سليمان بن عبد الملك وعنده أيوب ابنه - وهو يومئذ وليٌ .  
عهده - قد عقد له من بعده ، فجاء إنسانٌ يَطْلُبُ ميراثا من بعض نساء الخلفاء ، فقال  
سليمان : ما إخال النساء يرثن في العقار شيئا ، فقال عمر بن عبد العزيز : سبحان الله ! وأين  
كتابُ الله ! فقال سليمان : يا غلام ، اذهب فأُتِنِي بِسِجِلِّ عبد الملك الذي كُتِبَ في ذلك ،  
فقال له عمر : لكأنك أرسلتَ إلى المصحف ! فقال أيوب بن سليمان : والله ليُوشِكَنَّ الرجل  
يتكلم بمثل هذا عند أمير المؤمنين . فلا يشعر حتى يفارقه رأسه ؟ فقال عمر : إذا أَفْضَى  
الأمرُ إليك وإلى أمثالك كان ما يدُخُلُ على الإسلام أشدَّ مما يخشى عليكم من هذا القول ،  
ثم قام فخرج .

وروى إبراهيم بن هشام بن يحيى ، قال : حدثني أبي ، عن جدِّي ، قال : كان عمرُ بنُ  
عبد العزيز يَهَيِّئُ سليمان بن عبد الملك عن قَتْلِ الحُرورية ، ويقول : ضَمُّهُمْ الحُبوسَ حتَّى  
يُحْدِثُوا توبةً ، فَأَتَى سليمان بحروريةٍ مستقتل ، وعنده عمرُ بنُ عبد العزيز ، فقال سليمان  
للحرورية : ماذا تقول ؟ قال : ما أقول يا فاسق يا بن الفاسق ! فقال سليمان لعمر : ما ترى  
يا أبا حفص ؟ فسكت ، فقال : أقسمتُ عليك لتخبرني ماذا ترى عليه ! فقال : أرى أن  
تَشْتُمَهُ كما شَتَمْتَكَ ، وتَشْتُمُ أباه كما شَتَمَ أباك ، فقال سليمان : ليس إلا ! قال : ليس إلا ؛ فلم  
يرجع سليمان إلى قوله ، وأمر بضرب عنق الحرورية .

وروى ابنُ قتيبة في كتاب " عيون الأخبار " ، قال : بينما المنصور يطوف ليلا  
بالبيتِ سَمِعَ قائلا يقول : اللهم إليك أشكو ظهورَ البغى والفساد ، وما يحول بين الحقِّ  
وأهله من الطمع . فخرج المنصورُ فجلس ناحيةً من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوهُ ،  
فصلى ركعتين ، وأستلم الرُّكنَ ، وأقبل على المنصور فسلم عليه بالخلافة ، فقال المنصور : ما  
الذي سمعتك تقول من ظهورِ البغى والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحقِّ



وأهله من الطمع ؟ فو الله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني <sup>(١)</sup> فقال : يا أمير المؤمنين ، إن أمنتني على نفسي أنبأتك بالأمور من أصولها ، وإلا احتجزت منك ، واقتصرت على نفسي في فيها شاعل ؛ قال : أنت آمنٌ على نفسك ، فقل ؛ فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين إصلاح ما ظهر من البني والفساد لأنت ، قال : ويحك ! وكيف يدخلني الطمع والصنفاء والبيضاء في قبضتي ، والخلو والحامض عندي ! قال : وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك ! إن الله عز وجل استرعاك المسكين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجمعات بينك وبينهم حجباً من الجص والآجر ، وأبواباً من الحديد ، وحجبةً معهم السلاح ، ثم سجنك نفسك فيها منهم ، وبعتت عمالك في جباية الأموال وجمعها ، فقويتهم بالسلاح والرجال والكراع ، وأمرت ألا يدخل عليك إلا فلان وفلان ، نفرمتهم ، ولم تأمر بإيصال المظلوم والملهوف ، ولا الجائع والفقير ، ولا الضعيف والعمري ، ولا أحد ممن له في هذا المال حق ، فما زال هؤلاء النفوس الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يحجبوا عنك ، يجبون الأموال ويجمعونها ويحبسونها ، وقالوا : هذا رجل قد خان الله ، فما لنا لا نخونه ، وقد سخرنا ! فائتمروا على ألا يصل إليك من أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا بنصوه <sup>(٢)</sup> عندك وبفوه العوائل ، حتى تسقط منزلته ويصغر قدره . فلما انتشر ذلك عنك وعندهم أعظمهم الناس وهاجهم ، وكان أول من صاتمهم عمالك بالهدايا والأموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دوتهم ، فامتلات بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطنتك وأنت غافل ، فإن جاء متظلم حيل بينه وبين دخول

(١) ب : « أرمضى » ؛ والصواب ما أثبتته من أ ، د و عيون الأخبار .

(٢) عيون الأخبار : « قصوه » أى عابوه .

دارك، وإن أراد رَفَعَ قصَّته إليك عند ظهورك وجدك وقد نهيتَ عن ذلك ، ووقفت للناس رجلا ينظر في مظالمهم ، فإن جاء المتظلم إليه أرسلوا إلى صاحب المظالم ألا يرفع إليك قصَّته ، ولا يكشف لك حاله ؛ فيجيبهم خوفاً منك ، فلا يزال المظلوم يختلف نحوه ، ويلوذ به ، ويستغيثُ إليه وهو يدفعه ، ويمتلِّ عليه ؛ وإذا أُجهد وأُحرج ، وظهرت أنت لبعض شأنك صرَّخ بين يديك ، فيضرب ضرباً مبرِّحاً ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر ولا تُنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا !

ولقد كنتُ أيامَ شببتي أسافر إلى الصينَ فقدمْتُها مرَّةً وقد أصيبَ مَلِكُها بِسَمِّهِ ، فبَكَى بكاءً شديداً ، حُده (١) جلساؤه على الصَّبر ، فقال: أما إنِّي لست أبكى للبلية النازلة ، ولكن أبكى المظلومَ بالباب يصرُخ فلا أسمعُ صوته ! ثم قال : أمّا إذ ذهبَ سَمِّي فإنَّ بصرى لم يذهب ، نادُوا في الناس ألا يلبسَ ثوبا أحمرَ إلا مظلوماً (٢) ، ثم كان يركبُ الفيلَ طرفيَّ نهاره ينظرُ هل يرى مظلوماً ! فهذا مُشرك بالله غلبتْ رأفتهُ بالمشرِكين على شُحِّ نفسه ، وأنتَ مؤمنٌ بالله من أهل بيتِ نبيِّه لا تَغْلِبُكَ رأفتُكَ بالمسلمين على شُحِّ نفسك ! فإن كنتَ إنما تَجَمِّعُ المالَ لولَدِكَ فقد أراك الله تعالى عِبراً في الطُّفْلَ يَسْقُطُ من بطنِ أمِّه ، ماله على الأرض مال ، وما من مال يومئذٍ إلا ودونه يدٌ شحيحةٌ تحويه ، فلا يزال الله يَلْطُفُ بذلك الطُّفْلَ حتَّى تَعْظُمَ رغبةُ النَّاسِ إليه ، ولستَ بالَّذي تُعْطَى ، ولكنَّ الله يُعْطَى من يشاء ما يشاء . وإن قلتَ : إنما أجمعُ المالَ لتشييدِ السلطان ، فقد أراك الله عِبراً في بني أمية ، ما أَعْنَى عنهم ما جَمَعُوا من الذهب والفضة ، وأَعْدُّوا من الرجال والسِّلاح والكُراع حين أراد الله بهم ما أراد ، وإن قلتَ : أجمعُ المالَ لطلبِ غايةِ هي أجمَسَ من الغايةِ التي أنا فيها ، فوالله ما فوق ما أنتَ فيه إلا منزلةٌ لا تُدْرِكُ إلا بخلافِ ما أنتَ عليه ؛ انظرْ هل تماقِبُ من عصاك بأشدَّ من القَتْلِ ؟ قال : لا ، قال : فإنَّ المَلِكَ الَّذي خَوَّلَكَ ما خَوَّلَكَ

(١) عيون الأخبار : « غنه » . (٢) د : « متظلم » .

لا يُعاقِب مَنْ عَصَاهُ بِالْقَتْلِ ، بِالْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ! وقد رأى ما قد عقدت عليه قلبك ، وعملته جوارحك ، ونظر إليه بصرُك ، واجترحتَه يدُك ومشت إليه رجلاك . وانظر هل يُفني عنك ما شجحتَ عليه من أمرِ الدنيا إذا أنزَعَه من يدِكَ ودعاكَ إلى الحساب على ما مَنَحَكَ !

فبكى المنصورُ وقال : ليتني لم أُخْلَقْ ! وَيَحْكَ ! فكيف أحتالُ لنفسي ؟ قال : إنَّ للناس أعلاما يَفْرَعُونَ إليهم في دينهم ، وَيَرْضَوْنَ بقَوْلهم ، فاجعلهم بِطانتِكَ يُرشدُوك ، وشاورهم في أمرك يُسَدِّدُوك ؛ قال : قد بعثتُ إليهم فهرَبوا مِنِّي ؛ قال : نعم ، خافوا أنْ تَحْمِلَهم على طريقِكَ ، ولكن أفتحْ بابَكَ ، وسهِّلْ حِجابَكَ ، وانظر المظلومَ ، واقمِّع الظالمَ ، وخذ القِيَمَ والصَّدقاتِ مِمَّا حلَّ وطاب ، وأقسِمْه بالحقِّ والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أنْ يأتوك ويُسعدوك على صلاحِ الأُمَّة .

وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، ونادوا بالصلاة ، فقام وصَلَّى ، وعاد إلى مجلسه ، فطلب الرجل فلم يُوجَد (١) .

وروى ابنُ قُتَيْبَةَ أيضا في الكتاب المذكور أنَّ عمرو بنَ عُبَيْد قال للمنصور : إنَّ الله أعطاك الدنيا بأسْرِها ، فاشترِ نفسَكَ منه ببعضها ، وأذكر ليلةَ تَمَخَّضَ لَكَ صبيحُها عن يومِ القيامة - قال : يعني ليلةَ موته - فوجَّه المنصورُ ، فقال الربيع : حَسْبُكَ ، فقد سَمِعْتَ أميرَ المؤمنين ، فقال عمرو بنُ عُبَيْد : إنَّ هذا صَحْبِكَ عشرين سنةً لم يَرَ عليه أنْ يَنْصَحَكَ يوما واحدا ، ولم يَمَلَّ وراءَ بابِكَ بشيءٍ ممَّا في كتابِ الله ولا في سنةِ نبيِّه ! قال أبو جعفر : فما أصنع ؟ قد قلتُ لك ؛ خاتَمِي في يدِكَ فلمْ أنت وأصحابُكَ فأَكْفِي ، فقال عمرو : دَعْنَا بَمَذَلِك نَسْخُ بِأَنْفُسِنَا بَعْوَنِكَ ، وبِبابِكَ مَظَالِمَ كَثِيرَةٍ (٢) ، فأردُّها نَعْلِم أنَّكَ صادق (٣) .

(١) عيون الأخبار ٢ : ٣٣٣ - ٣٣٧ . (٢) عيون الأخبار : « ألف مظلمة » .

وقال ابن قتيبة في الكتاب المذكور : وقد قام أعرابي بين يدي سليمان بن عبد الملك بنحو هذا ، قال له : إني مكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام [ فيه بعض الغلظة ]<sup>(١)</sup> فاحتمله إن كرهته ، فإن وراءه ما تحبّ ، قال : قل ، قال : إني سأطلق لساني بما خَرِسْتُ عنه الألسُن من عِظَتِكَ تَأْدِيَةً لِحَقِّ اللَّهِ . إِنَّكَ قد تَكْنُفُكَ رِجَالُ أَسَاءُوا الاختيارَ لأنفسِهِمْ ، فابتاعوا دُنْيَاهُمْ بِدِينِهِمْ ، فهم حربُ الآخرة ، سِلْمُ الدُّنْيَا ، فلا تَأْمَنُهم على ما ائتمنك الله عليه ، فإنهم لم يَأْلُوا الأمانةَ تَضِييْعًا ، والأمانةَ خَسَفَا ، وأنت مسئول عما اجترَحُوا ، وليسوا مسئولين عما اجترَحْتَ ، فلا تُصْلِحْ دُنْيَاهُمْ بفسادِ آخِرَتِكَ . فإنَّ أعظمَ الناسَ عَقَبًا مَنْ باعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا غَيْرِهِ . قال : فقال سليمان : أما أنت يا أعرابي ، فإنَّكَ قد سَلَلْتَ علينا عاجلاً لسانَكَ ، وهو أَقْطَعُ سَيِّئَتِكَ ؛ فقال : أَجَل ، لقد سَلَلْتَهُ ، ولكن لك لا عليك<sup>(٢)</sup> .

(٣٢)

الأصل :

فَاعِلُ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنْهُ ، وَفَاعِلُ الشَّرِّ شَرٌّ مِنْهُ .

\*\*\*

الْبَيِّن :

قد نظمتُ أنا هذا اللفظ والمعنى ، فقلتُ في جملة أبيات لي :

خيرُ البضائع للإنسان مَكْرُمَةٌ      تَنْبِيهُ وَتَزَكُّو إِذَا بَارَتْ بِضَائِعُهُ  
فالخيرُ خَيْرٌ وخيرٌ منه فاعِلُهُ      والشرُّ شَرٌّ وشرٌّ منه صانِعُهُ

فإن قلت : كيف يكون فاعلُ الخير خيراً من الخير ، وفاعلُ الشرِّ شرّاً من الشرِّ ، مع أن فاعل الخير إنّما كان ممدوحاً لأجل الخير ، وفاعل الشرِّ إنّما كان مذموماً لأجل الشرِّ ، فإذا كان الخير والشرُّ هما سبباً المدح والدّم - وهما الأصل في ذلك - فكيف يكون فاعلاهما خيراً وشرّاً منهما ؟

قلت : لأنّ الخير والشرِّ ليسا عبارة عن ذات حيّة قادرة ، وإنّما هما فعلان ، أو فعل وعدم فعل ، أو عدّمان ، فلو قطع النظر عن الذات الحيّة القادرة التي يصدُران عنها ، لما انتفع أحدُهما ولا استضرّ ، فالنفع والضرر إنّما حصّلا من الحيّ الموصوف بهما لا منهما على انفرادهما ، فلذلك كان فاعلُ الخير خيراً من الخير ، وفاعلُ الشرِّ شرّاً من الشرِّ .

(٣٣)

الأضل :

كُنْ تَمَحًّا ، وَلَا تَكُنْ مُبَدِّرًا ، وَكُنْ مُقَدِّرًا ؛ وَلَا تَكُنْ مُقَتِّرًا .

\*\*\*

الشُرْح :

كلُّ كلامٍ جاء في هذا فهو مأخوذٌ من قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ (١) .  
ونحو قوله : ﴿ إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٢) .

(١) سورة الإسراء ٢٧ . (٢) سورة الإسراء ٢٩ .

(٣٤)

الأصل :

أشرفُ الغنى ، تركُ المني .

\*\*\*

الشرح :

قد سبق منا قول كثير في المني ، ونذكرها هنا ما لم نذكره هناك .

سئل عبيدُ الله بنُ أبي بكر : أى شيء أدوم متاعا ؟ فقال : المني .

وقال بلال بن أبي بُردة : ما يسرني بنصيب من المني مِجر النعم .

وكان يقال : الأمانى للنفس كالزئبق للبصر .

ومن كلام بعض الحكماء : الأمانى تُعمى أعين البصائر ، والحظ يأتي من لا يأتيه ، وربما كان الطمع وعاء حشوه المتألف ، وسائقا يدعو إلى الندامة ، وأشقى الناس بالسلطان صاحبه ؛ كما أن أقرب الأشياء إلى النار أسرعها إحراقا ، ولا يُدرك الفنى بالسلطان إلا نفس خائفة ، وجسم تعب ، ودين منكهم ، وإن كان البحر كدِر الماء ، فهو بعيدُ الهواء .

(٣٥)

الأفضل :

مَنْ أَسْرَعَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يَكْرَهُونَ ، قَالُوا فِيهِ مَا لَا يَمْلِكُونَ .

\*\*\*

الشيخ :

هذا المعنى كثيرٌ واسع ، ولتقتصرُ ها هنا فيه على حكاية ذكرها البرد  
في " الكامل " .

\*\*\*

[ في مجلس قتيبة بن مسلم الباهلي ]

قال : لما فتح قتيبة بن مسلم سمرة فقد أفضى <sup>(١)</sup> إلى أثاث لم ير مثله <sup>(٢)</sup> ، وإلى آلات  
لم ير مثلها ، فأراد أن يرى الناس عظيم ما أنعم الله به عليه ، ويعرفهم أقدار القوم الذين  
ظهر عليهم ، فأمر بدار ففرشت وفي حننها قدور يُرْتَقَى إليها بالسلام ، فإذا الحُصَيْن  
ابن المنذر بن الحارث بن وعلّة الرقاشي قد أقبل والناس جلوس على مراتبهم ، والحُصَيْن  
شيخ كبير ، فلما رآه عبد الله بن مسلم قال لأخيه قتيبة : ائذن لي في معاتبته ؛ قال : لا تردّه  
لأنه خبيثُ الجواب ؛ فأبى عبد الله إلا أن يأذن له - وكان عبد الله يضعف ، وقد كان تسوّر  
حائطا إلى امرأة قبل ذلك - فأقبل على الحُصَيْن ، فقال : أمن الباب دخلت يا أبا ساسان ؟

(١) أفضى ؛ أى اتسع وصار عريضا . (٢) الكامل : « مثلها » .



قال : أَجَلٌ ، أَسَنَ عَمَّكَ عَنْ تَسْوِيرِ الْحَيَّاتَانِ . قال : أَلَرَأَيْتَ هَذِهِ الْقُدُورُ ؟ قال : هِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَلَا تُرَى ؟ قال : مَا أَحْسَبُ بِكَرِّ بْنِ وَائِلٍ رَأَى مِثْلَهَا ، قال : أَجَلٌ ، وَلَا غَيْلَانِ ، وَلَوْ كَانَ رَأَاهَا سَمَّى شَبْعَانَ ، وَلَمْ يَسَمَّ غَيْلَانَ ، قال له عَبْدُ اللَّهِ : يَا أَبَا سَاسَانَ أُنَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

عَزَلْنَا وَأَمَرْنَا وَبَكَرُ بْنُ وَائِلٍ تَجَرَّ حُصَاهَا تَبْتَنَى مَنْ تُحَالِفُهُ <sup>(١)</sup>

قال : أَجَلٌ أَعْرِفُهُ ، وَأَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

بَأَذَنِي الْعَزْمُ قَادَ بَنَى قُشَيْرٍ وَمَنْ كَانَتْ لَهُ أُسْرَى كَلَابِ  
وَحَيْبَةُ مِنْ يَخْيِبُ عَلَى غَنَى وَبَاهِلَةُ بْنُ يَعْصَرَ وَالرَّكَّابِ

يريد : يَا خَيْبَةَ مِنْ يَخْيِبُ . قال : أُنَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

كَأَنَّ فِقَاحَ الْأَزْدِ حَوْلَ ابْنِ مِسْمَعٍ إِذَا عَرِقَتْ أَفْوَاهُ بَكَرِ بْنِ وَائِلٍ

قال : نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَعْرِفُ الَّذِي يَقُولُ :

قَوْمٌ قَتِيئَةٌ أُمُّهُمْ وَأَبُوهُمْ لَوْلَا قَتِيئَةُ أَصْبَحُوا فِي بَجْهَلٍ

قال : أَمَا الشَّعْرُ فَأَرَاكَ تَرَوِيهِ ، فَهَلْ تَقْرَأُ مِنَ الْقُرْآنِ شَيْئًا ؟ قال : أَقْرَأُ مِنْهُ الْآكْثَرَ

الْأَطْيَبَ : ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ <sup>(٢)</sup>

فَأَغْضَبَهُ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ امْرَأَةَ الْحَضِيِّينِ سَجَلَتْ إِلَيْهِ وَهِيَ حُبْلَى مِنْ غَيْرِهِ .

(١) هو حارثة بن بدر — رغبة الآمل .

(٢) سورة الإنسان ١ .

قال : فأتحرك الشيخُ عن هيئته الأولى ، ثم قال على رسله ، وما يكون ! تلد غلاماً على فراشي ، فيقال : فلانُ ابنُ الحُصين ، كما يقال : عبدُ الله بنُ مسلم . فأقبل فتيةً على عبد الله وقال : لا يبعد الله غيرك !

قلت : هو الحُصين بالضاد المعجمة ، وليس في العرب من اسمه « الحُصين » بالضاد المعجمة غيره<sup>(١)</sup> .

---

(١) الكامل ٣ : ١٣ ، ١٤ ؛ قال أبو العباس : « الحُصين بن المنذر بن الحارث بن وعلة . وكان الحُصين بيده لواء على بن أبي طالب رحمه الله على ربيعة ؛ وله يقول القائل :  
لِمَنْ رَايَهُ سَوْدَاهُ يَخْفِقُ ظِلُّهَا إِذَا قِيلَ قَدَمُهَا حُصَيْنٌ تَقَدَّمَ

(٣٦)

الأصل :

مَنْ أَطَالَ الْأَمَلَ ، أَسَاءَ الْعَمَلَ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدّم منا كلامٌ في الأمل .

وقيل لبعض الصالحين : ألك حاجةٌ إلى بغداد ؟ قال : ما أحبّ أن أبسط أُملى حتى تذهب إلى بغداد وتعود .

وقال أبو عثمان النهديّ : قد أتت على ثلاثون ومائة سنة ؛ ما من شيءٍ إلّا وأجد فيه النقص إلّا أُملى ، فإنني وجدته كما هو أو يزيد .

(٣٧)

الأضل :

وقال عليه السلام وقد لقيه عند مسيره إلى الشام دهاقين الأنبار فترجلوا له  
واشتدوا بين يديه :

مَا هَذَا الَّذِي صَنَعْتُمُوهُ ؟ فَقَالُوا : خُلِقْنَا مِنْكُمْ بِهٍ أَمْرَاءَنَا ؛ فَقَالَ : وَاللَّهِ  
مَا يَنْتَفِعُ بِهَذَا أَمْرًاؤُكُمْ ، وَإِنَّكُمْ لَتَشْقُونَ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فِي دُنْيَاكُمْ ، وَتَشْقُونَ بِهٍ  
فِي آخِرَاتِكُمْ ؛ وَمَا أَخْسَرَ الْمَشَقَّةَ وَرَاءَهَا الْعِقَابُ ، وَأَرْبَحَ الدَّعَاةَ مَعَهَا الْأَمَانُ مِنَ النَّارِ !

\*\*\*

الْبِنْخ :

اشتدوا بين يديه : أسرعوا شيئاً ، ففهم عن ذلك وقال : إنكم تشقون به على أنفسكم  
لما فيه من تعب الأبدان . وتشقون به في آخرتكم : تخضعون للولاء ، كما زعمتم أنه خلق  
وعادة لكم ؛ خضوعاً تطلبون به الدنيا والمنافع العاجلة فيها ، وكلّ خضوع وتذلّل لغير الله  
فهو معصية .

ثم ذكر أن الخسران المبين مشقة عاجلة يتبعها عقاب الآخرة والربح البين دعة عاجلة  
يتبعها الأمان من النار .

(٣٨)

الأفضل :

قال عليه السلام لا ينه الحسن عليه السلام :

يَا بُنَيَّ احْفَظْ عَنِّي أَرْبَمًا وَأَرْبَمًا ؛ لَا يَضُرُّكَ مَا عَمِلْتَ مَعَهُنَّ : إِنَّ أَغْنَى الْغِنَى الْعَقْلُ ،  
وَأَكْبَرَ الْفَقْرِ الْحُمُقُ ، وَأَوْحَشَ الْوَحْشَةِ الْمُجْبُ ، وَأَكْرَمَ الْحَسَبِ حُسْنُ الْخُلُقِ .  
يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ الْأَحْمَقِ ، فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ ، وَإِيَّاكَ  
وَمُصَادَقَةُ الْبَخِيلِ ، فَإِنَّهُ يَقْعُدُ عَنْكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ  
الْفَاجِرِ ، فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِالتَّافِهِ ، وَإِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ الْكَذَّابِ ، فَإِنَّهُ كَالسَّرَابِ يُقَرِّبُ  
عَلَيْكَ الْبَعِيدَ ، وَيُبْعِدُ عَنْكَ الْقَرِيبَ .

\*\*\*

الشيخ :

هذا الفصل يتضمن ذكر العقل والحق، والعجب وحسن الخلق، والبخل والفجور،  
والكذب ، وقد تقدم كلامنا في هذه الخصال أجمع ، وقد أخذت قوله عليه السلام :

« إِيَّاكَ وَمُصَادَقَةُ الْأَحْمَقِ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَنْفَعَكَ فَيَضُرَّكَ » فقلت في أبيات لي :

حَيَاتِكَ لَا تَصْحَبَنَّ الْجَهْلَ	فَلَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ الْأَخْرَقِ
يَظُنُّ آخِرَ الْجَهْلِ أَنَّ الضَّلَا	لَ عَيْنُ الرِّشَادِ فَلَا يَتَّقِي
وَيَكْسِبُ صَاحِبُهُ مُحَقَّةَ	فَيَسْرِقُ مِنْهُ وَلَا يُسْرِقُ <sup>(١)</sup>
وَأَقْسِمُ أَنَّ الْمَدَّوَّ اللَّبِيدَ	بَخِيرٌ مِنَ الْمَشْفِقِ الْأَحْمَقِ

(١) في البيت لقواء .

(٢٩)

الأبْسَلُ :

لَا قُرْبَةَ بِالْتَّوَاتُلِ إِذَا أَضْرَّتْ بِالْفَرَائِضِ .

\*\*\*

الشُّنْخُ :

هذا الكلام يُمكن أن يُحمَل على حقيقته ، ويمكن أن يُحمَل على مجازه ، فإن حُمِلَ على حقيقته فقد ذهب إلى هذا المذهب كثيرٌ من الفقهاء ، وهو مذهب الإمامية ، وهو أنه لا يصحّ التنفل ممّن عليه قضاء فريضة فأنته لا في الصلاة ولا في غيرها ؛ فأما الحجّ فُمْتَفَقٌ عليه بين المسلمين أنه لا يصحّ الابتداء بنفله ، وإذا نوى نيّة النفل ، ولم يكن قد حجّ حجة الإسلام وقع حجّه فرضاً ، فأما نوافل الزكاة فاعرفتُ أحداً قال : إنه لا يثاب المتصدق بها ، وإن كان لم يؤدّ الزكاة الواجبة . وأما إذا حُمِلَ على مجازه ، فإنّ معناه يجب الابتداء بالأهمّ وتقديمه على ما ليس بأهمّ ، فتدخل هذه الكلمة في الآداب السلطانية والإخوانيّة ، نحو أن تقول لمن توصيه : لا تبدأ بخدمة حاجب الملك قبل أن تبدأ بخدمة ولد الملك ، فإنك إنما تزوم القرُبة للملك بالخدمة ، ولا قرُبة إليه في تأخير خدمة ولده وتقديم خدمة غلامه ؛ وتحمّل الكلمة على حقيقتها أولى ، لأنّ اهتمام أمير المؤمنين عليه السلام بالأمر الدينيّة والشرعيّة في وصاياه ومنشور كلامه أعظمُ .

(٤٠)

الأصل :

لِسَانُ الْعَاقِلِ وَرَاءَ قَلْبِهِ ، وَقَلْبُ الْأَحْمَقِ وَرَاءَ لِسَانِهِ .

\*\*\*

قال الرضی رحمہ اللہ تعالیٰ :

وهذا من المعاني العجيبة الشريفة ، والمراد به أن العاقل لا يطلق لسانه إلا بعد مشاورة الروية ، ومؤامرة الفكرة ، والأحمق تسبق حذافات لسانه ، وفلتات كلامه ، مرجعة فكره ، ومخاضة رأيه ، فكان لسان العاقل تابع لقلبه ، وكان قلب الأحمق تابع للسانه .

قال : وقد روى عنه عليه السلام هذا المعنى بلفظ آخر ، وهو قوله : « قلب الأحمق في فيه ، ولسان العاقل في قلبه » ومعناها واحد .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدم القول في العقل والحق ، ونذكر هاهنا زيادات أخرى .

\*\*\*

[ أقوال وحكايات حول الحق ]

قالوا : كل شيء يميز إذا قل ، والعقل كلما كان أكثر كان أعز وأعلى .

وكان عبد الملك يقول : أنا للعاقل المدير أرجى مني للأحمق الثقيل .

قيل لبعضهم : ما جاع العقل ؟ فقال : ما رأيت به مجتمعا في أحد فأصفه ، وما لا يوجد كاملا فلا حد له .

— ١٦٠ —

وقال الزُّهرى : إذا أنكرت عقلك فاقدحه بماقل .

وقيل : عظمت المثونة في عاقل متجاهل ، وجاهل متعاقل .

وقيل : الأحق يتحفظ من كل شيء إلا من نفسه .

وقيل لبعضهم : العقل أفضل أم الجَدُّ ؟ فقال : العقل من الجَدِّ .

وخطب رجلان إلى ديماءوس الحكيم ابنته ، وكان أحدهما فقيرا والآخر غنيا ، فزوجها من الفقير ، فسأله الإسكندر عن ذلك ، فقال : لأنَّ الغنى كان أحق ، فكنت أخاف عليه الفقر ، والفقير كان عاقلا ، فرجوتُ له الغنى .

وقال أرسطو : العاقل يوافق العاقل ، والأحمق لا يوافق العاقل ، ولا أحمق كالمؤد المستقيم الذى ينطبق على المستقيم ؛ فأما الموعج فإنه لا ينطبق على الموعج ولا على المستقيم .

وقال بعضهم : لأنَّ أزاول أحمق أحبُّ إلىَّ من أن أزاول نصف أحمق - أبغى الجاهل المتعاقل .

\* \* \*

واعلم أن أخبار الحمق ونواذرهم كثيرة ، إلا أنا نذكر منها ها هنا ما يليق بكتابنا ، فإنه كتاب نزهناه عن الخلاعة والفحش إجلالا لمنصب أمير المؤمنين .

قال هشام بن عبد الملك يوما لأصحابه : إنَّ حمقَ الرجل يُعرَفُ بخصال أربع : طولٍ رجليته ، وبشاعة كنيته ، ونقش خاتمه ، وإفراط نهيمته . فدخل عليه شيخٌ طويلُ العُنُون ، فقال هشام : أمّا هذا فتد جاء بواحدة ، فانظروا أين هو من الباقي ؛ قالوا : ما كنيةُ الشيخ ؟ قال : أبو الياقوت ، فسألوه عن نقش خاتمه ، فإذا هو :



﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾<sup>(١)</sup> ففيل له : أَى الطعام تَشْتَهِي؟ قال : الذُّبَابُ<sup>(٢)</sup>  
بالزيت ؛ فقال هشام : إِنَّ صاحبكم قد كَمَل .  
وسَمِعَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رجلاً يُنادِي آخَرَ : يَا أَبَا العُمَرَيْنِ ؛ فقال : لو كان له عقلٌ  
لَكَفَاهُ أَحَدُهَا .

وَأَرْسَلَ ابْنُ لَعَجَلِ بْنِ لَجِيمِ<sup>(٣)</sup> فِرْسًا لَهُ فِي حَلْبَةِ ، فُجَاءَ سَائِقًا ، ففيل له : سَمِعْتُ بِاسْمِهِ  
يُعْرَفُ بِهِ ، فقام ففَقَأَ عَيْنَهُ وَقَالَ : قَدْ سَمِيتُهُ الْأَعْوَرَ ، فقال شاعرٌ يَهْجُوهُ :  
رَمْتَنِي بَنُو عِجْلٍ بَدَاءَ أَبِيهِمْ وَأَيَّ عِبَادِ اللَّهِ أَنْوَكُ مِنْ عِجْلٍ !  
أَلَيْسَ أَبُوهُمْ عَارَ عَيْنٍ جَوَادِهِ فَأَضَحَّتْ بِهِ الْأَمْثَالُ تُضْرَبُ بِالْجَهْلِ  
وقال أبو كعب القاصِّ في قصصه : إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ فِي كَيْدِ حَمْزَةَ  
مَا عَلِمْتُمْ ، فَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يُطْعِمَنَا مِنْ كَيْدِ حَمْزَةَ !

وقال مرةً في قِصَصِهِ : اسمُ الذُّبِّ الَّذِي أَكَلَ يَوْسُفَ كَذَا وَكَذَا ، ففيل له : إِنَّ  
يَوْسُفَ لَمْ يَأْكُلْهُ الذُّبُّ ؟ فقال : فِهَذَا اسمُ الذُّبِّ الَّذِي لَمْ يَأْكُلْ يَوْسُفَ .

ودخل كَعْبُ الْبَقَرِ الْهَاشِمِيُّ عَلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ يَمْزِيهِ فِي أَخِيهِ ، فقال له :  
أَعْظَمَ اللَّهُ مُصِيبَةَ الْأَمِيرِ ! فقال الأمير : أَمَّا فَيْكَ فَقَدْ فَعَلَ ، وَاللَّهِ لَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أُحْلِقَ  
لِحَيْتِكَ ؟ فقال : إِنَّمَا هِيَ لِحْيَةُ اللَّهِ وَلِحْيَةُ الْأَمِيرِ فَلْيَفْعَلْ مَا أَحَبَّ .

وكان عامرُ بنُ كُرَيْزٍ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عامرٍ ، مِنْ حَمَقَى قَرِيشٍ ، نظرَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ  
يَخْطُبُ وَالنَّاسُ يَسْتَحْسِنُونَ كَلَامَهُ ، فقال لِلْإِنْسَانِ إِلَى جَانِبِهِ : أَنَا أَخْرَجْتُهُ مِنْ هَذَا - وَأَشَارَ  
إِلَى مَتَاعِهِ .

(١) سورة يوسف ١٨ . (٢) الدباء : الفرع .

(٣) ورد الاسمُ حرفاً في ١ ، ب . وأصلحته من د ، والعقد ٦ : ١٥٦ .

ومن حمقى قريش العاص بن هشام المخزومي ، وكان أبو لهب قامره فقمّره ماله ثم داره ، ثم قليله وكثيره وأهلكه ونفسه ، فاتخذته عبدا ، وأسلمه قينا ، فلما كان يوم بدر بعث به بدّيلا عن نفسه ، فقتل بيدر ، قتله عمر بن الخطّاب ، وكان ابن عمّ أمّه .

ومن الحمقى الأحوص بن جعفر بن عمرو بن حريث ، قال له يوما مجالسوه : ما بال وجهك أصفر ! أتشكي شيئا ؟ فرجع إلى أهله ، وقال : يا بني الخيبة ، أنا شاك ولا تعلموني ! اطرّحوا على الثياب وأمشوا إلى الطبيب .

ومن حمقى بني عجل حسّان بن النضبان من أهل الكوفة ، ورث نصف دار أبيه ، فقال : أريد أن أبيع حصّتي من الدار ، وأشتري بالثمن النصف الباقي ، فتصير الدار كلّها لي .

ومن حمقى قريش بكّار بن عبد الملك بن مروان ، وكان أبوه ينهّاه أن يجالس خالد ابن يزيد بن معاوية لما يعرف من محقه ، فجلس يوما إلى خالد ، فقال خالد يعيث به : هذا والله المردّد في بني عبد مناف ، فقال بكّار : أجل ، أنا والله كما قال الأوّل :

\* مردّد في بني اللّخناء ترديدا \*

وطار ليكّار هذا بازي ، فقال لصاحب الشرطة : أغلق أبواب دمشق لئلا يخرج البازي .

ومن حمقى قريش معاوية بن مروان بن الحسّام ، بينا هو واقف بباب دمشق ينتظر أخاه عبدا الملك على باب طحّان ، ورجار الطحّان يدور بالرحا وفي عنقه جُلجل ، فقال للطحّان : لم جعلت في عنق هذا الحمار جُلجلا ؟ فقال : ربّما أدركتني نعسة أو سامة ، فإذا لم أسمع صوت الجُلجل علمت أنّه قد نام ، فصيحّت به ، فقال : رأيته إن قام وحرّك رأسه ، ما علمك به أنّه قائم ؟ فقال : ومن ليحماري بمثل عقل الأمير !

وقال معاوية لِحَمِيهِ وقد دَخَلَ بِأَبْنَتِهِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فَافْتَضَّهَا : لقد ملأَتْنا ابْنَتُكَ البارحة دَمًا ؛ فقال : إِيَّاهَا مِنْ نِسْوَةٍ يَخْبَأُنْ ذَلِكَ لِأَزْوَاجِهِمْ .

ومن حَقَّقَى قُرَيْشَ سُلَيْمَانُ بْنُ يُزَيْدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، قَالَ يَوْمًا : لِمَنِ اللَّهُ الْوَلِيدُ أَخِي ! فَلَئِنْ كَانَ فَاجِرًا ، أَرَادَنِي عَلَى الْفَاحِشَةِ ، فَقَالَ لَهُ قَاتِلْ مِنْ أَهْلِهِ ، اسْكُتْ وَيَحْكُكْ ، فَوَاللَّهِ إِنْ كَانَ هَمٌّ لَقَدْ فَعَلَ !

وخطب سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ عَائِشَةَ ابْنَةَ عُثْمَانَ ، فَقَالَتْ : هُوَ أَحَقُّ ، لَا أَتَزَوَّجُهُ أَبَدًا ، بِهِ يَرْذَوْنَانِ لَوْ هُمَا وَاحِدٌ عِنْدَ النَّاسِ ، وَيَحْمِلُ مَوْنَةَ اثْنَيْنِ .

وَمَنْ كَانَ يُحَقِّقُ مِنْ قُرَيْشٍ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ ابْنِ أَبِي سُفْيَانَ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسِ بْنِ سَخْرَمَةَ بْنِ الْمَطْلَبِ وَسَهْلُ بْنُ عَمْرٍو أَخُو سُهَيْلِ ابْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ . وَكَانَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مُرْوَانَ يَقُولُ : أَحَقُّ بَيْتٍ فِي قُرَيْشٍ آلُ قَيْسِ ابْنِ سَخْرَمَةَ .

وَمِنَ الْقَبَائِلِ الْمَشْهُورَةِ بِالْحَقِّ الْأَزْدُ ، كَتَبَ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ إِلَى يُزَيْدَ ابْنِ الْمُهَلَّبِ لَمَّا خَرَجَ عَلَيْهِمْ : إِنَّكَ لَسْتَ بِصَاحِبِ هَذَا الْأَمْرِ ، إِنَّ صَاحِبَهُ مَغْمُورٌ مَوْتُورٌ ، وَأَنْتَ مَشْهُورٌ غَيْرُ مَوْتُورٍ . فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ ، فَقَالَ : قَدَّمَ أَبْنُكَ سَخْلَدًا حَتَّى يُقْتَلَ فَتَصِيرَ مَوْتُورًا .

وَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زِيَادٍ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنْ أَمْرَاتِي هَلَكَتْ ، وَقَدْ أَرَدْتُ أَنْ أَتَزَوَّجَ أُمِّهَا ، وَهَذَا عَرِيفِي فَأَعِنَّنِي فِي الصَّدَاقِ ، فَقَالَ : فِي كَمْ أَنْتَ مِنَ الْعَطَاءِ ؟ فَقَالَ : فِي سَبْعِمِائَةٍ ؛ فَقَالَ : حُطُّوا مِنْ عَطَائِهِ أَرْبَعِمِائَةٍ ، يَكْفِيكَ ثَلَاثُمِائَةٍ . وَمَدَّحَ رَجُلٌ مِنْهُمْ الْمُهَلَّبَ فَقَالَ :

نَعَمْ أَمِيرُ الرَّفْقَةِ الْمُهَلَّبُ . أَبْيَضُ وَضَّاحٌ كَتَيْسُ الْحَلَبِ

فقال المهلب : حَسْبُكَ يَرْحَمَكَ اللهُ !

وكان عبدُ الملك بنُ هلالٍ عندَه زَنْبِيلٌ<sup>(١)</sup> مملوءٌ حصاً للتسبيح ، فكان يسبِّحُ بواحدةٍ واحدةٍ ، فإذا مَلَّ طَرَحَ اثْنَتَيْنِ اثْنَتَيْنِ ، ثم ثلاثاً ثلاثاً ، فإذا أزدادَ مَلَأَهُ قَبْضَ قبضةٍ وقال : سبحانَ اللهِ عَدَدُكَ ! فإذا ضَجِرَ أخذَ بُمراً الزَنْبِيلِ وَقَلَّبَهُ ، وقال : سبحانَ اللهُ بعدَ هذا .

ودخَلَ قومٌ منزلَ الخُرَيْمِيِّ لِبعضِ الأمرِ ، فجاء وقتُ صلاةِ الظهر ، فسألوه عن القِبْلةِ ، فقال : إنما تركتها منذ شهر .

وحَكَى بعضهم ، قال : رأيتُ أعرابياً يَبْكِي ، فسألتُهُ عن سببِ بكائه ، فقال : بلغني أن جالوتَ قتلَ مظلوما .

وَصَفَ بعضهم أحمقَ ، فقال : يَسْمَعُ غيرَ ما يقال ، وَيَحْفَظُ غيرَ ما يَسْمَعُ ، وَيَكْتُبُ غيرَ ما يَحْفَظُ ، وَيُحَدِّثُ بغيرِ ما يَكْتُبُ .

قال المأمونُ لثَمَامَةَ : ما جَهِدَ البلاءُ يا أبا مَعْنٍ ؟ قال : عالمٌ يَجْرِي عليه حُكْمُ جاهلٍ . قال : من أين قلتَ هذا ؟ قال : حبسَنِي الرشيدُ عندَ مسرورِ الكبير ، فضَيَّقَ عَلَيَّ أنفاسي ، فسمعتُهُ يوماً يقرأ : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾<sup>(١)</sup> بفتحِ الذالِ ؛ فقلتُ له : لا تَقُلْ أيها الأميرُ هكذا ، قل : ﴿ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ ؛ وكسرتُ له الذالَ ، لأنَّ المُكَذِّبِينَ همُ الأنبياءُ ، فقال : قد كان يقالُ لي عنكَ : إنكَ قَدَرِيٌّ ، فلا نُجوتُ إنْ نُجوتَ اللَّيْلَةَ مَنِّي ! فمأيتُ منه تلكَ اللَّيْلَةَ الموتَ من شِدَّةِ ما عَذَّبَنِي .

قال أعرابيٌّ لأبنه : يا بني كُنْ سَبْماً خالِصاً ، أو ذُبْها حائِساً<sup>(٢)</sup> ، أو كُلْها حارِساً ، ولا تكن أحمقَ ناقِصاً .

(١) الزنبيل ، بالكسر وقد يفتح : الففة أو الجراب أو الوعاء .

(٢) سورة المرسلات ١٩ . (٣) يقال ؛ يحوس الذئب الغنم ؛ أى يتخللها ويفرقها .

وكان يقال : لولا ظلمة الخطأ ما أشرق نور الصواب .

وقال أبو سعيد السِّراق : رأيتُ متكئاً ببغداد بلغ به نقصه في العريّة أنّه قال في مجلس مشهور : إنّ العبد « مضطرّ » بفتح الطاء ، والله « مضطرّ » بكسرهما ؛ وزعم أنّ من قال : « الله مضطرّ عبد إلى كذا » ، بالفتح كافر ، فانظر أين بلغ به جهله ، وإلى أيّ ردّيلة أدّاه نقصه !

وصف بعضهم إنساناً أحمق ، فقال : والله للحكمة أزلّ عن قلبه من المسدّد عن الأديم الدّمين .

مرّة عمرُ بنُ الخطاب على رُماة غرّض ، فسمع بعضهم يقول : أخطيت وأسبت ؛ فقال له : مه ، فإن سوء اللّحن شرّ من سوء الرّماية .

تضجّر عمرُ بنُ عبد العزيز من كلام رجل بين يديه ، فقال له صاحبُ شُرطته : قم فقد أوذيت أمير المؤمنين ! فقال عمر : والله إنك لأشدّ أذى لي بكلامك هذا منه .

ومن حمقى العرب وجُهلائهم كلابُ بنُ صعصعة ، خرج إخوته يشترون خيلاً ، فخرج معهم ، فجاء بمجمل يقوده ، فقيل له : ما هذا ؟ فقال : فرسٌ اشتريته ؛ قالوا : يامائق<sup>(١)</sup> ؛ هذه بقرة ، أما ترى قرنيها ! فرجع إلى منزله ففكّ قرنيها ، ثم قادها ، فقال لهم : قد أعدتُها فرسا كما تريدون ، فأولاده يُدعَوْنَ بنى فارس البقرة .

وكان شذرة بن الزُّبرقان بن بدر من أحمق ، جاء يوم الجمعة إلى المسجد الجامع فأخذ بعِضادَتَيْ<sup>(٢)</sup> الباب ، ثم رفع صوته : سلامٌ عليكم ، أيلج شذرة ؟ فقيل له : هذا يومٌ لا يُستأذَن فيه ، فقال : أو يُلج مثلى على قوم ولم يُعرف له مكانه .

(١) المائق : الأحمق .

(٢) عضاداتا الباب : خشبته من جانبيه .

واستعمل معاويةً عاملاً من كُتّاب ، فخطب يوماً ، فذكرَ الجوسَ ، فقال : لعنهم الله ! يَكْرِحُونَ أُمَّهَاتِهِمْ ، والله لو أُعْطِيتُ عَشْرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ مَا نَكَحْتُ أُمَّي ، فبلغ ذلك معاوية ، فقال : قَبِّحْهُ اللهُ ! أَرَوْنَهُ لَوْ زَادُوهُ فَعَلَ ! وَعَزَّاهُ .

وشرَدَ بِعَيْرٍ لَهَبَنْقَةٍ - واسمُه يَزِيدُ بْنُ شَرْوَانَ - فجعل يُنَادِي : لمن أتى به بِعَيْرَانِ ، فقيل له : كيف تَبْذُلُ وَيَلُكَ بِعَيْرَيْنِ فِي بَعِيرٍ ! فقال لَحْلَاوَةُ الْوَجْدَانِ .

وَسُرِقَ مِنْ أَعْرَابِيٍّ حِمَارٌ ، فقيل له : أَسُرِقَ حِمَارُكَ ؟ قال : نَعَمْ ، وأحمد الله ، فقيل له : على ماذا تَحْمَدُهُ ؟ قال : كيف ! لم أكن عليه .

وخطبَ وَكَيْعُ بْنُ أَبِي سَوْدٍ<sup>(١)</sup> بِخُرَّاسَانَ ، فقال : إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فقيل له : إِنَّهَا سِتَّةُ أَيَّامٍ ، فقال : وَاللَّهِ لَقَدْ قُلْتُهَا وَأَنَا أَسْتَقِلُّهَا ! وَأَجْرِيَتْ خَيْلٌ فَظَلَعَ فِيهَا فَرَسٌ سَابِقٌ ، فجعل رجلٌ من النَّظَّارَةِ يَكْبُرُ وَيَثْبُ من الفَرَسِ ، فقال له رجلٌ إِلَى جَانِبِهِ : يافتي ، أَهَذَا الْفَرَسُ السَّابِقُ لَكَ ؟ قال : لَا وَلَكِنَّ اللَّجَامَ لِي .

وقيل لِأَبِي السَّفَّاحِ الْأَعْرَابِيِّ عِنْدَ مَوْتِهِ : أَوْصِ ، فقال : إِنَّا الْكِرَامُ يَوْمَ طِخْفَةٍ<sup>(٢)</sup> ، قالوا : قُلْ خَيْرًا يَا أَبَا السَّفَّاحِ ، قال : إِنْ أَحْبَبْتَ أُمْرَأَتِي فَأَعْطُوهَا بِعَيْرًا ، قالوا : قُلْ خَيْرًا ، قال : إِذَا مَاتَ غُلَامِي فَهُوَ حُرٌّ .

وقيل لرجلٍ عِنْدَ مَوْتِهِ : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، فَأَعْرَضَ ، فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَارًا ، فقال لهم : أَخْبِرُونِي عَنْ أَبِي طَالِبٍ ، قَالَتْهَا عِنْدَ مَوْتِهِ ؟ قالوا : وَمَا أَنْتَ وَأَبُو طَالِبٍ ! فقال : أَرْغَبُ بِنَفْسِي عَنْ ذَلِكَ الشَّرِيفِ .

(١) ب : « أسود » تصحيف صوابه في د .

(٢) طخفة : موضع في طريق البصرة إلى مكة ؛ ويوم طخفة من أيامهم ، لبني يربوع على المنذر بن ماء السماء

— ١٦٧ —

وقيل لآخرَ عند موته : ألا تُوصي ؟ فقال : أنا مغفورٌ لي ، قالوا : قل : إن شاء الله ،  
قال : قد شاء الله ذلك ، قالوا : يا هذا لا تدع الوصية ، فقال : لابنَي أخيه ، يا بني حريث ،  
ارفعنا وسادي ، واحتفظا بالحلة الجياد<sup>(١)</sup> ، فإنما حولكما الأعدى .  
وقيل : لمعلم ابن معلم : مالك أحق ؟ فقال : لو لم أكن أحق ؛ لكنتُ ولدَ زِنَا .

(٤١)

الأفضل :

وقال عليه السلام لبعض أصحابه في علة اعتلها :

جَعَلَ اللَّهُ مَا كَانَ مِنْكَ مِنْ شَكْوَاكَ حَطًّا لِسَيِّئَاتِكَ ، فَإِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجَرَ فِيهِ ، وَلَكِنَّهُ يَحْطُ السَّيِّئَاتِ وَيَحْتُمُّهَا حَتَّ الْأَوْرَاقِ ، وَإِنَّمَا الْأَجْرُ فِي الْقَوْلِ بِاللِّسَانِ ، وَالْعَمَلِ بِالْأَيْدِي وَالْأَقْدَامِ ، وَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يُدْخِلُ بِصِدْقِ النَّيَّةِ وَالسَّرِيرَةِ الصَّالِحَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الْجَنَّةَ .

\*\*\*

قال الرضى رحمه الله تعالى :

وأقول : صدق عليه السلام ، إِنَّ الْمَرَضَ لَا أَجَرَ فِيهِ ، لَأَنَّهُ مِنْ قَبِيلِ مَا يُسْتَحَقُّ عَلَيْهِ الْعَوَضُ ؛ لِأَنَّ الْعَوَضَ يُسْتَحَقُّ عَلَى مَا كَانَ فِي مُقَابَلَةِ فِعْلِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْعَبْدِ مِنَ الْأَلَامِ وَالْأَمْرَاضِ وَمَا يَجْرَى سَجَرَى ذَلِكَ ، وَالْأَجْرُ وَالثَّوَابُ يُسْتَحَقَّقَانِ عَلَى مَا كَانَ فِي مُقَابِلِ فِعْلِ الْعَبْدِ ، فَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ قَدْ بَيَّنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا يَقْتَضِيهِ عِلْمُهُ الثَّاقِبُ وَرَأْيُهُ الصَّائِبُ .

\*\*\*

الْبَيِّنَةُ :

يلبغى أن يُحْمَلَ كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الفصل على تأويلٍ يُطَابِقُ مَا تَدَلَّ عَلَيْهِ الْعُقُولُ وَالْأَلَا يُحْمَلُ عَلَى ظَاهِرِهِ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَرَضَ إِذَا اسْتَحَقَّ عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ



العوض لم يَجُزْ أن يقال : إنَّ العِوَضَ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ بِنَفْسِهِ ، لا على قول أصحابنا ، ولا على قول الإمامية ، أمَّا الإمامية فإنهم مُرَجِّئَةٌ ، لا يَذْهَبُونَ إلى التَّحَابُطِ ، وأمَّا أصحابنا فإنهم لا تَحَابُطَ عندهم إلا في الثَّوَابِ والعقاب ؛ فأما العقاب والعِوَضُ فلا تَحَابُطَ بينهما ، لأنَّ التَّحَابُطَ بين الثَّوَابِ والعقاب ، إنما كان باعتبار التَّنَافِي بينهما من حيث كان أحدهما يَتَضَمَّنُ الإِجْلَالَ والإِعْظَامَ ، والآخِرُ يَتَضَمَّنُ الاسْتِخْفَافَ والإِهَانَةَ ، ومَحَالٌّ أن يكون الإنسان الواحد مُهَانًا مَعْظَمًا في حَالٍ واحدةٍ ؛ ولما كان العِوَضُ لا يَتَضَمَّنُ إِجْلَالَ وإِعْظَامًا ، وإنما هو نَفْعٌ خَالِصٌ فَقَطْ ، لم يكن منافيًا للعقاب ، وجاز أن يجتمع للإنسان الواحد في الوقت الواحد كونه مستحقًا للعقاب والعِوَضَ ، إمَّا بأن يوفَّرَ العِوَضُ عليه في دار الدنيا ، وإمَّا بأن يُوَصَلَ إليه في الآخرة. قَبْلَ عِقَابِهِ ، إن لم يمنع الإِجْمَاعُ من ذلك في حقِّ الكافر ، وإمَّا أن يُخَفَّفَ عليه بعضُ عقابه ، ويجعل ذلك بدلًا من العِوَضِ الذي كان سبيله أن يُوَصَلَ إليه . وإذا ثبت ذلك وَجَبَ أن يُجْعَلَ كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام على تأويل صحيح ، وهو الذي أَرَادَهُ عليه السلام ، لأنه كان أَعْرَفَ النَّاسِ بهذه المعاني ، ومنه تَعَلَّمَ المتكلمون علم الكلام ، وهو أن المرض والألم يَحُطُّ اللَّهُ تَعَالَى عن الإنسان المَبْتَلَى به ما يَسْتَحِقُّهُ من العقاب على معاصيه السَّالِفَةِ تَفَضُّلاً مِنْهُ سُبْحَانَهُ ، فلما كان إسقاط العقاب مَتَعَبِّاً لِّلْمَرَضِ ، وواقعا بعده بلا فَصْلٍ ، جاز أن يُطْلَقَ اللفظُ بأنَّ المرضَ يَحُطُّ السَّيِّئَاتِ وَيَحْتَمِلُهَا حَتَّى الْوَرَقَ ، كما جاز أن يُطْلَقَ اللفظُ بأنَّ الإِجْمَاعَ يُجْبِلُ الْمَرْأَةَ ، وبأنَّ سَقَى الْبَذْرِ الْمَاءَ يَنْبِتُهُ ، إن كان الولد والزرع عند المتكلمين وقما من الله تعالى على سبيل الاختيار ، لا على الإيجاب ؛ ولكنه أجزى العادة ؛ وأن يفعل ذلك عَقِيبَ الإِجْمَاعِ وَعَقِيبَ سَقَى الْبَذْرِ الْمَاءِ .

فإن قلت :: أيجوز أن يقال : إنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَرْضَى الْإِنْسَانَ الْمُسْتَحِقَّ لِلْعِقَابِ ، ويكون

إنما أحرصه لِيُسْقَطَ عنه العقاب لا غير ؟

قلت : لا ، لأنه قادر على أن يُسْقِطَ عنه العقاب ابتداءً ، ولا يجوز إنزال الألم إلا حيث لا يمكن اقتناص العَوَضِ المجزى به إليه إلا بطريق الألم ، وإلا كان فعلُ الأَمِّ عَبَثًا ، ألا تَرَى أنه لا يجوز أن يستحق زيدٌ على عمرٍ وألف درهم فيضرب به ويقول : إنما أضربه لأجعل ما يناله من ألم الضرب مُسْقِطًا لما أُسْتَحَقَّه من الدراهم عليه ؟ وتذمه العقلاء ويسفّهونه ، ويقولون له فهلاً وهبتهما له ، وأسقطتها عنه من غير حاجة إلى أن تضربه وتؤله ! والبحثُ المستقصى في هذه المسائل مذكور في كتبي الكلامية ، فليرجع إليها . وأيضاً فإن الآلام قد تنزل بالأنبياء وليسوا ذَوِي ذُنُوبٍ وَمَعَاصِيٍّ لِيَقَالَ : إنها تحطها عنهم .

فأما قوله عليه السلام : « وإنما الأجرُ في القَوْل . . . » إلى آخر الفصل ، فإنه عليه السلام قَسَمَ أسباب الثواب أقساماً ؛ فقال : لما كان المَرَضُ لا يقتضى الثواب لأنه ليس فعل المكفِّ - وإنما يستحق المكف الثواب على ما كان من فعله - وَجَبَ أن يبيّن ما الذى يستحق به المكف الثواب ، والذى يستحق المكف به ذلك أن يفعل فعلاً إما من أفعال الجوارح ؛ وإما من أفعال القلوب ، فأفعال الجوارح إما قول باللسان أو عمل ببعض الجوارح وعبر عن سائر الجوارح - عدا اللسان - بالأيدي والأقدام ، لأن أكثر ما يُفعل بها ، وإن كان قد يُفعل بغيرها نحو مجامعة الرجل زوجته إذا قُصِدَ به تحصيلها وتحسينه عن الزنا ، ونحو أن يُنَحَّى حَجراً ثقيلاً برأسه عن صدر إنسانٍ قد قُتِلَته ، وغير ذلك ، وأما أفعال القلوب فهي العزوم والإرادات والنظر والعلوم والظنون والندم ، فعبّر عليه السلام عن جميع ذلك بقوله : « بصدق النية والسريرة الصالحة ، واكتفى بذلك عن تعديد هذه الأجناس .

فإن قلت : فإن الإنسان قد يستحق الثواب على ألا يفعل القبيح ، وهذا يخرم الحصر الذى حصره أمير المؤمنين ؟

قلت : يجوز أن يكون يذهب مذهب أبي عليٍّ في أن القادر بقدرة لا يخلو عن الأخذ والترك .

(٤٣)

الأضل :

وقال عليه السلام في ذكر خباب :

رَحِمَ اللهُ خَبَّابَ بْنَ الْأَرْتِّ ! فَلَقَدْ أَسْلَمَ رَاغِبًا ، وَهَاجَرَ طَائِعًا ، وَعَاشَ  
مُجَاهِدًا . طُوبَى لِمَنْ ذَكَرَ الْمَعَادَ ، وَعَمِلَ لِلْحِسَابِ ، وَفَنِيَ بِالْكَفَافِ ، وَرَضِيَ  
عَنِ اللهِ !

\*\*\*

الشُّرُح :

[ خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ ]

هو خَبَّابُ بْنُ الْأَرْتِّ بْنُ جَنْدَلَةَ بْنِ سَعْدِ بْنِ خَزِيمَةَ بْنِ كَعْبِ بْنِ سَعْدِ بْنِ زَيْدِ مَنَاةَ  
ابْنِ تَيْمٍ ، يَكْنَى أبا عَبْدِ اللهِ - وَقِيلَ : أبا مُحَمَّدٍ وَقِيلَ : أبا يَحْيَى - أَصَابَهُ سَبٌّ فَبِيعَ بِمَكَّةَ <sup>(١)</sup> .  
وَكَانَتْ أُمُّهُ خَتَّانَةَ ، وَخَبَّابُ مِنْ فَقَرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارِهِمْ ، وَكَانَ بِهِ مَرَضٌ ، وَكَانَ  
فِي الْجَاهِلِيَّةِ قَيْنًا حَدَادًا يَمْعَلُ السِّیُوفَ ، وَهُوَ قَدِيمُ الْإِسْلَامِ ؛ قِيلَ إِنَّهُ كَانَ سَادِسَ سَنَةِ ،  
وَشَهِدَ بَدْرًا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الْمَشَاهِدِ ، وَهُوَ مَعْدُودٌ فِي الْمَعْدِّينَ فِي اللهِ ؛ سَأَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

---

(١) الاستيعاب : « كَانَ قَيْنًا يَمْعَلُ السِّیُوفَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، فَأَصَابَهُ سَبَاءٌ فَبِيعَ بِمَكَّةَ ، فَاشْتَرَتْهُ أُمُّ أَسْمَاءَ  
بِنْتُ سَبَاعٍ الْخَزَاعِيَّةُ » .

أيام خلافته : ما لقيت من أهل مكة ؟ فقال : انظرُ إلى ظهري ؛ فنظر فقال : ما رأيت  
كاليوم ظهرَ رجل ! فقال خَبَّاب : أوقدوا لي نارا وسُحِبْتُ<sup>(١)</sup> عليها ، فما أطفأها إلا  
وَدَكَ ظَهْرِي .

وجاء خَبَّاب إلى عمر ، فجعل يقول : ادْنُهُ ، ادْنُهُ ، ثم قال له : ما أحدٌ أحقّ بهذا  
المجلس منك ؛ إلا أن يكون عَمَّارُ بْنُ يَاسِر . نزل خَبَّابُ إلى الكوفة ، ومات بها في سنة  
سبع وثلاثين ، وقيل : سنة تسع وثلاثين ، بعد أن شهد مع أمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام  
صِهْنٍ وَهَرَوَانَ ، وصلى عليه عليٌّ عليه السلام ، وكانت سنُّهُ يومَ مات ثلاثا وسبعين سنة ،  
ودُفِنَ بِظَهْرِ الكوفة<sup>(٢)</sup> .

وهو أوَّل من دُفِنَ بِظَهْرِ الكوفة ، وعبدُ الله بن خَبَّاب هو الذي قتلته الخوارج ،  
فاحتجَّ عليٌّ عليه السلام به وطلبهم بدَمِهِ ، وقد تقدّم ذكرُ ذلك .

---

(١) ب : « وسُحِبْتُ » ، وأثبت ما في ا ، د ، والاستيعاب .

(٢) انظر ترجمة خَبَّاب في الاستيعاب ١ : ٤٣٨ .

(٤٣)

الأصل :

وقال عليه السلام :

لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبَغِّضَنِي مَا أُبَغِّضَنِي ، وَلَوْ صَبَّيْتُ  
الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا عَلَى الْمُنَافِقِ عَلَى أَنْ يُحِبِّبَنِي مَا أُحِبِّبَنِي ، وَذَلِكَ أَنَّهُ قُضِيَ فَأَنْقَضَى عَلَى  
لِسَانِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ : « يَا عَلِيُّ ، لَا يُبَغِّضُكَ مُؤْمِنٌ ،  
وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » .

\*\*\*

الشرح :

جَمَّاتُهَا بالفتح : جمعُ جَمَّةٍ ، وهى المكان يجتمع فيه الماء وهذه استعارة ، وأَخْيَشُوم :  
أقصى الأنف .

ومرادُه عليه السلام من هذا الفصل إذكّار الناس ما قاله فيه رسول الله صلى الله عليه  
وآله ، وهو : « لَا يُبَغِّضُكَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُحِبُّكَ مُنَافِقٌ » ؛ وهى كلمة حقّ ، وذلك لأنّ  
الإيمان وبغضه عليه السلام لا يجتمعان ، لأنّ بغضه كبيرة ، وصاحب الكبيرة عندنا  
لا يستمى مؤمناً ، وأمّا المنافق فهو الذى يُظهر الإسلامَ ويُبطن الكفر ، والكافرُ بعقيدته  
لا يحبّ عليّاً عليه السلام ، لأنّ المراد من الخبر المحبة الدنيّة ، ومن لا يعتدّ الإسلام  
لا يحبّ أحداً من أهل الإسلام ، لإسلامه وجهاده فى الدّين ، فقد بان أنّ الكلمة حقّ ؛  
وهذا الخبر مرّوئى فى الصحاح بنير هذا اللفظ : « لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا يُبَغِّضُكَ  
إِلَّا مُنَافِقٌ » ، وقد فسرناه فيما سبق .

(٤٤)

الأفضل :

سَيِّئَةٌ تَسُوءُكَ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ حَسَنَةٍ تُعْجِبُكَ .

\*\*\*

الشرح :

هذا حق ، لأن الإنسان إذا وقع منه القبيح ثم ساء ذلك وندم عليه وتاب حقيقة التوبة كَفَرَتْ توبته معصيته ، فسقط ما كان يستحقّه من العقاب ، وحصل له ثوابُ التوبة ، وأمّا من فعل واجبا واستحقّ به ثوابا ثم خامره الإحجاب بنفسه والإدلال على الله تعالى بعلمه ، والتّيه على الناس بعبادته واجتهاده ، فإنه يكون قد أُحْبِطَ ثواب عبادته بما شَفَعَهَا من القبيح الذي أتاه ، وهو المُعْجَب والتّيه والإدلال على الله تعالى ، فيعود لا مُثَابَا ولا مُعَاقِبَا ، لأنه يتكافأ الاستحقاقان .

ولا ريب أنّ من حَصَلَ له ثواب التوبة ، وسَقَطَ عنه عقاب المَعصية ؛ خَيْرٌ ممن خرج من الأمرين كَفَافاً<sup>(١)</sup> لا عليه ولا له .

---

(١) الكفاف من الشيء ، مثله .

(٤٥)

الأصل :

قَدَرُ الرَّجُلِ عَلَى قَدْرِ هِمَّتِهِ ، وَصِدْقُهُ عَلَى قَدْرِ مَرْوَةِ يَدِهِ ، وَشَجَاعَتُهُ عَلَى قَدْرِ أَنْفَتِهِ ،  
وَعِفَّتُهُ عَلَى قَدْرِ غَيْرَتِهِ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدّم الكلام في كلّ هذه الشئيم والخصال ، ثم نقول ها هنا : إنّ كِبَرِ الهمة خلق  
مختصّ بالإنسان فقط ، وأما سائر الحيوانات فليس يوجد فيها ذلك ، وإلّا يتجرأ كلّ  
نوع منها الفعل بقدر ما في طبيعته ، وعلوّ الهمة حال متوسطة محدودة بين حالتين طرفي رذيلتين ،  
وهما الندح ، وتسميه الحكماء التفتّح - وصغر الهمة - وتسميه الناس الدّناءة ، فالتفتّح تأهل  
الإنسان لما لا يستحقّه ، وصغر الهمة تركه لما يستحقّه لضعف في نفسه ، فهذان مذمومان ،  
والعدالة وهي الواسط بينهما محدودة ، وهي علوّ الهمة ، وينبغي أن يعلم أنّ التفتّح جاهل  
أحق ، وصغير الهمة ليس بجاهل ولا أحق ، ولكنه ذئب ضعيف قاصر ، وإذا أردت  
التحقيق ، فالكبير الهمة من لا يرضى بالهمم الحيوانية ، ولا يقنع لنفسه أن يكون عند  
رعاية بطنه وفرجه ؛ بل يجتهد في معرفة صانع العالم ومصنوعاته ، وفي اكتساب المكّام  
الشرعية ليكون من خلفاء الله وأوليائه في الدّنيا ، ومجاوريه في الآخرة . ولذلك  
قيل : مَنْ عَظُمَتْ هِمَّتُهُ لَمْ يَرْضَ بِقُنْيَةٍ مُسْتَرَدَّةٍ ، وَحَيَاةٍ مُسْتَعَارَةٍ ، فَإِنْ أَمَكَنَّكَ

— ١٧٦ —

أن تقتنى قنية مؤبّدة ، وحياة مخلّدة ، فافعل غير مكترث بقلة مَنْ يصحبك ويمينك  
على ذلك فإنه كما قيل :

\* إذا عظم المطلوب قل المساعد \*

وكما قيل :

\* طرقُ العلاء قليلة الإيناس \*

وأما الكلام في الصدق والروءة والشجاعة والأنفة والعفة والغيرة ، فقد تقدّم  
كثيرٌ منه ، وسيأتى ما هو أكثر فيما بعد إن شاء الله تعالى .



(٤٦)

الأضل :

الظفر بالحزم والحزم بإجالة الرأي ، والرأي بتحصين الأسرار .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدم القول في كتمان السر وإذاعته .

وقال الحكماء : السر ضربان : أحدهما ما يُلقى إلى الإنسان من حديثٍ لِيُستَكْتَمَ ، وذلك إما لفظاً كقول القائل : أكتُم ما أقوله لك ، وإما حالاً وهو أن يجهر<sup>(١)</sup> بالقول حال انفراد صاحبه ، أو يُخَفِّضُ صوته حيث يُخَاطِبُهُ ، أو يُخَفِّيه عن مجالسيه ؛ ولهذا قيل : إذا حدثك إنسانٌ والتفت إليه فهو أمانة .

والضرب الثاني نوعان : أحدهما أن يكون حديثاً في نفسك تستقبح إشاعته ، والثاني أن يكون أمراً تريد أن تفعله .

وإلى الأول أشار النبي صلى الله عليه وآله بقوله : « مَنْ آتَى مِنْكُمْ شَيْئاً مِنْ هَذِهِ الْقَادُورَاتِ فَلْيَسْتَرِ بِسَرِّ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ » ، وإلى الثاني أشار من قال : « مِنْ الْوَهْنِ وَالضَّعْفِ إِعْلَانُ الْأَمْرِ قَبْلَ إِحْكَامِهِ » ، وكتمان الضرب الأول من الوفاء ، وهو مخصوص بعوام الناس ، وكتمان الضرب الثاني من المروءة والحزم ؛ والنوع الثاني من نوعيه أخص بالملوك وأصحاب السياسات .

قالوا : وإذاعة السر من قلة الصبر ، وضيق الصدر ، ويوصف به ضعفة الرجال

---

(١) ب : « يحدث » .

والنساء والصبيان . والسبب في أنه يصعب كتمان السرّ أن للإنسان قوتين : إحداها آخذة ، والأخرى مُعطية ، وكل واحدةٍ منهما تتشوّق إلى فعلها الخاصّ بها ، ولولا أنّ الله تعالى وُكِّلَ العطية بإظهار ما عندها لما أُنْكَرَ بالأخبارِ مَنْ لَمْ تُزَوَّد ، فمكّي الإنسان أن يُمسِكَ هذه القوة ولا يُطْلِقَها إلّا حيث يَجبُ إطلاقُها ، فإنها إن لم تُزَمَّ وتُخَطَمَ ؛ تَقَحَّمَتْ بِصاحبها في كلّ مهلكة .

(٤٧)

الأبْضَلُ

اَحْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا جَاعَ ، وَاللَّئِيمِ إِذَا شَبِعَ .

\*\*\*

الشَّنْخُ :

ليس معنى بالجوع والشَّبَع ما يتعارفه الناس ، وإنما المراد : اَحْذَرُوا صَوْلَةَ الْكَرِيمِ إِذَا ضِيمَ ، وَامْتَنَ ، وَاحْذَرُوا صَوْلَةَ اللَّئِيمِ إِذَا أُكْرِمَ . ومثل المعنى الأول قولُ الشاعر :

لَا يَصِيرُ الْحَرُّ تَحْتَ ضَيْمٍ      وَإِنَّمَا يَصِيرُ الْحِمَارُ

ومثلُ المعنى الثاني قولُ أبي الطَّيِّبِ :

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتْهُ      وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا<sup>(١)</sup>

(٤٨)

الأصل :

قُلُوبُ الرِّجَالِ وَحَشِيَّةٌ ، فَمَنْ تَأَلَّفَهَا أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ .

\*\*\*

الشنخ :

هذا مثلُ قولهم : من لَانَ اسْتَبَالَ ، ومن قَسَا نَقَرَ ، وما اسْتَعِيدَ الْحَرُّ بِمِثْلِ الْإِحْسَانِ  
إِلَيْهِ . وقال الشاعر :

وَإِنِّي لَوْ حَشِيٌّ إِذَا مَا زَجَرْتَنِي وَإِنِّي إِذَا أَلْفَتَنِي لِأَلُوفُ  
فَأَمَّا قَوْلُ عُمَارَةَ بْنِ عَقِيلٍ :

تَبَحَّثْتُمْ سُخْطِي فَكَدَّرَ بِحُكْمِ نَخِيلَةٍ نَفْسَ كَانَ صَفْوًا ضَمِيرُهَا<sup>(١)</sup>  
وَلَمْ يُكَلِّثِ التَّخَشُّينُ نَفْسًا كَرِيمَةً عَلَى قَوْمِهَا أَنْ يَسْتَمِرَّ مَرِيرُهَا  
وَمَا النَّفْسُ إِلَّا نَظْفَةٌ بِقَرَارَةٍ إِذَا لَمْ تَكْدَّرْ كَانَ صَفْوًا غَدِيرُهَا

فِيكَادُ يُخَالِفُ قَوْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْأَصْلِ ، لِأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
جَعَلَ أَصْلَ طَبِيعَةِ الْقُلُوبِ التَّوَحُّشَ ، وَإِنَّمَا تُسْتَمَالُ لِأَمْرِ خَارِجٍ<sup>(٢)</sup> ، وَهُوَ التَّأَلُّفُ وَالْإِحْسَانُ ؛  
وَعُمَارَةُ جَعَلَ أَصْلَ طَبِيعَةِ النَّفْسِ الصَّفْوَ وَالسَّلَامَةَ ، وَإِنَّمَا تَتَكَدَّرُ وَتَجَمَّعُ لِأَمْرِ خَارِجٍ<sup>(٣)</sup> ،  
وَهُوَ الْإِسَاءَةُ وَالْإِيحَاشُ .

(١) الكامل المبرد ١ : ٢٩ . (٢) ١ : « من خارج » .

( ٤٩ )

الأفضل :

عَيْبُكَ مَسْتُورٌ مَا أَسْعَدَكَ جَدُّكَ .

\* \* \*

الشنخ :

قد قال الناسُ في الجَدِّ فأكثرُوا ، وإلى الآن لم يتحقَّق ممثله ؛ ومن كلام بعضهم :  
إذا أقبل البَحْتُ باضت الدَّجاجة على الوَتَدِ ، وإذا أدبر البَحْتُ أسيرَ الهاونُ  
في الشمس .

ومن كلام الحكماء : إنَّ السَّعادةَ لتلحظ الحَجَرَ فيدعى رَبًّا .

وقال أبو حَيَّان : نوارِد ابن الجِصاص الدَّالة على تَغفُّله وبَلَهه كثيرة جدًا ، قد صُنِّفَ  
فيها الكُتُب . مِنْ جُلَّتْهَا أَنَّهُ سَمِعَ إِنسانًا يُنْشِدُ نَسِيًّا فِيهِ ذِكْرُ هِنْدَ ، فَأَنكَرَ ذَلِكَ ،  
وقال : لا تذكروا حَماءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إِلَّا بِخَيْرٍ ، وَأَشْيَاءَ عَجِيبَةٍ أَظَرَفَ مِنْ هَذَا .  
وكانت سعادته تُضْرَبُ بِهَا الْأَمْثالُ ، وكثرةُ أَمْوالِهِ الَّتِي لَمْ يَجْتَمِعْ لِقارونَ مِثْلُهَا . قال  
أبو حَيَّان : فكان الناسُ يَعْجَبُونَ مِنْ ذَلِكَ ، حتَّى أَنَّ جَماعَةً مِنْ شُيوخِ بَفسداد كانوا  
يقولون : إنَّ ابنَ الجِصاصِ أَعْقَلَ الناسِ ، وَأَحْزَمَ الناسِ ، وإنَّه هو الَّذِي أَلْحَمَ الحالَ  
بين المُتَضَدِّ وبين سَمارويهِ بنِ أَحْمَدَ بنِ طُولُونٍ ، وسَفَرَ بينهما سِفارةً عَجِيبَةً ، وَبَلَغَ مِنْ  
الْجَهْمَتَيْنِ أَحْسَنَ مَبْلَغٍ ؛ وَخَطَبَ قَطْرَ النَّدَى بنتَ سَمارويهِ للمُعْتَضِدِّ ، وَجَهَّزَهَا مِنْ مِصرَ

على أَجَلٍ وَجْهٍ وأعلى ترتيب ، ولكنّه كان يَقْصِدُ أن يتغافل ويتجاهل ويُظهر البَهْلَ والنقص ، يَسْتَبْقِي بذلك ماله ، ويَجْرُسُ به نِعْمَتَهُ ، ويدْفَعُ عنه عينَ الكمال ، وحَسَدَ الأعداء .

قال أبو حَيَّان : قلتُ لأبي غَسَّانَ البَصْرِيَّ : أَظُنُّ ماقاله هؤلاء صحيحا ، فإنَّ المعتضِدَ مع حَزْمِهِ وعَقْلِهِ وكَلالِهِ وإصابَةِ رأيِهِ ما أختاره للسَّفارةِ والصِّلحِ إلّا والمرجُوُّ منه فيما يأتيهِ ويستَقْبِلُهُ من أيّامِهِ نظير ما قد شوهِدَ منه فيما مَضَى من زمانِهِ ؛ وهل كان يجوزُ أن يصلُحَ أمرٌ قد تفاقَمَ فسادهُ وتعاظَمَ واشتدَّ برسالُهُ أحمَقَ ، وسفارةٌ أخرَقَ ! فقال أبو غَسَّانَ : إنَّ الجَدَّ يَلْسَخُ حالَ الأخرقِ ، ويسْتُرُ عَيْبَ الأحمقِ ، ويَذُبُّ عن عِرْضِ المتلَطِّخِ ، ويقرِّبُ الصوابَ بمنطقهِ ، والصحَّةَ برأيه ، والنجاحَ بسَعْيِهِ ؛ والجَدُّ يستخدمُ العقلاءَ لصاحبهِ ، ويستعملُ آراءَهُم وأفكارَهُم في مَطالِبِهِ ، وابنُ الجِصَّاصِ على ما قيل وروى وحدث وحكى ، ولكنَّ جَدَّهُ كفاهُ غائلةُ الحُمقِ ، وسماه عواقِبَ الخُرْقِ ، ولو عرفتَ خَبْطَ العاقلِ وتمسَّفهُ وسوءَ تَأْتِيهِ وأَنْتِظاعِهِ إذا فارقه الجَدُّ ، لَعَلِمْتَ أنَّ الجاهلَ قد يصيبُ بجَهْلِهِ ما لا يُصِيبُ العالمُ بِعِلْمِهِ مع حِرْمانِهِ .

قال أبو حَيَّان : فقلتُ له : فما الجَدُّ ؟ وما هذا المعنى الَّذي علَّقتُ عليه هذه الأحكامُ <sup>(١)</sup> كَلِّها ؟ فقال : ليس لي عنه عبارةٌ معيَّنة ، ولكن لي به عِلْمٌ شافي ، استفدَّته بالاعتبارِ والتَّجربةِ والسَّماعِ العريضِ من الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ولهذا <sup>(٢)</sup> تُسَمِّعُ من أُمراءٍ من الأعرابِ تُرْقِصُ ابْنًا لها فتقولُ له : رَزَقَكَ اللهُ جَدًّا يَخْدُمُكَ عليه ذُووُ العُقُولِ ، ولا رَزَقَكَ عَقْلا تَخْدُمُ به ذُووُ الجُدُودِ .

(١) د : « الأحوال » . (٢) ا : « وقد سمع » .

(٥٠)

الأصل :

أَوَّلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَةِ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدم لنا قولٌ مُقنعٌ في العفو والحلم .

وقال الأحنف : ما شيء أشدَّ اتصالاً بشيء من الحلم بالميز .

وقالت الحكماء : ينبغي للإنسان إذا عاقبَ من يستحقّ العقوبة ، ألا يكون سبُعاً في انتقامه ، وألا يعاقبَ حتى يزول سلطانُ غضبه ، لئلا يُقدِّم على ما لا يجوز ، ولذلك جرّت سُنّةُ السلطان بحبس المجرم حتى ينظر في جُرمه ، ويعمّد النظر فيه .

وأثر الإسكندر بمذنبٍ فصّح عنه ؛ فقال له بعضُ جلسائه : لو كنتُ إياك أيتها الملك لقتلته ؛ قال : فإذا لم تكن إياي ولا كنتُ إياك لم يُقتل .

وانتهى إليه أن بعضَ أصحابه يعيبه ، فقليل له : أيتها الملك ، لو نهكتك عقوبةٌ ! فقال : يكون حينئذٍ أبسطَ لساناً وعذراً في اجتنابي .

وقالت الحكماء أيضاً : لذّة العفو أطيبُ من لذّة التّشغى والانتقام ، لأنّ لذّة العفو يشفعها حميدُ العاقبة ، ولذّة الانتقام يَلصّقها ألمُ النّدم . وقالوا : العقوبة ألامُ حالاتِ ذى القدرة وأدناها ، وهى طَرَفٌ من الجزع ، ومن رَضِيَ ألا يكون بينه وبين الظالم إلا سترٌ رقيقٌ فلينتصف .

(٥١)

الأَجْنَلُ :

السَّخَاءُ مَا كَانَ ابْتِدَاءً ، فَإِذَا كَانَ عَنْ مَسْأَلَةٍ فَحَيَاءٌ وَتَذَمُّمٌ .

\*\*\*

الشَّرْحُ :

يُجِيبُنِي فِي هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ ابْنِ حَيُّوسَ :

إِنِّي دَعَوْتُ نَدَى الْكِرَامِ فَلَمْ يُجِبْ      فَلَا شُكْرَ نَدَى أَجَابَ وَمَا دُعِيَ  
وَمِنَ الْعَجَائِبِ وَالْعَجَائِبُ بَجَّةٌ      شُكْرُهُ بَطِيءٌ عَنْ نَدَى الْمُسْرِعِ

وَقَالَ آخَرُ :

مَا اعْتَاَصَ بِإِذْلٍ وَجْهِهِ بِسْؤَالِهِ      عَوَاضًا وَلَوْ نَالَ الْغِنَى بِسْؤَالِ  
وَإِذَا النَّوَالُ إِلَى السُّؤَالِ قَرَنَتْهُ      رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالٍ



( ٥٢ )

الأضل :

لا غنى كالعقل ، ولا فقر كالجمل ، ولا ميراث كالآدب ، ولا ظهير كالشأورة .

\*\*\*

الشرح :

روى أبو العباس في "الكامل" ، عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : خمس من لم يكن فيه لم يكن فيه كثير مستمتع : العقل ، والدين ، والآدب ، والحياء ، وحسن الخلق .

وقال أيضا : لم يُقسم بين الناس شيء أقل من خمس : اليقين ، والقناعة ، والصبر ، والشكر ، والخامسة التي يكمل بها هذا كله العقل .

وعنه عليه السلام : أول ما خلق الله العقل ، قال له : أقبل ، فأقبل ؛ ثم قال له : أدبر ، فأدبر ، فقال : ما خلقت خلقا أحب إلي منك ، لك الثواب ، وعليك العقاب .

وعنه عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن الله ليُبغض الضعيف الذي لا زبر له ، قال : الزبر : العقل .

وعنه عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله : « ما قسم الله للعباد أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وفطر العاقل أفضل من صوم الجاهل ، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، وما بعث الله رسولا حتى يستكمل العقل ،

وحتى يكون عقله أفضل من عقول جميع أمته ، وما يُضمّره في نفسه أفضل من اجتهاد جميع المجتهدين ، وما أدّى العبد فرائض الله تعالى حتى عقّل عنه ، ولا يبلغ جميع العابدين في عباداتهم ما يبلغه العاقل ، والعقلاء هم أولو الأبواب ، الذين قال الله تعالى عنهم : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

قال أبو العباس : وقال رجل من أصحاب أبي عبد الله عليه السلام له وقد سمعه يقول ، بل يروى <sup>(١)</sup> مرفوعا : إذا بلغكم عن رجل حسن الحال فانظروا في حسن عقله ، فإنما يجازى بعقله . يابن رسول الله ، إن لي جارا كثير الصدقة ، كثير الصلاة ، كثير الحج ، لا بأس به ! فقال : كيف عقله ؟ فقال : ليس له عقل ؛ فقال : لا يرتفع بذلك منه .

وعنه عليه السلام : ما بعث الله نبيا إلا عاقلا ، وبعض النبيين أرجح من بعض ، وما استخلف داود سليمان عليه السلام حتى اختبر عقله ، وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، فسكت في ملكه ثلاثين سنة .

وعنه مرفوعا : صديق كل امرئ عقله ، وعدوه جهله .

وعنه مرفوعا : إنا معاشر الأنبياء نكلّم الناس على قدر عقولهم .

قال أبو العباس : وسئل أبو عبد الله عليه السلام : ما العقل ؟ فقال : ما عيّد به الرحمن ، واكتسبت به الجنان .

قال : وقال أبو عبد الله : سئل الحسن بن علي عليه السلام عن العقل ، فقال : التجرّع للغصّة ، ومداهنة الأعداء .

قلت : هذا كلام الحسن عليه السلام ، وأنا أقطع بذلك .

---

(١) : « يروى » .

قال أبو العباس : وقال أبو عبد الله : العاقل لا يُحدّث من يخافُ تكذيبه ، ولا يسأل من يخافُ منعه ، ولا يثق بمن يخافُ عذره ، ولا يرجو من لا يوثق برجائه .

قال أبو العباس : ورؤي عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : كان موسى عليه السلام يُدنى رجلا من بني إسرائيل لطول سجوده ، وطول صمته ، فلا يكاد يذهب إلى موضع إلا وهو معه ، فبينما هو يوما من الأيام إذ مرّ على أرض مُعشبة تَهْتَزُّ ، فتأوّه الرجلُ ، فقال له موسى : على ماذا تأوّهتَ ؟ قال : تمنيت أن يكون لربي حمارٌ وأرعا<sup>(١)</sup> ها هنا ، فأكتب موسى طويلاً ببصره إلى الأرض اغتما بما سمع منه ، فأنحطّ عليه الوحي ، فقال : ما الذي أنكرت من مقالة عبدي ! إنما أخذ عبادي على قدر ما آتيتهم .

قال أبو العباس : ورؤي عن علي عليه السلام : هبّط جبرائيلُ عليه السلام على آدم عليه السلام بثلاث ليختار منها واحدة ويدع اثنتين ، وهى : العقل ، والحياء ، والدين ؛ فاختار العقل ، فقال جبرائيل للحياء والدين : انصرفا ؛ فقالا : إنّنا أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان ، فقال : فشأنكما افراز بثلاث .

\*\*\*

فأما قوله عليه السلام : « ولا ميراث كالأدب » فإني قرأتُ في حِكْمِ الفُرس عن بُزْجَمَهْر : ماورثت الآباءُ أبناءها شيئا أفضل من الأدب ، لأنها إذا ورثتها الأدب اكتسبت بالأدب المال ، فإذا ورثتها المال بلا أدب أتلفته بالجهل ، وقعدت صِفرا من المال والأدب .

قال بعض الحكماء : من أدب ولده صغيرا ، سرّبه كبيرا .  
وكان يقال : من أدب ولده أرغم حاسده .  
وكان يقال : ثلاثة لا غربةَ معهم : بجانب الرّيب ، وحسن الأدب ، وكف الأذى .

(١) د : « أرعا » .

وكان يقال : عليكم بالأدب ، فإنه صاحبُ في السفر ، ومؤنسٌ في الوحدة ، وجمالٌ في المحفل ، وسببٌ إلى طلب الحاجة .

وقال بُزْجَمَهْرُ : مَنْ كَثُرَ أَدَبُهُ كَثُرَ شَرَفُهُ وَإِنْ كَانَ قَبْلُ وَضِيْعًا ، وَبِمَدِّ صِيْتِهِ وَإِنْ كَانَ خَامِلًا ، وَسَادَ وَإِنْ كَانَ غَرِيْبًا ، وَكَثُرَتِ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ وَإِنْ كَانَ مُقِلًّا .

وقال بعض الملوك لبعض وزرائه : ما خيرُ ما يُرْزَقُه العبد ؟ قال : عقلٌ يَمِيشُ به ؛ قال : فَإِنْ عَدِمَهُ ؟ قال : أَدَبٌ يَتَحَلَّى بِهِ ، قال : فَإِنْ عَدِمَهُ ؟ قال : مَالٌ يَسْتَتِرُ بِهِ ؛ قال : فَإِنْ عَدِمَهُ ؟ قال : صَاعِقَةٌ تُحْرِقُهُ فُتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ .

وقيل لبعض الحكماء : متى يكون العلمُ شرًّا من عَدَمِهِ ؟ قال : إِذَا كَثُرَ الْأَدَبُ وَنَقَصَتِ الْقَرِيحَةُ — يَعْنِي بِالْقَرِيحَةِ الْعَقْلُ .

فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي الْمَشُورَةِ فَقَدْ تَقَدَّمَ ، وَرُبَّمَا ذَكَرْنَا مِنْهُ نُبْذًا فِيمَا بَعْدُ .

(٥٣)

الأفضل :

الصَّبْرُ صَبْرَانِ : صَبْرٌ عَلَى مَا تَكْرَهُ ، وَصَبْرٌ عَمَّا تُحِبُّ .

\*\*\*

الشرح :

النوع الأول أشق من النوع الثانى ، لأن الأول صبرٌ على مَضْرَّةٍ نازلة ، والثانى صبرٌ على محبوب متوقع لم يحصل ، وقد تقدم لنا قول طويل فى الصبر .

سئل بُرْزُجَهْر فى بليته<sup>(١)</sup> عن حاله ، فقال : هوّن علىّ ما أنا فيه فسكرى فى أربعة أشياء : أولها أنّى قلت : القضاء والقدر لا بدّ من جريانهما ، والثانى أنّى قلت : إن لم أصبر فما أصنع ! والثالث أنّى قلت : قد كان يجوز أن تكون المحنة أشدّ من هذه ! والرابع أنّى قلت : لعلّ الفرج قريب !

وقال أنوشروان : جميعُ أمر الدنيا منقسم إلى ضربين لا ثالث لهما : أمّا ما فى دفعه حيلة فلاضطراب دواؤه ، وأمّا ما لا حيلة فيه فالصبر شفاؤه .

---

(١) د : « بلواه » .

(٥٤)

الأُنسل :

أَلْنَيْنِي فِي الْغُرْبَةِ وَطَنٌ ، وَالْفَقْرُ فِي الْوَطَنِ غُرْبَةٌ .

\*\*\*

الْبُخْرُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقنعٌ في الْفَقْرِ والغنى ومدحهما وذمهما على عادتنا في ذِكر الشيء وتقيضه ، ونحن نذكرُ هاهنا زيادةً على ذلك .

قال رجلٌ لبقرط (١) : ما أشدَّ فقرَكَ أيُّها الحكيم ؟ قال : لو عرفتَ راحةَ الْفَقْرِ لَشَغَلَكَ التَّوَجُّعُ لِنَفْسِكَ عَنِ التَّوَجُّعِ لِي ؛ الْفَقْرُ مَلِكٌ لَيْسَ عَلَيْهِ مُحَاسَبَةٌ .

وكان يقال : أضعفُ الناس من لا يَحْتَمِلُ الْغِنَى .

وقيل للكيندي : فلانٌ غنيٌّ ؛ فقال : أنا أعلمُ أنَّهُ مالا ، ولكني لا أعلمُ : أغنيٌّ هو أم لا ! لأنني لا أدري كيف يعمل في ماله !

قيل لابن عمر : توفي زيد بن ثابت وترك مائة ألف درهم ، قال : هو تركها لكنها لم تتركه .

وقالوا : حسبك من شرف الْفَقْرِ أنك لا تَرَى أحدا يعصى الله ليفتقر ؛ أخذه الشاعرُ فقال :

يَا عَائِبَ الْفَقْرِ أَلَا تَزْدَجِرُ عَيْبُ الْغِنَى أَكْبَرُ لَوْ تَعْتَدِرُ

إِنَّكَ تَعَصِي اللَّهَ تَبْنِي الْغِنَى وَلَيْسَ تَعَصِي اللَّهَ كِي تَفْتَقِرُ

وكان يقال : الحلال يَقْطُرُ ، والحرام يَسِيلُ .

(١) : « سقراط » .

وقال بعض الحكماء : ألا ترّون ذا الغنى ما أدومَ نصّبه ، وأقلّ راحتَه ، وأخسّ من ماله حظّه ، وأشدّ من الأيام حذرَه ، وأغرّى الدهر بنقصه وثلمه ! ثمّ هو بين سلطان يراه ، وحقوقٍ تسترعيه ، وأكفاءٍ يُنافِسونه ، ووَلَدٍ يودّون موته ، قد بعث الغنى عليه من سلطانه العناء ، ومن أكفائه الحسد ، ومن أعدائه البغى ، ومن ذوى الحقوق الذمّ ، ومن الوَلَدِ المَلالة وتمنّى الفقر ، لا كذى البُلغة قنع فدام له السرور ، ورَفَضَ الدنيا فسلّم من الحسد ، ورَضِيَ بالكفافِ فكفّى الحقوق .

(٥٥)

الأضل :

القنّاعة مَالٌ لَا يَنْفَدُ .

قال الرضى رحمه الله تعالى : وقد روى هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وآله :

\*\*\*

الشّرخ :

قد ذكرنا نكتاً جليّة المّوقع فى القنّاعة فيما تقدّم ونذكرها هنا زيادةً على ذلك .  
فن كلام الحكماء : قاوم الفقر بالقنّاعة ، وقاهر الغنى بالتمكّف ، وطاول عناء الحاسد بحسن الصّنع ، وغالب الموت بالذكّر الجليل .  
وكان يقال : الناسُ رجلان واجدٌ لا يكتفى ، وطالبٌ لا يجيد ، أخذّه الشاعر فقال :

وما الناسُ إلا واجدٌ غيرُ قانعٍ بأرزاقه أو طالبٌ غيرُ واجدٍ  
قال رجل لبقرط<sup>(١)</sup> ورآه يأكلُ العُشب<sup>(٢)</sup> : لو خدمتَ الملّك لم تحتجِ إلى أن  
تأكل الحشيشَ ، فقال له : وأنت إن أكلت الحشيشَ لم تحتجِ أن تخدم الملّك !

(١) ا ، ب : « سقراط » . (٢) د : « عشب » .



(٥٦)

الأفضل :

المالُ مادةُ الشهواتِ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

قد تقدّم لنا كلامٌ في المال مدحا وذمّا .

وقال أعرابيٌّ لبنيهِ : اجمعوا الدراهم فإنّها تُلبسُ اليَلَمَقَ ، وتطعمُ الجُرْدَقَ <sup>(١)</sup> .

وقال أعرابيٌّ وقد نظرَ إلى دينار : فأنلكَ اللهُ ! ما أصغرَ قَمَمَتِكَ ، وأكبرَ هَمَّتِكَ !

ومن كلام الحكماء : ما اخترتَ أن تحيّا به فت دونهُ .

سئل أفلاطونُ عن المال ، فقال : ما أقولُ في شيءٍ يُمطيهِ الحَظُّ ويَحفظُهُ اللُّؤْمُ ،

ويبلّغُهُ الكَرَمُ !

وكان يقال : ثلاثة يؤثرون المالَ على أنفُسِهِم : تاجرُ البَحَرِ ، والمقاتِلُ بالأجرةِ ، والمرتشِي

في الحُكْمِ ، وهو شرٌّهم ؛ لأنّ الأوّلين ربّما سَلِمَا ، ولا سلامةَ للثالث من الإثمِ .

ثم قالوا : وقد سمى اللهُ تعالى المالَ خَيْرًا في قوله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وفي قوله :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

كان عبدُ الرحمن بنُ عَوْفٍ يقول : حبّذا المالُ ، أصُونُ به عِرْضِي ، وأقرضُهُ ربِّي

(١) اليلق : القباء المحشو ؛ وهو بالفارسية : « بلمه » والجردق : الرغيف ؛ فارسية أيضا .

(٢) سورة البقرة ١٨٠ . (٣) سورة العاديات ٨ .

فيضاعفَه لى . وقالوا فى ذمّ المال : المالُ مثْلُ الماءِ غادٍ ورائح ، طبعُه كطَبْعِ الصَّبِي لا يُوقَف  
على سببِ رضاه ولا سُخْطه . المالُ لا يَنْفَعُكَ ما لم تُفَارِقْه .

وفيه قال الشاعر :

وصاحبِ صِدْقٍ ليس يَنْفَعُ قُرْبُهُ      ولا وُدُّه حتّى تُفَارِقْه عَمْدًا  
وأخَذَ هذا المعنى الحريرى فقال :

وليس يُغْنِي عَنْكَ فى المَصَائِقِ      إلّا إذا فَرَّ فِرَارَ الآبِقِ

وقال الشاعر :

ألم ترَ أنّ المالَ يُهْلِكُ رَبَّهُ      إذا جَمَّ آتِيه وسُدَّ طَرِيقُهُ  
ومن جاوزَ البَحْرَ الغَزِيرَ بِقَحْمَةٍ      وسُدَّ طريقَ الماءِ فهو غَرِيقُهُ

(٥٧)

الأضل :

مَنْ حَذَرَكَ ، كَمَنْ بَشَرَكَ .

\*\*\*

الشَّنْج :

هذا مثل قولهم : اتَّبِعْ أَمْرَ مُبْكِيَاتِكَ ، لا أَمْرَ مُضْحِكَاتِكَ<sup>(١)</sup> . ومثله : صديقك من نهاك ، لا من أغراك . ومثله : رَحِمَ اللهُ امراً أهدى إلى عيوبى .

والتحذير هو النصيح ، والنصح واجب ، وهو تعريف الإنسان ما فيه صلاحه ، ودفع الضرر عنه ، وقد جاء في الخبر الصحيح : « الدِّينُ النصيحة » ، فقيل : يارسول الله ، لمن؟ فقال : « لعامة المسلمين » . وأول ما يجب على الإنسان أن يحذر نفسه وينصحه ، فمن غش نفسه فقلما يحذر غيره وينصحه ، وحق من استنصح أن يبذل غاية النصيح ولو كان في أمر يضره ، وإلى ذلك وقعت الإشارة في الكتاب العزيز بقوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقال سبحانه : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ قَاعِدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾<sup>(٣)</sup> .

ومعنى قوله عليه السلام « كمن بشرك » أى ينبغى لك أن تُسرَّ بتحذيره لك ، كما تُسرَّ لو بشرك بأمرٍ تحبه ، وأن تشكره على ذلك كما تشكره لو بشرك بأمرٍ تحبه ، لأنه لو لم يكن يُريدُ بك الخير لما حذرك من الوقوع في الشر .

(١) الميدانى ١ : ٣٠ ، ولفظه هناك : « أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك » .

(٢) سورة النساء ١٣٥ . (٣) سورة الأنعام ١٥٢ .

( ٥٨ )

الأفضل :

اللِّسَانُ سَمِيعٌ ، إِنَّ خُلِيَ عَنْهُ عَمَرَ .

\*\*\*

الشرح

قد تقدم لنا كلام طويل في هذا المعنى .

وكان يقال : إن كان في الكلام دَرَكَ في الصَّمت عافية .

وقالت الحكماء : النطق أشرف ما خُصَّ به الإنسان ، لأنَّه صورته المعقولة التي بآيَنَ بها سائرَ الحيوانات ، ولذلك قال سبحانه : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾<sup>(١)</sup> ، ولم يقل : « وعلمه » بالواو لأنَّه سبحانه جَعَلَ قوله : ﴿ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴾ تفسيراً لقوله : ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴾ ؛ لا عطفاً عليه ؛ تليهاً على أنَّ خلقه له وتخصيصه بالبيان الذي لو تَوَهَّم مرتفعاً لارتفعت إنسانيته ؛ ولذلك قيل : ما الإنسانُ لولا اللسانُ إلاَّ بهيمةٌ مُهمَّلةٌ ، أو صورةٌ ممثَّلةٌ .

وقال الشاعر :

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفُ فؤادهُ فلم يبقَ إلاَّ صورة اللحمِ والدمِ<sup>(٢)</sup>  
قالوا : والصَّمت من حيثُ هو صَمْتُ مَذْمُومٍ ، وهو من صفات الجادات ، فضلاً

(١) سورة الرحمن ٣، ٤ .

(٢) ينسب لزهير ، من معلقته بشرح الزوزنى ٩٤ .

عن الحيوانات ، وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام وغيره من العلماء في مدح الصمت  
 محمول على مَنْ يسيء الكلام فيقع منه جُنَايات عظيمة في أمور الدين والدنيا ،  
 كما رُوِيَ في الخبر : إنّ الإنسان إذا أصبح قالت أعضاؤه للسانه : اتق الله فينا ،  
 فإنّك إن استقممت نجونا ، وإن زُغت هلكنا » ، فأما إذا اعتُبر اللُطْفُ والصمتُ  
 بذاتيهما فقط ، فمُحال أن يقال في الصمت فضلٌ ، فضلا عن أن يخايرَ ويقايسَ بينه  
 وبين الكلام .

(٥٩)

الأضل :

المرأة عقرَبْ حُلُوَّةُ اللسبة .

\*\*\*

الشيخ :

اللسبة : اللسمة ، لَسَبَتْهُ العُقْرَبُ بالفتح : لسمته . وَلَسِبْتُ العسل بالكسر ، أى لَمَقْتُهُ .

وقيل لِسْقَراط : أى السَّبَاعُ أجسر ؟ قال : المرأة .

ونظرَ حَكِيمٌ إلى امرأة مصلوبة على شجرة ، فقال : لَيْتَ كُلَّ شَجَرَةٍ تَحْمِلُ مِثْلَ هذه الثمرة .

مرّت بسقراط امرأة وهى تتشوّف<sup>(١)</sup> ، فقالت : يا شيخ ، ما أَقْبَحَكَ ؟ فقال : لولا أَنكِ من الرايا الصّديّة لَنَمْنَى ما بان مِن قُبْحِ صورتي فيكِ .

ورأى بعضهم مؤدّبا يعلمُ جارية الكتابة ، فقال : لا تَزِدِ الشرَّ شَرًّا ، إنما تسقى سَهْمًا سَمًا لترجى به يوماً ما .

ورأى بعضهم جاريةً تحمل ناراً ، فقال : نارٌ على نار ، والحامل شرٌّ من المحمول .

وتروّج بعضهم امرأةً نحيفة ، فقيل له فى ذلك ؛ فقال : اخترتُ من الشرِّ أَقْلَهُ .

كتب فيلسوفٌ على بابه : ما دَخَلَ هذا المنزلُ شرٌّ قطّ ، فقال له بعضهم : اكتب : « إلا المرأة » .

(١) د : « تشرف » .

ورأى بعضهم امرأة غريقه في الماء ، فقال : زادت الكدَرُ كَدَرًا ، والشرُّ بالشرِّ يَهْلِكُ .

وفي الحديث المرفوع : استعينوا بالله من شرار النساء ، وكونوا من خيارهنَّ على حَذَرٍ .

وفي كلام الحكماء : اعصِ هَوَاكَ والنساء ، وافعلْ ما شئت .  
دعا بعضهم لصاحبه ، فقال : أَمَاتَ اللهُ عِدْوَكَ ؟ فقال : لو قلت : زوج الله عِدْوَكَ ، لكان أبلغ في الانتقام !

ومن الكنايات المشهورة عنهنَّ : « سِلَاحُ إبليس » .  
وفي الحديث المرفوع : « إنهنَّ ناقصاتُ عَقْلٍ ودين » .  
وقد تقدّم من كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الكتاب ما هو شرحٌ وإيضاح لهذا المعنى .

وجاء في الحديث أيضا : « شاوروهنَّ وخالفوهنَّ » .  
وفي الحديث أيضا : « النساءُ حِبَائِلُ الشَّيْطَانِ »  
وفي الحديث أيضا : « ما تركتُ بعدى فتنةً أضرَّ من النساءِ على الرِّجال » .  
وفي الحديث أيضا : « المرأةُ ضِلَعٌ عَوَّجاءُ إنْ دارَبَتْها استمتعت بها ، وإن رُمَتْ تقويمها كسَرَتْها » وقال الشاعر في هذا المعنى :

هي الضِّلَعُ العَوَّجاءُ لستَ تقيّمُها      ألا إنَّ تقويمَ الضَّلَوَعِ انكِسارُها  
أيجمعنَ ضَعْفًا واقتدارًا على الفتى      أليسَ عجيبًا ضَعْفُها واقتدارُها ؟  
ومن كلام بعض الحكماء : ليس ينبغي للعاقل أن يمدح امرأةً إلا بعد موتها .  
وفي الأمثال : لا تحمدنَّ أُمَّةً عامَّ شِرائِها ، ولا حرّةً عامَّ بناءِها .

ومن كلام عبد الله المأمون : إنهن شرُّ كلِّهنَّ ، وشرُّ ما فيهنَّ ألا غِيَّيَ عنهنَّ .  
وقال بعضُ السلف : إنَّ كَيْدَ النِّسَاءِ أَكْبَرُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ ، لأنَّ الله تعالى ذَكَرَ  
الشَّيْطَانَ ، فقال : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (١) .  
وذَكَرَ النِّسَاءَ فقال : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .  
وكان يقال : من الفَوَاقِرِ امرأةٌ سَوَاءٌ إِنْ حَضَرَ تَهَا لَسَبَّتْكَ ، وَإِنْ غَبَتْ عَنْهَا لَمْ تَأْمَنْهَا .  
وقال حكيم : أضرَّ الأشياءِ بالمالِ والنفسِ والدينِ والعقلِ والعِرْضِ شِدَّةُ الإِغْرَامِ بالنِّسَاءِ ؛  
ومن أعظم ما يبتلى به المَغرَمُ بهنَّ أنه لا يقتصر على ما عنده منهنَّ ولو كنَّ ألفاً ، وَيَطْمَحُ  
إِلَى مَا لَيْسَ لَهُ مِنْهُنَّ .

وقال بعضُ الحكماء : مَنْ يُحْصِي مِساوِيَّ النِّسَاءِ ! اجتمعَ فيهنَّ نَجَاسَةُ الْخَيْضِ  
وَالِاسْتِحْاضَةُ ، وَدَمُ النَّفَاسِ ، وَنَقْصُ الْعَقْلِ وَالدِّينِ ، وَتَرْكُ الصَّوْمِ وَالصَّلَاةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ أَيَّامِ  
الْعَمْرِ ، لَيْسَتْ عَلَيْهِنَ جَمَاعَةٌ وَلَا جُمُعَةٌ ، وَلَا يَسْلَمُ عَلَيْهِنَّ ، وَلَا يَكُونُ مِنْهُنَّ إِمَامٌ وَلَا قَاضٍ  
وَلَا أَمِيرٌ وَلَا يَسَافِرُونَ إِلَّا بَوَلًى .

وكان يقال : ما نَهَيْتِ امْرَأَةٌ عَنْ أَمْرٍ إِلَّا أَتَاهُ .  
وفي هذا المعنى يقولُ طُفَيْلُ الْغَنَوِيُّ :

إِنَّ النِّسَاءَ كَأَشْجَارٍ نَبَتْنَ مَعًا      هُنَّ الْمُرَارُ وَبَعْضُ الْمُرِّ مَا كَوَلُ  
إِنَّ النِّسَاءَ مَتَى يُنْهَيْنَ عَنْ خُلُقٍ      فَإِنَّهُ وَاجِبٌ لَا بَدَّ مَفْعُولُ



(٦٠)

الأُضْلُ :

إِذَا حُيِّتَ بِتَحِيَّةٍ فَصَيِّ بِأَحْسَنَ مِنْهَا ، وَإِذَا أُسْدِتْ إِلَيْكَ يَدٌ فَكَافُئْهَا بِمَا يُرْبِي عَلَيْهَا ، وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِي .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

اللفظة الأولى من القرآن<sup>(١)</sup> العزيز ، والثانية تتضمن معنى مشهوراً .  
وقوله : « وَالْفَضْلُ مَعَ ذَلِكَ لِلْبَادِي » ، يقال في الكرم والحث على فعل الخير .  
وروى المدائني ، قال : قَدِمَ عَلَى أُسْدٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقُشَيْرِيِّ بِخُرَاسَانَ رَجُلٌ ، فَدَخَلَ  
مَعَ النَّاسِ ، فَقَالَ أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنَّ لِي عِنْدَكَ يَدًا ؛ قَالَ : وَمَا يَدُكَ ؟ قَالَ : أَخَذْتُ  
بِرُكَابِكَ يَوْمَ كَذَا قَالَ : صَدَقْتَ ؛ حَاجَتُكَ ؛ قَالَ : تَوَلَّيْنِي أَبِي يَوْمَئِذٍ ؛ قَالَ : لِمَ ؟ قَالَ :  
لَأَكْسِبَ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ؛ قَالَ : فَإِنَّا قَدْ أَمَرْنَاكَ بِهَا السَّاعَةَ ، فَسَكُونْ قَدْ بَلَغْنَاكَ  
مَا تَحِبُّ ، وَأَقْرَرْنَا صَاحِبَنَا عَلَى تَمَكُّلِهِ ، قَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنَّكَ لَمْ تَقْضِ ذِمَّتِي ؛  
قَالَ : وَلِمَ ؟ وَقَدْ أُعْطَيْتُكَ مَا أَمَلْتُ ؟ قَالَ : فَأَيْنَ الْإِمَارَةُ ؟ وَأَيْنَ حُبُّ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ !  
قَالَ : قَدْ وَلَّيْتُكَ أَبِي يَوْمَئِذٍ ، وَسَوَّغْتُ لَكَ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ ، وَأَعْفَيْتُكَ مِنَ الْحَاسِبَةِ إِنْ  
صَرَفْتُكَ عَنْهَا ؛ قَالَ : وَلِمَ تَصْرِفُنِي عَنْهَا وَلَا يَكُونُ الصَّرْفُ إِلَّا مِنْ عَجْزٍ أَوْ خِيَانَةٍ ،

---

(١) وهو قوله تعالى في سورة النساء : ﴿وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها﴾

وأنا برىء منهما ؟ قال : اذهب فانت أميرها مادامت لنا خراسان ؛ فلم يزل أميراً على أبيورد حتى عزّل أسد .

قال المدائني : وجاء رجل إلى نصر بن سيار يذكر قرابة<sup>(١)</sup> ، قال : وما قرابتك ؟ قال : ولدته وإياك فلانة ! قال نصر : قرابة عورة ، قال : إن العورة كالشنّ البالي ، يرقمه أهله فينتفعون به ؛ قال : حاجتك ؛ قال : مائة ناقة لارقع ، ومائة نعمة ربي - أي معها أولادها - قال : أما النعاج فخذها ؛ وأما النوق فنأمر لك بأثمانها .

وروى الشعبي ، قال : حضرت مجلس زياد وحضره رجل فقال : أيها الأمير ، إن لي حُرمة أفأذكرها ؟ قال : هايتها ، قال : رأيتك بالطائف وأنت غليم ذو ذؤابة ، وقد أحاطت بك جماعة من الغلمان ، وأنت تركض هذا مرةً برجلك ، وتندطح هذا مرةً برأسك ، وتكدم مرةً بأنيابك ، فكانوا مرةً ينثالون عليك ، وهذه حالهم ؛ ومرةً ينددون عنك وأنت تلتئمهم ؛ حتى كاثروك وأستقوا عليك ، فجئت حتى أخرجتك من بينهم وأنت سليم وكلّهم جريح ؛ قال : صدقت ، أنت ذاك الرجل ! قال : أنا ذاك ؛ قال حاجتك ، قال : الغنى عن الطلب ؛ قال : يا غلام ، أعطه كل صَفراء وبَيْضاء عندك ، فنظر فإذا قيمة كل ما يملك ذلك اليوم من الذهب والفضة أربعة وخمسون ألف درهم . فأخذها وأنصرف ، فقيل له بعد ذلك : أنت رأيت زيادا وهو غلام بذلك الحال ؟ قال : إي والله ، لقد رأيته وقد اكتنفته صبيان صغيران كأنهما من سيخال المعز ، فلولا أنني أدركته لظننت أنهما يأتیان على نفسه .

وجاء رجل إلى معاوية وهو في مجلس العامة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن لي حُرمة<sup>(٢)</sup> ، قال : وما هي ؟ قال : دنوت من ركابك يوم صفين ، وقد قربت فرسك لتفرّ ، وأهل

(١) د : « قرابته » .

(٢) د : « حرمة وذمما » .

العراق قد رأوا الفتح والظفر ، فقلتُ لك : والله لو كانت هند بنتُ عُتبة مكانك ما فرت  
ولا اختارت إلا أن تموت كريمة أو تعيش حميدة ، أين تفرّ وقد قلّدتك العربُ  
أزمة أمرها ، وأعطتك قياداً أعنتها ! فقلتُ لي : اخفض صوتك لا أمّ لك !  
ثمّ تماسكت وثبتت وثابت إليك حاتمك ، وتمثلت حينئذٍ بِسمرٍ أحفظ منه :  
وقولي كلما جشأت وجاشت مكانك تُحمدِي أو تسريحي<sup>(١)</sup>  
فقال معاوية : صدقت ، ودِدْتُ أنّك الآن أيضا خفّضت من صوتك ؛ يا غلام أعطه  
خمسين ألف درهم ، فلو كنت أحسدت في الأدب لأحسنّا لك في الزيادة .

(١) لابن الإطناية ؛ الكامل ٤ : ٦٨ ، وقبله :

أَبْتُ لِي عِقَّتِي وَأَبَى بَلَائِي وَأَخَذِي الْحَمْدَ بِالثَمَنِ الرَّبِيحِ  
وإجشامي على المكروه نفسي وضرّبي هامة البطل الشحيح

(٦١)

الأضل :

الشَفِيعُ جَنَاحُ الطَّالِبِ .

\*\*\*

الشَّنْحُ :

جاء في الحديث مرفوعاً : « اشفعوا إلىَّ تُوَجَّرُوا ، وَيَقْضِي اللهُ على لسان نبيِّه ما شاء » .

وقال : المأمون لأبراهيم بن المهديّ لما عفا عنه : إنَّ أعظمَ يداً عندَكَ مِنْ عَفْوِي عنكَ أنِّي لم أجِرِّعَكَ مرّاة امتنانٍ الشافعين .

ومن كلام قابوس بنِ وَشْمَكِيْر : بَرَّند الشَفِيعُ تُورِي نارُ التَّجَاحِ ، وَمِنْ كَفِّ الْمُغِيصِ يُنْتَظَرُ فَوْزُ القِدَاحِ .

قال البرد : أنا في رجل يَسْتَشْفِعُ بي في حاجة ، فأَنشدني لنفسه :

إِنِّي قَصْدُنْكَ لَا أَذِلُّ بِمَعْرِفَةٍ وَلَا بَقُرْبَى ، وَلَكِنْ قَدَفْتُ رِعْمُكَ  
فَبْتُ حَيْرَانَ مَكْرُوبًا يُوْرُقُنِي ذُلُّ الْغَرِيبِ وَيَغْشِيَنِي الْكَرَى كَرَمُكَ  
وَلَوْ هَمَمْتُ بِغَيْرِ الْعُرْفِ مَا عَلِقْتُ بِهِ يَدَاكَ وَلَا أَتَقَدَّاتُ لَهُ شَيْمُكَ  
مَا زِلْتُ أَنْكَبُ حَتَّى زُلْزِلْتُ قَدَى فَاحْتَلَّ لِتَثْبِيَّتِهَا لَا زُلْزِلْتُ قَدَمُكَ  
قال : فشغفت له وقتُ بأمره حتى بلغتُ له ما أَحَبَّ .

بُزُرْجُمِهَر : مَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِنَفْسِهِ عَنِ شَفِيعِهِ وَوَسَائِلِهِ وَهَتْ قُوَى أَسْبَابِهِ ؛ وَكَانَ إِلَى

الحرمان أقرب منه إلى بلوغ المراد. ومثله : من لم يرغب أوداؤه في اجتنابه لم يحظَ بمدح شُفعائه . ومثله : إذا زرتُ الملوكَ فإنَّ حَسْبِي شفيما عندهم أن يَمِرُّوني .  
كَلِمَ الأحنفُ مصعبَ بنَ الزَّبيرِ في قومِ حَبَسَهم ، فقال : أَصَلَحَ اللهُ الأميرُ ! إن كان هؤلاءُ حُبِسُوا في باطلٍ فالحقُّ يُخرجُهم ، وإن كانوا حُبِسُوا في حقٍّ فالعفو يَسعُهم ، فأمرَ بإخراجهم .

آخر :

إذا أنت لم تَعْطِفْكَ إِلَّا شِفاعَةً فلا خَيْرَ في وُدِّ يكونُ بِشِافِعٍ  
خرج العطاء في أيام المنصور ، وأقام الشَّقرانيّ - من وَلَدِ شُقرانَ مولى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله - بابه أيّما لا يصل إليه عطاؤه ؛ فخرَجَ جعفرُ بنُ مُحَمَّدٍ من عند المنصور ، فقام الشَّقرانيّ إليه ، فذكر له حاجته ، فرحَّبَ به ، ثم دخل ثانيا إلى المنصور ، وخرج وعطاء الشَّقرانيّ في كُفِّهِ فَصَّبَهُ في كُفِّهِ ثُمَّ قال : يا شُقران ، إنَّ الحَسَنَ من كلِّ أحدٍ أَحَسَنُ ، وإنَّه منك أَحَسَنُ لِمَكَانِكَ مِنَّا ، وإنَّ القبيحَ من كلِّ أحدٍ قَبِيحٌ ، وهو منك أَقْبَحُ لِمَكَانِكَ مِنَّا . فاستحسنَ الناسُ ما قاله ، وذلك لأنَّ الشَّقرانيّ كان صاحبَ شراب . قالوا : فانظر كيف أحسنَ السَّعيَ في استنجاز طَلِبَتِهِ ، وكيف رَحَّبَ به وأكرَمَهُ مع معرفته بحاله ، وكيف وَعَظَهُ ونَهاه عن المُسْكَرِ على وجه التعريض ! قال الزَّمَخْشَرِيُّ : وما هوَ إِلَّا من أخلاق الأنبياء .

كَتَبَ سَمِيدُ بنُ مُحْيِدٍ شِفاعَةً لرجل : كَتَبَني هذا كِتَابُ مُعْتَنٍ بِمَن كَتَبَ له ، واثقٍ بِمَن كَتَبَ إليه ، ولن يَضِيعَ حَامِلُهُ بين الثَّقةِ والعناية إن شاء الله .  
أبو الطَّيِّب :

إذا عَرَضْتَ حاجَ إليه فَتَفَسُّهُ إلى نَفْسِهِ فيها شِيعٌ مشفعٌ<sup>(١)</sup>

## [ محمد بن جعفر والمنصور ]

كان المنصور مُعْجَبًا بِمُحَادَثَةِ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وكان الناسُ لعظم قدرِهِ عندَ المنصورِ يَفْرَعُونَ إِلَيْهِ فِي الشِّفَاعَاتِ وَقَضَاءِ الْحَاجَاتِ ، فَثَقُلَ ذَلِكَ عَلَى المنصورِ فَحَجَبَهُ مَدَّةً ، ثُمَّ تَبَعَّمَتْهُ نَفْسُهُ ، فَحَادَثَ الرَّبِيعَ فِيهِ ، وَقَالَ : إِنَّهُ لَا صَبْرَ لِي عَنْهُ لَكِنِّي قَدْ ذَكَرْتُ شِفَاعَاتِهِ ، فَقَالَ الرَّبِيعُ : أَنَا أَشْطَرُ إِلَّا يَعُودَ ، فَكَلَّمَهُ الرَّبِيعُ ، فَقَالَ : نَعَمْ ، فَكُنْتُ أَيَّامًا لَا يَشْفَعُ ، ثُمَّ وَقَفَ لَهُ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ وَغَيْرِهِمْ بِرِقَاعٍ وَهُوَ يَرِيدُ دَارَ الْمَنْصُورِ ، فَسَأَلُوهُ أَنْ يَأْخُذَ رِقَاعَهُمْ ، فَقَصَّ عَلَيْهِمُ الْقِصَّةَ ، فَضَرَعُوا إِلَيْهِ وَسَأَلُوهُ ، فَقَالَ : أَمَّا إِذَا أَبَيْتُمْ قَبُولَ الْعُذْرِ فَإِنِّي لَا أَقْبِضُهَا مِنْكُمْ ، وَلَكِنْ هَلُمُّوا فَأَجْعَلُوهَا فِي كُمِّي ؛ فَقَذَفُوهَا فِي كُمِّهِ ، وَدَخَلَ عَلَى الْمَنْصُورِ وَهُوَ فِي الْخَضِرَاءِ يُشِيرُفُ عَلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ وَمَا حَوْلَهَا بَيْنَ الْبَسَاتِينِ وَالضِّيَاعِ ، فَقَالَ لَهُ : أَمَا تَرَى إِلَى حُسْنِهَا ! قَالَ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا آتَاكَ ، وَهَنَّاكَ بِإِتْمَامِ نِعْمَتِهِ عَلَيْكَ فِيمَا أَعْطَاكَ ! فَمَا بَنَتِ الْعَرَبُ فِي دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، وَلَا الْعَجَمُ فِي سَالِفِ الْأَيَّامِ ؛ أَحْصَنَ وَلَا أَحْسَنَ مِنْ مَدِينَتِكَ ، وَلَكِنْ سَمَّجَتْهَا فِي عَيْنِي خَصْلَةٌ ، قَالَ : مَا هِيَ ؟ قَالَ : لَيْسَ لِي فِيهَا ضَيْعَةٌ ، فَضَحِكَ وَقَالَ : نَحْسُهَا فِي عَيْنِكَ ، ثَلَاثُ ضِيَاعٍ قَدْ أَقْطَعْتُكُمْهَا ؛ فَقَالَ : أَنْتَ وَاللَّهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ شَرِيفُ الْمَوَارِدِ ، كَرِيمُ الْمَصَادِرِ ، فَجَعَلَ اللَّهُ بَاقِيَ عَمْرِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَاضِيهِ ؛ وَجَعَلَتِ الرَّقَاعُ تَبَدُّرٌ مِنْ كُفْمِيهِ فِي أَثْنَاءِ كَلَامِهِ وَخُطَابِهِ لِلْمَنْصُورِ ، وَهُوَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا وَيَقُولُ : ارْجِعْنِ خَاسِئَاتٍ ، ثُمَّ يَعُودُ إِلَى حَدِيثِهِ ، فَقَالَ الْمَنْصُورُ : مَا هَذِهِ بِحَقِّي عَلَيْكَ ؟ أَلَا أَعْلَمْتَنِي خَبَرَهَا ! فَأَعْلَمَهُ ، فَضَحِكَ فَقَالَ : أَبَيْتَ يَا بَنَ مَعْلَمِ الْخَيْرِ إِلَّا كَرَمًا ! ثُمَّ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كُمَلْتُ      يَوْمًا عَلَى الْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ<sup>(١)</sup>  
 نُبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا      تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلُوا  
 ثُمَّ أَخَذَهَا وَتَصَفَّحَهَا وَوَقَعَ فِيهَا كُلَّهَا بِمَا طَلَبُ أَصْحَابِهَا .  
 قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ : نَفَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ وَقَدْ رَجَحْتُ وَأَرَجَحْتُ .

\*\*\*

قال المبرّد لعبد الله بن يحيى بن خاقان: أنا أشفع إليك أصلحك الله في أمر فلان، فقال  
 له : قد سمعتُ وأطعتُ ، وسأفعل في أمره كذا، فما كان من نقصي فعليّ ، وما كان من زيادة  
 فله ؛ قال المبرّد : أنت - أطل الله بقاءك - كما قال زهير :

وَجَارٍ سَارَ مَعْتَمِدًا إِلَيْنَا      أَجَاءَتْهُ الْخَافَةُ وَالرَّجَاءُ<sup>(٢)</sup>  
 ضَمِنَّا مَا لَهُ فَغَدًا سَلِيمًا      عَلَيْنَا نَقْصُهُ وَلَهُ التَّمَاءُ

وقال دغبل :

وَإِنْ أَمْرًا أُسْدَى إِلَى بَشَافِعِ      إِلَيْهِ وَيَرْجُو الشُّكْرَ مِنِّي لِأَحَقِّ<sup>(٣)</sup>  
 شَفِيعُكَ يَا شُكْرَ الْحَوَائِجِ إِنَّهُ      يَصُونُكَ عَنْ مَكْرُوهِهَا وَهُوَ يَخْلُقُ

آخر :

مَضَى زَمَنِي وَالنَّاسُ يَسْتَشْفِعُونَ بِي      فَهَلْ لِي إِلَى لَيْلِي الْغَدَاءَ شَفِيعُ !

آخر :

وَنَبَتْ لَيْلَى أُرْسِلَتْ بِشَفَاعَةٍ      إِلَيَّ ، فَهَلَا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا<sup>(٤)</sup>  
 أَا كَرَّمُ مِنْ لَيْلَى عَلَى فَتَبْتَنِي      بِهِ الْجَاهُ ، أَمْ كُنْتُ أَمْرًا لَا أُطِيعُهَا !

(١) في د : « كرمت » . (٢) ديوانه ٧٧ .

(٣) ديوانه ١١٢ . (٤) للمجنون ، ديوانه ٦٩٥ .

آخر :

وَمَنْ يَكُنِ الْفَضْلُ بْنُ يُحْيَى بْنِ خَالِدٍ شَفِيعاً لَهُ عِنْدَ الْخَلِيفَةِ يَنْجَحُ

آخر :

وَإِذَا امْرَأُ أَسْدَى إِلَيْكَ صَلِيعَةً مِنْ جَاهِهِ ، فَكَأَنَّهَا مِنْ مَالِهِ  
وَهَذَا مِثْلُ قَوْلِ الْآخَرِ :

وَعِطَاءُ غَيْرِكَ إِنْ بَدَلَتْ عَنَاءَةً فِيهِ عَطَاؤُكَ

ابن الرومي :

يَنَامُ الَّذِي اسْتَسْعَاكَ فِي الْأَمْرِ إِنْهُ كَفَى الْعَوْدُ مِنْكَ الْبَدَاءُ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ  
فَالِك تَلَبُّوْا فِي يَدِي عَنْ ضَرِيْبَتِي  
إِذَا أُبْقِظَ الْمَلْهُوفُ مِثْلَكَ نَامَا وَجُرِّدَتْ لِلْجُلَى فَكُنْتَ حُسَامَا  
وَلَمْ أَرِثْ مِنْ هَزِيٍّ وَكُنْتَ كَهَامَا



(٦٢)

الأضل :

أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكَبٍ يُسَارُّ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ .

\*\*\*

الشنخ :

هذا التشبيه واقع وهو صورة الحال لا محالة .

وقد أتيت بهذا المعنى في رسالة لي كتبته إلى بعض الأصدقاء تمزيةً ، فقلت :  
« ولو تأمل الناس أحوالهم<sup>(١)</sup> ، وتبينوا مآلهم ، لعلموا أن المقيم منهم بوطنه ،  
والساكن إلى سكّنه ، أخو سفر يُسرّى به وهو لا يسرّى ، وراكبٌ بحريٌّ يُجرى به  
وهو لا يدري » .

---

(١) ١ : « في أحوالهم » .

— ٢١٠ —

(٦٣)

الأضلُ :  
فَقَدْ الْأَحَبَّةُ غُرْبَةً .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

مثلُ هذا قولُ الشاعر :

فلا تحسبي أنَّ الغريبَ الَّذي نأى      ولكنَّ مَنْ تَنَأَيْنَ عنه غَرِيبٌ<sup>(١)</sup>  
ومثله قولُه عليه السلام : « الغريبُ من ليس له حبيبٌ » .

وقال الشاعر :

أُسْرَةُ المَرْءِ والدَاهُ وفيما      بين حِصْنَيْهِمَا الحَيَاةُ تَطِيبُ<sup>(٢)</sup>  
وَإِذَا وَلَّيَا عَنِ المَرْءِ يَوْمًا      فَهُوَ فِي النَّاسِ أَجَنِّيٌّ غَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>  
وقال آخر :

إِذَا مَا مَضَى القَرْنُ الَّذِي كُنْتَ فِيهِمْ      وَخُلِّفْتَ فِي قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيبٌ<sup>(٣)</sup>

---

(١) نأى : بعد . (٢) الحصن : ما دون الإبط إلى الكشح .

(٣) القرن : الجيل من الناس .

(٦٤)

الأفضل :

قَوْتُ الْحَاجَةِ أَهْوَنُ مِنْ طَلِبِهَا إِلَى غَيْرِ أَهْلِهَا .

\*\*\*

الشرح :

قد سَبَقَ هذا المعنى ، وذَكَرْنَا كثيراً ممّا قيل فيه .

وكان يقال : لا تَطْلُبُوا الحوائِجَ إلى ثلاثة : إلى عَبْدٍ يقول : الأمرُ إلى غَيْرِي ،

وإلى رجلٍ حَدِثِ الغِنَى ، وإلى تاجِرٍ هَمَّتْهُ أَنْ يَسْتَرْجِحَ في كُلِّ عَشْرِينَ ديناراً حَبَّةً واحدةً<sup>(١)</sup> .

---

(١) ساقطة من أ .

— ٢١٢ —

(٦٥)

الأصل :

لَا تَسْتَحِرَّ مِنْ إِعْطَاءِ الْقَلِيلِ ، فَإِنَّ الْحِرْمَانَ أَقْلُ مِنْهُ .

\*\*\*

الشَّرح :

هذا نوعٌ من الحثِّ على الإفضال والجود لطيف ، وقد استعمل كثيراً في المديّة والاعتذار لقلتها ؛ وقد تقدّم منا قولُ شافٍ في مدح السخاء والجود .  
وكان يقال : أفضِلُ على مَنْ شئتَ تكنْ أميرَه ، واحتجَّ إلى مَنْ شئتَ تكنْ أسيرَه ،  
واستغنى عن شئتَ تكنَ نظيرَه .  
وسئل أرسطو : هل من جودٍ يستطيع أن يُتناول به كلُّ أحد ؟ قال : نعم ،  
أن تنسوي الخيرَ لكلِّ أحد .

(٦٦)

الأضال :

العَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ ، وَالشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَى .

\*\*\*

الشَّنْخُ :

من الأبيات المشهورة :

فَإِذَا افْتَقَرْتَ فَلَا تَكُنْ مُتَخَشِّعًا وَتَجَمِّلِ

وَمِنْ أَمْثَالِهِمُ الْمَشْهُورَةُ : « تَجْوَعُ الْحَرَّةُ وَلَا تَأْكُلُ بِثَدْيِهَا » (١) .

وَأَنشُدُ الْأَصْمَعِيَّ لِبَعْضِهِمْ :

أُقْسِمُ بِاللَّهِ لَمَعَصُ النَّوَى      وَشَرِبُ مَاءَ الْقَلْبِ الْمَالِحَةِ

أَحْسَنُ بِالْإِنْسَانِ مِنْ ذَلِكَ      وَمِنْ سُؤَالِ الْأَوْجِ الْكَالِحَةِ

فَاسْتَفِنِ بِاللَّهِ تَكُنْ ذَا غِنَى      مُغْتَبِطًا بِالصَّفْقَةِ الرَّابِحَةِ (٢)

طُوبَى لِمَنْ تُصْبِحُ مِيزَانُهُ      يَوْمَ يُلَاقِي رَبَّهُ رَاجِحَهُ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : وَقَفْتُ عَلَى كَنِيفٍ وَفِي أَسْفَلِهِ كَنَافٌ ؛ وَهُوَ يُنْشِدُ :

وَأَكْرِمُ نَفْسِي عَنْ أُمُورٍ كَثِيرَةٍ      أَلَا إِنَّ إِكْرَامَ النَّفْسِ مِنَ الْعَقْلِ

(١) الميداني ١ : ٨١ ؛ قال : أُمِّي لَا تَكُونُ ظَنُورًا وَإِنْ أَكْذَاهَا الْجُوعُ . وَيُرْوَى : « وَلَا تَأْكُلْ ثَدْيِهَا »

قال : « وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ ذَلِكَ الْحَارِثُ بْنُ سَلِيلِ الْأَسَدِيِّ » فِي خَبَرٍ مَعْرُوفٍ ذَكَرَهُ هُنَاكَ .

(٢) ب : « مُغْبِطًا » تَحْرِيفٌ .

وَأَجْلُ بِالْفَضْلِ الْبَيْنِ عَلَى الْأَلَى      رَأَيْتُهُمْ لَا يُكْرِمُونَ ذَوِي الْفَضْلِ  
 وَمَا شَانِي كَنْسُ الْكَئِيفِ وَإِنَّمَا      يَشِينُ الْفَتَى أَنْ يَجْتَدِيَ نَائِلَ النَّذْلِ<sup>(١)</sup>  
 وَأَقْبَحُ مِمَّا بِي وَقُوفِي مُؤَمَّلًا      نَوَالَ فَتَى مِثْلِي ، وَأَى فَتَى مِثْلِي !  
 وَأَمَّا كَوْنُ الشُّكْرِ زِينَةَ الْغِنَى ، فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنَ الْقَوْلِ مَا هُوَ كَافٍ .  
 وَكَانَ يُقَالُ : الْعِلْمُ بَنِيْرٌ عَلَى قَوْلٍ بَاطِلٍ ، وَالنِّعْمَةُ بَنِيْرٌ شُكْرٍ جَيِّدٌ عَاطِلٌ .

---

(١) النذل : المحتقر من الناس في جميع أحواله .

(٦٧)

الأصل :

إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ ، فَلَا تُبَلِّ كَيْفَ كُنْتَ !

\*\*\*

الشرح :

قد أجمعت تفسير هذه الكلمة على جماعه من الناس ، وقالوا : المشهور في كلام الحكماء :  
إذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكون ، ولا معنى لقوله : « فلا تُبَلِّ كيف كنت » ! وجهلوا  
مراده عليه السلام .

ومراده : إذا لم يكن ما تريد فلا تُبَلِّ بذلك ، أى لا تكثرِثْ بفوت مرادك  
ولا تَبْتَلِسْ بِالْحُرْمَانِ ، ولو وَقَفَ على هذا لم يكمل الكلام وكمل المعنى ، وصار هذا مثل  
قوله : « فلا تُسَكِّرْ على ما فاتك منها أسفا » ، ومثل قول الله تعالى : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى  
مَا فَاتَكُمْ ﴾ (١) ؛ لكنه تَمَّ وأكد فقال : « كيف كنت » ، أى لا تُبَلِّ بفوت ما كنت  
أملكه ، ولا تحمِلْ لذلك همتا كيف كنت ، وعلى أى حال كنت ، من حبسٍ أو مرضٍ أو  
فقر أو فقدٍ حبيب ؛ وعلى الجملة ، لا تُبالِ الدهر ، ولا تكثرِثْ بما يعكس عليك من  
غرضيك ، ويحرمك من أملك ؛ وليكن هذا الإهوانُ به والاحتقارُ له مما تعتمده دائما  
على أى حال أفضى بك الدهر إليها . وهذا واضح .

(٦٨)

الأصل :

لَا يُرَى الْجَاهِلُ إِلَّا مُفْرِطًا أَوْ مُفَرِّطًا .

\*\*\*

الشرح :

العدالة هي الخلق المتوسط ، وهو محمود بين مذمومين ، فالشجاعة مخوفة بالتهور والجلن ، والذكاء بالغباء والجريزة<sup>(١)</sup> ، والجود بالشح والتبذير ، والحلم بالحمادية والاستشاطعة ، وعلى هذا كلّ ضدّين من الأخلاق فيبينهما خلق متوسط ، وهو المسمى بالعدالة ، فلذلك لا يُرَى الجاهلُ إِلَّا مُفْرِطًا أَوْ مُفَرِّطًا ، كصاحب الغيرة ، فهو إمّا أن يفرط فيها ، فيخرج عن القانون الصحيح فيفارق لا من موجب ، بل بالوهم وبالخيال وبالوسواس ، وإمّا أن يُفَرِّط فلا يبحث عن حال نسائه ولا يُبالى ما صنعن ، وكلا الأمرين مذموم ، والمحمود الاعتدال .

ومن كلام بعض الحكماء<sup>(٢)</sup> : إذا صحّ العقل التّحَمَّ<sup>(٣)</sup> بالأدب كالتيحام<sup>(٤)</sup> الطعام بالجسد الصحيح ، وإذا مرض العقل نَبَا عنه ما يستمتع من الأدب كما يقيء المَعُود ما أكل من الطعام ، فلو آثر الجاهلُ أن يتعلَّم شيئاً من الأدب لتحوّل ذلك الأدبُ جهلاً ، كما يتحوّل ما خالط جوف المريض من طيب الطعام داءً .

(١) الجريزة : الحب والسكر . (٢) ١ : « ومن كلام الحكماء » .

(٣) ١ « التأم » . (٤) ١ : « كالتيحام » .



— ٢١٧ —

(٦٩)

الأصل :

إِذَا تَمَّ الْعَقْلُ نَقَصَ الْكَلَامُ .

\*\*\*

الشرح :

قد سبق القولُ في هذا المعنى .

وكان يقال : إِذَا رَأَيْتَ الرَّجُلَ<sup>(١)</sup> يُطِيلُ الصَّمْتَ وَيَهْرُبُ مِنَ النَّاسِ ، فَاقْرُبُوا مِنْهُ  
فإنه يلقي الحكمة .

---

(١) : « رجلا » .

(٧٠)

الأُنسل .

الدَّهْرُ يُخْلِقُ الْأَبْدَانَ ، وَيُجَدِّدُ الْأَمَالَ ، وَيُقَرِّبُ الْمَنِيَّةَ ، وَيُبَاعِدُ الْأَمْنِيَّةَ . مَنْ  
ظَفِرَ بِهِ نَصَبَ ، وَمَنْ فَاتَهُ تَعَبَ .

\*\*\*

التَّشْرِخُ :

قد سبق لنا قول طويل عريض في ذكر الدهر والدنيا ، ونذكر الآن شيئاً آخر ، قال  
بعض الحكماء : الدنيا تَسْرُّ لِتَغُرَّ ، وتُفِيدُ لِتَكِيدَ ، كم راقده في ظلها قد أيقظته ، ووائقه بها  
قد خذلتته ، بهذا الخلق عُرِفَتْ ، وعلى هذا الشرط صُوِّجَتْ .

وكتب الاسكندرُ إلى أرسطوطاليس : عِظْنِي ، فكتب إليه : إذا صَفَتْ لك  
السلامة فجدِّدْ ذِكْرَ الْمَطَبِ ، وإذا اطمأنَّ بك الأَمْنُ فاستشعرْ الخوفَ ، وإذا بلغتْ  
نَهَايَةَ الْأَمَلِ فاذاكِرْ الموتَ ، وإذا أُحِبَّبتَ نفسك فلا تجعلْ لها نصيباً في الإساءة ، وقال  
شاعر فأحسن :

كأَنَّكَ لَمْ تَسْمَعْ بِأَخْبَارِ مَنْ مَضَى	ولم تر بالباقيين ما صنع الدهرُ
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم	عفاها حال الرِّيحِ بمدك والقطرُ
وهل أبصرت عيناك حياً بمنزلي	على الدهر إلا بالمرء له قبرُ
فلا تحسبن الوفرة مالا جمته	ولكن ما قدمت من صالح وفرة

مَضَى جَامِعُ الْأَمْوَالِ لَمْ يَتَزَوَّدُوا      سَوَى الْفَقْرِ يَا بُؤْسَى لِمَنْ زَادَهُ الْفَقْرُ !  
 حَتَّامٌ لَا تَصْحُوْ وَقَدْ قَرَّبَ الْمَدَى      وَحَتَّامٌ لَا يَنْجَابُ عَنْ قَلْبِكَ السُّكْرُ !  
 بَلَى سَوْفَ تَصْحُوْ حِينَ يَنْكَشِفُ الْغَطَا      وَتَذَكُرُ قَوْلِي حِينَ لَا يَنْفَعُ الذِّكْرُ  
 وَمَا بَيْنَ مِيلَادِ الْفَتَى وَوَفَاتِهِ      إِذَا انْتَصَحَ الْأَقْوَامُ أَنْفُسَهُمْ عُمرُ (١)  
 لِأَنَّ الَّذِي يَأْتِيهِ شِبْهُ الَّذِي مَضَى      وَمَا هُوَ إِلَّا وَقْتُكَ الصَّيِّقِ النَّزْرُ  
 فَصَبْرًا عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى تَجُوزَهَا      فَعَمَّا قَلِيلٍ بِمَدَاهَا يُحْمَدُ الصَّبْرُ

## (٧١)

### الأصل :

مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَامًا فَكَانَ عَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ ؛  
وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالْإِجْلَالِ  
مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ .

\*\*\*

### الشرح :

الفروع تابعة للأصول ، فإذا كان الأصل معوجًا استحال أن يكون الفرع مستقيماً ،  
كما قال صاحب المثل : « وهل يستقيم الظلّ والعود أعوج » ، فمن نصب نفسه للناس إماماً ،  
ولم يكن قد علم نفسه ما انتصب ليعلمه الناس ، كان مثل من نصب نفسه ليعلم الناس  
الصياغة ، والنجارة ، وهو لا يحسن أن يصوغ خاتماً ، ولا ينجر لوحاً ، وهذا نوع من السّفه ،  
بل هو السّفه كلّهُ ؛ ثم قال عليه السلام : وينبغي أن يكون تأديبه لهم بفعله وسيرته  
قبل تأديبه لهم بلسانه ، وذلك لأنّ الفعل أدلّ على حال الإنسان من القول..

ثم قال : ومعلم نفسه ومؤدّبها أحقّ بالإجلال من معلم الناس ومؤدّبهم . وهذا حقّ ،  
لأنّ من علم نفسه محاسن الأخلاق أعظمُ قدرًا ممن تعاطى تعليم الناس ذلك وهو غيرُ عامل  
بشيء منه ، فأما من علم نفسه وعلم الناس فهو أفضل<sup>(١)</sup> وأجلّ ممن اقتصر على تعليم نفسه  
فقط لا شبهة في ذلك .

(١) : « وأعظم » .

(٧٢)

الأضل :

نفسُ المرءِ خطاهُ إلى أجَلِهِ .

\* \* \*

الشُّنْخ :

وجدتُ هذه الكلمةَ منسوبةً إلى عبد الله بن المعتزِّ في فصلٍ أوَّلِه : « الناس  
وفد البلاء ، وسُكَّان الثرى ، وأنفاس الحَيِّ خطاهُ إلى أجَلِه ، وأمله خادعٌ له عن عمله ،  
والدنيا كذب وإعديهِ ، والنفس أقربُ أعاديهِ ، والموتُ ناظرٌ إليه ، ومنتظرٌ فيه أمرأ  
يُغْضِيهِ » فلا أدري هل هي لابن المعتزِّ ، أم أخذها من أمير المؤمنين عليه السلام !  
والظاهر<sup>(١)</sup> أنها لأَمير المؤمنين عليه السلام ، فإنها بكلامه أشبه ، ولأنَّ الرضى  
قد رواها عنه ، وخبرُ العَدَلِ معمولٌ به .

---

(١) ١ : « ويظهر » .

(٧٣)

الأصل :

كُلُّ مَعْدُودٍ مُنْقَضٍ ، وَكُلُّ مُتَوَقَّعٍ آتٍ .

\*\*\*

الشرح :

الكلمة الأولى تؤكد مذهب جمهور التكلمين في أن العالم كله لا بد أن ينقضي ويُفنى ، ولكن التكلمين الذاهبين إلى هذا القول لا يقولون : يجب أن يكون فانياً ومنقضيًا لأنه معدود ، فإن ذلك لا يلزم ؛ ومن الجائز أن يكون معدوداً ولا يجب فناؤه ، ولهذا قال أصحابنا : إنما علمنا أن العالم يفنى عن طريق السمع لا من طريق العقل ، فيجب أن يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يطابق ذلك ، وهو أنه ليس يعني أن المدد علة في وجوب الانقضاء ، كما يشعر به ظاهر لفظه ، وهو الذي يسميه أصحاب أصول الفقه إيماءً ، وإنما مراده <sup>(١)</sup> كل معدود فاعلموا أنه فانٍ ومنقضي ، فقد حكم على كل معدود بالانقضاء حكماً مجرداً عن العلة ، كما لو قيل : زيد قائمٌ ، ليس يعني أنه قائمٌ ، لأنه يسمى زيدا .

فأما قوله : « وكل متوقع آتٍ » فيأمله قول العامة في أمثالها : « لو انتظرت القيامة لقامت » ؛ والقول في نفسه حق ، لأن العقلاء لا ينتظرون ما يستحيل وقوعه ، وإنما ينتظرون ما يمكن وقوعه ، وما لا بد من وقوعه ، فقد صح أن كل منتظر سيأتي .

(٢) ١ : « ومراده » .

(٧٤)

الأصل :

إِنَّ الْأُمُورَ إِذَا اشْتَبَهَتْ اغْتَبِرَ آخِرُهَا بِأَوَّلِهَا .

\*\*\*

الشرح :

روى : « إذا اشتبهت » ، والمعنى واحد وهو حق ، وذلك أن المقدمات تدلّ على النتائج ، والأسباب تدلّ على السبّبات ، وطالما كان الشيطان ليسا علةً ومعلولا ، وإنما بينهما أدنى<sup>(١)</sup> تناسب ، فيُستدلّ بحالٍ أحدهما على حال الآخر ، وإذا كان كذلك واشتبهت أمورٌ على العاقل الفطن ولم يعلم إلى ماذا تُؤول ، فإنه يُستدلّ على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفوائدها ، كالرّعية ذات السلطان الرّكّيك الضعيف السياسة ، إذا ابتدأت أمورٌ مملكتيه تضطرب ، واستبهم على العاقل كيف يكون الحال في المستقبل ، فإنه يجب عليه أن يمتدّ أو آخرها بأوائلها ، ويعلم أنه سيفضى أمرٌ ذلك المُلك إلى انتشار واخلال في مُستقبل الوقت ، لأنّ الحركات الأولى مُنذرة بذلك ، وواعدة بوقوعه ، وهذا واضح .

---

(١) : « أقرب » .

(٧٥)

### الأضل :

ومن خبر ضرار بن ضمرة الضبابي عند دخوله على معاوية ، ومسأله له عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال : فأشهد لقد رأيته في بعض موافقه وقد أرخى الليل سدوله وهو قائم في محرابه قابض على لحيته ، يتكلم تكلم السليم ، ويبكي بكاء الحزين ، وهو يقول :

يا دنيا يا دنيا إليك عنى ، أبى تمرضت ، أم إلى تشوفت ! لا حان حينك ، هيهات ، غررى غبرى ، لا حاجة لي فيك ، قد طلقتك ثلاثاً ، لا رجعة فيها ، فعيشك قصير ، وخطر لك يسير ، وأملك حفير . آه من قلة الزاد ، وطول الطريق ، وبُعْد السفر ، وعظيم المورد !

\*\*\*

### الشنخ :

السُدُول : جمع سَدِيل ، وهو ما أسدل على المودج ، ويجوز في جمعه أيضاً أسدال وسدائل ، وهو هاهنا استعارة . والتكلم والتكلم أيضاً : عدم الاستقرار من المرض ، كأنه على ملكة ، وهى الرماد الحار .

والسليم : الملسوع .

ويروى « تشوقت » بالقاف .

وقوله : « لا حان حينك » ، دعاء عليها ، أى لا حصر وقتك ، كما تقول : لا كنت .



فأما ضِرَارُ بْنُ صَمْرَةَ ، فَإِنَّ الرَّيَّانِيَّ رَوَى خَبْرَهُ ، وَنَقَلْتُهُ أَنَا مِنْ كِتَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ أَحْمَدَ الْحَلَبِيِّ فِي «التَّذْيِيلِ عَلَى تَهْجِ الْبَلَاغَةِ» ، ، قَالَ : دَخَلَ ضِرَارٌ عَلَى معاويةَ - وَكَانَ ضِرَارٌ مِنْ صَحَابَةِ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ - فَقَالَ لَهُ معاويةُ : يَا ضِرَارُ ، صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : أَوْ تُعْفِيَنِي ! قَالَ : لَا أَغْفِيكَ ، قَالَ : مَا أَصْفَ مِنْهُ ! كَانَ <sup>(١)</sup> وَاللَّهُ شَدِيدَ الْقُوَى ، بِعِيدَ أَمَدَى ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ أَنْحَائِهِ ، وَالْحِكْمَةُ مِنْ أَرْجَائِهِ ، حَسَنَ الْمُعَاشَرَةِ ، سَهْلَ الْمُبَاشَرَةِ ، خَشِنَ الْمَأْكَلُ ، قَصِيرَ الْمَلْبَسِ ، غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يَقْلِبُ كَفَّهُ ، وَيَخَاطِبُ نَفْسَهُ ، وَكَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَا ، وَيَبْتَدِئُنَا إِذَا سَكَتْنَا ، وَنَحْنُ مَعَ تَقْرِيهِ لَنَا أَشَدُّ مَا يَكُونُ صَاحِبٌ لَصَاحِبِ هَيْبَةٍ ، لَا نَبْتَدِئُهُ الْكَلَامَ لِعَظَمَتِهِ ، يُحِبُّ الْمَسَاكِينَ ، وَيَقْرُبُ أَهْلَ الدِّينِ ، وَأَشْهَدُ لَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ . . . وَتَمَامُ الْكَلَامِ مَذْكُورٌ فِي الْكِتَابِ .

وَذَكَرَ أَبُو عَمْرٍو بْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي كِتَابِ «الْأَسْتِيعَابِ» ، ، هَذَا الْخَبَرَ ، فَقَالَ : حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنُ يُونُسَ ، قَالَ : حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ مَالِكٍ بْنُ عَائِدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا أَبُو الْحَسَنِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ مُقَلَّةَ الْبَغْدَادِيِّ بِمِصْرَ . وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَسَنِ بْنِ دُرَيْدٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا الْمُكَلِّيُّ ، عَنْ الْحَرِّ مَازِيٍّ ، عَنْ رَجُلٍ مِنْ هَمْدَانَ ، قَالَ : قَالَ معاويةُ لِضِرَارِ الضُّبَابِيِّ <sup>(٢)</sup> : يَا ضِرَارُ صِفْ لِي عَلِيًّا ، قَالَ : اَعْفِنِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ قَالَ : لَتَصِفَنَّهُ ؛ قَالَ : أَمَّا إِذَا لَابَدْتُ مِنْ وَصْفِهِ ، فَكَانَ وَاللَّهُ بِعِيدَ الْمَدَى ، شَدِيدَ الْقُوَى ، يَقُولُ فَصْلًا ، وَيَحْكُمُ عَدْلًا ، يَتَفَجَّرُ الْعِلْمُ مِنْ جَوَانِبِهِ ، وَتَنْطِقُ الْحِكْمَةُ مِنْ نَوَاحِيهِ ، يَسْتَوْحِشُ مِنَ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا ، وَيَأْنَسُ بِاللَّيْلِ وَوَحْشَتِهِ ، [ وَكَانَ ] <sup>(٣)</sup> غَزِيرَ الْعَبْرَةِ ، طَوِيلَ الْفِكْرَةِ ، يُعْجِبُهُ مِنَ اللَّبَاسِ مَا قَصُرَ ، وَمِنْ الطَّعَامِ مَا خَشِنَ . كَانَ فِينَا كَأَحَدِنَا ، يُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَا ، وَيُبْتَدِئُنَا إِذَا أَسْتَفْتَيْنَاهُ ؛ وَنَحْنُ وَاللَّهُ

(١) ب : « وَكَانَ » ، وَالصَّوَابُ مَا أَثْبَتَهُ . (٢) فِي الْأَسْتِيعَابِ : « الصَّدَائِي » .

(٣) مِنَ الْأَسْتِيعَابِ .

مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلّمه هيبةً له . يعظم أهل الدين ، ويقرب المساكين . لا يطمع القوى في باطله ، ولا يئس الضعيف من عدله ؛ وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليلُ سدوله ، وغارت نجومه ، قابضا على لحيته ، يتململ يتململ السليم<sup>(١)</sup> ، ويبكي بكاء الحزين ، ويقول : يا دُنْيا غُرِّى غَيْرى ، أبى<sup>(٢)</sup> تمرّضتِ ! أم إلى تشوّفتِ ! هيهات هيهات ! قد باينتُكِ ثلاثا لا رجعة لى فيها ، فممرّك قصير ، وخطرُك حقير ! آه من قلة الزاد ، وبُعد السفر ، ووحشة الطريق ! فبكى معاوية وقال : رَحِمَ اللهُ أباحسن ، كان والله كذلك ؛ فكيف حُزنُك عليه يا ضرار ؟ قال : حزن من ذُبح ولدها في حجرها<sup>(٣)</sup> .

(١) السليم : اللدين . (٢) الاستيعاب : « ألى » .

(٣) الاستيعاب ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، وهو أيضا في أمالي القالى ٢ : ١٤٧ .

(٧٦)

الأصل :

ومن كلامه عليه السلام للسائل الشامي لما سأله : أكان مسيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدره ؟ بعد كلام طويل هذا مختاره :

وَيَحْكُ ! أَمَلَّكَ ظَنَنْتَ قَضَاءَ لَا زِمًا ، وَقَدَرًا حَاتِمًا ! لَوْ كَانَ ذَلِكَ كَذَلِكَ ، لَبَطَلَ الثَّوَابُ وَالْإِعْقَابُ ، وَسَقَطَ الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ ؛ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ أَمَرَ عِبَادَهُ تَخْذِيرًا ، وَنَهَاهُمْ تَحْذِيرًا ، وَكَفَلَ يَسِيرًا ، وَلَمْ يُكَلِّفْ عَسِيرًا ، وَأَعْطَى عَلَى الْقَلِيلِ كَثِيرًا ، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوبًا ، وَلَمْ يُطْعَ مُكْرِهًا ، وَلَمْ يُرْسِلِ الْأَنْبِيَاءَ لَعِبًا ، وَلَمْ يُنْزِلِ الْكِتَابَ لِلْعِبَادِ عَبَثًا ، وَلَا خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ؛ ﴿ ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ .

\*\*\*

الشرح :

قد ذكر شيخنا أبو الحسين رحمه الله هذا الخبر في كتاب "الغرر" ورواه عن الأصمعي بن نُبَّاتة ، قال : قام شيخٌ إلى علي عليه السلام فقال : أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء الله وقدره ؟ فقال : والذي فلق الحبة ، وبرأ النسمة ، ما وطيننا موطنًا ، ولا هبطنا وادياً إلا بقضاء الله وقدره . فقال الشيخ ! فعند الله احتسب عناي ! ما أرى لي من الأجر شيئاً ! فقال : مه أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجرَكم في مسيركم وأنتم سائرون ، وفي مُنصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالانكم مكرهين ،

ولا إليها مضطربين . فقال الشيخ : وكيف القضاء والقدر ساقان ؟ فقال : وَيَحْك ! لَمَلِك ظننتَ قضاءَ لازماً ، وقدرًا ختماً ! لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعيد ، والوعيد ، والأمر والنهي ، ولم تأتِ لائمة من الله لمُذِيب ، ولا تحميدة لمُحْسِن ، ولم يكن المُحْسِن أُولَى بالمدح من السيء ، ولا السيء أُولَى بالذم من المُحْسِن ؛ تلك مقالة عبّاد الأوثان ، وجنود الشيطان ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها ؛ إن الله سبحانه أمر تخييراً ، ونهى تحذيراً ، وكلّف يسيراً ، ولم يُعْص مغلوباً ، ولم يُطع مُكْرِهاً ، ولم يُرسل الرسل إلى خلقه عبثاً ، ولم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ﴿ ذلك ظنّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار ﴾<sup>(١)</sup> فقال الشيخ : فما القضاء والقدر اللذان ما سِرنا إلا بهما ؟ فقال : هو الأمر من الله والحكم ، ثم تلا قوله سبحانه : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾<sup>(٢)</sup> ، فنهض الشيخُ مسروراً وهو يقول :

أنتَ الإمامُ الذي نرجو بطاعته يومَ النشورِ من الرحمنِ رضواناً  
أوضحتَ مِن دِيننا ما كان مُلتبساً جزاكَ رَبُّكَ عِنا فيه إحساناً

ذكر ذلك أبو الحسين في بيان أن القضاء والقدر قد يكون بمعنى الحكم والأمر ، وأنه من الألفاظ المشتركة .

( ٧٧ )

الأضل :

خُذِ الْحِكْمَةَ أَتَى كَانَتْ ، فَإِنَّ الْحِكْمَةَ تَكُونُ فِي صَدْرِ الْمُنَافِقِ فَتَكْجَلُجُ فِي  
صَدْرِهِ ، حَتَّى تَخْرُجَ فَتَسْكُنَ إِلَى صَوَاحِبِهَا فِي صَدْرِ الْمُؤْمِنِ .  
قَالَ الرَّضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى - وَقَدْ قَالَ عَلِيٌّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ : الْحِكْمَةُ  
ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ ، فَخُذِ الْحِكْمَةَ وَلَوْ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ .

\* \* \*

الشيخ :

خَطَبَ الْحَاجَّ فَقَالَ : إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنَا بِطَلَبِ الْآخِرَةِ ، وَكَفَانَا مِثْلَةَ الدُّنْيَا ، فَلْيَتَمَنَّأ  
كُفَيْنَا مِثْلَةَ الْآخِرَةِ ، وَأَمَرَنَا بِطَلَبِ الدُّنْيَا !  
فَسَمِعَهَا الْحَسَنُ فَقَالَ : هَذِهِ ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ خَرَجَتْ مِنْ قَلْبِ الْمُنَافِقِ .  
وَكَانَ سُيَّانُ الثَّوْرِيِّ يُمِجِبُهُ كَلَامُ أَبِي سَمُرَةَ الْخَارِجِيِّ وَيَقُولُ : ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ عَلَى لِسَانِ  
الْمُنَافِقِ . تَقْوَى اللَّهِ أَكْرَمُ مَرِيرَةٍ ، وَأَفْضَلُ ذَخِيرَةٍ ، مِنْهَا ثِقَةُ الْوَاقِعِ ، وَعَلَيْهَا مِقَّةُ الْوَاقِعِ .  
لِيَمْعَلَ كُلُّ امْرِئٍ فِي مَكَانِ نَفْسِهِ وَهُوَ رَخِيٌّ اللَّبَبُ ، طَوِيلُ السَّبَبُ ، لِيَعْرِفَ سَمَدَ  
يَدِهِ ، وَمَوْضِعَ قَدَمِهِ ، وَلِيَحْذَرَ الزَّلَلَ ، وَالْبَلَلَ الْمَانِعَةَ مِنَ الْعَمَلِ . رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا آثَرَ  
التَّقْوَى ، وَأَسْتَشْمَرَ شِمَارَهَا ، وَاجْتَنَى ثِمَارَهَا ، بَاعَ دَارَ الْبَقَاءِ بِدَارِ الْآبَادِ ، الدُّنْيَا كَرُوضَةَ  
يُونُقٍ مَرْعَاها ، وَتُعِجِبُ مِنْ رَأْيَا . تَمُجُّ عُرُوقُهَا الثَّرَى ، وَتَنْطَفِ فُرُوعُهَا بِالْثَنَدَى ، حَتَّى  
إِذَا بَلَغَ الشُّبَّ إِنَاهُ ، وَأَنْتَهَى الزُّبْرُجُ مُنْتَهَاهُ ، ضَمَفَ الْعُودُ ، وَذَوَى الْعُودُ ، وَتَوَلَّى  
مِنَ الزَّمَانِ مَا لَا يَعُودُ ؛ فَحَتَّتِ الرِّيحُ الْوَرَقَ ، وَفَرَّقَتْ مَا كَانَ اتَّسَقَ ، فَأَصْبَحَتْ هَشِيمًا ،  
وَأُمْسَتْ رَمِيمًا .

(٧٨)

الأفضل :

قِيَمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَا يُحْسِنُهُ .

قَالَ الرَّضَى رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَهَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي لَا تُصَابُ لَهَا قِيَمَةٌ ، وَلَا تُوزَنُ بِهَا حِكْمَةٌ ، وَلَا تُقَرَّنُ إِلَيْهَا كَلِمَةٌ .

\*\*\*

البُخَرِج :

قَدْ سَلَفَ لَنَا فِي فَضْلِ الْعِلْمِ أَقْوَالٌ شَافِيَةٌ ، وَنَحْنُ نَذْكُرُهَا هُنَا نُسَكِّتُهَا أُخْرَى .

يَقَالُ : إِنَّ مِنْ كَلَامِ أَرْدَشِيرِ بْنِ بَابِكٍ فِي رِسَالَتِهِ إِلَى أِبْنَاءِ الْمُلُوكِ : بِحَسْبِكُمْ دَلَالَةٌ عَلَى فَضْلِ الْعِلْمِ أَنَّهُ مَمْدُوحٌ بِكُلِّ لِسَانٍ ، يَتَزَيَّنُ بِهِ غَيْرُ أَهْلِهِ ، وَيَدْعِيهِ مِنْ لَا يُلْصِقُ بِهِ . قَالَ : وَبِحَسْبِكُمْ دَلَالَةٌ عَلَى عَيْبِ الْجَهْلِ أَنَّ كُلَّ أَحَدٍ يَلْتَفِي مِنْهُ ، وَيَنْفَضُّ أَنْ يَسْمَى بِهِ .

وَقِيلَ لِأَنُوشَرَوَانَ : مَا بِالْكُمِّ لَا تَسْتَفِيدُونَ مِنَ الْعِلْمِ شَيْئًا إِلَّا زَادَكُمْ ذَلِكَ عَلَيْهِ حِرْصًا ؟ قَالَ : لِأَنَّا لَا نَسْتَفِيدُ مِنْهُ شَيْئًا إِلَّا أَزْدَدَنَا بِهِ رِفْعَةً وَعِزًّا . وَقِيلَ لَهُ : مَا بِالْكُمِّ لَا تَأْتَفُونَ مِنَ التَّعَلُّمِ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ ؟ قَالَ : لَعَلِّمْنَا بَأَنَّ الْعِلْمَ نَافِعٌ مِنْ حَيْثُ أُخِذَ .

وَقِيلَ لِبُزْرِجَمَهْرٍ : بِمِ أَدْرَكَتَ مَا أَدْرَكَتَ مِنَ الْعِلْمِ ؟ قَالَ : يَكُونُ كَبُكُورِ الْغُرَابِ ، وَحِرْصِ كَحِرْصِ الْخَنْزِيرِ ، وَصَبْرِ كَصَبْرِ الْحِمَارِ .

وَقِيلَ لَهُ : الْعِلْمُ أَفْضَلُ أَمْ الْمَالُ ؟ فَقَالَ : الْعِلْمُ ، قِيلَ : فَمَا بَأَنَّا نَرَى أَهْلَ الْعِلْمِ عَلَى

— ٢٣١ —

أَبْوَابُ أَهْلِ الْمَالِ أَكْثَرُ مِمَّا نَرَى أَصْحَابَ الْأَمْوَالِ عَلَى أَبْوَابِ الْعُلَمَاءِ ! قَالَ : ذَاكَ أَيْضًا عَائِدٌ إِلَى الْعِلْمِ وَالْجَهْلِ ، وَإِنَّمَا كَانَ كَمَا رَأَيْتُمْ ، لَعَلَّ الْعُلَمَاءَ بِالْحَاجَةِ إِلَى الْمَالِ ، وَجَهَلِ أَصْحَابِ الْمَالِ بِفَضِيلَةِ الْعِلْمِ .

وقال الشاعر :

تَعَلَّمَ فَلَيْسَ الْمَرْءُ يُخْلَقُ عَالِمًا      وَلَيْسَ أَخُو عِلْمٍ كَمَنْ هُوَ جَاهِلٌ  
وَإِنْ كَبِيرَ الْقَوْمِ لَا عِلْمَ عِنْدَهُ      صَغِيرٌ إِذَا التَّمَّتْ عَلَيْهِ الْمَحَافِلُ

(٧٩)

الأنضل :

أَوْصِيَكُمْ بِخَمْسٍ لَوْ ضَرَبْتُمْ إِلَيْهَا آهَاطَ الْإِبِلِ لَكَانَتْ لِذَلِكَ أَهْلًا : لَا يَرْجُونَ  
أَحَدًا مِنْكُمْ إِلَّا رَبَّهُ ، وَلَا يَخَافَنَّ إِلَّا ذَنْبَهُ ، وَلَا يَسْتَحِينَ أَحَدًا مِنْكُمْ إِذَا سُئِلَ عَمَّا  
لَا يَعْلَمُ أَنْ يَقُولَ : لَا أَعْلَمُ ، وَلَا يَسْتَحِينَ أَحَدًا إِذَا لَمْ يَعْلَمْ الشَّيْءَ أَنْ يَقَعَلَمَهُ ، وَعَلَيْكُمْ  
بِالصَّبْرِ ، فَإِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ كَالرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ ، وَلَا خَيْرَ فِي جَسَدٍ لَارَأْسَ مَعَهُ ،  
وَلَا خَيْرَ فِي إِيمَانٍ لَا صَبْرَ مَعَهُ .

\*\*\*

الشَّنَح :

قد تقدّم الكلام في جميع الحكم المنطوى عليها هذا الفصل ؛ وقال أبو العتاهية :  
والله لا أرجو سوا      لك ولا أخاف سوا ذنوبي  
فلأغفر ذنوبي يا رحيم      ثم فانت ستأثر العيوب  
وكان يقال : من استعجيا من قول : « لا أدري » كان كمن يستعجيا من كشف ركبته ،  
ثم يكشف سوءته ، وذلك لأن من أمتنع من قول : « لا أدري » وأجاب بالجهل والخطأ  
فقد واقع ما يجب في الحقيقة أن يستعجيا منه ، وكف عما ليس بواجب أن يستعجيا منه ،  
فكان شبيها بما ذكرناه في الرُّكبة والمورة .  
وكان يقال : يحسن الإنسان التعمم ما دام يقبح منه الجهل ، وكما يقبح منه الجهل ما  
دام حيا كذلك يحسن به التعلم ما دام حيا .  
وأما الصبر فقد سبق فيه كلام مُقنع ، وسيأتي فيما بعد جملة من ذلك .



(٨٠)

## الأفضل

وقال عليه السّلام لرجلٍ أفرط في الثّناء عليه - وكان له مُتَمِّها : أنا دُونَ مَا تَقُولُ ،  
وفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ .

\*\*\*

## الشّرح :

قد سَبَقَ مِنَّا قولٌ مُّقْنِعٌ في كراهية مدح الإنسان في وجهه .  
وكان عمرُ جالساً وعنده الدّرةُ ، إذ أقبل الجارود العبديّ ، فقال رجل : هذا الجارود  
سيّدُ ريبة ؛ فسَمِعَها عمرُ ومن حوله ، وسَمِعَها الجارود ، فلَمَّا دنا منه خَفَقَ بالدّرةِ  
فقال : ما لي ولك يا أمير المؤمنين ! قال : ما لي ولك ! أما لقد سَمِعَها ؛ قال : وما سَمِعَها فه !  
قال : ليخالطن قلبك منها شيء ، وأنا أحبُّ أن أطأطأ منك .  
وقالت الحكماء : إنّه يحدث للممدوح في وجهه أمرانٍ مُهلِكان : أحدهما الإعجاب  
بنفسه ، والثاني إذا أثنى عليه بالدين أو العلم فترّ وقلّ اجتهدُه ، ورضى عن نفسه ،  
ونقصَ تسميرُه وجِدُّه في طلب العلم والدين ، فإنه إنما يتشمر من رأى نفسه مقصراً  
فأما مَنْ أطلقت الألسُنُ بالثناء عليه ، فإنه يظنّ أنه قد وصل وأدرك ، فيقلّ اجتهدُه ،  
ويَتَكَلَّ على ما قد حصّل له عند الناس ؛ ولهذا قال النّبيّ صلى الله عليه وسلم لمن مدّح

إنسانا كاد يسمعه : « وَيَحْك ! فطعت عُتُقَ صاحبك ، لو سمعها لما أفلح » .  
 فأمّا قوله عليه السلام له : « وفوق ما في نفسك » ، فإنه إنما أراد أن ينبّهه على أنه  
 قد عَرَفَ أنه كان يَقَعُ فيه ، وينحرف عنه ، وإنما أراد تعريفه ذلك لما رآه من المصلحة ،  
 إمّا لظنه أنه يُقلع عما كان يذمه به ، أو ليُعلمه بتعريفه أنه قد عَرَفَ ذلك ، أو ليخوفه  
 ويُزجره ، أو لغير ذلك .

(٨١)

الأفضل :

بَقِيَّةُ السَّيْفِ أُنْمَى عَدَدًا ، وَأَكْثَرُ وَلَدًا .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

قال شيخنا أبو عثمان : ليت له لما ذَكَرَ الْحَكَمَ ذَكَرَ الْعِلَّةَ !

ثم قال : قد وجدنا مصداق قوله في أولاده وأولاد الزبير وبني المهلب وأمثالهم ممن أسرع القتلُ فيهم .

وَأَتَى زِيَادٌ بامرأة من الخوارج فقال لها : أما والله لأخْصِدَنَّكُمْ حَصْدًا ، ولأفْنِيَنَّكُمْ عَدَاً ، فقالت : كَلَّا إِنَّ الْقَتْلَ لِيَزْرَعُنَا ، فلما هم بقتلها تسَّرتْ بشوْبهَا ، فقال : اهتَكُوا سِتْرَهَا لِحَاها اللهُ<sup>(١)</sup> ! فقالت : إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْتِكُ سِتْرَ أَوْلِيائِهِ ، وَلَكِنْ أَلْتَى هُتَكَ<sup>(٢)</sup> سِتْرَهَا عَلَى يَدِ ابْنِهَا سُمَيَّةَ ، فقال : عَجِّلُوا قَتْلَهَا أَبْعِدْهَا اللَّهُ ! فَقُتِلَتْ .

---

(١) لحاه الله ، أى قُبِحة واعنه . (٢) : « هتكت » .

(٨٢)

الأنبل :

مَنْ تَرَكَ قَوْلَ : « لَا أُدْرِى » أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

جاءت امرأة إلى بُزْزُجِمَهْرَ ، فسألته عن مسألة فقال : لا أدري ، فقالت : أيعطيك  
الملك كل سنة كذا وكذا وتقول : لا أدري ؛ فقال : إنما يعطينى الملك على ما أدري ،  
ولو أعطاني على ما لا أدري لما كفاني بيت ماله .

وكان يقول : قولُ « لَا أَعْلَمُ » نِصْفُ الْعِلْمِ .

وقال بعض الفضلاء : إذا قال لنا إنسانٌ : « لَا أُدْرِى » عَلَّمَنَاهُ حَتَّى يَدْرِى ، وإن قال :  
أدري ، امتحنناه حتى لا يدري .

(٨٣)

الأفضل :

رَأَى الشَّيْخُ أَحَبَّ إِلَى مِنْ جَلَدِ الْغُلَامِ .  
وَيُرَوَّى : « مِنْ مَشْهَدِ الْغُلَامِ » .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

إنما قال كذلك لأنَّ الشيخ كثيرُ التَّجربة ، فيبلغ من العَدُوِّ برأيه ما لا يبلغ بشجاعته  
الغلام الحَدَث غير المجرَّب ، لأنَّه قد يغرَّر بنفسه فيهلك ويهلك أصحابه ، ولا ريب أنَّ الرأى  
مقدَّم على الشجاعة ، ولذلك قال أبو الطَّيِّب :

الرأى قبلَ شجاعةِ الشُّجْعَانِ      هو أوَّلُ وهى المحلُّ الثاني<sup>(١)</sup>  
فإذا ما اجتمعَا لنفسٍ مرَّةٍ      بلغتُ من العُلَيَّا كلَّ مكانٍ<sup>(٢)</sup>  
ولربِّما طعنَ الفتى أقرانه      بالرأى قبلَ تطاعنِ الأقرانِ  
لولا العقولُ لكانَ أدنى ضيغمٍ      أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ  
ولما تفاضلت الرجالُ ودبرتُ      أيدي الكُماةِ عوالي المُرَّانِ

وَمِنْ وَصَايَا أَبْرَوِيزَ إِلَى ابْنِهِ شِيْرُوِيَه : لَا تَسْتَعْمَلْ عَلَى جَيْشِكَ غُلَامًا غَمْرًا تَرَفًا ،  
قَدْ كَثُرَ إِعْجَابُهُ بِنَفْسِهِ ، وَقَلَّتْ تَجَارِبُهُ فِي غَيْرِهِ ، وَلَا هَرِمًا كَبِيرًا مَدِيرًا قَدْ  
أَخَذَ الدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ ، كَمَا أَخَذَتِ السَّنُ مِنْ جِسْمِهِ ؛ وَعَلَيْكَ بِالْكُھُولِ  
دَرِي الرأى !

(١) ديوانه ٤ : ١٧٤ ، ١٧٥ (٢) النفس المرة : القوية الشديدة . من قوله تعالى « ذومرة فاستوى » .

وقال لقيط بن يعمّر الإباضي في هذا المعنى :

وقلّدوا أمركم لله دَرُّكُمْ رُخْبَ الذَّرَاعِ بأمر الحربِ مُضْطَلِعاً<sup>(١)</sup>  
 لا مُتَرَفّاً إن رَخَّاه العيش ساعده ولا إذا عَصَى مكروه به خَشَعاً<sup>(٢)</sup>  
 ما زال يحلب هذا الدهرَ أَشْطَرُهُ يكون متبِعاً طورا ومُتَّبِعاً<sup>(٣)</sup>  
 حتّى استمرّ على شَرْيرِ مَرِيرته مستحْكماً الرأى لا قَحْماً ولا ضَرِماً<sup>(٤)</sup>

(١) غنّارات ابن الشجرى ١ : ه . مضطلعا ، من الضلّاعة ؛ وهى القوة .

(٢) خشع ، أى خضع للأمر .

(٣) ابن الشجرى : « ما اتفك يحلب » :

(٤) الشز: قتل الجبل بما يلى اليسار والقحم : الشيخ الكبير السن الهم . والفرع : الرجل الضعيف .

(٨٤)

الأصل :

عَجِبْتُ لِمَنْ يَقْنَطُ وَمَعَهُ الْإِسْتِغْفَارُ .

\*\*\*

الشرح :

قالوا : الاستغفار حَوارسُ الذنوب .

وقال بعضهم : العبدُ بين ذَنْبٍ وَنِعْمَةٍ لَا يُصْلِحُهُمَا إِلَّا الشُّكْرُ وَالِاسْتِغْفَارُ .

وقال الربيع بن خثيم<sup>(١)</sup> : « لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » فَيَكُونُ ذَنْبُهُ وَكَذْبًا إِنْ لَمْ يَفْعَلْ ، وَلَكِنْ لِيَقُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ .

وقال الفضيل : الاستغفار بلا إِقْلَاعٍ<sup>(٢)</sup> تَوْبَةُ الْكَذَّابِينَ .

وقيل : مَنْ قَدَّمَ الْاسْتِغْفَارَ عَلَى النَّدَمِ ، كَانَ مُسْتَهْزَأًا بِاللَّهِ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ .

---

(١) كذا في ١ ، وفي ب : « خثيم » . (٢) الإقْلَاعُ : ترك الذنوب .

(٨٥)

الأصل :

وحكى عنه أبو جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام أنه كان عليه السلام قال :  
كان في الأرض أمانان من عذاب الله ، وقد رُفِعَ أحدهما ، فدُونَكُمْ الآخرَ  
فَتَمَسَّكُوا بِهِ ، أما الأمان الذي رُفِعَ فَهُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وأما الأمانُ  
الباقي فالاستغفار ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ  
بِعَذِّبِهِمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

قال الرضوي رحمه الله تعالى : وهذا من تحاسن الاستخراج ، ولطائف  
الاستنباط .

\*\*\*

الشرح :

قال قوم من المفسرين : ﴿ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ ، في موضع الحال : والمراد نفي الاستغفار  
عنهم ، أي لو كانوا ممن يستغفرون لما عذبهم ، وهذا مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ  
رِيئِيكَ الْقَرُيَ بَظْلَمَ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ (٢) ؛ فكأنه قال : لكنهم لا يستغفرون فلا  
انتفاء للعذاب عنهم .

وقال قوم : معناه ، وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفروهم المسلمون بين أظهرهم من  
تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) من المستضعفين (٣) .

(١) سورة الأنفال ٣٣ .

(٢) سورة هود ٧١١ . (٣ - ٣) ساقط من ١ .



ثم قال : ﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ ﴾ <sup>(١)</sup> ، أى ولأى سَبَب لا يعذبهم الله مع وجود ما يقتضى العذاب ، وهو صدّهم المسلمين والرّسول عن البيت فى عام الحديبية ! وهذا يدلّ على أنّ ترتيب القرآن ليس على ترتيب الوقائع والحوادث ، لأنّ سورة الأنفال نزلت عقيب وقعة بدرٍ فى السنّة الثانية من الهجرة ، وصدّ الرّسول صلى الله عليه وآله عن البيت كان فى السنّة السادسة ، فكيف يجعل آية نزلت فى السنّة السادسة فى سورة نزلت فى السنّة الثانية !

وفى القرآن كثيرٌ من ذلك ، وإنّما رتبّه قومٌ من الصحابة فى أيام عثمان .

---

(١) سورة الأنفال ٣٤

(٨٦)

الأصل :

مَنْ أَصْلَحَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ أَصْلَحَ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ .  
وَمَنْ أَصْلَحَ أَمْرَ آخِرَتِهِ أَصْلَحَ اللَّهُ أَمْرَ دُنْيَاهُ .  
وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ .

\*\*\*

الشرح :

مِثْلُ الْكَلِمَةِ الْأُولَى قَوْلُهُمْ : رِضَا الْمَخْلُوقِينَ عُنوانُ رِضَا الْخَالِقِ ؛ وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ : « مَا مِنْ وَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَّا أَرْضَى عَنْهُ رَعِيَّتَهُ » .

وَمِثْلُ الْكَلِمَةِ الثَّانِيَةِ دُعَاءُ بَعْضِهِمْ فِي قَوْلِهِ :

أَنَا شَاكِرُهُ أَنَا مَادِحُهُ أَنَا حَامِدُهُ أَنَا خَائِفُهُ أَنَا جَائِعُهُ أَنَا عَارِ  
هُي سَتَّةٌ وَأَنَا الضَّمِينُ بِنِصْفِهَا فَكُنِ الضَّمِينِ بِنِصْفِهَا يَا بَارِي

وَمِثْلُ الْكَلِمَةِ الثَّلَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

(٨٧)

الأصل :

أَلْفَقِيهِ كُلَّ الْفَقِيهِ مَنْ لَمْ يُقْنَطِ النَّاسَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَلَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ،  
وَلَمْ يُؤْمِنْهُمْ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ .

\*\*\*

الشَّيْخ :

قَالَ مَوْضِعٌ مِنَ الْكِتَابِ الْعَزِيزِ يَذْكُرُ فِيهِ الْوَعِيدُ إِلَّا وَيَمْزُجُهُ بِالْوَعْدِ ، مِثْلَ أَنْ يَقُولَ :  
« إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ » ثُمَّ يَقُولُ : « وَإِنَّهُ لَنَفْوَورٌ رَحِيمٌ » ، وَالْحِكْمَةُ تَقْتَضِي هَذَا لِيَكُونَ  
الْمَكْلَفُ مَتَرَدِّدًا بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ .

ويقولون في الأمثال الرموزة : لَقِيَ مُوسَى وَهُوَ ضَا حَكٌّ مُسْتَبْشِرٌ عِيسَى وَهُوَ كَالِإِخْ  
قَاطِبِ ، فَقَالَ عِيسَى : مَا لَكَ كَأَنَّكَ آمِنٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ : مَا لَكَ  
كَأَنَّكَ آيِسٌ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ ! فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِمَا : مُوسَى أَحْبَبَا إِلَى شِعَارَا ، فَإِنِّي عِنْدَ حُسْنِ  
ظَنِّ عَبْدِي بِي .

واعلم أن أصحابنا وإن قالوا بالوعيد ؛ فإنهم لا يؤيسون أحداً ولا يقنطونه من  
رحمة الله ، وإنما يحثونه على التوبة ، ويخوفونه إن مات من غير توبة ، وبحق  
ما قال شيخنا أبو الهذيل : لولا مذهب الإرجاء لما عصي الله في الأرض ؛  
وهذا لا ريب فيه ، فإن أكثر العصاة إنما يؤمّون على الرحمة ، وقد أشتهر

واستفاض بينَ الناس أنَّ الله تعالى يَرْحَمُ المذنبين ، فإنه وإن كان هُنَاكَ عِقَاب  
فَأَوْقَاتًا معدودة ، ثمَّ يخرجون إلى الجنَّة ، والنفوس تُحِبُّ الشهوات العاجلة ،  
فتَهَاوَتْ الناس على المَعَاصِي وبلوغِ الشَّهَوَاتِ والمَأْرَبِ ، معوِّلين على ذلك ،  
فلولا قولُ المَرِجَّةِ وظهورُهُ بين الناس لكان العصيانُ إمَّا معدوما ، أو قليلًا  
جِدًّا .

(٨٨)

الأضل :

أَوْضَحَ الْعِلْمَ مَا وَفَى عَلَى اللِّسَانِ ، وَأَرْفَعَهُ مَا ظَهَرَ فِي الْجَوَارِحِ وَالْأَرْكَانِ .

\*\*\*

البُخ :

هذا حقّ ، لأنّ العالمَ إذا لم يظهر من علمه إلا لقلّة لسانه من غير أن تظهر منه العبادات ، كان عالمًا ناقصًا ، فأما إذا كان يُفيدُ الناسَ بألفاظه ومنطقه ، ثم يشاهدهُ الناسُ على قَدَمٍ عَظِيمَةٍ مِنَ الْعِبَادَةِ ، فَإِنَّ النِّفْعَ يَكُونُ بِهِ عَامًّا تَامًّا ، وَذَلِكَ لِأَنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ : لَوْ لَمْ يَكُنْ يَمْتَقِدُ حَقِيقَةَ مَا يَقُولُهُ ، لَمَا أَذَّابَ نَفْسَهُ هَذَا الدَّاءُ .

وَأَمَّا الْأَوَّلُ فَيَقُولُونَ فِيهِ : كُلُّ مَا يَقُولُهُ نِفَاقٌ وَبَاطِلٌ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ يَمْتَقِدُ حَقِيقَةَ<sup>(١)</sup> مَا يَقُولُ لَأَخَذَ بِهِ ، وَلَظَهَرَ ذَلِكَ فِي حَرَكَاتِهِ ، فَيَقْتَدُونَ بِفِعْلِهِ لَا بِقَوْلِهِ ، فَلَا يَسْتَعْمِلُ<sup>(٢)</sup> أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْعِبَادَةِ وَلَا يَهْتَمُّ بِهَا .

---

(١) د : « أَحْقِيقَةُ » . (٢) ا : « يَشْتَغِلُونَ » .

(٨٩)

الأصل :

إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ .

\*\*\*

الشرح :

لو قال : إِنَّهَا تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَأَحْضُوا <sup>(١)</sup> كما نقل عن غيره لمجل ذلك على أنه أراد نقلها إلى الفكاهات والأخبار والأشعار ، ولكنه لم يقل ذلك ، ولكن قال : « فَابْتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحِكْمَةِ » ، فَوَجَبَ أَنْ يُحْمَلَ كَلَامُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى أَنَّهُ أَرَادَ أَنَّ الْقُلُوبَ تَمَلُّ مِنَ الْأَنْظَارِ الْعَقْلِيَّةِ ، فِي الْبَرَاهِينِ الْكَلَامِيَّةِ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْعَدْلِ ، فَابْتَغُوا لَهَا عِنْدَ مَلَاحِظَةِ طَرَائِفِ الْحِكْمَةِ ، أَيْ الْأَمْثَالِ الْحُكْمِيَّةِ الرَّاجِعَةِ إِلَى الْحِكْمَةِ الْخَلْقِيَّةِ ، كَمَا نَحْنُ ذَاكِرُوهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ فُصُولِ هَذَا الْبَابِ ، مِثْلَ مَدْحِ الصَّبْرِ ، وَالشَّجَاعَةِ ، وَالزَّهْدِ ، وَالْعِفَّةِ ، وَذَمِّ الْغَضَبِ ، وَالشَّهْوَةِ ، وَالْهَوَى ، وَمَا يَرْجِعُ إِلَى سِيَاسَةِ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ ، وَوَلَدَهُ ، وَمَنْزِلَهُ ، وَصَدِيقَهُ ، وَسُلْطَانَهُ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ فَإِنَّ هَذَا عِلْمٌ آخَرٌ وَفَنٌّ آخَرٌ ، لَا تَحْتَاجُ الْقُلُوبَ فِيهِ إِلَى فِكْرٍ وَأَسْتِنْبَاطٍ ، فَتَتَعَبَ وَتَكِلَّ بِتَرَادُفِ النَّظَرِ وَالتَّأَمُّلِ عَلَيْهَا ، وَفِيهِ أَيْضًا لَذَّةٌ عَظِيمَةٌ لِلنَّفْسِ .

وقد جاء في إجماع النفس كثيرٌ .

قال بعضهم : رَوَّحُوا الْقُلُوبَ بِرَوَاتِعِ <sup>(٢)</sup> الذِّكْرِ .

(١) يقال : أَحْضَى الْقَوْمَ لِمَا حَاضَا ؛ إِذَا أَفَاضُوا فِيهَا يُؤْلِسُهُمْ مِنَ الْحَدِيثِ وَالْكَلَامِ ، كَمَا يُقَالُ : فَكَّهُ وَمَتَفَكَّهُ .

(٢) د : « تَمَى » .

وعن سلمان الفارسيّ : أنا أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي .  
وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : إنّ نفسي راحِلتي ، إنّ كلّفتُها فوقَ طاقتها انقطعتُ بي .  
وقال بعضهم : روّحوا الأذهان ، كما تروّحوا الأبدان .  
وقال أردشيرُ بنُ بابك : إنّ للأذانَ بَجّةً ، وللقلوبَ مَلّةً ؛ ففرّقوا بين الحكّمتين<sup>(١)</sup>  
بلهْوٍ يَكُنْ ذلك استِجْماماً .

---

(١) د : « الحكّمين » .

(٩٠)

### الأضل :

لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْفِتْنَةِ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى فِتْنَةٍ وَلَكِنْ مَنْ اسْتَعَاذَ فَلَيْسَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ . وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يَخْتَبِرُ عِبَادَهُ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ لِيَتَبَيَّنَ السَّاخِطَ لِرِزْقِهِ ، وَالرَّاضِيَ بِقَسَمِهِ ، وَإِنْ كَانَ سُبْحَانَهُ أَعْلَمَ بِهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ ، وَلَكِنْ لِيَتَّظَهَرَ الْأَفْعَالُ الَّتِي يَتَّبِعُهَا الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ ، لِأَنَّ بَعْضَهُمْ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيَسْكُرُهُ الْإِنَاثَ ، وَبَعْضُهُمْ يُحِبُّ تَثْمِيرَ الْمَالِ ، وَيَسْكُرُهُ انْتِلَامَ الْحَالِ .

قَالَ الرَّضِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : وَهَذَا مِنْ غَرِيبٍ مَا سَمِعَ مِنْهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي التَّفْسِيرِ .

\*\*\*

### الشنخ :

الفتنة لفظٌ مشترك ؛ فتارةً تُطْلَقُ عَلَى الْجَائِحَةِ وَالْبَلِيَّةِ تَصِيبُ الْإِنْسَانَ ، تَقُولُ : قَدْ افْتَنَ زَيْدٌ وَفَتْنٌ فَهُوَ مَفْتُونٌ إِذَا أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَذَهَبَ مَالُهُ أَوْ عَقْلُهُ ، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ يَعْنِي الَّذِينَ عَذَّبُوهُمْ بِمَكَّةٍ لِيَرْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ ، وَتَارَةً تُطْلَقُ عَلَى الْاِخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ ، يُقَالُ : فَتَنْتُ الذَّهَبَ إِذَا أَدْخَلْتَهُ النَّارَ لِنَظَرِ مَا جَوَدَتْهُ ، وَدِينَارٌ مَفْتُونٌ ، وَتَارَةً تُطْلَقُ عَلَى الْإِحْرَاقِ ؛ قَالَ تَعَالَى :

(١) سورة البروج ١٠ .



﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾<sup>(١)</sup> وَوَرِقَ مَفْتُون ، أَى فِضَّةٌ مُحَرَّقَةٌ ، وَيَقَالُ لِلْحَرَّةِ :  
فَتَيْنِ كَأَنَّ حِجَارَتَهَا مُحَرَّقَةٌ ، وَتَارَةً تُطْلَقُ عَلَى الضَّلَالِ ، يَقَالُ رَجُلٌ فَاتِنٌ وَمُفْتِنٌ ،  
أَى مُضِلٌّ عَنِ الْحَقِّ جَاءَ ثَلَاثِيًا وَرُبَاعِيًا ؛ قَالَ تَعَالَى : ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ \* إِلَّا مَنْ  
هُوَ صَالٍ الْجَحِيمِ﴾<sup>(٢)</sup> أَى بِمُضِلِّينَ ، وَقَرَأَ قَوْمٌ «مَفْتَبِينَ» ، فَمَنْ قَالَ . إِنِّى أَعُوذُ بِكَ  
مِنَ الْفِتْنَةِ ، وَأَرَادَ الْجَائِئَةَ ، أَوِ الْإِحْرَاقَ أَوِ الضَّلَالَ ، فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ ، وَإِنْ أَرَادَ الْإِخْتِبَارَ  
وَالْإِمْتِحَانَ فَغَيْرُ جَائِزٍ ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْلَمُ بِالصَّلَاحَةِ ، وَلَهُ أَنْ يَخْتَبِرَ عِبَادَهُ لَا لِيَعْلَمَ  
حَالَهُمْ ، بَلْ لِيَعْلَمَ بَعْضُ عِبَادِهِ حَالَ بَعْضٍ ، وَعِنْدَى أَنْ أَصْلَ اللَّفْظَةِ هُوَ الْإِخْتِبَارُ وَالْإِمْتِحَانُ ،  
وَأَنَّ الْإِعْتِبَارَاتِ الْآخَرَى رَاجِعَةٌ إِلَيْهَا ، وَإِذَا تَأَمَّلْتَ عَلِمْتَ صِحَّةَ مَا ذَكَرْنَاهُ .

---

(١) سورة الذاريات ١٣ . (٢) سورة الصافات ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٩١)

### الأصل :

وسُئِلَ عنِ الْخَيْرِ مَا هُوَ ؟  
فَقَالَ : لَيْسَ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ مَالُكَ وَوَلَدُكَ ، وَلَكِنَّ الْخَيْرُ أَنْ يَكْثُرَ عِلْمُكَ ،  
وَأَنْ يَعْظُمَ حِلْمُكَ ، وَأَنْ تُبَاهِيَ النَّاسَ بِمِبادَةِ رَبِّكَ ، فَإِنْ أَحْسَنْتَ سَمِعَتَ اللَّهَ ، وَإِنْ  
أَسَأْتَ اسْتَمَفَرَّتْ اللَّهَ . وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا إِلَّا لِلرَّجُلَيْنِ : رَجُلٌ أَذْنَبَ ذُنُوبًا فَهُوَ  
يَتَدَارَكُهَا بِالتَّوْبَةِ ، وَرَجُلٌ يُسَارِعُ فِي الْخَيْرَاتِ ؛ وَلَا يَقِلُّ عَمَلُهُ مَعَ التَّقْوَى ، وَكَيْفَ  
يَقِلُّ مَا يُتَقَبَّلُ !

\*\*\*

### الشرح :

قد قال الشاعر لهذا المعنى :

ليس السعيدُ الذي دُنِيَاه تُسَعِدُهُ بل السعيد الذي يَنْجُو من النارِ  
قوله عليه السلام : « وَلَا يَقِلُّ عَمَلُهُ مَعَ التَّقْوَى » ، أى مع اجتناب الكبائر ، لأنه لو  
كان مَوْقِعًا لِكَبِيرَةٍ لَمَا تُقْبَلُ منه عَمَلٌ أَصْلًا على قول أصحابنا ، فوجب أن يكون المراد بالتقوى  
اجتناب الكبائر ؛ فأما مذهبُ الرَجْئَةِ فإنهم يحملون التقوى ها هنا على الإسلام ، لأنَّ  
المسلم عندهم تتَقَبَّلُ أعماله ، وإن كان مَوْقِعًا لَلْكَبَائِرِ .

فإن قلت : فهل يجوز حملُ لفظة « التقوى » على حقيقةِها ، وهى الخوف ؟  
قلت : لا . أما على مذهبنا فلأن من يخافُ الله ويوافق الكبائرَ لا تتقبل أعماله ،

— ٢٥١ —

وأما مذهب المرجئة فلأن من يخاف الله من مخالفي ملة الإسلام لا تتقبل أعماله ،  
فثبت أنه لا يجوز حمل التقوى ها هنا على الخوف .  
فإن قلت : مَنْ هو مخالف لملة الإسلام لا يخاف الله لأنه لا يعرفه .  
قلت : لا نسلم ، بل يجوز أن يعرف الله بذاته وصفاته ، كما نعرفه نحن ، ويجحد النبوة  
لشبهة وقعت له فيها ، فلا يلزم من جحد النبوة عدم معرفة الله تعالى .

(٩٢)

الأضل :

إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِالْأَنْبِيَاءِ أَعْلَمُهُمْ بِمَا جَاءُوا بِهِ ، ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾ الآية .  
ثُمَّ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ وَإِنْ بَمَدَّتْ لِحْمَتُهُ ، وَإِنْ عَدُوَّ مُحَمَّدٍ مَنْ عَصَى اللَّهَ وَإِنْ قَرُبَتْ قَرَابَتُهُ .

\*\*\*

الشرح :

هكذا الرواية « أعلمهم » ، والصحيح « أعلمهم » ، لأن استدلاله بالآية يقتضي ذلك ، وكذا قوله فيما بعد . « إِنَّ وَلِيَّ مُحَمَّدٍ مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ . . . » إلى آخر الفصل ، فلم يذكر العلم ، وإنما ذكر العمل . واللحمة بالضم : النسب والقربة ، وهذا مثل الحديث المرفوع : « اتقوني بأعمالكم ، ولا تأتوني بأنسابكم ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ » ؛ وفي الحديث الصحيح : « يَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ ، إِنْ لَا أُنْغِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » .

وقال رجل لجعفر بن محمد عليه السلام : رأيت قوله صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ فَاطِمَةَ أَحْصَتْ فَرْجَهَا فُحْرَمَ اللَّهُ ذُرِّيَّتَهَا عَلَى النَّارِ » ، أليس هذا أمانا لكل فاطمي في الدنيا ؟ فقال : إِنَّكَ لِأَحَقُّ ، إِنَّمَا أَرَادَ حَسَنًا وَحُسَيْنًا ، لَأَنَّهُمَا مِنْ لَحْمَةِ أَهْلِ الْبَيْتِ ، فَأَمَّا مَنْ عَادَاهَا فَمَنْ قَعَدَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يَنْهَضْ بِهِ نَسَبُهُ .

(٩٣)

الأفضل :

وَسَمِعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ رَجُلًا مِنَ الْحَرُورِيَّةِ يَتَمَجَّدُ وَيَقْرَأُ ، فَقَالَ :  
نَوْمٌ عَلَى يَقِينٍ ، خَيْرٌ مِنْ صَلَاةٍ عَلَى شَكٍّ .

\*\*\*

الشرح :

هذا نهى عن التمرّض للعبادة مع الجهل بالمعبود ، كما يصنع اليوم كثير من الناس ،  
ويظنون أنهم خير الناس ، والعقلاء الألباء من الناس يضحكون منهم ، ويستهزئون بهم ،  
والحرورية : الخوارج ، وقد سبق القول فيهم . وفي نسبهم إلى حروراء<sup>(١)</sup> .  
يقول عليه السلام : ترك التنفل بالعبادات مع سلامة العقيدة الأصلية ، خير من  
الاشتغال بالنوافل وأوراد الصلاة مع عدم العلم ؛ وهو المعنى بقوله : « في شك » ،  
فإذا كان عدم التنفل خيرا من التنفل مع الشك فهو مع الجهل المحض - وهو الاعتقاد الفاسد -  
أولى بأن يكون .

---

(١) حروراء : قرية بظاهر الكوفة ، نزل بها الخوارج الذين خالفوا على بن أبي طالب ؛ وبها كان  
أول تحكيمهم واجتماعهم حين خالفوا عليه .

(٩٤)

الأصل :

اغفلوا الخبرَ إِذَا سَمِعْتُمُوهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ لَا عَقْلَ رِوَايَةٍ ، فَإِنَّ رُؤَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرَةٌ ،  
وَرُعَاةَهُ قَلِيلَةٌ .

\*\*\*

الشرح :

نُهاهم عليه السلام عن أن يقتصروا إِذَا سَمِعُوا مِنْهُ أَوْ مِنْ غَيْرِهِ أَطْرَافاً<sup>(١)</sup> مِنَ الْعِلْمِ  
وَالْحِكْمَةِ ، عَلَى أَنْ يَرَوْا ذَلِكَ رِوَايَةً كَمَا يَفْعَلُهُ الْيَوْمَ الْمُحَدِّثُونَ ، وَكَمَا يَقْرَأُ أَكْثَرُ النَّاسِ  
الْقُرْآنَ دِرَاسَةً وَلَا يَدْرِي مِنْ مَعَانِيهِ إِلَّا الْيَسِيرَ .

وَأَمْرَهُمْ أَنْ يَعْقِلُوا مَا يَسْمَعُونَهُ عَقْلَ رِعَايَةٍ أَى مَعْرِفَةٍ وَفَهْمٍ .

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ : « إِنَّ رُؤَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ، وَرُعَاةَهُ قَلِيلٌ » ، أَى مِنْ يُرَاعِيهِ وَيَتَدَبَّرُهُ ؛  
وَصَدَّقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ !

---

(١) : « طرفاً » .

وقال مطرف بن الشَّخِير : ما سمعتُ من ثناء أحدٍ عليّ ، أو مدحةٍ أحدٍ لي ، إلّا وتضاغرتُ  
إلى نفسي . وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحد سَمِع ثناءً أحدٍ عليه إلّا وتراءى له  
شيطان ، ولكنّ المؤمن يراجع .

فلَمَّا ذُكِرَ كلامُهما لابن المبارك قال : صدَقا ؛ أمّا قول زياد فتلك قُلُوبُ العوامِّ ،  
وأمّا قول مطرف فتلك قلوب الخواصِّ .

(٩٦)

الأضل :

وقال عليه السلام ومدحه قوم في وجهه :

اللَّهُمَّ إِنَّكَ أَعْلَمُ بِي مِنْ نَفْسِي ، وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ . اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي خَيْرًا  
مِمَّا يَظُنُّونَ ، وَاعْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ !

\*\*\*

الشنخ :

قد تقدّم القول في كراهية مدح الإنسان في وجهه . وفي الحديث المرفوع : « إذا  
مدحت أخاك في وجهه ، فكأنما أمررت على حلقه موسى وميضة » .  
وقال أيضا لرجل مدح رجلا في وجهه : « عقرت الرجل عقرك الله ! » .  
وقال أيضا : « لو مشى رجل إلى رجل بسيف مرهف كان خيرا له من أن يُثبني عليه  
في وجهه » .

ومن كلام عمر : المدح هو الذبح ؛ قالوا : لأنّ المذبح ينقطع عن الحركة والأعمال ،  
وكذلك الممدوح يفتر عن العمل .

ويقول : قد حصل في القلوب والنفوس ما استغنى به عن الحركة والجد .  
ومن أمثال الفلاحين : إذا طار لك صيْتُ بين الحصادة ، فاكسر منجلك .



وقال مطرف بن الشَّخِير : ما سمعتُ من ثناء أحدٍ عليّ ، أو مدحةٍ أحدٍ لي ، إلّا وتصاغرتُ  
إليّ نفسي . وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحد سَمِع ثناءً أحدٍ عليه إلّا وتراءى له  
شيطان ، ولكنّ المؤمن يراجع .

فلما ذُكر كلامُهما لابن المبارك قال : صدَقا ؛ أمّا قول زياد فتلك قلوبُ العوامّ ،  
وأمّا قول مطرف فتلك قلوبُ الخواصّ .

(٩٧)

الأصل :

وقال عليه السلام :

لَا يَسْتَقِيمُ قَضَاءُ الْحَوَائِجِ إِلَّا بِثَلَاثٍ : بِاسْتِصْفَاءِهَا لِتَعَظُمَ ، وَبِاسْتِكْتَامِهَا لِتَظَهَرَ ، وَبِتَعْجِيلِهَا لِتَهْنَأَ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدّم لنا قول المستقصى في هذا النحو ، وفي الحوائج وقضائها واستنجاحها .  
وقد جاء في الحديث المرفوع : « استمعينوا على حاجاتكم بالكتمان ، فإن كل ذي نعمة محسود » .

وقال خالد بن صفوان : لا تطلبوا الحوائج في غير حينها ، ولا تطلبوها إلى غير أهلها ، ولا تطلبوا ما لستم له بأهل فتكونوا للمنع خلقاء .

وكان يقال : لكل شيء أس ، وأس الحاجة تعجيل أرواح من التأخير .

وقال رجل لمحمد بن الحنفية : جئتك في حويجة ، قال : فاطلب لها رجلاً !

وقال شبيب بن شبة بن عقال : أمران لا يجتمعان إلا وجب النجس ، وهما العاقل لا يسأل إلا ما يجوز ، والعاقل لا يرُدُّ سائله عما يمكن .

وكان يقال : من استعظم حاجة أخيه إليه بدم قضائها امتناناً بها فقد استصغر نفسه .

وقال أبو تمام في المَطل<sup>(١)</sup> :

وكان المَطل في بدء وعودِ      دُخاناً للصَّنيعة وهي نارُ<sup>(٢)</sup>  
 نسيبَ البُخل مُذْ كُنا وإلا      يكنُ نَسَبُ فبينهما جوارُ  
 لذلك قيل : بعضُ المنع أدنى      إلى جودِ ، وبعضُ الجودِ عارُ

---

(١) ديوانه ٢ : ١٥٩ — بشرح التبريزي

(٢) قال شارح ديوانه : « أى يتأذى بالمطل كما يتأذى بالدخان ؛ فكما أن المحمود من النار أن تخلص من الدخان ؛ كذلك المحمود من العطاء خلوصه من المطل » .

(٩٨)

الأضل :

يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يُقَرَّبُ فِيهِ إِلَّا الْمَاحِلُ ، وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ ،  
وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ ؛ يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ فِيهِ غُرْمًا ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ مَنًّا ،  
وَالْعِبَادَةَ اسْتِطَالَةً عَلَى النَّاسِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَكُونُ السُّلْطَانُ بِمَشُورَةِ الْإِمَاءِ ، وَإِمَارَةِ  
الصَّبِيَّانِ ، وَتَدْيِيرِ الْخَصِيَّانِ .

\*\*\*

الشُّرُخ :

الْحِلُّ : الْمَكْرُ وَالْكَيْدُ ؛ يُقَالُ حَلَّ بِهِ إِذَا سَمِيَ بِهِ إِلَى السُّلْطَانِ ، فَهُوَ مَاحِلٌ وَمَحُولٌ ؛  
وَالْمَاحِلَةُ : الْمَآكِرَةُ وَالْمَكَايِدَةُ .

قوله : « وَلَا يُظَرَّفُ فِيهِ إِلَّا الْفَاجِرُ » ، لَا يَعُدُّ النَّاسُ الْإِنْسَانَ ظَرِيفًا إِلَّا إِذَا كَانَ  
خَلِيعًا مَاجِنًا مَتَظَاهِرًا بِالْفِسْقِ .

وقوله : « وَلَا يُضَعَّفُ فِيهِ إِلَّا الْمُنْصِفُ » ، أَيْ إِذَا رَأَوْا إِنْسَانًا عِنْدَهُ وَرَعَ وَإِنْسَافٌ  
فِي مَعَامَلَتِهِ النَّاسَ عَدُوَّهُ ضَعِيفًا ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الرُّكَّةِ وَالرَّخَاوَةِ ، وَلَيْسَ الشَّهْمُ عِنْدَهُمْ  
إِلَّا الظَّالِمُ .

ثم قال : « يَعُدُّونَ الصَّدَقَةَ غُرْمًا » ، أَيْ خُسَارَةً<sup>(١)</sup> ، وَيَمْنُونُ إِذَا وَصَلُوا الرَّحِمَ

(١) : « غُرْمًا وَخُسَارَةً » .

— ٢٦١ —

وإذا كانوا ذوى عِبادَة استَطالوا بها على الناس وتَجَّحوا بها ، وأعجبتهم أنفسهم ، واحتقروا غيرهم .

قال : فعند ذلك يكون السلطان والحكم بين الرعايا بمشورة الإماء . . . إلى آخر الفصل ، وهو من باب الإخبار عن الغيوب وهي إحدى آياته ، والمعجزات المختص بها دون الصحابة .

(٩٩)

الأضل :

وقال عليه السلام :

وَقَدْ رُئِيَ عَلَيْهِ إِذَا رُحِّلَ مَرْقُوعٌ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ :  
يَخْشَعُ لَهُ الْقَلْبُ ، وَتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ ، وَيَقْتَدِي بِهِ الْمُؤْمِنُونَ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدم القول في هذا الباب ، وذكرنا أن الحكماء والعارفين فيه على قسمين :  
منهم من أثر لبس الأذن على الأعلى ، ومنهم من عكس الحال ، وكان عمر بن الخطاب  
من أصحاب المذهب الأول ، وكذلك أمير المؤمنين ، وهو شعار عيسى بن مريم  
عليه السلام ، كان يلبس الصوف وغيلظ الثياب ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يلبس النوعين جميعاً ، وأكثر لبسه كان الجيد من الثياب مثل أبرد البين ، وما شاكل  
ذلك ، وكانت ملحفته موروثة<sup>(١)</sup> حتى إنها لتردع<sup>(٢)</sup> على جلده كما جاء في الحديث .  
ورئي محمد بن الحنفية عليه السلام واقفا بعرفات على برذون أصفر ، وعليه مطرف خز  
أصفر ، وجاء فرقد السبخي<sup>(٣)</sup> إلى الحسن وعلى الحسن مطرف خز ، فجعل ينظر إليه  
وعلى فرقد ثياب صوف ، فقال الحسن : ما بالك تنظر إلى وعلى ثياب أهل الجنة ،

(١) موروثة ، أى مصبوغة بالورس ؛ وهو نبت أصفر يكون بالبين ، تصبغ به الثياب .

(٢) في اللسان عن ابن عباس : « لم ينه عن شيء من الأردية إلا عن المزعفرة التي تردع على الجلد »  
قال : أى تنفض صبغها عليه ، وثوب رديع ؛ مصبوغ بالزعفران .

(٣) ب : « السنجي » ، والصواب مأثبه ، منسوب إلى السبخة ، موضع بالبصرة ، ذكره ياقوت ؛  
وذكر بنسبة فرقد إليه .

وعليك ثيابُ أهلِ النار ! إن أحدكم ليَجْمَلُ الزَّهْدَ في ثيابه والكِبَرَ في صدره ، فلمْهُوَ أشدَّ عجباً بصوفه من صاحبِ المُطَرَف .

وقال ابنُ السَّمَّاك لأصحاب الصَّوف : إن كان لباسُكم هذا موافقاً لسرائركم فلقد أحببتم أن يطلع الناسُ عليها ، ولئن كان مخالفاً لها لقد هكَّكم .

وكان عمر بن عبد العزيز على قاعدة عمر بن الخطاب في ملبوسه ، وكان قَبَلَ الخلافة يلبس الثياب الثمينة جداً ، كان يقول : لقد خِفْتُ أن يَعْجَزَ ما قَسَمَ الله لي من الرِّزْقِ عمّا أريده من الكسوة ، وما لبستُ ثوباً جديداً قطّ إلّا وخُيِّلَ لي حين يراه الناسُ أنه سَمِلُهُ أو بالٍ ، فلما ولى الخلافة تَرَكَ ذلك كلّهُ .

وروى سعيدُ بنُ سُويد ؛ قال : صلّى بنا عمرُ بنُ عبد العزيز الجمعة ، ثمّ جلس وعليه قميص مرقوع الجُيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : إنَّ الله أعطاك يا أمير المؤمنين ؛ فلو لبستَ ؛ فنكسَ مَلْيَا ثم رفع رأسه فقال : إنَّ أفضلَ الفصد ما كان عند الجِدَّة ، وأفضلُ العفو ما كان عند المقدرة .

وروى عاصمُ بن مَعْدلة : كنت أرى عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة فأعجب من حُسن لونه وجودة ثيابه وبزّته ، ثم دخات عليه بعد أن ولى ، وإذا هو قد احترق واسودَّ ولصقَ جِلْدُهُ بِعَظْمِهِ ؛ حتى ليس بين الجلد والعظم لحم ، وإذا عليه قلنسوة بيضاء قد اجتمع قطنها ويعلم أنها قد غسلتْ ، وعليه سَحَقٌ<sup>(١)</sup> أنبجانية قد خرج سدّاها ، وهو على شاذ كونة<sup>(٢)</sup> ؛ قد لصقت بالأرض تحت الشاذ كونة عباءة قَطَوَانِيَّة<sup>(٣)</sup> من مُشاقّة الصوف ، وعنده رجل يتكلم ، فرفع صَوْتَهُ ، فقال له عمر : اخفِض قليلاً من صوتك ، فإنما يكنى الرجل من الكلام قدر ما يُسمعُ صاحبه .

وروى عبيد بن يعقوب أن عمر بن عبد العزيز كان يلبس الفَرَّو الغليظ من الثياب ، وكان سِراجهُ على ثلاث قَصَبات فوقَين طين .

(١) جمع سحَق ؛ وهو الثوب البالي . (٢) الشاذ كونة : ثياب غلاط تعمل باليمن .

(٣) قَطَوَانِيَّة : منسوبة إلى قَطَوَان ، موضع بالكوفة .

(١٠٠)

### الأصل :

إِنَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِدْوَانٍ مُتَفَاوِتَانِ ، وَسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ ، فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وَتَوَلَّىهَا أَبْغَضَ الْآخِرَةَ وَعَادَاهَا ، وَهُمَا يَمْزِلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا شِ بَيْنَهُمَا ، كُلُّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الْآخَرِ ، وَهُمَا بِمَدْحَرَّانِ .

\*\*\*

### الشرح :

هذا الفصل بَيَّنَّ في نفسه لا يحتاج إلى شرح ، وذلك لأنَّ عَمَل كلِّ واحد من الدارين مُضَادٌّ لِعَمَلِ الأخرى ، فَعَمَل هذه : الاكتساب ، والاضطراب<sup>(١)</sup> في الرزق ، والاهتمام بأمر المعاش ، والولد والزوجة ، وما ناسبَ ذلك . وعمل هذه : قَطْعُ العلائق ، ورفض الشهوات ، والانتصاب للعبادة ، وصَرْفُ الوجه عن كلِّ ما يصدِّ عن ذِكْرِ اللَّهِ تعالى ؛ ومعلومٌ أن هذين العملين متضادَّان ، فلا جَرَمَ كانت الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ضَرَّتَيْنِ لا يجتمعان !

---

(١) ١ : «والضرب في سبيل الرزق» .



(١٠١)

الأضل :

وَعَنْ نَوْفٍ الْبَكَايَ - وَقِيلَ الْبَكَايَ بِاللَّامِ ؛ وَهُوَ الْأَصَحُّ - قَالَ :  
رَأَيْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ فِرَاشِهِ فَنَظَرَ إِلَى  
النَّجُومِ ، فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، أَرَأَيْدِ أَنْتَ أُمُّ رَامِقٍ ؟ قُلْتُ : بَلِ رَامِقٌ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛  
فَقَالَ : يَا نَوْفُ ، طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا ، الرَّاعِيَيْنِ فِي الْآخِرَةِ ! أُولَئِكَ قَوْمٌ  
اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بَسَاطًا ، وَتَرَابَهَا فِرَاشًا ، وَمَاءَهَا طَبِيبًا ، وَالْقُرْآنَ شِعَارًا ، وَالِدُعَاءَ  
دِيَارًا ، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ . يَا نَوْفُ ، إِنَّ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ  
قَامَ فِي مِثْلِ هَذِهِ السَّاعَةِ مِنَ اللَّيْلِ ، فَقَالَ : إِنَّهَا لَسَاعَةٌ لَا يَدْعُو فِيهَا عَبْدٌ إِلَّا  
اسْتُجِيبَ لَهُ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَسَارًا ، أَوْ عَرِيفًا ، أَوْ شُرْطِيًّا ، أَوْ صَاحِبَ عَرْطَبَةٍ  
- وَهِيَ الطَّنْبُورُ - أَوْ صَاحِبَ كُوبَةٍ ، وَهِيَ الطَّبْلُ .  
وَقَدْ قِيلَ أَيْضًا : إِنَّ الْعَرْطَبَةَ الطَّبْلُ ، وَالْكُوبَةُ الطَّنْبُورُ .

\*\*\*

الشيخ :

قال صاحبُ الصِّحَاحِ : نَوْفُ الْبَكَايَ كَانَ صَاحِبَ عَلَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .  
وقال ثعلب : هو منسوبٌ إلى قبيلة تُدْعَى بَكَاةً ، ولم يذكر من أَىِّ العرب هي ،  
والظاهر أَنَّهَا مِنَ الْيَمَنِ ، وَأَمَّا بَكِيلٌ فَمِنْ هَمدَانِ ، وَإِلَيْهِمْ أَشَارَ الْكَمَامِتُ بِقَوْلِهِ :  
\* فَقَدْ شَرَكْتُ فِيهِ بِكِيلٍ وَأَرْحَبُ \* (١)

\* يَقُولُونَ لَمْ يُورَثْ وَلَوْلَا نُرَاتُهُ \* (١) صدره :

فَأَمَّا الْبَكَالِيُّ فِي نَسَبِ نَوْفٍ فَلَا أَعْرِفُهُ .

قوله : أم رَامِق ، أى أم مستَيْقِظٌ تَرْمُقُ السَّمَاءَ وَالنَّجْمَ بِبَصَرِهِ .

قوله : قَرَضُوا الدُّنْيَا ، أى تَرَكَوْهَا وَخَلَّفُوهَا وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا

غَرَبَتِ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ ﴾ (١) أى تَرَكَهُمْ وَتُخَلِّفُهُمْ شَمَالًا ، وَيَقُولُ الرَّجُلُ لِمَالِكِهِ :

هَلْ مَرَرْتَ بِمَكَانٍ كَذَا ، يَقُولُ : نَعَمْ قَرَضْتَهُ لَيْلًا ذَاتَ الْيَمِينِ ، وَأَنْشَدَ لَذِي الرِّمَّةِ :

إِلَى طُغْنٍ يَقْرِضُنْ أَجْوَاثَ مَشْرِفٍ شَمَالًا وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْفَوَارِسُ (٢)

قَالُوا : مَشْرِفٌ وَالْفَوَارِسُ : مَوْضِعَان ، يَقُولُ : نَظَرْتُ إِلَى طُغْنٍ يَجُوزُ بَيْنَ هَذَيْنِ

الْمَوْضِعَيْنِ .

(١) سُورَةُ الْكَهْفِ ١٧ . (٢) الصَّحَاحُ (قَرَضَ) .

(١٠٢)

### الأضل :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْكُمْ فَرَائِضَ فَلَا تُضَيِّعُوهَا ، وَحَدَّ لَكُمْ حُدُودًا فَلَا تَعْتَدُوهَا ، وَنَهَى كُمْ عَنْ أَشْيَاءَ فَلَا تَنْتَهِكُوهَا ، وَسَكَتَ لَكُمْ عَنْ أَشْيَاءَ وَلَمْ يَدْعُمْ نِسْيَانًا فَلَا تَتَكَلَّفُوهَا .

\*\*\*

### الشُّنْحُ :

قال الله تعالى : ﴿ لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ (١) .

وجاء في الأثر : أبهموا ما أبهم الله .

وقال بعضُ الصالحين لبعض الفقهاء : لِمَ تَفْرَضُ مَسَائِلَ لَمْ تَقَعْ وَأَتَعَبْتَ فِيهَا فِكْرَكَ ! حَسْبُكَ بِالْمُتَدَاوِلِ بَيْنَ النَّاسِ .

قالوا : هذا مِثْلُ قَوْلِهِمْ فِي بَابِ الْمَسْحِ عَلَى الْخَفِيِّينَ : فَإِنْ مَسَحَ عَلَى خَفٍّ مِنْ زُجَاجٍ ؛ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِنَ النَّوَادِرِ الْغَرِيبَةِ .

وقال شريك في أبي حنيفة : أَجْهَلُ النَّاسِ بِمَا كَانَ ، وَأَعْلَمُهُمْ بِمَا لَمْ يَكُنْ .

وقال عمر : لَا تَتَنَازَعُوا فِي مَا لَمْ يَكُنْ فَتَخْتَلَفُوا ، فَإِنَّ الْأَمْرَ إِذَا كَانَ أَعَانَ اللَّهَ عَلَيْهِ ، وَاتَّهَكَ الْحَرَمَ : تَنَازَلُوهَا بِمَا لَا يَحِلُّ ، إِمَّا بِارْتِكَابِ مَا نَهَى عَنْهُ ، أَوْ بِالْإِخْلَالِ بِمَا أَمَرَ بِهِ .

---

(١) سورة المائدة ١٠١ .

(١٠٣)

الأصل :

لَا يَتْرُكُ النَّاسُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ دِينِهِمْ لِاسْتِصْلَاحِ دُنْيَاهُمْ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
مَا هُوَ أَضَرُّ مِنْهُ .

\*\*\*

الشَّنْجُ :

مثال ذلك إنسان يضيّع وقت صلاة الفريضة عليه ، وهو مشتغل بحاسبة وكيله  
ومخافته على ماله ، خوفاً أن يكون خائنه في شيء منه ، فهو يحرص على مناقشته عليه ،  
فتفوته الصلاة .

قال عليه السلام : مَنْ فَعَلَ مِثْلَ هَذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي أَمْرِ دُنْيَاهُ وَمَالِهِ مَا هُوَ  
أَضَرُّ عَلَيْهِ مِمَّا رَامَ أَنْ يَسْتَدْرِكَهُ بِإِهْمَالِهِ الْفَرِيضَةَ .

(١٠٤)

الأضل :

رُبَّ عَالِمٍ قَدْ قَتَلَهُ جَهْلُهُ ، وَعِلْمُهُ مَعَهُ لَمْ يَنْفَعَهُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

قد وُقِعَ مثْلُ هذا كثيرا ، كما جَرَى لعبد الله بن المقفع ، وفضله مشهور ، وحِكْمَتُهُ أشهر من أن تذكر ، ولو لم يكن له إلا كتاب ”اليتيمة“ ، لكفى .

[ محنة المقفع ]

واجتمع ابنُ المقفع بالخليل بن أحمد ، وسمع كلَّ منهما كلام الآخر ، فسئل الخليلُ عنه فقال : وجدتُ علمه أكثرَ من عقله ؛ وهكذا كان ، فإنه كان مع حكيمته متهورا ، لا جرم تهوُّره قتلَه ! كتب كتابَ أمان لعبد الله بن عليٍّ عمَّ المنصور ويوجد فيه خطُّه ، فكان من جملته : ومتى بَغَدْرُ أمير المؤمنين بعَمَّه عبد الله ، أو أبطن غير ما أظهر أو تأوَّل في شيء من شروط هذا الأمان فنساؤه طوائقُ ، ودوابه حُبُس ، وعبيده وإماؤه أحرار ، والمسلمون في حِلٍّ من بَيْعَتِهِ . فاشتدَّ ذلك على المنصور لما وقف عليه ، وسأل : مَنْ الذي كَتَبَ له الأمان ؟ ف قيل له : عبد الله بنُ المقفع كاتبُ عمِّيك عيسى وسليمان ، ابني عليٍّ بالبصرة ، فكتب المنصور إلى عامله بالبصرة سُفْيَان بن معاوية يأمره بقتله .

وقيل : بل قال : أَمَا أَحَدُ يَكْفِينِي ابْنُ المقفع ! فكتب أبو الخصب بها إلى

سفيان بن معاوية المهلبى أمير البصرة يومئذ - وكان سفيان واجداً على ابن المقفع لأنه كان يبعث به ويصحك منه دائماً ، فغضب سفيان يوماً من كلامه ، وافترى عليه ، فردّ ابن المقفع عليه ردّاً فاحشاً ، وقال له : يا ابن المُتَلِمَةِ ! وكان يمتنع ويمتصم بعيسى وسليان ابْنَيْ عَلَى بن عبد الله بن العباس ، فحقدوا سفيان عليه - فلما كُتِبَ في أمره بما كُتِبَ اعتزَمَ قتله ، فاستأذن عليه جماعةٌ من أهل البصرة ، منهم ابن المقفع ، فأدخل ابن المقفع قبلهم ، وعدل به إلى حجرة في دهليزه ، وجلس غلامه بدابته ينتظره على باب سفيان ، فصادف ابنُ المقفع في تلك الحجرة سفيان بن معاوية ، وعنده غلمان وتثور نار يسجر ، فقال له سفيان : أتذكر يوم قلت لي كذا ! أمى متلِمةٌ ! إن لم أقتلكَ قَتَلَهُ لم يُقتل بها أحد ؛ ثم قطع أعضاءه عُضُوا عُضُوا ، وألقاها في النار وهو ينظر إليها حتى أتى على جميع جسده ، ثم أطبق التثور عليه ، وخرج إلى الناس فكلامهم ، فلما خرجوا من عنده تخلف غلام ابن المقفع ينتظره فلم يخرج ، فضى وأخبر عيسى بن عليّ وأخاه سليمان بحاله ، فخاصما سفيان بن معاوية في أمره ، فوجد دُخُولَهُ إليه ، فأشخصاه إلى المنصور ، وقامت البينة العادلة أن ابن المقفع دخل دار سفيان حياً سليماً ولم يخرج منها . فقال المنصور : أنا أنظر في هذا الأمر إن شاء الله غداً ؛ فجاء سفيان ليلاً إلى المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله في صنيعتك ومتبع أمرك ، قال : لا ترع ، وأحضروهم في غد ، وقامت الشهادة ، وطلب سليمان وعيسى القصاص ، فقال المنصور : أرايتم إن قتلتم سفيان بابن المقفع ، ثم خرج ابن المقفع عليكم من هذا الباب - وأوماً إلى باب خلفه - من ينصب لي نفسه حتى أقتله بسفيان ؟ فسكتوا ، واندفع الأمر ، وأضرب عيسى وسليمان عن ذكر ابن المقفع بعدها ، وذهب دمه هدراً .

قيل للأصمى : أيما كان أعظم ذكاءً وفطنةً الخليل أم ابن المقفع ؟ فقال : كان ابن المقفع أفصح وأحكم ، والخليل أدب وأقل ؛ ثم قال : شتان ما بين فطنة أفضت بصاحبها إلى القتل ، وفطنة أفضت بصاحبها إلى النُكس والزهد في الدنيا ! وكان الخليل قد نَسَكَ قبل أن يموت .

(١٠٥)

لَقَدْ عَلَّقَ بِنِيَّاطٍ هَذَا الْإِنْسَانَ بِضَمَّةٍ هِيَ أَعْجَبُ مَا فِيهِ وَهُوَ الْقَلْبُ ، وَذَلِكَ أَنَّ لَهُ  
مَوَادَّ مِنْ الْحِكْمَةِ وَأَضْدَادًا مِنْ خِلَافِهَا ، فَإِنْ سَخَّ لَهُ الرَّجَاءُ أَذَلَّهُ الطَّمَعُ ، وَإِنْ  
هَاجَ بِهِ الطَّمَعُ أَهْلَكَهُ الْخُرُصُ ، وَإِنْ مَلَبَّكَ الْيَأْسُ قَتَلَهُ الْأَسَفُ ، وَإِنْ عَرَضَ  
لَهُ الْغَضَبُ اشْتَدَّ بِهِ الْغَيْظُ ، وَإِنْ أَسْعَدَهُ الرِّضَا نَسِيَ التَّحَفُّظَ ، وَإِنْ غَالَهُ الْخَوْفُ  
شَغَلَهُ الْخَذَرُ ، وَإِنْ اتَّسَعَ لَهُ الْأَمْرُ اسْتَلَبَتْهُ الْغَرَّةُ ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ فَضَحَتْهُ  
الْجَزَعُ ، وَإِنْ أَفَادَ مَا لَا أَطْفَاءُ الْغِنَى ، وَإِنْ عَضَّتْهُ الْفَاقَةُ شَغَلَهُ الْبَلَاءُ ، وَإِنْ جَهَدَهُ الْجُوعُ  
قَعَدَتْ بِهِ الضَّعَّةُ ، وَإِنْ أَفْرَطَ بِهِ الشَّيْعُ كَطَنَتْهُ الْبِطْنَةُ ، فَكُلُّ تَقْصِيرٍ بِهِ مُضِرٌّ ،  
وَكُلُّ إِفْرَاطٍ لَهُ مُفْسِدٌ .

\*\*\*

### البَّشْرُخ :

رَوَى : « قَعَدَ بِهِ الضَّعْفُ » . وَالتَّيَّاط : عِرْقٌ عَلَّقَ بِهِ الْقَلْبُ مِنَ الْوَتَنِ ، فَإِذَا قُطِعَ مَاتَ  
صَاحِبُهُ ، وَيُقَالُ لَهُ التَّيَّاطُ أَيْضًا . وَالبَّضْمَةُ بَفَتْحِ الْبَاءِ : الْقِطْعَةُ مِنَ اللَّحْمِ ، وَالْمَرَادُ بِهَا هَاهُنَا  
الْقَلْبُ ؛ وَقَالَ : يَمْتَوِرُ الْقَلْبُ حَالَاتٍ مُخْتَلِفَاتٍ مُتَضَادَّاتٍ ، فَبَعْضُهَا مِنَ الْحِكْمَةِ ، وَبَعْضُهَا  
— وَهُوَ الْمَضَادُّ لَهَا — مُنَافٍ لِلْحِكْمَةِ ، وَلَمْ يَذْكُرْهَا عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَلَيْسَتْ الْأُمُورُ الَّتِي عَدَّهَا  
شَرْحًا لِمَا قَدَّمَهُ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْمُجْمَلِ ، وَإِنْ ظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهُ أَرَادَ ذَلِكَ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْأُمُورَ  
الَّتِي عَدَّهَا لَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ بَابِ الْحِكْمَةِ وَخِلَافِهَا !

فإن قلت : فما مثَالُ الحِكمةِ وخلافِها ، وإن لم يذكر عليه السلام مثاله ؟  
قلت : كالشجاعة في القلب، وضِدّها الجبن ، وكالجود وضدّه البخل ، وكالعفة وضدّها  
الفجور ، ونحو ذلك .

فأمّا الأمور التي عدّها عليه السلام فكلاماً مستأنف ، إنّما هو بيانُ أن كلَّ شيءٍ ممّا  
يتعلّق بالقلب يلزمه لازم آخر نحو الرّجاء ، فإنّ الإنسان إذا اشتدّ رجاءه أذله الطمع ،  
والطمع يتبع الرّجاء ، والفرق بين الطمع والرّجاء أن الرّجاء توقّع منفعة ممّن سبيلُه أن  
تصدّر تلك المنفعة عنه ، والطمع توقّع منفعة ممّن يُستبعد وقوع تلك المنفعة منه ؛ ثم قال :  
وإن هاج به الطمع قتلَه الحرص ، وذلك لأنّ الحرص يتبع الطمع ، إذا لم يعلم الطامع أنّه  
طامع ، وإنّما يظن أنّه راج .

ثم قال : وإن مكّسه اليأس ، قتلَه الأسف ، أكثرُ الناس إذا يئسوا أسفوا .  
ثم عدّد الأخلاقَ وغيرَها من الأمور الواردة في الفصل إلى آخره ، ثم ختمه بأن قال :  
« فكلُّ تقصيرٍ به مُضِرٌّ ، وكلُّ إفراطٍ له مُفسِدٌ » ؛ وقد سبق كلامنا في العدالة ، وإنها الدرجة  
الوسطى بين طرفين هما رذيلتان ، والعدالة هي الفضيلة ، كالجود الذي يكتنفه التبذير والإمساك ،  
والذكاء الذي يكتنفه الغباوة . والجُرْبة<sup>(١)</sup> ، والشجاعة التي يكتنفها الهوج والجبن ،  
وشرحنا ما قاله الحكماء في ذلك شرحاً كافياً ، فلا معنى لإعادته .

(١) الجرّبة : الحب والحديعة .



(١٠٦)

الأصل :

نَحْنُ النَّمْرُوقَةُ الْوُسْطَى الَّتِي يَلْحَقُ بِهَا التَّالِي ، وَإِلَيْهَا يَرْجِعُ الْتَّالِي .

\*\*\*

الشَّيْخ :

النَّمْرُوقُ والنَّمْرُوقَةُ بالضم فيهما : سَادَةٌ صَغِيرَةٌ ، ويجوز النَّمْرُوقَةُ بالكسر فيهما ؛ ويقال للطننفة فوق الرَّحْلِ نَمْرُوقَةٌ . والمعنى أَنَّ كُلَّ فَضِيلَةٍ فَإِنَّهَا مَجْنُوعَةٌ بِطَرَفَيْنِ مَعْدُودَيْنِ مِنَ الرِّذَائِلِ كَمَا أَوْضَحْنَاهُ آفِئَا ، والمراد أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمُ السَّلَامُ هُمُ الْأَمْرُ الْمُتَوَسِّطُ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ الْمَذْمُومَيْنِ ، فَكُلُّ مَنْ جَاوَزَهُمْ فَالْوَجِبُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَيْهِمْ ، وَكُلُّ مَنْ قَصَرَ عَنْهُمْ فَالْوَجِبُ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ .

فإن قلت : فلم أَسْتَعَارَ لَفْظَ النَّمْرُوقَةِ لِهَذَا الْمَعْنَى ؟

قلت : لَمَّا كَانُوا يَقُولُونَ : قَدْ رَكِبَ فُلَانٌ مِنَ الْأَمْرِ مُنْكَرًا وَقَدْ ارْتَكَبَ الرَّأْيَ الْفُلَانِي ، وَكَانَتِ الطَّنْفَةُ فَوْقَ الرَّحْلِ مِمَّا يُرْكَبُ ، اسْتَعَارَ لَفْظَ النَّمْرُوقَةِ لَمَّا يَرَاهُ الْإِنْسَانُ مَذْهَبًا يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَيَكُونُ كَالرَّكَّابِ لَهُ ، وَالْجَالِسِ عَلَيْهِ ، وَالتَّوَرَّكِ فَوْقَهُ .

ويجوز أيضاً أَنْ تَكُونَ لَفْظَةُ « الْوُسْطَى » يَرَادُ بِهَا الْفُضْلَى ؛ يُقَالُ : هَذِهِ هِيَ الطَّرِيقَةُ الْوُسْطَى ، وَالْخَلِيقَةُ الْوُسْطَى ، أَيْ الْفُضْلَى ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> أَيْ أَفْضَلُهُمْ ، وَمِنْهُ : ﴿ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة الفم ٢٨ . (٢) سورة البقرة ١٤٣ .

(١٠٧)

الأصل :

لَا يُقِيمُ أَمْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِلَّا مَنْ لَا يُصَانِعُ ، وَلَا يُضَارِعُ ، وَلَا يَتَّبِعُ الْمَطَامِعَ .

\*\*\*

الشرح :

قد سبق من كلام عمرَ شئٌ يُناسِبُ هذا إن لم يكن هو بعينه ؛ والمُصَانَعَةُ : بَذْلُ الرِّشْوَةِ . وفي المثل : مَنْ صَانَعَ بِالْمَالِ ، لَمْ يَحْتَشِمِ مِنْ طَلَبِ الْحَاجَةِ .  
فإن قلت : كان ينبغي أن يقول : « من لا يصانع » بالفتح .  
قلتُ : المُفَاعَلَةُ تدلُّ عَلَى كَوْنِ الْفِعْلِ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ كَالْمُضَارَبَةِ وَالْمُقَاتَلَةِ .  
ويضارع : يَتَمَرَّضُ لَطَلَبِ الْحَاجَةِ ؛ ويجوز أن يكون من الضَّرَاعَةِ وهى اَلْخَضْوَعُ  
أى يَخْضَعُ لَزَيْدٍ لِيَخْضَعَ زَيْدٌ لَهُ ؛ ويجوز أن يكون من المِضَارَعَةِ بمعنى المشَايَهَةِ ،  
أى لا يَتَشَبَّهُ بِأَثَمَةِ الْحَقِّ أَوْ وُلَاةِ الْحَقِّ ، وليس منهم .  
وأما اتِّبَاعُ الْمَطَامِعِ فمَعْرُوفٌ .

(١٠٨)

الأصل :

وقال عليه السلام ، وقد توفى سهل بن حنيف الأنصاري بالكوفة بعد مراحله  
من صيفين معه ، وكان من أحب الناس إليه :  
لو أحبني جبل لتهاقت .

قال الرضى رحمه الله تعالى :

ومعنى ذلك أن المحنة تغلظ عليه ، فتسرع المصائب إليه ، ولا يفعل ذلك  
إلا بالأتقاء الأبرار ، المصطفين الأخيار . وهذا مثل قوله عليه السلام : « من  
أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً » وقد يؤول ذلك على معنى آخر ليس هذا  
موضع ذكره .

\*\*\*

الشرح :

قد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله قال له : « لا يحبك إلا مؤمن ؛ ولا يفضك  
إلا منافق » .

وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وآله قال : « إن البلوى أسرع إلى المؤمن من  
الماء إلى الحدور » .

وفي حديث آخر : « المؤمن ملقى ، والكافر موقى » .

وفي حديث آخر : « خيركم عند الله أعظمكم مصائب في نفسه وماله وولده » .  
وهاتان المقدمتان يلزمهما نتيجة صادقة ، وهي أنه عليه السلام لو أحبه جبل لتهاقت .  
ولعل هذا هو مراد الرضى بقوله : « وقد يؤول ذلك على معنى آخر ليس هذا موضع ذكره » .

(١٠٩)

الأصل :

لا مالَ أَعُوذُ مِنَ الْعَقْلِ ، وَلَا وَحْدَةَ أَوْحَشُ مِنَ الْمُجَبِّ ، وَلَا عَقْلَ كَالْتَدْبِيرِ ،  
ولا كَرَمَ كَالْتَقْوَى ، ولا قَرِينَ كَحُسْنِ الْخُلُقِ ، ولا مِيرَاثَ كَالْأَدَبِ ، ولا فَايِدَ  
كَالتَوْفِيقِ ، ولا تِجَارَةَ كَالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، ولا زَرْعَ كَالثَّوَابِ ، ولا وَرَعَ كَالْوُقُوفِ  
عِنْدَ الشُّبُهَةِ ، ولا زُهْدَ كَالزُّهْدِ فِي الْحَرَامِ ، ولا عِلْمَ كَالْتَفْكِيرِ ، ولا عِبَادَةَ  
كَأَدَاءِ الْفَرَائِضِ .

ولا إِيْمَانَ كَالْحَيَاءِ وَالصَّبْرِ ، ولا حَسَبَ كَالْتَوَاضُعِ ، ولا شَرَفَ كَالْعِلْمِ ، ولا عِزَّةَ  
كَالْحِلْمِ ، ولا مُظَاهَرَةَ أَوْثَقُ مِنَ الْمَشَاوِرَةِ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدّم الكلامُ في جميع هذه الحكم .

أما المالُ فإنَّ العقلَ أَعُوذُ مِنْهُ ، لأنَّ الأحمقَ ذا المالِ طالما ذهبَ مالهُ بحِمْمِهِ ، فعادَ أحمقَ  
فقيراً ، والعاقلُ الذي لا مالَ له طالما اكتسبَ المالَ بعقله ، وبقيَ عقله عليه .

وأما العُجْبُ فيوجبُ المَقَتَّ ، ومن مَقَتَّ أَفْرَدَ عَنِ الْحَالِطَةِ وَاسْتَوْحِشَ مِنْهُ ، ولا رَيْبَ أَنَّ  
التدبيرَ هو أفضلُ العقلِ ، لأنَّ العيشَ كله في التدبيرِ .

وأما التقوى فقد قال الله : ﴿ إِنَّا أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ ﴾ (١) .

وأما الأدب فقالت الحكماء : ما وَرَّثَتِ الآباءُ أبناءها كالآدب .

وأما التوفيق فمن لم يكن قائده ضلّ .

وأما العمل الصالح ، فإنه لشرفُ التجارات ، ، فقد قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (١) .

ثم عدّ الأعمال الصالحة .

وأما الثواب فهو الربح الحقيقي ، وأما ربح الدنيا فشبيهه بحلم النائم .

وأما الوقوف عند الشبهات فهو حقيقة الورع ، ولا ريب أن من يزهد في الحرام أفضّل ممن يزهد في المباحات ، كالمأكل اللذيذة ، والملابس الناعمة ، وقد وصف الله تعالى أرباب التفكير فقال : ﴿ وَيتفكّرونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ (٢) . وقال : ﴿ أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا ﴾ ولا ريب أن العبادة بأداء الفرائض فوق العبادة بالنوافل . والحياة مع الإيمان ، وكذلك الصبر والتواضع مصيدة الشرف ، وذلك هو الحسب ، وأشرف الأشياء العلم ، لأنه خاصّة الإنسان ، وبه يقع الفضل بينه وبين سائر الحيوان .

والمشورة من الحزم فإن عقل غيرك تستضيفه إلى عقلك . ومن كلام بعض الحكماء : إذا استشارك عدوك في الأمر فامحضه النصيحة في الرأي ، فإنه إن عمل برأيك وانتفع نديم على إفراطه في مناوأتك ، وأفضت عداوته إلى المودة ، وإن خالفك واستضرّ عرف قدر أمانتك بنصحه ، وبكأنت منك في مكروهه .

(١١٠)

الأصل :

إِذَا اسْتَوَى الصَّالِحُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ثُمَّ أَسَاءَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ لَمْ تَظْهَرِ مِنْهُ حَوْبَةٌ ، فَقَدْ ظَلَمَ ، وَإِذَا اسْتَوَى الْفَاسِدُ عَلَى الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ ، فَأَحْسَنَ رَجُلٌ الظَّنَّ بِرَجُلٍ فَقَدْ غَرَّرَ .

\*\*\*

الشرح :

يريد أنه يتمين على العاقل سوء الظن حيث الزمان فاسد ، ولا ينبغي له سوء الظن حيث الزمان صالح ، وقد جاء في الخبر المرفوع النهي عن أن يظن المسلم بالمسلم ظنَّ السوء ، وذلك محمول على المسلم الذي لم تظهر منه حوبة ، كما أشار إليه على عليه السلام ؛ والحوبة : المعصية ، والخبر هو ما رواه جابر قال : نظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى الكعبة فقال : « مرحباً بك من بيت ! ما أعظمك وأعظم حرمتك ! والله إن المؤمن أعظم حرمة منك عند الله عز وجل ؛ لأن الله حرّم منك واحدة ، ومن المؤمن ثلاثة : دمه وماله وأن يظن به ظنّ السوء . » ومن كلام عمر ؛ ضَعُ امرأخيك على أحسنه حتى يجيء ما يغلبك منه ، ولا تُظنن بكلمة خرجت من في أخيك المسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، ومن عَرَضَ نفسه للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن .

شاعر :

أَسَأْتُ إِذْ أَحْسَنْتُ ظَنِّي بِكُمْ وَالْحَزْمُ سُوءُ الظَّنِّ بِالنَّاسِ

قيل لعالم : من أسوأ الناس حالاً ؟ قال : من لا يثق بأحدٍ لسوء ظنّه ، ولا يثق به أحدٌ لسوء فعله .

شاعر :

وقد كان حُسنُ الظنِّ بعضَ مَدَاهِي فادّبنى هذا الزمانُ وأهلهُ

قيل لصوفي : ما صناعتك ؟ قال : حُسنُ الظنِّ بالله ، وسوءُ الظنِّ بالناس .  
وكان يقال : ما أحسنَ حُسنَ الظنِّ ، إلّا أنْ فيه العجز ، وما أقبحَ سوءَ الظنِّ ، إلّا أنْ فيه الحُزم .

ابن المعتز :

تَفَقَّدَ مَسَاقِطَ لَحْظِ الْمُرِيبِ      فَإِنَّ الْعِيُونَ وَجوهُ الْقُلُوبِ (١)  
وَطَالَيْعَ بَوَادِرِهِ فِي الْكَلَامِ      فَإِنَّكَ تَجِيئِي ثَمَارَ الْعُيُوبِ

---

(١) ديوانه .

(١١١)

الأضل :

وَقِيلَ لَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : كَيْفَ تَجِدُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ فَقَالَ :  
كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَفْنَى بَبَقَائِهِ ، وَيَسْقُمُ بِصِحَّتِهِ ، وَيُؤْتَى مِنْ مَأْمَنِهِ .

\*\*\*

الشُّرُحُ :

هذا مِثْلُ قَوْلِ عَبْدِ بْنِ الطَّيِّبِ :

أَرَى بَصِيرِي قَدْ رَأَيْتَنِي بِمَدِ صِحَّةٍ      وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَصِحَّ وَتَسْلَمَا  
وَلَنْ يَكْبُثَ الْمَصْرَانِ يَوْمَ وَلِيلَةٍ      إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكََا مَا تَيْمَمَا  
وقال آخر :

كَانَتْ قَسَاتِي لَا تَكْلِي لِفَإْمَنِي      فَأَلَاتَهَا الْإِصْبَاحُ وَالْإِمْسَاءُ  
وَدَعَوْتُ رَبِّي بِالسَّلَامَةِ جَاهِدًا      لِيُصِحَّنِي فَإِذَا السَّلَامَةُ دَاءُ



(١١٢)

الأفضل :

كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَمَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ، وَمَفْتُونٍ بِحُسْنِ  
الْقَوْلِ فِيهِ ! وَمَا ابْتَلَى اللَّهُ أَحَدًا بِمِثْلِ الْإِمْلَاءِ لَهُ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدم القول في الاستدراج والإملاء .

فأما القول في فتنة الإنسان بحسن القول فيه فقد ذكرنا أيضا طرفا صالحا يتعلق بها .  
وقال رسول الله صلى الله عليه وآله لرجل مدح رجلا وقد مرّ بمجلس رسول الله  
صلى الله عليه وآله فلم يسمع ، ولكن قال : « وَيَحْكُ لَكَدَتَ تَضْرِبَ عُنُقَهُ ، لَوْ سَمِعَهَا  
لَمَا أَفْلَحَ » .

(١١٣)

الأصل :

هَلَكَ فِي رَجُلَانِ : مُحِبُّ غَالٍ ، وَمُبْغِضٌ قَالٍ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدّم القول في مثل هذا ، وقد قال رسول الله صَلَّى الله عليه وآله : « والله لولا أنّي أُشْفِقُ أن تقول طوائف من أمّتي فيك ما قالت النصارى في ابنِ مريم ، لقلتُ فيك اليومَ مقالا لا تمرّ بأحدٍ من الناس إلا أخذوا الترابَ من تحتِ قدميك للبركة » .  
ومع كونه صَلَّى الله عليه وآله لم يقل فيه ذلك المَقَالَ فقد غَلَت فيه غُلَاةٌ كثيرةُ العددِ منشرة في الدنيا ، يمتقّدون فيه ما يمتقّد النصارى في ابنِ مريم ، وأشتّع من ذلك الاعتقاد .

فأمّا المُبْغِضُ القال فقد رأينا مَنْ يَبْغِضُهُ ، ولكن ما رأينا من يَلْعَنُهُ ويصرّح بالبراءة منه ، ويقال : إنّ في عُمان وما والاها من صُحار وما يجرى بحرّها قوماً يمتقّدون فيه ما كانت الخوارجُ تمتقّده فيه ، وأنا أبرأ<sup>(١)</sup> إلى الله منهما .

---

(١) « ونحن نبرأ » .

— ٢٨٣ —

(١١٤)

الأبْضَلُ :

إِضَاعَةُ الْفُرْصَةِ غُصَّةٌ .

\*\*\*

الْيَشْنُحُ :

فِي الْمَثَلِ : انْتَهَزُوا الْفُرْصَ ، فَإِنَّهَا تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ .

وقال الشاعر :

وإن أمكنتُ فرصةً في العدوِّ      فلا يَكُ هَمُّكَ إِلَّا بِهَا  
فإن تَكُ لم تَأْتِ مِنْ بِإِهَا      أذاك عدوك من بِإِهَا  
وإياك من نَدَمٍ بِمَدَهَا      وتأميل أخرى ، وأنى بها ..؟

(١١٥)

الأضل :

مَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ الْحَيَّةِ لَيِّنٌ مَسْهًا ، وَالسُّمُّ النَّافِعُ فِي جَوْفِهَا ؛ يَهْنَوِي إِلَيْهَا  
الْفِرُّ الْجَاهِلُ ، وَيَحْذَرُهَا ذُو اللَّبِّ الْعَاقِلُ .

\*\*\*

الشَّنْخُ :

قد تقدّم القولُ في الدنياِ صرارا ، وقد أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :  
إِنَّمَا الدَّهْرُ أَرْقَمُ لَيِّنُ الْمَسِّ وَفِي نَاحِيهِ السَّقَامُ الْعُقَامُ

(١١٦)

الأصل :

وقال عليه السلام : وَقَدْ سُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ فَقَالَ :  
أَمَّا بَنُو مَخْزُومٍ فَرَبِحَانَهُ قُرَيْشٌ ، تُحِبُّ حَدِيثَ رَجُلِهِمْ ، وَالنِّكَاحَ فِي نِسَائِهِمْ .  
وَأَمَّا بَنُو عَبْدِ شَمْسٍ فَأَبْعَدُهَا رَأْيًا ، وَأَمْنَمُهَا لِمَا وَرَاءَ ظُهُورِهَا ، وَأَمَّا نَحْنُ فَأَبْدَلُ لِمَا  
فِي أَيْدِينَا وَأَسْمَحُ عِنْدَ الْمَوْتِ بِنُفُوسِنَا ، وَهُمْ أَكْثَرُ وَأَمْكَرُ وَأَنْكَرُ ، وَنَحْنُ أَفْصَحُ  
وَأَنْصَحُ وَأَصْبَحُ .

\*\*\*

الشرح :

[فصل في نسب بني مخزوم وطرف من أخبارهم]

قد تقدم القول في مُفَاخَرَةِ هاشم وعبدِ شمس ، فأما بنو مخزوم فإنهم بعد هذين البيتين  
أنغر قُرَيْشٌ وأعظمُها شرفاً .

قال شيخنا أبو عثمان : حظيتُ مخزومُ بالأشعار ، فانتشر لهم صيتٌ عظيمٌ بها ، واتفق  
لهم فيها ما لم يتفق لأحد ، وذلك أنه يُضْرَبُ بهم المثل في العِزِّ والمَعْمَةِ والجود والشرف  
وأوضعوا في كلِّ غاية ، فمن ذلك قول سيحان الجسري حليف بني أمية في كلمة له :

\* وحين يناغي الركب موت هشام \*

فدل ذلك على أن ما تقوله مخزوم في السابح حق ، وذلك أنهم قالوا : كانت قريش  
وكنانة ومن والاهم من الناس يؤرّخون بثلاثة أشياء : كانوا يقولون : كان ذلك زمن

مَبْنَى الكعبة ، وكان ذلك من مجيء الفيل ، وكان ذلك عام مات هشامُ بنُ المغيرة . كما كانت العرب تؤرِّخ فتقول : كان ذلك زمنَ الفُطَاحِل ، وكان ذلك زمنَ الحَيَّان ، وكان ذلك زمنَ الحجارة ، وكان ذلك عامَ الحِجَّاف ، والرُّوَاة تجعل ضرب المثل من أعظم المفاخر ، وأظهر الدلائل . والشعر - كما علمت - كما يرفع يضع ، كما رفع من بنى أنف الناقة قول الحطيئة :

قومٌ هم الأنف والأذنانُ غيرُهُم  
ومن يسوَّى بأنفِ الناقةِ الذَّنَبَا ؟  
وكما وضع من بنى نُمَيْرٍ قولُ جرير :

فمضَّ الطرفَ إنَّك من نُمَيْرٍ  
فلا كُعبًا بلغتَ ولا كِلَابًا  
فلقيتُ نُمَيْرَ من هذا البيت ما لقيتُ .

وجملهم الشاعر مثلاً فيمن وضعه الهجاء ، وهو يهجو قوما من العرب :

وسوف يزيدُكم ضَعَةً هَائِي  
كما وضع الهجاء بنى نُمَيْرٍ  
ونُمَيْرٌ قَبِيلٌ شريف ، وقد تكلم في شرفهم هذا البيت .

وقال ابنُ غزالة الكندي ؛ وهو يمدح بنى شَيْبَانَ ولم يكن في موضع رغبة إلى بنى مخزوم ، ولا في موضع رهبة :

كأنِّي إذ حطَّطُ الرجلَ فيهمْ  
بمكةَ حينَ حلَّ بها هشامُ  
فضرَبَ بهشامَ المثل .

وقال رجلٌ من بنى حزم أحد بنى سلمى ، وهو يمدح حربَ بنَ معاوية الخفاجي وخفاجة من بنى عُقَيْل :

إلى حَزْنِ الحَزُونِ سَمْتُ رِكَابِي  
بوابلِ خلفها عَسَلَانُ جَيْشِ

فَلَمَّا أَنْ أَنْخَتُ إِلَى ذُرَاهُ      أُمِنْتُ فَرَأَشَنِي مِنْهُ بِرَيْشٍ  
تَوَسَّطَ بَيْنَهُ فِي آلِ كَعْبٍ      كَبِيتَ بَنِي مَغِيرَةَ فِي قُرَيْشٍ  
فَضْرَبَ الْمَثَلَ بَيْنَهُمْ فِي قُرَيْشٍ .

وقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن الحَكَم :

مَا رَسْتُ أَكَيْسَ مِنْ بَنِي قَحْطَانَ      صَعَبَ الذَّرَا مَتَمَنِّعَ الْأَرْكَانِ  
إِنِّي طَمَعْتُ بِفَخْرٍ مِنْ لَوْ رَامَهُ      آلُ الْمَغِيرَةِ أَوْ بَنُو ذَكْوَانَ  
لَمَلَأْتُهَا خَيْلًا تَضِبُّ لثَائِهَا      مِثْلَ الدَّبَا وَكَوَاسِرِ الْعُقْبَانِ  
مِنْهُمْ هِشَامٌ وَالْوَرِيدُ وَعِدْلُهُمْ      وَأَبُو أُمَيَّةَ مَفْزَعُ الرُّكْبَانِ  
فَضْرَبَ الْمَثَلَ بِآلِ الْمَغِيرَةِ .

وَأَمَّا بَنُو ذَكْوَانَ فَبَنُو بَدْرِ بْنِ عَمْرِو بْنِ حَوِيَّةَ بْنِ ذَكْوَانَ أَحَدِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ فَرَازَةَ  
مِنْهُمْ حُدَيْفَةُ وَحَمَلُ وَرَهْطُهُمَا ، وَقَالَ مَالِكُ بْنُ نُوَيْرَةَ :

أَلَمْ يَنْهَ عَنَّا نَفَرَ بِكَرٍ بْنِ وَائِلٍ      هَزَيْتَهُمْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَزَامٍ  
فَمَنْ يَوْمُ الشَّرِّ أَوْ يَوْمُ مَنَعِجٍ      وَبِالْجَزْعِ إِذْ قَسَمَ حَيَّ عَصَامٍ  
أَحَادِيثُ شَاعَتْ فِي مَعَدٍّ وَغَيْرِهَا      وَخَبَرَهَا الرُّكْبَانُ حَيَّ هِشَامٍ  
فَجَعَلَ قُرَيْشًا كُلَّهَا حَيًّا لِهِشَامٍ :

وقال عبد الله بن ثور الخفاجي :

وَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مَقْشَعِرًا      كَأَنَّ الْأَرْضَ لَا لَيْسَ بِهَا هِشَامُ<sup>(١)</sup>  
وَهَذَا مِثْلٌ وَفَوْقَ الْمَثَلِ .

قالوا : وقال الخروف الكلبى - وقد مرَّ به ناس من تجَّار قُرَيْشٍ يريدون الهِشَامَ بِالْأَيْدِي

---

(١) الكامل للبهرد ٢ : ١٤٢ من غير نسبة : قال في شرحه : « يقول : هو وإن كان مات فهو مدفون في الأرض ؟ فقد كان يجب من أجله ألا ينالها جذب » .

قشيفين - : مالكم معاشر قريش هكذا أجدبتم أم مات هشام ، فجعل موت هشام بإزاء  
الجدب والحل ، وفي هذا المعنى قال مسافر بن أبي عمرو :  
تقول لنا الرُّكبانُ في كلِّ منزلٍ : أمات هشام أم أصابكم جدب ؟  
فجعل موت هشام وفقد النيث سواء .

وقال عبدُ الله بنُ سلمة بن قشير :  
دَعَيْني أَصْطَبِحُ يابِكرُ إِنِّي رأيتُ الموتَ نَقَبَ عَنْ هِشامٍ<sup>(١)</sup>  
وقال أبو الطَّمَحانِ القَيْنِيُّ - أو أخوه :  
وكانت قريشٌ لا تَخونُ حريمَها من الخوفِ حتَّى ناهضتْ بهِشامَ  
وقال أبو بكر بن شعوب لقومه كنانة :  
يا قومنا لا تهلكوا إخفاتاً إنَّ هشامَ القرشيَّ ماتاً

وقال خدَّاشُ بنُ زهير :  
وقد كنتُ سَجَّاءَ لهمْ ثُمَّ كَفَّكَفُوا نوافذَ قَوْلِي بالهمامِ هِشامَ  
وقال علي بن هرمة ؛ عم إبراهيم بن هرمة :  
ومن يَرْتَبِي مدحِي فإنَّ مدأحِي نوافقُ عند الأكرمين سوامَ  
نوافقُ عند المشتري الحدِّ بالندى نفاقَ بناتِ الحارثِ بنِ هشامَ  
وقال الشاعر وهو يهجو رجلاً :

أَحْسِبْتَ أَنَّ أباك يومَ نَسَبْتَنِي في المجد كان الحارثَ بنَ هِشامَ  
أولى قريشَ بالكارمِ كلِّها في الجاهليَّةِ كان والإسلامَ

(١) الكامل ١٤٣:٢ من غير نسبة ؛ ونقب ، أي طوف حتى أصاب هشاماً ، وانظر نسب قريش ٣٠١



وقال الأسود بن يعفر النهشلي :

إن الأكرام من قريش كلها شهدوا فراموا الأمر كل مرام  
حقى إذا كثرت التجادل بينهم حزم الأمور الحارث بن هشام  
وقال ثابت قطنة - أو كعب الأشقرى لمحمد بن الأشعث بن قيس :

أتوعدنى بالأشعثى ومالك وتفرج جهلاً بالوسيط الطماطم !  
كأنك بالبطحاء تدمر حارثاً وخالد سيف الدين بين الملاحم

وقال الخزاعي في كلمته التي يذكر فيها أبا أحيحة :

له سرّة البطحاء والعدّ والثرى ولا كهشام الخير والقلب مردف

وسأل معاوية صمصمة بن صوحان العبدى عن قبائل قريش ، فقال : إن قلنا : غضبتكم ،  
وإن سكنتنا غضبتكم ، فقال : أقسمت عليك ، قال : فيمن يقول شاعركم :

وعشرة كلهم سيّد آباء سادات وأبنائها  
إن يسألوا يعطوا وإن يمدموا يبيّض من مكة بطحاؤها

وقال عبد الرحمن بن سيحان الجسرى حليف بنى أمية وهو يهجو عبد الله بن مطيع

من بنى عدى :

حرام كتنى منى بسوء وأذكر صاحبي أبدا بدام<sup>(١)</sup>  
لقد أصرمت ودّ بنى مطيع حرام الدهر للرجل الحرام  
وإن خيف الزمان مددت حبلًا متينا من جبال بنى هشام  
وربى عودهم أبدا رطيب إذا ما اهتز عيدان الكرام

(١) الأغاني ٢ : ٢٥٥ مع اختلاف في الرواية .

وقال أبو طالب بن عبد المطلب وهو يفخر بخاليه : هشام والوليد على أبي سفيان  
ابن حرب<sup>(١)</sup> :

وخالي هشام بن المغيرة ثاقب  
وخالي الوليد العدل عال مكانه  
إذا هم يوما كالحسام المهند  
وخالي أبي سفيان عمرو بن مرثد

وقال ابن الزبيري فيهم :

لهم مشية ليست تليق بغيرهم  
إذا احدثوا الثرون في السنة الجذب

وقال شاعر من بني هوازن ، أحد بني أنف الناقة حين سقى إبله عبد الله بن أبي أمية  
المزوي بعد أن منعه الزبرقان بن بدر :

أتدري من منعت سيال حوض  
أزاد الركب تمنع أم هشاماً  
سليل خضارم منعوا البطاح  
هم منعموا الأباطح دون فهر  
وذا الرحين أنعمهم سلاح  
بضرب دون بيضهم طلخف<sup>(٢)</sup>  
ومن بالخياف والبلد الكفا  
وما تدري بآتيهم تلاق  
إذا الملهوف لاذ بهم وصاح  
صدور الشرقة والرماح

فقال عبد الله بن أبي أمية مجيباً له :

لعمري لأنت المرء يحسن بادياً  
عرفت لقوم مجدهم وقديمهم  
وتحسن عودا شيمة وتصنعاً  
وكنت لما أسديت أهلاً وموضعا

قالوا : وكان الوليد بن المغيرة يجلس بذى الحجاز فيحكم بين العرب أيام عكاظ  
وقد كان رجل من بني عامر بن لؤي رافق رجلاً من بني عبد مناف بن قصي ، فجري  
بينهما كلام في جبل ، فعلاه بالعصا حتى قتله ، فكاد دمه يطل ، فقام دونه أبو طالب

(١) ديوانه ٧٦ . (٢) الطلخف : الضرب الشديد .

ابن عبد المطلب وقدمه إلى الوليد ، فاستخلفه خمسين يمينا أنه ما قتله ، في ذلك يقول أبو طالب :

أَمِنْ أَجْلِ حَبْلِ ذِي رِمَامٍ عُلُوَّتُهُ      بِنَسَاءَةٍ قَدْ جَاءَ حَبْلُهُ وَأَحْبَلُ<sup>(١)</sup>  
هَلَمْ إِلَى حُكْمِ ابْنِ صَخْرَةٍ إِنَّهُ      سَيَحْكُمُ فِيمَا بَيْنَنَا ثُمَّ يَمْدِلُ

وقال أبو طالب أيضا في كلمة له :

وَحُكْمُكَ يُبْقِي الْخَيْرَ إِنْ عَزَّ أَمْرُهُ      تَخَمَّطَ وَاسْتَعْلَى عَلَى الْأَضْعَفِ الْفَرْدُ

وقال أبو طالب أيضا يرثي أبا أمية زاد الركب وهو خاله :

كَانَ عَلَى رَضْرَاضٍ قَصٍّ وَجَنْدِلٍ      مِنْ الْيَسْرِ أَوْ تَحْتَ الْفَرَاشِ الْجَامِرِ<sup>(٢)</sup>  
عَلَى خَيْرِ حَافٍ مِنْ مَعْدٍ وَنَاعِلٍ      إِذَا الْخَيْرُ يُرْجَى أَوْ إِذَا الشَّرُّ حَاسِرُ  
أَلَا إِنْ زَادَ الرِّكْبَ غَيْرُ مَدَافِعِ      بِسَرٍّ سَحِيمٍ غَيْبَتَهُ الْقَابِرُ  
تَنَادَوْا بَأَنَ لَا سَيِّدَ الْيَوْمِ فِيهِمْ      وَقَدْ فُجِعَ الْحَيَّانُ كَعْبٌ وَوَعَامِرُ  
وَكُنْ إِذَا يَأْتِي مِنَ الشَّامِ قَارِفَلًا      تَقْدَمُهُ قَبْلَ الدُّنُوِّ الْبَشَائِرُ  
فِيصْبَحُ آلُ اللَّهِ بِيضًا ثِيَابِهِمْ<sup>(٣)</sup>      وَقَدْ مَأَّ حَبَاهُمْ وَالْعَيُونُ كَوَاسِرُ  
أَخَوْجَفْنَةٍ لَا تَبْرَحُ الدَّهْرُ عِنْدَنَا      مُجْمَعَةً تَدْنَى وَشَاءَ وَبَارِقُ  
ضُرُوبٌ يَنْصُلُ السِّيفِ سَوْقَ سَمَانِهَا      إِذَا أُرْسِلُوا يَوْمًا فَإِنَّكَ عَارِقُ  
فِيَالِكَ مِنْ رَاعٍ رُمِيتَ بِآلَةٍ      شَرَاعِيَةٍ تَخْضَرُّ مِنْهُ الْأَطَافِرُ

وقال أبو طالب أيضا يرثي خاله هشام بن المغيرة :

(١) ديوانه ١٤٢ . (٢) ديوانه ٧٧ .

وكان ختنه نجرج تاجرًا إلى الشام فأت بموضع يقال له سرد سجم .

(٣) الديوان : « كَانُوا » .

(٤) الديوان : « كَسْتُمْ حَيْرًا رِيْدَةً وَمَعَاوِرَ » .

فقدنا عميدَ الحَيِّ والركنَ خاشعٌ      كفقدَ أبي عُثمانَ والبيتَ والحِجْرَ<sup>(١)</sup>  
 وكان هشامُ بنَ المغيرَةِ عصمةً      إذا عَرَكَ الناسَ المخاوفُ والفقرُ  
 بأبياته كانت أرامِلُ قومِهِ      تلوذُ وأيتامُ العَشيرةِ والسفرُ  
 فودَّتْ قريشٌ لو فدَّتْهُ بشَطْرِها      وقَلَّ لعمري لو فدَّوه له الشَّطْرُ  
 نقول لعمرو أنتَ منه وإننا      لترجوك في جُلِّ المِلَمَّاتِ يا عمرو  
 عمرو هذا هو أبو جهل بن هشام ، وأبو عثمان هو هشام .

وقالت ضُباعةُ بنتُ عامر بنِ سلمة بنِ قرط ترثيه :

إنَّ أبا عثمانَ لم أُنسَ      وإنَّ صبرا عن بُكاهٍ لَحُوبُ  
 تَفَاقَدُوا من معشرٍ ما لَهم      أَى ذَنُوبٍ صُوبُوا في القَلْبِ  
 وقال حَسَّان بنُ ثابت وهو يهجو أبا جهل ، وكان يُكنى أبا الحَكَمِ :  
 الناسُ كَنُوه أبا حَكَمٍ      والله كَنَاه أبا جَهْلٍ<sup>(٢)</sup>  
 أبقتُ رِياسَتَهُ لَأُسْرَتِهِ      لَوَمَ الفُرُوعِ ودِقَّةَ الأَصْلِ<sup>(٣)</sup>  
 فأعترف له بالرياسة والتقدّم .

وقال أبو عُبَيْد مَعْمَر بنُ النُثَيِّ : لَمَّا تَنافَرَ عامرُ بنُ الطُّفَيْلِ وَعَلَقْمَةُ بنُ مُعَلَّاثَةَ  
 إلى هَرَمِ بنِ قُطْبَةَ وتَوَارَى عنهما ، أَرْسَلَ إليهما : عليكما بالفتى الحديث السنّ ، الحديدِ  
 الذَّهْنِ ؛ فصارا إلى أبي جَهْلٍ ، فقال له ابنُ الزُّبَيْرِ :

فلا تَحْكُمُ فِدَاكَ أبا وخَالِي      وكن كالرءِ حَاكِمِ آلِ عَمْرِو

(١) ديوانه ٨٠ .

(٢) ديوانه ٣٤٤ ، وروايته :

سَمَاءُ معشرُهُ أبا حَكَمٍ      والله سَمَاءُ أبا جَهْلٍ

(٣) الديوان :

أَبَقَّتْ رِياسَتَهُ لِمَعشِرِهِ      غَضِبَ الإِلهُ وذِلَّةَ الأَصْلِ

فَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ ، فَرَجَعَا إِلَى هَرَمٍ .  
وقال عبدُ الله بنُ ثور :

هَرِيقًا مِنْ دُمُوعِكُمَا سِجَامًا ضُبَاعُ وَحَارِبِي نَوْحًا قِيَامًا  
فَمَنْ لِلرَّكْبِ إِذْ جَاءُوا طُرُوقًا وَغُلَّتِ الْبُيُوتُ فَلَا هِشَامًا  
وقال أيضًا في كلمة له :

وما ولدت نساءً بنى زارٍ ولا رَشَّحْنَ أَكْرَمَ مِنْ هِشَامٍ  
هشامُ بنُ المغيرةِ خيرُ فهِرٍ وأفضلُ من سقى صَوْبَ النَّهَمِ  
وقال عُمارة بنُ أبي طَرْفَةَ الهُدَلِيِّ ، سمعتُ ابنَ جُرَيْجٍ يقولُ في كلامٍ له : هَلَكَ سَيِّدُ  
الْبَطْحَاءِ بِالرُّعَافِ ؛ قلتُ : ومن سَيِّدِ الْبَطْحَاءِ ؟ قال : هشامُ بنُ المغيرةِ .  
وقال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ : «لَوْ دَخَلَ أَحَدُنَا مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ الْجَنَّةَ لَدَخَلَهَا هِشَامُ  
ابنُ المغيرةِ ، كَانَ أَبْذَلَهُمْ لِلْمَعْرُوفِ ، وَأَحْكَمَهُمْ لِلْكَلِّ .  
وقال عُمَرُ بنُ الْخَطَّابِ ، لَا قَلِيلٌ فِي اللهِ ، وَلَا كَثِيرٌ فِي غَيْرِ اللهِ . وَلَوْ بِالْخُلُقِ الْجَزُلِ  
وَالْفَعَالِ الدَّثَرُ ، تُنَالُ الْمَثُوبَةُ لَنَا هِشَامُ بنُ المغيرةِ ، وَلَكِنْ بِنُوحِيدِ اللهِ ، وَالْجِهَادِ  
فِي سَبِيلِهِ .

وقال خِدَاشُ بنُ زُهَيْرٍ فِي يَوْمِ شَمْطَةِ<sup>(١)</sup> ، وَهُوَ أَحَدُ أَيَّامِ الْفِجَارِ ، وَهُوَ عَدُوُّ قُرَيْشٍ  
وَحَصْمُهَا :

وَبَلَّغْ إِنْ بَلَغْتَ بَنَا هِشَامًا وَذَا الرُّمَحِينَ بَلَّغْ وَالْوَلِيدَا<sup>(٢)</sup>  
أُولَئِكَ إِنْ يَكُنْ فِي النَّاسِ جُودٌ فَإِنَّ لَدَيْهِمْ حَسَبًا وَجُودًا  
هُمْ خَيْرُ الْمَعَاشِرِ مِنْ قُرَيْشٍ وَأَوْرَاهَا إِذَا قَدَحُوا زُنُودًا

(١) لقيس على كنانة وقريش . وشمطة : موضع قريب من عكاظ .

(٢) أيام العرب في الجاهلية ٣٣٢ .

وقال أيضا وذكرها في تلك الحروب :

يَا شَدَّةَ مَا شَدَدْنَا غَيْرَ كَاذِبَةٍ عَلَى سَخِينَةٍ لَوْلَا اللَّيْلُ وَالْحَرَمُ<sup>(١)</sup>  
إِذَا تَقَفْنَا هِشَامًا بِالْوَلِيدِ وَلَوْ أَنَّا تَقَفْنَا هِشَامًا شَالَتِ الْجَذَمُ  
وَذَكَرَهُمْ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي تِلْكَ الْحُرُوبِ فَقَالَ :

أَلَا لِلَّهِ قَوْمٌ وَلَدْتُ أُخْتُ بَنِي سَهْمٍ<sup>(٢)</sup>  
هِشَامٌ وَأَبُو عَبْدِ مَنْفٍ مِذْرَهُ الْخَصَمُ  
وَذُو الرَّحْمَنِ أَشْبَاكَ مِنَ الْقُوَّةِ وَالْحَزَمُ<sup>(٣)</sup>  
فَهَذَا يَذُودَانِ وَذَا عَنْ كَثَبٍ يَرْمِي  
وَهُمْ يَوْمَ عُكَاظٍ مَ نَمَّوْا النَّاسَ مِنَ الْهَزَمِ  
بِجَاوَاءِ طَحُونٍ فَخْصَمَةِ الْقَوَائِسِ كَالنَّجَمِ  
أَسْوَدٌ تَزْدَهِي الْأَقْرَانِ مَنَّا عُونٌ لِلْهَضَمِ<sup>(٤)</sup>  
فَإِنْ أَحْلَفَ وَبَيْتِ اللَّهِ لَا أَحْلَفُ عَلَى إِثْمِ  
وَمَا مِنْ إِخْوَةٍ بَيْنَ دُرُوبِ الشَّامِ وَالرَّذَمِ  
بَأْذَى مِنْ بَنِي رَيْطَةٍ أَوْ أَرْزَنٍ مِنْ حَلَمِ

رَيْطَةُ ، هِيَ أُمُّ وَلَدِ الْمَغِيرَةِ ، وَهِيَ رَيْطَةُ بِنْتُ سَعِيدِ بْنِ سَهْمٍ بْنِ عَمْرِو بْنِ هَضِصِ  
ابْنِ كَثَبٍ ، وَأَبُو عَبْدِ مَنْفٍ هُوَ أَبُو أُمَيَّةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، وَيُعْرَفُ بِزَادِ الرَّكْبِ ، وَاسْمُهُ خُذَيْفَةُ ،  
وَأَمَّا قِيلُ لَهُ : زَادُ الرَّكْبِ لِأَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ مَسَافِرًا لَمْ يَتَزَوَّدْ مَعَهُ أَحَدٌ ، وَكَانَتْ

(١) الْأَغَانِي ١٩ : ٧٦ ؛ مِنْ أَبْيَاتِ أَرْبَعَةٍ ، وَالثَّانِي فِي لِسْبِ قَرِيشٍ ٣٠٠ مَعَ اخْتِلَافٍ فِي الرِّوَايَاتِ .

(٢) الْأَغَانِي ١ : ٦٢ ، الْأُمَالِي ٣ : ١٩٦ ، ١٩٧ ( طَبْعَةُ دَارِ الْكِتَابِ ) .

(٣) فِي الْأَصُولِ : « أَشْبَالِ » ، صَوَابُهُ مِنَ الْأُمَالِي ٢ : ٢٠٨ . قَالَ ، يُقَالُ : أَشْبَاكَ بِفُلَانٍ ؛ كَمَا يُقَالُ

حَبِيبُكَ بِفُلَانٍ ؛ وَأَنْشَدَ الْبَيْتَ .

(٤) الْأَغَانِي : « نَمَّوْا النَّاسَ مِنَ الْهَزَمِ » .

عنده عاتكة بنت عبد المطّاب بن هشام ، وأمّا ذو الرّمحين فهو أبو ربيعة بن النيرة  
واسمه عمرو ، وكان المغيرة يُسكنى بأسم ابنه الأكبر ، وهو هاشم ، ولم يُعقب إلا من  
حنثمة ابنته ، وهى أمّ عمر بن الخطّاب .

وقال ابنُ الزُّبَيْرِ يمدح أبا جهل :

رُبَّ نَدِيمٍ ماجِدِ الأصلِ      مهذَّبِ الأعراقِ والنَّجْلِ  
منهم أبو عبد منافٍ وكم      سربت بالضخْمِ على المدلِ  
عمرو الندى ذاك وأشياعهُ      ما شئتَ من قولٍ ومن فعلِ

وقال الورْد بن خِلاس السَّهْمِيّ : سَهْمٌ باهلة يمدح الوليد :

إذا كنت في حيٍّ جذِيعَةٍ ثاويًا      فعندَ عَظِيمِ القَريَتَيْنِ وليدُ  
فذاك وحيدُ الرأى مشترك الندى      وعِصْمَةُ مَلُوفِ الجَنانِ عميدُ

وقال أيضا :

إنَّ الولِيدَيْنِ والأبناء ضاحية      رَبًّا تَهَامَةً في الميسورِ والعُسْرِ  
همُ الغِيَاثُ وبعضُ القومِ قِرْقَمَةٌ      عزَّ الدَّلِيلِ وغيظُ الحاسدِ الوَغْرِ

وقال :

ورهُطَكَ يَا بَنَ الغَيْثِ أَكْرَمُ مَحْتَدٍ      وأمنع للجبارِ اللَّسيفِ المَهْضَمِ  
قالوا : الغيثُ لَقَبُ المغيرة ، وجعل الوليدَ وأخاه هشامًا رَبِّي تَهَامَةً كما قال لبيدُ بنُ  
ربيعة في حُدَيْفَةَ بنِ بَدْر :

وَأَهْلَكُنَّ يَوْمًا رَبَّ كِنْدَةَ وَأَبْنَهُ      وربَّ معدٍّ بين خَبْتٍ وعَرَعرٍ (١)  
فجعله رَبَّ مَعَدٍّ .

\*\*\*

قالوا : يدلّ على قدر مخزوم ما رأينا من تعظيم القرآن لشأنهم دون غيرهم من سائر قريش ، قال الله تعالى مخبراً عن العرب : إنهم قالوا : ﴿لَوْ لَا أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِينَ عَظِيمٍ﴾<sup>(١)</sup> فأحدُ الرّجاءين العظيمين بلا شكّ الوليدُ بنُ المغييرة ، والآخر مختلفٌ فيه ؛ أهو عروة بنُ مسعود ، أم جدُّ المختار بنِ أبي عبيد .  
وقال سبحانه في الوليد : ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا \* وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا...﴾<sup>(٢)</sup> الآيات .

قالوا : وفي الوليد نزلت : ﴿أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى فَأَن ت لَهُ تَصَدَّى﴾<sup>(٣)</sup> .  
وفي أبي جهل نزلت : ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾<sup>(٤)</sup> .  
وفيه نزلت : ﴿فَلْيَدْعُ نَارِيَهُ﴾<sup>(٥)</sup> .

وفي مخزوم : ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِيَ النَّمَةِ﴾<sup>(٦)</sup> .  
وفيه نزلت : ﴿مَآخُولُنَا كُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾<sup>(٧)</sup> .

وزعم اليعقوبيّ أبو اليقظان وأبو الحسن أن الحجاج سأل أعشى همدان عن بيوتات قريش في الجاهليّة ، فقال : إنّني قد آليتُ ألا أنقر أحداً على أحد ، ولكن أقول وتسمعون ، قالوا : فقل . قال : من أيّهم المحبّب في أهله ، المؤرّخ بذكره ، محلّي الكعبة ، وضارب القبة ، والملقب بالخير ، وصاحب الخير والمير ؟ قالوا : من : بني مخزوم ، قال : فمن أيّهم ضجيجُ بسباسة ، والمنحور عنه ألف ناقة ، وزاد الركب ، ومبيّض البطحاء ؟ قالوا : من بني مخزوم ، قال : فمن أيّهم كان المقنعُ في حكمه ، والمنفذ وصيته على تهكمه ، وعدل الجميع في الرّفاة ، وأوّل من وّضَعَ أساسَ الكعبة ؟ قالوا من بني مخزوم ، قال : فمن

(٢) سورة المدثر ١١ - ١٣ .

(٤) سورة الدخان ٤٩ .

(٦) سورة المزمل ١١ .

(١) سورة الزخرف ٣١ .

(٣) سورة عبس ٥ ، ٦ .

(٥) سورة العلق ١٧ .

(٧) سورة الأنعام ٩٤ .



أبيهم صاحب الأريكة ، ومُطعم الخزيرة ، قالوا من بنى مخزوم ؛ قال فَمِنْ أَيْهِمُ الْإِخْوَةُ الْعَشْرَةُ ،  
الكرام البرّة ؟ قالوا من بنى مخزوم ، قال : فهو ذاك ؛ فقال رجلٌ من بنى أميّة ، أيها  
الأمير ، لو كان لهم مع قديتهم حديث إسلام ! فقال الحجاج : أو ما علمت بأنّ منهم ردّاد  
الرّدة ، وقاتل مُسَيْلِمَةَ ، وآسِر طُليحة ، والمُدْرِكُ بالطائفة ، مع الفتوح العظام والأبداي  
الجسام ! فهذا آخر ما ذكره أبو عثمان .

ويمكن أن يُزاد عليه فيقال : قالت مخزوم ما أنصفنا من اقتصر في ذكرنا على أن قال :  
مخزوم ربحانة قريش ، تحبّ حديث رجالهم ، والتكاح في نساءهم ، ولنا في الجاهليّة والإسلام  
أثر عظيم ، ورجال كثيرة ، ورؤساء شهيرة ، فمنّا المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ،  
كان سيّد قريش في الجاهليّة ، وهو الذي منّع فزارة من الحجّ للماعز خشين بن لؤي  
الغزاري ، ثمّ السّمخى قوماً من قريش إنهم يأخذون ما ينحره العرب من الإبل في  
الموسم ، فقال خشين لما منع من الحجّ :

يَا رَبِّ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ عَقِيرَةٍ أَصْلَحُ مَالِي وَأَدْعُ تَنْجِيرَةٍ  
فَإِنَّ مِنَّا مَانِعَ الْمَغِيرَةِ وَمَانِعاً بَعْدَ مِنِّي بَثِيرَةٍ  
\* وَمَانِعاً بَيْنَكَ أَنْ أَزُورَهُ \*

منّا بنو المغيرة العشرة أمّهم ريّطة ، وقد تقدّم ذكر نسبها ، وأمّها عاتكة بنت عبد  
المزّي بن قصى ، وأمّها الحظيّة بنت كعب بن سعد بن تيم بن مرّة ، أول امرأة من  
قريش ضربت قباب الأدم بنى الجّاز ، ولها يقول الشاعر :

مَضَى بِالصَّالِحَاتِ بَنُو الْحَظِيَّاتِ وَكَانَ بِسَيْفِهِمْ يَغْنَى الْفَقِيرُ

فَمِنْ هَؤُلَاءِ - أَعْنَى الْحَظِيَّاتِ - الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ أُمُّ صَخْرَةَ بِنْتُ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

ابن عبد شمس القشيري ، كان أبو طالب بن عبد المطلب يفتخر بأنه خاله ، وكفاك من رجل  
يفتخر أبو طالب بخُؤلته ! ألا ترى إلى قول أبي طالب :

وخالي الوليد قد عرفتم مكاثه وخالي أبو العاصي إياس بن معبد

ومنهم حفص بن المغيرة ، وكان شريفا . وثمان بن المغيرة . وكان شريفا . ومنهم  
السيد المطاع هشام بن المغيرة ، وكان سيد قريش غير مدافع ، له يقول أبو بكر بن الأسود  
ابن شعوب يرثيه :

ذريني أصطبح يا بكر إني رأيت الموت نقب عن هشام -  
تخييره ولم يمدل سواء ونعم المرء بالبذل الحرام !  
وكنْتُ إذا ألقيه كأني إلى حرَم وفي شهر حرام -  
فودَّ بنو المغيرة لو فدوه بألفٍ مُقاتِل وبألفٍ رام -  
وودَّ بنو المغيرة لو فدوه بألفٍ من رجالٍ أو سوام -  
فبكيه ضباغ ولا تملئي هشاماً إنَّهُ غيثُ الأنام -

ويقول له الحارث بن أمية الضمري :

ألا هلك القنّاص والحامِل الثَّقْلَا ومن لا يَصْن عن عَشيرته فَضْلا -  
وحَرْبٍ أبا عَثْمَانَ أَطْفَأَتْ نارَها ولولا هِشامٌ أوقَدَتْ حَطَباً جَزْلا -  
وعانٍ تريكِ يَسْتَكِين لِمَلَّةٍ فَكُنْتُ أبا عَثْمَانَ عَنِ يَدِهِ النُّلا -  
ألا لَسْتُ كَالْهَلَكِ فُتَبَكَّى بِكاءِهِمْ وَلَكِنْ أَرى الْهُلْكَ في جَنْبِهِ وَغُلا -  
غداة غَدَتْ تَبْكِي ضِباعَةُ غَيْثَنا هِشاماً وَقَدْ أَغْلَتْ بِمَهْلِكِهِ ضَحْلا -  
ألم تَرَيَا أَنَّ الْأمانَةَ أَصْعَدَتْ مع الذَّمِّ إِذْ وَلَّى وَكانَ لَها أَهْلا !

وقال أيضاً يكيه ويرثيه :

وأصبح بطن مكة مقشيراً      شديد المحل ليس به هشام  
يروح كأنه أشلاء سوطٍ      وفوق جفانه شحم ركام  
فلكبراء أكل كيف شاءوا      ولولدان لقم واغتنام  
فبكيه ضباع ولا تملئ      ثمال الناس إن قحط النعام  
وإن بنى المنيرة من قریش      هم الرأس القدم والسنام

وضباعة التي تذكرها الشعراء زوجة هشام ، وهي من بنى قشير .

قال الزبير بن بكار : فلما قال الحارث : « ألا لست كالهلكي . . . » البيت ،  
عظم ذلك على بنى عبد مناف فأغروا به حكيم بن أمية بن حارثة بن الأوقص السلمي  
حليف بنى عبد شمس ، وكانت قريش رضيت به واستعملته على سيقائها ، ففر منه  
الحارث ، وقال :

أفر من الأباطح كل يوم      مخافة أن ينكل بي حكيم

فهدم حكيم داره ، فأعطاه بنو هشام داره التي بأجباد عوضا منها .

وقال عبد الله بن ثور البكائي يرثيه :

هریق من دموعهما سجاما      ضباع وجاوبی نوحاً قياماً  
على خير البرية لن تراه      ولن تلقى مواهبه العظاماً  
جواد مثل سيل الغيث يوما      إذا علجأته يملو الإكاما  
إذا ما كان عام ذو غرام      حسبت قدوره جبالاً صياماً

فمن للركب إذ أمسوا طروقاً      وغُلقت البيوت فلا هشاماً  
وأوحش بطن مكة بعد أنس      ومجد كان فيها قد أقاماً  
فلم أر مثله في أهل نجد      ولا فيمن بنو رث يا تهاماً

\*\*\*

قال الزبير : وكان فارس قريش في الجاهلية هشام بن المغيرة ، وأبو ليلى بن عبدة ابن حجرة بن عبد بن معيص بن عامر بن لؤي ، وكان يقال له شام . فارس البطحاء ، فلما هلكا كان فارس قريش بعدها عمرو بن عبد العامري المقتول يوم الخندق ، وضرار ابن الخطاب الحاربي الفهري ، ثم هبيرة بن أبي وهب وعكرمة بن أبي جهل الخزوميان . قالوا : وكان عام مات هشام تاريخاً ، كعام الفيل ، وعام الفجار ، وعام بُنيان الكعبة . وكان هشام رئيس بني مخزوم يوم الفجار .

قالوا : ومنا أبو جهل بن هشام ، واسمه عمرو ، وكنيته أبو الحكم ، وإنما كناه « أبا جهل » رسول الله صلى عليه وآله ، كان سيداً أدخلته قريش دار الندوة فسودته وأجلسه فوق الجلة من شيوخ قريش ، وهو غلام لم يطر شاربه ، وهو أحد من ساد على الصبا . والحارث بن هشام أخو أبي جهل كان شريفاً مذكوراً ، وله يقول كعب ابن الأشرف الميمودي الطائي :

نُبئت أن الحارث بن هشام      في الناس بيني المكرمات ويجمع<sup>(١)</sup>  
ليزور يثرب<sup>(٢)</sup> بالجوع وإنما      بيني على الحسب القديم الأروع

وهو الذي هاجر من مكة إلى الشام بأهله وماله في خلافة عمر بن الخطاب ، فتبعه أهل مكة يبكون ، فرق وبكى وقال : إنا لو كنا نستبدل داراً بدار ، وجارا

(١) نسب قريش ٣٠١ .

(٢) في نسب قريش « أثرب » ؛ وهي لغة في « يثرب » .

بجار ، ما أردنا بكم بدلا ، ولكنها النقلة إلى الله عزّ وجلّ ، فلم يزل حابساً نفسه ومن معه بالشام مجاهدا حتى مات .

قال الزبير : جاء الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو إلى عمر بن الخطاب فجلسا عنده وهو بينهما ، فجعل المهاجرون الأولون والأنصار يأتون عمر فيُخَيِّبهما ويقول : ها هنا يا سهيل ، ها هنا يا حارث ! حتى صاروا في آخر الناس ؛ فقال الحارث لسهيل : ألم تر ما صنع بنا عمر اليوم ! فقال سهيل : أيها الرجل ، إنه لا تؤم عليه ، ينبغي أن ترجع باللوّمْ على أنفسنا ، دُعِيَ القومُ ودُعينا ، فأسرّعوا وأبطأنا . فلما قاما من عند عمر أتياه في غدٍ فقالا له : قد رأينا ما صنعت بالأمس ، وعلمنا أننا أتينا من أنفسنا فهل من شيء نستدرك به ؟ فقال : لا أعلم ، إلا هذا الوجه - وأشار لهما إلى ثغر الروم فخرجا إلى الشام ، فجاهدا بها حتى ماتا .

قالوا : ومنا عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، أمه فاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وكان شريفا سيّدا ، وهو الذي قال لمعاوية لما قُتِل حُجْر بن عدى وأصحابه : أين عزّب منك حلْمُ أبي سُفْيَان ، ألا حبستهم في السجون ، وعرضتهم للطاعون ! فقال حين غاب عنى مثلك من قومي . وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام هو الذي رَغِب فيه عثمان بن عفّان وهو خليفة فزوَّجه ابنته .

قالوا : ومنا أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، كان سيّدا جَوَاداً وفقِيها عالما ، وهو الذي قدّم عليه بنو أسد بن خزيمه يسألونه في دِمَاء كانت بينهم ، فاحتَمَل عنهم أربعمائة بعير دية أربعة من القتلى ، ولم يكن بيده مال ، فقال لابنه عبد الله بن أبي بكر : اذهب إلى عمك المغيرة بن عبد الرحمن فأسأله المونة ، فذهب عبد الله إلى عمه فدّكر له ذلك ، فقال المغيرة : لقد أكبر علينا أبوك ، فأنصَرَف عنه عبدُ الله وأقام أيّاما

لا يَذْكُرُ لأبيه شيئاً ، وكان يَقُودُ أباه إلى المسجد وقد ذَهَبَ بصرُهُ ، فقال له أبوه يوماً :  
أَذْهَبْتَ إِلَى عَمِّكَ ؟ قال : نعم ، وسَكَتَ ، فَعَرَفَ حينَ سَكَتَ أَنَّهُ لَنْ يَجِدَ عِنْدَ عَمِّهِ  
مَـأْـيُـحِبَّ . فقال له : يَا بُنَيَّ أَلَا تُخَبِّرُنِي مَا قَالُ لَكَ ؟ قال : أَيْفَعَلَ أَبُو هَاشِمٍ - وَكَانَتْ كُنْيَةُ  
الْمَغِيرَةِ - رَبِّمَا فَعَلَ ، وَلَكِنْ أَعْدُ غَدَاً إِلَى السُّوقِ فَخُذْ لِي عَيْنَةً ، ففدَا عبد الله فتعین  
عينة من السوق لأبيه وباعها ، فأقام أيتاماً لا يَبِيعُ أحدٌ في السوق طعاماً ولا زَيْناً غير  
عبد الله ابنِ أبي بكرٍ من تلك العينة ، فلَمَّا فرغَ أمره أبوه أن يَدْفَعَهَا إلى الأَسَدِيِّينَ  
فَدَفَعَهَا إِلَيْهِمْ .

وكان أبو بكرٍ حَصِيصاً بِعبدِ الملكِ بنِ مَرْوَانَ ، وقال عبدُ الملكِ لابنِهِ الوليدَ لَمَّا حضرته  
الوفاةُ : إِنَّ لِي بِالْمَدِينَةِ صَدِيقَيْنِ فَاحْفَظْنِي فِيهِمَا : عبدُ الله بنُ جَعْفَرٍ بنِ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو بَكْرٍ  
ابنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بنِ هشامٍ .

وكان يقالُ : ثَلَاثَةُ أَبْيَاتٍ مِنْ قَرِيشٍ تَوَالَتْ بِالشَّرَفِ حَمْسَةُ خَمْسَةٍ ، وَعَدَّوْا مِنْهَا أَبَا بَكْرٍ  
ابنَ عبد الرحمن بنِ الحارث بنِ هشامٍ بنِ المغيرة .

قالوا : وَمِنَّا الْمَغِيرَةُ بنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بنِ هشامٍ ، كَانَ أَجَوَدَ النَّاسِ بِالْمَالِ ،  
وَأَطَمَّهِمُ لِلطَّعَامِ ؛ وَكَانَتْ عَيْنُهُ أُسَيْبَتْ مَعَ مَسْلَمَةَ بنِ عبد الملكِ فِي غَزَاةِ الرُّومِ ، وَكَانَ  
الْمَغِيرَةُ يَنْحَرُ الْجُزُورَ ، وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ حَيْثُ نَزَلَ ، وَلَا يَرُدُّ أَحَدًا ، فَجَاءَ قَوْمٌ مِنَ الْأَعْرَابِ  
فَجَلَسُوا عَلَى طَعَامِهِ ، فَجَعَلَ أَحَدُهُمْ يُبَحِّدُ النَّظَرَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ الْمَغِيرَةُ : مَا لَكَ تُبَحِّدُ النَّظَرَ  
إِلَيَّ أَقَالَ : إِنَّ لِي لِرَبِيئِي عَيْنُكَ وَسَهْمُكَ بِالطَّعَامِ ؛ قَالَ : وَمِمَّ ارْتَبْتَ ؟ قَالَ : أَطْنَكَ  
الدَّجَالَ ، لِأَنَا رَوِينَا أَنَّهُ أَعْوَرَ ، وَأَنَّهُ أَطْعَمَ النَّاسَ لِلطَّعَامِ ، فَقَالَ الْمَغِيرَةُ : وَيَحْكُ ! إِنَّ  
الدَّجَالَ لَا تُصَابُ عَيْنُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَلِلْمَغِيرَةِ يَقُولُ الْأَقْبَشَرُ الْأَسَدِيُّ لَمَّا قَدِمَ الْكَوْفَةَ  
فَنَحَرَ الْجُزَرَ وَبَسَطَ الْأَنْطَاعَ وَأَطْعَمَ النَّاسَ ، وَصَارَ صَيْتُهُ فِي الْعَرَبِ :

أَتَاكَ الْبَحْرُ طَمَّ عَلَى قَرِيشٍ مُعِيرَتِي فَقَدْ رَاعَ ابْنَ إِشِيرٍ<sup>(١)</sup>  
 وَرَاعَ الْجَدَى جَدَى التَّيْمِ لَمَّا رَأَى الْمَعْرُوفَ مِنْهُ غَيْرَ نَزَرٍ  
 وَمِنْ أَوْتَارِ عُقْبَةٍ قَدْ شَفَانِي وَرَهْطَ الْحَاطِيَّ وَرَهْطَ صَخْرٍ  
 فَلَا يَفِرُّكَ حُسْنُ الزَّيِّ مِنْهُمْ وَلَا سِرْحَ بَهْرِيونَ وَنَمِرٍ<sup>(٢)</sup>

فَأَبْنُ إِشِيرٍ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ إِشِيرِ بْنِ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ ، وَجَدَى التَّيْمِ : حَمَادُ بْنُ عِمْرَانَ  
 ابْنُ مُوسَى بْنِ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ ، وَأَوْتَارُ عُقْبَةٍ يَعْنِي أَوْلَادَ عُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ ، وَالْحَاطِيَّ  
 أَقْمَانُ بْنُ مُحَمَّدٍ بْنِ حَاطِبِ الْجَحْيِيِّ ، وَرَهْطُ صَخْرٍ : بَنُو أَبِي سُفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ بْنِ أُمَيَّةَ ، وَكُلُّ  
 هَؤُلَاءِ كَانُوا مَشْهُورِينَ بِالْكُوفَةِ ، فَلَمَّا قَدِمَهَا الْمَغِيرَةُ أَهْمَلَتْ ذِكْرَهُمْ ، وَالْمَغِيرَةُ هَذَا هُوَ  
 الَّذِي بَلَغَهُ أَنَّ سُلَيْمَ بْنَ أَفْلَحٍ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ أَرَادَ أَنْ يَبِيعَ الْمَنْزَلَ الَّذِي نَزَلَ  
 فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ مَقْدَمَةَ الْمَدِينَةِ عَلَى أَبِي أَيُّوبَ بِخَمْسِمِائَةِ دِينَارٍ ، فَأَرْسَلَ  
 إِلَيْهِ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَسَأَلَهُ أَنْ يَبِيعَهُ إِيَّاهُ ، فَبَاعَهُ ، فَلَمَّا مَلَكَهُ جَمَلَهُ صَدَقَهُ فِي يَوْمِهِ .

قَالَ الزَّيْبِرُ : وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ يَطَافُ بِهِ بِالْكُوفَةِ عَلَى الْمَجْلِ ،  
 وَكَانَ يَنْتَحِرُ فِي كُلِّ يَوْمٍ جَزُورًا ، وَفِي كُلِّ جَمْعَةٍ جَزَورَيْنِ . وَرَأَى يَوْمًا إِحْدَى جَفَنَاتِهِ  
 مُسَكَّلَةً بِالسَّنَامِ تَكْلِيلًا حَسَنًا ، فَأَعْجَبَهُ ، فَسَأَلَ فَقَالَ : مَنْ كَسَلَهَا ؟ قِيلَ : الْيَسَعَ ابْنُكَ ؛  
 فَسُرَّ ، وَأَعْطَاهُ سِتِينَ دِينَارًا .

وَمَرَّ إِبْرَاهِيمُ بْنُ هِشَامٍ عَلَى بُرْدَةِ الْمَغِيرَةِ وَقَدْ أَشْرَقَتْ عَلَى الْجَفْنَةِ ، فَقَالَ لِعَبْدٍ مِنْ عِبِيدِ  
 الْمَغِيرَةِ : يَا غَلَامَ ، عَلَى أَيْ شَيْءٍ نَصَبْتُمْ هَذَا الثَّرِيدَ عَلَى الْعَمْدِ ؟ قَالَ : لَا ، وَلَكِنْ عَلَى أَعْضَادِ  
 الْإِبِلِ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ الْمَغِيرَةَ ، فَأَعْتَقَ ذَلِكَ الْغَلَامَ .

وَالْمَغِيرَةُ هُوَ الَّذِي مَرَّ بِحَوْرَةِ الْأَعْرَابِ فَقَامُوا إِلَيْهِ ، فَقَالُوا : يَا أَبَا هَاشِمٍ ، قَدْ فَاضَ

(١) لِسَبِّ قَرِيشٍ ٣٠٥ .

(٢) الْبَهْرِيونَ ، بِالضَّمِّ : السُّنْدُسُ ، وَقَالَ ابْنُ بَرِّ : هُوَ رَقِيقُ الدِّيَبَاجِ .

معروفك على الناس ، فما بالناس أشقى الخلق بك ! قال : إنه لا مال معي ، ولكن خذوا هذا الغلام فهو لكم ، فأخذوه ، فبكى الغلام فقال : يا مولاي ، خدمتي وحُرمتي ! فقال : أتبيعوني إياه ؟ قالوا : نعم ، فاشتراه منهم بمالٍ ثمَّ أعتقه ، وقال له : والله لا أعرضك لثلثها أبداً ، اذهب فأنت حرٌّ ، فلما عاد إلى الكوفة حمل ذلك المال إليهم .

وكان المغيرة يأمر بالسَّكْر والجور فيدقان ويُطعمهما أصحاب الصَّفة المساكين ، ويقول : إنهم يشتَهون كما يشتَهى غيرهم ولا يمكنهم ، فخرج المغيرة في سفرٍ ومعه جماعةٌ فوردوا غديراً ليس لهم ماءٌ غيره - وكان ماعاً - فأمر بِقرب العسل فشَقَّت في الغدير وخيضت بمائه ، فما شَرِب أحدٌ منهم حتى راحوا إلا من قرب المغيرة .

وذكر الزبيرُ أنَّ ابناً لهشام بن عبد الملك كان يسوم المغيرة ماله بالمكان المسمَّى بديما ، فلا يبيعه ، فغزاه ابن هشام أرض الروم ومعه المغيرة ، فأصاب الناسَ جماعة في غزاتهم ، فجاء المغيرة إلى ابن هشام فقال : إنك كنت تسوئني مالى ببديع<sup>(١)</sup> ؛ فأبى أن أبيعك ، فاشترى الآن مئتي نصفه بمشرين ألف دينار . فأطعم المغيرة بها الناس ، فلما رجع ابنُ هشام بالناس من غزوته تلك وقد بلغ هشاماً الخبرُ قال لابنه : قَبِّحَ اللهُ رأيك أنت أمير الجيش ، وابن أمير المؤمنين ، يصيبُ الناس معك جماعة فلا تُطعمهم حتى يبيعك رجل سُوقه ماله ، ويطعم به الناس ! وَيَحْك أَخْشَيْتَ أَنْ تَفْتَقِرَ إِنْ أَطْعَمْتَ النَّاسَ !

قالوا : ولنا عِكرمة بن أبي جَهل الذي قام له رسول الله صلى الله عليه وآله قائماً ، وهو بعدُ مُشْرِك لم يُسَلِّمْ ولم يُقَمِّ رسول الله صلى الله عليه وآله لرجُلٍ داخلٍ عليه من الناس شريفٍ ولا مشرفٍ ، إلا عكرمة ، وعكرمة هو الذي اجتهد في نُصرة الإسلام بعد أن كان شديد العداوة ، وهو الذي سأله أبو بكر أن يقبل منه معونةً على الجهاد فأبى ،

(١) بديع : ماء عليه نخيل وعبود جارية يقرب وادى القرى . ياقوت .



وقال : لا آخذ على الجهاد أجراً ولا معونة ، وهو الشهيد يوم أجنّادين ، وهو الذى قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « لا نسألى اليوم شيئاً إلا أعطيتك » ، فقال : فإنى أسألك أن تستغفر لى ؛ ولم يسأل غير ذلك ، وكلّ قريش غيره سألوا المال ، كسُمَيْل بن عمرو وصفوان بن أمية وغيرهما .

قالوا : ولنا الحارث بن خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة ، كان شاعراً مجيداً كثيراً ، وكان أمير مكة استعمله عليها يزيد بن معاوية .

ومن شعره :

مَنْ كَانَ يَسْأَلُ عَنَّا أَيْنَ مَنْزِلُنَا      فَالْأَفْجَوَانَةُ مَنَا مَنْزِلُ قَمِينِ<sup>(١)</sup>  
إِذْ نَلْبَسُ الْعَيْشَ غَضًّا لَا يُكَدِّرُهُ      قَرَبُ الْوُشَاةِ وَلَا يَذْبُو بَنَا الزَّمَنُ  
وأخوه عكرمة بن خالد كان من وجوه قريش ، وروى الحديث ، وروى عنه .

ومن ولد خالد بن العاص بن هشام بن المغيرة خالد بن إسماعيل بن عبد الرحمن ، كان جواداً متلافاً ، وفيه قال الشاعر :

لَمَمْرُكَ إِنْ الْمَجْدَ مَا عَاشَ خَالِدٌ      عَلَى الْعُمُرِ مِنْ ذَى كَبْدَةِ الْمُقِيمِ  
وَتَنْدَى الْبَطَاحُ الْبَيْضُ مِنْ جُودِ خَالِدٍ      وَيُخَصِّصِينَ حَتَّى نَبْتَهِنَ عَمِيمِ  
قالوا : ولنا الأوقص ، وهو محمد بن عبد الرحمن بن هشام بن المغيرة ، كان قاضى مكة ، وكان فقيهاً .

قالوا : ومن قداماء المسلمين عبد الله بن أمية بن المغيرة أخو أم سلمة زوج رسول الله

---

(١) نسب قريش ٣١٣ ، معجم البلدان ١ : ٣٠٩ من غير نسبة . والأفجوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية ..

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، كَانَ شَدِيدَ الْخِلَافِ عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ خَرَجَ مُهَاجِرًا ، وَشَهِدَ فَتْحَ مَكَّةَ وَحُنَيْنَ ، وَقُتِلَ يَوْمَ الطَّائِفِ شَهِيدًا .

وَالْوَلِيدُ بْنُ أُمَيَّةَ ، غَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اسْمَهُ ، فَسَمَّاهُ الْمُهَاجِرَ ، وَكَانَ مِنْ صُلَحَاءِ الْمُسْلِمِينَ .

قَالُوا : وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ أُمَيَّةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، وَبُجَيْرُ بْنُ أَبِي رِيعةَ بْنِ الْمَغِيرَةِ ، غَيَّرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اسْمَهُ ، فَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّهِ ، كَانَا مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ ، وَعَبَّاسُ بْنُ أَبِي رِيعةَ ، كَانَ شَرِيفًا .

قَالُوا : وَمِنْهُمْ الْحَارِثُ الْقُبَاعُ ، وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رِيعةَ ، كَانَ أَمِيرَ الْبَصْرَةِ ، وَعَمْرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رِيعةَ الشَّاعِرُ ، الْمَشْهُورُ ذِي الْفَزَلِ وَالتَّشْبِيبِ .

قَالُوا : وَمِنْ وَلَدِ الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي رِيعةَ الْفَقِيهُ الْمَشْهُورُ ، وَهُوَ الْمَغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ ، كَانَ فَقِيهَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ ، وَعَرَّضَ عَلَيْهِ الرَّشِيدُ جَازَةً أَرْبَعَةَ آلَافِ دِينَارٍ ، فَامْتَنَعَ وَلَمْ يَقْبَلْهُ الْقَضَاءُ .

قَالُوا : وَمَنْ يَعِدُّ مَا تَعَدَّهُ مَخْزُومٌ وَلَهَا خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بْنِ الْمَغِيرَةِ سَيْفُ اللَّهِ ! كَانَ مُبَارَكًا ، مَيْمُونًا لِقَبِيلَةِ شُجَاعَا ، وَكَانَ إِلَيْهِ أَعِنَّةُ الْخَيْلِ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ ، وَشَهِدَ مَعَهُ فَتْحَ مَكَّةَ ، وَجُرِحَ يَوْمَ حُنَيْنٍ ، فَنفَتْ رُسُلُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى جُرْحِهِ فَبَرَأَ ، وَهُوَ الَّذِي قَتَلَ مُسَيْلِمَةَ وَأَسْرَ طَلِيحَةَ وَمَهْدَّ خِلَافَةَ أَبِي بَكْرٍ ؛ وَقَالَ يَوْمَ مَوْتِهِ : لَقَدْ شَهِدْتُ كَذًا وَكَذَا زَحْفًا ، وَمَا فِي جَسَدِي مَوْضِعٌ إِصْبَعٌ إِلَّا وَفِيهِ طَمَعَةٌ أَوْ ضَرْبَةٌ ، وَهَآنَذَا أَمُوتُ عَلَى فَرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعَسِيرُ ، فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجَبَنَاءِ ! وَمَرَّ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى دُورِ بَنِي مَخْزُومٍ وَالنِّسَاءِ يَنْدُبُنْ خَالِدًا ، وَقَدْ وَصَلَ خَبْرُهُ إِلَيْهِمْ

وكان مات بحِمَص ، فوقف وقال : ما على النساء أن يندُبْنَ أبا سليمان ، وهل تقوم حُرّة  
عن مثله ! ثم أنشد :

أتبكي ما وصلت به النداءى ولا تبكي فوارس كالجبالِ  
أولئك إن بكيت أشدُّ فُقدًا من الأنعام والمكر الحلالِ<sup>(١)</sup>  
تَسَى بدمهم قومٌ مَداهمُ فما بَلَّغُوا لِنِياتِ الكَلِ

وكان عمرو مُبِغِضًا لخالد ، ومنحرفا عنه ، ولم يئمنه ذلك من أن صدق فيه .

قالوا : ومنا الوليد بن الوليد بن المغيرة ، كان رجلَ صِدْقٍ من صُحَّاء المسلمين .

ومنا عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، وكان عظيمَ القَدْرِ في أهل الشام ، وخاف معاوية  
منه أن يثب على الخلافة بعدهم ، فسمَّه ؛ أمر طبيبيا له يُدعى ابن أثال فسقاه فقتله .  
وخالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد قاتل ابن أثال بعمه عبد الرحمن والمخالف على بن أمية ،  
والمنقطع إلى بني هاشم . وإسماعيل بن هشام بن الوليد كان أمير المدينة . وإبراهيم ومحمد  
ابنا هشام بن عبد الملك . وأيوب بن سلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، وكان من رجال  
قريش ، ومن ولده هشام بن إسماعيل بن أيوب وسلمة بن عبد الله بن الوليد بن الوليد ، ولى  
شُرطة المدينة .

قالوا : ومن ولد حَفْص بن المغيرة عبدُ الله بن أبي عمر بن حفص بن المغيرة ، هو  
أولُ خَلْقِ الله حاجَّ يزيد بن معاوية .

قالوا : ولنا الأزرق ، وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس  
ابن المغيرة والى اليمن لابن الزبير ، وكان من أجود العرب ، وهو ممدوح أبي دَهَبَل  
الجبلي .

(١) العكر : مافوق الخمسة من الإبل .

(٢) في د : « الناس » .

قالوا : ولنا شريك رسول الله صلى الله عليه وآله ، وهو عبد الله بن السائب بن أبي السائب ، واسم أبي السائب صَيْقَى بن عائذ بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، كان شريك النبي صلى الله عليه وآله في الجاهلية ، فجاءه يوم الفتح فقال له : أتعرفني ؟ قال : ألسْتُ شريكِي ؟ قال : بلى ، قال : لقد كنت خيرَ شريك ، لا تُشارِي ولا تُمارِي .

قالوا : ومنا الأرقم بن أبي الأرقم الذي استتر رسول الله في داره بمكة في أوّل الدعوة ، واسم أبي الأرقم عبد مناف بن أسد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومنا أبو سلمة بن عبد الأسد ، واسمه عبد الله ، وهو زوج أمّ سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة ، قبل رسول الله صلى الله عليه وآله ، شهد أبو سلمة بدرًا ، وكان من صلحاء المسلمين .

قالوا : لنا هُبيرة بن أبي وهب ، كان من الفرسان المذكورين ؛ وابنه جمعة بن هبيرة ؛ وهو ابن أخت علي بن أبي طالب عليه السلام ، أمه أم هانئ بنت أبي طالب ، وابنه عبد الله ابن جمعة ابن هُبيرة هو الذي فتح القُهندر وكثيرًا من خُرَاسانَ ، فقال فيه الشاعر :

لولا ابنُ جمعة لم تَفْتَحْ قُهندركم ولا خراسانُ حتى ينفخُ الصُّورُ

قالوا : ولنا سعيد بن المسيب الفقيه المشهور . وأما الجواد المشهور فهو الحكم بن المطلب ابن حنطب بن الحارث بن عبيد بن عمر بن مخزوم .

وقد اختصرنا واقتصرنا على من ذكرناه ، وتركنا كثيرًا من رجال مخزوم خوف الإسهاب .

\*\*\*

وينبغي أن يقال في الجواب : إن أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل هذا الكلام احتقارًا لهم ، ولا استصغارًا لشأنهم ، ولكن أمير المؤمنين عليه السلام كان أكثرَ همّه يوم المفاخرة أن يفاخر بني عبد شمس لما بينه وبينهم ، فلما ذكر مخزوما بالمرّض قال فيهم ما قال ، ولو كان يريد مفاخرتهم لما اقتصر لهم على ما ذكره عنهم ، على أن أكثر هؤلاء الرجال إسلاميون بعد عصر عليّ عليه السلام ، وعليّ عليه السلام إنما يذكر من قبله لا من بعده .

فإن قلت : إذا كان قد قال في بني عبدِ شمس إنهم أَمْنَعُ لما وراءَ ظهورهم ، ثم قال في بني هاشم : إنهم أَسْمَحُ عند الموت بنفوسهم ، فقد تناقض الوصفان .

قلتُ : لا مُناقضةَ بينهما ، لأنه أراد كثرة بني عبدِ شمس ، فبالكثرة تمنع ما وراء ظهورها ، وكان بنو هاشم أقلَّ عددا من بني عبدِ شمس ، إلا أن كلَّ واحد منهم على انفراده أشجع وأسمح بنفسه عند الموت من كلَّ واحد على انفراده من بني عبدِ شمس ، فقد بان أنه لا مُناقضةَ بين القولين .

— ٣١٠ —

(١١٧)

الأصل :

شَتَانِ مَا بَيْنَ عَمَلَيْنِ ؛ عَمَلٍ تَذْهَبُ لِدَنَّهُ ، وَتَبْقَى تَبِعَتُهُ ؛ وَعَمَلٍ تَذْهَبُ  
مَوُوتُهُ ، وَيَبْقَى أَجْرُهُ .

\* \* \*

الشرح :

أخذ هذا المعنى بعض الشعراء ، فقال :

تَفْسَى اللَّذَاذَةُ يَمِّنَ نَالِ بُغْيَتِهِ      من الحرام ويبقى الإثمُ والعارُ  
تُبْقَى عَوَاقِبَ سُوءٍ فِي مَغْبَتِهَا      لا خيرَ في لذّةٍ من بعدِها النَّارُ

(١١٨)

### الأصل :

وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ تَبِعَ جَنَازَةً فَسَمِعَ رَجُلًا يَضْحَكُ ، فَقَالَ :  
كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ ، وَكَأَنَّ الْحَقَّ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا وَجَبَ ، وَكَأَنَّ  
الَّذِي نَرَى مِنَ الْأَمْوَاتِ سَهْرًا عَمَّا قَلِيلٍ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ، نُبَوِّئُهُمْ أَجْدَانَهُمْ ،  
وَنَأْكُلُ نُرَانَهُمْ ، كَأَنَّا مُخَلَّدُونَ بَعْدَهُمْ ، قَدْ نَسِينَا كُلَّ وَاعِظٍ وَوَاعِظَةٍ ، وَرُمِينَا  
بِكُلِّ جَائِحَةٍ .  
طُوبَى لِمَنْ ذَلَّ فِي نَفْسِهِ ، وَطَابَ كَسْبُهُ ، وَصَلَحَتْ سِرِّيَّتُهُ ، وَحَسُنَتْ خَلِيقَتُهُ ،  
وَأَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ ، وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ لِسَانِهِ ، وَعَزَلَ عَنِ النَّاسِ شَرَّهُ ،  
وَوَسِعَتُهُ السَّنَةُ ، وَلَمْ يُنْسَبْ إِلَى بِدْعَةٍ .

\*\*\*

قَالَ الرَضِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : أَقُولُ : وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنْسُبُ هَذَا الْكَلَامَ إِلَى  
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ .

\*\*\*

### التبريح :

الأشهر الأكثر في الرواية أن هذا الكلام من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله  
ومثل قوله : « كَأَنَّ الْمَوْتَ فِيهَا عَلَى غَيْرِنَا كُتِبَ » قول الحسن عليه السلام : مَا رَأَيْتُ حَقًّا  
لَا بَاطِلَ فِيهِ أَشْبَهَ بِبَاطِلٍ لَا حَقَّ فِيهِ مِنَ الْمَوْتِ ؛ وَالْأَلْفَاظُ الَّتِي بَعْدَهُ وَاضِحَةٌ لَيْسَ فِيهَا  
مَا يُشْرَحُ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ نَظَائِرِهَا .

(١١٩)

الأصل :

غَيْرَةُ الْمَرْأَةِ كُفْرٌ ، وَغَيْرَةُ الرَّجُلِ إِيمَانٌ .

\*\*\*

الشرح :

الرجوع في هذا إلى العقل والتماذك ، فلما كان الرجل أعقل وأشد تماسكا كانت غَيْرَتُهُ في موضعها ، وكانت واجبة عليه ، لأن النهي عن المتكر واجب ، وفعل الواجبات من الإيمان ، وأما المرأة فلما كانت أنقص عقلا وأقل صبرا كانت غَيْرَتُهَا على الوهم الباطل والخيال غير المحقق ، فكانت قبيحة لوقوعها غير موقعها ، وسمّاها عليه السلام كُفْرًا لمشاركتها الكُفْرَ في القُبْحِ فأجرى عليها اسمه .

وأيضا فإن المرأة قد تؤدّي بها الغيرة إلى ما يكون كُفْرًا على الحقيقة كالسحر ، فقد ورد في الحديث المرفوع أنه كُفْرٌ ، وقد يُفصى بها الصَّجَرُ والقلق إلى أن تتسخط وتشتت وتلفظ بالفاظ تكون كُفْرًا لا محالة .



(١٢٠)

الأفضل :

لأنَّ نِسْبَةَ الإسلامِ نِسْبَةٌ لَمْ يَنْسُبْهَا أَحَدٌ قَبْلِي . الإسلامُ هُوَ التَّسْلِيمُ ، والتَّسْلِيمُ هُوَ اليَقِينُ ، واليَقِينُ هُوَ التَّصَدِيقُ ؛ والتَّصَدِيقُ هُوَ الإِقْرَارُ ، والإِقْرَارُ هُوَ الأَدَاءُ ، والأَدَاءُ هُوَ الْعَمَلُ .

\*\*\*

الْبَيِّنَاتُ :

خلاصةُ هذا الفصل تقتضى صحةَ مذهب أصحابنا المعتزلة في أنَّ الإسلامَ والإيمانَ عبارتان عن معبَرٍ واحدٍ ، وأنَّ العملَ داخلٌ في مفهومِ هذه اللفظة ، ألا تراه جَعَلَ كُلَّ واحدةٍ من اللَّفْظَاتِ قائمةً مقامَ الأخرى في إفادةِ المفهومِ ، كما تقول : اللَّيْثُ هُوَ الْأَسَدُ وَالْأَسَدُ هُوَ السَّبْعُ ، والسَّبْعُ هُوَ أَبُو الْحَارِثِ ! فلا شُبْهَةَ أَنَّ اللَّيْثَ يَكُونُ أَبُو الْحَارِثِ ؛ أَيْ أَنَّ الْأَسْمَاءَ مُتَرَادِفَةٌ ، فَإِذَا كَانَ أَوَّلُ اللَّفْظَاتِ الإسلامَ ، وآخرها الْعَمَلُ ، دَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الإسلامُ ؛ وهكذا يقول أصحابنا : إِنَّ تَارَكَ الْعَمَلَ وَتَارَكَ الْوَاجِبَ لَا يَسْمَى مُسْلِمًا .

فإن قلت : هَبْ أَنْ كَلَامَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَدُلُّ عَلَى مَا قُلْتُ ، كَيْفَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الإسلامَ

هُوَ الْإِيمَانُ ؟

قلت : لِأَنَّهُ إِذَا دَلَّ عَلَى أَنَّ الْعَمَلَ هُوَ الإسلامَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْإِيمَانُ هُوَ الإسلامَ لِأَنَّ

كُلٌّ مِنْ قَالِ : إِنَّ الْعَمَلَ دَاخِلٌ فِي مُسَمًّى الْإِسْلَامَ ؛ قَالَ : إِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ الْإِيمَانُ ،

فأقول بأنّ العمل داخلٌ في مسمّى الإسلام ، وليس الإسلام هو الإيمان ، قول لم يُقَلَّ به أحدٌ ؛ فيكون الإجماع واقعا على بُطلانه .

فإن قلتَ : إنّ أمير المؤمنين عليه السلام لم يقل كما تقوله المعتزلة ، لأنّ المعتزلة تقول : الإسلام اسمٌ واقعٌ على العمل وغيره من الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وأمير المؤمنين عليه السلام جعل الإسلام هو العمل فقط ، فكيف ادّعت أنّ قولَ أمير المؤمنين عليه السلام يُطابق مذهبهم ؟

قلت : لا يجوز أن يريد غيره ، لأنّ لفظ العمل يشمل الاعتقاد ، والنطق باللسان ، وحركات الأركان بالعبادات ، إذ كلُّ ذلك عملٌ وفِعْلٌ ، وإن كان بعضه من أفعال القلوب ، وبعضه من أفعال الجوارح ، ولو لم يُرد أمير المؤمنين عليه السلام ما شرّحناه لكان قد قال : الإسلام هو العمل بالأركان خاصة ، ولم يعتبر فيه الاعتقاد القلبيّ ، ولا النطق اللهظيّ ، وذلك مما لا يقوله أحد .

(١٢١)

الأفضل :

عَجِبْتُ لِلْبَخِيلِ يَسْتَمِجِلُ الْفَقْرَ الَّذِي مِنْهُ هَرَبَ ، وَيَفُوتُهُ الْفَنَى الَّذِي إِتَاهُ  
 طَلَبَ ، فَيَمِيشُ فِي الدُّنْيَا عَيْشَ الْفُقَرَاءِ ، وَيَحَاسِبُ فِي الْآخِرَةِ حِسَابَ الْأَغْنِيَاءِ ،  
 وَعَجِبْتُ لِلْمُتَكَبِّرِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ نُطْفَةً ، وَيَكُونُ غَدًا جِيفَةً ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ  
 شَكَّ فِي اللَّهِ وَهُوَ يَرَى خَلْقَ اللَّهِ ، وَعَجِبْتُ لِمَنْ نَسِيَ الْمَوْتَ وَهُوَ يَرَى مَنْ يَمُوتُ ،  
 وَعَجِبْتُ لِمَنْ أَنْكَرَ النِّشْأَةَ الْآخِرَى وَهُوَ يَرَى النِّشْأَةَ الْأُولَى ، وَعَجِبْتُ لِمَا يَرَى  
 دَارَ الْفَنَاءِ ، وَتَارِكِ دَارِ الْبَقَاءِ .

\*\*\*

الْبَيْتُ :

قال أعرابي : الرِّزْقُ الواسِعُ لِمَنْ لَا يَسْتَمْتِعُ بِهِ بِمَنْزِلَةِ الطَّعَامِ الْمَوْضُوعِ عَلَى قَبْرِ .  
 ورأى حكيمٌ رجلاً مُثَرِّياً يأكل خُبْزاً ومِلْحاً ، فقال : لِمَ تَفْعَلُ هَذَا ؟ قال : أَخَافُ الْفَقْرَ ،  
 قال : فَقَدْ تَعَجَّلْتَهُ . فَأَمَّا الْقَوْلُ فِي الْكِبَرِ وَالتَّيِّهِ فَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهُ مَا فِيهِ كِفَايَةٌ ؛ وَقَالَ  
 ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ : مَا تَأْتِي عَلَى أَحَدٍ قَطُّ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ وَاحِدَةٍ ، أَخَذَ هَذَا الْمَعْنَى شَاعِرٌ  
 فَقَالَ وَأَحْسَنَ :

هذه منك فإن عُدَّ تَ إِلَى الْبَابِ فَنُتِ

وقد تقدم من كلامنا في نظائر هذه الألفاظ المذكورة ما يُفنى عن الإطالة ها هنا .

(١٢٢)

الأصل :

مَنْ قَصَرَ فِي الْعَمَلِ ، ابْتُلِيَ بِالْهَمِّ .

\*\*\*

الشرح :

هذا مخصوصٌ بأصحاب اليقين ، والاعتقاد الصحيح ، فإنهم الذين إذا قصّروا في العمل ابتلوا بالهم ، فأما غيرهم من المسرفين على أنفسهم وذوى النقص في اليقين والاعتقاد ، فإنه لا همّ يَمُرُّوهم وإن قصّروا في العمل ، وهذه الكلمة قد جرّبناها من أنفسنا فوجدنا مصداقها واضحا ، وذلك أن الواحد منا إذا أخلّ بفريضة الظهر مثلا حتى تغيب الشمس وإن كان أخلّ بها لُذْرٌ وجد ثِقْلا في نفسه وكسلا وقلة نشاط ، وكأنه مشكولٌ بشكالٍ أو مقيدٌ بقيد ، حتى يقضى تلك الفريضة ، فكأنما أنشط من عقال .

(١٢٣)

الأُصل :

لَا حَاجَةَ لِلَّهِ فِيمَنْ لَيْسَ لِلَّهِ فِي مَالِهِ وَنَفْسِهِ نَصِيبٌ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

قد جاء في الخبر المرفوع : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا ابْتَلَاهُ فِي مَالِهِ أَوْ فِي نَفْسِهِ » .  
وجاء في الحديث المرفوع : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَسَدٍ لَا يَمْرُضُ ، وَمِنْ مَالٍ لَا يُصَابُ » .

وروى عبد الله بن أنس عنه صلى الله عليه وآله أنه قال : « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَصِحَّ فَلَا يَسْقَمُ؟ » ، قالوا : كُلُّنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : « أَتُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا كَالْحُمُرِ الصَّائِلَةِ؟ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا أَصْحَابَ بَلَايَا وَأَصْحَابَ كَفَّارَاتٍ ! وَالَّذِي بَعَثَنِي بِالْحَقِّ إِنَّ الرَّجُلَ لَتَكُونَ لَهُ الدَّرَجَةُ فِي الْجَنَّةِ فَلَا يَبْلُغُهَا شَيْءٌ مِنْ عَمَلِهِ فَيَبْتَلِيهِ اللَّهُ لِيُبَلِّغَهُ اللَّهُ دَرَجَةً لَا يَبْلُغُهَا بِعَمَلِهِ » .

وفي الحديث أيضا : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمْرُضُ مَرَضًا إِلَّا حَتَّ اللَّهُ بِهِ خَطَايَاهُ كَمَا تَحْتُ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا » .

وروى أبو عثمان النهدي قال : دخل رجل أعرابي على رسول الله صلى الله عليه وآله ذو جُسمَانٍ عَظِيمٍ ، فقال له : مَتَى عَهْدُكَ بِالْحَمَى ؟ قال : مَا أَعْرِفُهَا ، قال : بِالصَّدَاعِ ،

قال : ما أُجِدُّ ما هو ؟ قال : فَأُصِيبَتْ بِمَالِكٍ ؟ قال : لا ، قال : فَرُزْتُ بِوَكْدِكَ ؟ قال : لا ، فقال عليه السلام : « إِنَّ اللَّهَ لَيَسْكُرُهُ الْعَفْرِيَتُ النَّفْرِيَتُ الَّذِي لَا يُرْزَأُ فِي وَلَدِهِ وَلَا يُصَابُ فِي مَالِهِ » .

وجاء في بعض الآثار : « أَشَدُّ النَّاسِ حَسَابًا الصَّحِيحُ الْفَارِغُ » .  
وفي حديث حذيفة رضي الله عنه : إِنَّ أَقْرَبَ يَوْمٍ لِمَعْنَى لَيْوَمٍ لَا أُجَدُّ فِيهِ طَعَامًا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يَقُولُ : « إِنَّ اللَّهَ لَيَتَعَاهَدُ عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالْبَلَاءِ كَمَا يَتَعَاهَدُ الْوَالِدُ وَلَدَهُ بِالطَّعَامِ ، وَإِنَّ اللَّهَ يَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ كَمَا يَحْمِي أَحَدَكُمْ الْمَرِيضَ مِنَ الطَّعَامِ » .

وفي الحديث المرفوع أيضا : « إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا أَبْتَلَاهُ ، فَإِذَا أَحَبَّهُ الْحَبُّ الْبَالِغُ أَقْتَنَاهُ » قالوا : وما أَقْتَنَاهُ ؟ قال : « أَلَّا يَتْرُكْ لَهُ مَالًا وَلَا وَلَدًا » .

مرَّ موسى عليه السلام برجل كان يعرفه مطيما لله قد مرَّ قَتَّ السَّبَاعُ لَحْمَهُ وَأَضْلَاعَهُ ، وَكَبِدُهُ مَلَقَاتُهُ ، فَوَقَّفَ مَتَعَجِّبًا فَقَالَ : أَيُّ رَبٍّ ، عَبْدُكَ الْمَطِيحُ لَكَ ابْتِلَايَتُهُ بِمَا أَرَى ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ : إِنَّهُ سَأَلَنِي دَرَجَةً لَمْ يَبْلُغْنِيهَا بِعَمَلِهِ ، فَجَعَلْتُ لَهُ بِمَا تَرَى سَبِيلًا إِلَى تِلْكَ الدَّرَجَةِ .

وجاء في الحديث : « إِنَّ زَكَرِيَّا لَمْ يَزَلْ يَرَى وَلَدَهُ يَحْمِي مَغْمُومًا بِأَكْيَا مَشْغُولًا بِنَفْسِهِ ، فَقَالَ : يَا رَبِّ طَلَبْتُ مِنْكَ وَلَدًا أَنْتَفِعَ بِهِ فَرَزَقْتَنِيهِ لَا نَفْعَ لِي فِيهِ ، فَقَالَ لَهُ : إِنَّكَ طَلَبْتَهُ وَلَيْتَا ، وَالْوَلِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا هَكَذَا ، مِسْقَامًا فَقِيرًا مَهْمُومًا .

وقال سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ : كَانُوا لَا يَعْدُونَ الْفَقِيهَ فَقِيهًا مَنْ لَا يَعُدُّ الْبَلَاءَ نِعْمَةً وَالرَّخَاءَ مُصِيبَةً .

جابر بن عبد الله يرفعه : « يَوَدُّ أَهْلُ الْمَالِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَنْ لِحُومِهِمْ كَانَتْ تُقَرَّضُ بِالْمَقَارِيضِ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ثَوَابِ أَهْلِ الْبَلَاءِ » .

(١٢٤)

### الأصل :

تَوَقَّوْا الْبَرْدَ فِي أَوَّلِهِ ، وَتَلَقَّوْهُ فِي آخِرِهِ ؛ فَإِنَّهُ يَفْعَلُ فِي الْأَبْدَانِ كِفَيْدِهِ  
فِي الْأَشْجَارِ ، أَوَّلُهُ يُحْرِقُ ، وَآخِرُهُ يُورِقُ .

\*\*\*

### الشرح :

هذه مسألةٌ طبيعِيَّةٌ قد ذَكَرَها الحكماء ، قالوا : لَمَّا كَانَ تَأْثِيرُ الْخَرِيفِ  
فِي الْأَبْدَانِ ، وَتَوَلِيدُهُ الْأَمْرَاضَ كَالزُّكَامِ وَالشُّعَالَ وَغَيْرِهَا أَكْثَرَ مِنْ تَأْثِيرِ الرَّبِيعِ ،  
مَعَ أَنَّهُمَا جَمِيعًا فَضْلًا اعْتَدَالًا ، وَأَجَابُوا بِأَنَّ بَرْدَ الْخَرِيفِ يَفْجَأُ الْإِنْسَانَ وَهُوَ مَعْتَادٌ  
لِحَرِّ الصَّيْفِ فَيَنْكَأُ فِيهِ ، وَيَسُدُّ مَسَامَ دِمَاجِهِ ، لِأَنَّ الْبَرْدَ يَكْفُفُ وَيَسُدُّ الْمَسَامَ  
فَيَكُونُ كَمَنْ دَخَلَ مِنْ مَوْضِعٍ شَدِيدِ الْحَرَارَةِ إِلَى خَيْشٍ بَارِدٍ .

فَأَمَّا الْمُنْتَقِلُ مِنَ الشِّتَاءِ إِلَى فَصْلِ الرَّبِيعِ فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ بَرْدُ الرَّبِيعِ يُؤْذِيهِ ذَلِكَ الْأَذَى  
لَأَنَّهُ قَدْ اعْتَادَ جِسْمُهُ بَرْدَ الشِّتَاءِ ، فَلَا يُصَادِفُ مِنْ بَرْدِ الرَّبِيعِ إِلَّا مَا قَدْ اعْتَادَ مَا هُوَ  
أَكْثَرُ مِنْهُ ، فَلَا يَظْهَرُ لِبَرْدِ الرَّبِيعِ تَأْثِيرٌ فِي مِزَاجِهِ ، فَأَمَّا لِمَ أوردت الأشجار وأزهرت  
فِي الرَّبِيعِ دُونَ الْخَرِيفِ ؟ فَلَمَّا فِي الرَّبِيعِ مِنَ الْكَيْفِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا مَنْبَعُ النُّمُوِّ وَالنَّفْسِ النَّبَاتِيَّةِ ،  
وَهُمَا الْحَرَارَةُ وَالرَّطُوبَةُ وَأَمَّا الْخَرِيفُ فَنَحَالٍ مِنْ هَاتَيْنِ الْكَيْفِيَّتَيْنِ وَمُسْتَبَدِّلُ بِهِمَا ضِدَّهُمَا ،

وهما البرودة واليبس المنافيان للنشوء وحياة الحيوان والنبات . فأما لم كان الخريف باردا يابسا والربيع حارّا رطباً مع أنّ نسبة كل واحد منهما إلى الفصلين الخارجين عن الاعتدال وهما الشتاء والصيف نسبة واحدة ؟ فإنّ تعليل ذلك مذكور في الأصول الطبية ؛ والكتب الطبيّة ، وليس هذا الموضع ممّا يحسن أن يُشرح فيه مثلاً ذلك .



(١٢٥)

الأُسْلُ :

عُظْمُ الْخَالِقِ عِنْدَكَ يُصَغِّرُ الْمَخْلُوقَ فِي عَيْنِكَ .

\*\*\*

الشَّرْحُ :

لا نسبة للمخلوق إلى الخالق أصلاً وخصوصاً البشر، لأنهم بالنسبة إلى فلَك القمر كالذرة، ونسبة فلَك القمر كالذرة بالنسبة إلى قرص الشمس، بل هم<sup>(١)</sup> دون هذه النسبة مما<sup>(٢)</sup> يعجز الحاسبُ الحاذقُ عن حساب ذلك، وفلَك القمر بالنسبة إلى فلَك المحيط دون هذه النسبة، ونسبة فلَك المحيط إلى الباري سبحانه كنسبة العدم المحض والتفنى الصرف إلى الموجود البائن، بل هذا القياس أيضاً غير صحيح، لأنَّ المدوم يمكن أن يصير موجوداً بائناً، وفلَك لا يتصور أن يكون صانع العالم الواجب الوجود لذاته .

وعلى الجملة فالأمرُ أعظم من كلِّ عظيم، وأجلُّ من كلِّ جليل، ولا طاقةَ للقول والأذهان أن تعبرَ عن جلالة ذلك الجناب وعظمته، بل لو قيل؛ إنها لا طاقة لها أن تعبرَ عن جلالِ مصنوعاته الأولى المتقدمة علينا بالرتبة العقلية والزمانية لكان ذلك القول حقاً وصديقاً، فمن هو المخلوق ليقال: إنَّ عِظَمَ الْخَالِقِ يُصَغِّرُهُ فِي الْعَيْنِ؛ ولكن كلامه عليه السلام محمولٌ على مخاطبة العامة الذين تضيق أفهامهم عما ذكرناه .

(١) ساقط من أ، ب . (٢) ب : « بما » .

(١٢٦)

الأضل :

وقال عليه السلام ، وَقَدْ رَجَعَ مِنْ صِيَّينَ فَأَشْرَفَ عَلَى الْقُبُورِ بِظَاهِرِ الْكُوفَةِ :  
يَا أَهْلَ الدِّيَارِ الْمُوحِشَةِ ، وَالْمَحَالِّ الْمُقْفِرَةِ ، وَالْقُبُورِ الْمُظْلِمَةِ . يَا أَهْلَ الثَّرْبَةِ ،  
يَا أَهْلَ الثَّرْبَةِ ، يَا أَهْلَ الْوَحْدَةِ . يَا أَهْلَ الْوَحْشَةِ ، أَنْتُمْ لَنَا فَرَطٌ سَابِقٌ ، وَنَحْنُ  
لَكُمْ تَبَعٌ لَاحِقٌ ، أَمَّا الدُّورُ فَقَدْ سَكِنَتْ ، وَأَمَّا الْأَزْوَاجُ فَقَدْ نُكِحَتْ ،  
وَأَمَّا الْأَمْوَالُ فَقَدْ قُسِّمَتْ ، هَذَا خَبَرُ مَا عِنْدَنَا ، فَمَا خَبَرُ مَا عِنْدَكُمْ ؟

ثُمَّ التَفَتَ إِلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ :

أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ أُذِنَ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ ، لَأَخْبَرُوكُمْ أَنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى .

\*\*\*

الشنخ :

الفرط : المتقدمون ؛ وقد ذكرنا من كلام عمر ما يُناسب هذا الكلام ، لما ظعن  
في القبور وعادَ إلى أصحابه أحرَّ الوجه ، ظاهرَ العروق ، قال : قد وقفتُ على قبورِ الأحبةِ  
فناديتُها الحديثَ . . . إلى آخره ، ف قيل له : فهل أجابتك ؟ قال : نعم ، قالت : إنَّ خيرَ  
الزَّادِ التقوى .

وقد جاء في حديث القبور ومخاطبتها وحديث الأموات وما يتعلق بذلك شيء كثير .  
يتجاوز الإحصاء .

وفى وصية النبي صلى الله عليه وآله أبا ذر رضى الله عنه : زُر القبور تذكُر بها الآخرة  
ولا تَزُرْها ليلاً ، وغسّل الموتى يتحرك قلبك ، فإن الجسد الخاوي<sup>(١)</sup> عِظَةٌ بليغة ، وصلّ  
على الموتى فإن ذلك يُحزِنُكَ ، فإن الحزين فى ظلّ الله .  
وُجد على قبرٍ مكتوباً :

مقيمٌ إلى أن يَمِثَّ الله خَلْقَهُ      لقاؤك لا يُرجى وأنت رقيبٌ  
تَزِيدُ بلىً فى كلِّ يومٍ وليلةٍ      وتُنسى كما تَبلى وأنت حبيبٌ

وقال الحسن عليه السلام : مات صديق لنا صالح ، فدفناه ومددنا على القبر ثوباً ، فجاء  
صِلَةٌ بنُ أشيم ، فرَفَعَ طرفَ الثوب ونادى : يا فلان :

إن تَنجُ منها تَنجُ من ذى عَظيمةٍ      وإلا فإنى لا إخالكَ ناجياً

وفى الحديث المرفوع ، أنه عليه السلام كان إذا تَبِعَ الجَنَازَةَ أَكْثَرَ الصَّمَاتِ<sup>(٢)</sup> ؛ ورأى  
عليه كآبةٌ ظاهرة ، وأكثَرَ حديثِ النفس .

سَمِعَ أبو الدرداء رجلاً يقول فى جنازة : من هذا ؟ فقال : أنت ، فإن  
كرهتَ فأنا .

سَمِعَ الحسنُ عليه السلامُ امرأةً تَبْكِي خَلْفَ جَنَازَةٍ ، وتقول : يا أبتاه ، مِثْلَ يَوْمِكَ لم  
أَرَهُ أ فقال : بل أبوك مِثْلَ يَوْمِهِ لم يَرَهُ .

وكان مكحولٌ إذا رأى جَنَازَةً قال : اغدُ فإننا راٹمون .

وقال ابنُ شوذب : اطَّلَمْتُ امرأةً سالحةً فى لَحْدٍ فقالت لأمرأةٍ معها : هذا كُنْدُوجُ  
الْعَمَلِ - يَمْسِي خِزَانَتَهُ ، وكانت تُعْطِيها الشَّيْءَ بَعدَ الشَّيْءِ تأمُرُها أن تَتَصَدَّقَ به ، فتقول :  
اذْهَبِي فَصَمِّي هَذَا فى كُنْدُوجِ الْعَمَلِ .

(١) الخاوي : الخالى من الروح . (٢) الصمات ، مصدر صمت .

شاعر :

أجازِعةً رُدِينَةً أَنْ أتاها      نَمِيَّيْ أَمْ يَكُونُ لَهَا أَصِطْبَارُ !  
إِذَا مَا أَهْلُ قَبْرِى وَدَّعُونِ      وراخُوا والأَكُفَّ بِهَا غُبَارُ  
وَعُودِرَ أعْظَمِي فِي لَحْدِ قَبْرِى      تُراوِخُهُ الجَنَائِبُ والقِطَارُ  
سَهْبُ الرِّيحِ فَوْقَ سَحْطِ قَبْرِى      وَيَرَعَى حَوْلَهُ اللّهُقُ النُّوَارُ<sup>(١)</sup>  
مَقِيمٌ لَا يُكَلِّمُنِي صَدِيقُ      بَقْفَرٌ لَا أَزُورُ وَلَا أَزَارُ  
فَذَاكَ النَّائِي لَا الْمُهْجِرَانُ حَوْلًا      وَحَوْلًا ثُمَّ تَجْتَمِعُ الدِّيَارُ

وقال آخر :

كَأَنِّي بِإِخْوَانِي عَلَى حَافَتِي قَبْرِى      يَهِيلُونَهُ فَوْقَ وَأَدْمُهُمْ تَجْرِي  
فِيأْتِيهَا الْمَذْرَى عَلَى دَمَوَعِهِ      سَتُعْرِضُ فِي يَوْمِينَ عَنِّي وَعَنْ ذِكْرِي  
عَفَا اللَّهُ عَنِّي يَوْمَ أَتْرَكَ ثَاوِيًا      أَزَارُ فَلَا أَذْرِي وَأُجْنِي فَلَا أَذْرِي

وجاء في الحديث المرفوع : « ما رأيتُ مَنْظَرًا إِلَّا والقبرُ أفضح منه » .

وفي الحديث أيضا : « القبر أولُ منزلٍ من منازلِ الآخرة ، فمن نجا منه فما بعده أيسر ، ومن لم ينج منه فما بعده شرٌّ منه » .

(١) اللهق بالتحريك : الثور الأبيض ، والنوار : الناشز .

(١٢٧)

الأضل :

وقال عليه السلام وقد سمع رجلا يذم الدنيا :

أَيُّهَا الدَّاهِيُ لِلدُّنْيَا ، الْمُغْتَرُّ بِمُرُورِهَا ، الْمُتَخَدِّعُ بِأَطْيَلِهَا ؛ أَنْفَقْتَ مِنْهَا ثُمَّ تَذُمُّهَا !  
أَنْتَ الْمُتَجَرِّمُ عَلَيْهَا أَمْ هِيَ الْمُتَجَرِّمَةُ عَلَيْكَ ! مَتَى اسْتَهْوَتْكَ ، أَمْ مَتَى غَرَّتْكَ !  
أَيُّ صَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبَيْلِ ، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَى ! كَمْ عَلَلْتَ بِكَفِّكَ ،  
وَكَمْ مَرَضْتَ بِيَدَيْكَ ، تَبْتَغِي لَهُمُ الشِّفَاءَ ، وَتَسْتَوْصِفُ لَهُمُ الْأَطِبَّاءَ ؛ غَدَاةَ لَا يُعْنِي  
عَنْهُمْ دَوَاؤُكَ ، وَلَا يُجْدِي عَلَيْهِمْ بُكَاءُكَ !

لَمْ يَنْفَعِ أَحَدَهُمْ إِشْفَاؤُكَ ، وَلَمْ تُسْعِفْ فِيهِ بِطَلِبَتِكَ ، وَلَمْ تَدْفَعْ عَنْهُ بِقُوَّتِكَ ،  
وَقَدْ مَثَلَتْ لَكَ بِهِ الدُّنْيَا نَفْسَكَ ، وَبِعَصْرَعِهِ مَصْرَعَكَ .

إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ صِدْقٍ لِمَنْ صَدَقَهَا ، وَدَارُ عَافِيَةٍ لِمَنْ فَهِمَ عَنْهَا ، وَدَارُ غِنًى لِمَنْ  
تَزَوَّدَ مِنْهَا ، وَدَارُ مَوْعِظَةٍ لِمَنْ اتَّعَظَ بِهَا . مَسْجِدُ أَحِبَّاءِ اللَّهِ ، وَمُصَلًى مَلَائِكَةِ اللَّهِ ،  
وَمُهَيْطُ وَحْيِ اللَّهِ ، وَمَتَجَرُّ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ ؛ اكْتَسَبُوا فِيهَا الرَّحْمَةَ ، وَرَبَّحُوا فِيهَا الْجَنَّةَ ،  
فَمَنْ ذَا يَدُمُّهَا ، وَقَدْ آذَنْتَ بَيْنِيهَا ، وَنَادَتْ بِفِرَاقِهَا ، وَنَعَتْ نَفْسَهَا وَأَهْلَهَا ، فَمَثَلَتْ  
لَهُمْ بِبَلَاءِهَا الْبَلَاءَ ، وَشَوَّقَتْهُمْ بِسُرُورِهَا إِلَى السُّرُورِ !

رَاحَتْ بِمَا فِيهِ ، وَابْتَكَرَتْ بِفَجِيعَةٍ ، تَرْغِيبًا وَتَرْهِيبًا ، وَتَخْوِيفًا وَتَحْذِيرًا ،

فَذَمَّهَا رِجَالُ غَدَاةِ النَّدَامَةِ، وَحَمِدَهَا آخِرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ذَكَرَتْهُمْ الدُّنْيَا فَذَكَّرُوا؛  
وَحَدَّثَتْهُمْ فَصَدَّقُوا، وَوَعظَتْهُمْ فَأَتَمَّظُوا.

\*\*\*

## الْبَشْرُ :

تَجَرَّمْتُ عَلَى فُلَانٍ : ادَّعَيْتُ عَلَيْهِ جُرْماً وَذَنْباً ؛ وَأَسْتَهْوَاهُ كَذَا : اسْتَزَلَّهُ .  
وقوله عليه السلام : « فَنُتِلَّ لَهُمْ بَيْلَانُهَا الْبَلَاءُ » ، أى بِلَاءِ الآخرة وعذاب جهنم ،  
وشوقهم بسرورها إلى السرور ، أى إلى سُرُورِ الآخرة ونعيم الجنة .  
وهذا الفصل كله لمدح الدنيا ، وهو ينبئ عن اقتداره عليه السلام على ما يريد من المعاني ،  
لأنَّ كلامه كله في ذم الدنيا ، وهو الآن يمدحها ، وهو صادق في ذلك وفي هذا ؛ وقد جاء  
عن النبي صلى الله عليه وآله كلام يتضمن مدح الدنيا أو قريبا من المدح ، وهو قوله عليه  
السلام : « الدُّنْيَا حُلُوةٌ خَصِيْرَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا بُورِكَ لَهُ فِيهَا » .

واحتذى عبدُ الله بنُ المعتز<sup>(١)</sup> حَدَّثُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَدْحِ الدُّنْيَا فَقَالَ فِي  
كَلَامِهِ : الدُّنْيَا دَارُ التَّأْدِيبِ<sup>(٢)</sup> والتعريف ، التي يَمَكُرُ وَهِيَ تَوْصَلُ إِلَى مَحَبُوبِ الْآخِرَةِ ، وَمُضْمَارِ  
الْأَعْمَالِ ، السَّابِقَةِ بِأَصْحَابِهَا إِلَى الْجَنَّةِ ، وَدَرَجَةِ الْفَوْزِ الَّتِي يَرْتَقِي عَلَيْهَا الْمُتَّقُونَ إِلَى دَارِ الْخُلْدِ ،  
وَهِيَ الْوَاعِظَةُ لِمَنْ عَقَلَ ، وَالنَّاصِحَةُ لِمَنْ قَبِلَ ، وَيَسَاطُ الْمَهْلُ ، وَمَيْدَانُ الْعَمَلِ ، وَقَاصِمَةُ الْجَبَّارِينَ ،  
وَمُلْحِقَةُ الرَّغْمِ مَعَاطِسَ الْمُتَكَبِّرِينَ ، وَكَاسِيَةُ التَّرَابِ أَبْدَانَ الْمُخْتَلِينَ ، وَصَارِعَةُ الْمُغْتَرِّينَ ،  
وَمُفَرِّقَةُ أَمْوَالِ الْبَاخِلِينَ ، وَقَاتِلَةُ الْقَاتِلِينَ ، وَالْعَادِلَةُ بِالْمَوْتِ عَلَى جَمِيعِ الْعَالَمِينَ ، وَنَاصِرَةُ الْمُؤْمِنِينَ ،  
وَمُبِيرَةُ الْكَافِرِينَ . الْحَسَنَاتُ فِيهَا مُضَاعَفَةٌ ، وَالسَّيِّئَاتُ بِأَلَامِهَا مَمْحُوتَةٌ ، وَمَعَ عُسْرِهَا  
يُسْرَانُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ ضَمَّنَ أَرْزَاقَ أَهْلِهَا ، وَأَقْسَمَ فِي كِتَابِهِ بِمَا فِيهَا ، وَرَبِّ طَيْبَةِ

(١) د : « المفيرة » . (٢) د : « التأديب » .

— ٣٢٧ —

من نعيمها قد حمد الله عليها فتلقتهما أيدي الكتبة ووجبت بها الجنة ؛ وكم نائبة من نوائبها ، وحادثه من حوادثها ، قد راضت الفهم ، ونبتت الفطنة ، وأذكت الفريضة ، وأفادت فضيلة الصبر ، وكثرت ذخائر الأجر .

ومن الكلام المنسوب إلى علي عليه السلام : الناس أبناء الدنيا ، ولا يُلام المرء على حب أمه ، أخذه محمد بن وهب الحميري فقال :

ونحن بنو الدنيا خلقنا لغيرها وما كنت منه فهو شيء محبب

(١٢٨)

الأضل :

إِنَّ لِلَّهِ مَلَكَاً يُنَادِي فِي كُلِّ يَوْمٍ : لِدُّوا لِلْمَوْتِ ، وَاجْمَعُوا لِلْفَنَاءِ ، وَابْنُوا  
لِلْخَرَابِ .

\*\*\*

الشَّنْخُ :

هذه اللام عند أهل العربية تسمى لامَ العاقبة ، ومثلُ هذا قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ  
آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ (١) ، ليس أنهم التَّقَطَوْه لهذه العلة ،  
بل التَّقَطَوْه فكان عاقبةُ التقاطِهم إيَّاه العداوة والحزن ، ومثله :

\* فَلِلْمَوْتِ مَا تَلِدُ الْوَالِدَةَ \*

ومثله قوله تعالى : ﴿ وَاقْدُرْ ذُرِّيَّتَكَ لِجَهَنَّمَ ﴾ (٢) ؛ ليس أنه ذرأهم ليعذبهم في جهنم ،  
بل ذرأهم وكان عاقبةُ ذرئهم أن صاروا فيها ، وبهذا الحرف يحصل الجوابُ عن كثيرٍ  
من الآيات المتشابهة التي تتعلق بها المجيزة .

وأما فَخَوَى هذا القول وخلصته فهو التنبيه على أن الدنيا دارُ فناء وعطب ،  
لأدارُ بقاء وسلامة ، وأن الولد يموت ، والدُّورُ تُخرب ، وما يُجمع من الأموال يفنى .



(١٢٩)

الأفضل :

الدُّنْيَا دَارُ مَمَرٍ ، لَا دَارُ<sup>(١)</sup> مَقَرٍّ ، وَالنَّاسُ فِيهَا رَجُلَانِ : رَجُلٌ بَاعَ نَفْسَهُ  
فَأَوْبَقَهَا ، وَرَجُلٌ ابْتَاعَ نَفْسَهُ فَأَعْتَقَهَا ..

\*\*\*

الْبَيْعُ :

قال عمرُ بنُ عبد العزيز يوماً لجلسائه : أخبروني مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ ؟ قَالُوا : رَجُلٌ  
بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا ، فَقَالَ : أَلَا أَنْبِئُكُمْ بِأَحَقِّ مِنْهُ ؟ قَالُوا : بَلَى ؛ قَالَ : رَجُلٌ بَاعَ آخِرَتَهُ  
بِدُنْيَا غَيْرِهِ .

قُلْتُ : لِقَائِلٍ أَنْ يَقُولَ لَهُ : ذَلِكَ بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا أَيْضًا ، لِأَنَّهُ لَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُ لَذَّةٌ  
فِي بَيْعِ آخِرَتِهِ بِدُنْيَا غَيْرِهِ لَمَا بَاعَهَا ، وَإِذَا كَانَ لَهُ فِي ذَلِكَ لَذَّةٌ ، فَإِذَنْ إِنَّمَا بَاعَ آخِرَتَهُ بِدُنْيَا ،  
لِأَنَّ دُنْيَاهُ هِيَ لَذَّتُهُ .

---

(١) أي د « إلى دار » والمعنى عليه يستقيم أيضا .

(١٣٠)

الأضل :

لَا يَكُونُ الصَّدِيقُ صَدِيقًا حَتَّى يَحْفَظَ أَخَاهُ فِي ثَلَاثٍ : فِي نَكْبَتِهِ ، وَغَيْبَتِهِ ، وَوَفَاتِهِ .

\*\*\*

البُخ :

قد تقدّم لنا كلامٌ في الصديق والصدّاقة ؛ وأمّا النّسبة وحفظ الصديق فيها فإنه يقال :  
في الحبس<sup>(١)</sup> مقابرُ الأحياء ، وشماتةُ الأعداء ، وتجربةُ الأصدقاء .

وأمّا الغيبةُ فإنه قد قال الشاعر :

وَإِذَا الْفَسَى حَسُنَتْ مَسُودَتُهُ      فِي الْقُرْبِ ضَاعَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ

وأما الموت فقد قال الشاعر :

وَإِنِّي لِأُسْتَحْيِيهِ وَالثُّرْبُ بَيْنَنَا      كَمَا كُنْتُ أُسْتَحْيِيهِ وَهُوَ يَرَانِي

ومن كلام عليّ عليه السلام : الصديق من صدّق في غيبتِهِ .

قيل لحكيم : مَنْ أبعد الناس سَفَرًا ؟ قال : من سافر في ابتغاء الأخر الصالح .

أبو العلاء المعرّي :

أُزِرْتُ بِكُمْ يَا ذَوِي الْأَبَابِ أَرْبَعَةً      يَتَرَكْنَ أَحْلَامَكُمْ تَهْبُ الْجِهَالَاتِ

وَدُ الصَّدِيقِ ، وَعِلْمُ الْكِيْمَاءِ ، وَأَحْ      سَكَامُ النَّجُومِ ، وَتَفْسِيرُ الْمَنَامَاتِ

قيل للثّوري : دُلّني على جليس أجلس إليه<sup>(٢)</sup> ؟ قال : تلك ضالّة لا توجد .

(١) د : « الحبس » . (٢) د : « عنده » .

(١٣١)

الأفضل :

مَنْ أُعْطِيَ أَرْبَعًا لَمْ يُحْرَمَ أَرْبَعًا : مَنْ أُعْطِيَ الدُّعَاءَ لَمْ يُحْرَمَ الْإِجَابَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ التَّوْبَةَ لَمْ يُحْرَمَ الْقَبُولَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الْإِسْتِغْفَارَ لَمْ يُحْرَمَ الْمَغْفِرَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ لَمْ يُحْرَمَ الزِّيَادَةَ .

\*\*\*

قال الرضی رحمہ اللہ تعالیٰ : وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ؛ قَالَ فِي الدُّعَاءِ : ﴿ اذْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (١) .

وَقَالَ فِي الْإِسْتِغْفَارِ : ﴿ وَمَنْ يَمْعَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِثِ اللَّهُ غُفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٢) .

وَقَالَ فِي الشُّكْرِ : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (٣) .

وَقَالَ فِي التَّوْبَةِ : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٤) .

\*\*\*

الشرح :

في بعض الروايات أن ما نسب إلى الرضی رحمہ اللہ من استنباط هذه المعاني من الكتاب العزيز من متن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ؛ وقد سبق القول في كل واحدة من هذه الأربع مُستقصى .

- 
- |                      |                       |
|----------------------|-----------------------|
| (١) سورة غافر ٦٠ .   | (٢) سورة النساء ١١٠ . |
| (٣) سورة إبراهيم ٧ . | (٤) سورة النساء ١٧ .  |

(١٣٢)

الأضل :

الصَّلَاةُ قُرْبَانُ كُلِّ تَقِيٍّ ، وَالْحَجُّ جِهَادُ كُلِّ ضَعِيفٍ ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ زَكَاةٌ ،  
وَزَكَاةُ الْبَدَنِ الصَّوْمُ ، وَجِهَادُ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُلِ .

\*\*\*

النِّسْخ :

قد تقدّم القول في الصَّلَاةِ وَالْحَجِّ وَالصَّيَامِ ، فَأَمَّا أَنَّ جِهَادَ الْمَرْأَةِ حُسْنُ التَّبَعُلِ ،  
فَعِنَاءُ حُسْنُ مَعَاشِرَةٍ بِعَمَلِهَا وَحِفْظُ مَالِهِ وَعَرْضُهُ ؛ وَإِطَاعَتُهُ فِيمَا يَأْمُرُ بِهِ ، وَتَرْكُ الْغَيْبَةِ  
فَإِنَّهَا بَابُ الطَّلَاقِ .

\*\*\*

[ نَبَذَ مِنَ الْوَصَايَا الْحَكِيمَةِ ]

وَأَوْصَتْ امْرَأَةٌ مِنْ نِسَاءِ الْعَرَبِ بِنَتْنِهَا لَيْلَةَ إِهْدَائِهَا<sup>(١)</sup> فَقَالَتْ لَهَا : لَوْ تَرَكْتُ  
الْوَصِيَّةَ لِأَحَدٍ لِحُسْنِ أَدَبٍ وَكَرَمِ حَسَبٍ ، لَتَرَكْتُهَا لَكَ ، وَلَكِنِّي تَذَكُّرٌ لِلْعَاقِلِ ،  
وَمَثُونَةٌ لِلْعَاقِلِ . إِنَّكَ قَدْ خَلَقْتَ الْعُشَّ الَّذِي فِيهِ دَرَجَتٌ ، وَالْوَكْرَ الَّذِي مِنْهُ خَرَجْتَ ،  
إِلَى مَنْزِلٍ لَمْ تَعْرِفْ فِيهِ ، وَقَرِينَ لَمْ تَأْلَفْ فِيهِ ، فَكُونِي لَهُ أَمَةً ، يَكُنْ لَكَ عَبْدًا ، وَاحْفَظِي عَنِّي  
خِصَالًا عَشْرًا :

(١) لَيْلَةُ إِهْدَائِهَا ، أَيْ لَيْلَةُ زَوَاجِهَا ؛ يُقَالُ : هَدَى الْعُرُوسَ إِلَى بَعْلِهَا وَأَهْدَاهَا هِدَاءً وَلِهْدَاءً .

أما الأولى والثانية، فحُسْنُ الصَّحَابَةِ بِالقناعة، وجَمِيلُ المَعَاشِرَةِ بِالسَّمْعِ والطاعة، ففِي حُسْنِ الصَّحَابَةِ راحةُ القلبِ ، وفِي جَمِيلِ المَعَاشِرَةِ رِضا الرَّبِّ .

والثالثة والرابعة ، التَّفَقُّدُ لمواقع عَمَلِهِ ، والتَّعَهُُّدُ لمواضع أَنفِهِ ، فلا تَقَعِ عينُهُ مِنْكَ على قَبِيحٍ ، ولا يَحْجِدُ أَنفُهُ مِنْكَ خَبِيثَ رِيحٍ ، واعْلَمْ أَنَّ الكُحْلَ أَحْسَنُ الحَسَنِ المَفْقُودِ ، وَأَنَّ المَاءَ أَطْيَبُ الطَّيِّبِ المَوْجُودِ .

والخامسة والسادسة ، الحِفْظُ لِمَالِهِ ، والإِرْعَاءُ على حَشْمِهِ وَعِيَالِهِ ، واعْلَمْ أَنَّ أَصْلَ الاحتفاظِ بِالمالِ حُسْنُ التَّقْدِيرِ ، وَأَصْلُ الإِرْعَاءِ على آلِ حَشْمٍ والعيالِ حُسْنُ التَّدْبِيرِ .  
والسابعة والثامنة، التَّعَهُُّدُ لوقتِ طَعَامِهِ ، والمُتَدَوُّ والسَّكُونُ عندَ مَنَامِهِ ، فحرارةُ الجوعِ مُلْهَبَةٌ ، وَتَنَغِيصُ النُّومِ مَغْضَبَةٌ .

والتاسعة والعاشرية : لا تُفْشِيَنَّ لَهُ سِرًّا ، ولا تَمْصِيَنَّ لَهُ أَمْرًا ، فَإِنَّكَ أَنْ أَفْشَيْتَ سِرَّهُ لم تَأْمُرِي غَدْرَهُ ، وَإِنْ عَصَيْتَ أَمْرَهُ أَوْغَرْتَ صَدْرَهُ .

\*\*\*

وأوصت امرأةُ ابنتها وقد أَهْدَتْهَا إلى بَعْلِهَا ، فَقَالَتْ : كُونِي لَهُ فِرَاشًا ، يَكُنْ لَكَ مَعَاشًا ، وَكُونِي لَهُ وَطَاءً ، يَكُنْ لَكَ غِطَاءً ، وَإِيَّاكَ وَالْاِكْتِثَابَ إِذَا كَانَ فَرَحًا ، وَالْفَرَحَ إِذَا كَانَ كَثِيبًا ، وَلَا يَطْلَعَنَّ مِنْكَ على قَبِيحٍ ، وَلَا يَشْمَنَّ مِنْكَ إِلَّا طَيِّبَ رِيحٍ <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

وَزَوْجُ عَامِرُ بْنُ الظَّرَبِ ابْنَتَهُ مِنْ ابْنِ أَخِيهِ ، فَلَمَّا أَرَادَ تَحْوِيلَهَا قَالَ لِأُمِّهَا : مَرِي ابْنَتُكَ أَلَّا تَنْزِلَ مَفَازَةً إِلَّا وَمَعَهَا مَاءٌ ، فَإِنَّهُ إِلاَّ عَلَى جِلْدٍ ، وَلِلْأَسْفَلِ نَقَاءٌ ، وَلَا تُكْثِرْ مُضَاجَعَتَهُ ، فَإِذَا مَلَ الْبَدَنُ مَلَ الْقَلْبَ ، وَلَا تَمْنَعْهُ شَهْوَتَهُ ، فَإِنَّ الْخَطْوَةَ فِي الْمَوَاقِعَةِ . فَلَمْ يَلْبَثْ إِلَّا شَهْرًا حَتَّى جَاءَتْهُ مَشْجُوجَةٌ ، فَقَالَ لِبْنِ أَخِيهِ : يَا بُنَيَّ ارْفَعْ عَصَاكَ عَنْ بَكَرَتِكَ ،

(١) د : « رِيحًا طَيِّبًا » .

فإن كان من غير أن تنفر بك فهو الذاء الذى ليس له دواء ؛ وإن لم يكن بينكما وفاق ففراق،  
أُخلع أحسن من الطلاق ، وأن تترك أهلك ومالك .  
فردّ عليه صداقها ، وخلعها منه ، فهو أول خلع كان فى العرب <sup>(١)</sup> .

\*\*\*

وأوصى الفرافصة الكلبيّ ابنته نائلة حين أهداها إلى عثمان ، فقال : يا بُنَيَّة ، إنك  
تقدمين على نساء من نساء قريش هنّ أقدَرُ على الطَّيِّب منك ، ولا تُفْلَبين على خَصْلَتين :  
الكُحْل والماء . تطهرى حتى يكون ريح جَدِّكِ ريح شَنٍّ أصابه مطر ، وإياك والغبرة على  
بَعْلِكَ ، فإنها مفتاح الطلاق .

\*\*\*

وروى أبو عمرو بنُ العلاء قال : أنكح ضرارُ بنُ عمرو الضبيّ ابنته من مَعبَد  
ابن زُرارة ، فلما أخرجها إليه قال : يا بُنَيَّة ، أمسكى عليك الفضلين : فضل المُلَمَّة ،  
وفضل الكلام .

قال أبو عمرو : وضرار هذا هو الذى رفع عقيرته بمكاط ، وقال : ألا إنَّ شرَّ حائل <sup>(٢)</sup>  
أمّ ، فزُوجوا الأمّهات ؛ قال : وذلك أنه صُرِع بين الرماح ، فأشبل عليه إخوته لأُمّه  
حتى استنقذوه .

\*\*\*

وأوصت أعرابيةٌ ابنتها عند إهدائها ، فقالت لها : اقلعى زُجَّ رُحِمِهِ ، فإن أقرَّ فاقلمى  
سينانه ، فإن أقرَّ فاكسرى العظام بسيفه ، فإن أقرَّ فاقطعى اللحم على ترسه ، فإن أقرَّ  
فضمى الإكاف على ظهره ، فإنما هو حمار .

وهذا هو قُبْحُ التَّبَعْلِ ، وذكرناه نحن فى بابِ حسنِ التَّبَعْلِ ، لأنَّ الصّد يُذكر بضدّه .

(١) يقال : خلع الرجل امرأته وخالعها إذا افتدت منه بمال فطلقها وأبأنها من نفسه .

(٢) المائل : الذى لا تحمل .

— ٣٣٥ —

(١٣٣)

الأضل :

اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ بِالصَّدَقَةِ .

\*\*\*

السُّنْح :

جاء في الحديث المرفوع - وقيل : إنه موقفه على عثمان : « تاجروا الله بالصَّدَقَةِ تَرْبَحُوا » .

وكان يقال : الصَّدَقَةُ مِدَاقُ الْجَنَّةِ .

وفي الحديث المرفوع : « ما أحسن عبد الصَّدَقَةِ ، إلا أحسن الله الخلافة على مُخَلِّفِهِ » .

وعنه صلى الله عليه وآله : « ما من مسلم يكسو مسلماً ثوباً إلا كان في حفظ الله ما دام منه رُقْعَةٌ » .

وقال عمر بن عبد العزيز : الصَّلَاةُ تَبْلُغُكَ نِصْفَ الطَّرِيقِ ، والصَّوْمُ يَبْلُغُكَ بَابِ الْمَلِكِ ، والصَّدَقَةُ تُدْخِلُكَ عَلَيْهِ .

(١٣٤)

الأصل :

وَمَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ .

\*\*\*

الشرح :

هذا حق ، لأن من لم يُورقن بالخلف ويتخوف الفقر يضمن بالعطية ، ويعلم أنه إذا أعطى ثم أعطى استنفد ماله ، واحتاج إلى الناس لانقطاع مادته ؛ وأما من يُورقن بالخلف ، فإنه يعلم أن الجود شرف لصاحبه ، وأن الجواد ممدوح عند الناس ، فقد وجد الداعي إلى السباح - ولا صارف له عنه - لأنه يعلم أن مادته دائمة غير منقطعة ، فالصارف إلى يخافه من قدمنا ذكره مفقود في حقه ، فلا جرم أنه يجو بالعطية !



(١٣٥)

الأصل :

تَنْزِيلُ الْمَمُونَةِ عَلَى قَدْرِ الْمَوْنَةِ .

\*\*\*

الشرح :

جاء في الحديث المرفوع : « مَنْ وَسَّعَ وَسَّعَ عَلَيْهِ ، وَكَلَّمَ كَثُرَ الْعِيَالُ كَثُرَ الرِّزْقُ » .  
 وكان على بعض الموسرين رسومٌ لجماعة من الفقراء يدفعونها إليهم كل سنة ،  
 فاستكثرها ، فأمر كاتبه بقطعها ، فرأى في المنام كأن له أهواء كثيرة في داره ،  
 وكأنها تصعد أرواقها من الأرض إلى السماء ، وهو يجزع من ذلك ، فيقول : يا رب  
 رزقي رزقي ! فقيل له : إنما رزقناك هذه لتصرفها فيما كنت تصرفها فيه ، فإذا قطعت ذلك  
 دفعناها منك ، وجعلناها لغيرك . فلما أصبح أمر كاتبه بإعادة تلك الرسوم أجمع .

(١٣٦)

الأُضْلُ :

مَا عَالَ مَنْ اقْتَصَدَ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

مَا عَالَ ، أَى مَا افْتَقَرَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ لَنَا قَوْلُ مُنْعَعٍ فِي مَدْحِ الْاِقْتِصَادِ .

وَقَالَ أَبُو الْعَلَاءِ :

وإن كنتَ تَهْوَى الْعَيْشَ فَابْغِ تَوَسُّطًا      فعند التَّناهِى يَقْصُرُ الْمُتَطَاوِلُ<sup>(١)</sup>

تُوَقَّى الْبُدُورُ النِّقْصَ وَهِيَ أَهْلَةٌ      وَيُدْرِكُهَا النِّقْصَانُ وَهِيَ كَوَامِلُ

وَهَذَا الشَّعْرُ وَإِنْ كَانَ فِي الْاِقْتِصَادِ فِي الْمَرَاتِبِ وَالْوِلَايَاتِ ، إِلَّا أَنَّهُ مَدْحٌ لِلْاِقْتِصَادِ

فِي الْجُمْلَةِ ، فَهُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ .

وَيَمِيزُ بَعْضُ الْفُضَلَاءِ قَوْلَ الْحَكَمَاءِ : التَّدْيِيرُ نِصْفُ الْعَيْشِ ، فَقَالَ : بَلِ الْعَيْشُ كُلُّهُ .

— ٣٣٩ —

(١٣٧)

الأبْنَلُ :

قِلَّةُ الْعِيَالِ أَحَدُ الْيَسَارِينَ .

\* \* \*

الْبَنْخُ :

اليسار الثاني كثرة المال ؛ يقول : إن قِلَّةَ الْعِيَالِ مع الْفَقْرِ كاليسار الْحَقِيقِ مع كَثَرَتِهِمْ .

ومن أمثال الْحَكَمَاءِ : الْعِيَالُ أَرْضَةُ الْمَالِ .

(١٣٨)

الأصل :

التودُّدُ نِصْفُ الْعَقْلِ .

\*\*\*

الشرح :

دخل حبيب بن شَوْذَبَ على جعفر بن سليمان بالبصرة ، فقال : نِعْمَ المرءُ حَبِيبُ  
ابن شَوْذَبَ ! حَسَنَ التودُّدِ ، طَيِّبَ الشَّاءِ ، يَكْرَهُ الزَّيَارَةَ الْمُتَّصِلَةَ ، وَالْقَعْدَةَ الْمُنْسِيَّةَ .  
وكان يقال : التودُّدُ ظاهرٌ حَسَنٌ ، والمعاملة بين الناس على الظاهر ، فأما البواطن  
فإلى عالم الخفَيَّاتِ .

وكان يقال : قَلَّ مَنْ تودَّدَ إِلَّا صار محبوباً ، والمحبوب مستورُ العيوب .

(١٣٩)

الأفضل :

والهم نصف الهرم .

\*\*\*

الشرح :

من كلام بمض الحكماء : الهم يشيب القلب ، ويعتم العقل ، فلا يتولد معه رأى ، ولا تصدق معه روية .

ونقل الشاعر :

هموم قد أبت إلا التباسا      تبث الشيب في رأس الوليد  
وتقعد قائما بشجا حشا      وتطلق للقيام حبا القمود  
وأضحت خشعا منها زاز      مركبة الرواجب في الحدود  
وقال سفيان بن عيينة : الدنيا كلها هموم وغموم ، فإكان منها سرور فهو ربح .  
ومن أمثالهم : الهم كفور الفلعة .

وقال أبو تمام :

شاب رأسي وما رأيت مشيب الرأس إلا من فضل شيب الفؤاد<sup>(١)</sup>  
وكذاك القلوب في كل بؤس      ونعيم طلائع الأجساد  
طال إنكارى البياض ولو عمر      شيئا أنكرت لون السواد<sup>(٢)</sup>

(١) ديوانه ١ : ٣٦٠ . (٢) الديوان : « وإن عمرت » .

(١٤٠)

### الأصل :

يَنْزِلُ الصَّبْرُ عَلَى قَدْرِ الْمُصِيبَةِ ، وَمَنْ ضَرَبَ يَدَهُ عَلَى فَخْذِهِ عِنْدَ مُصِيبَتِهِ  
حَبِطَ أَجْرُهُ .

\*\*\*

### الشرح :

قد مضى لنا كلامٌ شافٍ في الصبر ؛ وكان الحسنُ يقول في قصصه : الحمد لله الذي  
كلَّفنا ماله كلَّفنا غيره كَصِرْنَا فِيهِ إِلَى مَعْصِيَتِهِ ، وَآجَرْنَا عَلَى مَا لَا يَدُّ لَنَا مِنْهُ ؛ يقول :  
كلَّفنا الصبر ، ولو كلَّفنا الجزع لم يَكُنَّا أَنْ نَقِيمَ عَلَيْهِ ، وَآجَرْنَا عَلَى الصبر ولا بدَّ لَنَا مِنْ  
الرجوع إليه .

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، كان يقول عند التعزية : عليكم بالصبر ، فإنَّ به  
يَأْخُذُ الْحَازِمُ ، وَيَمُودُ إِلَيْهِ الْجَازِعُ .

وقال أبو خراش الهذلي يذكر أخاه عروة :

تَقُولُ أَرَأَيْتَ بَعْدَ عُرْوَةٍ لَا هِيَا      وَذَلِكَ رُزْءٌ لَوْ عَلِمْتَ جَلِيلُ<sup>(١)</sup>

فَلَا تَحْسَبِي أَنِّي تَنَاسَيْتُ عَهْدَهُ      وَلَكِنْ صَبْرِي يَا أُمِّمِ جَمِيلُ

وقال عمرو بن معد يكرب :

كَمْ مِنْ آخِرٍ لِي صَالِحٍ      بَوَّأْتَهُ رِيْدِي لَخْدَا<sup>(٢)</sup>

(١) ديوان الهذليين ٢ : ١١٦ . (٢) ديوان الحماسة ١ : ١٧٤ ، ١٧٥ - بفرح التبريزي .

— ٣٤٣ —

أَلْبَسْتُهُ أَكْفَانَهُ وَخُلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدًا

وكان يقال : من حدّث نفسه بالبقاء ، ولم يُوطّئها على المصائب ، فهو عاجزُ الرأى .

وكان يقال : كفى باليأس مُعزّيًا ، وبانقطاع الطمع زاجرا !

وقال الشاعر :

أَيَا عِمْرُو لَمْ أَصْبِرْ وَلِي فِيكَ حِيلَةٌ      وَلَكِنْ دَعَانِي الْيَأْسُ مِنْكَ إِلَى الصَّبْرِ  
تَصَبَّرْتُ مَنَلُوبًا وَإِنِّي لَمَوْجِعٌ      كَمَا صَبَرَ الْقُطَّانُ فِي الْبَلَدِ الْفَقْرِ

(١٤١)

الأفضل :

كَمْ مِنْ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلَّا الْجُوعُ وَالْظَّمَأُ ، وَكَمْ مِنْ قَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ قِيَامِهِ إِلَّا السَّهَرُ وَالْمَلَامَةُ . حَبْذًا نَوْمُ الْأَكْيَاسِ وَإِفْطَارُهُمْ !

\*\*\*

الشيخ :

الأكياس ها هنا العلماء العارفون ؛ وذلك لأنَّ عباداتهم تقع مطابقةً لعقائدهم الصحيحة ، فتكون فروغاً واجعةً إلى أصله ثابت ، وليس كذلك الجاهلون بالله تعالى ، لأنهم إذا لم يعرفوه ولم تكن عباداتهم متوجهةً إليه فلم تكن مقبولةً ، ولذلك فسَدَتْ عبادة النصارى واليهود .

وفيهم وردَ قوله تعالى : ﴿ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ \* تَصَلِّي نَارًا حَامِيَةً ﴾ (١) .



— ٣٤٥ —

(١٤٢)

الأصل :

سُوسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ ، وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ ، وَادْفَعُوا أَمْوَاجَ الْبَلَاءِ  
بِالدُّعَاءِ .

\*\*\*

الشرح :

قد تقدم الكلام في الصدقة والزكاة والدعاء ، فلا معنى لإعادة القول في ذلك .

(١٤٣)

الأصل :

ومن كلام له عليه السلام لكميل بن زياد النخعي :

قال كميل بن زياد : أخذ بيدي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فأخرجني إلى الجبان ، فلما أحمرَّتْ نَفْسُ الصُّمَدَاءِ ، ثم قال :  
يا كميل بن زياد ؛ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا ، فَأَحْفَظْ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ .

النَّاسُ ثَلَاثَةٌ : فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ ، وَهَمَّجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ .

يا كميل ، الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ ؛ الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ .  
وَالْمَالُ تَنْقُصُهُ النِّفَاقَةُ ، وَالْعِلْمُ يَزُكُّو عَلَى الْإِنْفَاقِ ، وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ .  
يا كميل بن زياد ، مَعْرِفَةُ الْعِلْمِ دِينٌ يَدَانُ بِهِ ، بِهِ يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ ، وَجَمِيلَ الْأُخْدُوثةِ بَمَدِّ وَفَاتِهِ . وَالْعِلْمُ حَاكِمٌ ، وَالْمَالُ مُحْكُومٌ عَلَيْهِ .  
يا كميل بن زياد ؛ هَلَكَ خُزَانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَخْيَالُ ، وَالْعُلَمَاءُ بِأَقْوَنَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ ؛ أَعْيَاهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ . هَا إِنَّ هَاهُنَا لِعِلْمًا جَمًّا — وَأَشَارَ إِلَى صَدْرِهِ — لَوْ أَصَبْتُ لَهُ سَحْلَةً ! بَلَى أَصِيبُ لَقَدْ غَيَّرَ مَأْمُونٌ عَلَيْهِ ، مُسْتَعْمِلًا آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا ، وَمُسْتَظْهِرًا بِنِعْمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ ، وَرَبِّحَ جِهَةً عَلَى أَوْلِيَائِهِ ،

أَوْ مُنْقَادًا لِحِمْلَةِ الْحَقِّ ، لَا بَصِيرَةَ لَهُ فِي أَحْنَائِهِ ؛ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ لِأَوَّلِ  
عَارِضٍ مِنْ شُبُهَةٍ . أَلَا لَآذَا وَلَا ذَاكَ ، أَوْ مِنْهُوَمَا بِاللَّذَّةِ ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهْوَةِ ،  
أَوْ مُغْرَمًا بِالْجَمْعِ وَالِادِّخَارِ ، لَيْسَا مِنْ رِعَاةِ الدِّينِ فِي شَيْءٍ ، أَقْرَبُ شَيْءٍ شَبَهًا بِهِمَا  
الْأَنْعَامُ السَّائِمَةُ ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ يَمُوتُ حَامِلِيهِ .

اللَّهُمَّ بَلَى ؛ لَا تَخْلُو الْأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ ، إِمَّا ظَاهِرًا مَشْهُورًا ،  
وإِمَّا خَائِفًا مَغْمُورًا ، لِكَلَّا تَبْطُلَ حُجَجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ .

وَكَمْ ذَا وَآيِنَا ! أُولَئِكَ وَاللَّهِ الْأَقْلُونَ عَدَدًا ، وَالْأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدَرًا ،  
يَحْفَظُ اللَّهُ بِهِمْ حُجَجَهُ وَبَيِّنَاتِهِ حَتَّى يُودِعُوَهَا نُظَرَاءَهُمْ ، وَيَزَرِعُوَهَا فِي قُلُوبِ  
أَشْبَاهِهِمْ . هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الْبَصِيرَةِ ، وَبَاشَرُوا رَوْحَ الْيَقِينِ ، وَاسْتَلَانُوا  
مَا اسْتَوْقَرَهُ الْمُتَرَفُّونَ ، وَأَنَسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ  
أَرْوَاحُهَا مُعَلِّقَةٌ بِالْمَحَلِّ الْأَعْلَى ؛ أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَاللَّعَاةُ إِلَى دِينِهِ ،  
آهٍ آهٍ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِمْ !

انصَرِفْ يَا كَمِيلُ إِذَا شِئْتَ .

\*\*\*

## الْيَنْزُخُ :

الْجَبَّانُ وَالْجَبَّانَةُ : الصَّحْرَاءُ .

وَتَنَفَّسَ الصَّعْدَاءُ ، أَيْ تَنَفَّسَ تَنَفُّسًا مَمْدُودًا طَوِيلًا .

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « ثَلَاثَةٌ » قِسْمَةٌ صَحِيحَةٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْبَشَرَ بِاعْتِبَارِ الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ :  
إِمَّا عَالِمٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ يَعْرِفُ اللَّهَ تَعَالَى ، وَإِمَّا شَارِعٌ فِي ذَلِكَ فَهُوَ بَعِيدٌ فِي السَّرِّ إِلَى اللَّهِ  
يَطْلُبُهُ بِالتَّعَلُّمِ وَالِاسْتِفَادَةِ مِنَ الْعَالَمِ ، وَإِمَّا لَا ذَا وَلَا ذَاكَ ؛ وَهُوَ الْعَامِّيُّ السَّاقِطُ الَّذِي

لَا يَعْباُ اللَّهُ . وَصَدَقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي أَنَّهُمْ كَهَجِّ رَعَاةٍ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ ، أَلَا تَرَاهُمْ يَنْتَقِلُونَ مِنَ التَّقْلِيدِ لِشَخْصٍ إِلَى تَقْلِيدِ الْآخَرِ ، لِأَدْنَى خَيَالٍ وَأَضْعَفِ وَهْمٍ !

ثُمَّ شَرَعَ عَلَيْهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي ذِكْرِ الْعِلْمِ وَتَفْضِيلِهِ عَلَى الْمَالِ ، فَقَالَ : « الْعِلْمُ يَجْرُسُكَ ، وَأَنْتَ تَجْرُسُ الْمَالَ » ، وَهَذَا أَحَدُ وَجُوهِ التَّفْضِيلِ .

ثُمَّ ابْتَدَأَ فَذَكَرَ وَجْهًا ثَانِيًا ؛ فَقَالَ : الْمَالُ يَنْقُصُ بِالْإِنْفَاقِ مِنْهُ ، وَالْعِلْمُ لَا يَنْقُصُ بِالْإِنْفَاقِ بَلْ يَزِيدُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ إِفَاضَةَ الْعِلْمِ عَلَى التَّلَامِذَةِ تَقْدِيرُ الْمُعَلِّمِ زِيَادَةَ اسْتِعْمَادِهِ ، وَتَقَرُّرٌ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ الْعُلُومِ الَّتِي أَفَاضَهَا عَلَى تِلَامِذَتِهِ وَتَثَبَّتْهَا وَتَزِيدُهَا رَسُوخًا .

فَأَمَّا قَوْلُهُ : « وَصَنِيعُ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ » ، فَتَحْتَهُ سِرٌّ دَقِيقٌ حَكِيمٌ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمَالَ إِنَّمَا يَظْهَرُ أَثَرُهُ وَنَفْعُهُ فِي الْأُمُورِ الْجَسْمَانِيَةِ ، وَالْمَلَاذِ الشَّهْوَانِيَةِ ، كَالنِّسَاءِ وَالْخَيْلِ وَالْأُبْنِيَةِ وَالْمَأْكَلِ وَالْمَشْرَبِ وَالْمَلَابِسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ وَهَذِهِ الْأُمُورُ كُلُّهَا تَزُولُ بِزَوَالِ الْمَالِ أَوْ بِزَوَالِ رَبِّ الْمَالِ ؛ أَلَا تَرَى أَنَّهُ إِذَا زَالَ الْمَالُ اضْطُرَّ صَاحِبُهُ إِلَى بَيْعِ الْأُبْنِيَةِ وَالْخَيْلِ وَالْإِمَاءِ ، وَرَفَضَ تِلْكَ الْعُمَادَةَ مِنَ الْمَأْكَلِ الشَّهِيَّةِ وَالْمَلَابِسِ الْبَهِيَّةِ ! وَكَذَلِكَ إِذَا زَالَ رَبُّ الْمَالِ بِالمَوْتِ ، فَإِنَّهُ تَزُولُ آثَارُ الْمَالِ عِنْدَهُ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى بَعْدَ الْمَوْتِ آكِلًا شَارِبًا لَا بَسًا ، وَأَمَّا آثَارُ الْعِلْمِ فَلَا يُمْكِنُ أَنْ تَزُولَ أَبَدًا وَالْإِنْسَانُ فِي الدُّنْيَا ، وَلَا بَعْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الدُّنْيَا ؛ أَمَا فِي الدُّنْيَا فَلِأَنَّ الْعَالِمَ بِاللَّهِ تَعَالَى لَا يَعُودُ جَاهِلًا بِهِ ، لِأَنَّ انْتِفَاءَ الْعُلُومِ الْبَدِيعِيَّةِ عَنِ الذَّهْنِ وَمَا يَلْزَمُهَا مِنَ اللَّوْازِمِ بَعْدَ حَصُولِهَا مُحَالٌ ، فَإِذَا قَدْ صَدَقَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ الْمَالِ وَالْعِلْمِ : « إِنَّ صَنِيعَ الْمَالِ يَزُولُ بِزَوَالِهِ » ، أَيْ وَصَنِيعَ الْمَالِ لَا يَزُولُ وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَقُولَ « بِزَوَالِهِ » لِأَنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ : وَصَنِيعَ الْمَالِ يَزُولُ ، لِأَنَّ الْمَالَ يَزُولُ ؛ وَأَمَّا بَعْدَ خُرُوجِ الْإِنْسَانِ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّ صَنِيعَ الْعِلْمِ لَا يَزُولُ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ صَنِيعَ الْعِلْمِ فِي النَّفْسِ النَّاطِقَةِ اللَّذَّةُ الْعَقْلِيَّةُ الدَّائِمَةُ لِدَوَامِ سَبَبِهَا ، وَهُوَ حَصُولُ الْعِلْمِ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ الَّذِي هُوَ مَمْسُوقٌ

النفس مع انتفاء ما يُشغِلها عن التمتع به ، والتلذُّذ بمصاحبتها ؛ والذي كان يشغِلها عنه في الدنيا استغراقها في تدبير البدن ، وما تُورِدُه عليها الحواس من الأمور الخارجية ، ولأرباب العاشق إذا خلا بمَعشوقه ، وانتفت عنه أسباب الكدر ، كان في لذّة عظيمة ، فهذا هو سرُّ قوله : « وصليع المال يزول بزواله » .

فإن قلت : ما معنى قوله عليه السلام : « معرفة العلم دينٌ يُدانُ به » ، وهل هذا إلا بمنزلة قولك : معرفة المعرفة أو علم العلم ! وهذا كلامٌ مضطرب .

قلت : تقديره : معرفة فضل العلم أو شرف العلم ، أو وجوب العلم دينٌ يُدانُ به ، أى المعرفة بذلك من أمر الدين ، أى ركنٌ من أركان الدين واجبٌ مفروض .

ثم شرّح عليه السلام حال العلم الذى ذكر أن معرفة وجوبه أو شرفه دينٌ يُدانُ به ، فقال : « العلم يكسب الإنسان الطاعة في حياته » ، أى مَنْ كان عالماً كان لله تعالى طيعاً ، كما قال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (١) .

ثم قال : « وجيل الأحداث بعد وفاته » ، أى الذّكر الجليل بعد موته .

ثم شرع في تفضيل العلم على المال من وجهٍ آخر ، فقال : « العلم حاكم ، والمال محكومٌ عليه » ، وذلك لِمَلِك أن مَصْلَحَتَكَ في إنفاق هذا المال تُنفقه ، ولِمَلِك بأن المصلحة في إمساكه تمسكه ، فالعلم بالمصلحة داعٍ ، وبالمضرة صارف ؛ وهما الأمران الحاكمان بالحركات والتصرفات إقداماً ، وإحجاماً ، ولا يكون القادر قادراً مختاراً إلا باعتبارهما ؛ وليس إلا عبارة عن العلم أو ما يجرى سحرى العلم من الاعتقاد والظن ، فإذاً قد بان وظهر أن العلم من حيث هو علمٌ حاكم ، وأن المال ليس بحاكم ، بل محكوم عليه .

ثم قال عليه السلام : « هَلَكَ خُزَّانُ الْمَالِ وَأَحْيَاءُ » ، وذلك لِأَنَّ الْمَالَ الْخُزُونُ لَا فَرْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّخْرَةِ الْمَدْفُونَةِ تَحْتَ الْأَرْضِ ، نَفَازٍ نَهْ هَالِكٍ لَا سَحَالَةَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَلْتَذَّ بِإِنْفَاقِهِ ؛ وَلَمْ يَصْرِفْهُ فِي الْوُجُوهِ الَّتِي نَدَّبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهَا ؛ وَهَذَا هُوَ الْهَالِكُ الْمَعْنَوِيُّ ، وَهُوَ أَعْظَمُ مِنَ الْهَلَالِ الْحَسِّيِّ .

ثم قال : « وَالْعُلَمَاءُ بِاقْوَنَ مَابَقِيَ الدَّهْرُ » ؛ هَذَا الْكَلَامُ لَهُ ظَاهِرٌ وَبَاطِنٌ ، فَظَاهِرُهُ قَوْلُهُ : « أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ » ، أَيْ آثَارُهُمْ وَمَادَوْنُوهُ مِنَ الْعُلُومِ ، فَكَأَنَّهُمْ مَوْجُودُونَ ، وَبَاطِنُهُ أَنََّّهُمْ مَوْجُودُونَ حَقِيقَةً لَا تَجَازَا ، عَلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ بَقَاءَ الْأَنْفُسِ ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ كُنَايَةٌ وَلُغْزٌ ، وَمَعْنَاهُ ذَوَاتُهُمْ فِي حَظِيرَةِ الْقُدُّوسِ ؛ وَالْمُشَارَكَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقُلُوبِ ظَاهِرَةٌ ، لِأَنَّ الْأَمْرَ الْعَامَّ الَّذِي يَشْمَلُهُمَا هُوَ الشَّرَفُ ، فَكَيْفَ أَنْ تَكُ أَشْرَفُ عَالَمَهَا ، كَذَا الْقَلْبُ أَشْرَفُ عَالَمِهِ ، فَاسْتَعْمِرْ لَفْظُ أَحَدِهِمَا وَغَيْرُهُ عَنْ الْآخَرِ .

قوله عليه السلام : « هَا إِنِّ هَا هُنَا كَعِلْمَا سَجْمَا » وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ، هَذَا عِنْدِي إِشَارَةٌ إِلَى الْعِرْفَانِ وَالْوُصُولِ إِلَى الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الَّذِي لَا يَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا الْوَاحِدُ الْقَدُّ مِنَ الْعَالَمِ مَعْنَى اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ سِرٌّ ، وَلَهُ بِهِ اتِّصَالٌ .

ثم قال : « لَوْ أَصَبْتُ لَهُ سَحْلَةً ! » وَمَنْ الَّذِي يُطِيقُ سَحْلَهُ ! بَلْ مَنْ الَّذِي يُطِيقُ فَهْمَهُ فَضْلًا عَنْ سَحْلِهِ !

ثم قال : « بَلَى أَصِيبُ » .

ثم قسمَ الَّذِي يَصِيبُهُمْ خَمْسَةَ أَقْسَامٍ :

أَحَدُهُمْ : أَهْلُ الرِّيَاءِ وَالسُّمْعَةِ ؛ الَّذِينَ يَظْهَرُونَ الدِّينَ وَالْعِلْمَ وَمَقْصُودُهُمُ الدُّنْيَا ، فَيَجْعَلُونَ النَّامُوسَ الدِّينِيَّ سَبْكَةً لِأَقْتِنَاصِ الدُّنْيَا .

وثانيها : قَوْمٌ مِنْ أَهْلِ الْخَيْرِ وَالصَّلَاحِ لَيْسُوا بِذَوِي بَصِيرَةٍ فِي الْأُمُورِ الْإِلَهِيَّةِ الْغَامِضَةِ ،

فيخاف من إفشاء السرّ إليهم أن تنفدح في قلوبهم شبهة بأدنى خاطر ؛ فإنّ مقام المعرفة مقامٌ خطِر صعب لا يثبت تحته إلا الأفراد من الرجال ، الذين أيسدوا بالتوفيق والعصمة .

وثالثها : رجلٌ صاحبٌ لذاتٍ وطربٍ مشتهرٍ بقضاء الشهوة ، فليس من رجال هذا الباب .

ورابعها : رجلٌ عرف بجمع المال وادّخاره ، لا يُنفقه في شهواته ولا في غير شهواته ، فحكمه حكمُ القسم الثالث .

ثم قال عليه السلام : « كذلك يموت العلمُ بموت حامله » ، أى إذا ميتٌ مات العلمُ الذى فى صدرى ، لأننى لم أجد أحدا أدفعه إليه ، وأورثته إياه . ثم أستاذرك فقال : « اللهم بلى ، لا تخلو الأرضُ من قائمٍ بحجة الله تعالى » كيلا يخلو الزمانُ ممّن هو مهيمٌ لله تعالى على عباده ، ومسيطرٌ عليهم ؛ وهذا يكاد يكونُ تصريحاً بذهب الإمامية ، إلا أنّ أصحابنا يحملونه على أنّ المراد به الأبدال الذين وردت الأخبار النبوية عنهم أنّهم فى الأرض سائحون ، فمنهم من يُعرف ، ومنهم من لا يُعرف ، وإنهم لا يموتون حتّى يودّعوا السرّ ، وهو العرفان عند قومٍ آخرين يقومون مقامهم .

ثم استنذر عددهم فقال : « وكم ذا ! » أى كم ذا القليل ! وكَم ذا الفريق !

ثم قال : « وأين أولئك ! » استنبههم مكاتبتهم ومحلّتهم .

ثم قال : « هم الأقلون عدداً ، الأعظمون قدداً » .

ثم ذكر أنّ العلمَ بهم على حقيقة الأمر ، وأنكشَف لهم المستور المغطى ، وباشروا راحة اليقين وبرّد القلب وتلج العلم ، وأستلّناوا ماشقّ على المترّفين من الناس ، ووعر عليهم نحو التوحد ورفض الشهوات وخُشونة العيشة .

قال : « وَأَنسُوا بما أُسْتَوْحَشَ منه الجاهلون » ، يعنى العُزْلَة وجانبة الناس ، وطول الصمت ، وملازمة الخلوة ؛ ونحو ذلك مما هو شعار القوم .

قال : « وصَحِّبُوا الدُّنْيَا بأرواحِ أبدانها معلقةٌ بِالْمَحَلِّ الأعلى » ، هذا مما يقوله أصحابُ الحِكْمَةِ من تعلق النفوس المجرَّدة بِمبادئها من العقول المارقة ، فمن كان أذكى كان تعلقه بها أتم .

ثم قال : « أولئك خلفاء الله في أرضه ، والدعاة إلى دينه » ، لا شبهة أنِّ بالوصول يستحقُّ الإنسان أن يسمَّى خليفة الله في أرضه ، وهو المعنى بقوله سبحانه للملائكة ﴿أَنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾<sup>(١)</sup> ، وبقوله : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ﴾<sup>(٢)</sup> .

ثم قال : « آءِ آءٍ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَيْهِمْ ؟ » ، هو عليه السلام أحقُّ الناس بأن يشتاق إلى رؤيتهم ، لأنَّ الجنسية علةُ الضمِّ ، والشئ يشتاق إلى ما هو من سنخه وسُوسته وطبيعته ، ولما كان هو عليه السلام شيخ المارفين وسيدهم ، لا جرَم . اشتاقت نفسه الشريفة إلى مشاهدة أبنائه جنسه ، وإن كان كلُّ واحد من الناس دونَ طبقتة .

ثم قال لِلكَمِيلِ : « انصرف إذا شئت » ، وهذه الكلمة من محاسن الآداب ، ومن لطائف الكلم ، لأنه لم يقتصر على أن قال : « انصرف » كيلا يكون أمرا وحكما بالانصراف لا محالة ، فيكون فيه نوعٌ عُلوٍّ عليه ، فأتبع ذلك بقوله : « إذا شئت » ليُخْرِجه من ذلِّ الحكم وقهر الأمر إلى عزَّة المشيئة والاختيار .

(١) سورة البقرة ٣٠ . (٢) سورة الأنعام ١٦٥ .



(١٤٤)

الأضل :

المرء مخبوء لا تحت لسانه .

\*\*\*

البنج :

قد تكرر هذا المعنى مرارا ، فأما هذه اللفظة فلا نظير لها في الإيجاز والدلالة على المعنى ، وهي من ألفاظه عليه السلام المعدودة .

وقال الشاعر :

وكان ترى من صامت لك مُعِجِبِ زِيادتهُ أو نقصه في التكلم<sup>(١)</sup>  
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلا صورة اللحم والدم  
وتكلم عبدُ الملك بنُ عمير وأعرابيٌّ حاضر ، فقيل له : كيف ترى هذا ؟ فقال :  
لو كان كلامٌ يؤتدَم به لكان هذا الكلامُ مما يؤتدَم به .

وتكلم جماعةٌ من الخطباء عند مَسَلَمَةَ بن عبد الملك فأسهبوا في القول ، ولم يصنعوا  
شيئاً ، ثم أفرغ النطق رجل من أخرياتهم ، فجعل لا يخرج من فمٍ إلا إلى أحسن منه ،  
فقال مَسَلَمَةُ : ما شبَّهت كلامَ هذا بعقب كلام هؤلاء<sup>(٢)</sup> إلا بسحابةٍ لبدتُ بحاجَةٍ .

وسمع رجلٌ منشداً ينشد :

وكان أخلائي يقولون مرَّحِباً فلما رأوني مُقْتِراً مات مرَّحِبُ

(١) ينسب لزهير ، من معلقته ٩٤ بشرح الزوزني . (٢) بعدها في د : « أصحابه » .

فقال : أخطأ الشاعر ، إنَّ مرحباً لم يَمُتْ ، وإنما قتله علىُّ بنُ أبي طالب عليه السلام !  
 وقال رجل لأعرابيٍّ : كيف أهلك ؟ قال : صلبا إن شاء الله .  
 وكان مَسْلَمَةُ بن عبد الملك يمرض الجند ؛ فقال لرجل : ما اسمك ؟ فقال : «عبدُ» الله ،  
 وخَفَضَ ، فقال : ابنُ من ؟ فقال : ابنُ «عبدَ» الله ، وفتح ، فأمر بضَرْبِهِ ، فجعل يقول :  
 « سبحانُ » الله ، وَيَضُمُّ ، فقال مَسْلَمَةُ : ويحكم ! دعوه فإنه مجبولٌ على اللّحن والخطأ ،  
 لو كان تاركاً للحن في وقتٍ لتركه وهو تحت السيّاط .

(١٤٥)

الأفضل :

هَلَكَ أَمْرُؤُكُم يَعْزِفُ قَدْرُهُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

هذه الكلمة من كلماته الممدودة . وكتب النعمان بن عبد الله إلى القاسم بن عبيد الله كتاباً يُدِلُّ فيه بخِدْمَتِهِ ، ويستزيد في رِزْقِهِ ، فوقَّع على ظهره : رَحِمَ اللهُ امِراً عَرَفَ قَدْرَهُ ! أَنْتَ رَجُلٌ قَدْ أُعْجِبْتُكَ تَسْكُ فُلَسْتَ تَعْرِفُهَا ، فَإِنْ أُحِبَّتْ أَنْ أَعْرِفُكَهَا عَرَفْتُكَ . فكتب إليه النعمان : كُنْتُ كَتَبْتُ إِلَى الْوَزِيرِ أَعَزَّهُ اللهُ كِتَاباً أَسْتَزِيدُهُ فِي رِزْقِي ، فوقَّع على ظهره تَوْفِيعَ ضَجَرٍ لَمْ يَخْرُجْ فِيهِ مَعَ ضَجَرِهِ عَمَّا أُلْفَتْهُ مِنْ حَيَاتِهِ وَحُسْنِ نَظَرِهِ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَدْ حَدَّثَ لَعَبْدَهُ يُحِبُّ بِنَفْسِهِ ، وَقَدْ صَدَّقَ - أَعْلَى اللهُ قَدْرَهُ - لَقَدْ شَرَّفَنِي الْوَزِيرُ بِخِدْمَتِهِ ، وَأَعْلَى ذِكْرِي بِجَمِيلِ ذِكْرِهِ ، وَنَبَّهَ عَلَى كِفَايَتِي بِأَسْتِكْفَانِهِ ، وَرَفَعَنِي وَكَثَّرَنِي (١) عِنْدَ نَفْسِي ، فَإِنْ أَعْجَبْتُ فَبِنِعْمَتِهِ عِنْدِي ، وَجَمِيلِ تَطَوُّلِهِ عَلَيَّ ، وَلَا عَجَبَ ، وَهَلْ خَلَا الْوَزِيرُ مِنْ قَوْمٍ يَصْطَنِعُهُمْ بَعْدَ مَلَكَةٍ وَيَرَفَعُهُمْ بَعْدَ مُخُولٍ ، وَيُحَدِّثُ لَهُمْ هِمًّا رَفِيعَةً وَأَنْفَسًا عَلِيَّةً ، وَفِيهِمْ شَاكِرٌ وَكَفُورٌ ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَشْكَرَهُمْ لِلنِّعْمَةِ ، وَأَقْوَمَهُمْ بِحَقِّهَا . وَقَدْ أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ : إِنْ عَرَفَ نَفْسَهُ وَإِلَّا عَرَفَنَاهُ إِيَّاهَا ، فَمَا أَنْكَرَهَا ، وَهِيَ نَفْسُ أَنْشَأَتِهَا نِعْمَةُ الْوَزِيرِ وَأُحْدِثَتْ فِيهَا مَا لَمْ تَزَلْ تُحَدِّثُهُ فِي نَظَرَاتِهَا مِنْ سَائِرِ عِبِيدِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا يَأْخُذُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ خِدْمَةِ مَوْلَاهُ وَوَلِيِّ نِعْمَتِهِ ، إِمَّا عَادَةً وَدُرْبَةً وَإِمَّا تَأْدِيبًا وَهَيْبَةً ، وَإِمَّا شُكْرًا وَاسْتِدَامَةً لِلنِّعْمَةِ .

فلما قرأ القاسم بن عبيد الله كتابه استحسَّنه ، وزاد في رِزْقِهِ .

(١) ب : « كبرني » .

(١٤٦)

الأضل :

وقال عليه السلام لرجل سأله أن يعظه :

لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ ، وَيَرْجُو التَّوْبَةَ بِطُولِ الْأَمَلِ ؛  
يَقُولُ فِي الدُّنْيَا يَقُولِ الرَّاهِدِينَ ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِعَمَلِ الرَّاهِبِينَ ، إِنْ أُعْطِيَ مِنْهَا  
لَمْ يَشْبَعْ ، وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعْ ، يَمِيزُ عَنْ شُكْرِ مَا أُوتِيَ ، وَيَبْتَغِي الزِّيَادَةَ  
فِيمَا بَقِيَ ، يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي ، وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَمْ يَأْتِ .

يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ عَمَلَهُمْ ، وَيُبْغِضُ الْمُنْذِرِينَ وَهُوَ أَحَدُهُمْ ، يَكْرَهُ  
الْمَوْتَ لِكَثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيُقِيمُ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَوْتَ مِنْ أَجْلِهِ ، إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِمًا ،  
وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِيًا . يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ ! وَإِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ  
دَعَا مُضْطَرًّا ، وَإِنْ نَالَهُ رَخَاءٌ أَعْرَضَ مُفْتَرًّا ، تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَى مَا يَظُنُّ ، وَلَا يَغْلِبُهَا  
عَلَى مَا يَسْتَحِقُّ ، يَخَافُ عَلَى غَيْرِهِ بِأَذَى مِنْ ذَنْبِهِ ، وَيَرْجُو لِنَفْسِهِ بِأَكْثَرِ مِنْ عَمَلِهِ .  
إِنْ اسْتَفْنَى بَطَرَ وَفُتِنَ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قَنَطَ وَوَهَنَ ، يُقْصِرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سَأَلَ ؛  
إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَتْهُ حِجْنَةٌ انْفَرَجَ  
عَنْ شَرَائِطِ الْمِلَّةِ .

يَصِفُ الْمَبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَعَمَّقُ ، فَهُوَ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ  
وَمِنَ الْعَمَلِ مُقِلٌّ .

يُنَافِسُ فِيمَا يَنْفَى ، وَيَسَامِحُ فِيمَا يَبْقَى ؛ يَرَى الْغَنَمَ مَغْرَمًا ، وَالْغُرَمَ مَغْنَمًا ،  
يَخْشَى الْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ الْفَوْتَ ، يَسْتَعْظِمُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرَ مِنْهُ

مِنْ نَفْسِهِ ، وَيَسْتَكْبِرُ مِنْ طَاعَتِهِ مَا يُحَقِّرُهُ مِنْ طَاعَةِ غَيْرِهِ ، فَهُوَ عَلَى النَّاسِ طَافِعٌ ، وَلِنَفْسِهِ مُدَاهِنٌ .

الْلَّغْوُ مَعَ الْأَغْنِيَاءِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الذِّكْرِ مَعَ الْفُقَرَاءِ ، يَجْحَدُكُمْ عَلَى غَيْرِهِ لِنَفْسِهِ ، وَلَا يَجْحَدُ عَلَيْهَا لِغَيْرِهِ ، يُرْشِدُ نَفْسَهُ وَيُعْوِي غَيْرَهُ (١) ، فَهُوَ يُطَاعُ وَيَعْصَى ، وَيَسْتَوْفَى وَلَا يُؤْفَى ، وَيَخْشَى الْخَلْقَ فِي غَيْرِ رَبِّهِ ، وَلَا يَخْشَى رَبَّهُ فِي خَلْقِهِ .

\*\*\*

قال الرضی رحمہ اللہ تعالیٰ :

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الْكِتَابِ إِلَّا هَذَا الْكَلَامُ لَكَفَى بِهِ مَوْعِظَةً نَاجِمَةً ، وَحِكْمَةً بَالِغَةً ، وَبَصِيرَةً لِمُبْصِرٍ ، وَعِبْرَةً لِنَاطِرٍ مُفَكِّرٍ .

\*\*\*

## الْبُخ :

كثير من الناس يرجون الآخرة بغير عمل ، ويقولون : رحمة الله واسعة ؛ ومنهم من يظن أن التلفظ بكلمتي الشهادة كافٍ في دخول الجنة ، ومنهم من يسوّف نفسه بالتوبة ، ويرجئ الأوقات من اليوم إلى غد ، وقد يُخْتَرَمَ على غرّة فيفوتُهُ ما كان أمّله ، وأكثرُ هذا الفصل للتهى عن أن يقول الإنسان واعظاً لغيره ما لم يعلم هو من نفسه ، كقوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٢) .

فأول كلمة قالها عليه السلام في هذا المعنى من هذا الفصل قوله : « يقول في الدنيا بقول الزّاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين » .

(١) د « يرشد غيره ويعوي نفسه » . (٢) سورة البقرة ٤٤ .

ثم وَصَفَ صاحبَ هذا المذهب وهذه الطريقة فقال : « إِنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ مِنَ الدُّنْيَا لَمْ يَشْبَعِ » ، لأنَّ الطبيعة البشريَّة مجبولةٌ على حُبِّ الازدياد ، وإنما يَقْهَرُهَا أَهْلُ التَّوْفِيقِ وَأَرْبَابُ الْعَزْمِ الْقَوِيُّ .

قال : « وَإِنْ مُنِعَ مِنْهَا لَمْ يَقْنَعِ » بما كَانَ وَصَلَ إِلَيْهِ قَبْلَ الْمُنْعِ .  
ثم قال : يَمَجِّزُ عَنْ شُكْرِ مَا كَانَ أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ ، لَيْسَ يَعْنِي الْعَجْزَ الْحَقِيقِيَّ ، بَلِ الْمُرَادُ تَرْكَ الشُّكْرِ ، فَسَمَّى تَرْكَ الشُّكْرِ عَجْزًا . وَيَجُوزُ أَنْ يُجْمَلَ عَلَى حَقِيقَتِهِ ، أَيْ أَنَّ الشُّكْرَ عَلَى مَا أُولَى مِنَ النِّعَمِ لَا تَنْتَهِي قُدْرَتُهُ إِلَيْهِ ، أَيْ نِعَمَ اللَّهِ عَلَيْهِ أَجَلٌ وَأَعْظَمَ مِنْ أَنْ يُقَامَ بِوَاجِبِ شُكْرِهَا .

قال : « وَيَتَنَبَّأُ الزِّيَادَةَ فِيمَا بَقِيَ » ، هَذَا رَاجِعٌ إِلَى التَّحْوِ الْأَوَّلِ .  
قال : « يَنْهَى وَلَا يَنْتَهِي وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِمَا لَا يَأْتِي » ، هَذَا كَمَا تَقَدَّمَ .  
قال : « يُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَا يَعْمَلُ سَعْيَهُمْ » ، إِلَى قَوْلِهِ : « وَهُوَ أَحَدُهُمْ » ، وَهُوَ الْمَسْنَى الْأَوَّلُ بِمَعْنَاهُ .

قال : يَكْرَهُ الْمَوْتَ لَكثْرَةِ ذُنُوبِهِ ، وَيَقِيمُ عَلَى الذَّنْبِ ، وَهَذَا مِنَ الْعَجَائِبِ أَنْ يَكْرَهُ إِنْسَانٌ شَيْئًا ثُمَّ يَقِيمُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ الْغُرُورُ وَتَسْوِيفُ النَّفْسِ بِالْأَمَانِيِّ .  
ثم قال : « إِنْ سَقِمَ ظَلَّ نَادِمًا ، وَإِنْ صَحَّ أَمِنَ لَاهِيًا » ، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ (١) . . . الْآيَاتِ .

قال : « يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ إِذَا عُوِيَ ، وَيَقْنَطُ إِذَا ابْتُلِيَ » ﴿ فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ \* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾ (٢) ، وَمِثْلُ الْكَلِمَةِ الْأُخْرَى : « إِنْ أَصَابَهُ بَلَاءٌ » ، وَ « إِنْ نَالَ رَخَاءٌ » .

ثم قال: « تغلبه نفسه على ما يظن، ولا يغلبها على ما يستيقن » ، هذه كلمة جليلة عظيمة يقول : هو يستيقن الحساب والثواب والعقاب ، ولا يغلب نفسه على مجانبته ومتاركته ما يفضي به إلى ذلك الخطر العظيم ، وتغلبه نفسه على السعي إلى ما يظن أن فيه لذة عاجلة ؛ فواجبا ممن يرجح عنده جانب الظن على جانب العلم ! وما ذاك إلا لضعف يقين الناس وحب العاجل .

ثم قال : « يخاف على غيره بأذى من ذنبه ، ويرجو لنفسه أكثر من عمله » ، ما يزال يرى الواحد منا كذلك يقول : إني لخائف على فلان من الذنب الفلاني وهو مقبم على أخش من ذلك الذنب ، ويرجو لنفسه التجارة بما لا تقوم أعماله الصالحة بالمصير إلى النجاة به ، نحو أن يكون يصلّي ركعات في الليل أو يصوم أياما يسيرة في الشهر ، ونحو ذلك . قال : « إن أَسْتَعْنَى بِطَرِيقَيْنِ ، وَإِنْ افْتَقَرَ قِنِطٌ وَوَهْنٌ » قِنِطٌ بِالْفَتْحِ يَقْنِطُ بِالْكَسْرِ ، قُنُوطًا مِثْلَ جَلَسَ يَجْلِسُ جُلُوسًا ، وَيَجُوزُ قَنْطٌ يَقْنِطُ بِالضَّمِّ مِثْلَ قَمَدٍ يَقْعُدُ ، وَفِيهِ لَفَةٌ ثَلَاثَةٌ : قَنِطٌ يَقْنِطُ قَنْطًا ، مِثْلُ تَعَبٍ يَتْعَبُ تَعَبًا وَقَنَاطَةٌ فَهُوَ قَنِطٌ ، وَبِهِ قَرْنٌ : ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاقِظِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وَالْقُنُوطُ الْيَأْسُ . وَوَهْنُ الرَّجُلِ يَهِنٌ ، أَيْ ضَعْفٌ . وَهَذَا الْمَعْنَى قَدْ تَكَرَّرَ .

قال : « يَقْصُرُ إِذَا عَمِلَ ، وَيُبَالِغُ إِذَا سِئِلَ » ، هَذَا مِثْلُ مَا مَدَّحَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلُهُ الْأَنْصَارَ : « إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفَزَعِ ، وَتَقُولُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ » . قال : « إِنْ عَرَضَتْ لَهُ شَهْوَةٌ أَسْلَفَ الْمَعْصِيَةَ ، وَسَوَّفَ التَّوْبَةَ ، وَإِنْ عَرَّتْهُ مِحْنَةٌ أَنْفَرَجَ عَنِ شَرَائِطِ الْمَلَّةِ » ، هَذَا كَمَا قِيلَ : أَمَدَحُهُ نَقْدًا وَيُثَبِّتُنِي نَسِيبَةً ، وَانْفَرَجَ عَنِ شَرَائِطِ الْمَلَّةِ ، قال : أَوْفَعَلْ مَا يَقْتَضِي الْخُرُوجَ عَنِ الدِّينِ ؛ وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ إِذَا عَرَّتْهُ الْحَنُ كَفَرُوا أَوْ قَالَ : مَا يُقَارِبُ الْكُفْرَ مِنَ التَّسَخُّطِ وَالتَّبَرُّمِ وَالتَّأَنُّفِ .

(١) سورة الحجر ٥٥ ، وهي قراءة الأعمش ويحيى بن وثاب ، وانظر تفسير القرطبي ١٠ : ٣٦ .

قال : « يَصِفُ الْعِبْرَةَ وَلَا يَعْتَبِرُ ، وَيُبَالِغُ فِي الْمَوْعِظَةِ وَلَا يَتَعَطَّ » ، هذا هو المعنى الأول .

قال : « فَبِهِ بِالْقَوْلِ مُدِلٌّ ، وَمِنْ الْعَمَلِ مُقِلٌّ » ، هذا هو المعنى أيضا .  
قال : « يَنَافِسُ فِيهَا يَفْنَى » ، أى فى شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلَذَائِهَا ، و « يُسَامِحُ فِيهَا يَبْقَى »  
أى فى الثَّوَابِ .

قال : « يَرَى الْعُنْمَ مَغْرَمًا ، وَالْغُرْمَ مَغْنَمًا » ، هذا هو المعنى الذى ذكرناه آنفا .  
قال : « يَخْشَى الْمَوْتَ ، وَلَا يُبَادِرُ الْقَوْتَ » ، قد تكرر هذا المعنى فى هذا الفصل ،  
وكذلك قوله : « يَسْتَعِظُ مِنْ مَعْصِيَةِ غَيْرِهِ مَا يَسْتَقِلُّ أَكْثَرُ مِنْهُ مِنْ نَفْسِهِ . . . » ،  
وإلى آخر الفصل كلُّ مكرَّر المعنى وإن اختلفت الألفاظ ، وذلك لاقتداره عليه السلام  
على العبارة ، وَسَعَةِ مَادَّةِ النَّطْقِ عِنْدَهُ .



(١٤٧)

الأضل :

لِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ خُلُوةٌ أَوْ مِرَّةٌ .

\*\*\*

البُخ :

هكذا قرأناه ووجدناه في كثير من النسخ ، ووجدناه في كثير منها « لكل أمر عاقبة » ، وهو الأليق ، ومثل هذا المعنى قولهم في المثل : لكل سائل قرار ، وقد أخذ الطائي فقال :

فكانت لوعة ثم استقرت كذا لك سائلة قرآن<sup>(١)</sup> .

وقال الكميت في مثل هذا :

فالآن صرت إلى أمي — فتنظروها في القرآن كثيرة ، نحو قوله تعالى :

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾<sup>(٢)</sup> ، وقوله : ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَمَى \* وَبُرِّرَّتْ الْجَنِّيمُ لِمَنْ يَرَى \* فَأَمَّا مَنْ ظَنَّى \* وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَنِّيمَ هِيَ الْمَأْوَى \* وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى \* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾<sup>(٣)</sup> ، وغير ذلك من الآيات .

(١) ديوانه ٢ : ١٥٣ . (٢) الأغاني ١٥ : ١١١ (سأى) .

(٣) سورة هود ١٠٥ . (٤) سورة النازعات ٣٥ - ٤١ .

(١٤٨)

الأفضل :

الراضى بفعل قوم كالدَّاخل فيه ممهم ، وعلى كلِّ داخلٍ في باطلٍ إيمانٍ : إنهم  
العمَلُ به ، وإنهم الرضا به .

\*\*\*

الْبَزَج :

لا فرق بين الرضا بالفعل وبين المشاركة فيه ؛ ألا ترى أنه إذا كان ذلك الفعل قبيحا  
استحقَّ الراضى به الذم كما يستحقُّه الفاعل له ! والرضا يفسر على وجهين : الإرادة ، وترك  
الاعتراض ، فإن كان الإرادة فلا ريب أنه يستحق الذم لأنَّ مُريد القبيح فاعلٌ للقبيح ، وإن  
كان ترك الاعتراض مع القدرة على الاعتراض فلا ريب أنه يستحق الذم أيضا ، لأنَّ تارك  
النهي عن المنكر مع ارتفاع الموانع يستحق الذم .

فأمَّا قوله عليه السلام : « وعلى كلِّ داخلٍ في باطلٍ إيمان » ، فإن أراد الدَّاخل فيه  
بأن يفعله حقيقة فلا شبهة في أنه يأثم من جهتين :  
إحداها من حيث إنه أراد القبيح .

والأخرى من حيث إنه فعله ، وإن كان قومٌ من أصحابنا قالوا : إنَّ عقاب المراد هو  
عقاب الإرادة .

وإن أراد أن الراضى بالقبيح فقط يستحقَّ إثمين : أحدها لأنه رضى به ، والآخر  
لأنه كالفاعل ، فليس الأمر على ذلك ، لأنه ليس بفاعل للقبيح حقيقةً ليستحقَّ الإثم من  
جهة الإرادة ومن جهة الفعلية جميعا ، فوجب إذن أن يُحمَل كلامه عليه السلام على  
الوجه الأوَّل .

— ٣٦٣ —

(١٤٩)

الأصل :

لِكُلِّ مُقْبِلٍ إِذْ بَارَ ، وَمَا أَذْبَرَ فَكَأَنَّ لَمْ يَكُنْ .

\*\*\*

الشرح :

هذا معنًى قد استعمل كثيراً جداً ، فنه المثل :

ما طارَ طَيْرٌ وارتفعَ إِلَّا كما طارَ وَقَعُ

وقول الشاعر :

بقدَرُ العُلُوِّ يَكُونُ الهبوطُ وَإِيَّاكَ والرُّتَبَ العَالِيَةَ

وقال بعض الحكماء : حركة الإقبال بطيئة ، وحركة الإدبار سريعة ، لأنَّ المُقبِل كالصاعد إلى مِرْقَاة ، ومِرْقَاةُ المُدْبِر كالْمَقْدُوف به من عُلُوِّ إلى أَسْفَل ، قال الشاعر :

في هذه الدَّارِ في هذا الرُّواقِ على هذى الوِسادةِ كُنَّ العزُّ فانقرضاً  
آخر :

إنَّ الأمورَ إِذَا دَنَتْ لَزَوَّالها فعلامهُ الإِدْبَارُ فيها تَظْهَرُ

وفى الخبر المرفوع : كانت ناقةُ رسولِ الله صَلَّى الله عليه وآله العَصْبَاءُ لَا تُسَبِّقُ ، فجاء أعرابىٌّ عَلَى قَعْدٍ لَهُ فُسَبِّحُهَا ، فاشتد على الصحابة ذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : « إِنَّ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَلَّا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا إِلَّا وَضَعَهُ » .

وقال شيخٌ من همدانَ : بمنى أهلى فى الجاهليَّة إلى ذى الكَلَّاعِ بهدايا ، فكثرتُ

تحت قصره حولا لا أصل إليه ، ثم أشرف إشرافاً من كؤوة له فخر له من حوال  
العرش سجداً ، ثم رأيته بعد ذلك بحمص فقيرا يشتري اللحم ويسمطه (١) خلف دابته ،  
وهو القائل :

أفّ لديّ إذا كانت كذا أنا منها في هموم وأذى  
إن صفا عيش امرئ في صبيحها جرّعته ممسياً كأس القذى  
ولقد كنت إذا ما قيل من أنعم العالم عيشاً ؟ قيل : ذا

وقال بعض الأدباء في كلام له : بينا هذه الدنيا ترضع بدرّتها وتصرح (٢) بزبدتها ، وتلحف  
فضل جناحها ، وتغرّ بر كود رياحها ، إذ عطفت عطف الضروس ، وصرخت صراخ (٣)  
الشموس ، وشلت غارة الهموم ، وأراقت ما حلبت من التميم ، فالسعيد من لم يفتّر بنكاحها ،  
واستعدّ لو شك طلاقها .

شاعر — هو إهاب بن همام بن صمصمة الجاشمي ؛ وكان عثمانياً :  
أمرؤ أبىك فلا تكذبين لقد ذهب الخير إلا قليلاً  
وقد فتن الناس في دينهم وخلى ابن عقان شراً طويلاً  
وقال أبو المتاهية :

يَعْمُرُ بَيْتَ بَخْرَابِ بَيْتِ يَعْيشُ حَيْثُ بَتْرَاثِ مَيْتِ  
وقال أنس بن مالك : ما من يومٍ ولا ليلةٍ ولا شهرٍ ولا سنةٍ إلا والذي قبله خيرٌ منه ،  
سمعتُ ذلك من نبيّكم عليه السلام ، فقال شاعر :  
ربّ يومٍ بكيتُ منه فلماً صرتُ في غيره بكيتُ عليه

(١) يسمطه ، أى يملقه . (٢) ب : « تصرخ » ، تحريف .

(٣) ب : « صرحت » تحريف .

قيل لبعض عظماء الكتاب بعد ما صودِر : ما تُفَكِّر في زوال نِعْمَتِكَ ؟ فقال : لا بدّ  
من الزوال ، فلأن تزول وأبقى خيرٌ من أن أزول وتبقى .  
ومن كلام الجاهلية الأولى : كلّ مقيمٍ شاخص ، وكلّ زائدٍ ناقص .  
شاعر :

إنما الدنيا دُولٌ فراحِلٌ قيلَ نَزَلُ  
\* إذ نازلَ قيلَ رَحَلُ \*

لما فَتَحَ خالدُ بنُ الوليد عين التمر سأل عن الحُرقة بنت النعمان بن المنذر ، فأثاها  
وسألها عن حالها ، فقالت : لقد طلعت علينا الشمس وما من شيء يدبّ تحت الخورنق  
إلا وهو تحت أيدينا ، ثم غرّبت وقد رحمتنا كلّ من نلّم به ، وما بيت دخلته حبرة ،  
إلا استدخله حبرة ، ثم قالت :

فبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ  
فَأَفٍّ لَدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا تَقَلَّبَ تَارَاتِ بِنَا وَتَصَرَّفُ  
وجاءها سعدُ بنُ أبي وقاص مرّة ، فلما رآها ، قال : قاتل الله عديّ بن زيد ، كأنه  
كان ينظر إليها حيث قال لأبيها :

إِنَّ لِلدَّهْرِ صَرْعَةً فَاحْذَرْنَهَا لَا تَبَيَّنَ قَدَامَتِ الدَّهْرُ (١)  
قَدْ يَبِيْتُ الْفَتَى مُعَاقَى فَيَرْدَى وَلَقَدْ كَانَ آمِنًا مَسْرُورًا

وقال مطرف بن الشَّخِير : لا تنظروا إلى خفض عيش الملوك ولين رياشهم ، ولكن  
انظروا إلى سرعة ظعنهم وسوء مُنْقَلَبهم ، وإن عُمرًا قصيرا يستوجب به صاحبه النار  
لعمرٍ مشثومٍ على صاحبه .

لما قتل عازم بن إسماعيل مروان بن محمد وقعد على فراشه ، قالت ابنة مروان له :  
يا عازم ، إن دهرًا أزل مروان عن فرشه وأقعدك عليها لمُبَاغٍ في عِطَّتِكَ إِن عَقَلْتَ .

(١) شعراء النصرانية ، الأغاني .

(١٥٠)

الأضل :

لا يَعدُّ الصَّبْرُ الظَّفَرَ وإن طَالَ بِهِ الزَّمانُ .

\*\*\*

الشَّيْخ :

قد تقدّم كلامنا في الصبر .

وقالت الحكماء : الصَّبْرُ ضَرْبان : جسمي ونفسي ، فالجسمي تحمّل المشاق بقدر

القوّة البدنيّة ، وليس ذلك بفضيلة تامّة ، ولذلك قال الشاعر :

والصَّبْرُ بالأرواح يُعرَف فضله صبر السلوك وليس بالأجسام

وهذا النوع إمّا في الفعل كالشي ورَفَع الحَجَر أو في رفع الانفعال كالصَّبْر على المَرَض واحتمال الضرب المُفْطِيع . وأما النفسيّ ففيه تتعلّق الفضيلة ؛ وهو ضَرْبان : صبرٌ عن مشتهى ، ويقال له : عِفّة ، وصبرٌ على تحمّل مكروه أو محبوب . وتختلف أَسْماؤه بحسب اختلافِ مواضعه ، فإن كان في زول مصيبة لم يتعدّ به اسم الصبر ، ويضادّه الْجَزَع والهلوع والحزن ، وإن كان في احتمال الغنى سَمِيَ ضبط النفس ، ويضادّه الْبَطَر والأشْر والرفغ وإن كان في محاربة سَمِيَ شجاعةً ويضادّه الْجَبْن ، وإن كان في إمساك النفس عن قضاء وَطَر الغضب سَمِيَ حِلْماً ، ويضادّه التذمّر والاستشاطاة ، وإن كان في نائبة مضجرة سَمِيَ سَعَة صَدْر ، ويضادّه الضَجَر وضيق العَظَن والتبرّم ، وإن كان في إمساك كلامٍ في الضمير سَمِيَ كِتْمَان السرّ ، ويضادّه الإفشاء ، وإن كان عن فضول العيش سَمِيَ قناعةً وزهداً ويضادّه الحرص والشّره . فهذه كلها أنواعُ الصبر ، ولكن اللفظ العُرْفِيّ واقع على الصبر الجُسمانيّ ، وعلى ما يكون في زول المصائب ، وتنفرد<sup>(١)</sup> باقي الأنواع بأسماء تخصّها .

(١) ب : « وينفرد » .

(١٥١)

الأبطل :

مَا اخْتَلَفَتْ دَعْوَتَانِ إِلَّا كَانَتْ إِحْدَاهُمَا ضَلَالَةً .

\*\*\*

الشيخ :

هذا عند أصحابنا مختصٌ باختلاف الدعوة في أصول الدين ، ويدخل في ذلك الإمامة ، لأنها من أصول الدين ، ولا يجوز أن يختلف قولان متضادان في أصول الدين فيكونا صوابا ، لأنه إن عني بالصواب مطابقة الاعتقاد للخارج ؛ فستحيل أن يكون الشيء في نفسه ثابتا منفيا ، وإن أراد بالصواب سقوط الإثم - كما يحكي عن عبيد بن الحسن العنبري - فإنه جمل اجتهاد المجتهدين في الأصول عُدْرًا ، فهو قولٌ مسبوق بالإجماع .

ولا يحمل أصحابنا كلامَ أمير المؤمنين عليه السلام على عمومِهِ ، لأن المجتهدين في فروع الشريعة وإن اختلفوا وتضادت أقوالهم ليسوا ولا واحد منهم على ضلال ، وهذا مشروعٌ في كُتُبنا الكلامية في أصول الفقه .

(١٥٢)

الأفضل :

مَا كَذَبْتُ وَلَا كُنَيْتُ ، وَلَا ضَلَلْتُ وَلَا ضَلَّ بِي .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

هذه كلمة قد قالها مرارا ، إحداهن في وقعة النهروان .

وكُذِّبَ بالضم أُخِيرْتُ بِخَبَرٍ كاذب ، أى لم يخبرنى رسول الله صلى الله عليه وآله عن المحدث خبراً كاذباً ، لأن أخباره صلى الله عليه وآله كلها صادقة .  
وضُلَّ بى ، بالضم نحو ذلك ، أى لم يُضِلِّنى مضلل عن الصدق والحق ، لأنه كان يَسْتَنِدُ فى أخباره عن النيوب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو منزّه عن إضلاله وإضلال أحد من المكلفين .

فكأنه قال لما أخبرهم عن المحدث<sup>(١)</sup> وإبطاء ظهوره لهم : أنا لم أكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ورسول الله صلى الله عليه وآله لا يكذب فيما أخبرنى بوقوعه ، فإذا لابد من ظفركم بالمحدث فاطلبوه .

---

(١) المحدث : ناقص اليد ؛ وهو ذو الثدية .



(١٥٣)

الأصل :

لِظَّالِمٍ الْبَادِي غَدًا يَكْفُهُ عَصَبَةٌ .

\*\*\*

الشرح :

هذا من قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَمَصُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وإنما قال : « البادى » لأن من انتصر بعد ظلمه فلا سبيل عليه . ومن أمثالهم : البادى أظلم .  
فإن قلت : فإذا لم يكن بادياً لم يكن ظالماً ، فأى حاجة له إلى الاحتراز بقوله :  
« البادى » ؟

قلت : لأن العرب تُطلق على ما يقع في مُقابلة الظلم اسم « الظلم » أيضاً كقوله تعالى :  
﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ <sup>(٢)</sup> .

---

(١) سورة الفرقان ٢٧ . (٢) سورة الشورى ٤٠ .

(١٥٤)

الأضل :

الرَّحِيلُ وَشَيْكُ .

\* \* \*

الشَّيْخُ :

الوشيكُ : السريع ، وأراد بالرحيل ها هنا الرَّحِيلُ عن الدنيا وهو الموت .  
وقال بعضُ الحكماء : قبل وجود الإنسان عدم لا أوّل له ، وبعده عدم لا آخر له ،  
وما شَبَّهَتْ وجوده القليل<sup>(١)</sup> المتناهى بين العدمين غير المتناهيَيْن إلا بَرَقَ يَخْطَفُ خَطْفَةً  
خفيفةً<sup>(٢)</sup> في ظلامٍ مُمتكِر ، ثم يَخمد وَيَعود الظلام كما كان .

---

(١) : « الوجود القليل » . (٢) : « يسيرة » .

— ٣٧١ —

(١٥٥)

الأضل :

مَنْ أَبْدَى صَفْحَتَهُ لِإِلْحَقِّ هَلَكَ .

\*\*\*

الشنخ :

قد تقدّم تفسيرُنا لهذه الكلمة في أوّل الكتاب ، ومعناها : مَنْ نَابَذَ اللَّهَ وَحَارِبَهُ  
هَلَكَ ، يقال لمن خالف وكاشف : قد أَبْدَى صَفْحَتَهُ .

(١٥٦)

الأفضل :

استعصموا بالذمم في أوتارها .

\*\*\*

الشيخ :

أى فى مظانها وفى مركزها ، أى لا تستندوا إلى ذمام الكافرين والمارقين ، فإنهم ليسوا أهلا للاستئصال بذيهمهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ لَا يَرْفُقُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةٍ ﴾<sup>(١)</sup> . وقال : ﴿ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وهذه كلمة قالها بعد انقضاء أمر الجمل وحضور قوم من الطلقاء بين يديه ليُبايعوه ، منهم مروان بن الحكم ؛ فقال : وماذا أصنع ببيعتك ؟ ألم تُبايعنى بالأُمس ! يعنى بعد قتل عثمان ، ثم أمر بإخراجهم ورفع نفسه عن مبايعة أمثالهم ، وتسكلم بكلام ذكر فيه ذمام العربية وذمام الإسلام ، وذكر أن من لا دين له فلا ذمام له .

ثم قال فى أثناء الكلام : « فاستعصموا بالذمم فى أوتارها » ، أى إذا صدرت عن ذوى الدين ، فمن لا دين له لا عهد له .

(٢) سورة التوبة ١٢ .

(١) سورة التوبة ١٠ .

(١٥٧)

الأنضل :

عَلَيْكُمْ بِطَاعَةِ مَنْ لَا تُعْذَرُونَ فِي جَهَائِهِ ..

\*\*\*

الشنخ :

يمنى نفسه عليه السلام ؛ وهو حق على المذهبين جميعا ، أما نحن فمفسدون أنه إمام واجب الطاعة بالاختبار ، فلا يُعْذَرُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي الْجَهْلِ بِوَجوب طاعته ، وأما على مذهب الشيعة فلأنه إمام واجب الطاعة بالنص ، فلا يُعْذَرُ أَحَدٌ مِنَ الْكَافِرِينَ فِي جَهالة إمامته ، وعندهم أن معرفة إمامته تجري مجرى معرفة محمد صلى الله عليه وآله وتجرى معرفة الباري سبحانه ، ويقولون : لا تصح لأحد صلاة ولا صوم ولا عبادة إلا بمعرفة الله والنبي والإمام .

وعلى التحقيق ، فلا فرق بيننا وبينهم في هذا المعنى ، لأن من جهل إمامة علي عليه السلام وأنكر صحتها ولزومها ، فهو عند أصحابنا بخلاف النار ، لا ينفعه صوم ولا صلاة ، لأن المعرفة بذلك من الأصول الكلية التي هي أركان الدين ، ولكننا لا نسمى منكر إمامته كافرا ، بل نسميه فاسقا ، وخارجيا ، ومارقا ، ونحو ذلك ، والشيعة تسميه كافرا ، فهذا هو الفرق بيننا وبينهم ، وهو في اللفظ لا في المعنى .

(١٥٨)

الأفضل :

مَا شَكَّتُ فِي الْحَقِّ مُنْذُ أُرِيْتُهُ .

\*\*\*

الشرح :

أى منذ أعلمته ، ويجب أن يُقدَّر ها هنا مفعول محذوف ، أى منذ أُريته حقاً ، لأنَّ « أَرَى » يتمدَّى إلى ثلاثة مفاعيل ، تقول : أَرَى اللهَ زَيْدًا عَمْرًا خَيْرَ النَّاسِ ، فإذا بليته للمفعول به قام واحدٌ من الثلاثة مقامَ الفاعِلِ وَوَجَبَ أن يُؤْتَى بمفعولين غيره ، تقول : أريت زيدا خيراً الناس ، وإن كان أشار بالحقِّ إلى أمرٍ مُشاهد بالبصر لم يَحْتَجْ إلى ذلك ، ويجوز أن يَعْنِي بالحقِّ اللهَ سبحانه وتعالى ، لأنَّ الحقَّ من أسمائه عزَّ وجلَّ ، فيقول : منذ عرفتُ اللهَ لم أشكَّ فيه ، وتكون الرؤية بمعنى المعرفة ، فلا يحتاج إلى تقدير مفعولٍ آخر ؛ وذلك مثلُ قوله تعالى : ﴿ وَآخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> ؛ أى لا تعرفونهم ، الله يعرفهم ، والمراد من هذا الكلام ذكرُ نعمِ الله عليه في أنه منذ عرَّفَ الله سبحانه لم يشكَّ فيه ، أو منذ عرف الحقَّ في العقائد الكلامية والأصولية والفقهية لم يشكَّ في شيء منها ؛ وهذه مزية له ظاهرة على غيره من الناس ، فإنَّ أكثرهم أو كلَّهم يشكَّ في الشيء بعد أن عرفه وتمتوره الشبهة والوساوس ويُران على قلبه وتختلجُه الشياطين عما أدَّى إليه نظره .

(١) سورة الأنفال ٦٠ .

— ٣٧٥ —

وقد رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا بَعَثَهُ إِلَى الْبَيْنِ قَاضِيًا ضَرَبَ عَلَى صَدْرِهِ  
وَقَالَ : « اللَّهُمَّ اهْدِ قَلْبَهُ ، وَثَبِّتْ لِسَانَهُ » ، فَكَانَ يَقُولُ : مَا شَكَّتُ بِمَدَّهَا فِي قَضَاءِ  
بَيْنِ اثْنَيْنِ .

وَرُوِيَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ لَمَّا قَرَأَ : ﴿ وَتَمِيمًا أَذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ <sup>(١)</sup> قَالَ :  
« اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا أَذُنَ عَلِيٍّ » ، وَقِيلَ لَهُ : « قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكَ » .

(١٥٩)

الأضل :

وَقَدْ يُصِّرْتُمْ إِنْ أَبْصَرْتُمْ ، وَقَدْ هُدَيْتُمْ إِنْ اهْتَدَيْتُمْ .

\*\*\*

النجح :

قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا نُمُودُ فَمَهْدَيْنَاهُمْ فَاسْتَجِبُوا أَلْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (٢) .

وقال بعض الصالحين : ألا إنهما نجدًا الخَيْر والشر ، فيجعل نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير .

قلت : النجد : الطريق .

واعلم أن الله تعالى قد نصب الأدلة ومكن المكلف بما أكمل له من العقل من الهداية ، فإذا ضلَّ فمِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ أَى .

وقال بعض الحكماء : الذى لا يقبل الحكمة هو الذى ضلَّ عنها ليست هى الضالة عنه .

وقال : متى أحسست بأنك قد أخطأت وأردت ألا تعود أيضا فتخطئ فانظر إلى أصل في نفسك حدث عنه ذلك الخطأ ، فاحتل في قلبه ، وذلك إنك إن لم تفعل ذلك عاد فتبَّت خطأ آخر . وكان يقال : كما أن البدن الخالي من النفس تفوح منه رائحة النتن ، كذلك النفس الخالية من الحكمة ؛ وكما أن البدن الخالي من النفس ليس يحس ذلك بالبدن



بل الذين لهم حسٌّ يُحِسُّونَهُ به ، كذلك النفس العَدِيَّة للحكمة ليس تحسُّ به تلك النفس ،  
 بل يُحِسُّ به الحكماء ؛ وقيل لبعض الحكماء : ما بالُ الناسِ ضلُّوا عن الحقِّ ؟ أُنقول :  
 إنهم لم تُخَلَقْ فيهم قوَّة معرفة ؟ فقال : لا ، بل خُلِقَ لهم ذلك ، ولكنهم استعملُوا  
 تلك القوَّة على غير وجهها ، وفي غير ما خُلِقَتْ له ، كالسِّمِّ تدفعه إلى إنسانٍ لِيَقْتُلَ به  
 عدوَّه فيَقْتُلُ به نفسه .

(١٦٠)

الأضل :

عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَأَرُدُّدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ .

\*\*\*

الشُّنْحُ :

الأصل في هذا قولُ الله تعالى : ﴿ اُدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عداوةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١) .

وروى المبرد في " الكامل ، عن ابن عائشة ، عن رجل من أهل الشام ، قال : دخلتُ المدينة ، فرأيتُ رجلاً راكباً على بغلة لم أر أحسنَ وَجْهاً ولا ثوباً ولا سَمْتاً ولا دابةً منه ، قال قلبي إليه ، فسألت عنه ، ف قيل : هذا الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ عليٍّ ، فامتلأ قلبي لهُ بفضاً ، وحسدتُ عليه أن يكون له ابن مثله ، فصرتُ إليه وقلتُ له : أنت ابن أبي طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت : فبك وبأبيك ! فلما انتفضي كلامي قال : أحسبك غريباً ؟ قلت : أجل ، قال : فعملُ بنا ، فإن احتججتُ إلى منزلي أنزلناك ، أو إلى مالي وأسَيْنَاك ، أو إلى حاجةٍ عاونَاك .

فانصرفْتُ عنه وما على الأرض أحدٌ أحبَّ إليَّ منه (٢) .

وقال محمود الوراق :

إني شكرتُ لظالمي ظلمي      وغفرتُ ذاكَ لهُ على علمي  
ورأيتُهُ أهْدَى إليَّ يداً      لَمَّا أبَانَ بجَهْلِهِ حِلْمِي  
رجعتُ إِسَاءَتُهُ عليه وإح      ساني فَعَادَ مُضَاعَفَ الْجُرْمِ

(١) سورة فصلت ٣٤ . (٢) الكامل ٢ : ٥ ، ٦ .

وَعَدَوْتُ ذَا أَجْرٍ وَمَحْمَدَةً      وَغَدَا يَكْسِبِ الظُّلْمَ وَالْإِثْمَ  
فَكَأَنَّمَا الْإِحْسَانُ كَانَ لَهُ      وَأَنَا الْمُسِيءُ إِلَيْهِ فِي الْحُكْمِ  
مَا زَالَ يَظْلِمُنِي وَأَرْحِمُهُ      حَتَّى بَكَيْتُ لَهُ مِنَ الظُّلْمِ

قال المبرد : أخذ هذا المعنى من قول رجل من قريش قال له رجل منهم : إني مررتُ  
بآل فلان وهم يشتُمُونَكَ شَتْمًا رَحِمَتْكَ مِنْهُ ؛ قال : أفسِمَعَتْنِي أقول إلا خيراً ! قال : لا ،  
قال : إياهم فارحم (١) .

وقال رجل لأبي بكر : لَأَشْتُمَنَّكَ شَتْمًا يَدْخُلُ مَعَكَ قَبْرُكَ ، فقال : مَعَكَ وَاللَّهِ  
يَدْخُلُ ، لَا مَعِيَ (٢) .

(١٦١)

الأفضل :

مَنْ وَصَّعَ نَفْسَهُ مَوَاضِعَ التَّهْمَةِ فَلَا يَكُومَنَّ مِنْ أَسَاءٍ بِهِ الظَّنُّ .

\*\*\*

الشرح :

رأى بعضُ الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً في دربٍ من دروب المدينة ومعه امرأةٌ فسأَمَ عليه ، فردَّ عليه ، فلما جاوزَه ناداه فقال : هذه زَوْجَتِي فلانة ، قال : يا رسول الله ، أَوْفِيكَ يُظَنُّ ! فقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِّ » .

وجاء في الحديث المرفوع : « دَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ » .  
وقال أيضاً : « لَا يَكْمَلُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَتْرُكَ مَا لَا بَأْسَ بِهِ » .

وقد أخذ هذا المعنى شاعرٌ فقال :

وزعمتَ أنك لا تَلُوطُ فقل لنا      هذا المُقَرَّطُ واقفاً ما يَصْنَعُ !  
شَهِدْتُ مَلاَحَتَهُ عَلَيْكَ بَرِيَّةٍ      وعلى المُرَيَّبِ شَوَاهِدٌ لَا تُدْفَعُ

— ٣٨١ —

(١٦٢)

الأصل :

مَنْ مَلَّكَ اسْتَأْثَرَ .

\* \* \*

الشَّرْح :

المعنى أن الأغلب في كلِّ ملك يستأثر على الرعية بالمال والعزِّ والجاه .

ونحو هذا المعنى قولهم : مَنْ غَلَبَ سَلَبَ ، ومن عَزَّ بَزَّ .

ونحوه قول أبي الطيّب :

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فإنَّ تَجِدُ      ذا عِفَّةٍ فَلِعَلَّهِ لَا يَظْلِمُ<sup>(١)</sup>

(١٦٣)

الأفضل :

مَنْ اسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ هَلَكَ ، وَمَنْ شَاوَرَ الرَّجَالَ شَارَكَهُمْ فِي عُقُوبِهِمْ .

\*\*\*

التيخ :

قد تقدّم لنا قولٌ كافٍ في المشورة مدحا وذما .

وكان عبدُ الملك بن صالح الهاشمي يذمّها ويقول : ما استشرتُ واحدا قطّ إلاّ تكبرّ علىّ وتصاغرتُ له ، ودخلته العِزّة ودخلتني الذلّة ، فأياك والمشورة وإن ضاقتُ عليك المذاهبُ ، واشتبهتُ عليك المسائل ، وأذاك الاستبدادُ إلى الخطأ الفادح .

وكان عبدُ الله بنُ طاهر يذهب إلى هذا المذهب ، ويقول : ماحكّ جلدك مثل ظفرك ؛ ولأنّ أخطيء مع الاستبداد ألفَ خطأ ، أحبُّ إلىّ من أن أُستشير وأرى بعين النقص والحاجة .

وكان يقال : الاستشارة إذاعة السرّ ، ومخاطرة بالأمر الذي ترومه بالمشاورة ، فربّ مستشارٍ أذاعَ عنك ما كان فيه فساد تديريك .

وأما المادحون للمشورة فكثير جدّا . وقالوا : خاطر من استبدّد برأيه .

وقالوا : المشورة راحةٌ لك ، وتعبٌ على غيرك .

وقالوا : من أكثر من المشورة لم يعدم عند الصواب مادحا ، وعند الخطأ عاذرا .

وقالوا : المستشير على طَرَف النَّجَاح ، والاستشارة مِن عَزْمِ الْأُمُور .

وقالوا : الْمَشُورَةُ لِقَاحُ الْعُقُولِ ، ورائد الصواب .

ومن أَلْفَظِهِمُ الْبَدِيعَةُ : ثَمَرَةُ رَأْيِ الْمُشِيرِ أَحْلَى مِنَ الْأَرْيِ الْمَشُورِ<sup>(١)</sup> .

وقال بَشَّار :

إِذَا بَلَغَ الرَّأْيُ النَّصِيحَةَ فَاسْتَعِنْ      بِعَزْمٍ نَصِيحٍ أَوْ مَشُورَةٍ حَازِمٍ<sup>(٢)</sup>  
وَلَا تَجْعَلِ الشُّورَى عَلَيْكَ غَضَابَةً      فَإِنَّ الْخَوَافِ عُدَّةٌ لِلْقَوَادِمِ

---

(١) الأرى : العسل ، والمشور : المستخرج . شرت العسل : استخرجه .

(٢) شرح مختار بشار ٣١٢ .

(١٦٤)

الأفضل :

مَنْ كَتَمَ سِرَّهُ كَانَتْ الْخَيْرَةُ فِي يَدِهِ .

\*\*\*

الشنخ :

قد تقدّم القولُ في السرِّ والأمر بكتّمانه ؛ ونذكرها هنا أشياءً أخرى .

من أمثالهم : مَقْتَلُ الرَّجُلِ بَيْنَ لَحْيَيْهِ .

دنا رجلٌ من آخر فسارّه ، فقال : إن من حق السرِّ التداوى .

كان مالكُ بنُ مسمع إذا سارّه إنسانٌ قال له : أظهره ، فلو كان فيه خيرٌ لما كان مكتوماً .

حكيمٌ يوصي ابنه : يا بُنَيَّ كُنْ جَوَاداً بِالْمَالِ فِي مَوْضِعِ الْحَقِّ ، ضَئِيفاً بِالْأَسْرَارِ عَنْ جَمِيعِ الْخَلْقِ ، فَإِنَّ أَحْمَدَ جُودِ الْمَرْءِ الْإِنْفَاقُ فِي وَجْهِ الْبَرِّ .

وَمِنْ كَلَامِهِمْ : سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ بِهِ فَقَدْ أَرَقَّتْهُ .

وقال الشاعر :

فَلَا تُفْشِرْ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ . فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحاً

أَلَمْ تَرَ أَنَّ غُيُورَةَ الرَّجَالِ لَا يَتْرَكُونَ أُدِيمًا صَحِيحًا !

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز : الْقُلُوبُ أَوْعِيَةُ الْأَسْرَارِ وَالشَّفَاهُ أَقْفَالُهَا ، وَالْأَلْسُنُ مَفَاتِيحُهَا

فليحفظ كلُّ امرئٍ مفتاحَ سِرِّهِ .



وقال بمض الحكاء : مَنْ أَفْشَى سِرَّهُ كَثُرَ عَلَيْهِ التَّامِرُونَ .  
 أَسَرَّ رَجُلٌ إِلَى صَدِيقٍ<sup>(١)</sup> سِرًّا ثُمَّ قَالَ لَهُ : أَفْهَمْتُ ؟ قَالَ لَهُ : بَلْ جَهَلْتُ ، قَالَ :  
 أَحْفِظْتَهُ ؟ قَالَ : بَلْ نَسِيتُ .  
 وَقِيلَ لِرَجُلٍ : كَيْفَ كَتَمْتُكَ السِّرَّ ؟ قَالَ : أَجْعِدُ الْمُخْبِرَ ، وَأَحْلِفُ لِلْمُسْتَخْبِرِ .  
 أَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ قَوْلَ الشَّاعِرِ :  
 إِذَا جَاوَزَ الْإِنْسَانُ سِرًّا فَإِنَّهُ يَنْتِ وَتَكْثِيرِ الْوُشَاةِ قَمِينَ<sup>(٢)</sup>  
 فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا أَرَادَ بِالْإِنْسَانِ إِلَّا الشَّفَتَيْنِ .

---

(١) : « صديقه » . (٢) قَيْن : خَلِيق .

(١٦٥)

الأبسل :

الفقر الموت الأكبر .

\*\*\*

الشَّخ :

في الحديث المرفوع : « أشقى الأشقياء مَنْ جُمِعَ عليه فقرُ الدنيا وعذاب الآخرة » .  
وأنى بُزُرْجَمهرَ فقيرٌ جاهل ، فقال : بئسما اجتمع على هذا البائس : فقرُ ينةِص دنياه،  
وجهلٌ يُفسدُ آخرته .

شاعر :

خُلِقَ المَالُ واليسارُ لقومٍ وأراني خُلِقْتُ للإملاقِ  
أنا فيما أرى بقيَّةُ قومٍ خُلِقُوا بعدَ قِسْمَةِ الأرزاقِ  
أَخَذَ السيَّاسيُّ هذا المعنى ، فقال في قصيدته الطويلة المعروفة بالساسانية :  
ليتَ شِعْرى لَمَّا بدا يقسمُ الأرَ زاقُ في أَىِّ مطبَقٍ كنتَ<sup>(١)</sup>  
قَرى على أحدِ جانِبَي دِينار :  
قُرِنتُ بالثُّججِ وبى كلُّ ما يراذُ من ممتنعٍ يُوجدُ  
وعلى الجانب الآخر :  
وكلٌّ من كنتُ له آلفاً فالإنسُ والجنُّ له أعبُدُ

(١) المطبق : السجن .

وقال أبو الدرداء : مَنْ حَفِظَ مَالَهُ فَقَدْ حَفِظَ الْأَكْثَرَ مِنْ دِينِهِ وَعِزُّهُ .

بعضهم :

وَإِذَا رَأَيْتَ صَعُوبَةً فِي مَطْلَبٍ فَاحْمِلْ صَعُوبَتَهُ عَلَى الدِّينَارِ

تَرَدَّدَهُ كَالظَّهْرِ الذَّلُولِ فَإِنَّهُ حَجَرٌ يَلِينُ قُوَّةَ الْأَحْجَارِ

وَمِنْ دَعَاءِ السَّلَفِ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ذُلِّ الْفَقْرِ وَبَطَرِ الْغِنَى .

(١٦٦)

الأصل :

مَنْ قَضَى حَقَّ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ فَقَدْ عَبْدَهُ .

\*\*\*

الشرح :

عَبْدَهُ بالتشديد ، أى اتخذهُ عَبْدًا ، يقال : عَبْدَهُ واستَعْبَدَهُ بمعنى واحد ؛ والمعنى بهذا الكلام مَدْحُ مَنْ لَا يَقْضِي حَقَّهُ ، أى من فعل ذلك بإنسان فقد استعبد ذلك الإنسان لأنه لم يفعلْ معه ذلك مكافأةً له عن حقِّ قضاء إِيَّاه ، بل فعل ذلك إنعاماً مَبْتَدَأً ، فقد استعبدَهُ بذلك<sup>(١)</sup> .

وقال الشاعر فى نقيض هذه الحال يخاطب صاحباً له :

كُنْ كَأَنْ لَمْ تَلَاقِنِي قَطُّ فِي النَّاسِ وَلَا تَجْعَلَنِي ذِكْرًا يَشُوقُنِي  
وَتَبَيَّنْ بَأَنِّي غَيْرُ رَاءٍ لَكَ حَقًّا حَتَّى تَرَى لِي حَقًّا  
وَبَأَنِّي مَفُوقُ أَلْفِ سَهْمٍ لَكَ إِنْ فُوقَتْ يَمِينُكَ فُوقًا

---

(١) ١ : « بهذا » .

(١٦٧)

الأُضَلُ :

لا طاعةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

هذه الكلمةُ قد رويتْ مرفوعةً ، وقد جاء في كلام أبي بكر : أطيعوني ما أطيعتُ الله ؛ فإذا عصيتهُ فلا طاعةَ لي عليكم .

وقال معاوية لشداد بن أوس: قم فاذا ذكر عليًا فانتقصه <sup>(١)</sup>؛ فقام شداد فقال: الحمد لله الذي افترض طاعته على عباده ، وجعل رضاه عند أهل التقوى أثرًا من رضا غيره ، على ذلك مضى أولهم ، وعليه مضى آخرهم . أيها الناس ، إن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر وإن الدنيا أكلٌ حاضر ، يأكل منها البرّ والفاجر ، وإن السامع المطيع لله لا حجة عليه وإن السامع العاصي لله لا حجة له ، وإنه لا طاعةَ للمخلوق في معصية الخالق ، وإذا أراد الله بالناس خيرًا استعمل عليهم صلحاءهم ، وقضى بينهم فقهاؤهم <sup>(٢)</sup> ، وجعل المال في سمحاتهم ، وإذا أراد بالعباد شرًا عمل عليهم سفهاؤهم ، وقضى بينهم جهلاؤهم ، وجعل المال عند بُخلائهم . وإن من إصلاح الولاية أن تُصلح قرناءها . ثم التفت إلى معاوية فقال : نصحك يا معاوية من أسخطك بالحق ، وغشك من أرضاك بالباطل ! فقطع معاوية عليه كلامه ، وأمرَ بإزاله ، ثم لطفه وأمرَ له بمال ، فلما قبضه قال : ألسن من السمحاء الذين ذكرت ؟ فقال : إن كان لك مالٌ غيرُ مال المسلمين أصبته حلالا ، وأنفقته إفضالا فنعم ، وإن كان مالُ المسلمين احتجبتَه دونهم أصبته إسرافا ، وأنفقته إسرافا ، فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ الْمُبْدِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

(١) في د « وتقصه » وهو مستقيم أيضا . (٢) في د « علماؤهم » .

(٣) سورة الإسراء ٢٧ .

(١٦٨)

الأضل :

لَا يُعَابُ الْمَرْءُ بِتَأْخِيرِ حَقِّهِ ، إِنَّمَا يُعَابُ مَنْ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ .

\*\*\*

الشرح :

لعل هذه الكلمة قالها في جواب سائل سأل : لِمَ أَخَّرْتَ المطالبةَ بِحَقِّكَ من الإمامة ؟ ولا بدّ من إضمار شيء في الكلام على قولنا وقول الإمامية ، لأننا نحن نقول : الأمرُ حَقُّه بالأفضلية وهم يقولون : إنه حَقُّه بالنصّ ، وعلى كِلَا التقديرين فلا بدّ من إضمار شيء في الكلام ؛ لأنّ لقائل أن يقول له عليه السلام : لو كان حَقُّكَ من غير أن يكون للمكلفين فيه نصيبٌ لجاز ذلك أن يؤخّر كالدين الذي يستحقّ على زيد ، يجوز لك أن تؤخّره لأنّه خالصٌ لك وحدك ؛ فأما إذا كان للمكلفين فيه حاجةٌ ماسّة لم يكن حَقُّكَ وحدك ؛ لأنّ مصالح المكلفين منوطةٌ بإمامتك دون إمامة غيره ، فكيف يجوز لك تأخير ما فيه مصلحة المكلفين ؟ فإذاً لا بدّ من إضمار شيء في الكلام . وتقديره : لا يُعَابُ المرء بتأخير حَقِّه إذا كان هناك مانعٌ عن طلبه ، ويستقيم المعنى حينئذٍ على المذهبين جميعاً ، لأنّه إذا كان هناك مانعٌ جاز تقديم غيره عليه ، وجاز له أن يؤخّر طلب حَقِّه خوفَ الفتنة ، والكلام في هذا الموضوع مُستقصى في تصانيفنا في علم الكلام .

(١٦٩)

الأُضْلُ :

الإِعْجَابُ يَمْنَعُ مِنَ الْإِزْدِيَادِ .

\*\*\*

الشَّنْحُ :

قد تقدّم لنا قولٌ مُقْنِعٌ في المُجَبِّ ؛ وإنّما قال عليه السلام : « يمنع من الإزدیاد » لأنّ المُعْجَبَ بنفسه ظانّاً أنّه قد بلغ الغرَضَ ، وإنّما يَطْلُبُ الزِّيَادَةَ مِنْ يَسْتَشِيرُ التَّقْصِيرَ لَا مَنْ يَتَخَيَّلُ الكَمَالَ ، وَحَقِيقَةُ المُعْجَبِ ظَنُّ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ اسْتِحْقَاقَ مَنْزِلَةٍ هُوَ غَيْرُهُ مُسْتَحَقٌّ لَهَا ؛ ولهذا قال بعضهم لرجل رآه مُعْجَباً بِنَفْسِهِ : يَسْرَنِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ النَّاسِ مِثْلَكَ فِي تَفْسِيكِ ، وَأَنْ أَكُونَ عِنْدَ نَفْسِي مِثْلَكَ عِنْدَ النَّاسِ ، فَتَمَتَّنِي حَقِيقَةُ مَا يَقْدَرُهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ ، ثُمَّ تَمَتَّنَى أَنْ يَكُونَ عَارِفاً بِعُيُوبِ نَفْسِهِ ، كَمَا يَعْرِفُ النَّاسُ عُيُوبَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الْمُعْجَبِ بِنَفْسِهِ .

وقيل لِلْحَسَنِ : مَنْ شَرُّ النَّاسِ ؟ قال : مَنْ يَرَى أَنَّهُ خَيْرُهُمْ .

وقال بعض الحكماء : الكاذب في نهاية البُعْدِ مِنَ الْفَضْلِ ؛ وَالْمُرَائِي أَسْوَأُ حَالاً مِنَ الْكَاذِبِ ، لِأَنَّهُ يَكْذِبُ فَعِلاً ، وَذَاكَ يَكْذِبُ قَوْلًا ، وَالْفِعْلُ أَكْثَرُ مِنَ الْقَوْلِ ؛ فَأَمَّا الْمُعْجَبُ بِنَفْسِهِ فَأَسْوَأُ حَالاً مِنْهُمَا ، لِأَنَّهُمَا يَرَيَانِ نَقْصَ أَنْفُسِهِمَا ، وَيُرِيدَانِ إِخْفَاءَهُ ، وَالْمُعْجَبُ بِنَفْسِهِ قَدْ عَمِيَ عَنْ عُيُوبِ نَفْسِهِ فَبَرَّاهَا مُحَاسِنًا وَيُبْدِيهَا .

وقال هذا الحكميمُ أيضاً : ثُمَّ إِنَّ الْمُرَائِيَّ وَالْكَاذِبَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِمَا كَمَلَّاحٍ خَافَ

رَمَكَا بِهِ الْفَرْقَ مِنْ مَكَانٍ نَخُوفٍ مِنَ الْبَحْرِ ، فَبَشَّرَهُمْ بِتَجَاوُزِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَجَاوَزَهُ لَثَلَا  
يَضْطَرُّوْنَ فَيَتَعَجَّلُ غَرَقَهُمْ .

وَقَدْ يُحَمَّدُ رِيَاءَ الرَّئِيسِ إِذَا قَصَدَ أَنْ يُقْتَدَى بِهِ فِي فِعْلِ الْخَيْرِ ، وَالْمُعْجَبُ لَا حَظَّ لَهُ  
فِي سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الْحَمْدَةِ بِحَالٍ .

وَأَيْضًا فَلَا تُنْكِ إِذَا وَعَظْتَ الْكَاذِبَ وَالرَّائِيَ فَنَفْسُهُمَا تَصَدِّقُكَ وَتَتَلَبَّهَمَا لِمَعْرِفَتِهِمَا  
بِنَفْسِهِمَا ، وَالْمُعْجَبُ فَلِجَهْلِهِ بِنَفْسِهِ يَظُنُّكَ فِي وَعْظِهِ لَاغِيَا ، فَلَا يَنْتَعِ بِمَقَالِكَ ، وَإِلَى هَذَا  
الْمَعْنَى أَشَارَ سُبْحَانَهُ بِقَوْلِهِ : ﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ <sup>(١)</sup> ، ثُمَّ قَالَ سُبْحَانَهُ :  
﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ لِإِعْجَابِهِمْ .  
وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ثَلَاثُ مُهْلِكَاتٍ : شُحٌّ مُطَاعٌ ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ  
بِنَفْسِهِ .

وَفِي الْمَثَلِ : إِنَّ إِبْلِيسَ قَالَ : إِذَا ظَفَرْتُ مِنْ ابْنِ آدَمَ بِثَلَاثٍ لَمْ أَطْلُبْهُ بغيرِهَا : إِذَا  
أُعْجِبَ بِنَفْسِهِ ، وَاسْتَكْثَرَ عَمَلَهُ ، وَنَسِيَ ذُنُوبَهُ .

وَقَالَتِ الْحِكْمَاءُ : كَأَنَّ الْمُعْجَبَ بِفِرْسِهِ لَا يَرُومُ أَنْ يَسْتَبْدِلَ بِهِ غَيْرَهُ ، كَذَلِكَ الْمُعْجَبُ  
بِنَفْسِهِ لَا يُرِيدُ بِحَالِهِ بَدَلًا ، وَإِنْ كَانَتْ رَدِيئَةً .

وَأَصْلُ الْإِعْجَابِ مِنْ حُبِّ الْإِنْسَانِ لِنَفْسِهِ ، وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « حُبُّكَ الشَّيْءَ  
يُعِمِّي وَيُصِمِّي » ، وَمَنْ عَمِيَ وَصَمَّ تَعَذَّرَ عَلَيْهِ رُؤْيُهُ عُيُوبَهُ وَسَمَاعُهَا ، فَلِذَلِكَ وَجَبَ عَلَى  
الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْعَلَ عَلَى نَفْسِهِ عِيُونًا تُعَرِّفُهُ عُيُوبَهُ ، نَحْوَ مَا قَالَ عُمَرُ : أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى أَمْرٍ  
أَهْدَى إِلَى عُيُوبِهِ .

وَيَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ إِذَا رَأَى مِنْ غَيْرِهِ سَيِّئَةً أَنْ يَرْجِعَ إِلَى نَفْسِهِ ، فَإِنْ رَأَى ذَلِكَ



موجوداً فيها نزعها ولم ينفل عنها ، فإ أحسن ما قال المتنبي :

ومن جهلت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى<sup>(١)</sup>

وأما التيه وماهيته فهو قريب من المعجب ، لكن المعجب يصدق نفسه وهما فيما يظن بها ، والتياه يصدقها قطعاً ، كانه متحير في تيه . ويمكن أن يفرق بينهما بأمر آخر ، ويقول : إن المعجب قد يُعجب بنفسه ولا يؤدي أحداً بذلك الإعجاب ، والتياه يضم إلى الإعجاب الغص من الناس والترفع عليهم ، فيستلزم ذلك الأذى لهم ، فكل تائه معجب ، وليس كل معجب تائها .

(١٧٠)

الأضل :

الأمرُ قَرِيبٌ ، وَالاصْطِحَابُ قَلِيلٌ .

\*\*\*

البُزْجُ :

هذه الكلمة تُذكرُ بالموتِ وسرعةِ زوالِ الدُّنيا ؛ وقال أبو العلاء :

نَفْسِي وَجِسْمِي لَمَّا اسْتَجَمَعَا صَدَمًا	شَرًّا إِلَى فَجَلِّ الْوَاحِدِ الصَّمَدِ
فَالْجِسْمُ يَعْذِلُ فِيهِ النَّفْسَ بِجَهْدٍ	وَتِلْكَ تَزْعُمُ أَنَّ الظَّالِمَ الْجَسَدُ
إِذَا هُمَا بَعْدَ طُولِ الصُّحْبَةِ افْتَرَقَا	فَإِنَّ ذَاكَ لِأَحْدَاثِ الزَّمَانِ يَدُ
وَأَصْبَحَ الْجَوْهَرُ الْحَسَّاسُ فِي عَيْنٍ	مُوصُولَةٍ وَاسْتِرَاحَ الْآخِرُ الْجَمَدُ

(١٧١)

الأضل :

قد أضاء الصُّبحُ لذي عَيْنَيْنِ .

\*\*\*

الشُّنُج :

هذا الكلامُ جارٍ بحِجَرَى المَثَلِ ، ومثله :

\* والشمسُ لا تَخْفَى عن الأبصارِ \*

ومثله :

\* إنَّ الغزَّالةَ لا تَخْفَى عن البَصَرِ \*

وقال ابن هانئٍ يمدح المعزَّ :

فاستيقظوا من رَقْدَةٍ وتنبَّهوا      ما بالصُّباحِ عن العُيونِ خفاء<sup>(١)</sup>  
ليست سماءُ الله ما ترونها      لكنَّ أرضاً تحتويه سماء

(١٧٢)

الأفضل :

ترك الذنب أهون من طلب التوبة .

\*\*\*

الشرح :

هذا حق ، لأن ترك الذنب هو الإحجام عنه ، وهذا سهل على من يعرف أثر الذنب على ماذا يكون ، وهو سهل من أن يواقع الإنسان الذنب ، ثم يطلب التوبة ، فقد لا يخلص داعيه إليها ، ثم لو خَلَص فكيف له بحصوله على شروطها ، وهي أن يندم على القبيح لأنه قبيح ، لا لخوف العقاب ، ولا لرجاء الثواب ، ثم لا يكفيه أن يتوب من الزنا وحده ، ولا من شرب الخمر وحده ، بل لا تصح توبته حتى تكون عامة شاملة لكل القبائح فيندم على ما قال ويود أنه لم يفعل ، ويعزم على ألا يعاود معصية أصلا ، وإن نقض التوبة عادت عليه الآثام القديمة والعقاب المستحق ولا الذي كان سقط بالتوبة على رأى كثير من أرباب غلم الكلام ؛ ولا ريب أن ترك الذنب من الأبداء أسهل من طلب توبته هذه صفتها .

وهذا الكلام جارٍ <sup>(١)</sup> تجرى المثل يضرب لمن يشرع في أمرٍ يخاطر فيه ، ويرجو أن يتخلص منه فيما بعد بوجه من الوجوه .

(١) د : « يجرى » .

(١٧٣)

الأُمتل<sup>١</sup> .  
كَمْ مِنْ أَكْلَةٍ تَمْنَعُ أَكْلَاتٍ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

أَخَذَ هَذَا الْمَنَى بِلَفْظِهِ الْحَرِيرِيُّ فَقَالَ فِي الْمَضَامَاتِ : « رُبَّ أَكْلَةٍ هَاضَتْ الْأَكْلَ ،  
وَمَنَعَتْهُ مَا أَكَلَ » ، وَأَخَذَهُ أَبُو الْعَلَاءِ الشَّاعِرُ فَقَالَ فِي سِنُونُرِهِ الَّذِي يَرْتِيهِ :  
أُرِدْتُ أَنْ تَأْكَلَ الْفِرَاحَ وَلَا      يَا كُوكَ الدَّهْرُ أَكَلَ مُضْطَهْدِ<sup>(١)</sup>  
يَا مَنْ لَذِيذَ الْفِرَاحِ الْوَقْعَةِ      وَيَحَاكَ هَلَّا قَنَعْتَ بِالْقَدْرِ  
كَمْ أَكْلَةٍ خَامَرَتْ حَشَا شَرِيهِ      فَأَخْرَجَتْ رُوحَهُ مِنَ الْجَسَدِ

\*\*\*

[ نَوَادِرُ الْمَكْثَرِينَ مِنَ الْأَكْلِ ]

وَكَانَ ابْنُ عِيَّاشِ الْمَنْتَوَفِ يُبَازِحُ الْمَنْصُورَ أَبَا جَعْفَرٍ فَيَحْتَمِلُهُ عَلَى أَنَّهُ كَانَ جَدًّا كَلَّهُ ؛  
فَقَدَّمَ الْمَنْصُورُ لِمَنْسَأَتِهِ يَوْمًا بَطْنَةً كَثِيرَةً الدَّهْنِ ، فَأَكَلُوا وَجَعَلُوا يَأْمُرُهُمُ بِالْأَزْدِيَادِ مِنَ الْأَكْلِ  
لَطِيفِيهَا ، فَقَالَ ابْنُ عِيَّاشِ : قَدْ عَلِمْتُ غَرَضَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّمَا تُرِيدُ أَنْ تَرْمِيَهُمْ مِنْهَا  
بِالْحُجَابِ - يَعْنِي الْهَيْصَةَ - فَلَا يَأْكُلُوا إِلَى عَشْرَةِ أَيَّامٍ شَيْئًا .  
وَفِي الْمَثَلِ : « أَكْلَةُ أَبِي خَازِجَةٍ » ؛ وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ وَهُوَ يَدْعُو اللَّهَ بِبَابِ الْكُتْمَةِ : اللَّهُمَّ

(١) ابن خلكان ١ : ١٣٨ .

مَيْتَةً كَمَيْتَةِ أَبِي خَارِجَةَ ، فَسَأَلُوهُ فَقَالَ : أَكَلْ بَذْجًا - وَهُوَ الْحَمَلُ - ، وَشَرِبَ وَطْبًا مِنْ اللَّبَنِ - وَيُرْوَى مِنَ التَّبِيدِ - وَهُوَ كَالْحَوْضِ مِنْ جُلُودٍ يَنْبَذُ فِيهِ ، وَنَامَ فِي الشَّمْسِ فَتَاتَ اللَّهُ تَعَالَى شَبَعَانِ رِيَّانَ دَفِئًا .

والعرب تعيّر بكثرة الأكل ، وتعيب بالجلشع والشره والنهم ، وقد كان فيهم قومٌ موصوفون بكثرة الأكل منهم معاوية ؛ قال أبو الحسن المدائني في « كتاب الأكلة » : كان يأكل في اليوم (١) أربع أَكَلَاتٍ أَخْرَاهُنَّ عُظْمَاهُنَّ ، ثُمَّ يَتَعَشَّى بِمَدَّهَا بِثَرِيدَةٍ عَلَيْهَا بَصْلٌ كَثِيرٌ ، وَدُهْنٌ كَثِيرٌ قَدْ شَمَلَهَا . وَكَانَ أَكْلُهُ فَاحِشًا يَأْكُلُ فَيُلَطِّخُ مِنْدِيلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةَ قَبْلِ أَنْ يَفْرُغَ ، وَكَانَ يَأْكُلُ حَتَّى يَسْتَلْقَى وَيَقُولُ : يَا غَلَامُ ، ارْفَعْ ، فَلِأَنِّي وَاللَّهِ مَا شَبِعْتُ وَلَكِنْ مَلِيتُ .

وَكَانَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ زِيَادٍ يَأْكُلُ فِي الْيَوْمِ خَمْسَ أَكَلَاتٍ أَخْرَاهُنَّ خَبِيَّةً بَعْسَلٍ ، وَيُوضَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَفْرُغَ الطَّعَامُ عَنَاقٌ أَوْ جَدَى فَيَأْتِي عَلَيْهِ وَحْدَهُ .

وَكَانَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الْمَصِيبَةِ الْعَظُمَى فِي الْأَكْلِ ، دَخَلَ إِلَى الرَّافِقَةِ فَقَالَ لِصَاحِبِ طَعَامِهِ : أَطْعِمْنَا الْيَوْمَ مِنْ خِرْفَانِ الرَّافِقَةِ ، وَدَخَلَ الْحَمَامُ فَأَطَالَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَأَكَلَ ثَلَاثِينَ خَرُوفًا بَثْنَيْنِ رَغِيْفًا ، ثُمَّ قَعَدَ عَلَى الْمَائِدَةِ فَأَكَلَ مَعَ النَّاسِ كَأَنَّهُ لَمْ يَأْكُلْ شَيْئًا .

وَقَالَ الشَّامِرُ بْنُ وَكَيْلٍ آلِ تَمْرُودٍ بْنُ الْعَاصِ : قَدِمَ سُلَيْمَانُ الطَّائِفَ وَقَدْ عَرَفْتُ أُسْتِجَاعَتَهُ ، فَدَخَلَ هُوَ وَعَمْرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَأَيُّوبُ ابْنُهُ إِلَى بُسْتَانٍ لِي هُنَاكَ يُعْرَفُ بِالرَّهْطِ فَقَالَ : نَاهِيكَ بِمَالِكَ هَذَا لَوْلَا جِرَارٌ فِيهِ ، قُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، إِنَّهَا لَيْسَتْ بِجِرَارٍ وَلَكِنَّهَا جِرَارُ الزَّيْبِ ، فَضَحِكْتُ ، ثُمَّ جَاءَ حَتَّى أَتَقَى صَدْرَهُ عَلَى غُصْنِ شَجَرَةٍ هُنَاكَ ، وَقَالَ : يَا شَمْرَدَلُ ، أَمَا عِنْدَكَ شَيْءٌ تُطْعِمُنِي ؟ وَقَدْ كُنْتُ أُسْتَعْدَدْتُ لَهُ ، فَقُلْتُ : بَلَى وَاللَّهِ عِنْدِي جَدَى كَانَتْ تَعْدُو عَلَيْهِ حَافِلَةٌ ، وَتَرُوحُ عَلَيْهِ أُخْرَى ، فَقَالَ : عَجَّلْ بِهِ ، فَجِئْتُهُ

(١) فِي « كُلِّ يَوْمٍ » .

به مشوياً كأنه عُكَّة سَمْنٍ ، فأَكَله لا يَدْعُو عليه عمر ولا ابنه ، حتَّى إذا بقيَ فَخَذ قال : يا عمر ، هَلُمَّ ، قال : إني صائمٌ . ثمَّ قال : يا سَمْرَدِل ، أَمَا عندك شَيْءٌ ؟ قلت : بلى ، دَجَاجَات خمس كأنهنَّ رِثْلَانِ النَّعَام ؛ فقال : هَاتِ ، فَأَتَيْتُهُ بهنَّ ، فكان يأخذُ برجل الدَّجَاجَةِ حتَّى يُمرِّئَ عِظَامَهَا ، ثمَّ يُبَلِّغُهَا ، حتَّى أَتَى عليهنَّ ، ثمَّ قال : وَيَحْك يا سَمْرَدِل ! أَمَا عندك شَيْءٌ ؟ قلت : بلى سَوِيْق كأنه قُرَاضَةُ الذَّهَبِ مَكْتُوتٌ بِعَسَلٍ وَسَمْنٍ ؛ قال : هَلُمَّ ، فبَجَّثُهُ بِمَسِّ تَغْيِيبٍ فِيهِ الرَّأْسُ ، فَأَخَذَهُ فَلَطَمَ بِهِ جَبْهَتَهُ حتَّى أَتَى عَلَيْهِ ، فلما فرغَ تَجَشَّأ كأنه صارخ في جُبٍّ ، ثمَّ التفت إلى طَبَاحِهِ فقال : وَيَحْك ! أَفَرَنْتَ مِنْ طَبِيخِكَ ؟ قال : نعم ؛ قال : وما هو ؟ قال : ثِيْفٌ وَثَمَانُونَ قِدْرًا ، قال : فَأَتَنِي بِهَا قِدْرًا قِدْرًا ، فَمَرَّضَهَا عَلَيْهِ ، وكان يأكل من كلِّ قِدْرٍ لَقْمَتَيْنِ أو ثَلَاثًا ، ثمَّ مسحَ يَدَهُ وَأَسْتَلَقَى عَلَى قَفَاهُ ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ ، وَوَضِعَتِ الْمَوَائِدَ ، فَقَعَدَ فَأَكَلَ مَعَ النَّاسِ كأنه لم يَطْعَمْ شَيْئًا .

قالوا : وكان الطعام الذي مات منه سُلَيْمَانُ ، أَنَّهُ قال لَدَيْرَانِي كَانَ صَدِيقَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ : وَيَحْك ! لَا تَقْطَعْنِي أَلْطَافَكَ الَّتِي كُنْتَ تُلَطِّفُنِي بِهَا عَلَى عَهْدِ الْوَلِيدِ أَخِي ؛ قال : فَأَتَيْتُهُ يَوْمًا بِزَنْبِيلَيْنِ كَبِيرَيْنِ أَحَدُهُمَا بَيْضٌ مَسْلُوقٌ ، وَالْآخَرَتَيْنِ ؛ فقال : لَقْمَنِيهِ ، فَكُنْتُ أَقْشِرُ الْبَيْضَةَ وَأَقْرِنُهَا بِالْتَّيْنَةِ وَالْقَمَةِ ، حتَّى أَتَى عَلَى الزَّنبِيلَيْنِ ، فَأَصَابَتْهُ تُخْمَةٌ عَظِيمَةٌ وَمَاتَ .

وَيُحْكِي أَنَّ عَمْرُو بْنَ مَعْدٍ يَكْرِبُ أَكْلَ عَنَزَاءٍ رَبَاعِيَةٍ وَفِرْقًا مِنْ ذُرَّةٍ وَالْفِرْقُ ثَلَاثَةُ أَصْعَ - وَقَالَ لَأَمْرَأَتِهِ : عَالِجِي لَنَا هَذَا الْكَبْشَ حتَّى أَرْجِعَ ، فَبَجَّعْتُ تُوْقَدَ تَحْتَهُ وَتَأْخُذَ عُضْوًا عُضْوًا فَتَأْكُلَهُ ، فَاطْلَعْتُ فَإِذَا لَيْسَ فِي الْقِدْرِ إِلَّا الْمَرَقُ ، فَسَامْتُ إِلَى كَبْشٍ آخَرَ فَذَبَحْتُهُ وَطَبَخْتُهُ ؛ ثُمَّ أَقْبَلَ عَمْرُو فَتَرَدَّتْ لَهُ فِي جَفْنَتِهِ الْمَجِينُ وَكَفَّاتُ الْقِدْرِ عَلَيْهَا ، فَدَّ يَدَهُ وَقَالَ : يَا أُمَّ ثَوْرَ ، دُونَكَ الْغَدَامُ ؛ قَالَتْ : قَدْ أَكَلْتُ ، فَأَكَلِ الْكَبْشَ كُلَّهُ ثُمَّ أَصْطَجِعْ وَدَعَاها إِلَى الْفِرَاشِ فَلَمْ يَسْتَطِعِ الْفِعْلَ ، فَقَالَتْ لَهُ : كَيْفَ تَسْتَطِيعُ وَيَدْنِي وَبَيْنَكَ كَبْشَانِ !

وقد رُوِيَ هذا الخبر عن بعض العرب ؛ وقيل : إنه أكل حُوراً<sup>(١)</sup> وأكلت امرأته حائلاً<sup>(٢)</sup> ، فلما أراد أن يدنوا منها وعَجَزَ قالت له : كيف تَصِلُ إلىَّ ويبي وبينك بعيران .

وكان الحجاجَ عظيمَ الأكل ؛ قال مسلم بن قتيبة : كنتُ في دارِ الحجاج مع ولده وأنا غلام ، فقيل : قد جاء الأميرُ ، فدخل الحجاج فأمر بتَنَوُّرِ فَنُصِبَ ، وأمر رجلاً أن يخبزَ له خبز الماء ، ودعا بسمك ، فأَتَوْهُ به ، فجعل يأكل حتى أكل ثمانين جاماً من السمك بثمانين رَغِيفاً من خبز الملة<sup>(٣)</sup> .

وكان هلالُ بن أشعرِ المازني موصوفاً بكثرة الأكل ، أكل ثلاثَ خِيفانٍ ثريد ، وأُسْتَسْقَى ، فجاءوه بِقِرْيَةٍ مملوءةٍ نبيذاً فوضعوا فمها في فمه حتى شربها بأسرها .

وكان هلال بن أبي بُرْدَةَ أْكولاً ، قال قصَّابُه : جاءني رسوُلُه سَحَرَةً فَأَتَيْتُهُ وبين يديه كَانُونٌ فيه جَمْرٌ وَتَيْسٌ ضَخْمٌ ، فقال : دونك هذا التيس فلذبحه فذبحته وسلخته ، فقال : أخرج هذا الكانونَ إلى الرواقِ وشرِّح اللحم وكبَّبه على النار ، فجعلتُ كلما استَوَى شيءٌ قَدَّمْتُهُ إليه حتى لم يبق من التيس إلا العظام وقطعةٌ لَحْمٍ على الجُرْ ، فقال لي : كُلْهَا ، فَأَكَلْتُهَا ، ثم شَرِبَ خَمْسَةَ أَقْداح ، وناولني قَدَحاً فشربته فهِزَّنِي ، وجاءته جاريةٌ بِبُرْمَةٍ فيها نَاهِضَانٌ<sup>(٤)</sup> ودَجَاجَتَانِ وأَرْغِفَةٌ ، فأَكَل ذلك كُلَّهُ ، ثم جَاءَتْهُ جاريةٌ أخرى بِقَصْعَةٍ مَغْطَاةٍ لا أدري ما فيها ، فضَحِك إلى الجارية ، فقال : وَيَحْك ! لَمْ يَبْقَ في بطني موضعٌ لهذا ، فضَحِكَتِ الجاريةُ وانصرفت ، فقال لي : الْحَقُّ بِأَهْلِكَ .

(١) الحائل : الناقة التي لم تحمل .

(٢) الناهض : فرخ العقاب .

(٣) الحوار : ولد الناقة .

(٤) الملة : الرماد الحار ..



وكان عَنبَسَةُ بْنُ زِيَادٍ أَكُولًا نَهْمًا ، فَخَدَّتْ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ قَالَ : دَعَانِي عُبَيْدُ اللَّهِ الْأَحْمَرُ ؛ فَقُلْتُ لَعَنَبَسَةُ : هَلْ لَكَ يَا ذُبْحَةُ — وَكَانَ هَذَا لَقَبَهُ — فِي إِيْتِيَانِ الْأَحْمَرِ ! . فَضَبَّيْنَا إِلَيْهِ ، فَلَبَّا رَأَاهُ عُبَيْدُ اللَّهِ رَجَبٌ بِهِ وَقَالَ لِلخَبَّازِ : ضَعْ بَيْنَ يَدَيِ هَذَا مِثْلَ مَا تَضَعُ بَيْنَ يَدَيِ أَهْلِ الْمَائِدَةِ كُلِّهِمْ ، فَجَعَلَ يَأْتِيهِ بِقَصْعَةٍ وَأَهْلُ الْمَائِدَةِ بِقَصْعَةٍ ، وَهُوَ يَأْتِي عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَتَاهُ بِجَدْيٍ فَأَكَلَهُ كُلَّهُ ، وَنَهَضَ الْقَوْمُ فَأَكَلَ كُلُّهُمْ مَا تَخَلَّفَ عَلَى الْمَائِدَةِ ، وَخَرَجْنَا فَلَقَيْنَا خَلْفَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَطَايَ ؛ فَقَالَ لَهُ : يَا خَلْفَ ، أَمَا تُعَذِّبُنِي يَوْمًا ؟ فَقُلْتُ لَخَلْفَ : وَيَحْكَ ! لَا تَجِدُهُ مِثْلَ الْيَوْمِ . فَقَالَ لَهُ : مَا تَشْتَهِي ؟ قَالَ : تَمْرًا وَسَمْنًا ، فَأَنْطَلِقُ بِهِ إِلَى مَنْزِلِهِ فَجَاءَ بِخَمْسِ جَلَالٍ <sup>(١)</sup> تَمْرًا وَجَرَّةَ سَمْنًا ، فَأَكَلَ الْجَمِيعَ وَخَرَجَ ؛ فَمَرَّ بِرَجُلٍ يَبْنِي دَارَهُ وَمَعَهُ مَائَةٌ رَجُلٍ ، وَقَدْ قَدَّمَ لَهُمْ سَمْنًا وَتَمْرًا ، فَدَعَاهُ إِلَى الْأَكْلِ مَعَهُمْ ، فَأَكَلَ حَتَّى شَكَّوهُ إِلَى صَاحِبِ الدَّارِ ، ثُمَّ خَرَجَ فَمَرَّ بِرَجُلٍ بَيْنَ يَدَيْهِ زَنْبِيلٌ فِيهِ خُبْزٌ أَرْزٍ يَابِسٌ بِسْمِسمٍ وَهُوَ يَبِيعُهُ فَجَعَلَ يَسَاوِمُهُ وَيَأْكُلُ حَتَّى أَتَى عَلَى الزَّنبِيلِ ، فَأَعْطَيْتُ صَاحِبَ الزَّنبِيلِ ثَمَنَ خُبْزِهِ .

وكان مَيْسِرَةُ الرَّأْسِ أَكُولًا ؛ حُكِيَ عَنْهُ عِنْدَ الْمُهَدِيِّ مُحَمَّدُ بْنُ الْمَنْصُورِ أَنَّهُ يَأْكُلُ كَثِيرًا ، فَاسْتَدْعَاهُ وَأَحْضَرَ فِيلًا ، وَجَعَلَ يَرْمِي لِسُكْلٍ وَاحِدٍ مِنْهُمَا رَغِيفًا حَتَّى أَكَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا تِسْعَةً وَتَسْعِينَ رَغِيفًا ؛ وَامْتَنَعَ الْفِيلُ مِنْ تَمَامِ الْمَائَةِ ، وَأَكَلَ مَيْسِرَةَ تَمَامَ الْمَائَةِ وَزَادَ عَلَيْهَا .

وكان أَبُو الْحَسَنِ الْمَلَّافُ وَالِدُ أَبِي بَكْرٍ بْنِ الْمَلَّافِ الشَّاعِرِ الْمَحْدَثِ أَكُولًا دَخَلَ يَوْمًا عَلَى الْوَزِيرِ أَبِي بَكْرٍ مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ ، فَأَمَرَ الْوَزِيرُ أَنْ يُؤَخَّذَ حِمَارُهُ فَيُذْبَحَ وَيُطَبَّخَ بِمَاءٍ وَمِلْحٍ ، ثُمَّ قُدِّمَ لَهُ عَلَى مَائِدَةِ الْوَزِيرِ ، فَأَكَلَ وَهُوَ يَظُنُّهُ لَحْمَ

(١) الجلال : جنج جلة ، وهو وعاء التمر يصنع من الخوص .

— ٤٠٢ —

البقر ، ويستطِيبُهُ حَتَّى آتَى عَلَيْهِ ، فَلَمَّا خَرَجَ لِيَرْكَبَ طَلَبَ الْحَارَّ ، فَقِيلَ لَهُ :  
فِي جَوْفِكَ .

وَكَانَ أَبُو الْعَالِيَةِ أَكُولًا ، نَذَرَتْ امْرَأَتُهُ حَامِلٌ إِنْ أَتَتْ بِذَكَرٍ تُشِيرُ إِلَى أَبِي الْعَالِيَةِ  
خَبِيرًا ، فَوَلَدَتْ غُلَامًا ، فَأَحْضَرَتْهُ ، فَأَكَلَ سَبْعَ جَفَانِ خَبِيرًا ، ثُمَّ أَمْسَكَ وَخَرَجَ ،  
فَقِيلَ لَهُ : إِنَّهَا كَانَتْ نَذَرَتْ أَنْ تُشِيرَ بِكَ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ لَوْ عَلِمْتُ مَا شَبَعْتُ إِلَى اللَّيْلِ .

(١٧٤)

الأبْصَلُ :

النَّاسُ أَعْدَاءُ مَا جَهِلُوا .

\*\*\*

البُخ :

هذه الكلمة قد تقدّمت وتقدّم منّا ذكرُ نظائرها . والمِلّةُ في أنّ الإنسان عدوّ ما يجهله أنّه يخاف من تقريعه<sup>(١)</sup> بالنقص وبعدم العلم بذلك الشيء ، خصوصا إذا ضيّقه نادٍ أو جُمع من الناس فإنّه تنصاعر نفسه عنده إذا خاضوا فيما لا يعرفه وينقص في أعين الحاضرين ، وكلّ شيء آذاك ونال منك فهو عدوك<sup>(٢)</sup> .

---

(١) د : « تعريضه » . (٢) أ : « فهو عدو لك » .

(١٧٥)

الأصل :

مَنْ اسْتَقْبَلَ وَجْهَ الْآرَاءِ عَرَفَ مَوَاقِعَ الْخَطَا .

\*\*\*

الشرح :

تد قالوا في الكل : شرّ الرأي الدّبريّ .

وقال الشاعر :

وحيرُ الرأي ما استقبلت منه      وليس بأنّ تتبّعهُ اتّباعا

وليس المراد بهذا الأمر سرعة فضل الحال لأثول خاطر ، ولأثول رأى ، إنّ ذلك خطأ ،  
وقديما قيل : دَعِ الرَّأْيَ يَنْبَ .

وقيل : كلّ رأي لم يخمر ويبيّت<sup>(١)</sup> فلا خير فيه .

وإنّما المنهى عنه تصييع الفرصة في الرأي ، ثمّ محاولة الاستدراك بمد أن فات  
وجهُ الرأي ، فذاك هو الزّأى الدّبريّ .

---

(١) د : « يث » .

(١٧٦)

الأضل :

مَنْ أَحَدَّ سِنَانَ الْغَضَبِ لِلَّهِ قَوِيَّ عَلَى قَتْلِ أَشِدَّاءِ الْبَاطِلِ .

\*\*\*

الشنخ :

هذا من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والكلمة تتضمن استعارة تدل على الفصاحة ؛ والمعنى أن من أدهف عزمه على إنكار المنكر ، وقوى غضبه في ذات الله ولم يخف ولم يراقب مخلوقا ؛ أعانه الله على إزالة المنكر ؛ وإن كان قويا صادرا من جهة عزيزة الجانب ، ومنها وقعت الكناية بأشداء الباطل .

(١٧٧)

الأضل :

إِذَا هَبْتَ أَمْرًا فَفَعَّ فِيهِ ، فَإِنَّ شِدَّةَ تَوَقُّيهِ أَعْظَمُ مِمَّا تَخَافُ مِنْهُ .

\*\*\*

الشُّنْح :

ما أحسنَ ما قالَ المتنبيُّ في هذا المعنى :

وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ مُبْدًى      فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا  
كُلٌّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَنْدِ      نَسْرٌ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا  
وقال آخر :

لَعَمْرُكَ مَا الْمَكْرُوهُ إِلَّا ارْتِقَابُهُ .      وَأَعْظَمُ مِمَّا حَلَّ مَا يُتَوَقَّعُ  
وقال آخر :

صُعُوبَةُ الرُّزْءِ تُلْقَى فِي تَوَقُّعِهِ      مُسْتَقْبَلًا وَانْقِضَاءَ الرُّزْءِ أَنْ يَقَعَا  
وكان يقال : تَوَسَّطِ الْخَوْفَ تَأْمَنْ .

وَمِنْ الْأَمْثَالِ الْعَامِّيَّةِ : أَمَّ الْمَقْتُولِ تَنَامَ ، وَأَمَّ الْمُهْدَدِّ لَا تَنَامَ .

وكان يقال : كُلُّ أَمْرٍ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَسَمَاعُهُ أَعْظَمُ مِنْ عِيَانِهِ .

وقال قوم من أهل المِلَّةِ وَلَيْسُوا عِنْدَ أَصْحَابِنَا مُصِيبِينَ : إِنَّ عَذَابَ الْآخِرَةِ التَّوَعَّدُ بِهِ  
إِذَا حُلَّ بِمُسْتَحْقِيهِ وَجَدُّوهُ أَهْوَنَ مِمَّا كَانُوا يَسْمَعُونَهُ فِي الدُّنْيَا ؛ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِحَقِيقَةِ ذَلِكَ .

(١٧٨)

الأصل :

آلَةُ الرِّياسَةِ سَعَةُ الصَّدْرِ .

\*\*\*

الشرح :

الرئيس محتاج إلى أمور ، منها الجود ، ومنها الشجاعة ، ومنها — وهو الأهم — سعة الصدر ، فإنه لا تتم الرئاسة إلا بذلك .

وكان معاوية واسع الصدر كثير الاحتمال ، وبذلك بلغ ما بلغ .

\*\*\*

[ سعة الصدر وما ورد في ذلك من حكايات ]

ونحن نذكر من سعة الصدر حكايتين دالتين على عظم محله في الرئاسة ، وإن كان مذموماً في باب الدين ، وما أحسن قول الحسن فيه وقد ذكر عنده عقيب ذكر أبي بكر وعمر ، فقال : كانا والله خيراً منه ، وكان أسودَ منهما .

الحكاية الأولى :

وفد أهل الكوفة على معاوية حين خطب لابنه يزيد بالعمد بعده ، وفي أهل الكوفة هاني بن عروة المرادي — وكان سيّداً في قومه — فقال يوماً في مسجد دمشق والناس حوله : العجب لمعاوية يريد أن يفسرنا على بيعة يزيد ، وحاله حاله ، وما ذاك والله بكائن ! وكان

في القوم غلامٌ من قريش جالسا ، فتحمل الكلمة إلى معاوية ، فقال معاوية : أنت سمعت هائثا يقولها ؟ قال : نعم ، قال : فاخرج فأنت حلقته ، فإذا خفت الناسُ عنه فقل له : أيها الشيخ ، قد وصلتُ كلمتك إلى معاوية ، ولستَ في زمن أبي بكر وعمر ، ولا أحبُّ أن تتكلم بهذا الكلام فإنهم بنو أمية ، وقد عرفتَ جراتهم وإقدامهم ، ولم يدعني إلى هذا القول لك إلا النصيحة والإشفاق عليك ، فانظر ما يقول ؛ فأنتي به .

فأقبل الفتى إلى مجلس هاني ، فلما خفت من عنده دنا منه فقصَّ عليه الكلام وأخرجه مخرج النصيحة له ، فقال هاني : والله يابن أخي ما بلغت نصيحتك كلَّ ما أسمع ؛ وإنَّ هذا الكلام لكلامُ معاوية أعرفه ! فقال الفتى : وما أنا ومعاوية ! والله ما يعرفني ؛ قال : فلا عليك ، إذا لقيته فقل له : يقول لك هاني : والله ما إلى ذلك من سبيل ، انمض يابن أخي راشداً !

فقام الفتى فدخل على معاوية فأعلمه ، فقال : نستمين بالله عليه .

ثم قال معاوية بعد أيام للوفد : ارفعوا حوائجكم - وهاني فيهم - فعرضَ عليه كتابه فيه ذكرُ حوائجه ، فقال : يا هاني ، ما أراك صنعتَ شيئا ، زدْ ؛ فقام هاني فلم يدع حاجةَ عرضتْ له إلا وذكرها ، ثم عرضَ عليه الكتاب فقال : أراك قصرتَ فيما طلبتَ ، زدْ ، فقام هاني فلم يدع حاجةَ لقومه ولا لأهل مصره إلا ذكرها ، ثم عرضَ عليه الكتاب ، فقال : ما صنعتَ شيئا ، زدْ ، فقال : يا أمير المؤمنين ، حاجةٌ بقيتْ ، قال : ما هي ؟ قال : أن أتولَّى أخذَ البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين بالعراق ؛ قال : افعَلْ ، فَا زِلْتُ لمثل ذلك أهلا ؛ فلما قدِمَ هاني العراق قام بأمر البيعة ليزيد بمَعُونَةٍ من الغيرة بنِ شُعبة وهو الوالي بالعراق يومئذ .



### وأما الحكاية الثانية :

كان ماله يُحمِل من اليمين إلى معاوية ؛ فلما مرَّ بالمدينة وثبَّ عليه الحسينُ بنُ عليّ عليه السلام ، فأخذه وقسمه في أهل بيته ومواليه ، وكتب إلى معاوية : من الحسين بن عليّ إلى معاوية بن أبي سفيان ، أما بعد ، فإنَّ عيراً مرّت بنا من اليمين تحمِل مالاً وحُللاً وعنباً وطيباً إليك لتودعها خزائن دمشق ، وتعملُ بها بعد النهرِ بنى أبيك ، وإنِّي احتجتُ إليها فأخذتها . والسلام .

فكتب إليه معاوية : من عند عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن عليّ : سلامٌ عليك ، أما بعد ، فإنَّ كتابك ورد عليّ تذكرُ أن عيراً مرّت بك من اليمين تحمِل مالاً وحُللاً وعنباً وطيباً إلى لأودعها خزائن دمشق ، وأعلَّ بها بعد النهرِ بنى أبي ، وأنتك احتجت إليها فأخذتها ولم تكن جديراً بأخذها إذ نسبتها إلى ، لأنَّ الوالى أحقّ بالمال ، ثم عليه المخرج منه ، وإيم الله لو ترك ذلك حتى صار إلى ، لم أبخسك حظك منه ، ولكني قد ظننتُ يابن أخى أن في رأسك نزوةً وبودى أن يكون ذلك في زمانى فأعرف لك قدرك ، وأتجاوزَ عن ذلك ؛ ولكني والله أتخوِّف أن تتبلى بمن لا يُنظرك فواق ناقةً ، وكتب في أسفل كتابه :

يا حسين بن عليّ اليس ما	جئت بالسائق يوماً في العِلل
أخذك المال ولم تُؤمر به	إن هذا من حسين لعجل
قد أجزأناها ولم نغضب لها	واحتمكنا من حسين ما فعمل
يا حسين بن عليّ ذا الأمل	لك بعدى وثبة لا تُحتمل
وبودى أننى شاهدُها	فأليها منك بالخلق الأجل
إننى أرهب أن تصلى بمن	عنده قد سبق السيف العذل

وهذه سعة صدرٍ وفراصة صادقة .

— ٤١٠ —

(١٧٩)

الأصل :

أزجر المِسيءِ بِثَوَابِ الْمُحْسِنِ .

\*\*\*

الشرح :

قد قال ابن هاني المغربي في هذا المعنى :

لولا انبعاثُ السَّيْفِ وهو مُسلَّطٌ في قتلهم قتلتهُمُ النِّعماءُ

فأفصح به أبو العتاهية في قوله :

إذا جازيتَ بالإحسانَ قوماً زجرتَ المذنبينَ عن الذُّنوبِ

فألكَ والتناولُ من بعيدٍ ويمكنك التناولُ من قريبٍ

(١٨٠)

الأضل :

أخضد الشر من صدر غيرك ، بقلعه من صدرك .

\* \* \*

الشنخ :

هذا يفسر على وجهين :

أحدهما أنه يريد : لا تضمر لأخيك سوءاً ، فإنك لا تضمر ذاك إلا يضمر هو لك سوءاً ،  
لأن القلوب يشعر بعضها ببعض ، فإذا صفوت لواحد صفاك .  
والوجه الثاني أن يريد : لا تعظ الناس ولا تنههم عن منكر إلا وأنت مُقلع عنه ،  
فإن الواعظ الذي ليس بركي لا ينجع<sup>(١)</sup> وعظه ، ولا يؤثر نهيه .  
وقد سبق الكلام في كلا المعنيين .

---

(١) : « ينفذ » .

(١٨١)

الأصل :

اللَّجَاجَةُ تَسْلُ الرِّأْيَ .

\*\*\*

الْبُزْخُ :

هذا مشتق من قوله عليه السلام : « لا رأى لمن لا يُطاع » ، وذلك لأن عدم الطاعة هو اللجاجة ، وهو خُلُقٌ يتركب من خُلُقَيْن : أحدهما الكِبَرُ ، والآخر الجهل بعواقب الأمور وأكثر ما يعتري الولاة لما يأخذهم من العِزَّة بالإثم .

ومن كلام بعض الحكماء : إذا اضطرت إلى مُصاحبة السلطان ، فابدأ بالفحص عن معتاد طبعه ، ومألوف خلقه ، ثم استحدث لنفسك طبعاً ففرغه في قالب إرادته ، وخلقاً تركبه مع موضع وفاقه حتى تسلم معه ، وإن رأيت يهوى فناً من فنون المحبوبات فأظهر هواك لضد ذلك الفن ، ليُبعد عنك إرهابه ، بل ويسكثر سكونه إليك ، وإذا بدا لك منه فعل ذميم فإياك أن تبدأه فيه بقولٍ ما لم يستبدل فيه نُصحك ، ويستدعى رأيك ؛ وإن استدعى ذاك فليكن ما تفاوضه فيه بالرفق والاستعطاف ، لا بالخشونة والاستنكاف ، فيَحْمِله اللجاج المركب في طيع الولاة على ارتكابه ، فكل والٍ لجوج ، وإن علم ما يتعقبه لجاجه من الضرر ، وأن اجتنابه هو الحسن .

(١٨٢)

الأضل :

الطمع رِقْ مُؤَبَّدٌ .

\*\*\*

الشَّخ :

هذا المعنى مطروقٌ جدًّا ، وقد سبق لنا فيه قولُ شافٍ .

وقال الشاعر :

تَعَفَّفْ وَعِشْ حُرًّا وَلَا تَكُ طَامِعًا      فَا قَطَّعِ الْأَعْنَاقَ إِلَّا الطَّامِعُ

وفي المثل : أطمع من أشعب ؛ رأى سَلَالًا يصنِّع سَلَّةً ، فقال له : أوسِّعها ؛ قال :  
ما لكَ وذالك ؛ قال : لعلَّ صاحبها يُهْدِي لِي فيها شيئًا .

ومرَّ بمَكْتَبٍ وغلَّامٌ يقرأ على الأستاذ : ﴿ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ ﴾ ، فقال : قم بين يَدَيَّ  
حَفِظْكَ اللهُ وَحَفِظْ أَبَاكَ ، فقال : إنما كُنتَ أقرأ وَرَدِي ، فقال : إنكُرتَ أَنْ تُفْلِحَ  
أو يُفْلِحَ أبوك !

وقيل : لم يكن أطمعُ من أشعب إلا كلبُه ، رأى صورة القمر في البئر فظنَّه رغيها ،  
فألقي نفسه في البئر يطلبه ، فمات .

(١٨٣)

الأبْضَلُ :

ثَمَرَةُ التَّفْرِيطِ النَّدَامَةُ ، وَثَمَرَةُ الْحَزْمِ السَّلَامَةُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

قد سبق من الكلام فى الحزم والتفريط ما فيه كفاية . وكان يقال : الحَزْمُ مَكَّةٌ يُوجِبُهَا كَثْرَةُ التَّجَارِبِ ، وَأَصْلُهُ قُوَّةُ الْعَقْلِ ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ خَائِفٌ أَبَدًا ، وَالْأَحْمَقُ لَا يَخَافُ ، وَإِنْ خَافَ كَانَ قَلِيلَ الْخَوْفِ ، وَمَنْ خَافَ أَمْرًا تَوَقَّاهُ ، فَهَذَا هُوَ الْحَزْمُ .

وكان أبو الأسود الدَّوَلِيُّ مِنْ عُقَلَاءِ الرِّجَالِ وَذَوِى الْحَزْمِ وَالرَّأْيِ ، وَحَكَى أَبُو الْعَبَّاسِ الْمُهَرَّبِيُّ قَالَ : قَالَ زِيَادُ لَأَبِي الْأَسْوَدِ - وَقَدْ أَسَنَ - : لَوْلَا ضَعْفُكَ لَأَسْتَعْمَلْنَاكَ عَلَى بَعْضِ أَعْمَالِنَا ، فَقَالَ : أَلَلَّصَّرَاعَ يَرِيدُنِي الْأَمِيرُ ! قَالَ زِيَادُ : إِنَّ لِلْعَمَلِ مِثْلُونَ ، وَلَا أُرَاكَ إِلَّا تَضَعِفُ عَنْهُ ، فَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ :

زَعَمَ الْأَمِيرُ أَبُو الْمَغِيرَةِ أَنْسَى      شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ دَنَوْتُ مِنَ الْبَيْلِ  
صَدَّقَ الْأَمِيرُ لَقَدْ كَبِهْتُ وَإِنَّمَا      نَالَ الْمَكَارِمَ مِنْ يَدْبٍ عَلَى الْعَصَا  
يَا بَا الْمَغِيرَةِ رُبَّ أَمْرٍ مُبْهِمٍ      فَرَجَّتُهُ بِالْحَزْمِ مِنْنَى وَالذَّهَا  
وكان يقال : مِنَ الْحَزْمِ وَالتَّوَقُّى تَرْكُ الْإِفْرَاطِ فِي التَّوَقُّى .

لَمَّا نَزَلَ بِمَعَاوِيَةَ الْمَوْتُ وَقَدِمَ عَلَيْهِ يَزِيدُ ابْنُهُ فَرَأَاهُ مُسَكِّنًا لَا يَتَكَلَّمُ ، بَكَى وَأَنْشَدَ :  
لَوْ فَاتَ شَيْءٌ يُرَى لَفَاتَ أَبُو      حَيَّانَ لَا عَاجِزٌ وَلَا وَكَلُ  
أَلْحَوْلَ الْقَلْبِ الْأَرِيبُ وَلَا      تَدْفَعُ يَوْمَ الْمَنِيَةِ الْحَلِيلُ

(١٨٤)

الأضل :

مَنْ لَمْ يُنَجِّهِ الصَّبْرُ ، أَهْلَكَهُ الْجُرْعُ .

\*\*\*

الشَّيْخُ :

قد تقدّم لنا قولُ شافٍ في الصَّبْر والجُرْع .

وكان يقالُ : ما أحسن الصَّبْر لولا أن النفقة عليه من العمر ! أخذه شاعر فقال :

وَإِنِّي لأَدْرِي أَنَّ فِي الصَّبْرِ رَاحَةً وَلَكِنْ إِتِّفَاقٌ عَلَى الصَّبْرِ مِنْ عُمْرِي

وقال ابن أبي العلاء يستبطن بمض الرؤساء :

فَإِنْ قِيلَ لِي صَبْرًا فَلَا صَبْرَ لِلَّذِي غَدَا بِيَدِ الْإِيَّامِ تَقْتُلُهُ صَبْرًا

وَإِنْ قِيلَ لِي عَذْرًا فَوَاللَّهِ مَا أَرَى لِمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا إِذَا لَمْ يَجِدْ عَذْرًا

فإن قلت : أى فائدة في قوله عليه السلام : « مَنْ لَمْ يُنَجِّهِ الصَّبْرُ أَهْلَكَهُ الْجُرْع » ؟ وهل

هذا إلا كقول مَنْ قال : « مَنْ لَمْ يَجِدْ مَا يَأْكُلْ ضَرَّهُ <sup>(١)</sup> الْجُرْع ؟ » .

قلت : لو كانت الجهة واحدة ، لكان الكلام عبثا ، إلا أن الجهة مختلفة ، لأن معنى كلامه

عليه السلام مَنْ لَمْ يَخْلُصْهُ الصَّبْرُ مِنْ هَوَمِ الدُّنْيَا وَنُحُومِهَا هَلَكَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْآخِرَةِ

بما يستبدله من الصبر بالجرع ؛ وذلك لِأَنَّهُ إِذَا لَمْ يَصْبِرْ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ يَجْزِعُ ، وَكُلَّ جَازِعٍ آثِمٌ

وَالْإِثْمُ مَهْلِكٌ ، فَلَمَّا اخْتَلَفَتِ الْجِهَةُ وَكَانَتْ تَارَةً لِلدُّنْيَا وَتَارَةً لِلْآخِرَةِ لَمْ يَكُنِ الْكَلَامُ عَبْثًا بَلْ

كَانَ مُفِيدًا .

(١) في د : « أهلكه » .

( ١٨٥ )

الأصل :

وَأَعْجَبًا أَنْ تَكُونَ أُلْخَافَةُ بِالصَّحَابَةِ وَلَا تَكُونَ بِالصَّحَابَةِ وَالْقَرَابَةِ .

قال الرضی رحمہ اللہ تعالیٰ وقد روى له شعر قريب من هذا المعنى وهو :  
فَإِنْ كُنْتَ بِالشُّورَى مَلَكْتَ أُمُورَهُمْ فَكَيْفَ بِهَذَا وَالْمُشِيرُونَ غُيْبُ ! (١)  
وَإِنْ كُنْتَ بِالْقَرَابَةِ حَبَجْتَ خَصِيمَهُمْ فَغَيْرُكَ أَوْلَى بِالنَّبِيِّ وَأَقْرَبُ

\*\*\*

الشرح :

حديثه عليه السلام في النثر والنظم المذكورين مع أبي بكر وعمر ، أمّا النثر فإلى عمر توجيهه لأنّ أبا بكر لما قال لعمر : امدد يدك ، قال له عمر : أنت صاحب رسول الله في المواطن كلّها ، شدتها وورعائها ، فامدد أنت يدك ، فقال على عليه السلام : إذا احتججت لاستحقاقه الأمر بصحبته إياه في المواطن كلّها ، فهلا سلّمت الأمر إلى من قد شرّكه في ذلك ، وزاد عليه « بالقرابة » ! وأما النظم فوجهه إلى أبي بكر ؛ لأنّ أبا بكر حاجّ الأنصار في السقيفة . فقال : نحن عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيضته التي تفقأت عنه ، فلما بويع احتجّ على الناس بالبيعة ، وأنها صدرت عن أهل الحلّ والعقد ، فقال على عليه السلام : أمّا احتجاجك على الأنصار بأنك من بيضة رسول الله صلى الله عليه وآله ومن قومه ، فغيرك أقرب نسباً منك إليه ، وأما احتجاجك بالاختيار ورضا الجماعة بك ، فقد كان قوم من جملة الصحابة غائبين لم يحضروا العقد فكيف يثبت !

واعلم أن الكلام في هذا تتضمنه كتب أصحابنا في الإمامة ، ولهم عن هذا القول أجوبة ليس هذا موضع ذكرها ..

تم الجزء الثامن عشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد  
ويليه الجزء التاسع عشر



## فهرس الكتب\*

- ٦٥ - ومن كتاب له عليه السلام إلى معاوية . . . ٢١- ٧
- ٦٦ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى عبد الله بن العباس ٢٨
- ٦٧ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى قثم بن العباس وهو عامله على مكة ٣٠
- ٦٨ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى سلمان الفارسي قبل أيام خلافته ٣٩-٣٤
- ٦٩ - من كتاب له عليه السلام كتبه إلى الحارث الحمداقي ٤٢،٤١
- ٧٠ - من كتاب له عليه السلام إلى سهل بن حنيف وهو عامله على المدينة ٥٢
- ٧١ - من كتاب له عليه السلام إلى المنذر بن الجارود ٥٤
- ٧٢ - من كتاب له عليه السلام إلى عبد الله بن العباس ٦٠
- ٧٣ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية ٦٢
- ٧٤ - من حلف له عليه السلام كتبه بين ربيعة واليمن ٦٦
- ٧٥ - من كتاب له عليه السلام إلى معاوية من المدينة في أول ما يبيع له بالخلافة ٦٨
- ٧٦ - من وصية له عليه السلام عند استخلافه إياه على البصرة . . . ٧٦
- ٧٧ - من وصية له عليه السلام لعبد الله بن العباس أيضا لما بعثه للاحتجاج على الخوارج . . . ٧١

---

(\*) وهي الكتب الواردة في كتاب نهج البلاغة .

— ٤١٨ —

٧٨ - من كتاب له عليه السلام أجب به أبا موسى الأشعري عن كتاب

٧٤ كتبه إليه

٧٧ - ٧٩ - من كتاب له عليه السلام لما استخلف إلى أمراء الأجناد

## فهرسالموضوعات \*

٢١- ٧	ذكر بقية الخبر عن فتح مكة
٤٣، ٤٢	الحارث الأعور ونسبه
٥١- ٤٣	نبذ من الأقوال الحكيمة
٥٧- ٥٥	ذكر المنذر وأبيه الجارود
	حكمه عليه السلام ومواعظه ، ويدخل في ذلك المختار من أجوبة مسائله وكلامه
٤١٦- ٨٢	القصير في سائر أغراضه
١٢٦-١٢٣	نبذ مما قيل في الشيب والخضاب
١٣٠-١٢٨	نبذ مما قيل في المروءة
١٤٨-١٤٣	نبذ وحكايات مما وقع بين يدي الملوك
١٥٤-١٥٢	في مجلس قتيبة بن مسلم الباهلي
١٦٧-١٥٩	أقوال وحكايات حول الحق والمغفارين
١٧١	خباب بن الأرت
٢٠٨-٢٠٦	محمد بن جعفر والمنصور
٢٧٠، ٢٦٩	محنة ابن المقفع
٣٠٩-٢٨٥	فصل في نسب بني مخزوم وطرف من أخبارهم
٤٠٢-٣٩٧	نوادير المكثرين من الأكل
٤٠٩-٤٠٧	سمة الصدر وما ورد في ذلك من حكايات

\* وهى الموضوعات الواردة في شرح نهج البلاغة .









